باري ج. كيمب

تشريح حضارة

ترجمة: أحمد محمود

134

المشروع القومى للترجمة

تشريح حضارة

تأليف

بارى ج. كيمب

ترجمة

أحمد محمود

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٠

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Ancient Egypt

Anatomy of Civilization

by

Barry J. Kemp

Routledge - London, 1991

مقدمة المؤلف

كيف ينبغى لنا دراسة مجتمع الإنسان؟ إن القرار فى هذا الشأن قرارنا نحن. فليس هناك نظام شديد الصرامة يحدد لنا ما نفعله. وبإمكاننا أن نتبع العرف ونجمع سلسلة من الفصول عن الخلفية الجغرافية، والتاريخ حقبة حقبة، والدين، والفنون، والأدب، والمؤسسات وهلم جرا. مثل هذه الخطة سوف ترضى شغفنا الفطرى بالمنطق والترتيب. وهى سوف تخلق مناطق من المعرفة تتناسب مع التقسيمات العريضة للموضوعات الخاصة بنظام التعليم لدينا، حيث الثقافة تراكم للملاحظات والأحكام التى تجمعت حول ترتيب تقليدى للموضوعات. إلا أننا لو فعلنا ذلك وتركنا دراستنا عند هذا الحد، وكان المجتمع الذى نتولى دراسته مختلفاً عن مجتمعنا نحن اختلافاً بيناً، فلن نجد فى أيدينا سوى كتالوج فخيم للصفات الغريبة عنا. قد نشعر بالرضا بزيادتنا لرقعة معارفنا، بل ربما اجتذبتنا النتائج اجتذاباً شديد العمق من الناحية العاطفية بما لها من غرابة. غير أنه ستفوتنا رؤية حقيقة مهمة ؛ إنها حقيقة غاية فى بساطتها وشديدة فى جوهريتها إلى حد أنه من الابتذال تكرارها.

فى الماضى والحاضر، نحن جميعاً – قراء هذا الكتاب وقدماء المصريين على السواء – أفراد من نفس النوع ، Homo sapiens الإنسان العاقل الذى يتمتع بمخ لم يتغير من الناحية الفيزيقية منذ ظهور نوعنا. إننا جميعاً نشترك الآن، وكنا نشترك فى الماضى، فى وعى مشترك وطبقة مشتركة من السلوك اللاواعى . كما أننا نواجه الآن، وكنا نواجه فى الماضى، الخبرة الأساسية ذاتها: أى العيش كفرد متفرد فى أهميته، يتطلع إلى العالم الذى يبتعد عن دائرة الحياة اليومية نحو مجتمع أرحب ذى ثقافة ومؤسسات مشتركة، وإلى مجتمعات أبعد، ومجتمعات "أجنبية" تقع بعدها، وجميعها فى سياق الأرض والسماء وقوى الحظ والقدر ومشيئة كائنات فوق طبيعية، والآن، فى عصرنا الحديث، قوى القوانين العلمية الثابتة. إننا نعيش ونحافظ على رشدنا على أساس الطريقة التى تختار بها عقولنا من ذلك السيل الذى لا ينقطع من التجارب التى تتزاحم حولنا وتنساب أمامنا من المهد إلى اللحد وترتبها لنا على هيئة

أنماط. وتلك الأنماط ، وما يصدر عنها من ردود أفعال - في صورة كلام لا يدوم، وعلى هيئة مؤسسات وآثار أكثر ديمومة - هي ثقافتنا. فالثقافة تبدأ كعلاج ذهني لحماية أنفسنا من أن تطغى علينا المعلومات التي تجمعها حواسنا، حيث نصنف بعض العناصر على أنها مهمة وغيرها على أنها تافهة. وخلال ذلك نفهم كنه العالم.

لقد أعطانا التعلم المتراكم، في القرن العشرين الميلادي، ميزة ضخمة على أسلافنا في التكنولوجيا وسلسلة المهارات الذهنية التي يمكننا بها استكشاف الكون وخلق أعداد كبيرة من الصور المنطقية. ولكننا يجب ألا نفهم ذلك خطأ على أنه زيادة في الذكاء. فالذكاء ليس معرفة. إنه القدرة على إعطاء شكل منطقي لتلك المعرفة كالتي لدى المرء. وفي الإطار الذي خلقه قدماء المصريين كي يتكيفوا مع ظاهرة الوعي الإنساني - أي مجالات الوجود التي تبتعد عن كل إنسان - يجب أن نفترض أنهم كانوا على ما نحن عليه من ذكاء (أو عدم ذكاء). وهذه هي رسالة البيولوجيا المهمة، الخاصة بحقيقة أننا جميعاً من نفس النوع. والتقدم لم يحولنا إلى كائنات أسمى.

وعندما ننظر إلى الحضارة المصرية القديمة فنحن نواجه بكل وضوح المنتج الخاص بنظرة عقلية تختلف تمام الاختلاف عن نظرتنا. ولكن إلى أي حد يعود ذلك إلى كونها قديمة؟ هل هناك شيء غير عادي فيما يتعلق بـ «العقل القديم»؟ هل يعكس نظرة تختلف عما في الديانات والفلسفات الشرقية (أي في الشرق الأقصى)، مثلاً؟ ليس هناك معيار سهل لقياس درجات الاختلاف في مثل هذه الأمور. فالديانات والفلسفات الشرقية غالباً ما يكون لها أدب أكثر اتساعاً وشكل أكثر ترابطاً من الديانة المصرية، التي اعتمدت اعتماداً كبيراً على الرمز التصويري في نقل رسالتها التي نمت، في غيبة منافسين جادين، وفي عالم لم يشعر فيه أحد بضرورة ابتكار شكل أكثر إقناعاً واكتمالاً من أشكال الاتصال. ولم يكن الإقناع ضرورياً قط. غير أن هذه مسألة عرض وليس جوهر. إن الاختلاف الأساسي هو اختلاف تاريخ. فقد ظلت الديانات والفلسفات الشرقية قائمة لكي تتوافق مع العالم الحديث وتتخذ مواقعها فيه، وهي بذلك متاحة بشكل مباشر للأغراب، كما وجدت في صفوفها المدافعين عنها لتعليم الأغراب. وإذا كان لدينا الجهد والوقت لأمكننا تعلم لغاتها، والعيش بين الناس أنفسهم، واستيعاب ثقافتهم، والغوص إلى الحد الذي يمكننا معه إعادة خلق العمليات العقلية في عقولنا

نحن. والعكس صحيح، بنفس القدر. والواقع أن العالم الشرقى أبدى قدرة أكبر بكثير على الدخول فى العقل الغربى من قدرة العالم الغربى على الدخول فى العقل الشرقى.

إن هذه القدرة على تخطى الحدود الثقافية مظهر مهم من مظاهر الطبيعة المشتركة اشتراكاً تاماً وتخص الوعى الإنسانى. فكل سبل الإدراك موجودة فى كل منا، غير أن استفادتنا منها، والقيمة التى نعطيها لها، تتنوع تبعاً لثقافتنا.

إذن فالصعوبة الأساسية بالنسبة للفكر المصرى ظرفية. فالتغيرات الثقافية المتعاقبة كبيرة الحجم – تداخل مصر فى العالم الهلينيستى، واعتناق المسيحية، ودخول الإسلام – أبادت الفكر المصرى القديم باعتباره عملية حية منذ زمن بعيد، وأدت إلى ضياع معظم أدبه وقضت عليه. والكثير الذى كان يفهم مباشرة عن طريق الرمز أو تداعى الكلمات اختفى للأبد. ومع أن بعض الزوار الإغريق حاولوا تسجيل انطباعاتهم عن جوانب الديانة المصرية، فلم يتكون لدى الكهنة المصريين فى زمن مبكر الاهتمام الكافى بتفسير معتقداتهم بشكل مقنع للأغراب، وهى عملية لو حدثت لأدت وحدها إلى تعديلات داخلية مهمة. ولذلك لم يمكن إعادة خلق الفكر المصرى كنظام فكرى حى. إلا أن هذا حدث خاص بالتاريخ أكثر منه دليلا على كيفية أنه كان لا بد أن يحل محله شىء آخر، لكونه «بدائياً». وفى جنوب وجنوب شرقى آسيا – «الشرق» بعينه – لم يحدث ذلك. فقد سمحت الاستمرارية الأساسية للتطورات الممتدة بأن تحتل مكان الأنظمة الفكرية التى تضرب بجذورها فى الماضى العتيق وأصبحت عناصر مهمة من عناصر العالم الحديث. وفعلت اليهودية والمسيحية الشىء نفسه، غير أنهما فى حد ذاتهما جزء من الثقافة الغربية. فهما لا تبدوان غريبتين علينا، رغم أنهما نشأتا فى الأصل بين مجموعة من جيران مصر القديمة. وبإمكاننا، كما كان الحال فى الماضى، أن ندخل عملياتهما الفكرية ونخرج منها دون أن نعى الوعى الكامل بغرابتهما، لأن لغتهما وصورهما جزء من العملية التى نصنف بها الواقع فى الغرب منذ مولدنا.

ومع أن وضع المصادر القديمة، أو قوة جاذبيتها، قد انتقص إلى حد كبير، فلا تزال طرق التفكير التى نواجهها فيها موجودة معنا. إنها تتجلى فى طرق كثيرة. وقد نجمع على تسميتها بـ «الفكر الأساسى». إذ نظل حساسين للرموز ومستجيبين لها، خاصة عندما تتصل بالهويات الجمعية: من العلاقات المدرسية إلى الأعلام

والأناشيد القومية، وصور الزعماء، والملابس وعمارة المحاكم. وفى أوقات الشدة يظهر على سطح وعينا قبول تلك القوة الحساسة الموجودة فى الظواهر والأشياء غير الحية، من الطقس إلى الجمادات الساكنة التى نلعنها. وخلال حياتنا يتراوح خيالنا دائماً بين استيعاب الواقع وتفسيره وارتياد عوالم الأسطورة والخيال. وأنا أدرك أثناء كتابتى لهذا الكتاب أننى أخلق فى عقلى صوراً آمل أن تكون مطابقة للطريقة التى كانت عليها الأشياء فى مصر القديمة. كما أعرف أنه كلما ازدادت محاولتى لفهم الحقائق، كان ما أكتبه أكثر تأملاً ويبدأ فى الامتزاج مع عالم الخيال التاريخى، وهو شكل حديث من أشكال الأسطورة. إن مصرى القديمة عالم متخيل بصورة كبيرة، وإن كنت أتمنى ألا يكون من السهولة بمكان إظهارها على أنها تغاير فى حقيقتها المصادر القديمة الأصلية. إن تأملى تحده بعض الشيء الاعتبارات المهنية – فأنا أتمنى أن أظل مخلصاً للمصادر – كما يرجع ذلك أيضاً فى بعضه إلى الطبيعة البحثية الخاصة بالعقل الذى أملكه. فلو كان لدى خيال أكثر حرية وإبداعاً، لربما تحولت عمليات تكوين الصور التى أستعملها لفهم المصادر القديمة بدلاً من ذلك إلى خلق عوالم مختلفة قدر الإمكان عن الواقع. والكاتب الموهوب فى هذه الناحية بإمكانه خلق أساطير بأكملها وعوالم متخيلة تعيش بحيوية فى العقل وكأننا عشناها كأماكن حقيقية. والواقع أن القرن العشرين شهد ازدهار أدب الخيال الذى تقوم فيها الأساطير المخترعة بالدور الرئيسى. وهى تكتب وتقرأ للتسلية (ولذلك فالمرء يأمل أن هناك فئة حدودية واضحة من الأدب الحديث التى تنشد المصداقية، بينما هى من الخيال –مثلث بيرمودا/نوع «الحقائق التى تحير العلماء») غير أن هذا يعكس القيمة التى نضيفها إلى مثل هذه الأشياء. وعبء الإنسان هو ارتباطه الوثيق بوسائل النجاة من عالم الخيال الداخلى هذا: ذلك العالم الخاص بلا محدودية الأماكن والكائنات والمواقف والعلاقات المنطقية غير المرئية. ونحن نسمى بعضها ديناً، والبعض أحلام اليقظة، والبعض نتاج القوى الفنية أو الفروق الاعتباطية البحثية أو العلمية، ولا نتفق فى نهاية الأمر على ما تعنيه جميعاً.

إن اقتفاء خطوات هذا الجانب الإبداعى من الفكر الأساسى يبدأ بطريقة خادعة فى سهولتها، وبلغة مجازية من التشخيص والتشبيه. 'غير أنى أسمع خلفى دائماً/عجلة الزمن المجنحة تسرع على مقربة (Andrew Marvell, Ad 1621-67, 'To his Coy Mistress') .

كتب هذا على أنه شعر ولا ينبغى أن نراه على أنه أى شىء آخر. ولكن عقولنا يمكنها أن تختار الجرى وراء الصور. خذ العجلة مثلاً. إنها رمز الحركة، وتبين الملاحظة العامة أن الوقت والحركة مرتبطان ببعضهما، ذلك أنه خلال فترة من الزمن تتلاشى الحركة دون تقديم طاقة مما يجعل آلة الحركة الأبدية أحد المستحيلات. إلا أننا بقولنا إنهما «مرتبطان» related نستعير كلمة إنجليزية تستخدم استخداماً أكثر شيوعاً عند الحديث عن العائلات و «أقاربها» : أى الأعمام والأخوال والأخوات وهلم جرا. لقد دخلنا بالفعل عالم الرمال المتحركة الخاص بلعبة اللغة. ويشجعنا العالم الحديث على السعى وراء إحدى المصالح بحيث يكون الوقت والحركة مرتبطين من خلال دراسة الديناميكا الحرارية. غير أننا نستطيع بطريقة خيالية جعل المخلوق الذى يوفر الحركة لـ'عجلة الزمن المجنحة' تشخيصاً للحركة ذاتها: ربما كان مخلوقاً أنثوياً أشبه بالسناطور. ومن خلال توسيع المدلول الذى تقدمه الكلمة الإنجليزية related، يمكننا القول بطريقة مختزلة إن الحركة كانت ابنة الزمن، أو زوجته، حسب الطريقة التى رأينا بها منطق علاقتهما - سواء أكانا غير متساويين أم متساويين من حيث مكانتهما. وقد نمضى بأسلوب فنانى القرن التاسع عشر لنبدع رسماً مجازياً رمزياً. غير أنه فى نهاية الأمر سيكون مقدراً علينا ألا نفعل سوى الانغماس فى فكرة هزلية. إن بمقدورنا صرف النظر عن هذا النوع من التخمين لأن نمو المعرفة العقلانية قد فتح سبيلاً أكثر تعقيداً وإرضاء ومصداقية بالنسبة لاهتمامنا بالوقت والحركة ، وهو ما حدث فى الفيزياء . إلا أن كثرة سبل التخمين - اختيار الأساطير - كان أمراً لا يملكه الأقدمون. لقد صنعوا تداعيات عقلية هزلية، وهو مازال فى إمكاننا القيام به. وغالباً ما كانت تنشأ من تشابهات تقوم على الصدفة بين الكلمات - جناس - إلى حد أنه يمكننا القول بأن فكرهم الدينى قام على لعبة اللغة. غير أنهم ربطوا بها معياراً مختلفاً تماماً من القيم. ومثل هذه الأشياء صارت شظايا من حقائق خطيرة.

لم يتكون لدى قدماء المصريين اهتمام بمفهوم الكون باعتباره ميزاناً ذا قوتين متعارضتين ؛ إحداهما موجهة نحو النظام. والأخرى نحو الاضطراب. إن أسطورة حورس وست (سوف تناقش فى الفصل الأول) كانت محاولتهم المجازية، التى اتخذت شكلاً منطقياً أمكن التعبير عنه بالكلمات والصور التى كانت تحت أيديهم، لإدراك

الإحساس الفكرى بأن هذه كانت حقيقة عظيمة خفية. وكانت تلك هى الطريقة التى هربوا بها من ذلك الإحساس المرعب بمعرفة شيء ما ، ومع ذلك لا تتوافر القدرة على قوله بشكل كامل. ونحن نقلل من شأن الإدراك الفكرى للواقع فى العالم القديم إن نحن تعاملنا مع الأسطورة والرمز حسب قيمهما الظاهرية، باعتبارها صوراً مثيرة للتساؤل وشظايا متناثرة من الحكايات التى لا معنى لها إلى حد ما. ونحن إن رفضنا لغة الأسطورة القديمة المكتوبة والرمزية باعتبار أنه ليس لها مشروعية عقلانية، يجب ألا نتسرع فى الوقت نفسه فى رفضنا للأفكار أو الأحاسيس الكامنة وراءها. فهى قد تكون كذلك جزءاً من الفكر الأساسى وذات صفة عالمية.

إن بقاء نفس سبل الفكر التى كانت مفتوحة أمام الأقدمين فى العقل الحديث يشكل جزءاً من الجهاز العقلى الذى يمكننا به فهم الماضى. ولنضرب مثلاً محدداً على ذلك. فأمام أبى الهول العظيم بالجيزة يقف معبد ذو طراز فريد ليس عليه رسم واحد يدلنا على ما كان يمثله بالنسبة لمن أقاموه. ووسيلتنا الوحيدة لاكتشاف ذلك هى أن نراه فى ضوء ما نعرفه عن الديانة المصرية القديمة. وبذلك فسر اثنان من الباحثين الألمان الأمر بالشكل التالى: غرفتا طقوس فى الشرق والغرب لممارسة الطقوس الخاصة بشروق الشمس وغروبها، وعمودان أمام كل منهما كانا يرمزان إلى ذراعى وساقى إلهة السماء نوت. صحن المعبد فناء مفتوح يحيط به صفوف من الأعمدة تضم أربعة وعشرين عموداً. وكانت تلك الأعمدة تمثل ساعات اليوم والليلة الأربع والعشرين. وإذا افترضنا للحظة أن بإمكاننا الاتصال بالبناة الأقدمين وسؤالهم إن كان هذا صحيحاً أم لا، فقد نحصل على رد بالإيجاب أو السلب. ولكننا كذلك قد نجدهم يجيبون قائلين: إننا لم نفكر فى ذلك من قبل، غير أنه صحيح رغم ذلك، بل اكتشاف فى واقع الأمر. قد تكون تلك هى إجابتهم لأن الديانة المصرية كانت نظاماً مفتوحاً من الفكر برز فيه التداعى الحر للأفكار بصورة كبيرة. وواقع الأمر أنه ليست لدينا طريقة لأن نعرف فى آخر الأمر إذا ما كانت مجموعة من التخمينات البحثية، التى قد تكون صحيحة إلى حد ما بالنسبة لروح الفكر القديم وتحمل قدراً جيداً من المعلومات التى استقتها من المصادر المتاحة، قد مرت بالفعل فى يوم من الأيام فى عقول الأقدمين. إن الكتب الحديثة والمقالات البحثية توضح بكل بساطة الأمر بلغة غربية عصرية. ونحن كباحثين ندفع بتطور الديانة المصرية إلى الأمام الآن بدون قصد، وبدون تفكير فى العادة.

وبسبب طبيعة العقل المشتركة والمتسعة، إلى جانب تشابه المواقف التى يجد فيها الأفراد والمجتمعات أنفسهم، ينبغى أن يكون هدف دراسة المجتمعات السابقة فى واقع الأمر مثل هدف دراسة المجتمعات الحالية التى تختلف عن مجتمعاتنا. ولأن الزمن قد أتى على الكثير من الأدلة، فإن على المؤرخين وعلماء الآثار أن يكرسوا وقتاً أطول بكثير للأمور الفنية ، لمجرد وضع حقائق أساسية يمكن ملاحظتها ملاحظة مباشرة فى المجتمعات المعاصرة. والحفائر الأثرية أحد هذه المناهج الفنية. غير أن الاهتمام بمناهج البحث لا يجب أن تعمى أعيننا عن حقيقة أن مرور الزمن لا يحدث فرقاً للهدف النهائى: وهو دراسة تنويعات النمط العقلى ورد الفعل السلوكى التى خلقها الإنسان كى يتعايش مع الواقع المحيط به. والتسلسل التاريخى يمكننا من تتبع الأنماط المتغيرة على مر الزمان ورسم خريطة للتقدم نحو عالمنا الحديث. غير أن أى اهتمام أكثر مما يجب بـ"التاريخ" - أى بالتواريخ ورصد الأحداث - يمكن أن يصبح حاجزاً دون رؤية مجتمعات الماضى وحضاراته حسبما كانت عليه بالفعل: أى حلول مشاكل الفرد والوجود الجمعى التى يمكن أن نضيفها لسلسلة المشاكل البارزة فى العالم المعاصر.

ونحن بقولنا "رسم خريطة للتقدم" ننحاز إلى معتقد بعينه: وهو أن البشرية فى أنحاء العالم تتجه نحو انتصار عالمى للمنطق والقيم الغربية، وأن الأساليب القديمة بصورة عامة قد حلت محلها أساليب جديدة أفضل. قد نقبل صدق ذلك بالنسبة للتكنولوجيا والفهم العقلانى للظواهر الطبيعية. إلا أن المعرفة العقلانية ثبت أنها أكثر هشاشة بكثير من المعرفة المتعلقة بدلالة الأشياء الأكثر عمقاً التى يشعر الناس أن الدين ينقلها. والنوع الثانى له قدرة على البقاء وفاعلية توحى بأنه يحتل موقعاً لصيقاً بقلب الفكر الإنسانى. وهو جزء من الفكر الأساسى. وأى إنسان لديه شك فى ذلك ينبغى عليه أن يتأمل واحداً من أهم التطورات فى العالم المعاصر: وهى ظهور الأيديولوجيا الإسلامية من جديد كقوة لها نفوذها من الناحيتين السياسية والفكرية. ويرى الملايين من الناس هذه الأيديولوجيا على أنها نمط جرى إعطاؤه الشرعية حديثاً ، يفهم العالم ويخلق نموذجاً مقبولاً بالنسبة للمجتمع. وهو بديل على نفس القدر من القوة والثقة اللتين يتمتع بهما أى منتج من منتجات التراث الغربى للعقل مستمد من اليونان الكلاسيكية. وهو يربط السلسلة المدهشة من الأدوات العقلية من أجل

تحقيق غاية مشتركة: وهى كيفية بناء الواقع. ولسنا بحاجة إلى أن نجول ببصرنا بعيداً بحثاً عن أمثلة لإذعان البشرية السعيد فيما يتعلق بخلط المنطق بالأسطورة. والاندماج فى الثقافة الغربية الحديثة، عبر التراث اليهودى-المسيحى ذى المشهد المقدس الذى يقوم على جغرافية فلسطين الألف الثانية قبل الميلاد وما جاورها من بلاد، هو فى حد ذاته غريب غرابة أى ظاهرة فكرية أخرى. ولكن بما أننا نراها «من الداخل» فنحن نقبل ما فيها من عدم تساوق، حتى ونحن لا نؤمن بها الإيمان الواجب. وإذا كنا نؤمن، فحينئذ تتوافر سلسلة من التكيف بين العلم والمسيحية لتقديم العون. إن العقل البشرى مستودع يبعث على العجب وهو يحفل بما يحفل به أى متحف من الآثار الفكرية دون أن تنقصه الكتب المرشدة لجعل ما هو غريب يبدو مألوفاً. وإمكانية الإثبات بالمنطق الصارم ليست سوى معيار عرضى ومهنى فى المقام الأول بالنسبة لقبول أى قدر من المعرفة. وتتصل معرفة الناس جميعاً بمعظم الأشياء - أى «المعرفة العاملة» اليومية الخاصة بهم - اتصالاً وثيقاً بالأسطورة، وهى إلى حد ما أسطورة بحق. فنحن لا يمكننا أن نستبعد الأسطورة أكثر مما ينبغى أو أن نرعاها، ذلك أنها وجه لا فكاك منه من وجوه العقل البشرى.

إن حقيقة كون المعرفة العقلانية لا تحل محل المعتقدات غير العقلانية والأيديولوجيات ورموز القوى السياسية الرجعية، أو تجعلها تتآكل أو تطردها بمثابرة وعناد، يمكننا ردها إلى طبيعة العقل. ونحن نتعايش مع المعرفة الجديدة بخلق أساطير صغيرة، أو نماذج عقلية، منها . وهذه العملية هى الجانب الإبداعى فى الفكر الأساسى. فنحن لم نتعود استخدام كلمة "أسطورة" ، بهذه الكيفية، كى نشير إلى الأجزاء شديدة العقلانية من المعرفة. إننا نستخدم عبارات من قبيل «يدرك كذا إدراكاً مبهماً أو عاماً» و«وجود معرفة سطحية بكذا». إن فى عقلى عدداً ضخماً من رقع المعرفة التى من هذا القبيل: الطريقة التى تعمل بها آلة الاحتراق الداخلى، وطبيعة الكهرباء، وغيرها وغيرها. وقد يكون الكثير من الحقائق خاطئاً، وبعض العناصر قد يساء فهمه، ومن المؤكد أن الصور بشكل عام غير مكتملة بقدر محزن. وإذا كنت صادقاً مع نفسى فإن كثيراً من معرفتى (وربما كلها) الخاصة بمجال تخصصى - وهو علم المصريات - يقوم على الأساس ذاته. ومن المؤكد أن الأفكار التى أخرجت الكتاب هى كذلك. غير

أنى، إن أردت ذلك، يمكننى ربط أساطيرى الصغيرة ونماذجى العقلية بصلة قرابة إلى قدر ضخم من المعلومات المخزونة فى الكتب وغيرها من أنواع المصادر. وهذا هو الفرق الأساسى بين ما قد نسميه اصطلاحاً "الأسطورة العقلانية" – ما لدى من"معرفة" الفيزياء النووية العاملة غير الوافية بطريقة مضحكة – والأسطورة غير العقلانية أو الأصيلة. ويتيح لنا التقدم الاختيار فى أساطيرنا والقدرة على التخلص من تلك التى نجد أنها غير ملائمة.

وتكشف الثقافات القديمة (والثقافات البدائية التى لا تزال قائمة) الطرق التى تتم بها عملياتنا العقلية الأساسية، وقد أزيل عنها ذلك الرداء المعقد الذى لفتها فيه المعرفة الحديثة. كما تكشف عن أن المجتمعات المعقدة نشأت واستمرت بنجاح فترات طويلة دون الكثير من المعرفة الحقة بالعالم بأية صورة من الصور. ويعود هذا إلى عنصر ثالث من عناصر التكوين البشرى (إضافة إلى الأسطورة والمعرفة): وهى الاستراتيجيات الحدسية من أجل البقاء. ويصور قدماء المصريين ذلك فى مناطق عديدة. فهم لم تكن لديهم معرفة بالاقتصاد كموضوع مجرد. ومع ذلك تصرفوا تصرفاً حدسياً كـ"إنسان اقتصادى"، الأمر الذى سنناقشه فى الفصل السادس. والشىء نفسه حدث فى السياسة. ومعظمنا لا يزال على هذا المنوال. فنحن يمكننا الوصول إلى أجزاء ضخمة من المعرفة الحقيقية والنظرية الخاصة بالاقتصاد والسياسة، وسوف تكون بحوزتنا أساطير تتعلق بهذه الموضوعات. إلا أننا فى حياتنا اليومية سوف نطبق استراتيجيات البقاء الغريزية التى قد تعمل على نحو معاكس لذواتنا العقلانية، أو لأساطيرنا.

ولكى نفهم الثقافة – ثقافتنا وثقافة الآخرين – لا بد أن نفهم شيئاً خاصاً بالعقل البشرى. فالثقافة هى تجلى الطرق المحلية والخاصة التى ترتب بها عقولنا عالم الحياة الشخصية والعالم الذى وراءه. والعالم الذى وراءه يتركب فى جزء منه من المجتمع – الذى يدرك إدراكاً متشظياً فى شكل لمحات ومن خلال القراءة والسمع – وفى جزء آخر من الإطار المنطقى غير المرئى، الذى يخلقه الفلاسفة فى الغالب فى عقولهم، فى محاولة منهم لإيجاد نظام مطلق ومدلول يدرسه الآخرون – بقيتنا – أو يوقرونه أو يستخدمونه أو يدركونه إدراكاً مبهماً وحسب على أنه أسطورة. إنهما عنصرا العالم الأكثر اتساعاً – أى المجتمع المادى والإطار الفكرى – اللذان يتداخلان تداخلاً مستمراً

من الناحية العملية. وبذلك فإن قواعد المجتمع تعكس باستمرار مجموعة من الأفكار المشفرة أو تعززها هذه المجموعة من الأفكار، أى "الأيديولوجيا".

ومن الناحية النظرية، فإنه ما دامت الاختلافات فى الشخصية وفى الموقع المحلى والطارئ تتضافر كى تضمن أنه ليس هناك شخصان متشابهان تمام التشابه، فإن هناك من الثقافات بقدر ما يوجد من البشر. غير أن عنصراً مهماً من عناصر الفكر الأساسى هو أمنية أن يكون الإنسان جزءاً من مجموعة أكبر ذات هوية مميزة تقوم على اللغة أو الدين أو المواطنة أو الطائفة أو المجتمع المحلى أو الإخضاع المشترك أو فكرة الانتماء لإحدى الدول. وهى بتقديمها لوسيلة الهوية تعد واحدة من أقوى مصادر النظام العقلى وأكثرها إغراء. فهى توفر إجابة جاهزة لسؤال: من أنا؟ والثقافة من الناحية العملية ظاهرة جمعية. والعقول المبدعة تزيد من قوة روابط الهوية عن طريق الأسطورة والرمز، حيث تصوغ الأيديولوجيات. كما أن الأفراد الطموحين يخلقون من الإطار أساساً للقوة، حيث يضعون أنظمة للسلوك توجه طاقات الآخرين ومواردهم. وتاريخ العالم ليس قصة تطور إسهامات لا حصر لها من الثقافات ونقاط الوعى المندمجة مع بعضها. إن تاريخ الإنسان هو سجل إذعانه البطىء لحكومات ذات حجم متزايد، وللطموح، وللتعقد. وعندما تكون هذه الحكومات صغيرة و «بدائية»، فإننا عادة ما نسميها مشيخات. أما عندما تكون كبيرة، ويكون لها نظام هرمى، وتضم الكثير من الجماعات المتخصصة، تصبح دولاً. والدولة، قديمة كانت أم حديثة، توفر الإطار الأكثر عملية الذى يمكننا من خلاله دراسة الثقافة، كما أنها هى نفسها فى الوقت ذاته أحد أوضح جوانب الثقافة. وطبيعة الدولة المصرية القديمة وثروتها من الأدوات – أى الأسطورة والرمز والمؤسسة – التى تسيطر بها على العقول وتوجه بها حياة أهلها تحتل موضع القلب من هذا الكتاب.

أحد ملامح الكثير من المعالجات الحديثة لأصل الدول القديمة هو العمل من القاع صعوداً إلى أعلى، حيث تبدأ بمجموعة من الموضوعات القياسية: مثل ضغط السكان، والتطورات الزراعية، وظهور النزعة الحضرية، وأهمية التجارة، وتبادل المعلومات. ومن هذه الناحية، تنشأ الدولة نشوءاً مستقلاً عن جماعات الناس وبيئتهم، الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية، أو فى وجود علاقات متبادلة مجهولة عريضة فيما بينها.

إلا أن الدول تقوم على الرغبة فى الحكم وعلى رؤى النظام. ومع أن عليها أن تعمل فى إطار القيود التى تفرضها أراضيها وشعوبها، فهى تولد القوى، وتشرع فى التغييرات، وتتدخل بصورة عامة. ولذلك فإننا عند النظر إلى الدولة ينبغى علينا أن نضع فى ذهننا هذه القوة التوليدية التى تعمل من أعلى لأسفل ومن المركز للخارج. وسوف يكون موضوعى فى المقام الأول تلك الأدوات التى يتم بها ذلك، وبنفس القدر من الأهمية الأيديولوجية التى تنبع منها. إن تاريخ البشرية يعد إلى حد كبير تاريخ أفكار إلى جانب كونه تاريخ سلوك. ويجب على الأثرى ألا ينسى هذا، حتى وإن باحت له مصادره هو، وهى البقايا المادية الخاصة بالمجتمعات السابقة، بالقليل عن هذا الموضوع الواضح. وتقدم مصر دليلاً ثرياً لرؤيتين قويتين ومتكاملتين: هما أيديولوجيا صريحة للحكم وثقافة موحدة جماعية أعطتا الدولة هويتها، ونموذج ضمنى لمجتمع مرتب حافظت عليه البيروقراطية . والجزآن الأولان من الكتاب يتناولان هاتين الرؤيتين بالترتيب .

موقع مصر فى المكان والزمان

مع أن الغرض الأساسى من هذا الكتاب هو استخدام مصر القديمة كمؤشر لجوانب أساسية بعينها من جوانب الفكر والتنظيم الإنسانيين، فلا مهرب من الظروف المحددة الخاصة بالثقافة المصرية (أو أية ثقافة أخرى قد يختارها المرء لأغراض توضيحية أرحب). والواقع أنه فى كثير من الأحيان يتضح وجه بعينه أقوى ما يكون فى التفاصيل. وبالتالى فمن الضرورى بعد ذلك وضع حضارة مصر القديمة فى سياقها الزمانى والمكانى.

نمت حضارة مصر فى واحدة من أكثر المناطق الصحراوية جدباً فى العالم تزيد مساحتها عن مساحة أوروبا بكاملها. وكانت ممكنة فقط بسبب نهر النيل، الذى يقطع صحراء تكاد تخلو من الأمطار من الجنوب إلى الشمال حاملاً مياه بحيرة فكتوريا لمسافة تزيد على ٣ آلاف ميل [٤٨٣٠ كم] حتى البحر المتوسط. وفى العصور القديمة كانت مصر هى فقط السبعمائة ميل الأخيرة [١١٦٥ كم] من هذا المجرى المائى، ذلك الجزء الذى يبدأ عند أسوان الحالية ومجموعة المنحدرات المعروفة باسم الشلال الأول.

وعلى امتداد معظم هذا المسار شق النيل مجرى عميقاً ومتسعاً فى الهضبة الصحراوية، ثم كون على أرضيته طبقة سميكة من الغرين الداكن الغنى. وهذه السجادة السميكة من الغرين هى ما وهب الوادى خصوبته المدهشة وحول ما كان يمكن أن يكون تحفة جيولوجية إلى بلد زراعى كثيف السكان.

ووادى النيل فى حد ذاته ينتهى بالقرب من القاهرة، عاصمة مصر منذ الفتح العربى سنة ٦٤١م وإلى الشمال منها يخرج النهر من الوادى ليصب فى خليج كبير على الساحل، حيث يغمره الآن الغرين الغنى نفسه، ليشكل دلتا مسطحة عريضة ينقسم فيها النهر إلى فرعين : فرع دمياط فى الشرق وفرع رشيد فى الغرب. وفى الماضى البعيد كان عدد الفروع أكثر من اثنين. وتمثل الدلتا الآن حوالى ثلثى الأراضى المزروعة فى مصر. وهذا الانقسام المذهل إلى واد ودلتا يخلق حدوداً طبيعية للإدارة، وخاصة عند النظر إليها من القاهرة أو سابقتها مدينة منف. واعترف قدماء المصريين بهذا بإعطاء كل جزء اسماً مميزاً وتعاملا معهما كأنهما كانا فى يوم من الأيام مملكتين مستقلتين. وهذان الاسمان جرى العرف على ترجمتهما «الوجه القبلى» للوادى و«الوجه البحرى» للدلتا.

إلا أن هذا شىء من التبسيط المبالغ فيه. فالوجه القبلى له تقسيمه الداخلى الخاص بالقرب من أسيوط. ويتضح هذا من ناحية من ملاحظة مسار التاريخ، الذى غالباً ما كشف التقسيم فى عصور الضعف الداخلى، ومن الطبوغرافيا من ناحية أخرى. فالضفة الشرقية تصبح أعرض عند أسيوط، وتتضاءل الجبال الغربية لتصبح جرفاً منخفضاً، ولا تروى الأرض بالمجرى الرئيسى للنهر وحده، بل كذلك بفرع ملتو مواز هو بحر يوسف (الشكلان ١ و ٨٨). وبسبب الطابع المميز لمصطلح مصر الوسطى، فهو غالباً ما يستخدم كاسم للوادى الواقع شمالى أسيوط. والدلتا موحدة أكثر من الناحية الطبوغرافية، غير أن سكانها غالباً ما يرونها على أن لها جانبًا شرقيًا وآخر غربيًا، حيث يربط الأول الجسر البرى الحيوى الموصل لآسيا عبر شبه جزيرة سيناء.

وتمثل الأراضى المزروعة حالياً فى الوادى والدلتا مساحة منبسطة متماثلة من الحقول المزروعة بكثافة، حيث تقطعها قنوات الرى والصرف، وتتناثر عليها المدن

والقرى التى تكاد تخفيها بساتين النخيل وتبدو عليها أمارات النمو والتحديث. والانتقال من الحقول إلى الصحراء يحدث فجأة. فالحضارة تنتهى نهاية مرئية عند خط واضح. وفى الشرق ترتفع الهضبة الصحراوية الواقعة أعلى الوادى ارتفاعاً تدريجياً لتصبح سلسلة بعيدة من التلال والجبال الوعرة التى تحيط بالبحر الأحمر، بينما تمتد فى الغرب لمسافة تزيد على ٣ آلاف ميل حتى المحيط الأطلنطى، على هيئة أراضى خالية ساكنة من الرمال والحصى تهب عليها الرياح.

وللنيل رافدان، هما النيل الأزرق وعطبرة . وكلاهما ينبع من هضبة الحبشة الجبلية المرتفعة. وتزيد الأمطار الصيفية الكثيفة فى الحبشة حجم هذين الرافدين زيادة ضخمة وتجرف خلالهما حملاً ثقيلاً من الرواسب الغنية بالمعادن. وفى العصور السابقة للتحكم الهيدروليكى المتعمد الذى طبق منذ منتصف القرن التاسع عشر من عصرنا، كان هذا الفائض من المياه يكفى لإغراق الوادى والدلتا المصريين، حيث يحول البلاد إلى بحيرة ضحلة وتظل المدن والقرى أراضى منخفضة تربطها الجسور (اللوحة 1).

وبما أن التيار كبح جماحه فقد كان الغرين يستقر على الأرض وتخلفه المياه وراءها عندما تنحسر فى أكتوبر ونوفمبر. وإذا بذرت المحاصيل فى ذلك الوقت فى الطين اللين السميك، فإن أشعة شمس الخريف والشتاء المعتدلة كانت تجعلها تنضج بحلول مارس أو أبريل مع قليل من الرى، أو دون حاجة إلى مزيد من الرى بالمرة. وبعد موسم الحصاد فى الصيف تجف الأرض وتتشقق، مما يتيح دخول الهواء إليها، ويحول دون حدوث التطبيل وتراكم الملح الزائد على الحد. وهذه المواسم الثلاثة كانت تمثل التقسيمات الأساسية للتقويم المصرى القديم: آخت (الفيضان) برت (الزراعة) شمو (الجفاف).

كانت تلك دورة طبيعية مثالية، غير أن البراعة البشرية كان عليها أن تفعل الكثير لتحسينها. فقد كان لا بد من تعلية الضفاف الشرقية لتضم حياضاً كبيرة يمكن للفلاح أن يسمح فيها للمياه بالبقاء فترة من الزمن قبل أن يتركها تعود للنهر. وكان بالإمكان رفع الماء بطريقة ميكانيكية عن المستوى المعتاد للفيضان، أو فى موسم الصيف عندما يكون النهر فى أدنى مستوياته، لرى الحقول عند زراعة محصول ثان أو للإبقاء على بساتين الخضروات على مدار السنة. وخلاف ذلك كان من الممكن نشر مياه النيل

لمسافة أكبر وبطريقة أكثر فاعلية عن طريق خلق نظام لقنوات الرى والصرف التى تتحكم فيها الأهوسة، وأخيراً باحتجاز معظم مياه الفيضان ثم تصريفها شيئاً فشيئاً بحيث يظل مستوى النهر ثابتاً ولا يفيض على ضفتيه، وهو ما يحدث منذ افتتاح السد العالى فى أسوان سنة ١٩٧٠ . وعند رسم صورة للمجتمع القديم يكون من الضرورى دراسة إلى أى مدى سار المصريون فى هذا السبيل من التحسين.

إن الإجابة عن هذا السؤال تبدو كما يلى: ليس إلى حد بعيد بحال من الأحوال. فلم تكن هناك ضرورة لذلك. إذ كانت فكرة استغلال الأراضى الخصبة لزراعة محاصيل اقتصادية لبيعها فى الخارج من أجل تحقيق الأرباح (كما حدث فى العصور الحديثة مع القطن وقصب السكر) بعيدة عن طريقة التفكير القديمة. ولم يكن عدد السكان ينمو إلا نمواً بطيئاً وربما لا يكون قد زاد بحلول أواخر عصر الدولة الحديثة عن الأربعة ملايين أو الخمسة ملايين، وهو رقم شديد التواضع بمعايير هذه الأيام. وعندما نتفحص المصادر القديمة فإنها توحى بصورة على قدر شديد من البساطة لإدارة الأراضى. فالدولة ظلت مهتمة اهتماماً كبيراً بالغلة السنوية للأراضى بغرض تحصيل الإيجارات والضرائب. ويتضح هذا من خلال المصادر المكتوبة الوفيرة. إلا أن المصادر ذاتها تذكر القليل عن الرى أو لا تذكر شيئاً بالمرة. ويوحى هذا بأن هذا كان شأناً خارج سيطرة الحكومة. فقد كان يناسب كل من يعنيه الأمر أن يتولى صيانة الضفاف المحيطة بالحياض، وأن ملء الحياض سنوياً بالفيضان كان يترك فى التربة من الرطوبة ما يكفى لزراعة محصول حبوب واحد. وكان هناك اهتمام مهنى بالحد الأقصى من ارتفاع كل فيضان. وكانت أرقام ذلك تحفر على مقاييس مناسبة: مثل مقاييس النيل أو مراسى المعابد. ولكن ليس هناك ما يدل على أن الأرقام كانت تستخدم فى عمل حسابات لتقدير غلة الأرض، وإن كان الناس على وعى كبير بعواقب مستويات الفيضان سواء أكانت أعلى من المتوسط بكثير أو أدنى منه بكثير.

والرى الحديث فى مصر لا ينطوى فقط على تنظيم تدفق الماء وتوافر الماء من النيل عبر شبكة من القنوات، بل يشمل كذلك استخدام الآلات لرفعه إلى مستوى الأرض. والآن يمكننا رؤية سلسلة من الآلات. وقديماً كانت هناك آلة واحدة: هى الشادوف، وهى آلة بسيطة التركيب عبارة عن عمود أفقى محورى على أحد طرفيه ثقل

وعلى الطرف الآخر يعلق دلو أو ما شابهه (شكل ٢). وهو يظهر فى المناظر المرسومة على جدران مقابر الأسرة الثامنة عشرة (حوالى ١٣٥٠ ق.م.) وما تلاها، غير أنه ظهر وقتها فقط فى مشاهد الرجال الذين يروون البساتين. وفى نسخ قديمة، سابقة للأسرة الثامنة عشرة، كانت الطريقة أكثر بدائية. فنحن نرى الماء يجلب إلى البساتين فى زوج من الجرار الفخارية المعلقة فى نير يحمله رجل على كتفيه (شكل ٣). ويتضح فى مثل هذه المناظر أننا لا نتعامل مع رى المزارع الخاصة بإنتاج المحصول الرئيسى من الحبوب أو الكتان، وإنما مع رى قدر محدود من الأرض التى لا يصلها الفيضان، حيث تخصص لأحواض الخضروات والزهور والبساتين الدائمة على مدار السنة. وهذا الدليل يعزز مقولة أن زراعة محصول الحبوب الرئيسى كانت مسألة محصول سنوى واحد يعتمد على الرطوبة التى تظل فى التربة بعد انحسار الفيضان.

وأهمية تقدير هذا ليست فقط أنه يقدم لنا خلفية عن الحياة فى مصر القديمة. فقد كان الاعتقاد فى وقت من الأوقات أن المجتمع المنظم - أى الحضارة - فى مصر وفى غيرها نشأ نتيجة للحاجة إلى جهد جمعى للسيطرة على الأنهار من أجل السماح للزراعة بأن تتطور. وفى حالة مصر القديمة يمكن القول بأن الأمر لم يكن كذلك. إن أصل الحضارة لا يمكن البحث عنه فى شىء بهذه البساطة. صحيح أن مصر الحديثة حافظ على وجودها نظام رى محكم. إلا أن هذا ضرورى فقط بسبب الزيادة الضخمة فى عدد السكان التى حدثت فى القرنين الأخيرين(*) .

ومصر الحديثة بلد لغته العربية وغالبية سكانه يدينون بالإسلام، إلا أنه علمانى فى قوانينه ومؤسساته، وهو نتاج لألف وثلاثمائة سنة من الحكم والتأثير العربيين منذ الفتح العربى الأول سنة ٦٤١ ميلادية، مع تعديلات فرضها موقعه على البحر المتوسط. ومع ذلك فإنه عند الفتح العربى كانت مصر الفرعونية القديمة مكانها الماضى البعيد. فنحن من الناحية الرسمية يمكننا أن نعترف بانتهائها بفتح الإسكندر الأكبر لمصر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، الذى استهل ثلاثة قرون من حكم الملوك المقدونيين (البطالمة) الذين نجحوا فى العيش بالطريقة الإغريقية فى الإسكندرية، بينما كانوا لا يزالون يتخذون

(*) أفضل مقدمة لجغرافية مصر القديمة هى . K. W. Butzer, Early Hyaraulic Civlization in Egypt : a Study in Cultural Ecology, Chicago, 1976 .

وضع الفراعنة من أجل مصلحة الأجزاء ذات العقلية الأكثر تقليدية من البلاد. وكانت آخر هذه السلسلة الملكة كليوباترا السابعة (كليوباترا المعروفة). وبناء عليه، أصبحت مصر، باعتبارها أحد أقاليم الإمبراطورية الرومانية أولاً ثم البيزنطية بعد ذلك، بلداً مسيحياً متحمساً للمسيحية. والتراث المسيحى فى مصر الحديثة هو الكنيسة القبطية. ولغتها، التى لم تعد لغة تخاطب وإنما محفوظة فى الطقوس الدينية وفى ترجمات الكتاب المقدس، هى لغة مصر القديمة المأخوذة من الكتابة الهيروغليفية.

إن هذه الثلاثة اندماجات الكبيرة مع الثقافة الخارجية - اليونانية الهلينستية والمسيحية والعربية - دمرت ثقافة وادى النيل المحلية الخاصة بالعصور القديمة تدميراً مؤثراً، من خلال عملية التعديل التدريجى فى بعض الأحيان، وبالهجوم المتعمد أحياناً أخرى. ولذلك فإن المعرفة الحديثة الخاصة بمصر القديمة ناتجة عن إعادة تركيبها على أيدى الباحثين. وهناك مصدران لها: دراسة الأدلة القديمة التى يكشف عنها الأثريون، والقراءة المتأنية لما كتب فى العصور الكلاسيكية.

وفى أيام علم المصريات الأولى كانت إحدى هذه الكتابات بمثابة إطار جاهز للتاريخ والرصد، وهى ما تزال مقبولة على المستوى العالمى. إنها مجموعة ملخصات تاريخ مصر الذى كتبه باللغة اليونانية فى القرن الثالث قبل الميلاد كاهن مصرى اسمه مانيتون Manetho ولا وجود له الآن. ورغم عدم الدقة التى كان عليها الناسخون، فإن اطلاع مانيتون على أرشيفات المعابد يعطى عمله قدراً من التفصيل والوزن صمد أمام اختبار الزمان. وتقسيمه للتاريخ المصرى إلى ثلاثين أسرة حاكمة (ثم أضيفت إليها أسرة حادية وثلاثون فيما بعد) مازال يمثل على وجه الخصوص الإطار الأساسى للتاريخ. إلا أن الباحثين المحدثين جمعوا أسرات مانيتون فى وحدات أكثر اتساعاً، بغرض التيسير، كما يلى:

عصر الأسرات المبكر (أو العصر العتيق)

(الأسرتان الأولى والثانية) ٣٠٥٠ -٢٦٩٥ ق.م

الدولة القديمة (الأسرات من الثالثة إلى الثامنة) ٢٦٩٥-٢١٦٠ ق.م

عصر الانتقال الأول

(الأسرات من التاسعة حتى الحادية عشرة)	٢١٦٠-١٩٩١ ق.م
الدولة الوسطى (الأسرة الثانية عشرة)	١٩٩١-١٧٨٥ ق.م

عصر الانتقال الثانى

(الأسرات من الثالثة عشرة حتى السابعة عشرة)	١٧٨٥-١٥٤٠ ق.م
الدولة الحديثة (الأسرات من الثامنة عشرة حتى العشرين)	١٥٤٠-١٠٧٠ ق.م

عصر الانتقال الثالث

(الأسرات من الحادية والعشرين حتى الرابعة والعشرين	١٠٧٠-٧١٢ ق.م
الحكم الكوشى (النوبى)/الآشورى	
(الأسرة الخامسة والعشرون)	٧١٢-٦٥٦ ق.م
العصر الصاوى (الأسرة السادسة والعشرون)	٦٦٤-٥٢٥ ق.م
العصر المتأخر(الأسرات من السابعة والعشرين حتى	
الحادية والثلاثين	٥٢٥-٣٣٢ ق.م
الفتح على يد الإسكندر الأكبر	٣٣٢ ق.م
وفاة الملكة كليوباترا السابعة	٣٠ ق.م

سبق الأسرة الأولى عصر من ثقافة العصر الحجرى المتقدمة يسمى «ما قبل الأسرات». واستمر هذا العصر لما يقل بعض الشيء عن الألف سنة، وإن كانت جذوره من الثقافات الحجرية السابقة تعود إلى الألف السابعة قبل الميلاد. وبالنسبة لعصر ما قبل الأسرات فى الوجه القبلى هناك أكثر من مجموعة من المصطلحات تستخدم حالياً لتوالى المراحل الثقافية المنفردة. ويبدأ التقسيم من الحضارة البدارية مروراً بحضارة

العمرة إلى حضارة جرزة، وبعد ذلك، وعبر فترة انتقال يشوبها بعض الغموض، إلى الأسرة الأولى. وغالباً ما استبدلت الحضارة البدارية وحضارة جرزة بمصطلحى نقادة ١ ونقادة ٢، وهو ما ترك كذلك الفترة الانتقالية بلا أى تعريف. وبعد سنوات كان هناك اقتراح بتقسيم جديد يعترف بثلاث مراحل لنقادة ١و٢ و٣، حيث وجد تأييداً كبيراً من الباحثين. إلا أنها مراحل خاصة بالثقافة تحددها أساليب الفخار وغيرها من أساليب. والواضح من الناحية السياسية أننا بحلول القرن الأخير أو القرنين الأخيرين من عصر ما قبل الأسرات نتعامل مع «ملوك» ، والمصطلح العام المفيد بالنسبة لهم هو «الأسرة صفر» .

وتغطى مصر ما قبل الأسرات والأسرات معاً حوالى ٣٥٠٠ سنة. ومع أن سرعة التغير فى العالم القديم كانت بطيئة إلى حد كبير مقارنة بسرعة التغيير فى العصور الحديثة، فإن آثاره تتضح فى حدود هذه الفترة الزمنية. وأى إنسان يكتب عن مصر القديمة لا بد أن يحرص على ألا يخلط بين المصادر التى من العصور المختلفة خلطاً أكثر مما ينبغى. والواقع أن من بين أفكار هذا الكتاب أن أيديولوجيا متغيرة كانت تُموه بتقديمها دائماً فى أشكال محافظة، وأن هذا أدى إلى خرافة حديثة تقول إن قدماء المصريين كانوا أكثر محافظة فى تفكيرهم من الشعوب القديمة الأخرى. ولا يمتد مجال هذا الكتاب لأكثر من نهاية الدولة الحديثة، ماعدا الاستشهاد بمصادر بعينها من عصور لاحقة. وحتى فى إطار هذه الفترة الزمنية المختصرة تغير المجتمع المصرى تغيراً ملحوظاً. وتقع فترة توقف واضحة بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة. وقد تعمدت عدم السماح بتداخل التاريخ والرصد تداخلاً واضحاً فى كتابى، إلا أنه من الضرورى أن أعكس مرور الزمن. وسعيت إلى حل وسط من خلال التركيز على مجتمع العصور المبكرة، نزولاً إلى نهاية الدولة الوسطى، فى الأجزاء الأول والثانى (الفصول من الأول إلى الرابع). ويتناول الجزء الثالث (الفصول من الخامس إلى السابع) الدولة الحديثة بشكل أساسى.

الجزء الأول

تأسيس الهوية

الفصل الأول

الأسس الفكرية للدولة المبكرة

الدولة فى العالم الحديث هى الوحدة العالمية للتنظيم الأعلى. وليس هناك جزء من أجزاء اليابسة على كوكب الأرض لا ينتمى إلى دولة من الدول. وسواء رضينا أم لم نرض، فإن معظم الناس يولدون أفراداً فى إحدى الدول، حتى وإن كانوا يعيشون فى مجتمعات قصية ومنعزلة. ومن ليست لهم دولة هم محرومو العالم، وهو أمر ينطوى على مفارقة تاريخية. فقد صارت سلطات الدولة أمراً لا مهرب منه إلى حد كبير، حتى أن كلمة state [دولة] أصبح لها، فى اللغة الإنجليزية على الأقل، معنى سيئ.

ما هى جذور هذه الحالة، أى هذا الاستسلام واسع المدى من جانب الكثيرين والجرأة من جانب القليلين؟ لقد عرف الإنسان الدولة باعتبارها كياناً مجرداً منذ زمن الإغريق الكلاسيكيين. غير أن تاريخ الدولة الحقيقى أطول من ذلك بكثير. فإن نحن عدنا أكثر فى الزمان إلى الحضارات القديمة - التى كانت مصر واحدة منها - لأمكننا ملاحظة أن العناصر الأساسية للدول الحديثة مو. دة بالفعل وتعمل بقوة، وإن كانت تفعل ذلك فى غيبة الوعى الموضوعى لما تنطوى . ووجو الدولة إما أنه كان ببساطة أمراً مسلماً به أو كان يقدم بطريقة لا تنتمى إلى مفردات العقل والفلسفة التى هى ميراثنا الأساسى من العالم الكلاسيكى. وبناء عليه يجب أن نحسب حساب الظروف، إن كنا لا نريد أن تغيب عنا الحقائق المهمة. وعلينا فى المقام الأول ألا نخلط بين المادة واللغة. فنمو آليات الدولة، كما هو الحال بالنسبة لمنتجات العقل الأخرى، ينطوى على عملية إضافة. والأفكار والممارسات التى نربطها بالأزمنة الأكثر حداثة تم تطعيمها على أصل ظل ثابتاً منذ ظهور الدول الأولى فى العالم القديم. وتكشف دراسة التاريخ القديم هذا الأصل وبالتالى أساس الحياة الحديثة.

ومن أساسيات الدولة أن تكون لها صورة مثالية عن نفسها، وأيديولوچيا، وهوية متفردة. وهى تحدد لنفسها أهدافاً وتسعى إلى تحقيقها من خلال طرح صور للسلطة

لا سبيل إلى مقاومتها. وهذه الصور تساعد على تعبئة موارد الشعب وطاقاته، وهو ما يتم إنجازه عادة عن طريق البيروقراطية. ويمكننا الحديث عنها باعتبارها كائناً عضوياً، ذلك أنه رغم كونها من صنع الإنسان فهى تحيا حياة خاصة بها. والأيديولوجيا، وصور السلطة الدنيوية، وقوة البيروقراطية الممكنة، هى بعض العناصر الأساسية للدول قديمها وحديثها. وهى تسع أدوار قادة الدولة وتعززها بنفس الفاعلية التى تسع بها أدوار شعبها وتعززها، وتضعها فى المقدمة فى أوقات القيادة الضعيفة. وهذه هى الأفكار التى سوف تتكرر فى أنحاء هذا الكتاب.

لقد صارت الأيديولوجيا واحدة من أعظم العمليات التى تخلق الأشكال فى العصور الحديثة. إنها المصفاة المميزة التى يرى المجتمع من خلالها نفسه وسائر العالم، وهى جهاز من الفكر والرمز يفسر طبيعة المجتمع، ويحدد شكله المثالى، ويبرر ما يتم للوصول إلى هذا النموذج. وقد نفكر فى استخدام الكلمة فى أضيق معانيها لمجرد الإشارة إلى الفلسفات السياسية فى القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، التى تعد الماركسية نموذجها المثالى. وبسبب ما للأيديولوجيات من اهتمامات دنيوية مباشرة، فهى قد تبدو متعارضة مع الأديان التى تهتم أول ما تهتم بالحالة الروحية للأفراد وبخلاص نفوسهم. غير أن هذا التناقض الواضح بين الأيديولوجيا والدين يعكس وجهة نظر الثقافة الغربية الحديثة. فالإسلام واليهودية على سبيل المثال مهتمان بالقدر نفسه بصلاح الفرد وبالشكل الذى ينبغى أن يكون عليه المجتمع على الأرض. وكلاهما يصف طريقة كاملة للحياة، بما فى ذلك القانون. ونحن بالفكر التأملى القديم ننتقل إلى حالة ذهنية يمكنها تخيل القوى التى وراء العالم المرئى فيما يتعلق فقط بالكائنات السماوية وتفاعلاتها المعقدة. وكان المصريون يرون أن المجتمع المثالى على الأرض صورة أساسية لنظام سماوى، وإن لم يكن يتشكل على نهج البحث الحديث. ومع ذلك كان عرضة للاضطراب من جانب الملوك الغافلين، مما استدعى رعاية واهتماما دائمين من خلال الطقوس والاحتفالات، وكذلك عن طريق الأمور الأشد قوة التى تحدث بين الحين والآخر للتذكرة. ويبدو من اللائق تماماً أن يستخدم مصطلح أيديولوجيا لتغطية نظرتهم الخاصة بالدولة، المزروعة داخل اللاهوت، وإن كانت صالحة من الناحية السياسية ويعلن عنها دوما بطرق رمزية قوية. لقد كانت إطاراً جرى خلقه بوعى عملت فى داخله الدولة الفرعونية.

ومع ذلك فهى لم تكن المصدر الوحيد للنظام. فالبيروقراطية المصرية صارت تعبر عن أيديولوجيا مستترة خاصة بالتنظيم الاجتماعى ، لم ترق قط إلى مستوى المشروع الواعى الذى صيغ صياغة تامة. وهذه الأيديولوجيا المستترة الخاصة بالنظام الاجتماعى (لتمييزها عن الأيديولوجيا الصريحة التى تناقش فى هذا الفصل) سوف تدرس فى الفصلين الثالث والرابع.

وأكدت الأيديولوجيا المصرية على ثلاثة موضوعات هى : التواصل مع الماضى، وادعاء غامض لوحدة الأراضى على أجزاء فرعية جغرافية وسياسية، والاستقرار والرفاهية من خلال حكم الملوك الذى يتسم بالحكمة والورع.

رؤية المصريين للماضى

تقتضى الأيديولوجيا وجود ماض، أى تاريخ. وبالنسبة لأيديولوجيا ديناميكية خاصة بالتغيير، مثل الماركسية، لا بد أن يكون الماضى غير مرضى عنه، وأن يكون زمناً معيباً نواقصه هى ما يحفز على العمل، أى على الثورة. فالماضى موجود كى يُرفَض. إلا أن المجتمعات بصورة عامة تحيط الماضى، أو جزءاً منه، بالاحترام. فالتاريخ يصنع تفاصيل الزخارف الخاصة بأية أسطورة عن الماضى الذى يمثل نموذجاً للحاضر. ومصر القديمة تنتمى انتماء شديداً إلى هذه الفئة. فقد كانت تعرف ماضيها، كما أنها ثبتت صورها فى عالم الأسطورة الخاص بالأيديولوجيا.

وكان قدماء المصريين يرون الماضى على أنه مسار مستقيم ورتيب بعض الشىء. فليست هناك روايات ملحمية تمتد عبر الأجيال السابقة، وليس هناك موضوع عظيم أو حكاية عن القدر تقدم مغزى أخلاقياً للأحياء. كان الماضى نموذجاً للنظام، وكان انتقال حكم الملوك السابقين من واحد إلى آخر متصلاً ويتم بسلام يكاد يكون تاماً، حيث كان الواحد منهم يسلم العرش إلى خليفته من خلال تسلسل مستقيم ومباشر واحد. يعكس هذا ما كانت عليه الأمور خلال فترات السلام والاستقرار "العظيمة". كما يعكس فى بعض الأحيان وجهة النظر الأساسية الخاصة بما يدور حوله التاريخ - أى تعاقب الملوك - التى ما تزال تلقى رواجاً واسعاً.

ويبرز التواصل كأوضح ما يكون من قوائم الملوك الراحلين التى جمعها المصريون أنفسهم. ويعود أغلبها إلى الدولة الحديثة، وهى الفترة التى تراكم لدى المصريين خلالها ألف وخمسمائة سنة من التاريخ[1] . وأشهر هذه القوائم نجده فى صورة نقش غائر جميل على أحد الجدران الداخلية لمعبد الملك سيتى الأول فى أبيدوس (حوالى ١٢٩٠ ق.م؛ شكل 4). وعلى الجانب الأيسر من المنظر يقف سيتى الأول نفسه ويصحبته ابنه الأكبر رمسيس (الذى عرف فيما بعد باسم رمسيس الثانى)، أثناء تقديم القرابين. والمستفيدون من القرابين، كما يوضح النص المصاحب، هم خمسة وسبعون من الأسلاف الملكيين، حيث يمثل كلاً منهم خرطوش، إلى جانب الملك سيتى الأول نفسه صاحب الخرطوش السادس والسبعين، وبعد ذلك يتكرر خرطوشاه التوءم(*) تسع عشرة مرة لملء الصف الأسفل بالكامل. ويبدو ترتيب الخراطيش صحيحاً بصورة أو بأخرى من الناحية التاريخية، إلا أن العديد من الملوك حُذفوا، وفى مقدمتهم هؤلاء الذين ينتمون إلى عصور الضعف الداخلى والتقسيم. وكما يوضح الشكل ٤، فإن أكبر مجموعة (وتضم تسعة وثلاثين منهم) تغطى الملوك الأوائل، بينما تخص السبعة عشر خرطوشاً الأخرى الملوك الذين تلوهم مباشرة وكانوا ضعافاً فى سلطتهم، ولكنهم شرعيون فى وضعهم، وربما كانت تمثلهم مجموعة من التماثيل فى معبد أوزيريس فى أبيدوس الذى لا يبعد كثيراً. والمنظر ككل يمثل نسخة على قدر خاص من السخاء لتقديس الأسلاف الملكيين كما كان شائعاً فى المعابد . وكان التقديس يركز عادة على التماثيل الفردية التى يضعها ملوك أفراد فى معبد من المعابد. وفى أبيدوس تحقق قائمة أسماء الغاية ذاتها، بطريقة أكثر شمولاً ولكنها فى الوقت نفسه أكثر اقتصاداً. إلا أن الترتيب الزمنى الصحيح لم يكن أمراً ضرورياً. وهناك قائمة ملوك أخرى فى معبد آمون رع بالكرنك، تختص بعصر تحتمس الثالث (حوالى ١٤٩٠-١٤٣٩ ق.م)، يمثل فيها كل ملك من ملوك القائمة الواحد والستين من خلال صورة تمثال وليس من خلال خرطوش صغير[2] . غير أن الملوك فى هذه القائمة غير مرتبين ترتيباً صحيحًا .

(*) استعمل الخرطوش لاسمين من أهم الأسماء الملكية الخمسة ، وهما : الاسم قبل الأخير المسبوق بعبارة «ملك الوجهين القبلى والبحرى» والاسم الأخير المسبوق بلقب ابن رع - (المترجم) .

ويحدث توسيع مثير للاهتمام لمجال عبادة الأسلاف الملكيين هذا في مقبرة أحد كبار الموظفين في سقارة في عهد رمسيس الثاني، وهو مشرف أعمال اسمه تنروي[3] . ونجد في منتصف المنظر قائمة تضم سبعاً وخمسين خرطوشاً لملوك سابقين، بالترتيب الصحيح. يتوسل إليهم تنروي الإله أن يمنحوه نصيباً من القرابين اليومية التي كانت تقدم لهم في معبد بتاح في منف. ولا شك في أن خلطاً مشابهاً بين الرجاء والتوقير يميز مشاهد مقابر الدولة الحديثة الأخرى، حيث ترفع الدعوات وتقدم القرابين للملوك المتوفين. ومقبرة الكاهن أمن مس في طيبة (الشكل ٤)، على سبيل المثال، تصوره وهو يتعبد أمام تماثيل اثني عشر فرعوناً من الدولة الحديثة باعتبارهم شرعيين، بالإضافة إلى مؤسس الدولة الوسطى منتوحتب الثاني. ومرة أخرى نجد أن الترتيب الزمني صحيح.

ومع أن هذه القوائم حديثة نسبياً، فإن ممارسة تقديس الأسلاف الملكيين المذكورة أسماؤهم ممارسة قديمة. كما أن الاحترام الشديد الذي أبداه ملوك الأسرة الثانية عشر نحو أفراد الأسرة الحادية عشرة السابقة عليهم، الذين استلبوا نفوذهم، يكشف عن أن السعي إلى التواصل في القربى قد يتعدى التفاصيل السياسية الخاصة بتوارث العرش في الأسر الحاكمة[4].

وحقيقة أن معظم القوائم وضعت ما اختارتهم من الملوك في الترتيب الزمني الصحيح تعكس ميلاً مصرياً طبيعياً نحو حفظ السجلات الإدارية وأرشفتها. والعنصر الأرشيفي واضح جداً في قوائم حجر باليرمو(*) (شكل 5). وتسمى بهذا الاسم مجموعة من شذرات البازلت الأسود، التي يتضح أنها نقشت بعد نهاية الأسرة الخامسة (حوالي ٢٣٥٠ ق.م). ويتكون معظم التصميم من صفوف أفقية من الخانات، يفصل كل خانة عن الأخرى خط رأسي أعلاه مقوس، وهو في الواقع الرمز الهيروغليفي الدال على «السنة الملكية». وتحتوي كل خانة على ملخص للأحداث الرئيسية في سنة من سنوات الملوك الذين تعلو أسماؤهم كتلة الخانات الخاصة بكل منهم. وتدلنا الأحداث على الأشياء التي كان مصريو ذلك الوقت يعتقدون أنها مهمة.

(*) نسبة إلى متحف بالرمو عاصمة جزيرة صقلية التي يحفظ بها أكبر جزء منه ، وهناك أجزاء أخرى من كل من متحفي القاهرة ولندن – (المترجم) .

وهى خليط من المهرجانات الدينية، وإقامة تماثيل للآلهة، والحروب التى كانت تقع من حين لآخر، وتحصيل الضرائب المنتظم، بينما كان قسم فرعى يحتوى على منسوب فيضان النيل على وجه الدقة. ويصور حجر باليرمو اهتماماً بأعمال الماضى، كما يضيف مسحة فكرية على قوائم الملوك المجردة، وإن ظلت تلك المسحة متسقة مع النموذج. ويمكننا افتراض أن هذا النوع من التأريخ كان بمثابة أساس لقوائم الملوك الملخصة التى ظهرت فيما بعد. ولا بد أنه نفسه قد جرى تجميعه من مصادر عديدة، حيث إنه ليس هناك سوى قدر محدود من الاتساق فى نوع الأشياء المسجلة سطراً بسطر، وفى طول المواد.

ومع ذلك فإن توقير الأسلاف الملكيين وتبجيلهم لا يمثل تفسيراً كاملاً لهذا الاهتمام. فالسجلات التى تحت يد المصريين مكنتهم من قياس الزمن الماضى، ووفرت لهم نظرة عامة على رحلة فكرية إلى النقطة التى التقى عندها الوقت بالكون. وأكثر التعبيرات حيوية عن هذا نجدها فى قائمة ملوك أخرى، وهى كذلك من الدولة الحديثة، ولكنها هذه المرة مكتوبة على البردى وموجودة حالياً فى متحف تورين[5]. ولا يبدو أن أى ملك كان أقل أو أقصر حكماً من أن تتضمنه القائمة. وكان الملوك الذين جاءوا من فلسطين وكوَّنوا الأسرة الهكسوسية ضمن القائمة، وإن لم يستحقوا كتابة أسمائهم فى خراطيش. وكان ذلك فى واقع الأمر قبولاً واضحاً للواقع: فهو اعتراف تكتيكى بوجود فاصل فى تعاقب الملوك الشرعيين بغرض الوصول إلى الاكتمال. ومقابل كل ملك فى قائمة تورين(*) كُتب زمن حكمه على وجه الدقة، إلى حد اليوم بالضبط فى بعض الأحيان. وفى بعض النقاط كان يوضع ملخص لعدد الملوك وإجمالى فترات الحكم. ولذلك فإنه فى نهاية ما نسميها الآن الأسرة الثامنة نجد أن هناك ملخصاً لـ٩٥٨ سنة بدءاً من حكم الملك مينا، أول اسم فى القوائم.

وإذا كان هذا هو كل ما فعلته قائمة تورين للملوك، فيمكن تصنيفها على أنها أداة إدارية متقنة. إلا أن من جمع القائمة حاول الرجوع فى الزمن الماضى إلى ما قبل عهد مينا.

(*) دونت هذه القائمة فى عصر الأسرة التاسعة عشرة وقسمت الملوك إلى مجموعات نسبت كل مجموعة منها إلى العاصمة التى استقرت فيها ، وضمت القائمة أكثر من 300 اسم من أسماء الملوك بدأتهم بالملوك «المبجلين» الذين حكموا مصر قبل التاريخ وقد تهشمت هذه البردية بعد تسلم القنصل العام الفرنسى فى مصر وكان من لصوص الآثار دروفتى لها والجزء المتبقى منها ماضى بملوك الدولة الوسطى – (المترجم) .

وهذه هى النقطة التى يفترق عندها العقلان القديم والحديث. فما وضعه الإنسان الحديث وراء التاريخ هو ما قبل التاريخ: أى سجل المجتمع الإنسانى فى عالم بلا كتابة، فى مكان مجهول الهوية حيث الأسماء والأعمال غير معروفة. ومثل هذه الحالة من الأمور كانت غير مقنعة بالنسبة للقدماء. إلا أن هذا لم يمنع الشغف بما حدث قبل أول ملك مسجل. وقد خصصت قائمة تورين أكثر من عمود من نصها لهذا. فقد سبقت مينا مباشرة عدة أسطر تلخص العهود الجماعية لـ «الأرواح» ، دون ذكر أسماء مفردة، حيث سبقت ذلك، وجاءت على رأس التجميع كله، قائمة بالآلهة. وكان اسم كل منها مكتوباً فى خرطوش، كأنه اسم ملك، ويتبعه طول العهد على وجه التحديد. وفى حالة الإله توت، على سبيل المثال، استمر عهده ٧٧٢٦ سنة.

ومن إجمالى قائمة تورين يمكن أن نتتبع فى خط مستقيم التعاقب الملكى من فترة كان الآلهة يحكمون فيها كملوك، وأن نحصل من اكتمال المعلومات على المزيد من الاقتناع بحساب كامل الفترة التى تغطيها حساباً دقيقاً. وربما استطاع الكاتب القديم برجوعه إليها معرفة عمر العالم منذ زمن أول إله خالق، ورأى كيفية انسجام ملوك الماضى وآثارهم العظيمة داخل المنظومة الملكية. والاستقامة الصارمة الخاصة بهذه النظرة إلى الزمن تتضح بالتفصيل من طريقة تجاهل تداخلات أسر حاكمة بالكامل فى أوقات التقسيم الداخلى، وتوضع العهود فى ذيل بعضها، وتضاف كل الأرقام إلى بعضها من أجل أرقام إجمالية كبيرة.

وكان التواصل المنتظم للملكية هو الصورة الرئيسية التى تخيلها المصريون للماضى. وكان هذا أمراً يكفى تأمله فى حد ذاته، ولم يكن ليثير الاهتمام بكتابة تاريخ روائى يفسر الناس والأحداث بالطريقة التى يفهمها الخلف. غير أن بعض العهود كانت لها «نكهة» معينة. فعلى سبيل المثال اعتبر سنفرو من الأسرة الرابعة فى وقت لاحق ملكاً طيباً نموذجياً من الماضى[6]. وبالمثل كان رمسيس الثانى نموذجاً لمن خلفوه. ففى دعاء للملك رمسيس الخامس بعد حوالى ستين سنة يقول «سوف تضاعف لى الأمد الطويل، تلك الفترة العظيمة لحكم الملك رمسيس الثانى، الإله العظيم» (والواقع أن دعاءه لم يستجب حيث مات فى السنة السابعة من حكمه)[7]. ومن ناحية أخرى، اشتهر خوفو مشيد الهرم الأكبر بالقسوة والغطرسة، وهو ما يتضح من مجموعة من

القصص الواردة في بردية ويستكار التي من الواضح أنها كتبت في عصر الدولة الوسطى[8]. ويظهر ذلك مرة أخرى في تاريخ مانيتون وفيما رواه هيرودوت[9]. وسواء أكانت تلك صورة حقيقية لشخصيته، أم نتيجة متخيلة من كونه مشيد أكبر الأهرام، أمر لم يعد بمقدورنا حسمه. وتحكي بردية ويستكار القصة باعتبارها مقدمة لتعريف ملوك الأسرة الخامسة اللاحقين شديدي الورع، حيث يبدو أن المقصود هو أن خوفو قضى على بيته بسلوكه المتغطرس والعدواني. وبالمثل كانت عهود ملوك آخرين من الماضي البعيد، كان يعتقد أنهم لم يتمسكوا بالمعايير النموذجية، خلفيات للخطاب التعليمي الوعظي. ومثال ذلك الملك بيبي الثاني آخر ملوك الأسرة السادسة: فقد رموه صراحة في رواية لاحقة بالشذوذ الجنسي[10]. وربما كان هناك ملك سيء السمعة هو الذي كوّن خلفية، لا وجود لها الآن، لبكائيات ايبوور بسبب الفوضى التي كانت قد سادت البلاد(*)[11].

وفي هذه النقطة لا بد لنا من وضع حد فاصل في مصادرنا. فالنصوص التي من هذا الطابع، المسجلة فقط على ورق البردي، كانت النتاج الأدبي التأملي الخاص بالنخبة الكاتبة، الذي كان تعليمياً في بعض الأحيان وترفيهياً في أحيان أخرى، ولم يقصد به أن يكون بيانات لاهوتية. وكان «اللاهوتيون» يؤخذون من نفس النخبة المتعلمة. غير أننا لا ينبغي أن نتخيل أن هناك مجموعتين من الناس، إحداهما لها نظرة أقل احتراماً للماضي. وأي موقف يبدو لنا مهيناً يمكن أن نجده في أوراق البردي التي تروي أحداثاً في حياة الآلهة. ففي إحدى هذه القصص نجد أن الإلهة إيزيس «امرأة ذكية. كان قلبها أكثر دهاء من مليون رجل» تخطط لاكتشاف سر اسم إله الشمس رع، الذي يصور على هيئة رجل عجوز يستسلم لألم لدغة ثعبان ويكشف عن اسمه الخفي لإيزيس[12]. والنص كامل للمرة الأولى وهدفه واضح: فهو بمثابة

(*) أقوال الحكيم ايبوور مكتوبة على بردية محفوظة في ليدن. وظهر الحكيم ايبور على مسرح الأحداث في وقت كان الملك جالساً في قصره في هدوء حيث تساق إليه الأكاذيب فيصدقها ولايحرك ساكناً. وربما كان ايبوور من موظفي الخزانة الذين يعملون في الدلتا وجاء إلي العاصمة ليقدم تقريراً للبلاط عن الحالة المالية. وأقواله تعد تصويراً بلغياً لما وصلت إليه مصر في ذلك العهد من فوض، وهي تحض الناس على أن يهبوا للدفاع عن البلاد ضد أعدائهم. ويلاحظ أنه كان شجاعاً في توجيه النذر للملك، الذي يبدو أنه بيمبي الثاني الذي طاله حكمه إلي ما يقرب من ٩٤ عاماً وتسبب ضعفه الذي يرجع إلى شيخوخته في تلك النهاية السيئة لعصر الدولة القديمة الزاهي – (المترجم).

حجة «تاريخية» لاستعمال القصة نفسها كعلاج للدغة العقرب. وما كان مقبولاً في السياقات الدينية الرسمية، وما كان مسموحاً به في الكتابات الأدبية، كان مسألة ذوق مفهومة فهماً واضحاً. ولم تؤد سمعة خوفو وبيبي الثاني إلى استبعاد أي منهما من قوائم الملوك الرسمية. وما حققته هذه «الرخصة» المحدودة أو الحرية الفكرية كان خلفيات أمكن من خلالها تفسير دروس المُلك السيئ للبلاط، بمن في ذلك الملك، لتدبرها. بل إن وجود فترات الفوضى والاضطراب والظلم كانت بمثابة إنذار وتصديق على دور الملك كمحافظ على النظام والعدل.

إلا أنه كان هناك حد لذلك. فنحن نعرف من الأبحاث الحديثة أنه كانت هناك فترة من القلاقل الداخلية التي بلغت حد الحرب الأهلية بين أسرتين حاكمتين معاصرتين لبعضهما، هما الأسرة التاسعة والأسرة الحادية عشرة في كل من هيرقليوبوليس وطيبة على الترتيب. وكان ذلك هو عصر الانتقال الأول. وفيما بعد تعامل المصريون معها تعاملاً حذراً. فبعد ذلك أصبح مؤسس المجموعة المنشقة الرئيسية، وهو الملك خيتي من الأسرة التاسعة، شأنه شأن خوفو، موضوعاً لحكاية مشينة حفظت في نسخ مانيتون. والمادة الخاصة بالملك تلخص في الواقع الرؤية القصصية الأخلاقية للتاريخ: «الملك أختوي [الشكل اليوناني لخيتي] بتصرفه تصرفاً أكثر قسوة من أسلافه تسبب في آلام شعب مصر كافة، ولكنه بعد ذلك مسه الجنون وقتله تمساح[13]». ولا نجد هنا ما يشير إلى الانتهازية السياسية التي لا بد أنها أتاحت لخيتي وأسرته السيطرة على عرش مصر، الذي سرعان ما نازعتهم عليه أسرة منافسة في طيبة. وليس لنا علم بنص لاحق استغل خلفية الانشقاق الإقليمي أو الأسر المتحاربة استغلالاً مباشراً. وفي العصر اللاحق مباشرة (أي الدولة الوسطى) كتب رجال مفكرون نصوصاً أدبية تناولت طبيعة المجتمع المضطرب، ولكنهم استبعدوا الواقع التاريخي في كتابتها. فلم يستغل عصر الاضمحلال الأول استغلالاً مباشراً لتوضيح درس أخلاقي ما. وكانت إحدى الحيل وضع وصف الفوضى والاضطراب في شكل نبوءة ينطق بها أحد الكهنة في بلاط الملك سنفرو من أوائل الأسرة الرابعة، الذي كان قد مات منذ زمن بعيد ولكنه يحظى باحترام كبير[14]. وانتهت اضطرابات ذلك المستقبل غير المحدد بوصول الملك أميني الذي يشبه المخلِّص، وربما كان نموذجه التاريخي هو أمنمحات الأول، أول ملوك

الأسرة الثانية عشرة. وكان رثاء أسطورة ايبوور نتاجاً آخر لنفس الحالة المزاجية ، إلا أن صورها الدرامية الخاصة بالاضطراب الاجتماعى كانت تفتقر بوضوح إلى الأسماء والأحداث التاريخية.

وقبل مجيء الدولة الحديثة جاء عصر ثان من الاضطراب الداخلى، ومرة أخرى بلغ الأمر حد الحرب الأهلية: إنه عصر الهكسوس. ولكن فى هذه الحالة كانت الظروف مختلفة تماماً[15]. كان الهكسوس ملوكاً فلسطينيين استولوا على الدلتا. وبما أن ذلك كان عصراً حكم فيه ملوك أجانب طردتهم فى آخر الأمر القوة العسكرية من مصر، فقد كان مشروعاً أن يُرى ذلك على أنه خروج مشئوم عن صورة الماضى المثالية. بل إن قائمة تورين قبلت هذا: فالهكسوس يظهرون فيها ولكنهم مجردون من الألقاب الملكية، وبدلاً من الخراطيش كانت أمامهم علامة تدل على أنهم أغراب. وفى أحد نصوص المعابد المميزة، نجد الملكة حتشبسوت، وهى نفسها مغتصبة ناجحة من أوائل الأسرة الثامنة عشرة، تقدم عصر الهكسوس على أنه زمن اضطراب وفوضى أنقذت مصر منه، متجاهلة نصف قرن من الحكم السلمى والمزدهر لأسلافها من الأسرة الثامنة عشرة. وهنا استغلت فكرة المسئولية الملكية عن التخلص من الفوضى بانتقام. فقد كان ذلك مسموحاً به فى نص رسمى لأن عصر الهكسوس كان من الممكن تعليله، بعكس عصر الانتقال الأول .

وكانت مرات الخروج عن صورة الماضى المثالى معدودة، وقاصرة على الأفراد (باستثناء الهكسوس). وكان الماضى فى الغالب هو معين السلطة والمصداقية. ويقدم الملك نفرحتب من الأسرة الثالثة عشرة (حوالى ١٧٥٠ ق.م) صورة مميزة، حيث يزور بتبجيل «بيت الكتابات»، ويتفحص «الكتابات القديمة الخاصة بآمون (الإله الخالق)» كى يكتشف الشكل الصحيح لتمثال جديد لأوزيريس، وضعته الآلهة نفسها فى بدء الزمان[16]. وبتبجيل مشابه للأشكال القديمة احتفظ الفنانون المصريون بالأشكال الأصلية للكتابة الهيروغليفية دون أى تعديل تقريباً لمدة ثلاثة آلاف سنة. ويدين التواصل العام للأسلوب فى الفنون والعمارة إلى الحرص على إعادة إنتاج الأساليب المقننة التى ابتكرت فى عصر الأسرات المبكر والدولة القديمة. غير أن هناك عنصراً من عناصر خداع النفس فى هذا. فقد حدثت بالفعل تغيرات كبيرة فى المثل والأشكال، ولابد أن

تعكس هذه التغيرات نمواً فكرياً، وهو ما يتضح كذلك من المصادر المكتوبة. إن النظام البحثى الحديث الخاص بتاريخ الفن فى علم المصريات يقوم بكامله على فرضية تقول إن ذلك الأسلوب تغير من فترة إلى أخرى. وبذلك فإن صور الملوك المكتئبة المهمومة فى تماثيل الدولة الوسطى نقلت رسالة مختلفة تماماً عن التماثيل المثالية النموذجية الخاصة بالدولة القديمة[17]. فقد يكون تمثال الملك نفرحتب الجديد لأوزيريس نتاجاً مميزاً لصنعة تلك الفترة التى ظهر فيها. وواقع الأمر أن "الكتابات" التى تفحصها الملك قد حددت طبيعة الصورة القديمة فى إطارها العام وحسب، مثل المواد النفيسة التى كان يتكون منها. ولا يمكن أن يكون المصريون قد صاغوا بالكلمات وصفاً لأسلوب التمثال. وينطبق الشىء نفسه على العمارة. وشهدت الدولة الحديثة قدراً كبيراً من إعادة تقييم عمارة المعابد التى يجب أن نتعرف فيها على تغيرات كبيرة فى المدلول، على الأقل فيما يتصل بطقس دفن الملك. لقد حدث التغيير بالفعل، ولكنه كان فى مجمله يدل على الاحترام وحسن الذوق من خلال التمسك بالمفردات الأساسية الخاصة بالأشكال التقليدية، التى كان يعززها الميل إلى الماضى. وسوف يرد المزيد من الكلام عن هذا فى فصول لاحقة.

وربما كان استغلال الماضى فى بعض المناسبات على قدر كبير من الإتقان. وفى القسم التالى من هذا الفصل نجد اقتباساً من نص أسطورى مهم، معروف بحجر شاباكا(*)[18]. وفى مقدمته يدعى الملك شاباكا من الأسرة الخامسة والعشرين (٧١٢-٦٩٨ ق.م) بأنه نسخ النص من وثيقة قديمة قرضها الدود، وهى فى حقيقة الأمر مكتوبة بأسلوب عتيق جداً. وظل الباحثون زمناً طويلاً يقبلون زعم شاباكا بمعناه الظاهرى، وأرجعوا الصياغة الأصلية للنص إلى الأسرة الثالثة. ومنذ فترة قريبة جداً أصبح مقبولاً على نطاق واسع أنه رغم كون موضوعات الأسطورة تنتمى إلى الخط

(*) وضع كهنة منف فى أول عصور الدولة القديمة وثيقة أكدوا فيها أن بتاح ومنف تفوق منزلتهما مالأتوم وهليوبوليس من منزلة ، ولكن هذه الوثيقة التى تسمى «تعاليم منف الكهنونية» التى حفظت لآلاف السنين أكلتها الأرضه اختفى معظم الأجزاء التى فى أولها وآخرها . وعندما تولى شاباكا الملك النوبى حكم مصر حوالى ٧١٠ ق.م تقدم إليه كهنه منف وطلبوا منه أن ينقذ ماتبقى من كتاب الأجداد ، فأمر بحفر هذا الجزء على لوح من حجر الجرانيت الأسود . والحكم التى يحويها هذا الكتاب أن تباح خلق من نفسه ثمانية آلهة أخرى سميت بتاح وأسماها البشر أسماء أخرى - (المترجم) .

العام للفكر المصرى، فإن هذه الصياغة على وجه التحديد حديثة نسبياً، بل ربما تنتمى إلى عصر شاباكا. وفيما يتعلق بأسلوبها المهجور، هناك دليل جيد لتوضيح أنه فى العصر المتأخر كان لدى الكتبة معرفة عملية بشكل مهجور من أشكال اللغة، وكان يمكنهم الإنشاء بها. وكان الميل إلى القدم، وفى بعض الأحيان التستر وراء الأشكال العتيقة، يجعل الأفكار القديمة أو التأويلات الجديدة للأفكار القديمة أكثر قبولاً. فقد كان الماضى رحماً ثقافياً.

أسطورة الدولة

اشترك ملوك القوائم فى لقب واحد: فجميعهم ملوك الوجهين القبلى والبحرى، وهما التقسيمان الجيوبوليتكيان النموذجيان للوادى والدلتا. وفى هذا اللقب يكمن تعبير قوى عن الوحدة. إلا أننا نجد المصريين مرة أخرى يجفلون من واقع السياسة البغيض. والنظام فى مواجهة الفوضى هو الموضوع الذى يتكرر بصور مختلفة فى الفكر المصرى. وكما رأينا، كان ذلك هو موضوع المُلْك. ويبرز العديد من نصوص الدولة الوسطى التأملية (بما فى ذلك مرثيات الكاتب ايبوور) طبيعة العالم المضطرب، جاعلة الملك مسئولاً عن علاجها، إلا أن هذه كما أوضحنا من قبل تنتمى إلى تراث من التأمل الحر المحدود فى البلاط. وعلى مستوى الأيديولوجيا الرسمية، كان لا ينظر إلى التقسيم والفرقة فى ضوء التشظى المحتمل إلى مناطق متعددة، أو إلى فوضى تقلب الأمور رأساً على عقب كما جاء فى تحذيرات ايبوور. وربما أعطى هذا وزناً أكثر مما يجب لأى احتمال مزعج. وبدلاً من ذلك اقترح التقسيم الثنائى الرمزى. وكان هذا يتفق مع حب المصريين للتماثل، كما يتضح فى فنونهم وعمارتهم، ولكنه يتفق اتفاقاً أشد مع فكرة المملكتين المنفصلتين أصلاً التى كانت تمثل أساساً أكثر أمناً واحتراماً بالنسبة لدور الملك التوحيدى الفريد من العدد الكبير للوحدات الصغيرة، أو من حالة الفوضى الأعم. كما كان يتناسب كذلك مع تقسيم البلاد جغرافياً إلى نصفين، وإن كان التاريخ السياسى الحقيقى يوضح أن هناك تقسيمات داخلية عبر خطوط مختلفة.

وكان تفصيل هذا الجانب من الحكم الملكى مصوراً بقدر ما كان مكتوباً. فقد برع المصريون فى الترميز المرئى المباشر. وكانت تساعدهم فى هذا طبيعة الكتابة

الهيروغليفية. فمعظم الرموز الهيروغليفية تمثل مجموعات من الحروف الساكنة، حتى أن الصور كانت تستخدم لكتابة كلمات أخرى لها نفس ترتيب الحروف الساكنة، حتى وإن كانت تنطق نطقاً مختلفاً. فالأمر أشبه بحال الإنجليزية الحديثة، حيث اخترنا صورة ورقة شجر كى نكتب كل الكلمات التى فيها ترتيب الحرفين الساكنين l و f هكذا (leaf, life, loaf, laugh, aloof) وكان السياق والرموز الإضافية تحول دون اللبس . واستغل الفنانون هذا الفصل بين الرمز والمدلول استغلالاً شجاعاً. وظل ذلك سمة من سمات نظام الكتابة ، حتى أنه فى السياقات الرسمية كان الفنانون يحتفظون عن طيب خاطر بكل تفاصيل الأصول وأشكالها الطبيعية لكى لا تضيع الجذور، وإن ابتكر شكلا من أشكال الكتابة المتصلة (الهيراطيقى)(*). وبذلك أمكن للفنانين أن يجعلوا الرموز الهيروغليفية تمثل مفاهيم مجردة وحولوها كأشياء ملموسة إلى تكوينات فنية ، مع الاحتفاظ بتناسق الأسلوب. وقدم هذا الاستخدام الرمزى للكتابة الهيروغليفية عنصراً مرئياً للعبة اللغة اللاهوتية. فهو سمة مهمة من سمات أسلوب الفن المصرى، كما هو الحال بالنسبة للتحفظ الذى استغل به. وفى أى تركيب كان القليل جداً من الرموز يعامل بهذه الطريقة، مما يوصل رسالة واضحة وفورية.

وهناك مجموعة جيدة من الأمثلة التى تلخص أيديولوجيا الدولة المصرية الأساسية منقوشة فى حفر غائر على جوانب عشرة تماثيل من الحجر الجيرى للملك سنوسرت الأول من الأسرة الثانية عشرة (١٩٧١-١٩٢٨ ق.م) من معبده الجنائزى فى اللشت (شكل 6)[19]. ففى منتصف المنظر يمتد رمز رأسى مقسم هو فى واقع الأمر صورة ناى ورئتين مؤسلبة، ولكنه لم يكن يستخدم فقط للدلالة على كلمة «رئتين» بل كذلك على الفعل «يوحد»، الذى كان له نفس ترتيب الحروف الساكنة. وكانت الكلمة ورمزها

(*) شكل مختصر للكتابة الهيروغليفية وقد استعملت فى بداية الدولة الوسطى . وهى نفسها اللغة المتداولة فى أيام الدولة القديم بعد تطورها . وقد كتبت بها القطع الأدبية المصرية الكلاسيكية . وفى نهاية الدولة الوسطى أصبحت قاصرة على تدوين الأدبيات الدينية والموضوعات الرسمية واستمر ذلك حتى أواخر العصور الفرعونية . وكانت الهيراطيقة مناسبة للكتابة على ورق البردى . وكانت فى البداية تكتب فى سطور عمودية حتى الدولة الوسطى ثم أخذت بالتدريج تكتب فى سطور أفقية من اليمين إلى اليسار . والاسم أطلقه الرحالة الإغريق ويعنى الكتابة المقدسة لاستعمالها فى كتابة النصوص الدينية على البردى . واستعمل فى البداية عود رفيع من الغاب مفرى الطرف ، ثم استعمل قلم الغاب المبرى - (المترجم) .

الهيروغليفى المكونين الرئيسيين حينما يعرض موضوع توحيد المملكة. وفى أعلى هذه العلامة الرمزية التى تعنى «الوحدة» يقع خرطوش بيضاوى الشكل يضم أحد أسماء الملك. وعلى جانبى الرمز نباتان يجرى عقدهما على هيئة العقدة الوتدية: وعلى اليسار هناك حزمة من سيقان البردى، وهو النبات الذى يرمز للوجه البحرى؛ وعلى اليمين حزمة من البوص الذى يرمز للوجه القبلى. ويقوم بعملية الربط اثنان من الآلهة: على اليسار حورس ذو رأس الصقر، وعلى اليمين ست، الذى كان حيوانه مخلوقاً أسطورياً[20]. وتشير الرموز الهيروغليفية التى تعلو كل إله إلى منطقتين. فست هو الأومبى، نسبة إلى مدينة أمبوس (وهى نبت القريبة من قرية نقادة الحالية) فى الوجه القبلى. وحورس هو «رب ميسين» وهو اسم مدينة استخدم للدلالة على أماكن فى كل من الوجهين القبلى والبحرى (لأسباب سوف نبينها بعد قليل)، ولكنها هنا تعنى مدينة فى الوجه البحرى. وعلى بعض قواعد العرش يسمى ست «سيد سو» ، وهو موضع يقع داخل حدود الوجه القبلى الشمالية مباشرة، بينما يسمى حورس مرات عديدة «البحدتى» نسبة إلى بحدت، وهى اسم لموضع يستخدم للدلالة على أكثر من مكان، إلا أنه هنا يستخدم كى يشير إشارة واضحة إلى مكان ما فى الشمال.

والفنانون الذين نقشوا قواعد التماثيل هذه كانوا أساتذة فى التنويع المتأنق. وقد نسجت كذلك بعض التيمات الثنائية بنفس التصميم الأساسى. فعلى خمسة من هذه القواعد استعيض عن حورس وست بصور آلهة النيل ممتلئة الجسم التى تمثلها رموز على أنها الوجهان القبلى والبحرى، بينما تشير التعليقات التى تعلوها بالرموز الهيروغليفية إلى «التاسوع(*) الأصغر» و «الأكبر» (وهو يضم تسعة آلهة)، و «القرابين»، وأفكار الخصب مستخدمة المترادفات المقرون كل زوج منها فى كلتا الحالتين. وهناك كذلك تنويع آخر لتيمة حورس-ست. وفى هذه الحالة يكون القران بين «الجزء الموحد الخاص بالسيدين» مع صورة صغيرة لحورس وست لتحديد من هما السيدان، من ناحية، و «وعرشا جب» ، وهو إله أرضى أشرف على المصالحة بين

(*) يتكون تاسوع أون (هليوبوليس) من خالقه أتوم الذى خلق نفسه من قمة التل الأزلى فكان أول الخلق . ثم خلق بعد ذلك شو (رب الهواء) وتفنوت (ربة الرطوبة) ؛ وذلك بأن أخذ من نفسه بعضاً من المنى وضعه بين أسنانه ثم عطس فكان شو وتفل فكان تفنوت اللذان تزوجا وأنجبا نوت (ربة السماء) وجب (رب الأرض) . وتزوج هذان بدورهما فأنجبا أوزيريس وايزيس وست ونفتيس - (المترجم) .

حورس وست فى النصوص الأطول الخاصة بهذه التيمة، من ناحية أخرى. وبذلك أمكن مد الثنائية لتتعدى قرن كيانين ببعضها إلى تكوين أزواج من المترادفات، كان كل منها يتضمن إشارة إلى جانب من جوانب الأزواج المتوازنة.

وفى إطار إعادة ترتيب الكيانات هذا لإيضاح مفهوم الانسجام من خلال توازن الأزواج، يمكننا أن نلمح مثالاً بسيطاً لشكل من أشكال عمليات المصريين الفكرية: أى اللعب بالكلمات، وخاصة الأسماء، وكأنها وحدات منفصلة للمعرفة. وكانت المعرفة القديمة، عندما لا تكون غير ذات طبيعة عملية (مثل كيفية تشييد هرم أو طريقة السلوك على مائدة الطعام)، فى أساسها تجميعاً لأسماء الجماد والكائنات والأماكن، إلى جانب تداعياتها. وكان «البحث» يكمن فى توسيع مدى التداعيات فى المناطق التى قد نسميها الآن «لاهوت». وتُرك المدلول أو المغزى فى العقل وظل بلا صياغة إلى حد كبير. وكانت المشاهد الميثولوجية بمثابة نوع من الجدولة المتقاطعة للمفاهيم.

والتقدير الذى كانت تلقاه أسماء الأشياء يوضحه بعناية طراز من النصوص يسميه الباحثون «علم الأعلام»onomastica[21] . وأشهرها، وهو ما تولى تجميعه فى أواخر الدولة الحديثة (حوالى ١١٠٠ ق.م) «كاتب الكتب المقدسة» المدعو أمنموبى، حيث نسخ الكثير منها فى المدارس القديمة، ويتضمن العنوان المبشر: "بدء التعليم من أجل تنقية الذهن، ومن أجل توجيه الجاهل، ومن أجل تعلم كل الأشياء الموجودة". ولكنها تمضى دون كلمة واحدة من التعليق أو التأويل كقائمة للأشياء: عناصر الكون، وأنماط الكائنات البشرية، ومدن مصر وقراها بتفصيل كبير، وأجزاء الثور، وهلم جرا. ويبدو هذا الشكل من أشكال التعلم بالنسبة للعقل كأكثر أنواع البداجوجيا خنقاً. أما بالنسبة للأقدمين فإن معرفة اسم الشيء كان يجعله مألوفاً، ويجعل له موضعاً فى عقل الإنسان، ويحيله إلى شيء يمكن السيطرة عليه وتثبيته فى عالم الشخص الذهنى. والواقع أنه مازال فى إمكاننا الاعتراف بقدر ما بصحة هذا: فدراسة العالم الطبيعى، سواء أكانت مراقبة الطيور أو تصنيف النباتات، تبدأ بمعرفة الأسماء، وبترتيبها فى مجموعات (علم التصنيف)، تماماً كما كان يحدث بطريقة تخمينية فى علم الأعلام، الذى كان بمثابة وسائل معينة للذاكرة بالنسبة لنطاق المعارف التى تم استيعابها ببساطة نتيجة لكون الشخص مصرياً تلقى تعليماً جيداً بالقدر المعقول.

ووجهة النظر هذه الخاصة بالأسماء كانت وراء سمة بارزة من سمات الديانة المصرية. فقد أصبحت أسماء الآلهة قوالب البناء بالنسبة لتعريفات الألوهية الموسعة.

ولذلك فإن أوزيريس يُعرَّف فى إحدى نسخ كتاب الموتى بأنه: «سيد الخلود، ون نفر، حورس فى الأفق، ذو الأشكال والتجليات العديدة، بتاح سوكر، آتوم فى أون، سيد الإقليم الغامض». وقد استخدمت هنا أسماء ما لا يقل عن خمسة آلهة لإثراء الصورة التى يتم بها فهم أوزيريس[22]. وهناك كشف صريح لهذه الظاهرة فى حديث قصير لابن الشمس: «أنا خِبرى فى الصباح، ورع فى الظهيرة، وآتوم فى المساء»[23]. وأنتج الافتتان بـ «أسماء الآلهة» الفصل ١٤٢ من كتاب الموتى، الذى يحمل عنوان «معرفة أسماء أوزيريس فى كل مقعد من مقاعده أنى يرغب أن يكون»، وهى قائمة موسعة للنسخ المحلية جغرافياً لأوزيريس، إلى جانب نسخ الآلهة العديدة الأخرى التى تلخص فى نهاية الأمر على أنها «الأرباب والربات فى السماء بكل أسمائهم»[24].

ومن الضرورى تقييم نمط التفكير المصرى من أجل التقدير الصحيح للنصوص التى قد يبدو أن لها صلة قوية بالعالم المادى الواقعى؛ وهى تلك النصوص التى يمكن أن تصبح مصادر للتاريخ. وكانت أسماء الأماكن كذلك عرضة للتلاعب، مما أدى إلى ظهور شكل من أشكال الجغرافيا الرمزية. وكانت تلك نوعاً من لعبة الكلمات التى كانت تسعى إلى نسق تماثلى ومثالى للأماكن التى كانت تعامل فى المقام الأول على أنها أسماء أماكن صارت لها تداعيات ميثولوجية. وفى أغلب الأحيان، وربما فيها جميعاً، كان هناك شىء ما على الأرض، مدينة أو موضع صغير يصعب وصفه. ومع أن الجغرافيا الرمزية أبرزت أسطورة التفوق الإقليمى من جانب الدولة، فمن الخطأ اتخاذ الإشارات الجغرافية فى المصادر الدينية دليلاً للجغرافيا الحقيقية القديمة. ففعل ذلك يعنى فقدان قوى التجريد التى تميز بها العقل المصرى الذى خلق عالماً أسطورياً مرتباً ومنسجماً من تجربة عادية وربما كانت متواضعة بعض الشىء. وكانت نتيجة ذلك زاخرة بالأسماء المألوفة، وإن كانت تنتمى إلى مستوى أعلى. فقد كانت تحوم بين الواقع والتجريد دون أن تبلغ أياً منهما.

إلا أنها تنصب فى الوقت نفسه شركاً لمن لا ينتبه. ويميل البحث الحديث نحو منهج المحامين: فبعد أن تجمع الحقائق الموثقة، تناقش نقطة نقطة، ثم يتوصل إلى الحكم الذى يتفق مع المنطق الحديث و«وزن الدليل». إلا أن النصوص والمشاهد القديمة تعكس جمالاً فكرياً. فقد كانت تكتب من داخل عقول مبدعيها، وكانت تعكس عالماً

داخلياً لم يكن تصوراً دقيقاً للعالم المادى، ذلك العالم الذى يكشفه علم الآثار، على سبيل المثال. وكانت الجغرافيا الرمزية نتاجاً لشعب ذى خيال خصب. ولا ينبغى أن نفكر فى استخدامها على أنها أساس دقيق لإعادة البناء التاريخى .

إننا الآن فى وضع أفضل بعض الشىء كى نتتبع اللغة المجازية التى على قواعد عرش سنوسرت الأول. وتأتى نسخة مكتوبة من الأسطورة كجزء من نص أطول يعرف بديانة منف، أو حجر شاباكا، وهو اسم ملك الأسرة الخامسة والعشرين الذى نسخ فى عهده[25]. فهى من الناحية الظاهرية لها شكل سردى :

أمر جب رب الأرباب بأن يتجمع التاسوع لديه. لقد حكم بين حورس وست؛ وأنهى النزاع. وجعل ست ملك الوجه القبلى فى أرض الوجه القبلى، حتى المكان الذى ولد فيه، وهو سو. وجعل جب حورس ملك الوجه البحرى فى أرض الوجه البحرى، حتي المكان الذى أُغرق فيه أبوه (أوزيريس) ، وهو «تقسيم الأرضين» (اسم مكان أسطورى) . وهكذا وقف حورس فوق إقليم، ووقف ست فوق إقليم. وقد أقرا السلام على الأرضين فى أيان . وكان ذلك تقسيم الأرضين. ... وبعد ذلك بدا عن طريق الخطأ أن نصيب حورس كان مثل نصيب ست. وهكذا أعطى جب ميراثه لحورس، لأنه ابن ابنه البكر. وكانت كلمات جب للتاسوع هى: «لقد عينت حورس، البكر» .... إنه حورس الذى نشأ ملكاً للوجهين القبلى والبحرى، الذى وحد الأرضين فى إقليم الجدار (أى منف) ، ذلك المكان الذى توحدت فيه الأرضان. ووضع البوص والبردى على باب بيت بتاح المزدوج (معبد بتاح فى منف) . وذلك يعنى أن حورس وست تصالحا واتحدا. لقد تآخيا كى يوقفا القتال حيثما وجدا، لكونهما اتحدا فى بيت بتاح، ميزان الأرضين الذى وزن فيه الوجهان القبلى والبحرى.

وعلى عروش اللشت يمثل حورس وست الوجهين القبلى والبحرى على قدم المساواة. وعلى حجر شاباكا تقلص موضع ست: فبعد أن كان مساوياً لحورس، حرم فيما بعد من الإرث، غير أنه قبل دوره الجديد بإذعان. وهذا النص، وقدر كبير من

الإشارات القديمة الأخرى بشأن الموضوع نفسه التى انتشرت على مساحة لا بأس بها من التاريخ الفرعونى، يطرح تساؤلاً أساسياً: هل تخفى الأسطورة وراءها مرحلة تكوينية فى تاريخ الدولة المصرية؟ أم أنها اخترعت باعتبارها جزءاً من الجمال الفكرى لتكون بمثابة أساس فلسفى للدولة المصرية، التى كانت قد تطورت فى واقع الأمر على امتداد مسار تاريخى مختلف؟ وهل هذا الجزء من حجر شاباكا أسطورة سببية ؟

كانت الأجيال السابقة من الباحثين تنجذب فى كثير من الأحيان إلى أولى هذه الفرضيات، وهى أن الأسطورة كانت تخفى وراءها مرحلة تاريخية تكوينية. فقد رأوا قبل الأسرة الأولى مملكتين، لكل منها «إله قومى» : الوجه القبلى تحت قيادة حورس، والوجه البحرى تحت قيادة ست. وكانت نقطة التحول عندما هزم الوجه البحرى الجنوب وأقام مُلكاً موحداً، وإن كان من المحتمل ألا يكون هذا قد دام طويلاً حسبما تدل على ذلك الشواهد الأخرى التى تشير إلى أن الأسرة الأولى بدأت بتوحيد فرضه الجنوب. ووجود تأويل بديل يعود الفضل فيه إلى علم الآثار. فالواقع أن تركيبة المصادر، التى تضم علم الآثار والأسطورة القديمة، تمثل تاريخاً يستحق الدراسة لكيفية خلق الأسطورة[26].

تكوين الدولة: نموذج من مصر القديمة

تظهر الأيديولوجيا مع الدولة: فهى مجموعة من الأفكار تكمل الكيان السياسى. وكانت كيفية ظهور الدول لأول مرة موضوع دراسة علماء الآثار والأنثروبولوجيا فى السنوات الأخيرة. وتختلف الحالات الفردية اختلافاً كبيراً فى ظروفها الخاصة بها، ولا ينبغى البحث عن قائمة مراجعة خاصة بالأسباب الصحيحة عالمياً. ومصر على وجه الخصوص مثيرة للاهتمام ، إذ يبدو أن تكوين الدولة قد تم فى غياب بعض العوامل الأكثر وضوحاً، إلى جانب كونها واحداً من أقدم النماذج. فمن الصعب أن نتخيل مثلاً أن تكون المنافسة على الموارد بسبب الحاجة المحضة، فى بلد كان عدد سكانه قليلاً نسبياً وموارده الطبيعية وفيرة جداً، عاملاً من العوامل. وليس هناك ما يدل على أنه كانت هناك حاجة إلى الارتقاء بالتجارة إلى قوة كبرى . كما لم يكن هناك تهديد خارجى. ويبدو أن الصراعات التى ظهرت فى وادى النيل فى الفترة السابقة للأسرة

الأولى كانت بين مجتمعات قد حققت تقدماً على سبيل وضع الدولة. ويشير أحد الأدلة إلى وجود صلات خارجية بعيدة المدى فى عصر نقادة الثانى، تصل إلى جنوب ما بين النهرين وعيلام، وكان يعتقد فى يوم من الأيام أن هذه الصلات حددت معالم الطريق الذى وصلت من خلاله الأفكار الأساسية للحضارة – وخاصة معرفة الكتابة – إلى مصر من المجتمع الأكثر تطوراً فى سومر[27]. إلا أن هناك احتمالاً كبيراً أن تكون هذه الصلات دلائل على النجاح المحلى، وليست مؤشرات على وجود تأثير محتم على الشئون المحلية.

ويبدو أن ديناميكية نمو الدولة فى حالات كثيرة تكمن فى حقيقة الزراعة المستقرة نفسها. وبهذا يكون هناك ما يبرر البحث عن «الأسباب» التى أدت إلى بطء العملية فى بعض الأنحاء من العالم، وكذلك البحث عن تلك الأسباب التى سمحت لها بأن تكون سريعة، كما هو الحال فى مصر. إن العامل الأساسى نفسى. فالمهنة المستديمة والعمل فى نفس القطعة من الأرض يخلق إحساساً قوياً بالحقوق الإقليمية التى يتم التعبير عنها بطرق رمزية غامضة، تخلق بدورها إحساساً غريباً بالثقة بالنفس داخل المجتمع ذى الصلة. وميراث هذا فى العالم الحديث هو الكلمة السحرية "السيادة". فهى توقظ فى البعض دافعاً تنافسياً، حيث يرون أن هناك إمكانية للحصول على فائض زراعى، وبالتالى حياة مُرضية، ليس من خلال العمل الزراعى الإضافى الذى يقومون هم به، وإنما بشرائه أو الحصول عليه قسراً من الآخرين. لقد وضعت توليفة الطموح وإحساس الهوية الغامض الأفراد والمجتمعات فى منافسة محتملة مع بعضهم البعض. كما أحدثت تغييراً دائماً فى طبيعة المجتمع. ومن تجمعات الفلاحين التى كانت فى بادئ الأمر بلا قائد، نشأت المجتمعات التى كانت القلة فيها قادة والأغلبية مقودين.

والسبيل الذى اتخذته هذه المنافسة فى أرض ذات إمكانيات زراعية لا حد لها تقريباً، من ذلك النوع الذى وفره قدماء المصريين، يمكننا تصوره من خلال تشابه لعب إحدى اللعبات (شكل 7) . ويمكننا أن نبدأ فقط بتخيل لعبة تلعب على لوح على شاكلة «المونوبولى». فى البداية يكون لدينا عدد من اللاعبين ذوى القدرات المتساوية تقريباً. إنهم يتنافسون (دون وعى إلى حد ما) عن طريق تبادل بعض السلع، وبعد ذلك عن طريق الصراع بشكل أكثر صراحة. وتمضى اللعبة بواسطة تركيبة من الفرص

(مثل العوامل البيئية أو المكانية) والقرارات الشخصية. تبدأ اللعبة بداية بطيئة فى أول الأمر، فى جو من المساواة. وحيث إن عنصر المنافسة يكون كامنا وحسبٌ، فإن الأفضلية تميل ناحية أحد اللاعبين ثم إلى آخر. ولكن بما أنه يفترض أن خسارة كل لاعب يمكن أن تعوضها مكاسبه بعد ذلك، فإن جوهر اللعب، كتجربة شخصية وبالاعتبار النظرى، هو أن المساواة الأولية فيما بين اللاعبين لا تدوم إلى ما لا نهاية. فالأفضلية التى قد لا يلاحظها أحد فى وقت من الأوقات تقلب التوازن بالقدر الذى يشوه استمرار اللعب بعد ذلك. إن لها أثراً «تتابعياً» لا يتفق أبداً وأهميتها الأصلية. وهكذا تتخذ اللعبة بعناد مساراً نحو نقطة حرجة يكون عندها أحد اللاعبين قد تراكم لديه ما يكفى من الأصول للتغلب على التهديدات التى يمثلها اللاعبون الآخرون، وبذلك لا يمكن لأحد أن يوقفه. وتصبح المسألة مسألة وقت قبل أن يكسب باحتكار أصول الكل، مع أن حتمية مكسبه تعود فقط إلى المرحلة الأخيرة من اللعبة.

إن تخيل لعبة كهذه يركز الانتباه على جوهر عملية أساسية لها تأثيرها فى التاريخ. ويمكننا أن نقترب أكثر من الواقع التاريخى عن طريق تخيل آلاف من اللعبات التى تمضى فى وقت واحد، حيث يرقى الفائزون لكى ينضموا إلى سلسلة من اللعبات الأكثر انتقاء التى يرتدون فيها أزياء غريبة ويؤدون فصول اللعبة بحركات وإيماءات مبالغ فيها، بينما يلعب الناجحون منهم إلى الأبد لعبات أعلى. ولا بد كذلك أن نصحح معيار الزمن، ووجهة نظرنا الخاصة بمن هم "اللاعبون" بحق. والتغيرات المهمة التى تحدث فى أى عمر حقيقى واحد من القلة بحيث يكون كل لاعب فى واقع الحال أجيالاً كثيرة تعامل على أنها وحدة. وفى الحياة الحقيقية تستمر اللعبة إلى ما بعد الفوز. إذ تبدأ عمليات التحلل والانقسام وتستمر اللعبات بمختلف النتائج المحتملة.

وتكمن أهمية هذا النموذج فيما يوحى به من أن كل أجزاء مصر التى قامت فيها مجتمعات الزراعة المستقرة فى وقت مبكر قطعت شوطاً على مسار اللعبة قبل مراحلها الأخيرة والأكثر تكلفاً، وكان ذلك نتيجة للعمليات الداخلية المحلية فحسب (شكل 8). وبذلك كانت هناك خلفية متفتحة حتى آخر مرحلة من مراحل التوحيد السياسى. وكان توسع المملكة الفائزة (التى تركزت فى هيراكونبوليس [نخن] يتم على خلفية اجتماعية واقتصادية ، حيث عمليات تكوين الدولة فى سبيلها إلى الاكتمال، وإن كانت بمعدلات مختلفة .

وتساعدنا نظرية اللعبة على فهم عملية التغير الاجتماعى والهيكلى الضخم التى كانت وراء ظهور أولى الدول، أى التحلل المستمر للمساواة الاجتماعية والاقتصادية. غير أنها لم تمس مسألة السبب الذى جعل اللعبة تبدأ لأول مرة. والمحدثون الذين يعيشون فى مجتمعات تتميز بقدر كبير من عدم المساواة يعتبرون دافع التنافس أمراً مسلماً به. أما البدائيون، الذين عاشوا عشرات الآلاف من السنين فى جماعات صغيرة منعزلة تقوم على المساواة، فلم يعانوا من مثل هذا الضغط. ويبدو النزوع إلى التنافس (وهو ليس دائماً عن علم أو بطريقة مباشرة تعودنا عليها نحن)[28]، وبالتالى إلى قلب التوازن، متأصلاً فى تلك المجتمعات التى تستقر وتخلق قاعدة زراعية. والارتباط الدائم والوثيق بقطعة من الأرض له تأثيره على العقل. ليس فقط فى الرغبة الواضحة فى البقاء فى أملاك مأمونة، بل كذلك فى الحث على خلق أسطورة إقليمية. وغالباً ما تعيش المجتمعات البدائية حالة من الوجود خالية من التنافس تقوم على المساواة. وفى الوقت الذى تبلغ فيه عملية تكوين الدولة النقطة التى تتضح عندها بكل يسر وسهولة لعالم الآثار والمؤرخ، سوف يحتل المقدمة دافع قوى للهيمنة. ولذلك يحدد عاملان المدى الذى تقطعه مجتمعات بعينها والسرعة التى تسير بها فى هذا السبيل. العامل الأول يقع خارج الناس وهو قاعدة الموارد الطبيعية، أى إمكانية تجميع جيوب من فائض السلع التى تشكل قاعدة القوة والنفوذ. وهذا أمر لا يصعب علينا تقديره. وبالنسبة لأرض مصر التى تتمتع بخصوبة غير عادية، لا بد أن نعطيه قدراً كبيراً من التقييم. أما الثانى فيقع داخل العقل البشرى: وهو تلك القدرة الإبداعية الخاصة بالتخيل لابتكار أيديولوجيا مميزة تحظى باحترام جلى، من خلال ثروة من الرمز والطقوس. وقد أظهر المصريون عبقرية فى تحقيق ذلك فى وقت مبكر.

أسس الأيديولوجيا : (١) التراث المحلى

من الصعوبة بمكان الدخول فى عقول الناس ومعاملاتهم فى تلك الفترة المبكرة، السابقة لظهور الكتابة، بطريقة محددة. إلا أن علم الآثار يعطينا إشارتين تخبراننا بالوقت الذى كانت فيه عملية تكوين الدولة فى سبيلها إلى الاكتمال. إحدى هاتين الإشارتين هى التجميع المادى للمجتمعات فى مستوطنات أكبر حجماً تصبح مدناً فيما

بعد، وهى عملية توسع مجال التفاعل فيما بين الأفراد الذين يحدث داخلهم التغير النفسى. وهذه هى عملية التحضر. أما الإشارة الأخرى فهى ظهور مكافآت التفاعل التنافسى الناجح فى صورة دليل على الاستهلاك والتباهى شديدى الوضوح. وفى مصر يعنى هذا وجود مقابر للأقلية مجهزة تجهيزاً فيه ثراء، وبشائر أيديولوجيا السلطة الناشئة. وهناك موقعان فى الوجه القبلى يمثلان هذين الجانبين، هما نقادة وهيراكونبوليس [نخن].

وقد أعطت قرية نقادة الحالية، الواقعة على بعد ٢٦ كيلومتراً شمالى الأقصر على البر الغربى من النهر، اسمها لموقع يعرف بصورة أصح باسم أمبوس (نُبت)[29]. وكان هذا الموقع فى العصور الفرعونية مركزاً مهماً لعبادة ست. وكشفت الحفائر والبحث أن المدينة وجدت فى ذلك المكان منذ مرحلة نقادة الثانية الخاصة بثقافة ما قبل الأسرات (اعتباراً من حوالى ٣٦٠٠ ق.م، أى قبل حوالى ٧٠٠ سنة من بداية الأسرة الأولى)، وأنه منذ الأسرة الثامنة عشرة أو قبل ذلك كان بها معبد من الحجر مخصص لعبادة ست. ويبدو أن مساحة المدينة وأهميتها فى العصور التاريخية كانتا أقل بكثير مما كانتا عليه فى فترة ما قبل الأسرات. فواقع الأمر أن نقادة ما قبل الأسرات واحدة من أكبر المواقع المعروفة فى وادى النيل (الشكل 9). وينطبق هذا على كل من المنطقة التى يغطيها ركام مستوطنة تعود إلى ما قبل الأسرات، وكانت تضم جزءاً من سور مدينة (المدينة الجنوبية) المشيد من الطوب اللبن، وعلى مجموعة من الجبانات. وإحدى هذه الجبانات، وهى الجبانة T الصغيرة الواقعة على تل مرتفع خلف موقع المدينة مباشرة، فيها ما يدل على أنها جبانة حكام. فقد كانت بعض المقابر كبيرة بشكل غير معتاد ومجهزة تجهيزاً جيداً، وكانت مبطنة بالطوب اللبن، وهو أغرب ما يكون بالنسبة لعصر ما قبل الأسرات. وإذا جمعنا بين الصورة الأثرية لنقادة ووضع ست اللاحق، سيكون لدينا أساس متين للزعم بأنه فى وقت ما من عصر ما قبل الأسرات كانت نقادة عاصمة لإحدى مشيخات القبائل أو إحدى الدويلات .

والخلفية التاريخية لعبادة حورس أكثر تعقيداً. فإلى جانب ارتباط حورس بالمُلك، فقد كان فى العصور التاريخية إلهاً ذا حلول جلى يمكن التعرف عليه فى أشكال محلية بعينها (وكان هذا هو حال نظيرته الأنثى حتحور بقدر أقل). فنجد أشكالاً محلية

لحورس (وحتحور) داخل مصر وفى بعض المناطق الأجنبية الخاضعة للسيطرة المصرية. وقد التقينا باثنين من هذه الأشكال على قواعد العرش فى اللشت: حورس سيد ميسين، وحورس البحدتى[30]. وكان اسم ميسين يستخدم لموضع على الحدود الشرقية للدلتا ولمدينة إدفو فى الوجه القبلى. وينطبق الأمر نفسه على الموضع بحدت: حيث كان الاسم يستخدم لكل من مدينة فى الوجه البحرى وإدفو فى الجنوب. والآن، حيث إنه على عروش اللشت، وفى سياقات أخرى كثيرة، يمثل حورس باعتباره سيد ميسين وباعتباره البحدتى الوجه البحرى، فينبغى علينا أن نستنتج أنه فى هذه السياقات على وجه الخصوص يكون المقصود هو موضعى الوجه البحرى اللذين يدل عليهما هذان الاسمان. غير أنه بما أن المصريين مغرمون بالجغرافيا الرمزية، فليس هناك ما يبرر وصولنا إلى الاستنتاج بأن المكانين اللذين فى الوجه البحرى هما الأصليان، ثم نقلا إلى الجنوب، وأنه كان هناك فى عصور مبكرة جداً مركز مهم لحورس فى الشمال. وكل الإشارات النصية التى لا لبس فيها لا تعود إلى ما قبل الدولة القديمة. ويفصل حوالى ٥٠٠ سنة هذه الفترة عن عصر تكوين الدولة فى مصر. وحدث أثناء هذا الفاصل أن اتخذ الشكل الأساسى لثقافة البلاط الفرعونى الصفة الرسمية. وكانت العملية عملية ديناميكية انطوت على تنظيم الأسطورة، التى ظهرت فى آخر الأمر فى متون الأهرام، وهى مجموعة من التعاويذ اللاهوتية القصيرة المحفورة داخل غرف الدفن فى الأهرام من نهاية الأسرة الخامسة وما بعدها. وهى أول نصوص دينية باقية تتميز بطولها. وهذا يبعدنا فى واقع الأمر عن الأشكال الأولى للأسطورة كتعبير رمزى.

وقد تدين الخلفية الجغرافية المحيرة لعبادة حورس ببعض الشىء لظاهرة يصعب علينا التحكم فيها. فكل الدلائل التى بين أيدينا تشير إلى حقيقة أن نفس اللغة المصرية القديمة كانت تستخدم من جزيرة فيلة حتى البحر المتوسط لزمن يعود إلى أبعد ما يمكننا الوصول إليه. وربما ينطبق هذا على عصر ما قبل الأسرات، رغم الاختلافات فى الثقافة المادية بين الوجهين القبلى والبحرى. وربما كان لاسم حورس - ومعناه «الذى فى الأعالى» - رواج كبير داخل التجربة الدينية فى أنحاء مصر ما قبل الأسرات. ومع ذلك أعطت بعض الأماكن لهذه العبادة اهتماماً أكثر من غيرها.

وإذا لجأنا لعلم الآثار لوجدنا قدرا محدودا من الأدلة على الارتباطات الملكية بحورس فى العصور المبكرة. ومع أن هذه المادة خافتة إلى حد كبير فيما يتعلق بالطريقة المحددة التى كان المعاصرون سيقرءونها بها، فإنها ترقى إلى أن تكون عبارة موحية فى حد ذاتها. فحورس إله تبدو صورته مرتبطة ارتباطاً لا لبس فيه بملوك الأسرات الأوائل. فصورة الصقر لاتصفها أية صفة مكتوبة، مثل «البحدتى»: إنها تقف بمفردها فوق شعار تبشيرى يحتوى على الاسم الرئيسى للملك (شكل 10)[31].

فى ذلك الوقت كان أحد أهم الأماكن فى مصر هو هيراكونبوليس [نخن]، وهى الآن موقع أثرى متسع فى أقصى الجنوب من الوجه القبلى (شكل 11)[32]. وتتضح أهميته من كبر حجم المنطقة الموجود عليها ركام مستوطنات عصر ما قبل الأسرات، وكذلك من عدد المقابر التى على قدر غير معتاد من الثراء وحسن البناء. وإحدى هذه المقابر، وهى رقم ١٠٠، المبطنة بالطوب اللبن والمرسوم عليها مجموعة من المناظر، لا بد أنها كانت تخص أحد ملوك عصر ما قبل الأسرات المتأخر[33]. ومع أن الرسم يبدو غريباً إذا ما قورن بفنون عصر الأسرات الذى اتخذ صفة رسمية، فإننا نتعرف على الأقل على عنصرين رئيسيين ظلا فى العصور التاريخية: وهما عنصر المنتصر الذى يضرب الأعداء المقيدين بالمقرعة (الشكل 16)، وعنصر الحاكم الواقف تحت مظلة بسيطة، تذكرنا بمناظر سابقة للملك وهو جالس أثناء اليوبيل أو احتفال الحب سد (الشكل 11).

وتشبه هيراكونبوليس فى مجملها نقادة. فكلا الموقعين يصوران كذلك انكماشاً فى اتجاه نهاية عصر ما قبل الأسرات. ويميز هذا تغيراً أساسياً فى طبيعة الاستيطان ارتبط بظهور التحضر الحقيقى فى مصر: أى التحول من المستوطنات منخفضة الكثافة إلى المدن ذات الكثافة السكانية الأعلى بكثير، التى تحيط بها الأسوار المبنية من الطوب اللبن.

وكان وضع المدينة الواقعة على السهل الذى تغطيه مياه الفيضان التحمت بها هيراكونبوليس قليلة الكثافة فى آخر الأمر، أفضل كثيراً من وضع نقادة. فقد كان الدمار أقل حدة، وكان الكثير من الحفر الأثرى يتم بحرص إلى حد معقول. واكتشفت شذرات من أجزاء مختلفة من المدينة التى تعود إلى عصر الأسرات المبكر. وكانت

إحداها سوراً من الطوب اللبن فيه بوابة ضخمة، وكان مزيناً بكامله بأسلوب البوائك الذى يبدو أنه كان رمز الحكم («الشعار التبشيرى» المستخدم كإطار حول الاسم الحورى للملك مشتق منه). ويمكننا أن نتعرف فيه على بوابة أحد قصور عصر الأسرات المبكر، وهو النموذج الوحيد لعمارة القصور الحقيقية التى بقيت فى مصر من ذلك العصر المبكر. والجزء الآخر هو أساسات أقدم معبد، وهو الذى دفن فيه الكهنة فى قرون لاحقة خبيئات النذور من عصر ما قبل الأسرات وعصر الأسرات المبكر بطريقة مبجلة. ومرة أخرى تبدو الروابط الملكية واضحة. فالخبيئات تشمل تماثيل، ومزهريات من الحجر، وشظايا قطع منقوشة أخرى تخص ملكاً أو أكثر من الأسرة الثانية، وفوق هذا كله صلاية نعرمر (الشكل 12). وهذه القطعة الرائعة، المحفورة حفراً غائراً على وجهى لوح من الشست أو الإردواز، تحيى ذكرى الانتصار الذى حققه الملك نعرمر فى بداية الأسرة الأولى على العدو الشمالى. وهو يلبس تاجى الوجهين القبلى والبحرى، وتقابله على أحد الجانبين صورة الإله حورس. واللوحة كلها مزينة طبقاً لقانون مصر الفرعونية الفنى الكامل، وتعرض بعض العلامات المميزة الرئيسية الخاصة بالملوك فى تصويرها لنعرمر، كما تحتوى على مجموعات صغيرة من الرموز الهيروغليفية. وتضم صلاية نعرم بعضاً من عناصر الثقافة الفرعونية الأساسية، وتعلن عن وجودها فى بداية تعاقب الأسرات.

وفى عصور لاحقة أصبحت هيراكونبوليس مقر واحد من أشكال الإله حورس: وهو حورس نخن (هيراكونبوليس). وهذا الشكل واحد من أشكال جغرافية قليلة جداً من حورس اعترف بها فى متون الأهرام (التى تتجاهل حورس البحدتى، وكذلك حورس سيد ميسين [إدفو]) . وعلى قدر ما يمكننا التأكد منه بشأن أى تطابق فى العبادة بالنسبة لعصرى ما قبل الأسرات المتأخر وعصر الأسرات المبكر، كانت هيراكونبوليس موطن عبادة مهمة لحورس حتى فى ذلك الوقت. وبذلك فنحن أمام مركزين رئيسيين فى الوجه القبلى يعودان إلى عصر ما قبل الأسرات (هما نقادة وهيراكونبوليس) يحملان أمارات كونهما عاصمتين لمشيختى قبيلتين أو دويلتين، كما يؤكدان صلتهما بنفس الإلهين اللذين صارا رمزين للمُلك الموحد، وهو ما يعد جزءاً من الدليل على ذلك.

والدليل على الموقعين ليس متماثلاً تمام التماثل: فإن علينا أن نفسر سبب أن أشكال حورس الأخرى كان لها السبق على حورس هيراكونبوليس. فبما أننا نتعامل

مع نتاج شكل من أشكال العقلنة بنفس القدر التى نتعامل به مع نتائج التطور السياسى، فلابد أن نكون حذرين عند تقديمنا أى نوع من أنواع التأويل والتفسير. غير أنه لابد من ملاحظة حقيقة تاريخية. فقد ظلت هيراكونبوليس مهمة حتى الجزء المبكر من الدولة القديمة، حيث أصبحت مدينة ذات أسوار تكتظ بالمبانى (انظر الشكل 48). ويبدو أنها اضمحلت بعد ذلك كمركز استيطان، وإن ظل معبدها مهماً وأعيد بناؤه فى كل من الدولة الوسطى والدولة الحديثة. وقد احتلت إدفو، الواقعة على بعد ١٥ كيلومتراً جنوباً، مكانها كمركز رئيسى للحياة الحضرية فى هذا الجزء من مصر. وهنا تكشف السجلات الأثرية عن مكان ذى أهمية لا تذكر فى العصور المبكرة[34]. ولم يحدث أن ظهرت مدينة ذات أسوار إلا فى الدولة القديمة، وهى المدينة التى نمت وقتها لتصل إلى أقصى اتساع لها فى عصر الانتقال الأول. وأدى ظهور إدفو كمركز إقليمى على حساب هيراكونبوليس إلى اندلاع العديد من الحروب الداخلية المحلية فى الجزء المبكر من الدولة القديمة. وأثناء ذلك استولى على إدفو حاكم هيراكونبوليس، واسمه عنخ تيفى. وفى بداية الدولة الوسطى كانت عبادة لحورس فى إدفو قد برزت، حيث ظلت على بروزها حتى العصر الرومانى. ويعكس ذلك استعمال اسمى بحدت وميسين حتى النهاية كمرادفين لإدفو. وبذلك أدت حلقة من التاريخ المحلى،الذى لا نفهم خلفيته تمام الفهم، إلى تعقيد التراث الأسطورى، وإن كان من المؤكد أن طابعه كان اجتماعياً اقتصادياً.

وماذا عن المكان المعروف باسم بحدت؟ إننا تحت رحمة لعب المصريين بالكلمات، بما فى ذلك أسماء الأماكن، حتى أنه من غير المحتمل أن تعود بنا الدراسة المتأنية للدليل إلى الأصل الصحيح. بل لا يجب علينا أن نفترض أنها بدأت كمكان حقيقى له أهميته على الأرض. لقد كان العقل المصرى شديد الإبداع فى هذا المجال. غير أن هناك نقطتين يجب توضيحهما. ففى المرة الأولى التى يظهر فيها «حورس البحدتى»، وكان ذلك على لوحة حجرية محفورة وجدت أسفل الهرم المدرج (حوالى ٢٧٠٠ ق.م)، نجد أن هناك روابط رمزية مع الوجه القبلى[35]. أما النقطة الثانية فهى أنه بالرغم من أن بحدت لم يصبح فى واقع الأمر اسماً لأى موضع فى الوجه البحرى، يبدو أنه كان يقع بالقرب من البحر المتوسط، فى منطقة كانت فى العصور المبكرة بحيرة ضحلة،

وربما كان بلا أى كثافة سكانية ذات أهمية تذكر. وواقع الأمر أن هناك مقابلاً موثقاً جيداً لعملية تحول العبادة العامة تمثله عبادة ست. ومع أنه ليست لدينا الأسس التى نقيم عليها الشك بأن ست كان فى الأصل إله أمبوس (نبت/نقادة)، ففى العصور التاريخية تأسست كذلك عبادة للإله ست شرقى الدلتا. وفى الأسرة التاسعة عشرة غطت عبادة شرقى الدلتا تلك على عبادة أمبوس، حتى أنه بينما شيد الملوك الرعامسة معبداً جديداً رئيسياً لست فى عاصمتهم شرقى الدلتا بررعمسو، ظل معبد ست فى أمبوس الذى شيد فى الدولة الحديثة متواضع الحال. ولأن هذه العملية حدثت فى وقت متأخر عن العملية الخاصة بحورس، فقد كانت أفضل توثيقاً، وبالتالى أكثر شفافية.

وتوازى جغرافيا حورس وست الرمزية زوجاً آخر من الآلهة التى كانت ترمز لثنائية المُلك. إنهما واجيت، إلهة الكوبرا التى من مدينة بوتو فى الدلتا، ونخبت إلهة الرخمة التى من الكاب. وقليل ما نعرفه عن الفترة المبكرة لبوتو[36]. فقد كانت مثل بحدت المتأخرة تقع على مقربة من ساحل البحر المتوسط، وكانت عامرة بالسكان فى أواخر عصر ما قبل الأسرات، وإن لم تكن كثافتها معروفة. إلا أن الكاب تقع على الجانب الآخر من النهر فى الجهة المقابلة لهيراكونبوليس. ويبدو سجلها الأثرى سجل مستوطنة متواضعة الحجم من عصر ما قبل الأسرات، حيث تطورت لتصبح مدينة ذات أسوار أثناء الدولة القديمة[37]. وهى ليست نظيراً لأى من نقادة أو هيراكونبوليس. وجعل إلهتها ضمن رموز المُلك الأساسية لا بد أن يعكس شيئاً من الاهتمام المحلى من جانب مملكة هيراكونبوليس ما قبل الأسرات الذى لا يتضح من الصورة الأثرية العامة. وأتت الحاجة إلى شريك بواجيت(*) ، إذ ليس لدينا أى دليل على وجود من سبقها إلى ذلك .

إن بحدت وبوتو تقودا،ننا إلى الموضوع الصعب الخاص بعلم آثار دلتا النيل المبكر .

والمرحلتان التقليديتان لثقافة ما قبل الأسرات - فى العمرة وجرزة أو نقادة الأولى ونقادة الثانية، حسبما يفضل من مصطلحات - ممثلتان تمثيلاً ثرياً فى الجزء الجنوبى من الوجه القبلى، وفى بعض الجيوب المعزولة إلى الشمال منه، حتى مدخل

(*) هى بوتو فى الأقليم السادس من مصر وهى تل الفراعية الحالية بالدلتا . وسميت «واجيت» أى الخضراء واعتبرت بمثابة الحامية للملك - باعتبارها المسيطرة على الدلتا - (المترجم) .

الفيوم. ولا تعرف أية مواقع مستوطنات شمالى نقادة، غير أن هذا قد يكون ناتجاً عن انتشار جانبى أكثر اتساعاً لطمى النيل فى مصر الوسطى منذ العصور القديمة. وقد غطت الحقول الحديثة المواقع الرئيسية الواقعة على حافة الصحراء التى تساهم مساهمة كبيرة فى معرفتنا بثقافة ما قبل الأسرات الواقعة إلى مسافة أبعد فى الجنوب.

وما إن نصل إلى الدلتا حتى تصبح فرصتنا فى العثور على مواقع نعقد بها مقارنة عادلة مع الجنوب ضئيلة للغاية فى حقيقة الأمر. ففى الجنوب يعنى ضيق الوادى أن هناك فرصة جيدة لأن يكون ما بقى على حافة الصحراء صورة تمثل ما كان قائماً فى يوم من الأيام فى السهل الذى كانت تغطيه مياه الفيضان. إلا أن شكل الدلتا يقلل فرص أى تقييم صحيح من الدليل المقابل. فمعظم المواقع التى فى الدلتا كانت كما يبدو على مسافة بعيدة من حواف الصحراء. وحتى يومنا هذا، لم تكشف أية حفائر أو استطلاعات فى أراضى الدلتا التى كانت تغمرها مياه الفيضان بالتحديد عن مواد لها أهميتها من عصر ما قبل الأسرات، وإن ثبت أنه من الممكن الآن تحديد مواقعها باستعمال الحفارات. ولذلك فإن علينا الاعتماد على المواقع التى على حافة الصحراء، ونحن نعرف أنها قد تكون بعيدة عن أكثر المجتمعات ديناميكية، وبالتالى لا تمثلها تمثيلا كاملاً.

ومن أهم المواقع قرية مرمدة بنى سلامة التى تعود للعصر الحجرى الحديث وتقع على الحافة الجنوبية الغربية من الدلتا(38). وعلى امتداد فترة طويلة تعاقبت مجتمعات العيش فى هذا المكان، حيث خُلطت مناطق الاستيطان بمناطق الدفن، وهى تقدم نموذجاً لنوع شغل الأرض بكثافة منخفضة من السكان، الأمر الذى يفسر وجود تلك المناطق الشاسعة التى كان تغطيها كل من نقادة وهيراكونبوليس فى مراحلهما الأولى. وكانت المقابر والأكواخ صغيرة الحجم وفقيرة، وكانت لا تكاد تبين ما يدل على الترتيب الاجتماعى. وكان أهل القرية يقومون بأعمال الزراعة وكانوا يصنعون قدراً محدوداً من المصنوعات. ومقارنة بأندادهم فى الوجه القبلى، يبدو فخارهم وغيره من المنتجات بدائياً وغير متطور. والمواقع الأخرى التى يمكن أن نضمها على استحياء إلى المنطقة الثقافية فى عصر ما قبل الأسرات الشمالية أو البحرية هى مجموعة تقع حول حواف

مدينة القاهرة الحالية، ومواقع متناثرة على الحدود الشمالية لمنخفض الفيوم. والثانية، التى تمثل العصر الحجرى فى الفيوم، تنتمى إلى ثقافة تجمع بين الزراعة وصيد الأسماك، وهى من الناحية الجغرافية أبعد عن وادى النيل والدلتا من مرمدة. إلا أن ثقافات منطقة القاهرة، رغم أنها هى الأخرى ليست من الدلتا فى واقع الأمر، تقع فى منطقة على قدر أكبر من الأهمية الاستراتيجية من الناحية السياسية. وليس من قبيل الصدفة أن كلاً من عاصمة مصر القديمة منف وعاصمتها الحديثة القاهرة تقعان فى مكان قريب من التقاء وادى النيل بالدلتا.

وأكثر ما نعرفه يتعلق بموقع المعادى، وهو الآن قريب من إحدى ضواحى القاهرة الجنوبية التى تحمل هذا الاسم(39). وكانت تلك مستوطنة متسعة ذات تاريخ يمتد على الأقل لجزء من الفترة المقابلة لنقادة الأولى والثانية فى الوجه القبلى. وكان يضم منازل بنيت بناءً أكثر سخاء من منازل مرمدة. إلا أننا رغم ذلك لا يمكننا بالأبنية ولا بالمصنوعات التعرف على أى تراكم مهم للثروة أو المكانة. كان النحاس موجوداً، ليس فقط كمادة مستخدمة فى صنع عدد محدود من الأشياء، بل كخام من نوعية رديئة، وربما دل هذا على عامل مهم فى اقتصاد المعادى: فقد كانت تقع فى موضع يسهل منه الوصول إلى سيناء ، حيث يفترض أن النحاس كان متوافراً من خلال التجارة مع عمال النحاس الفلسطينيين، المعروف أنهم كانوا موجودين فى جنوب سيناء فى تلك الفترة. ولكن أية ثروة ادخرتها المعادى لا تنعكس على أرض الواقع. فهناك دليل كبير على أن ثقافة المعادى كانت تمثل مناطق أخرى من دلتا النيل نفسها. ومصطلح "ثقافة المعادى" آخذ فى الشيوع. وعلى سبيل المثال، يقال إن مادة مكتشفة حديثاً فى بوتو تشبهها(40).

وعند تقييمنا عصر ما قبل التاريخ فى مصر تقييماً عاماً، لا بد أن نأخذ فى اعتبارنا الندرة الشديدة للأدلة الموجودة فى الدلتا. إلا أن هذا لا يعد أساساً للتسليم بوجود ثقافة مفقودة تقابل من حيث نوعها وتميزها تلك التى فى الجنوب. لقد أدى مرور الزمن إلى حدوث تغير ثقافى، إلا أن أهم عنصر ثقافى هنا هو التواجد الكبير للمادة التى فى تراث نقادة بالوجه القبلى، منذ عصر نقادة الثانية، مروراً بالمرحلة الثالثة، حتى بداية الأسرة الأولى. وهذه المادة معروفة من الاكتشافات التى تتم بالصدفة ومن

الحفائر، بما فى ذلك تلك التى أجريت مؤخراً فى جبانة على الحافة الشرقية لمنشأة أبو عمر[41].

ومن السذاجة معادلة الثقافة المادية و "المستوى" الخاص بها بالتعقد الاجتماعى والسياسى. فلا بد أن نقبل أن درجة ما من المركزية السياسية والاجتماعية قد نشأت فى الدلتا بحلول عصر ما قبل الأسرات المتأخر، وأن أهل الشمال، شأنهم شأن الناس أينما كانوا بغض النظر عن أسلوب حياتهم من الناحية المادية، كان لديهم من الأساطير ما يتسم بقدر كبير من التطور كان لهم اجتماعى يرتبط بالدعاوى الإقليمية. وهنا يفيد نموذج اللعب. إذ يبدو أن طريقة الحياة القائمة على الزراعة المستقرة قد ظهرت فى الشمال على الأقل فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه فى الجنوب. ولا بد أن نفس عمليات المنافسة بدأت دخول اللعبة هناك كذلك، حيث لم تخسر إلا فى مراحل عدم التوازن المتأخرة. فالأدلة الأثرية تشير إشارة قوية إلى تفاوت ملحوظ فى معدل التطور نحو المركزية فى المراحل الأخيرة من عصر ما قبل التاريخ. فقد نشأت دولة، وربما مجموعة من الدول التى قامت حول مستوطنة كبيرة فى كل حالة (مدينة بدائية) ، من التوسع المحلى فى الجنوب (الشكل 13) . وتلا ذلك صراع فيما بينها، وتبعه توسع آخر لكل من الثقافة السياسية والمادية حتى ظهور قدر من الوحدة فى الشمال والجنوب، قبل بداية الأسرة الأولى (انظر الشكل 8). وفى المرحلة الأخيرة من العملية، التى انطوت على حروب داخلية جرى تخليدها على العديد من الأشياء المحفورة بما فى ذلك صلاية نعرمر، يتضح تمام الوضوح أن مركز هذا النشاط – وهى عاصمة أبرز دول المدن البدائية – هو هيراكونبوليس. ومن الناحية الثقافية، هذه الفترة هى نقادة الثالثة. واصطلاح الأسرة صفر كان ينطبق فى بعض الأحيان عليها. وهو اصطلاح مفيد ، حيث تحقق أنها لم تضم أسرة حاكمة واحدة وإنما حكاماً محليين عديدين من دول المدن البدائية التى لم تصلنا إلا أسماء القليل منها.

وأقدم الأسماء فى قوائم الملوك الأساسية(باستثناء قائمة سقارة) هو مينا[42]. فأين ينبغى لنا أن نضعه؟ بالنسبة لملوك الأسرات الأوائل، استعملت القوائم المتأخرة أسماء بديلة لأسماء حورس المألوفة لنا من مصادر عصر الأسرات المبكر، وتظل هناك مشكلة فنية فى معادلة المجموعتين فيما يتعلق بالمجموعة الأولى من الملوك. فربما كان

مينا هو الاسم البديل لنعرمر، أو لمن خلفه مباشرة، وكان اسمه الحورى عحا. ولا أهمية لذلك. إذ إن مينا أول ملك فى القوائم يحظى غالباً فى العصور الحديثة باهتمام يفوق ما كان يحظى به فى قديم الزمان. فمن الواضح أنه ليست هناك أساطير تتصل به بشكل خاص. وفى الرمسيوم (المعبد الجنائزى لرمسيس الثانى) هناك قائمة قصيرة تضم كل ملوك الدولة الحديثة حتى رمسيس الثانى يتصدرها الملك منتوحتب الثانى من الأسرة الحادية عشرة، وهو المنتصر فى الحرب الأهلية فى عصر الانتقال الأول، ويأتى مينا قبله. إلا أنه لا يمكننا أن نتأكد من أن هذا يعكس أية معرفة خاصة بمينا كأول موحد للبلاد، أو أنه استنتاج من الحقيقة البسيطة التى تقول إنه كان أول اسم فى القوائم الأخرى. والواقع أن قائمة سقارة للملوك تستبعده، حيث يبدأ عدها من بعده بعدة ملوك. وهذا أمر يدعو للدهشة إلى حد كبير ، إذا ما عرفنا أن هيرودوت يسجل قصة يقول فيها إن مين (كما يسميه) أسس مدينة منف، التى كانت سقارة جبانتها الرئيسية. وليس لدى مانيتون أى شىء ذى بال ليقوله. والمادة الخاصة بمينا تقول: «قام بحملة فى الخارج واكتسب شهرة، إلا أن أحد أفراس النهر قضى عليه»[43].

وينتمى مينا إلى المرحلة الأخيرة من مراحل تكوين الدولة. وكان الجانب الجديد فى دولة عصر الأسرات هو الاحتفاظ بالحوليات المكتوبة: وهى مذكرات موجزة بالخط الهيروغليفى بشأن أهم الأحداث فى العام الملكى. وقد جرى تجميع حجر باليرمو من مثل تلك المستندات. وكانت تلك المستندات على وجه الخصوص تستهل بما نطلق عليها الأسرة الأولى (حيث يعود أقدمها إلى عهد عحا، خليفة مينا). وربما كان ذلك سبباً كافياً بالنسبة للأجيال التالية كى تبدأ قوائمها بمينا (أو نعرمر أو عحا). فقد كان أول ملك يُسجل عهده تسجيلاً صحيحاً بالحوليات.

وسبق أن ذكرنا أن قائمة تورين للملوك ذهبت إلى ما قبل مينا، بما ذكرته عن «أرواح» لا اسم لها بينه وبين الآلهة. ويمثل حجر باليرمو مفتاحاً يوصلنا إلى أصلها. ففى أعلى الحجر سطر من الأشكال المستطيلة التى لم تكن تحتوى على أحداث العام المنصرم، بل أسماء من تولى الحكم من الملوك بالإضافة إلى أشكال صغيرة لملوك جالسين . وهم فى الجزء الرئيسى من الحجر يرتدون التاج الذى أصبح فى العصور التاريخية يرمز إلى مُلك الوجه القبلى. وفى جزء آخر، موجود فى متحف القاهرة،

يرتدون التاج المزدوج. ولا بد أن هذه الأسماء تخص ملوكاً من عصر ما قبل الأسرات لم يكن معروفاً عنهم أى شىء آخر بحلول الأسرة الخامسة. وبما أنه جرى تجميعهم على أنهم "أرواح"، فقد كانوا تحولاً مناسباً بين الآلهة والملوك الحقيقيين الذين سجلت عهودهم. وهم بالنسبة لنا لا بد أن يكونوا ملوك الأسرة صفر، المسئولين عن العديد من المناطق – أو الدول المدن البدائية – فى أنحاء مصر. والحقيقة الجديرة بالذكر، التى تشير إلى أنه فى الجزء الموجود فى متحف القاهرة ترتدى بعض هذه التماثيل الصغيرة تاجاً مزدوجاً، تعنى كذلك أن المصريين أنفسهم لم يروا مينا على أنه أول من وحد البلاد، على الأقل فى العصور المبكرة. وإذا كان هذا عرفاً يعتد به، فهو يتفق مع تاريخ سياسى مطول من تكوين الدولة الموحدة، كما توحى بذلك السجلات الأثرية والفنية[44] .

أسس الأيديولوجيا (٢): احتواء

الصراع واحد من موضوعات مجموعة من المناظر التى حفرت حفراً غائراً رقيقاً على الحجر اللين والعاج، وهى تعود فى الأصل بكل تأكيد إلى قصور الملوك أو عائلات النخبة فى الوجه القبلى[45] . فهى تحتوى على رمزيتهم. وقد ظلت بعض العناصر موجودة فى رسومات العصور التاريخية، إلا أننا لسنا متأكدين إن كانت القيم والمدلولات قد طرأت عليها تعديلات أثناء تناقلها أم لا. والأمر الأكثر خطورة فيما يتعلق باحتمالات قدرتنا على الفهم الصحيح هو غياب الكثير من الملامح المميزة لرسومات العصور التاريخية غياباً تاماً. وبذلك فإن كل صور ورسومات الملكية المتأخرة تقريباً مفقودة، على الأقل حتى نهاية سلسلة الأشياء التى نحن بصددها. وتمثل صلاية نعرمر وبعض الأشياء المتصلة به (أبرزها رأس دبوس العقرب، وهى أيضاً من هيراكونبوليس). وتعود الأشياء الأثرية ، مثل اللوحات الإردواز ورؤوس الدبوس الحجرية التذكارية إلى عالم عصر ما قبل الأسرات المتأخر. ولكن القطع الأخيرة من حيث مضمونها وأسلوبها نتاج تقنين عظيم للتقاليد التى ظهرت قبيل بداية الأسرة الأولى. ففى هذا الوقت، وتأسيساً على عمل مبدعى القطع التذكارية السابقة، ابتكر الأفراد المبدعون نظاماً فكرياً على قدر كبير من التجانس. وشمل هذا النظام الكتابة الهيروغليفية ، والفن التذكارى الرسمى من ذلك النوع الذى أصبح إحدى العلامات البارزة فى مصر

الفرعونية، والرسومات الأساسية الخاصة بالمُلك والحكم. وهى فى مجملها لم تكن على وجه الدقة الثقافة المصرية الخاصة بالقرون التالية. ففى العمارة الرسمية ومدلولها على وجه الخصوص أصبح لعصر ما قبل الأسرات تراث خاص به خضع فيما بعد، فى بداية الدولة القديمة، لعملية إعادة تقنين كبيرة للشكل والمدلول. ورغم التعديلات اللاحقة، فإن مدلول ثقافة عصر الأسرات المبكر متاح لنا إلى حد ما بسبب غنى المادة اللاحقة بنفس الأسلوب. ويصبح هذا بصورة أقل كثيراً بالنسبة لمادة ما قبل الأسرات. إن عملية التقنين الأكاديمى الواعى التى وضعت القواعد الأساسية التى نؤول بها الآن الثقافة المصرية تعد كذلك حاجزاً أمام فهمنا للمادة التى أنتجتها أجيال سابقة، خلال عصر ما قبل الأسرات المتأخر. ومع ذلك يمكننا محاولة تأويل بعض الموتيفات اعتماداً على الحدس.

إن أحد أبرز الجوانب هو استخدام الحيوانات، الحقيقى منها والخيالى، كمجاز لقوى الحياة (الشكل 14). وهى فى بعض الأحيان تظهر وحدها، وأحياناً أخرى تشارك الأشكال البشرية فى أحد المناظر. فهى تشارك فى العنف، حيث تكون القوى الشرس الذى يهاجم الضعيف، أو تكون فى حالة سكون. ويبرز ذلك الجمع المتناغم والمتوازن بين حيوانات شرسة بعينها – كالكلاب البرية والأسود والمخلوقات الأسطورية ذات الرقاب الطويلة. وهى دائماً من ذوات الأربع وتشبه صورتى حورس وست. ويظهر أحد النماذج على صلاية نعرمر، وفيها يوحى السياق بأن الحيوانات التى جمع بينها ترمز إلى الانسجام السياسى. وتنقل هذه الفكرة بصورة عامة تعمد الفنان رسم إطار أساسى منسجم للعالم المضطرب يمكن تحقيقه، وهو الإطار الذى يتخذ شكل الأضداد المتصالحة وقد رُسِم بصورة مجازية. والتصوير البديل للنظام، وهو كذلك استخدام الحيوانات كرمز لأشكال الحياة الطبيعية الغاشمة، كان عن طريق مواكب الحيوانات السلمية، حيث ترص فى صفوف أفقية الواحد فوق الآخر. وفى بعض الأحيان كان يتم التأكيد على النظام باستخدام خطوط قاعدية أفقية متوازية تقف عليها الحيوانات. وفى هذه الحالات يمكننا رؤية بداية نظام السجل الذى سيصبح ملمحاً مميزاً من ملامح الفنون الفرعونية. واستخدام الحيوانات كمجاز لقوة الحياة الفوضوية الجامحة بقى فى الفن الدينى الخاص بالعصور التاريخية، ويتضح هذا أكثر ما يتضح فى مناظر

الملوك والآلهة وهم يصطادون الطيور البرية (وفى حيوانات العصر اليونانى الرومانى كذلك) فى شبكة ضخمة، حيث يوضح النص والسياق رمزية احتواء الفوضى (الشكل 15)[46].

وتخضع النقوش الجدارية فى المقبرة ١٠٠ بهيراكونبوليس للتأويل نفسه. فهى تصور عالماً رمزياً العنصر الأساسى فيه هو طابور من السفن: وهى نقاط منيعة من النظام والسلطة كانت تنقل فى الوقت ذاته صورة الحركة خلال الزمن. وترتبط إحداها، وتحمل صورة لحاكم جالس تحت مظلة وتحميه حارسات، ارتباطاً محدداً بالحكم. وعلى كل الجوانب هناك تهديدات من مظاهر قوة الحياة الغاشمة، بعضها على هيئة حيوانات صحراوية وأخرى فى صورة آدمية. والتهديدات تقابلها نقوش للأسْر والهزيمة. ونجد أن نفس الصراع الأساسى، الذى يمارس أثناء الرحلة الأبدية خلال الزمن، وراء بعض المناظر التى تعود إلى زمن بعد ذلك بكثير والمرسومة فى مقابر فراعنة الدولة الحديثة فى طيبة. إلا أنه بحلول ذلك الوقت، كانت خمسة عشر قرناً أو يزيد من التطور الفكرى والفنى قد حولت منظر الفوضى الحقيقى البسيط إلى عالم آخر متخيل من الأخطار تعيش فيه أرواح مخترعة (انظر الشكل 15).

إن من حقنا أن نطرح هذا السؤال: ما هو مصدر الفوضى الذى جعل نفسه محسوساً فى ذلك الوقت؟ إنه إحساس شائع بالنسبة لأهل أى مجتمع مستقر أن يشعروا بأن العالم الخارجى المضطرب والمعادى يحاصرهم ويهددهم (قارن بين الشكلين 78 و79). وبالنسبة للوحدات السياسية الصغيرة فى مصر فى عصر ما قبل الأسرات المتأخر كانت الأوضاع محدودة: فالصحراء الموحشة والمجتمعات المجاورة ليست بعيدة جداً على طول نهر النيل. إلا أن المجتمعات الأكثر نجاحاً من بين تلك المجتمعات، وهى دول المدن البدائية، كانت قد دخلت فى صراعات أكثر تنظيماً على الأرض، وهو الصراع الذى سيؤدى فيما بعد إلى ميلاد الدولة المصرية. وينطوى واقع الصراع المُلِّح على شن هجمات على المستوطنات ذات الأسوار . وكانت أصناف الرعب الخاصة بميادين القتال تترجم فى بعض الأحيان إلى مشاهد مصورة للقتال الفعلى (الشكل 16)، وإن ظل جوهر الصراع، الخاص بعدم التوازن، ينظر إليه بصورة مجازية عمومية. ونتيجة لتجربة الفوضى والكفاح، وانهيار التوازن السابق،

أصبح هناك إدراك لعالم من الصراع، الحقيقى والمحتمل، بين الفوضى والنظام. وكان لا بد أن يظل هذا أحد محاور الهم الفكرى بقية التاريخ المصرى. وكذلك الحال بالنسبة لفكرة إمكانية احتواء الفوضى والعصيان (وإن لم تكن هزيمتهما المطلقة) من خلال حكم الملوك والوجود الحميد للقوة الإلهية العليا المتمثلة فى قوة الشمس الرءوف. وتطابقت الرؤية الفكرية الخاصة بطبيعة الكون مع بنية القوة السياسية.

أما الحيوانات المتماثلة فقد صورت متطابقة دائما. حتى ذلك الزوج المصور على صلاية نعرمر ليس فيه أية علامات مميزة توحى بأن هناك رغبة فى ربط أى منهما بطريقة مميزة بجزء من البلاد أو أية مملكة منفصلة. ولا بد أن يكون الانسجام السياسى موجوداً فى المدلول، ولكن فقط باعتباره جانباً ملحاً من جوانب نموذج الانسجام العام فى العالم الذى كان المصريون يعرفونه.

ومع ذلك فإن أزواج الحيوانات الموجودة على صلايات الطقوس فى عصر ما قبل الأسرات كانت تبشر بصورتى حورس وست اللتين زوجتا. فقد كانت أزواج ما قبل الأسرات رموزاً لبيان عام. أما صورتا حورس وست فتمثلان تطبيقاً أكثر تحديداً للمفهوم وتصويره لظروف مصر السياسية الجديدة فى عصر الأسرات. وهناك كذلك مرحلة انتقالية مثيرة للاهتمام يمكن التعرف عليها. فأقدم صور لأزواج الحيوانات التى تمثل بصراحة وحدة مملكتين ليست صوراً لحورس وست، ولكنها شكلان متقابلان لحورس، فى صورة عتيقة تشبه على وجه التحديد شكل حورس هيراكونبوليس بالذات (الشكل 17)[47]. وهذا تعديل صريح لأشكال الأزواج المتطابقة الموجودة على الصلايات الإردواز. وهو يتكرر من حين لآخر فى العصور التاريخية، حيث يمكن تمثيل كلتا المملكتين على أنهما ميراث من حورس[48].

ولم يكن التوازن الكونى فى حد ذاته كافياً. فقد كان المجتمع المصرى فى عصر الأسرات مجتمعاً هرمياً بصورة قوية. وكان الانسجام داخل الدولة ينساب من مصدر واحد، وهو الملك، من خلال المسئولين الملكيين إلى الناس. وكان دور حافظ النظام الذى يقوم به الملك دوراً يتسم بالسمو. ولم يكن هذا الدور يغطى مسئولية العدل والورع فحسب، بل كذلك هزيمة العصاة. والنصوص الفلسفية التى تعود إلى عصر الدولة الوسطى لا تصور العصاة فقط من ناحية الفوضى الاجتماعية، بل كذلك من

ناحية الكوارث الطبيعية والكونية. والضمان الأخير للانسجام فى المجتمع وفى النظام الطبيعى لم يكن توازن الأضداد. فلا بد أن تكون هناك قوة عليا. ويمكننا أن نلمح هذا فى أحد نقوش مقبرة هيراكونبوليس المزينة (انظر الشكل 14). وهنا نجد أن الحيوانين اللذين يواجه كل منهما الآخر (وهما أسدان فى هذه الحالة) تفصلهما عن بعضهما وتوازن بينهما صورة أحد الحكام. وقد مَكَّن إدخال ست من أن ينعكس هذا على حقائق الديانة الأساسية. ولكى نفهم هذا لا بد أن نتذكر أن كل ملك من الملوك كان كذلك تجسيداً خاصاً لحورس.

ويصير ست هو الخاسر، والخصم بالنسبة لحورس. كما يصبح الخصم بالنسبة للنظام على نطاق واسع: أى الاضطراب السماوى فى صورة العواصف، والطبيعة المعادية الخاصة بالصحراء المحيطة، والطابع الغريب الخاص بالآلهة الأجنبية، بل يصبح كذلك ذوى الرؤوس الحمراء – فقد كان ذلك كله تعبيراً عن ست. إلا أنه طبقاً لما يخبرنا به نص حجر سقارة، يذعن ست كذلك للحكم الإلهى ضده. وهو يحتفظ بسلطة أن يكون قوة شباكا فى ميزان الانسجام النموذجى.

وأسطورة حورس وست ليست انعكاساً للطريقة التى ظهرت بها الدولة المصرية من الناحية السياسية. ولا يحتمل أن تكون تفاصيل عصر الحروب الداخلية فيما بين دول المدن البدائية فى وادى النيل معروفة بالمرة، غير أنه بإمكاننا الأفتراض بكل أمان أنها لم تكن صراعاً ملحمياً بسيطاً بين بطلين. فقد كانت أسطورة الدولة فى العصور التاريخية تعديلاً ذكياً لصيغة أقدم وأكثر عمومية خاصة بعالم نموذجى نشأت أصلاً فى الوجه القبلى. وهى تجمع بين المفهوم القديم الخاص بالانسجام المطلق من خلال الأضداد المتوازنة ، مع الحاجة إلى قوة عليا واحدة أدركوها حديثاً. فقد خلقت كجزء من التقنين الكبير لثقافة البلاط، حيث اعتمدت على الميثولوجيا المحلية. وكانت فى حالة كل من حورس وست تتمركز فى الوجه القبلى. كما أنها أصبحت جزءاً من اهتمام فعال طويل أبقى عليه المصريون فى الجغرافيا الرمزية. وهى فى واقع الأمر عملية استعمار داخلى على المستوى الفكرى.

ولا بد من طرح ملاحظة أخرى. فقد بدأت الأسرة الأولى كدولة حجمها من ناحية الأرض التى تشغلها كحجم معظم تلك الدول التى كانت تشغل الجزء الأسفل من وادى

النيل حتى العصور الحديثة. فلم تكن هناك عملية نمو طويلة بدأت بالدول المدن، وهو شكل سياسى شاع قديماً وكان له تاريخ مزدهر فى بلاد ما بين النهرين على سبيل المثال. وقد استخدمنا مصطلح «دولة المدينة الأولية» فى الحديث عن المناطق التى تركزت فى الوجه القبلى حول هيراكونبوليس ونقادة. وكلمة «أولية» تبدو ملائمة حيث إنها لا يمكن أن تكون فى تعقيد الدول المدن المعاصرة لها فى أجزاء أخرى من الشرق الأدنى. ويمكن أن نكون متأكدين من اثنتين، وقد نشك فى أنه كانت هناك دول مدن أخرى إما موجودة بالفعل (تقوم واحدة منها فى ثينة(*) على سبيل المثال) أو كانت لا تزال فى مرحلة مبكرة من التكوين (ربما فى المعادى وبوتو فى الدلتا، والأبعدية فى الوجه القبلى، و قسطل فى النوبة السفلى)[49]. وقضت الحروب الداخلية، التى كان الجنوب أكثر من يسعى إليها بقوة، على ذلك العصر متعدد المراكز من النمو السياسى، غير أن الإصرار على المطالبة بالأرض يظل قوة لها نفوذها حتى عندما تطمر مراكزه داخل حكومة أكبر. وتستمر اللعبة. فقد كانت الدولة الفرعونية ناجحة نجاحاً كبيراً، من خلال ألية الجغرافية الرمزية، وبخلق أيديولوجيا ذات تشعب إقليمى متعدد. ويمكننا الحديث عن إطار قومى للأسطورة. إلا أن الكيانات المحلية المطمورة ظلت موجودة. والدولة المدينة التى يمكننا رؤيتها بوضوح فى العصور التاريخية المتأخرة هى طيبة. وسوف يرد المزيد عن طيبة فى الفصل الخامس. إلا أنه كانت هناك دول مدن أخرى، فى مصر الوسطى والدلتا، برزت فى الأوقات التى كان يضعف فيها حكم الأسرات (حيث حدث ذلك بصورة أساسية فى عصور الانتقال الثلاثة). وفى بعض الأحيان كان أحد عصور التفوق يخلف أرستقراطية محلية قادرة لبعض الوقت على إظهار دلائل السلطة الكبرى. ونجد أن المقابر الأرستقراطية وغيرها من المبانى الكبيرة الموجودة فى المناطق العامة من كل من نقادة وهيراكونبوليس وأبيدوس، وتعود إلى عصور تالية للأوج السياسى فى كل منها، تنتمى إلى هذه المرحلة النهائية من المسار المشترك الخاص بالتاريخ المحلى. وفى الوقت نفسه قد يكون من الخطأ محاولة إعادة بناء الوضع السياسى فى عصر ما قبل الأسرات المتأخر من خلال الإقليمية اللاحقة ،

(*) عاصمة الأقليم الثامن من أقاليم الوجه القبلى ولا تبعد كثيراً عن أبيدوس . وهى موطن الأسرتين الأولى والثانية ، لذلك يطلق على عصرهما اسم العصر الثينى – (المترجم) .

لأن هناك تغيرات محلية كثيرة قد حدثت بعد بداية الأسرة الأولى. ويعد ظهور طيبة على حساب نقادة، وإدفو على حساب هيراكونبوليس، مجرد مثالين شديدى الوضوح.

أسس الأيديولوجيا (٣): العمارة كبيان سياسى

لم تكن أسطورة التوحيد سوى جانب من جوانب ما ظهر مع الأسرة الأولى كمركز رئيسى للجهد الفكرى والتنظيمى: وهو بروز المُلك كرمز لسلطة تسمو فوق كل السلطات. وعلى صلايات عصر ما قبل الأسرات المتأخر تظهر الشخصيات المنتصرة على هيئة حيوانات (أسد أو ثور أو عقرب أو صقر، انظر الشكل 16) ، وهى ما يمكن أن نعتبرها رموزاً للسلطة البشرية، وقد تكون سلطة ملك من الملوك. ولكنه فى حالة صلاية نارمر وحدها (ورأس دبوس العقرب) نجد صور ملوك بشر عولجت معالجة مفصلة كى تنقل بعض صفاتهم الرمزية. وعندما نتجه إلى العمارة ، نجد عملية مقابلة ولكنها على نطاق أكثر رحابة. فالمقبرة الملكية أصبحت البيان العام الرئيسى بشأن طبيعة المُلك. وهكذا يكون التغيير الذى طرأ على عمارة المقبرة الملكية أهم الأدلة التى ترشدنا إلى تطور المفاهيم القديمة الخاصة بالنظام الملكى.

وقدمت لنا نقادة وهيراكونبوليس المقابر التى توحى بحجمها. ويوحى تبطينها بالطوب اللبن، والنقوش، كما فى المقبرة رقم ١٠٠ بهيراكونبوليس، بأن صاحبها لابد أن يكون ملكاً. وهى مع ذلك شديدة التواضع من ناحية الإنشاءات، ومن غير المحتمل أنه كانت لديهم فى يوم من الأيام بنية فوقية متطورة. وأحدثت الأسرة الأولى تطوراً ضخماً. ففى ظل خلفية من المقابر التى زاد حجمها زيادة ضخمة فى أنحاء البلاد، مما يعكس الزيادة الكبيرة فى الثروة والتنظيم فى دولة عصر الأسرات المبكر، نجد أن بناة المقابر الملكية يتخذون الخطوات الأولى نحو الحجم الضخم والرمزية المعمارية المميزة.

والآن علينا أن نركز اهتمامنا على موقع آخر: إنه أبيدوس، وهى جبانة صحراوية فى منطقة تضم المدينة (وهى ثينة، وقد تكون جرجا الحالية) التى جعلها التراث اللاحق موطن ملوك الأسرة الأولى. وقد دفن ملوك الأسرة الأولى وآخر ملكين من ملوك الأسرة الثانية فى جزء منعزل، يعرف الآن باسم أم الكعب[50]. وكانت مقابرهم تتكون من

حجرات من الطوب اللبن مشيدة فى حفر كبيرة فى الصحراء ومغطاة ببناء بسيط على الأرض على هيئة سور مربع ليست فيه أية نقوش وقد مُلىء حتى قمته بالرمل والحصى. وكان هذا تطوراً صريحاً من المقابر «الملكية» المشيدة بالطوب اللبن فى نقادة وهيراكونبوليس. أما ما يشى بأن أصحابها ملوك فهو أزواج من اللوحات غير المثبتة التى تحمل الاسم الحورى للملك صاحبها (انظر الشكل 10). وكانت كل مقبرة بها كذلك عنصر آخر، وهو بناء منفصل يقع على مقربة من حافة الأرض الزراعية الطينية، خلف بلدة أبيدوس القديمة مباشرة. وأفضل مقبرتين بقيتا فى حالة جيدة تعودان إلى الأسرة الثانية، وخاصة الأخيرة وهى شونة الزبيب التى تخص الملك خع سخموى (اللوحة 2)[51].

وشونة الزبيب سياج قياسه ٥٤×١١٣ متراً من الداخل، و ٦٥×١٢٢ متراً من الخارج، وهو محاط بسور مزدوج من الطوب اللبن وبه بعض البوابات. والسور الداخلى، الذى ما يزال قائماً بارتفاع ١١ متراً، سمكه ٥,٥ متراً. وقد زينت أسطحه الخارجية بكوات كى تعطيه تأثير البوائك. وأُبرزت الواجهة ذات البوائك التى على الجانب الطويل، المواجهة للأرض الزراعية ، بجعل كوة داخلية على مسافات منتظمة أكثر غوراً من سائر الكوات. وفيما يتعلق بداخل السياج، يبدو أنه فارغ فيما عدا مبنى منفصل بالقرب من الركن الشرقى. وكان هذا المبنى يحتوى على مجموعة غرف أعدت فى إحداها جرار التخزين الفخارية. وزينت واجهات هذا المبنى الخارجية بنفس أسلوب الكوات كما هو الحال فى جدار السور الكبير (شكل 18).

ويقودنا سبيلان نحو مدلول هذا المبنى ورفاقه. أحد السبيلين يتعلق بتأثير البوائك التى على الجدران الخارجية. وأبرز النماذج نجدها على واجهات المقابر الكبرى الخاصة بعصر الأسرات المبكر (الشكل 18 ب)، فى الغالب فى منطقة منف (وإن كان هناك نموذج شهير فى نقادة)[52]. وبعض النماذج تحتفظ بالجزء الأسفل من الزخارف الملونة المتقنة، التى تنسخ بتفصيل كبير طريقة لمزيد من التزيين للجدران: عن طريق تغطية الأسطح الضيقة بين الكوات بأشرطة طويلة من الحصير الملون بألوان زاهية ومثبت على عروق أفقية من الخشب. وأحد الملامح المعيارية أن الأسطح التى تأخذ شكل البوائك كانت تقطعها فجوات عميقة جوانبها لها نفس شكل البوائك. وفى مؤخرة

كل فجوة توجد كوة أكثر اتساعاً، مطلية باللون الأحمر. ومن الواضح أن هذا للدلالة على مصراع الباب الخشبى. وأصبح تصميم البوائك والفجوات وقطع الحصير المثبتة بكامله شكلاً ثابتاً للتزيين على التوابيت وموائد القرابين فى المقاصير الجنائزية فيما بعد، حيث تمدنا بالتفاصيل المفقودة من الأجزاء العليا فى مقابر عصر الأسرات المبكر.

وهذا التصميم نجده فى سياق آخر كذلك. فقد كان قطاع ضيق منه يشكل أساس الشعار التبشيرى الذى كتب فيه الاسم الحورى (الاسم الرئيسى) لملوك عصر الأسرات المبكر (انظر الشكل 10). ومن هذا استُنتج منذ فترة بعيدة أن الأسلوب المعمارى كان يتعلق بالقصر الملكى بصور خاصة. ونحت الباحثون مصطلح "واجهة القصر" للدلالة على الأسلوب المعمارى. إلا أنه فى سنة ١٩٦٩ فقط عُثر على جزء من جدار مزين بهذا الأسلوب ولم يكن جزءاً من إحدى المقابر. لقد كان قائماً فى منتصف بلدة هيراكونبوليس التى تعود إلى عصر الأسرات المبكر، وكان يحيط ببوابة (انظر الشكل 11). ومع أنه لم يعثر على شىء من البناء الداخلى، ولا يعرف حجم السور بكامله، فإن تعريف هذا الجدار على أنه جزء من سور قصر حقيقى يعود إلى عصر الأسرات المبكر يبدو أمراً لا مفر منه.

ويكشف سور هيراكونبوليس، أى شونة الزبيب، والإطار المحيط بالاسم الحورى للملك أن ملوك عصر الأسرات المبكر قد اتخذوا الواجهة المزينة ذات الكوات رمزاً للسلطة. وهى فى حد ذاتها ترمز إلى فكرة «القصر» ككيان حاكم. وكان مسموحاً لمن كانوا جزءاً من الحاشية – أى نخبة القصر الذين كانوا يحيطون بالملك ويتولون تنفيذ سلطاته – باستخدام نسخة مصغرة لتزيين مقابرهم. وأقامت العمارة الضخمة المبكرة حاجزاً بين الملك وشعبه، بأسلوبها المميز المهيب.

وفيما يتعلق بالسبيل الثانى، لا بد أن نتجه إلى أثر كان فى وقت من الأوقات مجرد جيل متأخر عن شونة الزبيب، إلا أنه يعود إلى مستوى آخر من مستويات الإنجاز المعمارى: إنه هرم سقارة المدرج، وهو مقبرة زوسر، أول (أو ثانى) ملوك الأسرة الثالثة (حوالى ٢٦٩٥ ق.م)[53]. وهو بحق أول مبنى ضخم الحجم فى مصر، وقد شيِّد بالكامل من الحجر. وهو يحتوى فى تفاصيله الكثير من الموتيفات الزخرفية الأساسية الخاصة بالعمارة الفرعونية. كما أنه يمثل، بعمارته، عملاً رئيسياً من أعمال تقنين الأشكال مثلما حدث من قبل فى الفنون فى مستهل الأسرة الأولى تقريباً.

ويواجهنا الهرم المدرج بمشكلة كبيرة تتعلق بالتأويل. ذلك أن به أجزاء مميزة كثيرة، ولا بد أن كلاً منها كان له مدلول خاص. إلا أن القليل جداً منها يحمل أية زخارف مكتوبة أو مرسومة تعلن عن معانيه إعلاناً صريحاً. وعلينا أن نعتمد فى كثير من الأمر على تأويلات مستنبطة من مصادر جاءت بعده بزمن طويل، ومن متون الأهرام بشكل أساسى. إلا أنه بحلول ذلك الوقت كانت تصميمات الأهرام قد تغيرت تغيراً جذرياً، ولابد كذلك أن مدلولات الأجزاء المختلفة قد تغيرت هى الأخرى. وهكذا فإنه، على سبيل المثال، ليست هناك إجابة واضحة ومتفق عليها عن السؤال الأساسى: لماذا هرم مدرج؟ فى زمن متون الأهرام كان الهرم بشكله الحقيقى قد حل محله منذ زمن بعيد. ولذلك يفترض أنه كانت له رمزية مختلفة ترتبط ارتباطاً قوياً بعبادة الشمس المتمركزة فى هليوبوليس. وهناك إجابة غير شافية مشابهة لتلك الإجابة عن السؤال الذى يقول: لماذا توجد مقبرة ثانية مصغرة شيدت داخل السور الجنوبى للهرم المدرج، وهى ما تسمى بالمقبرة الجنوبية؟

لحسن الحظ أن هذا الأثر المدهش ليس صامتاً صمتاً تاماً. فهرم زوسر المدرج يقع فى مركز سياج مستطيل، أبعاده ٢٧٨×٥٤٥ متراً (الشكل 19). وكان يحيط به سور سميك من الحجر به أبراج خارجية، وكانت الواجهة منقوشا عليها نسخة معدلة من أسلوب واجهة القصر. والمدخل الحقيقى فى الركن الجنوبى، ويمكننا أن نتعرف فى التصميم العام للمجمع بكامله على الشكل الأساسى لشونة الزبيب فى أبيدوس. ويمتد عبر مركز السور فراغ داخلى مفتوح ضخم، وهو مستطيل مساحته ١٠٨×١٨٧ متراً، تواجهه جدران ذات بوائك. وفى كل طرف كان هناك فى الأصل بناءان صغيران من الحجر على شكل حدوتى حصان متجاورتين (B) ، وأمام الهرم مباشرة هناك منصة حجرية يتم بلوغها بدرج على امتداد زوجى البناءين الصغيرين الحجريين. وهذا الترتيب للبناءين الحجريين والمنصة الحجرية معروف من مناظر عصر الأسرات المبكر. ففى أحد هذه المناظر، على رأس دبوس الحكم الخاص بنعرمر (شكل ٢٠)، يمكننا رؤية أن الموضع ربما كان مستخدماً لاستعراض الماشية والأسرى الذين أسروا فى معركة من المعارك. وكذلك منظر آخر، وهو شارة الحكم الخاصة بالملك دن، وهو أحد ملوك الأسرة الأولى، حيث يظهر الملك مرتين: مرة على عرش ذى درج أسفل مظلة،

ومرة أخرى فى حلبة وهو يجرى أو يهرول بين زوجى البناءين الحجريين. والعنصر الأول واحد من موضوعين من موضوعات المناظر المنقوشة بالفعل داخل مجمع الهرم المدرج نفسه. وهناك مجموعتان من ثلاث بوائك محفورة فى ظهر الأبواب الوهمية التى فى الدهاليز الموجودة تحت المقبرة الجنوبية والهرم المدرج نفسه[54]. وتظهر بعض البوائك زوسر وهو يؤدى هذا الطقس نفسه الخاص بالجرى أو الهرولة بين زوجى البناءين الحجريين، مصحوباً برموز أخرى. ويمكن توضيح شكل البناءين الحجريين عن طريق مراجع لاحقة، كما هو الحال بالنسبة لواحدة من مجموعات الرموز البارزة. إنها دلائل على الحدود الإقليمية[55]. وتخبرنا مصادر لاحقة أن الحلبة نفسها كانت تسمى «الميدان»، وأن الشعيرة كانت تسمى إما «الطواف حول الميدان» أو «تقديم الميدان»، مع التأكيد وقتها على تكريس الميدان لأحد الآلهة، وإن كان هذا العنصر لا يتضح من الصور المبكرة .

وإحدى الحاجات العامة للنظام الملكى (وللأشكال الأخرى الخاصة بقيادة الدولة) هى السياق الرسمى لظهور القائد شخصياً، إما أمام الجمهور كافة أو أمام ممثلين مختارين يشكلون البلاط. وفى عصور لاحقة تولى المصادر المصرية أهمية كبيرة لـ «ظهور الملك» . وينبغى أن نتوقع أن كل عصر كان يبحث عن سياق مذهل لهذا الحدث العظيم، يقوم على بعض العناصر الأساسية: وهى فراغ مفتوح فسيح، ومكان مرتفع يمكن منه رؤية الملك من خلال إطار رسمى، وقصر رمزى يتم فيه ارتداء الملابس والاستراحة بشكل مريح وفى خصوصية. وفى الفصلين الخامس والسابع سيكون هناك وصف للطرق المفصلة التى اتبعها فراعنة الدولة الحديثة لعرض أنفسهم، وسوف نجد سياقات خاصة بهذا النوع وحسب. كما أن المصادر المبكرة، المصورة والمعمارية، تتحد معاً لتلبية هذه الحاجة تلبيةً دقيقة. وعلينا أن نتخيل أن جزءاً مهماً من القصر الملكى فى الدولة القديمة كان حلبة أو ساحة مسورة ضخمة بها أبنية صغيرة حجرية ترمز إلى الحدود الإقليمية، وفيها كذلك منصة مرتفعة موضوع عليها العرش وتعلوها مظلة ذات شكل مميز (وهذا العنصر الأخير موجود بالفعل فى إحدى السفن فى المقبرة رقم ١٠٠ بهيراكونبوليس) فى ناحية، وقصر رمزى فى الناحية الأخرى. وكانت تستخدم كسياق للمناسبات الملكية، مثل تلقى المكوس، ومن أجل شعيرة خاصة كان الملك يؤكد فيها ملكيته لأراضيه بأن يسير بقوة فى خطوات واسعة حول حدودها .

وتعد شونة الزبيب فى أبيدوس والساحة الكبرى أمام الهرم المدرج صورتين كاملتين كانتا توفران للملك السياق اللازم لموكبه الخاص بخلود الموت.

إلا أن هذه ليست نهاية القصة. فهناك عنصر آخر من عناصر الطقس الضرورى الخاص بالملك المبكر، وهو الاحتفال الدورى الذى أسماه المصريون «حب سد»[56]. والمصادر من العصور المبكرة وما بعدها تجعل من احتفال «حب سد» يوبيلاً عظيماً لحكم الملك الأرضى طوال فترة كانت ثلاثين سنة من الناحية المثالية، وإن كان احتفال ثان وثالث يمكن أن يليا ذلك على فترات أقصر. وقد تغيرت طريقة الاحتفال بالعيد بمرور الزمن، وربما تغير مدلوله كذلك. ومن المغرى بالنسبة للديانة المصرية أن تجمع مصادر من كل العصور كى تخلق تأويلاً شاملاً لشعيرة بعينها أو اعتقاد فى حد ذاته، لأن الأشكال المصورة غالباً ما تبقى على الدوام. ولكن استمرار الأشكال كان يغطى على التغيرات فى المدلول والممارسة. واختراع التقاليد كان أمراً برع فيه المصريون. وكان كل عصر من العصور يرى ضرورة تأويل المصادر فى إطار الروح ومن أجل تألق ذلك العصر وحده[57]. وهناك جانبان يبدوان أكثر من غيرهما تميزاً لاحتفال «الحب سد». فقد كان الملك، الذى كان يرتدى لباساً مميزاً، يجلس على منصة خاصة عليها عرشان من أجل الظهور لملك الوجهين القبلى والبحرى. وعادة ما كان العرشان فى ظهر بعضهما. غير أن هذه قد تكون حيلة فنية لرسم اثنين من العروش كانا فى حقيقة الأمر بجوار بعضهما[58]. وهناك مناظر أكثر تفصيلاً تعود إلى فترات تلى عصر الأسرات المبكر تعرض سياق هذه الشعيرة على أنه سلسلة من المقاصير المصورة على هيئة أبنية من الخشب والحصير. وأصل هذا الأسلوب من العمارة ومدلوله سوف يجرى استعراضهما فى الفصل التالى، وبصور خاصة هذا الشكل الخاص بالمقصورة الذى كان فى الأصل أحد أشكال البناء المؤقت، وكان فى هذا السياق يمثل زوجاً آخر من الرموز الثنائية، مع وجود تصميم للوجه البحرى وآخر للوجه القبلى. وفى بعض الأحيان كانا مخصصين للإلهة الكوبرا واجيت ربة مدينة بوتو فى الدلتا، والإلهة الرخمة نخبت ربة الكاب(*). إلا أنهما كانا من أجل آلهة أخرى كذلك.

(*) تقع بين الأقصر وادفو على الضفة الشرقية من النيل . وأسماها المصريون «نخب» والأغريق إيلسياسيوليس ويقابلها على الضفة الغربية مدينة «نخن» التى أسماها الأغريق هيراكنبوليس . وكانت مركزاً لعبادة الآلهة نخبت – (المترجم) .

وكان هذا التجميع لصور الآلهة الإقليمية فى سلسلة من المقاصير المؤقتة بجوار عرش الملك المزدوج إشارة إلى الولاء الإقليمى لشخص الملك. والعنصر الآخر الذى كان يرتبط ارتباطاً خاصاً بالاحتفال بعد الأسرة الثالثة هو شعيرة تأكيد الملك لملكية «الميدان» بأن يخطو خطوات واسعة حول البناءين الصغيرين الحجريين. ولذلك فإنه فى وقت من الأوقات أدخلت هذه الشعيرة المنفصلة، التى يفترض أنها كانت تؤدى كثيراً، فى موكب احتفال الـ «حب سد» .

ومرة أخرى يوضح الهرم المدرج الصورة. فإلى جانب الحلبة الكبرى التى تضم زوجى البناءين الصغيرين الحجريين، هناك جزء آخر من المجمع غير أنه منفصل انفصالاً تاماً عنه. هذا الجزء يمتد على الجانب الشرقى من السور الرئيسى ويكوِّن سلسلة من المبانى الوهمية المصمتة تقريباً المتراصة على جانبى الفناء (اللوحة 4). وهذه المبانى ذات مظهر مميز: فهى سلسلة من الأبنية المستطيلة الصغيرة ذات التفاصيل الخارجية التى تخلق من خلال العمارة ثلاثية الأبعاد الكاملة أشكال المقاصير المعاصرة التى تخيلوا أنها مشيدة من الأخشاب والحصير. والواقع أنها صور تمثل نفس نوع المبانى التى تظهرها المناظر اللاحقة مجمعة من أجل احتفال «حب سد». ويبدو أن هذا هو مدلولها كذلك عند الهرم يغطيها المدرج. ذلك أنه عند أحد طرفى الفناء توجد منصة مربعة للعرش ذات قلبتى درج، كان يغطيها فى الأصل بناء حجرى صغير. ومن الصعب أن نهرب من النتيجة التى تقول إن ذلك كان تصويراً بالحجر لخلود كرسى العرش المزدوج المغطى بمظلة خاصة، وأن هذا الجزء من مجمع الهرم المدرج وفر للملك زوسر السياق الخالد لاحتفال «الحب سد» الدورى. وتشكل مناظر زيارة الملك للمقاصير المختلفة الموضوع الآخر الخاص بالبوائك المحفورة فى الدهاليز التى تحت الأرض (انظر الشكل ١٩).

ونحن الآن قادرون أفضل من قبل على تقدير مدلول عمارة المقابر الملكية المبكرة، التى يعد الهرم المدرج أكثرها اكتمالاً وتطوراً. فقد كانت بمثابة حلبة لموكب المُلك الأبدى كما عاشه على الأرض – أى الملك باعتباره صاحب الحق السامى . فهو داخلها تحميه أسوار قصرها المميزة، وتتركز الشعائر حول شخصه الحقيقى .

وما إن حلت الأسرة الرابعة حتى تغير شكل المقبرة الملكية تغيراً ضخماً. فقد أصبح الهرم المدرج هرماً حقيقياً. وبدلاً من أن يشغل الأرض الوسطى من المجمع

الكبير الذى يضم أبنية أخرى، اعتلى نهاية سلسلة معمارية مستقيمة امتدت لأسفل حتى حافة السهل الطينى (الشكل 21). أما الحلبة أو الساحة المسورة الكبرى الخاصة بظهور الملك وعمارة احتفال «حب سد» الخاصة فقد اختفت كلها، وحل محلها معبد الغرض الأساسى منه شعيرة تقديم القرابين لروح الملك عبر مائدة القرابين على الجانب الشرقى من الهرم، وعبر مجموعة من التماثيل. وكانت تلك العناصر موجودة فى مجمع زوسر، إلا أنها الآن هى السائدة. وتأتى مناظر احتفال «حب سد» على الجدران، ولكنها ضمن موضوعات أخرى. وكان الهرم الحقيقى رمزاً للشمس (وهذا جانب آخر من جوانب التقنين العظيم الذى سنناقشه فى الفصل التالى) . وهناك دليل آخر من الأسرة الرابعة والأسرة الخامسة، بشكل أخص، يبين أن التأمل الفكرى الجاد - اللاهوت - كان يولى اهتماماً أكثر لقوة الشمس باعتبارها القوة العليا. وظهر لقب الملوك البارز «ابن رع» فى تلك الفترة.

وتنقل أهرام الأسرة الرابعة وما تلاها صورة جديدة للمُلك. فقد اختفت قوة الحاكم الإقليمى الأعلى البسيطة. حيث ارتقى الملك إلى أحد تجليات الإله الشمس ، ونقلت العمارة إعادة التقييم الأساسية تلك كى تحدث أكبر أثر ممكن.

وما زال المناخ الاجتماعى والاقتصادى الذى ظهرت فيه الدولة المصرية موثقاً توثيقاً مصوراً. ويمكننا أن نتعرف على المجتمع الزراعى القائم على المساواة النسبية والمستقر فى قرى قليلة الكثافة ومناطق استيطان أكبر حجماً تنتشر على امتداد وادى النيل والدلتا، خلال الألف الرابعة قبل الميلاد، بصفتها خلفية عامة. وظهرت الهويات المحلية وزعماء المجتمعات المحلية، إلا أن ذلك كان يتم بسرعة وبحجم تفاوت من مكان لمكان. والأمر الذى كان يكمن فى العملية هو أن تلك التنويعات المحلية التى كانت فى مستهل الأمر صغيرة جداً جرى تكبيرها بصورة ظلت تتزايد. وأصبح هذا معدلاً إيضاحياً للنمو بالنسبة للأكثر نجاحاً، وهو ما تراكم فى دولة واحدة بحلول نهاية عصر ما قبل الأسرات. وهؤلاء الذين شاركوا فى تلك المرحلة الأخيرة من النمو الديناميكى والتنافس النهائى أدركوا بالفعل نتائج القوة على نطاق واسع وقننوا التعبير عنها فى شكل فكرى مميز. وأدى هذا إلى المزج بمهارة بين مفهوم عام - وهو تفوق النظام المستمد محلياً على الفوضى الكونية - ووضع الملك الواحد الذى جرى التعبير عن

سلطته كحاكم إقليمى أرضى من خلال العمارة الضخمة، ومن خلال الطقوسد ، ومن خلال الفن الرمزى. وقد قدر له أن ينجو من تقلبات التاريخ السياسى على مدى ثلاثة آلاف سنة، باعتباره مجموعة من الأفكار والمثل الخاصة بإضفاء الشرعية على حكم أى ملك على الرعية. كما أنه جعل المصريين عاجزين عن تخيل النمط متعدد المراكز لنموهم السياسى المبكر. وحينما كان التفتيت السياسى يظهر من جديد كان الأمر يبدو خروجاً عن الحالة المثالية للأمور، وإن كانت حالة أسطورية (كما نرى الآن). وكما سنرى فى الفصل التالى، فقد عزل ظهور عالم أسطورة مواز المصريين عن بداياتهم الثقافية .

الفصل الثانى

ديناميكيات الثقافة

إذا زرت أهرام الجيزة أو المعابد والمقابر المنقوشة فى الأقصر، أدرك على الفور أننى أقف قبالة إبداع مميز من إبداعات البشرية. وسوف أشعر بالشىء نفسه عندما أكون فى حضرة أى مسجد من مساجد العصور الوسطى فى القاهرة أو قلعة أو كاتدرائية في أوروبا. فجميعها نتاج تقاليد ثقافية مميزة. وهى تترك فى العقل صوراً متباينة تبايناً مريحاً. ومن ناحية أخرى، عندما أقوم كأثرى بعمل الحفائر وسط مساكن مجتمع من مجتمعات مصر القديمة الفقيرة، يكون التميز أقل بكثير. فالرجال الآتون من القرية المحلية، الذين أستأجرهم للقيام بأعمال الحفر، سوف يرون الخطوط العامة للحياة البشرية غير مختلفة اختلافاً كبيراً عن تلك الخاصة بحياتهم: فهنا المطبخ، وهناك حظيرة المواشى. والاعتياد والمعرفة المسبقة بما سيكون يمكن أن يكونا معوقين. ولا بد أن أُذكِّر نفسى بأن الثقافة والبيئة يختلفان من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان، وأن السعى وراء التنوع فى إطار أنساق الحياة البشرية المنتظمة جزء ضرورى من فهم منظومة السلوك البشرى بكاملها.

لم تكن «الثقافة الكبرى»، التى تصبح فى بعض الأوقات ثقافة سياحية، ذلك الإبداع العفوى للرجل العادى. وليس من قبيل الصدفة أن نلتقى بتجلياتها فى المبانى الدينية الكبيرة، وفى القصور، ومنازل الأعيان، والقلاع. فالثقافة الكبرى، التى تقتضى الإشراف على العمل وتوجيهه، تنشأ فى قصور الحكام. كما أن الثروة والحجم ومعايير الصناعة والإبداعات الفكرية جزء من أدوات الحكم. وعندما يكون التقليد العظيم ذا أسس متينة قد يكون له تأثيره المحسوس فى أنحاء المجتمع. غير أنه لكى يصل إلى هذه المرحلة ، لابد أن يتوسع على حساب تقاليد أخرى. فهو لا بد أن يستعمر عقول الأمة. وكل ما لا يستسلم يصبح «ثقافة شعبية» .

إن مصر القديمة من بين أقدم التقاليد الثقافية العظيمة فى العالم. ونحن محظوظون لقدرتنا على مشاهدة تقنين التقليد الذى بدأت به فى وقت الانتقال إلى

الأسرة الأولى، من خلال ما لدينا من مواد وفيرة نسبياً. إلا أنه كان لها مجال محدود بشدة في بادىء الأمر. فكانت الأشياء نفسها صغيرة الحجم، وربما كانت على قدر كبير من المحدودية من حيث عددها. وقد عبرت عن طموحات جيل جديد من الحكام، وبداية محاولة لتنظيم الديانة. ولكن هل ينبغى علينا من هذه اللحظة أن نفترض أن كل التعبير الثقافى فى شكله المادى انطلق من هذا المصدر؟ هل ألقى ملوك الأسرة الأولى بمفتاح ثقافى أضاء على الفور البلاد بكاملها ؟ هل كانت هناك الإرادة ، أو الوسيلة، أو حتى الاهتمام بتحويل البلاد كلها إلى هذه النظرة الفكرية؟

للإجابة عن هذه الأسئلة علينا أن نتعرف على الكيفية التى توسعت بها ثقافة البلاط على حساب التقاليد المحلية الأخرى، وألا ندرس فقط الأعمال الفنية المبكرة، بل كذلك السجل الأثرى العام الذى قد نجد فيه آثار «الثقافة الشعبية».

لقد دأب مؤرخ الفن على تجاهل هذه المسألة. فهو ينتقى أفضل القطع ويجد أن مادته، التى يأخذها فى المقام الأول من جبانات النخبة، تمده بسجل من التطور المستمر يبرز فيه كذلك التجانس الجغرافى. ومن هذا المنظور، الذى يركز على الإنجاز القومى ويولى اهتماماً كبيراً لتغيرات الأسلوب فى أكثر فنون وعمارة العصر اكتمالاً، تمثل هذه المادة أساساً هو بصورة عامة الأكثر إقناعاً فيما يتعلق بكتابة تاريخ الثقافة «العليا» المصرية. ومنذ عصور ما قبل التاريخ، يمكن تتبع خط واحد للتقدم يبدأ من ثقافات ما قبل الأسرات فى الوجه القبلى، مروراً بعصر الأسرات المبكر، إلى ازدهار الثقافة الفرعونية الكامل فى الدولة القديمة. ويصلنا الإنجاز الفنى الخاص بعصر ما قبل الأسرات فى هيئة سلسلة من الأشياء المنعزلة، الصغيرة فى مجالها والفردية فى تعبيرها. وذروة نتاجه صلاية نعرمر التى تعود إلى البدايات المبكرة للأسرة الأولى (حوالى ٣١٠٠ ق.م). ومن هذه المرحلة ذات الإبداع العظيم خرج فن بصرى أكاديمى شكَّل الثقافة الفرعونية بنجاح حتى النهاية، وأثَّر بنفس القدر من النجاح على تقديرات مصر القديمة. وأصبحت الرموز الهيروغليفية، ونحت التماثيل، والفن ثنائى الأبعاد جوانب لنمط واحد ومدروس دراسة دقيقة من التعبير البصرى. وكانت الصور الدينية جزءاً متمماً فى هذه العملية، وكان الكثير من الآلهة فيه يُختزل إلى أشكال مختلفة لصورة واحدة. وكان ذلك هو ما أنجزه عصر ما قبل الأسرات المبكر. وبناء على ذلك

تحول الدافع المصرى نحو التجديد إلى العمارة الضخمة، التى بلغت ذروتها فى الأهرام ومعابدها. ويرى مؤرخو الفن أن الأنوار أضيئت فى واقع الأمر فى عصر الأسرات المبكر. أما الأسرات اللاحقة فقد زادت من عددها وإشراقها.

المقاصير المبكرة باعتبارها مراكز ثقافية مستقلة

إن النموذج البسيط للتحول الثقافى القومى الذى سار فى خط واحد، من منتجات ما قبل التاريخ المؤقتة إلى منجزات التقليد العظيم، يخدم مؤرخى الفن خدمة كبيرة. إلا أن نقطة ضعفه فى أنه لا يدمج السجل الأثرى لمجموعة من المواقع المهمة دمجاً صحيحاً. إنها مركزة فى الوجه القبلى، غير أن هذا قد يكون محض صدفة. وهى جميعاً مواقع معابد مبكرة تقدم ملامح لا تتوافق توافقاً تاماً مع أى نظام أحادى الخط. فهى توحى بأن التحول العظيم فى الأقاليم كان مسألة رعاية متقطعة من البلاط لمشهد كان يتغير ببطء شديد عما كانت عليه أنماط عصور ما قبل التاريخ المتأخرة. وفى الديانة المحلية – مثلما هو الحال فى الفنون والعمارة – كانت التقاليد الإقليمية القديمة، الأكثر تنوعاً، والأكثر عامية، والأكثر حدسية وذاتية، ونراها عموماً على أنها أقل تعقيداً وقوية كما هى. وواحداً تلو الآخر أصبحت مادة لمبادرات البلاط، حيث استعاضت بالتوحد فى الأسلوب، الذى نألفه بشدة من مصر، عن التنوع المحلى. ولكن هذه العملية كانت بطيئة، ولم تكن قد اكتملت مع بداية الدولة الوسطى (حوالى سنة ٢٠٤٠ ق.م).

وتعد المسميات والمصطلحات القائمة عائقاً فى سبيل تقييم معدل التغيير المتفاوت. فهى مربوطة ربطاً شديداً بمسار تاريخ الأسرات فى مصر، حيث تنقل للفنون والعمارة التقسيم الكبير بين ما قبل التاريخ والتاريخ (ما قبل التاريخ مقابل عصر الأسرات المبكر أو العتيق)، ثم المزيد من تقسيمات المؤرخين السياسيين. إلا أن المادة موضع البحث تفتقر إلى النقاط الأسلوبية الحساسة التى يمكننا إدراكها فى فنون البلاط، وهى بذلك لا تكتسب ما يربطها بتواريخ محددة. ونتيجة لذلك لا تجد لنفسها المكان الصحيح فى تاريخ الثقافة المصرية المبكرة. وإذا كان لها أن تهرب من هذا التجاهل وتجد لنفسها مكانة خاصة بها، فلا بد من اصطلاح جديد يضع هذه المادة فى

التسلسل الثقافى المصرى، دون إخضاعها لتعاقب ملوك الأسرات الذى لا مرونة فيه. والمصطلح المستخدم هنا هو «الأولى» .preforma . وهو يغطى منتجات عصر ما قبل الأسرات، بالإضافة إلى مادة لاحقة لا تزال حسب هذا التقليد الذى ظل قائماً فى العصر التاريخى. وجزء من هذه المادة فنى، والبعض الآخر معمارى، وكلاهما كانت مراكزه فى المعابد المحلية. وينبغى كذلك الإشارة إلى أن المقاصير الأولية لم يستعاض عنها على الفور بالمعابد بالأسلوب المعمارى المألوف فى مصر القديمة. وتتراكم الأدلة تراكماً بطيئاً منذ بعض الوقت على أن المعبد الحجرى "التقليدى" الخاص بالدولة الحديثة الذى تؤيده الكتب الدراسية الحديثة كانت قد سبقته مرحلة أقدم من بناء المعبد المحلى، الذى كان أصغر حجماً وغالباً ما كان يستخدم فيه قدر محدود من الحجارة المنحوتة التى كانت توضع فى إطار من الطوب اللبن، وكان فى مجمله أبسط بكثير. والمصطلح المستخدم هنا للدلالة على هذه المرحلة هو «الرسمى المبكر» Early Formal . ومع الدولة الحديثة ظهر المعبد «الرسمى الناضج» Mature Formal ، وفى النهاية استوعب المعبد «الرسمى المتأخر» Late Formal الكثير من الطاقة فى الفترة ما بين الأسر الثلاثين والجزء المبكر من الاحتلال الرومانى لمصر.

وبعد أن حددنا الخط الذى سارت عليه الأمور، سوف يجرى فحص بعض المواقع من الوجه القبلى تبعاً لمصطلحاتها.

المدامــود

لنبدأ بالمدامود. وهنا نجد، من بين طبقات الأساسات المعمارية التى تعلو بعضها، الفترات الرئيسة الأربع لبناء المعابد. بل إن عصر البناء الأول يتحدى على الفور الصور التى تكونت لدينا سلفاً عن الثقافة الفرعونية. فقد كانت المدامود بلدة إقليمية بها معبد وتقع على بعد ٥ كيلومترات إلى الشمال الشرقى من الكرنك فى طيبة. وفى العصور التاريخية كانت مركز عبادة منتو الإله الصقر. وشهدت الأسرة الثامنة عشرة إقامة معبد جديد من الحجر الخالص على الطراز الرسمى الناضج. وفى العصر اليونانى الرومانى أضيف إليه فناء واسع من الحجر على الطراز الرسمى المتأخر به صفان من الأعمدة. وكان سور من الحجر قد امتد من هذا المكان ليحيط بالفناء المقدس بكامله.

وأسفل تلك المبانى الحجرية وعلى الجانب الجنوبى من السور، كشفت الحفائر التى أجريت فى الثلاثينيات عن طبقة من الأساسات المصنوعة من الطوب اللبن. ولم ينشر حتى الآن التقرير النهائى الخاص بأهم وآخر موسمين، وهما موسما ١٩٣٨ و ١٩٣٩، إلا أن تقريراً ابتدائياً يحتوى على رسم تخطيطى عام (الشكل 22)[1]. وهو يمثل سياجاً مستطيل الشكل أبعاده الخارجية ٩٥,٥×٦٠ متراً. وكان سمك السور ٥,٥ أمتار. ويقع أحد المداخل فى وسط الجانب الشرقى. أما الجزء الداخلى فقد بُنيت فيه وحدات مستطيلة كثيفة العدد، حيث أعيد تخطيطها بعناية على نمط الدولة الوسطى الصارم الذى يتسم بالرسمية (انظر الفصل الرابع). ولم يبق غير الأساسات التى تقل عن منسوب العتب، مما أدى إلى ضياع مواقع الأبواب. وهكذا فإنه بينما يمكننا التمييز بين الوحدات الفردية، لا نستطيع تحديد طريقة اتصال حجراتها ببعضها. ويبدو بصورة عامة أنها كانت محاطة بشارع متصل بصورة أو بأخرى يمر بجوار أساس السور، كما هو الحال فى قلاع الدولة الوسطى التى شيدت فى النوبة السفلى (انظر الفصل الرابع). وفى الجنوب يفصل شارع عمودى بين مبنيين مستقلين. ويقع فى الشمال شارع ثالث يغطى العرض بكامله. وكانت الشوارع بها مزاريب من الحجر الجيرى تمتد بطول الخط الأوسط.

ومما يؤسف له أن الفراغ الواقع فى الشمال هو الجزء الذى تركز فيه مبنى معبدهم، مما أدى إلى تدمير معظم المبانى المصنوعة من الطوب اللبن فى هذا المنسوب. وتشير الدلائل إلى أن معبد المدامود الذى يعود إلى الدولة الوسطى كان يقع فى هذا الموضع، إلا أنه ليس لدينا دليل مباشر على مخططه المعمارى. وقد اكتُشفت بعض العناصر المعمارية الخاصة بهذه الفترة، وهى التى أعيد استخدامها فى إنشاءات لاحقة، أثناء مواسم حفائر سابقة. ومن هذه العناصر أعمدة، وتماثيل ملكية أوزيرية، وعناصر أبواب، وتماثيل. وجاءت أحجار كثيرة من بوابتين ضخمتين ربما كانتا ضمن السور المصنوع من الطوب. إلا أنه حسبما نفهمه من التقارير، ليس هناك ما يكفى من المبانى كى يعلل وجود معبد من الدولة الوسطى أسواره من الكتل الحجرية. ولابد أن الأسوار كانت من الطوب اللبن. وأعاد من قاموا بالحفائر وضع تخطيط معمارى للمجمع يشمل تصميماً لأساسات المعبد، وهو ما انتقل إلى الكتب الدراسية.

إلا أنه يبدو أن هذا التخطيط يحتوى على قدر كبير من التأويل الذاتى. وفى الشكل 22 كان تخطيط البقايا الحقيقية هو المفضل . واعترف من قاموا بالحفائر بصورة أو بأخرى بأن الجزء الجنوبى كان يتكون حتما من مخازن ومنازل خاصة بمجتمع المعبد المحلى. كما أنهم لفتوا الانتباه إلى مظهره الذى يشبه الحصن. وواقع الأمر أن الحصون النوبية تمثل أقرب نظير له. ويبدو أن لدينا فى المداموود تطبيقاً لأحد معابد آلة البناء البيروقراطية القوية الخاصة بالدولة الوسطى. إنه نموذج لا بأس به للمرحلة الرسمية المبكرة لتصميم المعابد.

وهذا التدخل من الدولة الوسطى ظل باقياً فى الآثار الواضحة الموجودة فى الأرض الخاصة بسور أحد المعابد الأكثر قدماً. وقد كشفت عنه الحفائر سنة ١٩٣٩، وهو كذلك موضوع تقرير أولى ليس إلا[2]. وكان السور اللبن يحيط بتخطيط أرضى مضلع غير منتظم يبلغ أقصى عرض له ٨٣ متراً. وكان السور والمبانى المتصلة به يقع فى أرض طينية تدل الشواهد على أنه لم يكن قد سبق البناء عليها قبل ذلك، وإن كانت تضم القليل من أدوات ما قبل التاريخ. وكان يقع داخل السور بستان من الأشجار خلَّف وراءه بعض البقايا المحترقة. وداخل البستان كان هناك بناءان بيضاويان تدل عليهما الآثار السلبية على الأرض. وكان يعتقد أنهما لم يكونا سوى كومتين من التراب. وكان دهليز حلزونى من الطوب يوصل إلى إحدى الحجرات فى مركز كل كومة، حيث الأرضية مغطاة برمل ناعم. وكان فى هذين الدهليزين دعامات من الفخار لأوانى القرابين أو المباخر. وكان الفناء يحيط به سور به مدخل يعلوه برجان صغيران من الطوب اللبن . وهناك إغراء قوى لترميم البرجين على أنهما صرحان، وبذلك نجعلهما أقدم أمثلة الصروح فى وادى النيل. وبعد ذلك أضيف فناء خارجى وحل محل البرجين زوج آخر إلى الشمال منهما. وكان أمام كل برج من البرجين الجديدين موضعان لسارية علم، حيث تمثلهما فى إحدى الحالات دعامة حجرية مستديرة. وكان ذلك الفناء الخارجى يضم قواعد مستطيلة من الطوب اللبن يغطيها الرماد. وعلينا أن نفكر فى احتمال أنها كانت نظائر للمنصة الموجودة فى فناء مقصورة فيله الأمامى (انظر ص ٩٤-٩٥).

ولم يعثر على أية نقوش تتعلق بهذا البناء المحير، ولكن يبدو أن الفخار يرجع تاريخه إلى أواخر الدولة القديمة. ولذلك لا بد أن يكون هناك افتراض قوى بأن هذا

الذى يمكن أن يكون مقصورة كان موجوداً فى هذا المكان منذ زمن أقدم من هـذا، وأن المعبد الأولى الباقى يمثل أحد أعمال التجديد المعمارى داخل عصر الأسرات، حيث بنى دون الرجوع إلى تقاليد البلاط.

ويبدو أن هذا المعبد القديم قد بنى حول الرمز المعمارى الخاص بكومة التراب. ويمكن تفسير هذا فى ضوء الديانة الموحدة فى العصور اللاحقة، التى اتخذت مفهوم التل الأزلى الذى كان قد ظهر لأول مرة فوق مياه الفوضى كمصدر رمزى للقوة المولدة، بما فى ذلك الحياة الجديدة فيما وراء القبر. غير أنه ليس هناك من النقوش ما يربط هذا على وجه الخصوص بالمدامود. وكما هو الحال دائماً، ينبغى علينا أن نكون حريصين فى تأويلاتنا ونحن نستخدم مصادر من عصور تأتى بعد ذلك بكثير. وهو رغم ذلك يظل أبرز مثال للعمارة الأولية من مصر. ويعد تاريخه، وهو بالتأكيد فى عصر الأسرات، نقطة مرجعية مهمة بالنسبة لمواقع أخرى. فهو يضيف مصداقية لتواريخ العصور التاريخية فيما يتعلق بالمادة التى نناقشها هنا، ويفيد فائدة خاصة فى تأويل البقايا الأثرية فى هيراكونبوليس.

فيله

أضافت الحفائر الألمانية التى أجريت مؤخراً فى فيلة إضافات مهمة إلى معرفتنا بهذا الميل المحلى نحو التحفظ الثقافى المبالغ فيه[3]. وقام موقع هذه البلدة الصغيرة على الحافة الجنوبية من جزيرة فيله على نواة من الصخور الجرانيتية التى استدارت بفعل الطبيعة. ويبدو أن تطورها كمدينة قد حدث أثناء السنوات المبكرة من الدولة القديمة. وفى عام ١٩٧٢/١٩٧٣ اكتشفت مقصورة تخدم هذه المدينة القديمة (الشكل 23، اللوحة 3). وكانت المقصورة تقع فى الطرف الشمالى، وسط الجنادل نفسها. وهذا الموقع فى حد ذاته أمد علم الآثار بمجموعة فريدة كل التفرد من الظروف. وفى مواقع معابد أخرى، على أرض أكثر استواء، من المحتم أن إعادة بناء المعابد وتوسعتها فى عصور لاحقة أحدث ضرراً كبيراً بأقدم المقاصير، وفى بعض الأحيان أصابها بدمار شامل. وسعياً من البناءين اللاحقين إلى الهروب من قيود الفراغ التى خلقتها الجنادل المحيطة بالموقع القديم، فقد ردموا الموقع ثم مهدوه، وبذلك غطوا

المقصورة القديمة وما اتصل بها من أرضيات وأشياء من صنع البشر. ولأول مرة يقدم لنا السجل الأركيولوجى الناتج عن ذلك صورة مكتملة إلى حد ما عما كانت عليه المقصورة القديمة، ويساعدنا على حل أكثر من مشكلة.

وأقيم أول موضع مقدس فى ركن عند مؤخرة فراغ أقرب إلى المربع يشغل الكوة الطبيعية فيما بين الجنادل. وليس معروفاً لنا لتوقير من أقيم. كما أن العبادة لم تترك أية علامات على وجوه الصخر الفعلية، التى يبدو أنها تُركت على هيئتها الطبيعية. وبغض النظر عن الصورة التى كانت عليها العبادة، فقد كانت تحميها غرفتان صغيرتان من الطوب اللبن . وكان الفراغ الذى فى المقدمة تحيط به جدران أخرى من الطوب اللبن كى تخلق فناء، أو ربما مجرد بهو مسقوف. وتاريخ هذه المرحلة التى هى أقدم المراحل هو عصر الأسرات المبكر، وإن كان بعض الفخار الذى عثر عليه يعود إلى عصر ما قبل الأسرات.

وظل الشكل الأساسى للمقصورة - وهو كوة فى الصخر تخدمها ملاجئ متواضعة من الطوب - محافظاً عليه طوال الدولة القديمة. ومن الواضح أنه ظل كذلك حتى إعادة توحيد مصر فى الأسرة الحادية عشرة (حوالى ٢٠٤٠ ق.م): وهى فترة امتدت ستة قرون. وطوال تلك الفترة كانت التغيرات الرئيسية هى استبدال المقصورة الصغيرة بجدار يقطع الكوة التى فى الصخر، وإيجاد فناء أو بهو أمامى أكبر حجماً، مع زيادة سمك الجدران بصورة عامة. وفى وسط الفضاء الأمامى كانت توجد قاعدة مربعة، قياسها ٩٥ , ٠×١ , ١ متر، مشيدة من طبقات من الطوب تفصلها طبقات من الحصير لإعطائها المزيد من القوة والمتانة. وكانت هناك سارية عند كل ركن. وكما سيأتى فى جزء لاحق من هذا الفصل، قد تكون هذه منصة مظللة (متجهة نحو الشمال) يوضع عليها تمثال مقدس محمول (انظر الشكل 33). ووقتها كان يحمى المجمع الصغير كله دهليز خارجى وسور ثان.

وفى الأسرة الحادية عشرة صممت مقصورة جديدة بالمرة، حيث استخدمت مناطق من الحجر المزخرف. ومن الأدلة المباشرة القليلة التى بقيت لنا، يبدو أن تخطيطها المعمارى كان استمراراً للتخطيط القائم. وهذه المقصورة بدورها استعيض عنها فى بداية الأسرة الثانية ببناء آخر استعمل الحجر فى تشييده. وحسبما يتضح

من مدى الرصف الحجرى الذى هو كل ما تبقى، فقد التزم معبد الأسرة الثانية عشرة بنفس الحدود المقيدة بالشكل الذى وضعت عليه خلال الدولة القديمة. ويميز مظهر كتل الحجر المنقوشة أحد تطبيقات رعاية البلاط، وربما بناء معبد صغير بالطوب اللبن فى الأساس بالأسلوب الرسمى المبكر.

وفى الأسرة الثامنة عشرة اتخذ الموقع شكلاً مختلفاً تمام الاختلاف. فقد هدمت المقصورة الحجرية القائمة، وردمت الكوة والفناء العتيقان بكتل الحجارة من أجل الارتفاع بمنسوب الأرض إلى قمة الكتل الجرانيتية. وعلى هذا السطح الجديد المستوى الأكثر ارتفاعاً أقيم معبد من الحجر أكبر حجماً، فى عهد تحتمس الثالث (حوالى ١٤٥٠ ق.م). فقد هلت المرحلة الرسمية الناضجة. إلا أنه حتى فى ذلك الوقت حاول البناءون الإبقاء على بعض الصلة بالأرض المقدسة الأصلية التى طمروها طمراً تاماً. فالموضع المقدس الجديد كان يقع فوق ذلك الموضع القديم، وتم الاتصال المباشر عن طريق حفرة مبطنة بالحجارة كانت تهبط عبر الأساسات إلى أرضية الموضع الأول.

وإذا كانت بساطة المقصورة المبكرة شديدة، مقارنة بعصر بناء الأهرام العظيم فى الشمال، فإن الشىء نفسه ينطبق على فجاجة معظم النذور التى استخرجت من مناسيب الأرضيات المتصلة بها. ويبدو أن هذه النذور تتصل بطبقة من الاعتقادات والممارسات الدينية المنفصلة عن تلك التى تعودنا عليها فى مصر القديمة. إن الديانة «الرسمية» التى تزين المقبرة والمعبد فى مصر لا تعدنا لهذه المادة، التى تقوم فى حد ذاتها كدليل رئيسى على أحد جوانب الديانة المصرية. وكان عدد النذور بالمئات (الشكل ٢٤). وقد وجد الكثير منها مبعثراً فى مناسيب مختلفة، ولكن يبدو أن تركيزاً بعينه تكون خلال الأسرة الخامسة. وكان معظمها مصنوعاً من الخزف الأزرق (وهى مادة مخلقة لامعة لونها أزرق يميل إلى الاخضرار كانت فى الماضى المقابل للبلاستيك الحديث)، إلا أن الفخار والعاج والحجر الجيرى والحجر الرملى كانت مستخدمة كذلك. ويمكن حصرها فيما يلى:

١ – أشكال آدمية: كبار وأطفال، والمجموعة الأكبر عدداً من الأطفال الذين يضعون أصابعهم فى أفواههم . والتمثال الفريد عبارة عن الجزء الأسفل من ملك جالس ويحمل علامة واحدة فسرت على أنها اسم الملك جِر من الأسرة الأولى (وإن كانت من منسوب يعود للأسرة السادسة) .

٢ – قردة الرباح، وقليل منها أصابعها فى أفواهها .

٣ – عدد صغير من الحيوانات والطيور، وتشمل الحيوانات الضفادع والتماسيح والأسود والخنازير وأفراس النهر والقطط والقنافذ .

٤ – لوحات بيضاوية من الخزف الأزرق تحمل على أحد طرفيها رأس حيوان، من الواضح أنه قنفذ (واحد وأربعون نموذجاً من هذا التصميم المحير) .

٥ – بلاطات من الخزف الأزرق من النوع الذى يستخدم فى تطعيم الأسوار، الكثير منها محفور أو مرسوم على ظهره علامة .

٦ – أشياء مختلفة الأشكال من الخزف الأزرق، أغلبها خرز كبير الحجم وحبات مستطيلة تستخدم فى القلادات، وجرار مصغرة .

٧ – حصى طبيعى من الصوان أشكاله غريبة .

٨ – سكاكين من الصوان .

وبالإضافة إلى هذه المجموعات عثر على عدد من الأشياء التى تحمل أسماء الملكين بيبى الأول والثانى من الأسرة السادسة (حوالى ٢٢٥٠ ق.م). وكان بعضها، وربما كلها، احتفالاً بحب سد (يوبيل) هذين الملكين. وكان أحدها مزهرية على شكل قرد يجلس القرفصاء ويمسك بصغيره. أما بالباقى فكان لوحات من الخزف الأزرق (أغلبها من أجل بيبى الأول). وقدمت الأسرة السادسة كذلك النقوش الوحيدة التى وجدت فى الموقع: وهى عبارة عن نقشان للملك مرن رع والملك بيبى الثانى محفوران على جدران الكوة الجرانيتية، وكان الأول تخليداً لحملة حربية فى النوبة[4].

وتأتى هذه المادة من سلسلة من الطبقات المتعاقبة التى تغطى الأسرات الستة الأولى كلها. إلا أن الوضع الأفقى لا يحدد بشكل آلى تاريخ الصنع بالنسبة لأية قطعة بعينها ، إذ يبين فقط الوقت الذى استغنى فيه عنها. وربما كانت القطع قديمة جداً عندما دفنت فى نهاية الأمر فى أرضية المقصورة. ومن الواضح أن التقاليد المتعلقة بهذا الأمر بدأت فى عصر الأسرات المبكر، حيث أوجدت مناخاً ظل قائماً زمناً طويلاً. إلا أن الدراسة المفصلة لكل قطعة من القطع[5]، توضح أنه بينما كان عصر الأسرات

المبكر هو تاريخ وضع أسس الأسلوب وما تجمع من أشكال، فليس من الضرورى أن يكون هو تاريخ الصنع بالنسبة لكل قطعة. واستمر التقليد قائماً حتى الدولة القديمة، وفى النهاية كانت اللوحات الخزفية الزرقاء التى تحمل أسماء ملوك الأسرة السادسة تنتج بنفس الطريقة البدائية. ولا بد أن مجموعة صغيرة من الصناع الملحقين على المقصورة قد لبوا طلباً على نذور المعبد، حيث احتفظوا بالأشكال والتقنيات لفترة طويلة من الزمن شملت الأسرات الست الأولى فى واقع الأمر.

وهناك ملمح واضح آخر يميز هذه المجموعة من الأشياء وينطبق كذلك على مجموعات مشابهة من هيراكونبوليس وأبيدوس، وهو غياب ما يمكن ربطه بإله أو آلهة العبادة المحلية. والواقع أننا إذا نظرنا إلى كل المادة الخاصة بعصر الأسرات المبكر والدولة القديمة التى حصلنا عليها من مقصورة فيله وحدها، فإنها لا تخبرنا على الإطلاق بما يدل على المعبود الذى شيد من أجله المعبد. وتذكر الكتل الحجرية من مقاصير الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة المعبودات المحلية الثلاث التى أصبحت منذ ذلك الوقت المعبودات الرئيسية فى فيله: وهى خنوم وساتت وعنقت[6]. وكانت أشكالها مميزة: فكان خنوم كبشاً، وكانت الأخريان سيدتين لكل منهما غطاء رأس غير عادى. ولم يكن بين مادة النذور ما يمت بصلة إلى هذه الأشكال. وربما انطوى تفسير ذلك على عاملين. أحد هذين العاملين هو أن الديانة الرسمية الخاصة بعصر ما قبل الأسرات المبكر كانت لها سلسلة من المعانى التى تختلف بصورة أو بأخرى عما فى العصور اللاحقة، وإن كانت الصور المبكرة نفسها قد أبقى عليها التقليد اللاحق، مع تغيير الهوية فى بعض الأحيان. وعبادتا قرد الرباح والعقارب مثالان لذلك[7]. والمثال الآخر هو أنه بينما أصبح للمقصورة فى وقت من الأوقات (يفترض أنه فى الدولة القديمة) تقديس رسمى اعترف به الكهنة والملوك، فقد كانت بالنسبة للسكان المحليين بمثابة نقطة مركزية للمعتقدات التى كان لها أصل مستقل ووجود خاص بها. والتفسير الأكثر احتمالاً لتماثيل الأطفال، على سبيل المثال، هو أنها تميز لجوء الشخص المحلى للمقصورة قبل الولادة الناجحة، أو بعدها أو أملاً فيها. والمعتقدات التى من هذا النوع لم يُعَبَّر عنها فى النصوص اللاهوتية الرسمية. فهى جانب من جوانب البُعد الخفى للحياة والمجتمع فى مصر القديمة.

هيراكونبوليس

نشأت خلال الدولة القديمة مدينة ذات سور على موقع النواة النهائية التى انكمشت إليها المستوطنة الممتدة منخفضة الكثافة فى عصر ما قبل الأسرات (انظر الشكل 11). وكان الركن الجنوبى من هذه المدينة يشغله سياج معبد مستطيل الشكل يحيط به سور من الطوب اللبن (الشكل 25). وما تزال فترات عديدة ممثلة فى تراصف مضغوط غامض[8]. وتنقسم محتويات السياج إلى ثلاثة أجزاء تقريباً. فذلك الجزء الواقع فى الشمال الغربى ليس به شىء فى معظمه، لأن الأرض قد تعرت إلى ما دون مناسيب البناء الرئيسى. وذلك الذى فى الوسط يشغله جزء من نسق كثيف من الجدران المبنية بالطوب مد على تخطيط متقن مستطيل الشكل، ويعلو ربوة اصطناعية من الرمال أبقتها فى مكانها كساء خشن من الحجر الرملى. أما الجزء الذى فى الجنوب فيحتوى على بقايا أقل، إلا أن بينها معظم القطع المأخوذة من معبد حجرى يعود إلى الدولة الحديثة فى الأصل وشيده تحتمس الثالث. وهو يضم بقايا صرحين من أحد المداخل، وأساسات من الطوب للأعمدة، وأجزاء متناثرة من الأساسات. وهذا الجزء الجنوبى هو أيسر المنطقتين الأثريتين على الفهم. فقد أقيم معبد حجرى فى هذا المكان، ويوضح الصرحان أنه كان يتجه شمالاً نحو النهر. وكما هو الحال عادة، سوى بناة الدولة الحديثة أسوار الأبنية القديمة بالأرض كى يفسحوا المجال لبنائهم. وتقع الجدران التى من الطوب ضمن الجزء الأوسط عند نفس المنسوب الذى عليه معبد الأسرة الثامنة عشرة. فهل هما بالفعل من نفس الفترة؟ رغم أن تداخلها مع معبد الأسرة الثامنة عشرة طفيف، فهو قائم، ويبدو أنه لا علاقة له بالمعبد. وتتوافق بكاملها توافقاً تاماً مع معرفتنا العامة الخاصة بتطور المعبد، إذا ما اعتبرنا جدران الجزء الأوسط التى من الطوب اللبن بقايا تصميم سبق تخطيطه لمعبد من الدولة الوسطى وكل المبانى الملحقة به. وبالنسبة لهيراكونبوليس، قد يكون هذا هو مرحلته الرسمية المبكرة، التى حل محلها فى عهد تحتمس الثالث المعبد الحجرى الرسمى الناضج. والتسلسل التطورى شديد الشبه بذلك الذى فى المادمود الذى يساعدنا، لكونه مؤرخاً تأريخاً يعول عليه أكثر، فى تحديد تواريخ أجزاء هيراكونبوليس المختلفة.

ربما كان وسط المجمع المبنى بالطوب كذلك هو مقصورة الدولة الوسطى فعلاً، لأنها أكثر اتساعاً من عمقها. ويمكن الاستشهاد بمثيلاتها من الدولة الوسطى من أجل

خصائصها[9]. وفى الغرفة الوسطى كانت تقع حفرة مبطنة بالطوب فى الأرضية، ومغطاة بلوح من البازلت. وكانت الحفرة تحتوى على صورة مقدسة كاملة: عبارة عن صقر من صفيحة من النحاس الرقيق، والرأس والجناحان من الذهب . (الشكل 26) ووجدت خبيئة أخرى تحت أرضية الغرفة الأخيرة إلى الشمال. واحتوت هذه الخبيئة على تمثالين من النحاس لبيبى الأول وملك آخر من الأسرة السادسة، وأحد التماثيل المصنوعة من الشست للملك خع سخموى من الأسرة الثانية، وأسد جميل من الفخار ربما يعود إلى عصر الأسرات المبكر. وهذه القطع كلها بالأسلوب الفرعونى الرسمى «الكلاسيكى» .

ولم تكن «الخبيئة الرئيسية» تقع على عمق كبير فى الأرض تحت الجدران، وإنما كانت تحت ربوة غير محددة تحديداً جيداً وليس فى حفرة. وكان جزء منها يضم مادة فنية مهمة: صلايات من الإردواز، بينها صلاية نعرمر وصلاية الكلبين (انظر الشكل 12 والشكل 14) ورؤوس الدبابيس المحفورة، والتماثيل الصغيرة المصنوعة من العاج، وقطع عاج أخرى محفور عليها رسومات بارزة، وتمثال محطم من الحجر الجيرى للملك خع سخموى من الأسرة الثانية وسلاطين حجرية من العهد نفسه. إلا أن ما كانت له الغلبة من ناحية العدد فهى أشياء صغيرة كانت فى كثير من الأحيان سيئة التنفيذ. وكان أغلبها رؤوس دبابيس، وسلاطين غير عميقة من المرمر، وأوعية أخرى من الحجر والخزف الأزرق بينها أوان مصغرة على حوامل طويلة، وتماثيل صغيرة للحيوانات مصنوعة من مواد عديدة: قرود أحدها يلعق صغيره، وطيور، وضفادع، وأفراس نهر، وكلاب، وخنزير برى، وغزال أو وعل، والعديد من العقارب أو ذيول العقارب . وهذه الأخيرة تضيف عنصراً مميزاً للمجموعة. والتناظر بين أبيدوس وفيله شديد جداً. كما أن المادة لا تتطابق مع النسب الإلهى المعروف الخاص بالمعبد لحورس نخن الإله الصقر، وهو تجسيد المُلك المبكر.

وكانت الخبيئة الرئيسية تقع تحت أسوار جزء من المعبد الرسمى المبكر. وكان يقع تحت جزء آخر منه القدر الأكبر من بناء أقدم: وهو ربوة دائرية من رمل الصحراء النظيف يحيط بها جدار مائل من كتل الحجر الجيرى الخشنة. ويوحى دليل تعاقب الطبقات على أنه بنى فيما بين تاريخ فى عصر ما قبل الأسرات والأسرة الثانية أو

الثالثة (ولنقل ٢٧٠٠ أو ٢٦٠٠ ق.م). وكانت منازل الدولة القديمة قد شيدت حوله، غير أنها لم تزحف عليه، حتى أنه من المحتمل أنه كان مستخدماً طوال جزء من الدولة القديمة على الأقل. والتأويل الشائع لوظيفته هو أنه كان قاعدة بالنسبة للمعبد القديم فى هيراكونبوليس. وربما جلبت بعض قطع الحجر التى وجدت بالقرب منه من المعبد الذى شيد على الربوة ثم هُدم بعد ذلك لإفساح المجال للمعبد الرسمى المبكر. وكان بين تلك الكتل الحجرية قائم الباب الجرانيتى الخاص بالملك خع سخموى الذى نقش عليه مشهد شعيرة وضع أساس المعبد[11]، وعمود أو لوحة خاصة بواحد من الملكين ببيى من الأسرة السادسة[12]. وكانت إحدى القطع غير العادية عبارة عن لوح [ستلا] من الجرانيت مستدير القمة ولا يحمل أية نقوش ارتفاعه ٢,٦ متر ، وهو شبيه بالألواح المنفصلة الموجودة فى الأفنية المفتوحة بالمعابد الجنائزية الملحقة ببعض أهرام الدولة القديمة (انظر الشكل 30 (3) والشكل 21)[13]. وليست لدينا أية فكرة عن شكل المبنى الذى كان يعلو الربوة، وإن كان من المحتمل أن يكون قد بنى بالطوب اللبن، ومن المؤكد أنه كان صغيراً جداً. إلا أن الربوة المستديرة تعطيه على الفور صفة غريبة عن توقعاتنا الخاصة بعمارة المعبد المصرى القديم. ومحتويات المعبد غريبة هى الأخرى. ونحن نعرف ماهيتها من خلال الخبيئة الرئيسية وغيرها من المادة المدفونة التى وصفت للتو: وهى عدد صغير من القطع «الكلاسيكية» التى يمكن التعرف عليها، وعدد كبير جداً من القطع حسب التقليد الأولى. وربما صنع الكثير منها فى أواخر عصر ما قبل التاريخ المتأخر، كما هو الحال بالنسبة لألواح الإردواز، ولكن من غير المحتمل أنها جميعاً كانت كذلك، وخاصة فى ضوء أدلة فيله الجديد.

أبيــــدوس[14]

ربما جاءت مدينة أبيدوس الإقليمية إلى الوجود فى فترة قريبة من بداية الأسرة الأولى. ففى أواخر الدولة القديمة مر موقع المعبد الذى كان مجاوراً لربوة المدينة بمرحلة رئيسية من إعادة البناء كانت تمثل خطوة نحو الرسمية، وإن ظل مبنى المعبد نفسه مبنى متواضعاً من الطوب اللبن (الشكل 27). وكان التركيز الأساسى على خلق سياج جديد يحيط به سور. وفى الجانب الشمالى الشرقى، فى اتجاه الركن الشمالى،

كـانت تقـوم بوابة مـبطنة بـالحـجـر وتحـمـل خـرطوش أحـد الملكين بيـبى من الأسـرة السادسة. وكان المعبد نفسه مبنى مستطيل الشكل أبعاده ١٨×٢١ متراً، وبه تقسيمات داخلية. وكان المعبد قد شيد من الطوب، إلا أن بوابته كانت مبطنة بالحجر. ووجد بترى داخله مـجـمـوعة من النذور، بينهـا لوحـات من الخـزف الأزرق والمزهـريات المرمـر التى تحمل اسمى بيبى الأول وبيبى الثانى. وعلى عمق ٥٠ سنتيمتراً أسفل الأرضية كانت هناك خبيئة من الرماد والتراب تحتوى على «مئات من قطع الصلصال الصغيرة الملتوية المحروقة» . ووجدت أشياء مشابهة بعد ذلك فيما تبدو أنها خبيئة تعود إلى عصر ما قبل الأسـرات المبكر تحت مـعـبـد من الدولة الحـديثـة فى أرمنت[15]. وكـانت البـقـايا المعمارية التى يمكن تتبعها تحت أرضية معبد الدولة القديمة لا تتكون سوى من الرمل وجدران رفيعة من الطوب لا تتجمع معاً لتشكل مبنى واحداً متماسكاً. ويبدو أن أحد الأجزاء يتكون من فناء مستطيل يخرج منه دهليز ضيق مبطن بالطوب، يذكرنا بصورة عامة بالتخطيط الأرضى الأساسى الخاص بالمعبد الأولى فى المـدامود[16]. وما ينبغى أن نتوقعه هو مبنى ليس فيه تشييد ثقيل وتصميم شديد الرسمية.

وخلال تلك حفائر اكتشف بترى كذلك مجموعات عديدة من تماثيل النذور صغيرة الحجم. وكان بعضها قد دفن فى حفر، كانت إحداها بالفعل تحت خط سور هذا المعبد الذى يعـود إلى أواخـر الدولة القـديمـة. وكـانت هذه النذور ذات الأشكال البـشـرية مصنوعة فى معظمها من الخـزف الأزرق والحـجـر الجيرى والعـاج، إلى جانب من الأوانى والقوارب والمقاصير المحمولة والفواكه والزهور، وهى جميعاً من الخزف الأزرق (انظر الشكل 24). وكان أحد الأشكال البشرية الصغيرة تمثالاً جميلاً من العاج لملك فى رداء الحب سد[17]. وتشترك هذا المادة فى نفس مشكلة تحديد التاريخ مع خبيئات هيراكونبوليس: فهى قد فصلت فصلاً متعمداً عن سياقها فى زمن قديم عندما أعيد بناء المعبد، ويخلق أسلوبها الأولى انطباعاً ببعد عهدها. إلا أنها تقترب كثيراً من المادة التى عثر عليها فى فيله. ولا شك فى أن البعض يعود إلى عصر ما قبل الأسرات المبكر. غير أن قطعاً أخرى قد تجعل المدى يصل إلى الدولة القديمة. وبحلول الوقت الذى أعيد فيه بناء المعبد فى الدولة القديمة كانت لم تعد مطلوبة بشكل فعال فى المعبد، ولذلك دفنت بعناية فى الأساسات. وفى أواخر عهد الأسرة الحادية عشرة وعهد الملك

سنوسرت الأول أعيد بناء المعبد، حيث استخدمت كمية محدودة من القطع الحجرية، التى يفترض أنها وضعت فى إطار من الطوب اللبن. وقد أزيل أى أثر لهذا البناء عند إعادة البناء فى الدولة القديمة.

وكان من نتائج رعاية البلاط، وتدخل منهج إعطاء الصفة الرسمية فى أبيدوس، ذلك التغير فى هوية الإله الذى خصص له المعبد فى الأصل فى الدولة القديمة: من خنتى أمنتيو، وهو إله محلى على شكل ابن آوى، إلى أوزيريس، الذى أصبحت لعبادته أهمية قومية. وهذا الجانب من العبادة فى أبيدوس، التى تعد مثالاً لإعادة تقنين التقليد، سوف نتناوله فيما بعد. إلا أنه فى فيله وهيراكونبوليس لا تعكس مجموعة تماثيل النذور بحال من الأحوال أياً من هذين المعبودين اللذين ارتبطا فى الأساس بالمعبد، طبقاً للمصادر الرسمية فى الدولة القديمة اللاحقة. ويبين أحد نماذج التماثيل الإلهية المحمولة شكلاً ليس فيه أى من صفات خنتى أمنتيو أو أوزيريس (انظر الشكل 33 «4»).

ومن الممكن أنه بالإضافة إلى تلك التماثيل التى عثر عليها فى فيلة وهيراكونبوليس وأبيدوس، يمكن التعرف على مجموعة عثر عليها فى مقصورة رابعة. إنها متناثرة بين مجموعات عديدة من الآثار وهى من كشف غير مشروع تم فى أواخر الأربعينيات أو فى الخمسينيات[18]. ومع أن جوهر المجموعة نسب بثقة إلى أبيدوس، فإن دليلاً آخر قد أثار الشكوك، مما جعل أماكن أخرى مثل نقادة تصبح احتمالاً قوياً. وهذا الشك، الذى قد لا يمكن إزالته، يوضح الطابع العام لكل هذه المادة: فهى فى حد ذاتها تمثل القليل من النقاط المرجعية بالنسبة للعبادات المحلية حسبما عرفت من مصادر متأخرة. وبعض القطع مثيرة للاهتمام بصورة خاصة، لكونها نماذج للمقاصير التى على هيئة الخيام، وفى حالة واحدة لتمثال إلهى محمول (انظر ص 94 الشكل33).

قفط

آخر مواقعنا الخاصة بالمجموعة الأولية هى قفط التى تقع على بعد ٣٨ كيلومتراً شمال شرقى طيبة. وفى هذه الحالة كذلك المصدر الرئيسى تقرير حفائر قديم وضعه فلندرز بترى الذى حفر منطقة المعبد سنة ١٨٩٤[19] . وقد اختفت كل أبنية المعبد ،

إلا أن الآثار الباقية توحى بتركيبة مألوفة: فهناك رواق بطلمى فى مقدمة معبد من الحجر خاص بتحتمس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة – وبذلك أضيف «الرسمى المتأخر» إلى «الرسمى الناضج». ومما يؤسف له أنه لم يتم العثور على أية عمارة أقدم. إلا أنه فى التراب الموجود أسفل المعبد وحوله اكتشف بترى مجموعة من التماثيل الصغيرة، من الحجر ومن الفخار المحروق بطريقة سيئة. ولا بد أن نعتبرها منتجات تقليد أولى محلى آخر خاص بقرابين النذور. وهى لذلك مناظرة للمادة التى عثر عليها فى فيله وأبيدوس وهيراكونبوليس. ولم يكن الخزف الأزرق جزءاً من هذا التقليد. وفى ضوء ظروف الكشف لا يمكن تحديد تاريخ واضح، وإن كان بترى يزعم أن فخار الدولة القديمة كان موجوداً على مقربة من المكان. وشملت التماثيل الصغيرة أشكالاً بشرية، بعضها تماثيل مشكلة تشكيلاً دقيقاً، والبعض الآخر «شكلت تشكيلاً خشناً بالأصابع وبها تفاصيل تحددها خطوط محفورة»[20]. وكانت هناك كذلك تماثيل تماسيح. وكانت الطبقة المميزة عبارة عن حوامل مستديرة عليها نقوش بارزة. وأحد النقوش التى تضمها كلاب وزهرتا لوتس مربوطتان ببعضهما. وكان هناك طائر وثلاثة أسود من الحجر[21]. وأبرز الأشياء التى عثر عليها كانت أجزاء من ثلاثة تماثيل ضخمة لإله أو آلهة الخصوبة، حيث يمسك بعصا من الخشب أو ما يشبهها (وهى مفقودة الآن) فى يد، وعضو منتصب (محفور من قطعة منفصلة من الحجر ومفقود الآن) فى اليد الأخرى[22]. وأحد التماثيل موضح فى الشكل 28 ، مع محاولة لاستعادة المظهر الأصلى، باستخدام الرأس المحطم الذى عثر عليه بترى كذلك. وهذه الاستعادة للشكل تعطينا ارتفاعاً قدره ٤,١ متر ، مما يوحى بأن وزنه كان حوالى طنين. وكانت التماثيل تتمنطق بزنار عريض، وأسفل الجانب الأيمن فى كل منها سلسلة من الرموز المحفورة حفراً بارزاً على حشوة بارزة بعض الشىء. وهى تغطى سلسلة عجيبة من الأشياء: رأس وعل، وقشر بيض الديناصور الطائر، وتعويذة «الصاعقة» الخاصة بالإله مين على سارية، وضبع، وثور قوائمه ترتكز على تلال.

وإذا استخدمنا الفنون الفرعونية كمعيار نُقَيِّم على أساسه هذه التماثيل، لبدت لنا غريبة وبدائية إلى حد بعيد. فالرأس كثيف الذقن الأصلع والزنار العريض ذو الثنيات ينتمى إلى تقليد مختلف عن التقليد الفرعونى. وتبدو النسب خاطئة، حيث إن التمثال

يتخذ الشكل العام الخاص بأسطوانة مسطحة تسطيحاً طفيفاً. وحتى سلسلة العلامات المحفورة على الجانبين تنتمي إلى مفردات من الرموز تختلف فى معظمها عن تلك التى تظهر فى الكتابة الهيروغليفية وفنون البلاط. واستخدم تكنيك الصنع تكسية ثانوية بسيطة لتنعيم الخشونة الناجمة عن عملية الطرق المستخدمة لعمل التماثيل، وإن كان تاكل سطوحها يجعلها تبدو أكثر خشونة مما كانت فى الأصل. إلا أن التماثيل تتصل ببعضها اتصالاً قوياً، وكانت تمثل لمن صنعوها ومن أُعجبوا بها رضا عاطفياً وجمالياً يختلف اختلافاً كبيراً عن رضا نظرائهم ورضا من خلفوهم فى البلاط.

ولم يعثر بترى على ما يدل على شكل المعبد المبكر الذى كانت تلك التماثيل الضخمة تنتمى إليه. غير أن الصورة العامة التى لدينا عن المعابد المحلية الباكرة تجعل أنه من غير المحتمل أنها كانت تقع داخل مبنى مسقوف. والاحتمال الأكبر هو أنها كانت فى فناء يحيط به سور منخفض، ربما كانت على ربوة اصطناعية، وفى مثل هذه الحالة تكون الأساسات المتينة ضرورية لتثبيت الأرض تحت وطأتها.

ومن الصعب تحديد تاريخ أو تواريخ هذه المجموعة من المادة، بما فى ذلك التماثيل، ضمن أية حدود قريبة أو حتى متوسطة البعد. وواقع الأمر أن الفروق قد تشير إلى أن المجموعة تغطى فترة طويلة (انظر كذلك ص 347). وقد درست الأسود دراسة مفصلة وحُددت تواريخها على أسس أسلوبية لها بعض الثقل بأنها فى أكثر الاحتمالات بداية الأسرة الأولى[23]. غير أن هناك مادة أخرى معلقة فى عالم الإهمال والنسيان الفنى التاريخى الذى يحيط بالكثير منها.

وتوضح حالة التماثيل الضخمة الطريقة التى غالباً ما تنفى بها الحجج العلمية نفسها. فنحن إن تناولناها من منظور فنى تاريخى سيكون من الصعب وضعها فى زمن لاحق للأسرة الأولى، فقط لأن تسلسل قطع النحت التى يمكن أن تعود إلى زمن تال لتلك الفترة تقع بحق ضمن الأسلوب الفرعونى. وهناك نقطة أسلوبية محددة يمكن الإشارة إليها: وهى أن الطريقة التخطيطية الخاصة برسم عظم الركبتين لها نظير فى صلاية نعرمر (الشكل 12)، وإن كان إبراز الجهاز العضلى للساق والركبة مازلنا نجده، على سبيل المثال، فى بوائك الأسرة الثالثة الخاصة بالملك زوسر التى وجدت فى الهرم المدرج (انظر الشكلين 19 و20). إلا أن تماثيل قفط ليست أعمالاً فنية وحسب.

إنها كتل ضخمة من الحجر جلبت من مسافة بعيدة إلى حد كبير[24]. غير أننا لو تناولناها من منظور تاريخ تكنولوجيا الحجر فى مصر، سوف نتلقى إجابة مختلفة بعض الشىء . فلكى يقتطع الحجر من المحاجر ويشكل بهذا الحجم، لابد من الانتظار حتى نهاية الأسرة الثانية لنجد ما يماثل ذلك. ويمكننا مواجهة هذا القول بالإشارة إلى حالة التماثيل الضخمة الموجودة على جزيرة ايستر فى المحيط الهادى التى درست دراسة جيدة، حيث اقتطع الناس أحجارها وأقاموها باستخدام تكنولوجيا وتنظيم ربما لا يختلف كثيراً عن ذلك المستخدم فى عصر ما قبل الأسرات المتأخر فى مصر. والواقع أن العامل الحيوى هو الرغبة فى القيام بالعمل . وسوف تقوم التكنولوجيا البسيطة والجهد الجمعى بباقى الأمر. وكما أن تماثيل قفط الضخمة تعد أشياء استثنائية بالنسبة لنا، فمن المحتمل أنها كانت استثنائية كذلك لمن أبدعوها، وهكذا لا تكون مطابقة للمستوى العام لاستعمال الحجر فى زمانهم.

وحتى إذا جعلنا إبداعهم بشكل مؤقت نحو بداية عصر الأسرات المبكر، فإننا سنكون قد تعاملنا تعاملاً جزئياً وحسب مع تاريخها . فلا بد كذلك من معرفة كم من الزمن كانت فيه موضع تبجيل وتوقير. وطبقاً للسجل الأركيولوجى، ربما استوعبها المناخ المحافظ فى المعابد المحلية فى الوجه القبلى حتى صدر مرسوم ملكى باستبدالها، الأمر الذى ربما وقع فى أى وقت فى الدولة القديمة. بل إنه حتى بعد هجرها هجراً رسمياً، ربما ظلت مصدراً من القوة بالنسبة للسكان المحليين. فهى تحمل على أجسامها عدداً من المنخفضات المستديرة الناعمة التى ربما أحدثها الناس وهم يحكونها للحصول على تراب له تأثير سحرى(*). وهذا لا يمكن القيام به إلا والتمثال مستلق على الأرض.

ومنذ اكتشاف التماثيل وهى تبدو منتجات غريبة عن وادى النيل. ومع ذلك فهذا مرجعه أننا أنفسنا نراها رؤية من يدرك الأمر بعد وقوعه. فقد شكل جمالياتنا ما أصبح فى نهاية الأمر التقليد المهم الوحيد فى الفنون. أما بالنسبة لمن صنعوها ووقروها فلا بد أنها كانت تمثل إنجازاً فريداً من التقاليد المحلية المفضلة.

(*) هذه ممارسة كانت لاتزال تتم حتى عهد قريب فى صعيد مصر . راجع كتاب «الناس فى صعيد مصر» وينفريد بلاكمان ، ترجمة أحمد محمود ، دار عين ، القاهرة ١٩٩٥ - (المترجم) .

والواقع أن كثيراً من المادة الفنية الأولية معروف منذ بداية القرن (فيما عدا فيله). وقد أحدث اكتشافه أثراً مبدئياً كبيراً، كما دفع إلى وضع كتاب مازال دراسة مدخلية مفيدة: وهو كتاب ج. كابارت Primitive Art in Egypt [الفنون البدائية في مصر] الذى نشر سنة ١٩٠٥[25]. ويرى كابارت أن التناقض الأسلوبى يفسره استمرار وجود «فنون بدائية» محلية بين السكان على إطلاقهم، إلى جانب نمو «فنون رسمية، هى فنون السادة» أدخلتها مجموعة صغيرة من المصريين الفراعنة الغزاة، الذين كان يعتقد وقتها أنهم جلبوا معهم الأفكار الأساسية للحضارة المصرية القديمة. ومع أن جانب الغزو في نموذج كابارت لم يعد مقبولاً كتفسير تاريخى، فقد أعطى على الأقل لهذه المادة ثقلاً فقدته منذ ذلك الوقت. ونحن إذا استبدلنا دائرة بلاط مبتكرة، ولكنها محلية، بجماعة غازية أسمى، لأصبح عرض كابارت عرضاً معقولاً، وإن أرجع هو الآخر الكثير جداً من مادة النذور إلى عصر ما قبل الأسرات.

إن النموذج الذى لا يسير فى خط مستقيم الخاص بالتطور الثقافى فى مصر – منهج تاريخ الفن – مبالغ فى تبسيطه، وهو بذلك يستغنى عن كل دليل غير ملائم. وكان المنهج شديد الرسمية، الذى نعرفه بأنه مثالى فى فرعونيته، كما أنه حل محل الإبداعات الأكثر بداهة والأقل نظاماً الخاصة بالعصر الفرعونى، بطيئاً فى وصوله إلى بعض المناطق الإقليمية فى مصر عصر الأسرات. ولم تكن فنون البلاط الأكاديمية، التى خلقت فى عصر الأسرات المبكر، مستخدمة ضمن برنامج عام للإحلال فى أنحاء البلاد. ففى المعابد الإقليمية، ظلت المبانى والأشياء التى فيها، وهى إما موروثة من الماضى أو صنعت على غرار أساليب الماضى، تحظى بالاهتمام لزمن طويل. وربما شملت أسباب مضى التحول ببطء وبتدرج كذلك قصوراً فى موارد البلاط. فقد كانت لزمن طويل مركزة فى تشييد الأهرام وبناء جبانات البلاط. بل إن خلق («مولد») صورة إلهية جديدة كان عملاً يتسم بقدر عظيم من الأهمية، حتى أن النماذج الفردية كانت مسجلة تسجيلاً مبجلاً فى الحوليات القديمة، كواحد من الأعمال المهمة القليلة الخاصة بعام بعينه من أعوام عهد أحد الملوك[26]. غير أنه لا بد أن السبب الرئيسى ظل تفضيلاً فردياً للقديم.

ولاشك فى أن الخريطة الزمنية أحد هذه الأسباب. فلابد أن عصر الأسرات قد بدأ حوالى سنة ٣١٠٠ ق.م. وانتهت الدولة القديمة حوالى سنة ٢١٦٠ ق.م. وبذلك دام الأمر ما يقرب من ألف سنة فى بعض هذه المواقع. وهو ما يعنى أن مصر عصر الأسرات كانت بلداً ذا ثقافتين طوال ثلث تاريخه.

جذور الثقافة

يكمن مفتاح فهم الثقافة المرئية المصرية الرسمية - أى العمارة وكذلك الفنون - وتجانسها الرائع على مدى ثلاثة آلاف سنة فى مفهوم النمط النموذجى. وهذه صفة كلية من صفات العقل. فنحن جميعاً لدينا فى ضوء تجربتنا الثقافية صورة فيما يتعلق بما ينبغى أن يكون عليه أى ملك تقليدى، أو أى مسكن مرغوب فيه، أو المكان الصحيح للعبادة. والحداثة فى الفنون والعمارة توجه نحو كسر الأنماط المثالية وإظهار أنه فى إطار الخيال يجب ألا تكون هناك قوالب جامدة. وقد وجدت محاولة مختلفة لتحطيم القوالب الجامدة فى الإسلام. فالله لا ينبغى أن تكون له صورة مرئية على الإطلاق، ويجب أن يُرى من خلال تعدد أسمائه. وكان المصريون على النقيض من ذلك. فالنمط النموذجى، أى صورة ما كان يمثل الشكل الصحيح، قد تم الارتقاء به إلى ذروة المرغوبية الفكرية والجمالية. ولأنه كان يتركز فى فنون البلاط، المصدر الأول للرعاية، فقد كان مثالاً مخلداً لذاته، حيث كان ينتقى بطريقة آلية هؤلاء الفنانين ذوى القدرة الطبيعية على استيعاب سلسلة من الأنماط المثالية فى وعيهم الفنى، ويتميزون بمهارتهم فى ترجمة هذه الأنماط إلى الأسلوب الجرافيكى المحدد الذى كان مفضلاً، ويشجعهم. لقد كان مزيجاً من الاستعداد العقلى والمهارة التى لها الصدارة فى الفن التجارى فى العالم الحديث.

ويوضح تاريخ الكتابة فى مصر بشكل مناسب ما كان للأشكال المرئية الأصلية من قوة ونفوذ[27]. وتظهر المجموعات القصيرة الأولى من الرموز الهيروغليفية المستخدمة ككتابة فى فترة الانتقال إلى الأسرة الأولى. فالرموز صور أشكال تتسق فى أسلوبها مع القانون المتطور للفنون الرسمية. إلا أن الرموز الهيروغليفية لم تكن متناسبة تمام التناسب مع الكتابة السريعة الضرورية للرسائل أو الوثائق الإدارية.

وبحلول الأسرة الرابعة، وربما قبل ذلك، كان المصريون قد ابتكروا شكلاً أسرع للكتابة وهو ما نسميه الهيراطيقى (انظر الشكل 39 والشكل 41 على سبيل المثال). فقد اختزلت الرموز الهيروغليفية المفردة إلى قليل من الخطوط السهلة التى يخطها القلم البوص، وفى بعض الأحيان تلتقى مع بعضها لتكون مجموعات. وغيرت اللغة الهيراطيقية أسلوبها على مر الأجيال، حتى أن الباحثين المحدثين يمكنهم أن يحددوا تاريخ النصوص فى حدود زمنية معينة عن طريق الكتابة. وابتكر بعض الكتبة المجيدين، وخاصة فى أواخر الدولة الحديثة، زخارف أنيقة فى كتابتهم. ولكن لا يسعنا فى حال من الأحوال أن نزعم بأمانة أن هذا يمثل فناً للخط كذلك الذى ابتكرته الثقافة الإسلامية أو اليابانية التقليدية على سبيل المثال. والسبب وراء ذلك بسيط: فالكتابة التى تتطلب الحرص والاهتمام كانت هى الكتابة الهيروغليفية. ومع أن المزيد من الرموز كان يضاف من حين لآخر، فلم يتغير النمط النموذجى قط. فقد كان الشكل الطبيعى المرسوم بدقة كما أبدع فى عصر ما قبل الأسرات المتأخر. والفنان الذى كان يرغب فى أن يبذل مواهبه فى سخاء فى الرموز الهيروغليفية ، كان يفعل ذلك بالاجتهاد فى التفاصيل الداخلية للخطوط العامة، التى لم يكن تغييرها طبيعياً أو صحيحاً.

وأسلوب الفنون الفرعونية يسهل وصفه[28]، وكان تحديده من منظور المنتج القديم سهلاً نسبياً، على فرض أنه كان هناك الحافز للقيام بذلك. وكان الفنان المجد ضمن طبقة الكتبة الرسمية، كما تدل على ذلك ورش النحاتين فى مدينة العمارنة التى تعود إلى الدولة الحديثة (انظر الفصل السابع). ويمكننا انتقاء ثلاثة عناصر أساسية. فقد أعطيت التكوينات بالكامل شكلاً مخططاً بصورة بارزة من خلال التقسيم الفرعى ، عن طريق خطوط أفقية تنشأ منها أشكال مفردة. وما ينتج عن ذلك من أشرطة الأشكال، أو خاناتها، يصور أفكاراً. إلا أن تعاقب الخانات قد يتضمن عنصراً ترتيبياً أكثر عمومية: وهو عنصر خاص بالفراغ الذى يبتعد عن المشاهد وإن لم يقدم أية فكرة لتقليص حجم الأشكال على البعد، أو خاص بالزمن، فى تعاقب يتجه رأسياً إلى أعلى. أما العنصر الثانى، الذى يرتبط كذلك بالتكوين العام، فهو الصلة الوطيدة بين الأشكال والكتابة الهيروغليفية المصاحبة لها. فلأن الرموز الهيروغليفية احتفظت بأشكالها الطبيعية الأصلية وكانت تُرسم حسب نفس التقاليد كبقية العناصر فى أية صورة ، فقد امتزجت الصور امتزاجاً منسجماً لتصبح قناة اتصال واحدة. ويتضح هذا أكثر

ما يتضح عندما تشكل العلامات تشكيلاً رمزياً لتصبح ضمن أحداث المنظر، وهو ما يتضح فى قواعد عرش اللشت (انظر الشكل 6). وفى عصر الأسرات المبكر كانت الرموز الهيروغليفية والمجموعات المصورة تتداخل في الغالب بقدر من التساوى يزيد عما كان يحدث فيما بعد عندما انقلبت الموازين وأصبحت الرموز الهيروغليفية تميل أكثر لأن تكون تعليقاً على منظر مصور سائد.

ويتعلق العنصر الثالث بالتقاليد الخاصة بالأشكال الفردية ، سواء أكانت بشراً، أم حيوانات، أم قطع أثاث. وكان كل شكل أو كل مكون أساسى من مكونات أحد الأشكال يختزل إلى صورة جانبية (بروفيل) مميزة، وفى حالة الضرورة يعاد تجميعها لتنتج صورة مركبة لا تؤذى الذوق العام كثيراً. فبالنسبة للثور كان الاختزال إلى ثلاثة أجزاء: الصورة الجانبية للجسم، والصورة الأمامية للعين، والصورة الأمامية للقرنين. وكان الجسم البشرى يعامل بما يشبه ذلك. أما فى حالة الطيور فكان شكل ريش الذيل يصور وكأنه يرى من أعلى.

ويسبب موضوع الفن المصرى وشكله المحدودين، فى كل من المشاهد الجدارية والتماثيل، كان إعادة إنتاج الأنماط النموذجية مسألة صريحة. والواقع أنه بالنسبة لبعض العناصر، وعلى رأسها نسب الشكل البشرى، وضع قانون محدد يختص بالنسب، وهو القانون الذى كان يربط اعتباراً من الدولة الوسطى أجزاء الجسم بشبكة تتكون من ثمانية عشر مربعاً من بطن القدم حتى منبت شعر الرأس.

وكان غرض الفنان هو تقديم عناصر صوره بصدق وبطريقة إعلامية. إلا أن الموضوع نفسه كان يصور الواقع فى إطار مرجعية مأخوذة من عالم الأسطورة والمُثُل. ففى حالة المشاهد الدينية يتضح ذلك تمام الوضوح. غير أن فنون المقابر المصرية كانت تسعى كذلك لتسجيل بيئة أبدية لصاحب المقبرة المتوفى. وخلقت الصور التى اختيرت عالماً من الموائد فيه أصدقاء ، ورحلات صيد، وإشراف على شئون إحدى الضياع فى الريف وشملت الصناع الذين يقومون بأعمالهم. ومن السهل أن نستنتج من صور المقابر أن معظم قدماء المصريين من كل الطبقات كانوا يعيشون فى الريف، فى مجتمع ليس فيه مدن كبيرة وصغيرة. إلا أن السجلات الأثرية توضح أن هذا لم يكن هو الحال[29]. فبحلول الجزء الأول من الدولة القديمة كانت المدن ذات الأسوار كثيفة

السكان قد نمت فى الأماكن التى توحى بأن إطاراً حضرياً ناضجاً قد وجد عليها، وأن المدينة كانت تمثل لمعظم المتعلمين المصريين تجربة العيش الأساسية. ولكن هذا لم يكن له نصيب فى الأحلام الخاصة بالعالم النموذجى، الذى كان عالم الوجود الزراعى المسالم.

وكانت الفنون المصرية (وكذلك العمارة، كما سنرى) أسلوباً تم وضعه بعناية وترو. إلا أنها لم تقم على أرضية ثقافية خاوية، وإنما على ثقافة سابقة لها فى الوجود (وهى الثقافة الأولية) كنا سنتعرف عليها وندرسها، باعتبارها تقليداً قابلاً للحياة بنفسه، ما لم تتقدم مصر الفرعونية أكثر من ذلك. وانطوى خلق الفنون الفرعونية وتوسعها التدريجى، كوسيلة للتواصل الدينى، على تداخل معقد مع التقليد الأولى، حيث اختيرت بعض العناصر ورفضت الأخرى. وهناك مثالان يوضحان هذا. أول هذين المثالين يتعلق بالصور الدينية للإله مين[30].

كان للإله مين فى الديانة الفرعونية الرسمية مكانة بارزة باعتباره إله الخصوبة، وكان له مركز مهم فى قفط. فهو فى الرسومات الكلاسيكية يصوَّر على هيئة رجل واقف يرتدى رداء ضيقاً، حيث يرفع إحدى يديه ممسكة بمدقة الحنطة بينما تمسك الأخرى بأصل قضيبه المنتصب (الشكل 29). أما رداء رأسه فهو ريشتان طويلتان. والسمات المميزة الأخرى هى نسخة طويلة غريبة من المقصورة الخيمة البدائية، وحوض من الخس النامى، الذى كان من الواضح أن عصارته اللبنية تؤول على أنها السائل المنوى للإله[31]. كما أنه أُعطى رمزاً على إحدى الدعامات، وهو ما لم يعرف تعريفاً إيجابياً حتى الآن وإنما يسمى «الصاعقة».

هذه الذخيرة من الصور كانت قد قننت فى أواخر الدولة القديمة[32]. وحقيقة الأمر أنه يبدو أن الصورة الأساسية للإله مين تعود إلى أواخر الأسرة الثانية[33]. وفيما يتعلق بمين، فإن التماثيل الضخمة الأولية التى عثر عليها فى قفط تمدنا بشىء من المادة الخام التى شكلت منها الصورة المقولبة الكلاسيكية. ويمكننا أن نرى كيف كان واضعو النظم الفكرية فى البلاط يعملون. فقد أبقى على الوضع الأساسى، إلا أن التفاصيل والأسلوب العام أعيد تشكيلهما لإنتاج صورة مغايرة للصورة المعيارية الواحدة للإله التى أملاها أسلوب البلاط الخاص بالفنون الدينية. وكانت بعض الرموز

ترتبط بالعبادة الأصلية، المحفورة على جوانب التماثيل الضخمة. وقد اختار واضعو النظم الدينية فى البلاط أحد هذه الرموز، وهو «الصاعقة»، وتجاهلوا سائر الرموز. وكانت النتيجة الإجمالية لعملهم مجموعة من السمات التى ألصقت بالنموذج المألوف للإله متعدد الأغراض. وهو فى هذه الحالة أصبح عرضة للعبة اللغة/الصورة. وظهرت تركيبة مين-آمون التى حدثت فيها درجة من الاندماج مع الإله آمون من مدينة طيبة القريبة. وفى أبيدوس، فى الدولة الوسطى، حققت عبادة «مين-حورس المنتصر»، التي جعلت عبادة مين مرتبطة بعبادة أوزيريس، بعض الانتشار.

المثال الثانى هو حجر بن بن المقدس[34]. ويبدو أنه كان قائماً فى إحدى المقاصير فى هليوبوليس، وكان يفترض أنه مثال للعبادة القديمة واسعة الانتشار الخاصة بالأحجار المفردة، التى كان يعتقد بأن لها خواص عجيبة. وقد ضاع أصل هذا الحجر، غير أن الدلائل المصورة توحى بأنه كان حجراً منتصباً قمته مستديرة (الشكل 30). وأصبح الحجر نموذجاً قامت عليه سلسلة من الرموز المعمارية، كما أنه يعاود الظهور فى فترات متفرقة من التاريخ المصرى فى شكله البدائى. فقد أقام الملك إخناتون، على سبيل المثال، حجر بن بن مستدير القمة فى أحد معابد الشمس الخاصة به فى تل العمارنة[35]. كما أقام الملك سنوسرت الثالث من الأسرة الثانية عشرة نسخة مطولة منه قبل ذلك فى الفيوم فى موقع أبجيج[36]. إلا أن الشكل المستدير كثيراً ما يتنافر مع جماليات المصريين. فقد كان يفتقر إلى النقاء الهندسى. وكان المصريون يفضلون تحويل القمة المستديرة إلى شكل هندسى أكثر نقاء، وهو الهرم، والحجر بكامله إلى مسلة مقطوعة. وأقيمت النسخ التذكارية من هذا الشكل لتكون بمثابة نقطة مركزية فى معابد الشمس المرتبطة بأهرام ملوك الأسرة الخامسة بالقرب من موقع أبى صير. وكانت قمم الأهرام والمسلات المدببة تسمى اسماً مؤنثاً: هو بن بنت. بل إنها يمكن أن تضاف إلى قمم نماذج المقاصير الخيام (الشكل 31) (وهو ما لم يعد لائقاً من وجهة نظرنا).

ولكن لماذا الارتباط بالشمس؟ يتبنى علماء الأديان فكرة التشابه فى التماثل الصوتى بين «بن بن» والفعل «وبن» ومعناه (الشمس) تسطع أو تشرق. وقد أوجد التشابه اللفظى الربط المنطقى بينهما. ومن ممارسة لعبة اللغة الدينية أصبح حجر بن

بن رمزاً لشروق الشمس وتجدد الحياة. وللسبب نفسه، حدث ربط بين البلشون («العنقاء») الذى كان المصريون القدماء يسمونه «بينو» وبين عبادة هذا الحجر، فى الوقت الذى يمكن فيه تسمية معبد هليوبوليس «مأوى العنقاء». والعبارة التى ربطتها جميعاً ببعض وأوحت بأن هناك معنى قويا ومقنعا كانت مايلى: «أيا آتوم خبرر (إله الخلق)، يا من سموت فى الأعالى، ويا من أشرقت (وبن) مثل حجر بن بن فى مأوى «العنقاء» (بينو) فى هليوبوليس»[37]. وبهذا الضرب من العقلنة، الذى لم يثر المزيد من حب الاستطلاع فى العقل المصرى، فرض النظام على جزء صغير من تراث المصريين من عصر ما قبل التاريخ. وحلت لعبة اللغة محل جزء من المدلول المقدس الذى كان ذلك الحجر بعينه يحمله، وهو المدلول الذى ربما يظل مفقوداً على الدوام بالنسبة لنا. وأعيد تشكيل النمط النموذجى من حيث الشكل والمدلول. وفى هذا المثال، وكما هو الحال بالنسبة لتاريخ الإله مين، فإننا نشاهد اختراع تقليد ما، وهو الشىء الذى ظل المصريون يتابعونه بحماس حتى نهاية حضارتهم.

ويمكننا تذكر نموذج آخر. ففى بدايات الدولة الوسطى كانت أبيدوس قد أصبحت مركز عبادة أوزيريس[38]. وكان علماء الأديان، الذين حاولوا تنظيم وعقلنة التقاليد المحلية المتباينة المتعلقة بالأشياء المقدسة فى مصر، قد ربطوا بالفعل بين أوزيريس وأبيدوس خلال الفترة الأخيرة من الدولة القديمة، لأسباب قد لا نعلمها بالمرة. ونحن نعرف هذا من عبارات فى متون الأهرام. إلا أنه على أرض الواقع، فى المعبد الذى يقوم بالفعل فى مدينة أبيدوس، تعود أول إشارة إلى أوزيريس إلى الأسرة الحادية عشرة. وكان المعبد فى الدولة القديمة مخصصًا للإله ابن آوى المحلى المرتبط بالجبانة الكبرى القريبة منه، وكان يسمى خنتى أمنتيو، «إمام الغربيين»، إشارة إلى الموتى المباركين. ومن الدولة القديمة فصاعدا، يصبح هذا الاسم فى المقام الأول نعتاً لأوزيريس، باعتباره «أوزيريس إمام الغربيين». وبالنسبة لأقدم عصر من عصور وجود مقصورة أبيدوس، يبدو أنه كانت هناك علاقة معقدة مشابهة بين خنتى أمنتيو (على فرض أن عبادته بهذا القدم) والممارسة الشعبية كما كشفت عنها النذور. فهى لا تضم أية صورة لهذا الإله، وإن كان نموذج لمقصورة يصور معبوداً له رأس إنسان لا يمكننا إعطاءه اسماً.

ومن سلسلة الأدلة المتاحة يتضح لنا بجلاء أن التدخل الفكرى شكَّل الديانة المصرية عبر فترة طويلة من الزمان، مما أدى إلى تحريك دست التقاليد وأضاف

مكونات جديدة. والمشكلة بالنسبة للدرس الحديث في الاستعداد الذى يزيد على الحد لقبول هذا، أى العنصر الديناميكى القوى فى الديانة القديمة، هى أنها تقوض المنهج الأساسى الخاص ببحثنا: أى منهج المتابعة المتأنية للمصادر فى اتجاه الماضى، من المصادر الأحدث التى نفهمها بصورة أفضل إلى المصادر الأقدم الأكثر تشظياً والأشد غموضاً، وافتراض أن المدلول ظل دائماً على ما هو عليه. وغالباً ما نعمل من خلال تحديد حفريات المعتقدات القديمة الكامنة فى المصادر المتأخرة. إلا أننا إذا سرنا فى هذا المسار السهل نكون عرضة لاحتمال الاستعاضة عن لعبة اللغة القديمة بلعبة بحثية حديثة.

أثقافة شعبية؟

كان للرغبة فى نقاء الشكل واتساق الأسلوب أثرها الذى قلل من العفوية. ويعترف العالم الحديث بأن التعبير الثقافى يظهر على أكثر من مستوى. فبينما تتبع الثقافة العظمى أو العليا من مراكز الرعاية المعترف بها ويكون لها الأثر العام الأعظم حتماً، فإن للثقافة الدارجة، التى هى «الثقافة الشعبية» الخاصة بالماضى أو ذات الجذور الزراعية، قوة وأصالة خاصة بها وتعد جانباً مشروعاً من ثقافة الشعب ككل، وإن كانت أقل من الناحية الفكرية. وعلينا أن نكون مستعدين ونحن ندرس المجتمعات القديمة لمواجهة تعددية التعبير ذاتها.

إلا أن المشاكل التى تنشأ بالنسبة للماضى البعيد مشاكل ضخمة إلى حد كبير. فالثقافة الدارجة تستعمل الموسيقى، والحكاية الشفاهية، والرقص، بقدر استخدامها للفنون المجازية. وهذه مفقودة بالنسبة لعلم الآثار، ما لم يعثر عليها فى الصور القديمة النادرة التى لا يمكنها فى حال من الأحوال نقل ما يزيد على أقصر تنويه عن برنامج. وينطبق هذا على مصر القديمة. فصور المقابر، وفى بعض الأحيان مناظر المعابد، تعرض الرقصات والأكروبات، والمغنين والموسيقيين وهم يقدمون عروضهم. غير أننا لايمكننا أن نعيد بناء العروض الحية من تلك الصور والمشاهد. صحيح أن العمل الجاد الخاص بالديانة فى المقاصير المحلية أبقى التقليد المحلى حياً، إلا أنه خارج تلك الجيوب الثقافية أدى نجاح فن البلاط والميل إلى الإنتاج الموحد الضخم إلى إضعاف القدرة الإبداعية المحلية.

ويمكننا تطبيق اختبار بسيط للتحقق من ذلك. فقد وصلنا فخار بكميات وفيرة من كل عصور مصر القديمة، وكان استخدامه شائعاً في كل البيوت، غنيها وفقيرها على حد سواء[39]. كما أنه أصبح في ثقافات أخرى أداة من أدوات التعبير الفني الشعبي. ويحتوي الفخار المصري الذي يعود إلى عصر ما قبل الأسرات على إرهاصات مثل ذلك التراث. فهناك طبقة من فخار نقادة ٢ (الجرزي) سماه علماء الآثار الأوائل بالفعل "الآنية المزخرفة"، وهي تجمع بين الشكل المميز وسلسلة من النقوش المرسومة التي تنتمي إلى نفس التراث الذي أبدع تلك المشاهد الموجودة في مقبرة هيراكونبوليس المنقوشة. ومن السهل تخيل أن هذا النمط من الفخار المزخرف ربما يكون قد أصبح المرحلة العتيقة من تاريخ طويل للخزف المزخرف أنتجت فيها خواص الوسيلة المستخدمة مشتقات مميزة من الأسلوب الفني الفرعوني لها حياتها الخاصة بها، طابقتها في العصور الحديثة التحليلات المفصلة التي يقوم بها مؤرخو الفن. غير أن الأمر لم يكن كذلك. إذ يبدو أن التطور الذي حدث في أواخر عصر نقادة ٢، الخاص بالحفر البارز الذي يمثل بداية فن البلاط وتقنين الأفكار، قد قضى على أي اهتمام آخر بفن الخزف. وهبط الحال بزخرفة الخزف لكي تصبح خربشات بسيطة ثم اختفت بعد ذلك بالمرة. ومن ثم صارت زخرفة الخزف أمراً نادراً، فيما عدا فترة قصيرة في منتصف الدولة الحديثة. فقد أصبح الخزف منتجاً ينتفع به. وكان في بعض الأحيان يصنع بشكل جيد، وهو ما يتضح في حالة السلاطين الفاخرة المدهونة باللون البرتقالي اللامع التي أنتجت في الدولة القديمة. ورغم ذلك فهي ما تزال دون أي تقليد فني يقدم التعبير الفردي. وكانت النوعية الفاخرة لخدمة أذواق البلاط المهذبة. وكان هناك عنصر من عناصر الإقليمية في أساليب الفخار. غير أن أياً من هذا لا يرقى إلى أي تقليد خاص بفن الخزف الشعبي. وما أنماط فخار عصر الأسرات المبكر والدولة القديمة الخاصة بالمدن الإقليمية، التي كانت لديها ثقافات المقاصير المحلية التي تحدثنا عنها آنفاً، إلا أشكال إقليمية من الأشياء النفعية التي تتراوح بين الخشن والرقيق.

غير أننا لو أمعنا النظر لوجدنا استثناءات لذلك. ويتعلق أحد هذه الاستثناءات بفن حفر الأختام. وكان الخاتم الأسطواني فكرة جلبت لمصر من الخارج[40]. ووجدت المجموعة الأولى من هذه الأختام أول ما وجدت في أواخر عصر نقادة ٢،

وهى إما مستوردة من الثقافات المعاصرة فى غرب آسيا، أو نسخ من تلك التى استوردت منها. واعتباراً من الأسرة الأولى بدأ المصريون فى حفر الرموز الهيروغليفية عليها واستخدامها كأدوات من أدوات الإدارة، حيث كانت الرسائل والجرار والصناديق وغيرها تختم بعلامة رسمية مميزة. إلا أن الأسطوانات المحفورة ظلت موضع اهتمام فى حد ذاتها،، حيث كانت لها قيمة ليست إدارية بشكل مباشر. فالعديد من الأختام الخاصة المعروفة اعتباراً من عصر الأسرات الباكر تحمل تصميمات تستخدم كلاً من الرموز الهيروغليفية وغيرها من عناصر التصميم ذات الطابع السريالى بعض الشيء، حيث تكشف عن اهتمام بابتكار تصميمات تختلف عن النماذج الطبيعية التى كانت تبهج المصريين فى العادة (الشكل 32)[41]. وبحلول الجزء الأخير من الدولة القديمة كانت قد أصبحت شكلاً فنياً أصغر، يوجد من حين لآخر فى جبانات البلاط، ويستغل فى بعض الأحيان النقوش الهيروغليفية العادية. وبعد ذلك حدث لها تحول مفاجئ، حيث تخلت عن الشكل الأسطوانى لتأخذ شكل قرص مسطح له يد ، أو شكل المنشور، وأصبحت أختاماً تحمل تصميمات على قواعدها نفس التراث غير الرسمى[42]. ويبدو أن مركز تلك الصناعة كان مصر الوسطى. ويمكن ملاحظة خطوات أخرى تتعلق بتطور التصميمات خلال عصر الانتقال الأول، وفى نهايته كان الخاتم المصرى المميز الذى يتخذ شكل الجعران قد ظهر. بل إن الطبقة الإدارية كانت قد تبنته باعتباره طريقة أكثر راحة لوضع الأختام، وبذلك حل الجعران محل الأختام الأسطوانية حلولاً تاماً. ونتيجة للاعتراف الرسمى، جاء تطبيق التصميمات الرسمية الصحيحة، والقضاء التام على التقليد الفنى الإقليمى الثانوى.

وتوضح هذه الحالة على وجه التحديد الطريقة التى تمكنت بها ثقافة البلاط من الاستمرار فى استيعاب تصميمات جديدة ذات أصل إقليمى. لقد كان جزءاً من نجاح الدولة المصرية أنها نجحت فى إقامة تقاليد محلية داخل إطار قومى للأسطورة والتصميم. واحتاجت هذه العملية لبعض الوقت. وكما يتضح من المناقشة التى جاءت فى الجزء الأول من هذا الفصل، ظل التقليد المحلى قائماً فى المقاصير الإقليمية لفترة طويلة من الدولة القديمة. وفى الفترات اللاحقة عندما تظهر عناصر جديدة، مثل شعبية الإله المحلى بس من الدولة الحديثة وصاعد، أو الاهتمام الضخم فى العصر المتأخر

بدفن الحيوانات المقدسة، يصبح من الواجب علينا أن نشك بأن هناك اشتقاقاً من داخل الوعى والسلوك الشعبيين: فالثقافة الشعبية تظهر على السطح فقط عندما تتولاها الرعاية الرسمية وتصبح واضحة ومرئية فى المصادر التى يمكننا فهمها.

أنماط العمارة المثالية

كانت الأنماط المثالية المعمارية أقل انصياعاً للاستنساخ الميكانيكى، وكان تطورها أكثر تعقيداً. فقد كان لها وجود حقيقى بالفعل فى عقول المصريين، إلا أنها أدت إلى ظهور مجال أوسع خلال تحقيقها كإنشاءات ومبانى . بل إن العمارة الفرعونية تكشف الطريقة التى اخترع بها التقليد، بقدر يزيد على ما يكشفه الفن.

وفى عصر الأسرات المبكر كانت المادة المعتاد استخدامها فى البناء هى الطوب اللبن. إذ استخدمه الناس فى تشييد منازلهم، وإقامة أسوار المدن، وتبطين آبار المقابر، وإقامة الأبنية التذكارية وموائد القرابين فوقها. وتحققت قدرة الطوب على خلق أشكال لافتة للنظر من خلال طريقة الرص فى القصور وفى مقابر البلاط، بأسلوب واجهة القصر المعمارى (انظر الشكل 18). وأهم تذكار موجود لهذا الأسلوب هو الساحة الكبيرة والقصر الرمزى المواجه للهرم المدرج فى سقارة، وهو نسخة استخدم فيها الحجر (انظر الشكل 19). غير أنه لا يبدو أن هذا الأسلوب استُخدم فى المعابد. وهو يظهر فجأة فى بداية الأسرة الأولى وقد تحققت تفاصيله بالكامل. وأدى هذا إلى نظرية يستمدها من عمارة المعابد فى بلاد الرافدين، حيث كان الأسلوب متأصلاً ووراءه تاريخ طويل من التطور. وهذا الأمر ليس خيالياً بالقدر الذى يبدو به أول ما يبدو، ذلك أنه هناك دليل محدد آخر على وجود اتصالات مع جنوب بلاد الرافدين خلال عصر نقادة ٢ المتأخر، رغم أنه من الصعب فى الوقت الراهن تحديد طبيعة هذه الاتصالات وأهميتها.

إلا أنه إلى جانب أسلوب واجهة القصر الخاص بعمارة الطوب، علينا أن نعترف بوجود تقليد معمارى آخر كان له فى نهاية الأمر الأثر الحاسم على عمارة الحجر قرب نهاية العصر الفرعونى. وكانت تلك عمارة الأبنية المؤقتة التى تشيد بهياكل خشبية

تغطى جزئياً أو كلياً بألواح الخشب أو بالحصر أو بحزم البوص. ولكى نقدر التكنولوجيا، يمكننا الرجوع إلى الأمثلة الفنية المبكرة التى تتسم بقدر حتمى من الغموض فى إيصال تفاصيلها لنا، غير أن النماذج الفعلية التى وصلتنا من الدولة القديمة هى الأفضل. وأشهر نموذجين هما الكوخان اللذان على سفينة خوفو الجنائزية بالجيزة[43]، وخيمة الملكة حتب حرس أم خوفو، التى عُثر عليها فى مقبرتها فى الجيزة كذلك[44]. وتتفق المصادر العديدة من حيث الشكل الإنشائى: فهناك دعامات خشبية رفيعة لها فى الغالب رؤوس على شكل زهرة البردى، وأربطة تسقيف خشبية تربطها ببعضها، حيث كانت رفيعة مثلها ومستوية أو منحنية بعض الشىء لأعلى فى تناسق، أو منحنية فى غير تناسق. وهذه الخيام الرسمية يمكن أن تكون مفتوحة تماماً فى المقدمة، أو مفتوحة جزئياً فقط باستخدام حجاب يغطى الجزء الأسفل. وكانت الكلمة القديمة لمثل هذا البناء هى «سح»، وكان الرمز الهيروغليفى المستخدم لكتابتها عبارة عن صورة مبسطة للبناء نفسه.

وصنعت خيمة حتب حرس للاستخدام المؤقت وكانت محمولة. وكان بالإمكان تفكيك البناء كله إلى أجزاء ووضعه فى صندوق ونقله. وربما تفسر هذه الحقيقة ذلك الاستخدام واسع الانتشار لهذا النمط من البناء. فقد كان مناسباً للمناسبات الملكية خارج القصر المشيد بالطوب؛ وبالنسبة للجنازات، حيث كانت معدات الدفن توضع فى الخارج للعرض وربما لتجهيز الجثمان قبل الدفن، ولراحة الطبقة الرسمية عند زيارة الريف (الشكل 34 «3»)[45]. واستخدامها فى الجنازات الخاصة له نظير ملفت للنظر فى مصر الحديثة، حيث تؤجر الخيام المحمولة الكبيرة المكونة من أغطية مزخرفة توضع على هياكل مستطيلة من العروق الخشبية كى يجلس فيها المعزون الذين يقدمون تعازيهم ويستمعون إلى إحدى الخطب الدينية(*). وهناك كذلك بعض نماذج ما تبدو خياماً محمولة يتم تركيبها على هياكل حاملة مزودة بمقعد من عصر الأسرات المبكر، كما فى المنظر الموجود على دبوس نعرمر (انظر الشكل 20) وبعض النماذج النذرية (شكل 33).

وبحلول الأسرة الأولى كانت عمارة الطوب قد استقرت فى مصر. ومن المادة التى استعرضناها فى الجزء الأول من هذا الفصل يبدو واضحاً إلى حد ما أن المعابد

(*) يقصد تلاوة القرآن الكريم – (المترجم) .

المشيدة من مختلف الأنواع ظهرت أول ما ظهرت فى المدن الإقليمية. ولذلك يبدو من غير المحتمل أن صورة المقصورة الخيمة كانت تعكس المظهر الشائع للمعابد الإقليمية. ومع ذلك فإن بعض النماذج المبكرة لما تبدو أنها مقاصير تتخذ شكل الخيمة (الشكل 33«2»)[46]. وتبدو مجموعة منها وكأنها صنعت على هيئة حيوان له قرنان (الشكل 33 «1»). فكيف لنا أن نفسر هذه الأدلة المتضاربة؟

الإجابة عن هذا السؤال تقدمها لنا النذور التى عثر عليها فى خبيئات المقاصير المبكرة[47]. فهى فى واقع الأمر تصور مقاصير خيام صغيرة ذات سقوف منحنية فى ثلاث حالات (هى P243 و A29a ، من الخارج ، و A31 من الداخل) حيث يتضح شكل الخطوط المتقاطعة على الغطاء الذى يظهر فى النسخ المبكرة كذلك وربما كان شكلاً أو طريقة لربط الحصير المستخدم كمادة للتغطية. وهناك ثلاثة أمثلة (هى P132 و P243 و A31) تبدو وكأنها ترتكز على هياكل ذات أرجل (A31 أو بروزات تمثل مقابض للحمل تجعلها قابلة للنقل. إلا أن اثنين منها (هما A29a و A29b) يقومان على قاعدتين لهما جوانب مزخرفة بالبوائك، مما يعنى أن هناك احتمالاً بأنهما ضمن بناء مصمت من الطوب اللبن[48]. ويحتوى اثنان منها (هما P243 و A31) على شكل أشبه بالإنسان، وهو فى ثانيهما له وجه شديد الشبه بتلك الوجوه التى على رأس صلاية نعرمر. كما أنه يحمل كلمة «ريبت» بالهيروغليفية. ومن المستحيل الآن تحديد إن كان هذا اسم إلهة ما، أم اصطلاح لنمط صورة الألوهية أو كنهها . إذ كما هو الحال غالباً ، لا يمكن الاعتماد على المصادر المتأخرة فى استبعاد قدر كبير من إعادة التأويل[49]. وتستخدم كتابات هيروغليفية متفرقة لهذه الكلمة علامة تصور نفس المقصورة المحمولة الصغيرة، وهى بذلك توحى بأن قابليتها للنقل كانت أمراً جوهرياً فيها.

وتزدهر المؤسسات التى على قدر كبير من عدم العقلانية بسبب التفاعل بين عنصر خفى وآخر مكشوف. وتوضح ذلك دراما ظهور الملك الرسمى التى تعد إعداداً جيداً. وفى الدولة الحديثة وما تلاها من عصور، حيث طبيعة حياة المعابد وإيقاعها معروفان بصورة أفضل، يمكننا أن نراها منعكسة على العمارة والشعائر الدينية. وتطلب الجانب الخفى الخاص بالألوهية قدس أقداس، كانت توجد فيه أكثر التماثيل قدسية، بحيث تكون مفصولة قدر الإمكان عن الحياة البشرية العادية. وكان الكشف

يتحقق عن طريق إدارة مسرحية واعية كانت تأتى برمز الوجود الإلهى الملموس إلى النطاق العام، أو شبه العام، وإن كان من وراء حجب مادية ونفسية. وبحلول الدولة الحديثة كانت وسيلة التجلى العام من خلال القوارب المحمولة الموضوعة على قوائم حاملة عليها مقصورة غطيت بعض أجزائها، بدلاً من الكوخ (انظر اللوحة 5 والشكل 66). والكلمة المستخدمة لهذه المقصورة التى على القارب «كاريى». وما يبعث على الطمأنينة أننا نجد أن أقدم كتابة معروفة للكلمة، وهى فى متون الأهرام الخاصة بالدولة القديمة، تستخدم صورة مقصورة خيمة نقالى من طراز عصر الأسرات المبكر كمحدد هيروغليفى لها. وهذا مطمئن لأن الاثنتين لهما نفس الوظيفة[51]. وحيثما وضعت التماثيل المحمولة المتأخرة، كانت تشيد منصة أو بناء متكاملاً خاصاً. وفى الدولة الحديثة يمكن تسميتها كذلك «خيمة الإله»، وإن بنيت بالحجر. وداخلها كان مكان الراحة الفعلى تحدده بصورة أو بأخرى قاعدة مكعبة من الحجر قمتها مزينة يوضع عليها القارب المحمول.

ولذلك فإننا نتطلع إلى الفترات المبكرة بحثاً عن المترادفات الوظيفية. ولو فعلنا هذا فسوف تكون الشواهد الأساسية فى محلها. وكانت التماثيل المقدسة المحمولة منتشرة بالفعل، غير أنها لم تكن تحمل فى قوارب وإنما فى محفات من ذلك الصنف الذى يستخدمه النبلاء، حيث تحميها مظلة من الحصير الموضوع على إطار خشبى مقوس. وحيثما كانت توضع، كان لا بد من وجود قاعدة ، وكانت القاعدة فى كثير من الأحيان تبنى بالطوب وتكون جوانبها مستوية أو بها بوائك. وهذه القاعدة قد تكون لها المظلة الخاصة بها التى صنعت بطريقة مشابهة. والمقصورة المبكرة المكتملة التى تحت أيدينا، وهى تلك التى فى جزيرة فيله، يمكن تفسيرها بناء على ذلك (الشكل ٢٣). وهنا، وبطريقة بسيطة وسهلة، تتضح ثنائية المجال الخاص بديانة تقوم فيها التماثيل المقدسة بدور رئيسي. ففى المؤخرة، بين جلمودين من الجرانيت، نجد قدس الأقداس المُكَنَّف المخصص للتماثيل المخفية. وفى الفناء الذى أمامه تقع القاعدة الخاصة بالتمثال المحمول، حيث تكملها القوائم المخصصة لحمل المظلة[52].

ولم تؤد إمكانية نقل التماثيل التى كشف عنها (وتسمى بصورة عامة «ريبت»)[53] إلى قيامها برحلات شديدة المحلية وحسب، وإنما كانت تنقل من حين لآخر إلى القصر

الملكى من أجل احتفال حب سد، حيث كانت توضع كذلك داخل مقاصير خيمة مقامة على قواعد أكبر حجماً من الطوب. ومع أن تصميم تلك المقاصير الخيام كان شائعاً فى الأساس، إلا أنها كانت تعطى فى بعض الأحيان مظهراً مميزاً بتنويع الشكل بصورة طفيفة، أو بإضافة بعض التفاصيل، بما فى ذلك أزواج من القوائم العرضية.

وكان هناك اعتقاد عام بأن لنا فى المقصورة الخيمة صورة لما كانت عليه المعابد المحلية في عصر الأسرات المبكر، رغم أن الدليل على أن الطوب اللبن، الذى ساهم فى نوع مختلف من العمارة، كان يستخدم على نطاق واسع منذ زمن. والتأويل الذى يقدم هنا، ويستفيد من المقصورة المبكرة الفعلية الوحيدة التى عثر عليها وسجلت بأية درجة من الاكتمال (فيله)، يضع عمارة الخشب والحصير فى موضع شديد المحدودية. فقد سبق أن هجرت كطريقة لصنع المقصورة المكتملة. وظلت قائمة فقط باعتبارها مأوى للتماثيل المكشوف عنها. إلا أن قِدَمها وتميزها جعل منها فى الوقت ذاته أساساً نموذجياً لرمز يسهل التعرف عليه للمقاصير والأماكن المقدسة بعامة.

وتكمن أصالة الهرم المدرج فى الطريقة التى خلق بها المهندس المعمارى من هذا الأثر الباقى من العمارة التقليدية طرازاً من العمارة الحجرية الدائمة. فقد أصبحت منذ ذلك الحين مفردات الأشكال التى تحولت وقتها إلى الحجر هى النمط النموذجى للبناء الدينى الذى اعتمد عليه مهندسو المعابد المتأخرون بلا تغيير تقريباً. ويمكننا التعرف على ثلاث نسخ من الهرم المدرج. ويصور أكثرها شيوعاً، وله أكثر من عشرين مثالاً، خيمة ذات هيكل خشبى مستطيل لها سقف مقوس وتقوم على قاعدة (انظر الشكل ١٩ واللوحة ٤). البعض منها صغير وله واجهات مستوية. إلا أن واجهات الأكبر حجماً تظهر عليها قوائم مقوسة تحمل السقف، مما يوحى بأنها تصور خياماً بحق مفتوحة من الأمام. ومن هنا يمكننا أن نخمن أن الخيام الصغرى ربما كانت لها واجهات مفتوحة كذلك. وفى حالتين على الأقل، تصعد قلبة من الدرج الضيق إلى قمة القاعدة أو المنصة التى تقوم عليها الخيمة.

وعند فحص عمارة الهرم المدرج، يجب ألا ننسى أننا نرى ثمار التعمير الحديث. فعندما كشفت الحفائر عن واجهات المبانى شديدة الأهمية داخل المجمع، ظهر أنها هبطت إلى أدنى مداميك المبانى الحجرية. ونحن محظوظون لأن دراسة هذه المبانى

وإعادة تعميرها الجزئى كانا على يد المهندس الموهوب جان فيليب لوير الذى بنى نتائجه على الفحص الدقيق للكتل الحجرية المفككة التى وجدت فى الركام، وكذلك على الصور العتيقة للمقاصير التقليدية. وجعلت الأمانة التى اتسم به عمله هذه المجموعة بعينها من المقاصير تبدو على قدر كبير من التشابه. غير أنه طبقاً لشواهد الصور العتيقة، لا بد أن نضع فى أذهاننا احتمال أن بعضها أو كلها كان يحمل علامة مميزة تجعلها تبدو متفردة، حيث إنها قد تمثل مقاصير الاحتفالات المؤقتة المخصصة لوضع التماثيل المقدسة التى جمعت من المدن الإقليمية.

والنمط الثانى عبارة عن شكل أكبر حجماً، وهو قائم على الأرض مباشرة وليس على قاعدة. وهناك نموذجان، وهما ما يسميان دارىّ الشمال والجنوب. وهما يصوران كذلك مبنى مفتوح الواجهة يبين الصف الخارجي من دعامات السقف المقوسة الرقيقة. غير أن له خصوصية يوفرها حجاب يقوم بين دعامات السقف ولا يشقه سوى المدخل (الشكل 34). وكان يعتقد أن الحجاب مصنوع من البوص، وهى رسالة ينقلها نحت العُقَد التقليدية التى تربط الأطراف العلوية السائبة. وكان هذا التصميم العام تصميماً قوياً، وخاصة فى استخدام الحائط الحاجب الذى يربط الأعمدة ببعضها، وفى صف العقد التقليدية التى انتقلت إلى الاستخدام العام كموتيفة زخرفية، مثل إفريز "خيكر".

وربما كان للنسخة الثالثة من البناء الخشبى المؤقت أربعة نماذج. أحدها، وهو «المعبد T»، له أهمية خاصة لأنه واحد من المبانى "الحقيقية" القليلة جداً الخاصة بالهرم المدرج، حيث يوجد به جزء داخلى مكتمل من الغرف والممرات. والجزء الخارجى من المعبد T نسخة بسيطة من نمط الخشب والحصير (الشكل 35 «1»). فالحوائط الخارجية الأربعة ذات شكل واحد: أسطح مستطيلة مستوية يعلوها رباط أسطوانى أفقى تتحول أعلاه أطراف البوص السائبة إلى إفريز خال من النقوش. وكانت أركان المبنى الأربعة تحميها حزم أخرى من البوص. إلا أن الداخل غير متوافق مع مبنى استخدمت هذه المواد فى إقامته. فمخططه الداخلى المعقد يشبه القصور الجنائزية فى أبيدوس المشيدة بالطوب اللبن. ورغم إضافة أنصاف الأعمدة المزينة بأسلوب حزم البوص، فهو مخطط مبنى من المواد الصلدة. وهو الانطباع الذى تؤكده الأسقف التى حفرت على هيئة ما يعد محاكاة لمجموعة من العروق الخشبية المرصوصة بالقرب من

بعضها. وهذا نمط من أنماط الأسقف التى يدل وزنها على أنها تتطلب حوائط صلدة من الطوب أو الحجر. فالهياكل الخشبية الخفيفة والحجب الحصير ليست مناسبة من الناحية الإنشائية.

إن المعبد T يضع أسس الطراز لقرون مقبلة، حيث طبقت عمارة الخيام، فيما يتعلق بالأسطح الخارجية، على مبنى ذى شكل أشد صلادة. فهو من الخارج يعرض جوهر النمط النموذجى الخاص بالمعابد المصرية المتأخرة. ويتضح هذا من حين لآخر فى مناظر المعابد، حيث يصور المبنى نفسه فى شعيرة تطهير مبنى المعبد بالرموز الهيروغليفية على هذا الشكل الأصلى البسيط (الشكل 35 «3»). غير أنه كان فى المقام الأول النموذج بالنسبة لأجزاء المعبد الخارجية. وأصبح المبنى المستطيل البسيط المشيد من الخشب والحصير واجهة، أى الغطاء الصحيح لمبنى كان داخله يعكس الحاجات العملية للمناسبة.

وواقع الأمر أن الطريقة التى حقق بها المهندسون المتأخرون التوفيق بين الشكل والوظيفة تصبح هى ما بقى من تاريخ عمارة المعابد المصرية. فقد اقتضت التخطيطات الداخلية ضرورات تغيرت من حين لآخر ومن مكان لمكان. وفى الفصل الخامس سوف نرى كيف خلق ولع الدولة الحديثة بمقاصير القوارب المحمولة، والعديد من جوانب العبادة الجنائزية الملكية، تخطيطات مميزة ظلت محفوظة داخل النمط النموذجى القديم بإصرار. وسوف يتم توضيح هذه النقطة بأمثلة تبين فحسب مدى دوام الخيال الذى أبدع الهرم المدرج. أول هذه الأمثلة هى المقبرة المعبد التى لم تمس تقريباً الخاصة بزوجة الإله أمينيريدس الأولى بمدينة هابو، التى يرجع تاريخها إلى الأسرة الخامسة والعشرين (حوالى 715 ق.م ؛ الشكل 35 «2»). ويتكون المبنى أساساً من مقصورتين خيمتين إحداهما داخل الأخرى. والمقصورة التى تغطى مدخل مقبرة أمينيريدس نسخة بسيطة. فهى عبارة عن غرفة واحدة تقارب الشكل الأصلى فى داخلها وخارجها. وهذه المقصورة وضعت داخل مبنى أكبر حجماً يشمل بهو أعمدة، وهو عنصر مفضل فى تصميم الأجزاء الداخلية من المعابد. وبالنسبة للتأثير الخارجى النهائى، عاد المهندس إلى نموذج المقصورة الخيمة، وإن أبرز واجهة المبنى بجعل الجدار أكثر ارتفاعاً. وكانت تلك كذلك طريقة مفضلة، وإن كانت الواجهة العالية فى المبانى الكبيرة، اعتباراً من الدولة الحديثة، مقسمة فى العادة من الوسط كى تخلق الزوج المميز من «الصروح»،

وهى إشارة محدودة إلى إعادة تأويل الشكل الأصلى. وقد أطلق المصريون اسم «خيمة الإله» (سخ نتجر) على نوع المقصورة الداخلية الموجودة هنا على وجه الخصوص، وإن استخدم هذا الاسم اعتباراً من الدولة الحديثة بصورة أكثر اتساعاً ليعنى «المعبد» عموماً[54]. ولم يكن ذلك تحركاً غير منطقى، حيث كان الجزء الخارجى للمبنى بالكامل على طراز النمط النموذجى نفسه.

ويمكننا معرفة أشد الأفكار تأثيراً بخصوص مدى قوة التمسك بالأنماط النموذجية منذ بدايات مصر من خلال النظر إلى المبانى التى تعود إلى نهاية الحضارة المصرية القديمة، عندما كان يحكم البلاد البطالمة، ورثة الإقليم المصرى التابع للإسكندر الأكبر الذين كانوا يتحدثون اليونانية، ثم الأباطرة الرومان فى أعقاب موت آخر السلالة البطلمية، وهى الملكة كليوباترا السابعة. وفى أرياف وادى النيل شجع هؤلاء الحكام بناء المعابد التقليدية التى ظهروا هم أنفسهم فيها فى هيئة الملوك المصريين المقدسين من العهود القديمة، حيث نجدهم فى مناظر الولادة المقدسة التى تشبه تلك التى وجدت من قبل فى معابد الدولة الحديثة.

وأحسن مثال لعمارة المعبد البطلمى هو معبد الإله الصقر حورس بإدفو (٢٣٧ –٢٥٧ ق.م)[55] وجسم معبد إدفو من الخارج يعيد إلى الأذهان بحق ذلك الشكل المستوى الذى يشبه الصندوق الخاص بالمقصورة الخيمة النموذجية، بينما جرى تكبير الواجهة لتصبح صرحين. وفى الداخل، تخضع المفردات المعمارية باستمرار لهذا النموذج، من الحائط الحاجب المزين والمظلة أمام بهو العمدة الرئيسى، إلى المقصورة الموجودة فى قدس الأقداس المنحوتة من كتلة واحدة من السيانيت (حجر أسوان) التى تقدم هذا الشكل مصغراً، وإن كان حجر بن بن هرمى الشكل قد نحت فى أعلاها (وهى شديدة الشبه بتلك التى فى الشكل 31). إلا أن ترتيب العناصر فى التخطيط المعمارى من مميزات تلك الفترة ولا يمكن الخلط بينه وبين معبد من عصر أقدم منه بكثير. وما يميز تلك الفترة كذلك هو «الماميزى»(*)، أو بيت الولادة، أمام واجهة المعبد.

(*) كلمة تعنى باللغة الديموطيقية مكان الولادة وهو الاسم الذى أطلقه شامبليون على المقاصير التى شيدت على مقربة من المعابد فى الأزمنة المتأخرة . وكانت تقام فيها عروض للولادة الإلهية ، وهى من أهم شعائر النظام الملكى المصرى . وقد وصلتنا مقاصير ماميزى فى دندرة وإدفو وكوم امبو وفيله وكلابشه – (المترجم) .

وكان الغرض منه الاحتفال بالولادة المقدسة للملك، وقد عاد المهندسون فى رسم شكله إلى فكرة المقصورة الخيمة نصف المفتوحة ذات الحوائط الحاجبة. بل إن بعض المبانى من هذا الطراز كانت لها أسقف خشبية مقوسة فيما يعد مراعاة أشد للنمط النموذجى، وهو ما يتضح مما بقى من فتحات كانت مخصصة للعروق الخشبية (انظر الشكل 34 «2»).

وكان الكهنة المصريون يرون أن ذلك كان زمن تهديد للثقافة التقليدية. وتكشف المناظر والنصوص التى على جدران معبد إدفو وغيره من المعابد البطلمية وعياً متزايداً بتراثهم الثرى من الميثولوجيا والشعائر. وهى تقدم قدراً من المعلومات فى هاتين الناحيتين يزيد على ما قدمته المعابد السابقة. إلا أن النصوص التى على الجدران ليست الأصول الكاملة. بل هى مقتطفات أو ملخصات للعديد من «الكتب» الأكثر طولاً، التى كثيراً ما يشار إليها بالاسم، ولا بد أنها كانت محفوظة فى مكتبة المعبد. وتهتم إحدى المجموعات بالمبنى نفسه[56]. ونصوص المبانى هذه غنية بلعبة اللغة والجغرافيا الرمزية، وهى عاجزة عن الذوبان فى نسق واحد ذى شكل منطقى حديث. غير أنها تعكس وجهة نظر عامة. وهى وجهة النظر التى تقول بأن المعبد الحجر الجديد، الذى كان يجرى بناؤه، كان يجسد سلسلة من الأنماط النموذجية التى يمكن الاعتماد على وجودها من خلال الأوصاف والإشارات الواردة فى النصوص نفسها، رغم تصميمه على طراز زمانه. وكانت النصوص، التى تتضمن بالفعل أبعاد المبانى النموذجية التى عبر عنها بالذراع، قادرة بعون من الشعائر على الاحتفاظ بجوهر هذه الأبنية الأسطورية فى موضعه الصحيح. وفى الوقت ذاته وضع تاريخها فى إطار زمنى أسطورى، هو «عصر الآلهة الأول المبكر»، وفى إطار جغرافيا أسطورية كان موقع المعبد فيها هو نفسه «مقر الحدث الأول». ويستخدم كذلك مصطلح «عهد تانن»، وهو إله أرضى، مما يعيد إلى الأذهان المخطط التاريخى الخاص بقائمة تورينو للملوك التى بدأت بسلسلة من العهود التى حكمت فيها الآلهة. ويخلو السياق تماماً من أية حياة بشرية. وهو فى بعض المواضع يسترجع بدلاً من ذلك خلق العالم، الذى بدأ بظهور تل من المياه الغامرة. وأصبح التل، أو التلال، موقع أو مواقع المقاصير الأصلية. وكانت واحدة من تلك المقاصير تضم محط الإله الصقر الذى خصص له المعبد، وهو حورس

البحدتى، وكان فى الأصل قطعة بوص زرعت فى الماء الأول. وتعطى أوصاف مختصرة ذات أبعاد للمقاصير الأسطورية (الشكل 37). وأحد المصطلحات المستخدمة لوصف قدس الأقداس (وهو سح) كلمة مصرية دارجة تعنى المقصورة الخيمة، وهو ما يساعد على تعزيز وجهة النظر التى تقول بأن المبانى الأولى كان ينظر إليها على أنها المبانى المصنوعة من الخشب والبوص التى كان معبد إدفو البطلمى تجسيداً لها بالحجر.

والواقع أنه هناك ما يغرى بفهم هذه الروايات بمعناها الحرفى، وخاصة فى ضوء الأبعاد المذكورة، وبالنظر إليها على أنها تحتوى على شىء من التاريخ الحقيقى لمعبد إدفو. والصحيح أن معبد إدفو كان يقع على تل من الرمال والصخور الطبيعية داخل الأرض الطينية التى تغمرها مياه الفيضان، وبذلك كان يتحول إلى جزيرة فى موسم الفيضان. إلا أن السجل الأركيولوجى يوضح أنه حتى الدولة القديمة لم يكن ذلك موضع مستوطنة لها أهميتها. فالسجل الأركيولوجى الخاص بالمعابد المبكرة يظهر تنوعاً كبيراً فى التشييد، وكذلك استخدام الطوب والتخطيطات غير الرسمية فى أقدم المعابد التى ظلت قائمة. ولذلك فإن أقدم مقصورة فى إدفو قد تكون من الطوب، وربما تكون على نمط مقصورة فيله. ولم تنشأ أسبقية المقصورة الخيمة فى النصوص البطلمية باعتبارها تصميم المعبد الصحيح والأصلى الوحيد من التاريخ المعمارى المسجل تسجيلاً صحيحاً وحسب، ولكن لأنه يتطابق تطابقاً تاماً مع العالم الأسطورى الخاص بعصر الآلهة الأول.

ولا يمكننا معرفة من أين أتت مقاييس المعابد الأولى التى بالذراع. فربما كانت سجلات لمبانى سبق أن أقيمت على الموقع فى عصور مختلفة منذ الدولة الوسطى، على سبيل المثال، أو قد تكون نتيجة للعبة أعداد رمزية مارسها الكهنة البطالمة أنفسهم.

وقد سعت الثقافة المرئية المصرية سعياً واعياً كى تخلق انطباعاً بأن هناك تحولاً مباشراً من الطبيعة. غير أنها كانت بعيدة عن كونها احتفاء عفوياً بالأشكال الطبيعية أو الموروثة. فقد انطوت على عملية انتقاء وتكيف متعمدة إلى حد كبير من أجل خلق نسق أو مفردات خاصة بالأنماط النموذجية التى تتمتع بتماسك داخلى. وهذا الجانب الأخير تم تحقيقه بالقدر الذى يكفى لإنتاج بعض من قابلية التبادل التى أفسحت مجالاً لعملية لا آخر لها (ومحيرة بالنسبة لنا) من إعادة توحد العناصر الكامنة فى أعماق

الاختراع الدائم للتقليد. ومن هنا يمكننا توسيع فهمنا للعبة اللغة التى شكلت أساس الديانة المصرية: وكانت مفرداتها غنية كذلك بعناصر الثقافة المرئية التى يمكن التلاعب بها كما كان الحال بالنسبة للكلمات.

كما أن حدود إعادة التوحد لم يبلغ مداها أحد. والعملية يواصلها دون قصد الباحثون المحدثون بينما نحاول "تأويل" الديانة المصرية وفنونها وعمارتها. ذلك أن العلاقة بين الدراسة الحديثة والمصدر القديم ليست هى بالضبط ما يبدو من أول وهلة. فنحن نود الاعتقاد بأن المصادر جامدة، وأننا مراقبون موضوعيون. غير أن التفاعل أكثر تعقيداً بكثير. كما أن الفكر القديم ليس ميتاً: فهو كامن فى حاله سكون فى المصادر وداخل عقولنا نحن، وعندما ندرس المصادر تبدأ عقولنا فى التحرك داخلنا. يكفى مثال واحد لتوضيح هذا. إذ أدت الحفائر التى أجريت غربى طيبة فى وقت مبكر من هذا القرن إلى اكتشاف معبد ومقبرة مجمعين للملك نب حبت رع منتوحتب من الأسرة الحادية عشرة (حوالى ٢٠٦١ – ٢٠١٠ ق.م) فى الموقع المسمى بالدير البحرى (الشكل 38). وكان المركز عبارة عن كتلة من البناء الحجرى تقوم على منصة ضخمة ومحاطة بالأعمدة. وقام المشرف على الحفائر، وهو نافيل، بترميم هرم على قمة القاعدة المربعة، وانتقل إعادة البناء إلى الكتب الدراسية وظل أكثر من نصف قرن عنصراً مألوفاً جداً فى التاريخ المعمارى المصرى[57]. وكان ذلك يتماشى مع خط التطور المعمارى العام، بل ويمكن رؤيته على أنه يعكس المنظر العام للمكان. حيث كانت هناك قمة هرمية تبرز فوق الصخور وكان المصريون أنفسهم يعتبرونها مكاناً مقدساً. وأعادت بعثة ألمانية تحت إشراف د. أرنولد فحص المكان فى الفترة من ١٩٦٨ إلى ١٩٧٠ . وعندما وجد أرنولد أنه ليس هناك دليل محدد على تفضيل وضع هرم على القاعدة، رممها على أنها بناء قمته مسطحة. كما ربطها، بعد طول بحث، بفكرة التل الأزلى[58]. ومنذ فترة قريبة، وفى دراسة عامة عن الأهرام، نشر ر. شتادلمان رسماً يضيف تلاً فعلياً من التراب تغطيه الأشجار على القمة[59].

ومهما كان الحل الذى نأخذ به، فإن بإمكاننا تبريره بالإشارات العليمة إلى مصادر مصرية بعينها. وهكذا فإنه رغم أن واحداً منها فقط (أو لا شىء منها) لابد أن يكون صحيحاً من الناحية الفنية، فهى جميعها تنطبق على الجذور الثقافية المصرية

وموجودة بقوة فى العصور القديمة، وإن اضطرت للانتظار ثلاثة آلاف سنة قبل أن تتحقق(60).

وهنا نجد تماثلاً فى الأمور فى نهضة أوروبا عصر النهضة، والنهضتين القوطية والمصرية، وإن كانتا قاصرتين بشكل أكبر على العمارة. وفى هذه الحالة جاهد الفنانون من أجل استخدام رُوح ثقافة ميتة ومفرداتها المرئية فى مسعى للوصول إلى فن حى، وفهموا بذلك المستتر القوى فهماً جيداً من أجل المزيد من التطور فى إطار ثقافة سابقة، وإن كانوا ينتجون أثراً عاماً لم يكن الأقدمون ليفكروا فيه قط. والمزور الموهوب للآثار يفعل الشيء نفسه. وفى بعض الأحيان يسلك الباحثون نفس السبيل دون قصد بوضعهم الفرضيات لتفسير ماض شديد التشظى.

لقد استدعت عمارة المعابد المصرية ماضياً مفقوداً من البساطة البدائية على قدر كبير من الأسطورية. وما نعرفه نحن، ولم يكن بناة معبد إدفو يعرفونه، هو ذلك الطابع المتأخر نسبياً والمصطنع بعض الشيء الخاص بالأسطورة التى وراء النمط النموذجى للمقصورة. ويتضح من الهرم المدرج أنه نشأ من رفض عمارة عصر الأسرات المبكر التى استخدم فيها الطوب، وكانت قد أظهرت من خلال طراز واجهة القصر مقدرة على بيان مواطن قوة. وبحلول الأسرة الثالثة كان قد مضى على هذا الطراز فى مصر ما لا يقل عن ثلاثة أو أربعة قرون وربما ظل النموذج بالنسبة لكل العمارة الرسمية، بما فى ذلك المعابد، كما حدث فى بلاد الرافدين. غير أنه بعد الهرم المدرج أبقى عليه بشكل رمزى فقط فى العمارة الجنائزية: أى فى موائد القرابين الخاصة بالمقابر ذات المقاصير، كطريقة لزخرفة النواويس، وكزخارف لجزء من الجدار المحيط بحجرة الدفن الملكية. ومن ثم سعت عمارة المعبد الرسمية إلى إحياء ما اعتبرها المصريون جذورهم، أى عالم من المقاصير الخيام يخلو من القصور، ليمحو بذلك جانباً مميزاً من جوانب الدولة المبكرة. وكما شَكَّل تاريخ مصر القديمة السياسى رؤية أسطورية للماضى، يعد تاريخ عمارة المعابد الرسمية المصرية سجلاً للامتثال لأسطورة أخرى.

إلا أن إعادة تقنين الشكل المعمارى فى الأسرة الثالثة لم يكن يمثل نموذجاً للعمارة الدينية يرغب الجميع فى اتباعه على الفور. ولم يعقب ذلك برنامج عام لإعادة البناء فى الأقاليم، كما أوضح الجزء الأول من هذا الفصل. فقد كان الطراز الجديد

إبداعاً فكرياً خاصاً بالبلاط. وكان مقصوراً في بادئ الأمر على المقبرة الملكية، وكان يستخدم كدليل فى مواضع غيرها فى حالات الرعاية الملكية المتقطعة للمعابد الأخرى وحسب. وتعرض شكل المقبرة الملكية نفسه لإعادة تقنين كبيرة مرة أخرى فى نهاية الأسرة الثالثة، وإن كانت تلك مسألة تتعلق بالوظيفة والمدلول أكثر منها بالطراز. فقد حل محل القصر الخالد معبد لروح الملك والشمس يغلب عليه شكل الهرم الحقيقى، وهو نسخة مهندسة من حجر بن بن امتثالاً لديانة عظيمة وأكثر تجريداً. وحدثت عملية إعادة تقنين كبيرة أخرى في بداية الأسرة الثامنة عشرة، وهو ما سنوضحه فى الفصل الخامس. غير أن هذا التاريخ الآخر الخاص بالتغيير فى الشكل والمدلول، الذى مضى إلى ما هو أبعد من التغييرات التى حدثت فى الفنون، ظل مطابقاً لأشكال الأنماط النموذجية التى نقابلها أول ما نقابلها كعمارة تذكارية فى الهرم المدرج. وتبين العمارة الدينية بجلاء العبقرية المصرية فى إلباس التغيير الزى التقليدى. ووفرت الثقافة الفرعونية لغة الشكل والمدلول كانت قادرة فى الوقت ذاته على التكيف مع الأفكار الجديدة وعلى إعطائها مظهر تطابقها مع النماذج العتيقة.

دور المبادرة الفردية

كانت أداة التغيير هى التدخل الشخصى. ولابد أن نفكر فى الفنانين والمعماريين العظام. غير أن الأسطورة القديمة، التى تقول بأن كل ما هو جديد ويحظى بالإعجاب مطابق للماضى، لم تتح مجالاً للاعتراف بالموهبة الفردية. وكانت المبادرة الفردية فى الفن والعمارة يتم الإعلان عنها بمرسوم ملكى. وهذه العملية مسجلة فى لفافة برلين الجلدية(61). وهى نسخة تعود إلى الدولة الحديثة خاصة بنص بناء للملك سنوسرت الأول من أوائل الأسرة الثانية عشرة. وتبدأ العملية بـ «ظهور» رسمى للملك فى قصره، أمام حاشيته المجتمعة. ويبدأ الملك بخطبة عن مصيره الذى حددته الآلهة، ثم يعلن خطته: وهى تشييد معبد للإله آمون. والباعث على ذلك ليست التقوى المنزهة عن الغرض. فالتقوى تختلط بالحكم البراجماتى الذى يقول إن أفضل وسيلة للخلود هى بناء مشيد باسم الشخص. «الملك الذى يُستحضر بأعماله لا يهلك». وتقدم حاشيته تأييداً لمشروعه ينم عن احترام رغبته، مؤكدين على الفائدة الشخصية للملك نفسه:

«عندما يشيد معبدك، سوف ينهض بأعباء المذبح. وسوف يقيم الصلوات لتمثالك. وسوف يصاحب تماثيلك فى الخلود كله». وأخيراً يأتى العمل. ويعين الملك المهندس المعمارى :

> **حامل الأختام الملكية ، المرافق الأوحد ، المشرف على دارى الذهب ودارى الفضة ، المستشار الخاص للتاجين: إنها مشورتك التى تنفذ كل الأعمال التى يرغب جلالتنا فى تقديمها. إنك الشخص المسئول عنها، الذى سيعمل حسب مشيئتى .... ولتأمر العمال بالعمل حسب تصميمك.**

ومع أن هذا نص مصرى، فهو بيان شديد الصراحة بشأن التفويض الملكى بالإبداع. ولكن فلنلاحظ من كان مهندس الملك، أو بالأحرى لم يكن. ليس هناك ذكر لاسم، وألقاب الرجل ليست لها علاقة محددة بالبناء على الإطلاق. ونحن نسمع عن عشرات الموظفين ممن يحملون مثل هذه الألقاب اعتباراً من الدولة الوسطى، غير أننا لا ندرى إن كانوا فنانين ومهندسين عظاماً أم لا. فقد كانوا يفهمون مهارة المهندس العظيم على أنها أداء يحظى بالإعجاب للتفويض الملكى، على نفس المستوى الخاص بتنظيم بعثة تقطيع حجارة كبيرة وصعبة، أو تطهير قنوات صالحة للملاحة عبر الجنادل الصخرية بالشلال الأول فى أسوان. ولم يكن إغفال الاسم هذا أمراً متعمداً. فبعض الرسامين والبناءين الذين فعلوا القليل بطريقة أخرى فى حياتهم استخدموا تلك التسميات ألقاباً رسمية لهم، وبذلك يمكننا التعرف عليهم[62]. وهذا يعكس بصورة أكبر عدم الوعى المصرى بالتقسيمات المجردة للمعرفة. فقد كان الفن والعمارة جزأين من تيار النشاط الموجه الذى كان ينبعث من البلاط. وكانت العملية تتم ببساطة، لأن تقديراً بديهياً لما كان جيداً بحق يضمن ترقية الفنانين الجيدين والمهندسين المبدعين على حساب السيئين منهم. غير أنهم كانوا يلقون الثناء على نجاحهم كموظفين جيدين وليس كفنانين أو مهندسين جيدين.

وتقدم حالة من بنى الهرم المدرج زاوية أخرى نرى منها المسألة الخاصة بمن هم المبدعون الحقيقيون. ولا تتوفر لدينا رواية قديمة عن بناء الهرم المدرج. غير أننا نتعرف فيها فوراً على عمل من أعمال العبقرية المعمارية. والواقع أن تلك الفترة البعيدة التى

وثقت توثيقاً ضعيفاً قدمت لنا اسم رجل عظيم من بلاط زوسر، هو ايمحتب[63] . فعلى قاعدة تمثال زوسر الذى عثر عليه فى الهرم المدرج ، حفر اسم ايمحتب ومعه ألقابه: «حامل أختام ملك الوجه البحرى، أول من يلى الملك، مدير الدار الكبيرة، الأمير، كبير العرافين» (لقب دينى). وعلى جدار الهرم المدرج الذى لم يكتمل الخاص بخليفة زوسر (الملك سخم خت) يرد اسمه مرة أخرى، ولكنه فقط "حامل أختام ملك الوجه البحرى، ايمحتب". ونتيجة لاكتشاف هذه المادة، أعلن علماء المصريات ذلك التأكيد غير المعقول بأن ايمحتب كان الرجل الذى وراء الهرم المدرج. وكذلك كان ايمحتب واحداً من القلائل المحظوظين الذين تمتعوا بشهرة كبيرة بعد وفاتهم فى مصر القديمة. فقد جرى تكريم اسمه بعد ألف وخمسمائة عام فى الدولة الحديثة، ولكن ليس بصفته مهندساً . فقد اشتهر كمؤلف لمجموعة من الأقوال التأملية. وتقول كلمات إحدى الأغنيات: «سمعت كلمات ايمحتب وحور ددف، اللذين يتحدث الناس كثيراً بأقوالهما »، حيث تقرنه بحكيم آخر من الأقدمين، وهو أحد أبناء الملك خوفو. غير أن شهرة ايمحتب لم تتوقف عند هذا الحد. فبحلول الأسرة السادسة والعشرين كان قد أصبح إلهاً أصغر. فهو ابن بتاح إله منف، وكان الشفاء هو ما يختص به، مما جعل الإغريق يربطون بينه وبين إله الشفاء لديهم، وهو أسكلبيوس. وفى بعض النصوص المتأخرة أعطى مجموعة من الألقاب، غير أنها كانت من ابتكار العصر: «الوزير، المشرف على الأعمال، العمدة». وقد وضع وضعاً صحيحاً فى عهد الملك زوسر، غير أن تاريخ عهد زوسر أعيدت صياغته فى شكل حديث. فعلى سبيل المثال ترسل إحدى برديات القرن الأول أو الثانى الميلادى زوسر والوزير ايمحتب فى حملة إلى آشور.

وربما لا يزال معنا الحق فى تعريف ايمحتب على أنه مهندس الهرم المدرج. (وإن كان قيامنا بذلك لا يعنى سوى ممارسة اللعبة القديمة الخاصة بالارتقاء بالأسماء إلى مرتبة المعرفة. فالواقع أنها لا تخبرنا أى شىء عنه.) ومن خلال ذلك حقق شهرة كموظف كبير، وكان الناس يتذكرونه كموظف كبير، إلى جانب الصفة الحتمية الخاصة بكونه «حكيماً». وما كان ذا قيمة هو حقيقة نجاحه، وليست الوسيلة التى حققت له النجاح – أى عبقريته المعمارية. وواقع الأمر أنها كانت ستصبح معاكسة لعالم الأساطير الخاص بعمارته إن كان قد توفر لها قدر من الأصل التاريخى.

وهذا يخلق لنا معضلة أخرى. فلابد أن نسلم بأن المصريين كانوا يفرزون من حين لآخر شخصيات ذات قدرة فكرية عظيمة مسئولة عن تغييرات كبيرة فى التقاليد. غير أن المصريين ظلوا يفتقرون إلى وسيلة لصياغة هذا فى هيئة مفاهيم. حيث كان المجددون الأقدمون يُذكرون، ولكن باعتبارهم «حكماء». فكيف يمكننا -والحال كذلك- أن نكتشف السبب فى شهرة هؤلاء الناس؟

فى الفصل السابق رأينا أنه بهرم ميدوم الذى يعود إلى عهد الملك حونى يكون لدينا منتج من منتجات عملية إعادة تقييم كبيرة، ليس فقط للشكل المعمارى وإنما لمدلول المُلك كذلك، ضمن أبرز هموم ذلك العصر الفكرية. وإذا شئنا إرجاع فضل أصالة الهرم المدرج لعقل بارز واحد، لكان من الواجب علينا أن نفعل الشىء نفسه مع هرم ميدوم. فمع حلول الدولة الوسطى كان فى يد المصريين شهادة "حكيم" كانوا يعتقدون أنها تعود لتلك الفترة وحسب، أى عهد الملك حونى. إنها مجموعة من الإرشادات الخاصة بالسلوك الطيب تدعو إلى التعامل مع الحياة باعتدال. وكان مؤلفها وزيراً ضاع اسمه للأسف (ربما يكون كاير سو، وهو حكيم مشهور آخر). وكان يتوجه بكلامه إلى أبنائه، وقد يكون من بينهم كاجمنى(*) الذى يأتى ذكره فى آخر النص. وهذا الوزير كاجمنى شخصية معروفة، لأن مقبرته تقع فى سقارة. غير أنها تعود إلى عهد الملك تيتى من أوائل الأسرة السادسة، وبذلك يكون بعد عصر حونى بثلاثة قرون تقريباً. بل إنه يمكن أن تساق حجة مشروعة من أجل جعل تاريخ التأليف الفعلى للنص فى زمن متأخر. ويمكننا فهم هذا الدليل غير المتساوق إن نحن رأيناه كجزء من ظاهرة أكثر عمومية موجودة فى مصر القديمة (كما فى الثقافات الأخرى): وهى اختراع التقليد، الذى ينطوى فى هذه الحالة على عملية ضغط. وعلينا أن نتخيل سياقاً كهذا: مجدد ومنظم كبير فى بلاط حونى مسئول عن هرم ميدوم غير العادى. ضياع الأسباب التى جعلته مشهوراً فى الأجيال التالية، ليبقى «حكيماً»؛ خلط محتمل بينه وبين أحد

(*) وزير الملك تيتى من الأسرة السادسة . وقد كتب مجموعة من التعاليم التى تلقاها هو وأخوته عن أبيهم كايرسو . وكانت هذه النصائح ضمن كتابين ضمتهما بردية اشتراها العالم الفرنسى بريس من فلاح بالأقصر ويبلغ طولها حوالى ثمانية أمتار . وأول الكتابين الذى لم يتبق منه سوى الصفحتين الأخيرتين عبارة عن رسالة فى آداب السلوك سميت «تعاليم كاجمنى» . (انظر محرم كمال ، الحكم والأمثال والنصائح عن المصرين القدماء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٨ - (المترجم) .

الوزراء فى أواخر الأسرة الخامسة وأوائل السادسة، ليصبح مشهوراً لأسباب أخرى. وأخيرا يعزى إلى هذا الشخص تعاليم حكيمة مناسبة جرى تأليفها فى وقت متأخر[46].

والتراث ليس بكامله تكرار آلى للأشكال العتيقة التى تمثل بناء على ذلك مفتاحاً للعصور السابقة. فهو بالنسبة لأى عصر متأخر يكون له مدلول من خلال التعديل، وفى بعض الأحيان من خلال الاختراع. وبذلك يمكن أن تحجب التقاليد الماضى، كما يمكنها أن تسلط الضوء عليه. وهى تلبى حاجات راهنة وتعد نتاجاً للعقول المبدعة.

وعندما ننظر إلى عمارة قصور الطوب فى عصر الأسرات المبكر وإلى المقاصير الأولية والأشياء المرتبطة بها، يمكن أن نتخيل أنها ربما شكلت بدايات تقليد ثقافى وفنى يختلف تمام الاختلاف عن ذلك التراث الذى تطور بالفعل. أو، كما هو الحال بالنسبة لحضارات وادى السند، إذا لم تتقدم مصر أكثر على امتداد مسار ثقافى صريح ولم يكن لدينا سوى المادة المبكرة، لكان تقييمنا وتأويلنا لها مختلفاً بعض الشىء عما يبدو عليه الآن: أى مجرد مرحلة تكوينية نحو شىء أكثر ثراء وأعظم بكثير فى وقت لاحق. وهذه طريقة أخرى للقول بأن الثقافة الفرعونية لم تكن تراثاً تطور تطوراً طبيعياً. فقد اختُرعت، ولكنها اختُرعت بقدر كبير من النجاح بحيث جعلت المصريين (وجعلتنا نحن أنفسنا إلى حد ما) يشعرون بأنها كانت متأصلة فى البلاد وفى نفسية الناس بأكثر الطرق رسوخاً.

وهى تمثل بعداً مميزاً للهجوم على العقل الكامن فى أعماق أيديولوجيات الدولة.

وفى قلب أى تراث ثقافى هناك تراوح بين احترام المنجزات السابقة والتكيف مع العقول الخصبة والمبدعة التى تسعى إلى ما هو جديد. وتمثل مصر القديمة حالة مبكرة من تاريخ ديناميكيات التراث العظيم الخاص بالثقافة: كيف نشأ وتمت المحافظة عليه باعتباره نظاماً حياً، وكيف توسع على حساب التقاليد المحلية، وكيف حقق ذلك التوازن الصعب بين الماضى والحاضر. كما أنها توسع إدراكنا لمجال الأسطورة فى المجتمع. وكان الفصل الأول مخصصاً لبيان الطريقة التى غلف بها المصريون التاريخ والسلطة السياسية بالأسطورة. وحاول هذا الفصل أن يفعل الشىء نفسه مع الثقافة المادية. فالأسطورة ليست شكلاً سردياً من أشكال التعبير وحسب. والتعبيرات الأسطورية، التى لا تقتضى الحاجة تحويلها إلى كلمات، يمكن نقلها بقوة عبر الفنون والعمارة.

الجـــزء الثانى

الدولـة الممولـة

الفصل الثالث

العقل البيروقراطى

اعتمدت منجزات الدول القديمة المادية جميعها - الأهرام والثروة الضخمة والقصور والمعابد والفتوحات - على مهارة بعينها، وهى إدارة الموارد. ومع أن الغرض الأساسي كان هو التحكم فى البيئة الاقتصادية من أجل مصلحة النخبة، فقد امتدت الفائدة عرضاً إلى قطاع كبير من السكان. تحقق ذلك فى المقام الأول من خلال فرض الضرائب لتحصيل الموارد، ثم من خلال إعادة توزيعها فى هيئة رواتب لعنصر من عناصر السكان - ربما كان عنصراً كبير الحجم - ملتزم التزاماً مؤقتاً أو دائماً بالعمل لمصلحة الدولة. والجزء الأول من دورة الموارد التقليدية هذه الخاصة بالدول المبكرة - أي فرض الضرائب - توضحها أحسن ما يكون التوضيح بالنسبة لمصر مادة من الدولة الحديثة، وهو ما سيأتي ذكره فى الفصلين الخامس والسادس. أما هذا الفصل فيهتم أكثر بالبيروقراطية، باعتبارها قوة تشكيل فى المجتمع، وبعواقب توزيع الرواتب واسع المدى على العلاقات القائمة بين الدولة والسكان.

ويبين النظام البيروقراطى المطور سمة إنسانية بعينها ويعززها تعزيزاً فعالاً: وهى الرضا العميق بوضع أنظمة ثابتة للقياس والتفتيش والمراجعة. وبذلك يصل الأمر إلى حد مراقبة أنشطة الآخرين بقدر الإمكان. وهذه ممارسة سلبية ومنظمة للسلطة فى مقابل القهر المباشر. وهى تعتمد على مقدرة بعينها على درجة من التميز والأهمية للمجتمع مساوية لعبقرية فنانيه ومهندسيه، أو براعة رجال الجيش. و«الكاتب» هى التسمية التى نطلقها على الفرد من هذه الطبقة. وهى ترجمة أمينة لكلمة مصرية تعني ببساطة «الرجل الكاتب». وهناك ميل فى المجتمعات الحديثة التى تنتشر فيها معرفة الكتابة والقراءة إلى التقليل من قيمة الموظف الصغير أو العامل الكتابى. غير أن هذا ترف لا ينطبق على المجتمعات الأقل تطوراً. فحيثما تكون الأغلبية من الأميين ، يمسك الكاتب بمقاليد القوة التى تهبها الإدارة. وفى مصر لم يكن الكتبة من بين النخبة

وحسب، بل كانوا يعرفون ذلك ويقولونه بصراحة. وتقول إحدى النصائح: «كن كاتباً، فهذا يجنبك الكد، ويحميك من كل أشكال العمل». «كن كاتباً. وسوف تكون أطرافك ملساء، وتصير يداك ناعمتين. وسوف تسير فى ثياب بيض، وتحظى بالتكريم، وتلقاك الحاشية بالتحية»[1]. والكثير من كبار الشخصيات فى الدولة يحملون ضمن ما يحملون من ألقاب اجتمعت لهم فى سيرتهم الذاتية لقب «كاتب». وقارىء هذا الفصل عليه أن يكبت أى شعور بالازدراء المرتبط بكلمات مثل «بيروقراطية» و«كاتب». ففى العالم المصرى كانت الكلمتان ترتبطان بنسق شديد الاختلاف من القيم.

عقول مرتبة

وصلتنا أعداد كبيرة من المصادر الإدارية من مصر القديمة، وهى تحمل تاريخا من البيروقراطية يمتد إلى الألف الثالثة قبل الميلاد. وسوف نبدأ بمجموعة النصوص المبكرة التى تكشف بحيوية اهتمام الكتبة البيروقراطى بالنظام والتفاصيل. إنه أرشيف البردى الذى عثر عليه فى معبد الهرم الخاص بالملك نفرار كا رع[*] من الأسرة الخامسة بأبى صير[2]. وهو يعود فى الغالب إلى عهد الملك اسيسى، وبالتالى بعد وفاة الملك (حوالى سنة ٢٤٢٧) بخمسين سنة على الأقل.

وما إن بدأت الأسرة الرابعة حتى كان شكل معيارى للمقبرة الملكية قد جاء إلى الوجود. وكان الدفن يتم داخل الهرم أو تحته. وكانت طقوس القرابين من أجل سعادة الملك الأبدية تركز على معبد جنائزى يقع على الجانب الشرقى من الهرم. وكان هناك طريق صاعد يربط هذا المعبد بمعبد منفصل على أرض الوادى، وهو معبد الوادى. وكان تقديم قرابين من الطعام والشراب جزءا أساسيا من العبادة. وكانت هناك حاجة إلى الكهنة من أجل هذا، ومن أجل شعائر أخرى، وكانت هناك حاجة كذلك إلى أفراد لحماية المبنى ومعداته. وكانوا جميعاً يحصلون على أجور عينية من السلع، كانت تتضمن رواتب أساسية من الخبز والجعة والغلال، ومواد إضافية أخرى مثل اللحم والقماش. وكان تسلم الدخل وتوزيع الرواتب يحرك دائرته الإدارية الصغيرة. ومع أن

(*) ثالث ملوك الأسرة الخامسة وقد كان سخياً فى عطاياه وهباته للمعابد والكهنة وكبار مسئولى الدولة ، مما أدى إلى ازدياد قوتهم وسلطانهم ، على حساب سلطة الملك نفسه التى تضاءت - (المترجم) .

الدخل يمكن أن يقدمه قصر الملك الذى على قيد الحياة، فقد كان الضمان الأكبر للمصدر يتم الحصول عليه بإقامة مؤسسة دينية تظل موجودة للأبد. وكانت تلك المؤسسة تتكون فى المقام الأول من الأراضى الزراعية، التى كان دخلها يوجه لدعم الأفراد الذين يقيمون الشعائر ويرعون المبانى المقامة عند الأهرام.

والبردية الموجودة فى الشكل ٣٩ عبارة عن جدول للدخل اليومى مكتوب بأسلوب باكر من الهيراطيقية ، التى كانت لا تزال تحتفظ بالكثير من الخطوط الأساسية للرموز الهيروغليفية الأصلية. ويمكننا أن نلاحظ على الفور شكلاً معقولاً من أشكال الجداول، وقد سطرت حقوله بالحبر الأحمر والأسود. وكل خط أفقي مخصص ليوم من أيام الشهر الثلاثين، وهو يحتوي أساساً على بيانات عددية فى أعمدة رأسية. وكل عمود يحمل عنواناً موجزاً من صفين أو ثلاثة صفوف، حيث يغطى المؤسسات الموردة، ونوع المواد الغذائية المتضمنة، وحالة التسليم (وتخصص لها الأعمدة الثلاثة التى على الجانب الأيمن).

وكانت المؤسسة المساعدة، المكونة من ضياع فردية، تدمج بمهارة فى الأنساق الزخرفية الرسمية بمعابد الأهرام، حيث توضح مرة أخرى العبقرية المصرية فيما يتعلق بالعرض الرمزى المنمق للواقع الممل. وقليلة هى الشعوب التى حولت تحصيل الإيجارات وجباية الضرائب إلى مادة للفنون المقدسة. وتظهر كل ضيعة، أو دائرة أملاك، جنائزية فى صورة حاملة قرابين، حيث تسمى كل واحدة باسمها. وتأتي أكثر المجموعات اكتمالاً من معبد الوادي الخاص بالملك سنفرو بدهشور (الشكل 40)[3]. وكانت تشكل إفريزاً يمتد بطول قاعدة بعض الحوائط الداخلية. وكل ضيعة تمثلها امرأة تحمل مائدة قرابين. وعلى الرأس لوحة تقول: «البلدة: دار سنفرو». وأمام كل واحدة اسم المكان، متصلاً باسم سنفرو داخل خرطوش، مع وجود علامات أخرى تحدد الإقليم. وهى فى مجملها أربع وثلاثون ضيعة تقع فى الوجه القبلى، موزعة على عشرة أقاليم (مع غياب سجل ثمانية أقاليم). والسجل فى الوجه البحري محجوز بالكامل لإقليم واحد فقط، ويضم أربع ضياع. وهذا النمط المبعثر لملكية الأراضى أمر متعارف عليه فى مصر القديمة. وليست هناك تفاصيل مقدمة بخصوص حجم هذه الملكيات، غير أن بيانات أخرى نادرة بعض الشىء بشأن الحجم تتراوح بين ٢ أرورا (١٦,٤ هكتار) و١١٠ أرورا (٩٠٥ هكتار).

وكان العاملون فى المعبد منظمين فى هيئة مجموعات ينطبق عليها المصطلح الحديث phyle (وهو مصطلح يونانى معناه العشيرة أو القبيلة). وكان ذلك هو الشكل الشائع لتنظيم المعبد، حيث كانت هناك خمس عشائر فى الدولة القديمة، كل منها مقسمة إلى قسمين، وهو ما يبدو أنه كان معمولاً به فى أزمنة مختلفة. وكان كل قسم يخدم لمدة شهر واحد فقط كل عشرة أشهر(4). ويفترض أنهم فى فترات العطلة الممتدة كانوا يعودون إلى الأعمال الزراعية أو غيرها من أعمال فى قراهم، وذلك كى تنتشر منافع خدمة المعبد – من رواتب وهيبة – انتشاراً كبيراً. ومهما كان الفكر القديم الكامن وراء النظام، فقد كانت النتيجة العملية حصة ضخمة نتيجة لفرص العمل التى تتيحها الدولة. فقد تضاعف عدد الموظفين المطلوبين مرات عديدة، مما أدى إلى زيادة ضخمة فى أعداد من يتلقون دعماً جزئياً من الدولة. ولأن معظم فرص العمل كانت لبعض الوقت فقط، فلم يكن النظام نفسه يعوقه وجود أفراد لا حاجة إليهم .

وفى إطار واجبات العمل، كان ينظم تفتيش تام على المعبد وممتلكاته. ونعرف من أرشيف نفر ار كا رع أن التفتيش كان يشمل الأختام التى على كل الأبواب وكل قطعة من معدات المعبد. والورقة التى فى الشكل ٤١ نموذج لجرد من هذا النوع. ومرة أخرى يفى شكل الجدول المعقول بالمتطلبات العملية. والأصناف ليست موضوعة فى القائمة بشكل عشوائى. فالأمر بعيد كل البعد عن العشوائية. إذ إنها مرتبة طبقاً لخطة تصنيف عامة تشمل عنصراً من عناصر التقسيم الفرعى التصاعدى لخلق فئات فرعية لكل فئة أكثر اتساعاً. وهو ما يبين أن هناك إدراكاً أساسياً لعلم تصنيف من ذلك النوع الذى تقوم عليه المعرفة الحديثة. وفى زمن ذلك الأرشيف كانت معدات المعبد قد أخذت فى الاهتراء. وقد سجلت تفاصيل العطب أسفل كل صنف، مع ذكر العدد الموجود منه. وتعكس قصاصة الجدول كذلك نوعاً من أنواع إجراءات البيانات المزدوجة، الذى لا يمكن فهمه فهماً صحيحاً. ذلك أن الفراغ الخاص بكل مجموعة من التفتيشات مقسم إلى أسطر مزدوجة مسطرة باللون الأحمر كى تسع مجموعتين من الملاحظات الضرورية.

وغطت مجموعة من الأوراق نشاطاً كان المصريون القدماء يضعونه فى مرتبة عالية: وهو وضع الأختام. وبدلاً من شمع الأختام، كان المصريون يستخدمون صلصالاً رمادياً شديد النعومة ينطبع عليه الختم ثم يوضع بقوة حول عقدة الحبل. وفى الدولة القديمة كانت الأختام نفسها أسطوانات حجرية صغيرة تحمل رموزاً هيروغليفية محفورة يمكن تحريكها بالضغط على سطح الصلصال . وفى الدولة الوسطى

استعيض عنها بالأختام المحفورة على شكل الجعارين، وكان التصميم أو النقش يحفر على القاعدة المستوية. وكانت الأختام توضع على الرسائل المطوية وغيرها من الوثائق، وحول مقابض الصناديق الخشبية لتأمين الأغطية، وحول رقاب الأكياس والجرار، وعلى المزاليج التى تغلق بها الأبواب. وتتناول الورقة المأخوذة من أرشيف نفر ار كا رع الأختام التى على أبواب الغرف التى خزنت فيها القوارب المقدسة[5].

ولم تكن الحواجز التى تحول دون السرقة فى مصر القديمة على قدر كبير من القوة. ولم تُبد أية مهارة فى اختراع الأقفال. ومن المؤكد أن الاقتحام والدخول كان سهلاً إلى حد ما. ويدل التاريخ الطويل الخاص بسرقة المقابر فى مصر القديمة على أن بعض الناس كانت لديهم دوافع قوية للسرقة. وذلك الاهتمام المبالغ فيه بشأن وضع الأختام، بما فى ذلك التفتيش المتكرر على الأختام، لم يكن سوى خدعة نفسية. فقد كان يركز عقول من يتولون المسئولية على نقطة بعينها من نقاط الأمن، وجعل الأمن مفتوحاً أمام الرقابة الروتينية، وأصبحت العلاقة بين وضع الأختام والقائم على الأختام علاقة مسئولية. وربما كان النظام أكثر فاعلية مما قد يظنه المرء فى بادئ الأمر. إذ خلق مجالاً صغيراً من السلطة الرمزية حول أبواب المخازن.

ويعكس الجزء الأعظم من أرشيف نفر ار كا رع أشكالاً من الروتين النظامى – كالتفتيش وجدول الخدمة – حيث كانت الوحدات المسجلة واحدة ولا يمكن فصلها، أى البشر والأشياء المصنعة. ولكن بما أن الكثير من وحدات الإدارة (أى الأراضى والسلع) غير قابلة للتقسيم، فقد اقتضى الأمر كذلك تحديداً دقيقاً لكمياتها. ويبين الكثير من النصوص الطريقة التى تم بها تطوير العمليات الحسابية لتسهيل ذلك[6]. ومخاطرة منا بما قد يصد القارئ العام، فسوف نسوق بعض الأمثلة، التى يقصد بها نقل نكهة هذا النوع من العمل الذى شغل عدداً كبيراً من هؤلاء الذين كانوا يديرون الدولة المصرية القديمة وحسب. وينبغى فى البداية أن نلاحظ ملمح الرياضيات المصرية القديمة الذى يعد عقبة كبيرة أمام القارئ المعاصر: فلم يكتب كسر له بسط يزيد على الواحد قط باستثناء الكسر $\frac{٢}{٣}$ وحده. وبذلك كانوا يكتبون الكسر $\frac{٣}{٤}$ على أنه $\frac{١}{٢} + \frac{١}{٤}$ ؛ وكان $\frac{٦}{٧}$ يكتب $\frac{١}{٢} + \frac{١}{٤} + \frac{١}{١٤} + \frac{١}{٢٨}$ ؛ وهكذا(*).

(*) لمزيد من الاطلاع على الأعداد عن قدماء المصريين راجع كتاب : العدد من الحضارات القديمة حتى عصر الكمبيوتر ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٩٩ ، ص ٦٣ – ٨٠ – (المترجم) .

ومع أننا نجد ذلك متعباً لغرابته علينا، فقد كان الكتبة المصريون يستخدمون هذا النظام بطلاقة وكان له أثره العملي الكبير. بل إنه في أوقات الشك كان يمكنهم اللجوء إلى كتب الحساب. وكانت تلك الكتب تتناول في الغالب المسائل شديدة التعقيد. غير أن هذا يعكس العقلية المصرية الأساسية، حيث كانت كل مسألة يتم تناولها باعتبارها حالة محددة وفردية وليس على أنها تطبيق لمبادئ رياضية عامة. ولابد أن الكتبة المتمرسين ابتكروا قدراً من الحدس الرياضي. غير أن فكرة متابعة ذلك باعتباره غاية في حد ذاته – لخلق مادة الرياضيات – لم يخطر لهم ببال.

توزيع الرواتب

كانت إحدى مناطق الإدارة الحسابية المهمة هي المؤن الغذائية: أي الرواتب. وكلمة «رواتب» لها معنى خاص. فلم تكن النقود قد اخترعت بعد. ففي العالم الحديث أصبحت النقود ذلك الجزء الأساسي من الحياة، مما جعل من السهل استنتاج أن عالماً بلا نقود سيكون في واقع الأمر مكاناً على الفطرة. فحيثما لا توجد نقود يضطر الناس للمقايضة بدلاً من البيع والشراء. وكلمة «يقايض» نفسها تتسم بصورة استعمارية فيها الخرز والحلي ينتقل من يد لأخرى في بلاد الشعوب البدائية. وهذه واحدة من الخرافات المريحة التي ينأى عن طريقها المحدثون بأنفسهم عن الماضي وينظرون إلى عالمهم ليس على أنه أفضل كثيراً وحسب، بل باعتباره مكاناً يختلف اختلافاً بيناً.

وحقيقة الأمر أن النقود تعد طريقة سهلة إلى حد يبعث على الدهشة للقيام بالأعمال التجارية على كل مستوى من المستويات. وقد قضت البنوك وبطاقات الائتمان على ضرورة حمل العملات الورقية والمعدنية، ناهيك عن الخرز والحلي. غير أن الأنظمة الخالية من النقود نجحت نجاحاً ملحوظاً في الماضي. وهي تمثل سمة عامة من سمات الثقافات. فتلك الأنظمة غالباً ما تكون ملائمة للحاجات المرجوة منها. ويعد الاقتصاد المصري القديم مثالاً جيداً لذلك. فقد كان المصريون يديرون عمليات اقتصادية كبيرة على امتداد فترات طويلة من الزمن بنظام يخلو من النقود كان ملائماً لهم. وتعود قدرتهم على القيام بذلك من ناحية إلى أن الناس في العالم القديم بعامة ظلوا يتعاملون

مع الثروة المادية الحقيقية - أي السلع - تعاملاً أوثق مما نحن عليه، ومن ناحية أخرى إلى أنهم ابتكروا نظاماً محاسبياً يقع فى منتصف الطريق نحو تجريد «النقود». وكان فى منتصف الطريق بمعنى أن لغته كانت لغة السلع - أى الأرغفة وجرار الجعة أو حقاتات(*) القمح، وهلم جرا - غير أن إجراءاته سمحت بالتحكم فى الكميات التى لم تكن تساويه بالضرورة حركة المواد نفسها، أو حتى وجودها. فقد كان حلاً وسطاً قديماً تقليدياً: وهو التجريد متخفياً وراء المصطلحات الملموسة. وسوف نلتقى به مرة أخرى فى الفصل السادس، عند النظر فى طريقة تحديد أسعار السلع وبيعها وشرائها (انظر الشكل 85). وهو كذلك عالم مفقود آخر من عوالم العقل. ذلك أنه من الصعوبة بمكان فى الوقت الراهن أن نعيد بناء النظام بكامله بطريقة تعنى عناية مناسبة بدقائق الوثائق القديمة وترضى الفهم الحديث. وسوف يصبح هذا واضحاً فى الفقرات القليلة التالية.

وتقع إدارة الرواتب موضع القلب من النظام. ففى غياب النقود كان الناس يتقاضون رواتبهم عيناً، أى بالسلع. والواقع أن هذا كان «أجراً»، غير أنه بسبب كل من طبيعة المكافأة التى تقوم على السلع الخاصة والدلالات الحديثة للحرية الاقتصادية الشخصية الخاصة بكلمة «أجر»، فإن مصطلح «رواتب» يكون مفضلاً. غير أن التفرقة مصطنعة إلى حد ما.

وقد شملت الدورة الأساسية للطعام المصنوع من الحبوب من الحصاد حتى توزيع الرواتب سلسلة كاملة من النقاط التى يتدخل فيها الكتبة. فالمحصول الأساسى من الغلال كان يكيل فى الجرن باستعمال مكاييل خشبية ذات سعة معينة، بحيث كانت تحدد الكمية بالحكات، وهو حوالي ٤,٧٨ لتر(**). وكان النقل إلى الصوامع، وهو فى الغالب على النهر، يتضمن مراجعة الكتبة للتأكد من عدم حدوث سرقة فى الطريق. وتقوم مجموعة أخرى من الكتبة باستقبال البضاعة فى الصوامع ومراجعتها مرة

(*) الحقات : مكيال يساوى ٨ جالونات أى ٣٢ لتراً ونصف وكان للحقات مضاعفاتها الحسابية ثم الحقات الثنائية والرباعية والجوال والمائة مقت ونصف واستخدم المصريون القدماء الحقات وهى ١/٢ و ١/٤ و ١/٨ و ١/١٦ و ١/٣٢ و ١/٦٤ المسافة وربعها وعشرها . انظر عبد العزيز صالح ، التربية فى مصر القديمة ، الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٦ - (المترجم) .

(**) راجع الهامش السابق - (المترجم) .

أخرى. وكان هؤلاء الكتبة أو رؤساؤهم يعرفون السعة القصوى لكل صومعة على حدة، حتى وإن كانت مستديرة، وذلك بالحساب:

حاوية مستديرة ١٠ أذرع × ١٠ أذرع.

اخصم $\frac{١}{٩}$ الـ ١٠ ، وهو $\frac{١}{١٩}$ ؛ والباقى هو $\frac{٢}{٨٣}$ + $\frac{١}{٦}$ + $\frac{١}{١٨}$

اضرب $\frac{٢}{٨٣}$ + $\frac{١}{٦}$ + $\frac{١}{١٨}$ × $\frac{٢}{٨٣}$ + $\frac{١}{٦}$ + $\frac{١}{١٨}$ (أى مربعه)؛ النتيجة:

$\frac{١}{١٠٨}$ ٧٩ + $\frac{١}{٣٢٤}$

اضرب $\frac{١}{١٠٨}$ + $\frac{١}{٣٢٤}$ × ١٠؛ يصبح الناتج $\frac{١}{١٨}$ ٧٩٠ + $\frac{١}{٢٧}$ + $\frac{١}{٥٤}$

اجمع نصفاً عليه: يصبح ١١٨٥

اضرب ١١٨٥ × $\frac{١}{٢٠}$ ، يكون الناتج $\frac{١}{٤}$ ٥٩ وهذه هى الكمية التى سوف تدخلها بالحقات المربعة، أى $\frac{١}{٤}$ ٥٩ مائة حقات مربع من الحبوب(7).

وفائدة هذا الحساب النموذجى هى أن الحاوية مستديرة. وتشمل الخطوتان الأوليان تربيع $\frac{٨}{٩}$ من القطر، ويكون الناتج تقريباً صحيحاً جداً للإجابة الصحيحة التى نجدها باستخدام صيغة تشمل π .

وكانت النقاط التالية من تدخل الكتبة فى بداية الطحن ونهايته، وفى مراحل تالية من إنتاج العنصرين الأساسيين فى الغذاء المصرى: وهما الخبز والجعة. ولابد أن يلاحظ القارىء أن الجعة، أو البيرة، القديمة(*) كانت مختلفة بعض الشيء عن نظيرتها البيرة المائية الحديثة. فربما كانت سائلاً معتماً يشبه العصيدة أو الحساء، ولم تكن بالضرورة تحتوى على قدر كبير من الكحول، إلا أنها كانت غنية بالعناصر الغذائية. ويعكس بروزها فى الغذاء المصرى قيمتها الغذائية، إضافة إلى الإحساس الممتع نسبياً الذى كان يصاحب شربها. وكان الخبيز وصنع الجعة يقعان بالقرب من نهاية الدورة الكاملة لإنتاج الحبوب. وبالنسبة للكتبة الذين كانوا يلاقون مشقة فى متابعة حركة

(*) المقصودة بالجعة هنا هى ما يعرف فى مصر باسم «البوظة» . وللإطلاع على أنواع الجعة وطرق صنعها بشكل مفصل ، انظر الفريد لوكاس ، المواد والصناعات عن قدماء المصريين ، ت زكى اسكندر ومحمد زكريا غنيم مدبولى ، ١٩٩١ القاهرة (ص ٢٦ - ٣٣) - (المترجم) .

الحبوب من الحقول إلى دفع الرواتب، كانت عمليات الخبيز وإعداد الجعة، التى تتسم بقدر كبير من الفوضى وتحتاج إلى عمالة مكثفة، تمثل تحدياً وكانت تلبى بحل بسيط ولكنه يتسم بالبراعة.

وبالنسبة للخلفية – أى واقع إعداد الجعة والخبيز – فإن لدينا ما يكفى من الأدلة، فى صورة نماذج خشبية مفصلة ورسومات مقابر من الدولة الوسطى. وكانت هناك أمور مشتركة كثيرة بين النشاطين، فكلاهما يبدأ بعمل العجين، وتستخدم خميرة البيرة (وهى الزَبَد المتخمر الذى يتكون على سطح مشروب المُلت) فى تخمير الخبز.

والمبنى النموذج المصور (الشكل 42 من مقبرة مكيت رع، وهو موظف كبير من الأسرة الحادية عشرة)[8] به جزآن رئيسيان، بكل منهما قسم فرعى. ويؤدى الباب الخارجى إلى دهليز، على يمينه معمل الجعة. وفى الطرف الأقصى هناك عنصر مستدير مسطح لابد أنه يمثل هاوناً حجرياً مستديراً مثبت فى الأرضية، كما يوجد أحياناً فى الحفائر. ويقوم رجل يمسك مدقة خشبية بسحق الحبوب فيه. وهذه عملية تسبق الطحن ينزع فيها القشر عن الحبوب. وبجوار الهاون حجرا طحين مركبان على قاعدتي رحى. وتشير الدلائل التى كشفت عنها الحفائر إلى أن حجر الطحين المعتاد عبارة عن قطعة بيضاوية من حجر الكوارتزيت أو الجرانيت، وهو خشن فى أسفله وسطحه ناعم ومقوس بعض الشىء. وكان كل حجر يثبت فى بناء من الطوب اللبن، يقام فى بعض الأحيان على أحد الجدران على شكل الحرف B . وكان الحجر يثبت فى النصف الأعلى، بحيث يكون سطحه منحدراً، وكان الطحين الخشن والقشر يسقطان فى الحوض الصغير الذى تشكله حافة النصف المنحنى من حرف B[9]. ونماذج مكيت رع ينقصها الحوض الذى يتجمع فيه الطحين، غير أنها تشبه هذا التصميم فيما عدا ذلك. وكان الطحان يقف خلف الطرف الأعلى ويميل فوق الحجر، مستخدماً حجراً أصغر حجماً للسحق. وكان الطحانون فى العادة من النساء. ولم يكن المنتج المطحون طحيناً متساويا فى ملمسه، بل خليط مسحوقا من الدقيق والقشر لابد من نخله. وأظهرت تحاليل الخبز القديم وجود مادة شديدة الخشونة كذلك ، وإن كانت التجارب الحديثة الخاصة بتقليد التكنيك القديم تدل على أن تلك الخشونة لم تكن منتجاً لابد منه[10].

ويلى باب النصف الخاص بمعمل الجعة مباشرة فى النموذج دن طويل من الفخار. ويقف رجل داخل الدن حتى وسطه ممسكاً بحافته، بينما يخلط العجين بقدميه. وكان لابد بعد ذلك من عمل أقراص صغيرة من العجين، وفى هذه المرحلة يمكن إضافة التمر. وربما كانت الصينية المربعة المسطحة الموضوعة بجوار الدن تستخدم فى هذا الغرض. وكانت الأقراص تترك لتتخمر، غير أنه من الواضح أنها لم تكن تخبز، وذلك لعدم وجود فرن فى هذا الجزء من المبنى. وكانت أقراص العجين المخمرة توضع بعد ذلك فى صينية مستديرة قد تكون غربالاً دقيقاً، ربما بطنوه بالكتان. وكانت الصينية توضع على دن آخر من الفخار، وكان الماء يصب عليه. وبينما ينساب الماء من الغربال كان شخص ما يحرك أقراص العجين لكي تتفتت وتختلط بالماء. وكان الخليط يترك ليهدأ ويخمر. وكانت العملية الأخيرة هى صب السائل المخمر فى جرار الجعة الفخارية التى تسد فوهاتها بالطين. وهناك بعض الجرار المعروضة التى تم سدها بهذه الطريقة. وطبقاً لما وصلنا من فخار الدولة الوسطى، المؤكد فمن المؤكد أن جرار الجعة كانت نمطاً ذائع الصيت، وهى موضحة كذلك فى الشكل 42 .

وكانت الغرفة المجاورة تضم المخبز، وهو مقسم إلى قسمين بينهما جدار منخفض. ويعكس التقسيم طريقتين مختلفتين للخبيز، إحداهما لإنتاج الأرغفة المسطحة، والآخر لإنتاج أرغفة أسطوانية تخبز فى قوالب فخارية. ويوجد هاونان على أرضية القسم الداخلى، وقاعدتا رحى وهاون فى القسم الخارجى. وهناك كذلك فى كل قسم دنان كبيران للعجن. وهما فى القسم الداخلى يقعان بجوار طاولتين منخفضتين تصنع عليهما أرغفة مفردة ليست لها قوالب. غير أنه لم يكن الخبز كله يأخذ شكل أرغفة تشكل باليد. فقد كان من الشائع خبيز بعض الخبز فى قوالب فخارية. وخلال الدولة الوسطى تميزت تلك القوالب بكونها أنابيب ضيقة طويلة مصنوعة يدوياً، وكانت خشنة من الخارج، ولكن سطحها الداخلي ناعم (الشكل 42، خارج النموذج)[11] وقد وجدت بكميات كبيرة فى مواقع الدولة الوسطى، استمرت هذه الممارسة حتى الدولة الحديثة. وكانت القوالب الفخارية تستعمل مرة واحدة. وربما كانت تنتج نوعية أفخر من الخبز الذى كان يخبز بجوار المقاصير والمعابد، فى الدولة الحديثة على الأقل. وُضعت بجوار الباب الذى يربط بين القسمين سلة مربعة مليئة بالأرغفة من هذا الصنف ،

ويفترض أنها ملئت للتو من دنان العجين المجاورة. ويضم كل قسم كذلك فرنين، غير أن فرني كل قسم مختلفان في تصميمهما عن الآخرين. فهما في القسم الداخلي من نمط أسطواني قياسي بأسفله فتحة لإدخال الوقود. غير أن الاثنين الآخرين مستطيلان. وتدل شواهد أخرجتها الحفائر على أن تلك الأفران كانت تستخدم على وجه التحديد إما لخبيز الخبز في القوالب الفخارية أو لحرق القوالب ذاتها في بداية الأمر[12].

وتكمل النقوش التي في مقبرة انتف ايكر (أحد وزراء أوائل الأسرة الثانية عشرة)[13] نماذج مكيت رع (الشكل 43). ففي اللوحة العليا يستخدم الهاون والمدقة في الجهة اليمنى، وتظهر في الجهة اليسرى امرأة تطحن برحى يدوية، تساعدها امرأة جالسة القرفصاء تنخل الناتج لإزالة المكونات الأكثر خشونة (وهو نشاط ضروري حذف من نماذج مكيت رع). وفي أقصى اليسار زوج آخر من النساء تعبئان القوالب الفخارية من جرار العجين. ويبدو أن زميلتهما التي في الناحية اليسرى تكسر أحد القوالب المصنوعة يدوياً. وفي الوسط تماماً رجل يرعى فرناً مستطيلاً مُلىء بقوالب الخبز الفخارية. ويبين صنع الجعة في المنظر الأسفل (ومرة أخرى دون أن يكون هناك وجود لفرن) حيث يتم تشكيل العجين على هيئة أقراص في الجهة اليمنى، ويخبرنا نقش مصاحب أن التمر كان يضاف في هذه المرحلة. وخلف هذا الرجل، وبعد أن يتم تخمير الأقراص، يتولى رجل آخر تحريك أقراص العجين وضغطها عبر الغربال أو المنخل لتنزل في الجرة الكبيرة. ويقول الصبي الذي يحمل السلطانية في نقش مصاحب: «أعطني بعض الجعة، لأني جوعان». والعمل الأخير هو ملء جرار الجعة وختمها في يسار الرسم، حيث ترص على حمالات خشبية.

وكان الخبيز وإعداد الجعة يتضمن عناصر تعوق حتماً الرقابة البسيطة على الكميات، وهي تمر من مرحلة إلى أخرى. فقد كان الماء يضاف، وكان العجين يخمر، وكانت تضاف كذلك عناصر أخرى كالتمر، بينما كانت مواد غير صالحة للأكل تفقد خلال الطحن والغربلة. وكانت الأرغفة تخرج بأشكال مختلفة. وكان أسلوب الكتبة هو التعامل مع العملية برمتها على أنها نوع من «الصندوق الأسود»: فقد كان بالإمكان تكييل ما يدخل (سواء أكان حبوباً أم طحيناً) وما يخرج من الناحية الأخرى باعتباره كميات من الأرغفة وأواني الجعة. وتجاهلاً لما كان يجري بالداخل، كان كل من الوارد

والمنصرف تربطه علاقة بسيطة بالآخر: وهى عدد الأرغفة وأكواز الجعة المصنوعة من كمية معينة من الحبوب أو الطحين. وكان المصريون يسمون مقياس القيم هذا «بيفسو»، وهو ما يمكن ترجمته «قيمة الخبيز»، وكانت تمثل مرحلة على الطريق نحو التجريد الرياضى. وكان مقياس بيفسو يوضع لعدد الأرغفة أو أكواز الجعة التى يمكن الحصول عليها من حقات واحد من الحبوب[14]. وكلما ازدادت القيمة قل عدد الأرغفة أو كانت الجعة أخف (أو كانت الأكواز أصغر حجماً). وكان البيفسو يُمَكِّن أى كاتب من حسبة المقابلات بين الأرغفة والأكواز ذات الأحجام المختلفة والدرجات المختلفة. «١٥٥ رغيفاً قيمة خبيزها ٢٠، كم عدد ما يقابلها من أرغفة قيمة خبيزها ٣٠؟ تعبر عن الـ١٥٥ رغيفاً التى قيمة خبيزها ٢٠ من ناحية الطحين: فتكون النتيجة $\frac{١}{٢}$ ٧ + $\frac{١}{٤}$ حقات»[15].

وقد وصلنا الكثير من قوائم الرواتب. وهى غالباً ما تتجاهل قيم بيفسو.(١٦) وهم يفترضون أن هناك أكوازاً معيارية من البيرة، ويمكن إجمال أنوا ع الخبز المتعددة معاً على أنها أرغفة «مختلطة». وهذا يفترض وجود معايرة ، وهى خطوة معقولة فى التفكير بالنظر إلى المقياس وكلية وجود العمليات، التى يميل من شاركوا فيها، ومنهم الفخاريون الذين يصنعون أكواز البيرة، ميلاً طبيعياً إلى إنتاج أشكال قياسية نتيجة للممارسة التى استمرت طوال حياتهم. وواقع الأمر أن لدينا فرصة للتحقق من هذا الأمر بأنفسنا. ومع أن عدداً قليلاً جدا من الأرغفة الحقيقية قد بقى حتى اليوم، فإن لدينا بدائل. وأكثر هذه البدائل شيوعاً هى القوالب الفخارية التى كان الخبز يخبز فيها. فقد عثر على الآلاف منها فى الحفائر. وقد طرأ عليها تطور بمرور الزمن. ففى الدولة القديمة كانت تنتج أرغفة على هيئة أقماع قصيرة وسميكة، كانت قاعدتها تتراوح فى العادة بين ١٦ و ٢٠ سنتيمتراً. وبحلول الدولة الوسطى كانت الأقماع قد تطورت لتصبح أسطوانات رفيعة طويلة (انظر الشكل 42، الرسم الخارجي). ومع أن الكثير جداً منها اكتشف، فهى لم تفحص الفحص اللازم من ناحية طريقة مضاهاة الأرغفة التى كانت تنتجها للممارسات المحاسبية والحاجات الغذائية. وتعطي صور بعض الاكتشافات الكبيرة انطباعاً بأن السعة تمت معايرتها معايرة معقولة فى تلك المجموعة بعينها، التى ربما أمكن الحفاظ عليها لو كانت قد شكلت فى قوالب يمكن استعمالها أكثر من مرة (ربما من الخشب)، كما اقترح من قبل[17]. ومع ذلك فإن النماذج التى عثر عليها فى مواقع مختلفة وتعود لعصور عدة تتنوع تنوعاً كبيراً. وليس

هناك ما يوحى بأنها كان تخضع لمعيار ما جرى وضعه بطريقة رسمية. ويفترض أن الكاتب كان يقوم بحسابات بيفسو الخاصة به بشكل دورى لفحص خبزات بكاملها. إلا أن تلك لم نهاية القصة. ولم تكن كل رواتب الخبز على هيئة أرغفة مخبوزة فى قوالب. فقد كان الجنود فى حصن من حصون الدولة الوسطى النوبية (أورونارتى) لديهم عدادات على هيئة رواتبهم من الخبز، محفور عليها كميات من القمح والشعير أو أعداد من الأرغفة بالرموز الهيروغليفية (الشكل 44)[18]. ويمثل بعضها أرغفة مخبوزة في قوالب (من الشعير)، غير أن بعضها أرغفة مستديرة مسطحة مصنوعة باليد (من القمح). وكانت تلك العدادات أشبه بمراجعة المتلقى (أى الجندى) لرواتبه، المحسوبة فى جزء منها بما وراءها من مخصص الحبوب وليس بعدد الأرغفة الفعلية التى كان يتسلمها. وربما كانت تمثل أساس الحاجة إلى كاتب لمراجعة قيمة بيفسو الخاصة بخبزة من الأرغفة المختلطة التى تخرج على هيئة رواتب.

إن سعة كوز الجعة أمر يصعب علينا التأكد منه. ونحن نعرف ما هو الشكل الشائع الذى كانت عليه أكواز الجعة فى الدولة الوسطى. ومع أن معظم الفخار الذى عثر عليه فى الحفائر محطم بصورة لا تمكننا من حساب السعات، فقد عثر كذلك على الكثير منها مكتملاً. إلا أنه كما هو الحال بالنسبة لقوالب الخبز، فلا يبدو أنه خطر ببال الناس أن يقيسوا السعة الحقيقية وفى أذهانهم مسألة المعايرة هذه. غير أن الرسومات الحديثة لهذه الأوانى، التى عُثر عليها فى مقابر مختلفة فى جبانة واحدة، تبدو كما لو كانت تعكس مجموعة من الأحجام وكانت بالكاد تتبع معياراً ما.

وما يتميز به عدم الاهتمام القديم بفكرة الكفاءة هو أن المعايرة لا تبدو هدفاً محسوساً. فقد كان الكتبة والفخاريون (والخبازون) عوالم منفصلة. إذ منعت فجوة المكانة الاجتماعية الكاتب من تخطى حدود فنه، وهو الفن الخاص بالإجراءات والحساب، وكانت إجراءاته تنبع من قبول جزء مهما من العملية كان فى واقع الأمر لا يخضع لمراقبته .

وتبين قوائم الرواتب الحقيقية أن الأجر المنتظم أو الراتب كان يحسب على هيئة الكثير جداً من أرغفة الخبز وأكواز الجعة، مع بعض الأشياء الإضافية التى تظهر فى بعض الأحيان، مثل الكعك والنبيذ[19]. وكان الراتب الأساسى القياسى يتكون من عشرة أرغفة ومقدار من الجعة يتراوح بين ثلث الكوز والكوز أو حتى كوزين كاملين.

وكان ذلك الراتب الأساسى هو ما كان يعتقد أنه مناسب للعامل العادي. وتبين قوائم الرواتب كذلك أنه كلما ارتقى المرء فى صفوف العمل الوظيفى زاد التوزيع بمقدار أضعاف من الراتب الأساسى. وكان يعبر عن ذلك فى بعض الأحيان بعمل قوائم خاصة بمن ينتمون إلى مرتبة أعلى وكأن الواحد منهم بمثابة أكثر من شخص: ربما خمسة رجال، أو عشرة، أو حتى عشرين. وكانت بردية ريند الحسابية تساعد الكاتب على التغلب على عواقب ذلك:

طريقة توزيع ١٠٠ رغيف على ١٠ رجال، إذا كان القبطان وقائد المجموعة والبواب (يتلقون) الضعف.

إجراؤها: تجمع عدد الناس الذين يتلقون المؤن: فيكون الناتج ١٣,
قسم المائة رغيف على ١٣ والناتج هو ٧ + $\frac{٢}{٣}$ + $\frac{١}{٣٩}$ (أى $\frac{٩}{١٣}$ ٧).

ثم تقول: (هذا) استهلاك ٧ رجال، (بينما) يتلقى القبطان، وقائد الطاقم والبواب الضعف[20] .

وبذلك يتم تحويل العشرة رجال ذوى الأنصبة غير المتساوية إلى ثلاثة عشر «متلقياً» مفترضين لهم أنصبة متساوية. ويكون نصيب كل واحد من السبعة «رجال المفردين» هو $\frac{٩}{١٣}$ ٧؛ أما ثلاثة أنصبة «الرجال المزدوجين» للمسئولين الثلاثة فيكون كل منها ضعف تلك الكمية، أى $\frac{٥}{١٣}$ ١٥ .

إلا أن بردية ريند الرياضية تتصور حالات أكثر تعقيداً من حالات التوزيع، حيث لم يكن القياس حسب المرتبة يتم بعمليات ضرب بسيطة للراتب الأساسى. «١٠٠ لخمسة رجال، $\frac{١}{٧}$ رواتب الثلاثة الأكبر يذهب للاثنين الأصغر. فما هو الفرق بين الأنصبة؟» للإجابة عن هذا السؤال (المسألة ٤٠ فى بردية ريند)، قدم المؤلف حسابات مجدولة تبين أنه كان بالفعل يطلب متوالية حسابية لأنصبة الرجال الخمسة، بحيث يكون كل واحد أصغر مما يليه بمقدار $\frac{١}{٧}$. وقد وجدت الإجابة الصحيحة: $\frac{٢}{٣}$ ٣٨، و ٢٩، و ٢٠، و ١٠ + ١٦، و $\frac{١}{٣}$ ١ . الفرق بين أى اثنين هو $\frac{١}{٦}$ ٩ .

وتختلق وثائق الرواتب مسألة تقول لنا إننا لا نتعامل وحسب مع أعمال دنيوية براجماتية خاصة بإطعام الناس، وإنما مع نظام اقتصادى له مجال أكثر طموحاً، ومجاله النظرى أو المجرد أكبر مما يبدو عليه الحال عند النظر إليه لأول مرة.

وإذا كان الحد الأدنى الأساسى للراتب اليومي يتكون من عشرة أرغفة، فإن أي موظف كبير يمكن أن يخصص له ما يصل إلى ٥٠٠ رغيف فى اليوم. وهذا يفوق ما تستوعبه أكبر شهية. فهل كان الفائض لدعم من يعملون معه؟ تشير بعض النصوص إشارات منفصلة لأجور هيئة العاملين. وهى بذلك تساعد على استبعاد هذا الأمر. وعلى أية حال، فإن بعض قوائم الرواتب تتعلق بحملات مرسلة إلى مناجم ومحاجر فى مواقع صحراوية غير مريحة، مثل سيناء ووادي الحمامات. ولم تكن الأماكن تناسب اصطحاب الفرد لأسرته أو أهل بيته، أو فترات من العيش ببذخ. غير أنه لا بد حينئذ من مراعاة الكسور. ولا تنفرد بردية ريند الرياضية بمراعاة كسور أرغفة الخبز وأكواز الجعة الصعبة. ويحدث الشيء نفسه فى القوائم الحقيقية. والأمر اللافت للنظر بالقدر نفسه هو النظام المحاسبى الخاص بمعبد إقليمى من الدولة الوسطى، وهو معبد الإله ويب واويت فى أسيوط[21]. وكان بعض العاملين يتقاضون أجورهم طبقاً لعدد «أيام المعبد» المخصصة لهم. ويشرح أحد النصوص ذلك فيقول:

> **بالنسبة لليوم من أيام المعبد، فهو يساوى $\frac{١}{٣٦٠}$ من السنة. والآن عليك أن تقسم كل شىء يدخل هذا المعبد – من خبز وجعة ولحم – على أساس من المعدل اليومى. سيكون الناتج $\frac{١}{٣٦٠}$ من الخبز، ومن الجعة، ومن كل شىء يدخل هذا المعبد لـ (أى) يوم من أيام المعبد هذه التى حددتها لكم.**

وكان كل واحد من هيئة العاملين مخصص له يومان من أيام المعبد، فيما عدا كبير الكهنة، الذى يحصل على أربعة أيام. وبذلك تكون الحصة الحقيقية $\frac{٢}{٣٦٠}$ (أو $\frac{٤}{٣٦٠}$ فى حالة كبير الكهنة) من كل رغيف أو كوز جعة كان يتلقاه المعبد كدخل له. وكان جزء من الدخل لحماً. وكان أرشيف معبد آخر (كاهون) يتعامل مع كسور الماشية[22] !

ويقول لنا المنطق إننا لا نتعامل مع نظام كان يوزع فتات الخبز واللحم المفروم على هيئة أنصبة موزونة ميزاناً دقيقاً، وكان يكوم الفوائض غير المأكولة حول كبار المسئولين. فلابد أن النظام جمع بين توزيع الرواتب الحقيقية وتوزيع الرواتب النظرية، حيث كان الأخير في واقع الأمر رصيداً دائنًا يمكن فيه استبدال التراكم الورقي من حصة الرواتب غير الموزعة بشيء آخر. وكانت الأرغفة والأكواز مقاييس للقيمة، أو وحدات محاسبية، مثلما تعبر عن كميات حقيقية من المواد الغذائية التي تصرف للفرد وتنتظر أن تنقل وتستهلك. وكان نظام بفيسو يسمح بحساب قابلية تبادل الخبز والجعة، وكذلك بالاحتفاظ بسجل لما ورائهما من قمح أو شعير. غير أن ما يوحي به ذلك هو ضرورة وجود إلى مجال أوسع من الأشياء المقابلة في القيمة، حيث كان يعبر عن المقابل لأقمشة الكتان من الحبوب أو الخبز، على سبيل المثال. غير أن هذه النقطة هي ما يعوزه التوثيق. فهذه السلسلة الكبيرة الخاصة بالقيمة التبادلية لا تغطيه بردية ريند الرياضية ولا الوثائق الإدارية. وبالنسبة للدولة الحديثة ، لدينا الكثير من سجلات معاملات مقايضة القرى التي تعرض سلسلة كبيرة من قيمة السلع معبراً عنها بحقات الغلال أو أوزان المعدن (وهو النحاس في أغلب الأحيان). ويبدو من هذه المادة أن الشعور بالقيمة النسبية كان جزءاً من القدرات الذهنية الأساسية للمعيشة التي كان يمتلكها المصريون منذ أقدم العصور. غير أن الفجوة الموجودة في النصوص تظل قائمة على المستوى الرسمي. والأمر هو أنه إما أنه ينقصنا عنصر أساسي ما في النظام، أو أن تسييل الفائض المتراكم من الرواتب لدى أي شخص كان يتم بصور غير رسمية، عن طريق المقايضة وبعيداً عن إمساك الدفاتر المعتاد. ويخذلنا نقص القيمة المعيارية للخبز والجعة من ناحية أخرى. فلا يمكننا القفز مباشرة إلى الأرقام الحقيقية للمخصصات المتوسطة من القمح والشعير الكامنة وراء الراتب الأساسي، وبالتالي الإجابة عن أهم الأسئلة: ما هو مقدار ما كان قدماء المصريين يستهلكونه عادة من الحبوب؟ ما هي القيمة الغذائية لما كان يأكله هؤلاء الذين كانوا يجرون الحجارة من المحاجر إلى الأهرام؟ وبدافع التيسير، كانت الرواتب يعبر عنها عادة بصورة عددية بسيطة، حيث يترك الأمر لنظام البيفسو والعدادات الخشبية كي ترد على أية شكوك أو تساؤلات. ومع ذلك، فلابد أنه كانت هناك كمية متوسطة يمكننا السعي إلى تحديدها، أو بشكل أكثر واقعية يمكننا تحديد أرقام قصوى وأخرى دنيا.

واستغل أحد الباحثين الأمريكيين نقوشا قصيرة موجودة داخل عدادات أورونارتي كمصدر[23]. ولسوء الحظ أنها غامضة ونتائجها بالتالى غير مؤكدة إلى حد ما. وهى تقوده إلى الرقم الخاص بثلثى حقات من الشعير، وحقات واحد من القمح لكل جندى كراتب عشرة أيام. فما مدى إمكانية ذلك فى الواقع؟

وتختلف التقديرات الحديثة لحجم الحقات المصرى اختلافاً طفيفاً. والتقدير الذى يمكن الأخذ به من الناحية المنطقية هو ٤,٧٨ لتر . وبذلك يساوى الحقات الواحد من القمح ٠,٠٠٤٧٨ متر مكعب . ويحسب المتر المكعب من القمح على أنه يزن ٧٨٥ كيلوجراماً. وهكذا فلابد أن يزن الحقات الواحد من القمح حوالى ٣,٧٥ كيلو جرام. وتحسب الكمية المقابلة من الشعير بصورة أقل: وهى ٧٠٥ كيلو جرام فى المتر المكعب. وبذا يكون ثلثا حقات من الشعير حوالى ٢,٢٥ كيلو جرام . وعند إضافة الكميتين إلى بعضهما، يكون إجمالى الكمية فى عشرة أيام هو ٦ كيلو جرامات، أى ٠,٦ كيلو جرام فى اليوم الواحد.

وبالمعايير التى حسبت بالنسبة للعالم الرومانى تبدو هذه حصة ضئيلة. وطبقاً لما قاله باحث آخر، فإن الأرقام التى قدمها المؤلف اليونانى بوليبوس وهو يكتب حوالي سنة ١٤٠ ق.م.، توحى بأن جندى المشاة، سواء أكان أساسياً أم احتياطياً، كان يحصل على ٠,٩٤ كيلو جرام من الحبوب فى اليوم. مع أن السجلات الرومانية التى عثر عليها فى بسليكس (الدكة الحالية فى النوبة) يمكن تأويلها بحيث يكون الناتج رقماً أصغر هو ٠,٨ كيلو جرام فى اليوم. وبالنسبة للمجتمعين المصرى والرومانى هناك عامل آخر غير معروف: وهو كمية ونوعية المكمل الغذائى لراتب الحبوب. وفى حالة مصر ربما كان ذلك المكمل صغيراً بعض الشيء. فالانطباع الذى نخرج به من مصادر كثيرة هو أن الخبز والجعة المصنوعين من القمح والشعير كانا هما الغذاء الأساسى.

ويمكن الانتقال بالنقاش إلى مرحلة أخرى عن طريق تقدير قيمة السعرات[24]. فحقات القمح الواحد يمثل حوالى ٨,١٠٠ سعر، والشعير حوالى ٩.٧٢٠ . وبذلك ينتج حقات من القمح وثلثا حقات من الشعير ١٤,٥٨٠ سعر لمدة عشرة أيام، أو ١,٤٥٨ فى اليوم الواحد. فما هو مقدار واقعية هذا الرقم؟ توضح المقارنات أنه منخفض كذلك. فعلى سبيل المثال، تضمن تقرير عن تغذية السجون فى مصر نشر سنة ١٩١٧ قيم

الطاقة اللازمة فى التغذية اليومية وهى : ١.٨٠٠ سعر للبقاء على قيد الحياة، و٢.٢٠٠ فى حالة عدم القيام بأي عمل، و٢.٨٠٠ للأعمال الخفيفة، ٣.٢٠٠ للأشغال الشاقة[25]. وهذه الأرقام مستمدة من النظام الغذائي الذى وضع للمساجين فى الجيش المصري. وبذلك يمكننا أن نأخذ بشىء من الثقة الأرقام المستمدة من عدادات أورونارتى على أنها الحد الأدنى جداً، وأن نجعل حدنا الأقصى كيلوجراماً واحداً من الحبوب فى اليوم. والواقع أنه إذا كانت عدادات أورونارتى تمثل فقط الأرغفة التى كانت تصرف، فيمكننا أن نفهم بشكل أفضل ما يبدو أنه راتب قصير. ويكون علينا أن نضيف محتوى الجعة التى كانت تصرف منفصلة من الحبوب. وبذلك قد يكون الحد الأقصى أقرب إلى الحقيقة. غير أنه لايزال علينا قبول أن الأهرام شيدت على نظام غذائى متواضع من الناحية الصحية.

وبخلاف الاهتمام بالنظام الغذائى القديم، تمثل هذه المناقشة كذلك استطلاعاً أركيولوجياً أكثر تحديداً بشأن سعات صوامع الحبوب القديمة وعدد الأشخاص الذين كانوا يعتمدون عليها، وهو ما سيبرز فى الفصل التالى.

ولم تكن إدارة الحبوب قاصرة على المواد الغذائية البشرية. إذ تتضمن بردية ريند الرياضية المساعدة (المسألة ٨٢ ب) مايلى:

مقدار ما تأكله الإوزة المسمنة:

عشر إوزات $\frac{١}{١٤}$ حقات (من الدقيق المصنوع خبزاً)

فى عشرة أيام ١٢ $\frac{١}{٢}$

فى ٤٠ يوماً ٥٠ حقات

وهو ما يمثل الحبوب فى حقات مزدوجة: ٢٣ $\frac{١}{٢}$ + $\frac{١}{٤}$ + $\frac{١}{٨}$ حقات ٤ $\frac{١}{٤}$ + $\frac{١}{٦}$ رو (١ رو = $\frac{١}{٣٢٠}$ حقات).

وجوهر هذه المسألة، التى وضعت بطريقة غامضة بعض الشيء، هو حساب حجم الفرق بين الحبوب والدقيق. ذلك أن عشر الثلثين هذا يطرح – وهى ما يفترض أنها نسبة الحساب التقريبى – ويقسم الناتج إلى نصفين لتختصر إلى حقات مزدوجة.

والجواب ليس صحيحاً تماماً، وإن كان الكاتب يستهدف قدراً كبيراً من الدقة باستخدامه كسور الحقات.

إدارة العمل

وكان هناك فحص مشابه فى كثافته يطبق على مشروعات البناء، وهو هدف كبير آخر من أهداف الإدارة. وكان كل المهتمين بالأمر، سواء أكانوا الموظفين والمهندسين المسئولين، أم جيش العمال والصناع، يتم توظيفهم بشكل مباشر، وكان عملهم ومكافأتهم يجرى قياسهما وفحصهما . وكان العمل التقليدى هو القياس الدقيق للمواد التى تنقل وتستخدم، سواء أكانت كتل حجرية مقطعة، أم طوباً لبناً مجففاً فى الشمس، أم تبناً وتراباً لعمل الطوب، أم ركاماً، أم رمــلاً. والكاتب ذو الضمـير الحى يقيـس (أو يدون المقاييس التى يبلغها كاتب آخر) فى التدوين المعيارى التام للمقياس الطولي المصري: وهو الذراع (ويساوي ٢٠,٦ بوصة أو ٥٢٣ ملليمتراً)، والشبر، والقيراط (عرض الإصبع)، والكسور، وكذلك نصف الذراع وثلثه وربعه. وبعد ذلك يحسب حجم المادة. وكان ضرب كسور الذراع وعمليات طرحها تنطوى على قدر كبير من المهارة الحسابية، وربما يرجع الكاتب إلى الجداول الجاهزة. وكان يمكنه عن طريق الحجم أن يحسب عدد وحدات العمل المطلوبة، باستخدام النسب المعيارية. وفى أحد الأمثلة نجد أن معيار العمل اليومى للرجل الواحد هو نقل ١٠ أذرع مكعبة[26]. ومن هذه الأرقام كان يمكن للكاتب أن يقدر الرواتب المطلوبة ويستخرج أرقام العمل التى تقارن بعد ذلك بالعمل الذى تم بالفعل.

وبهذه الطريقة كان يمكن مراقبة أسس مشروعات البنـاء الكبرى الثـلاثة – وهى مواد البناء والعمال والرواتب – مراقبة دائمة. وكان كل من قلم الكاتب إلى جانب سوط الملاحظ أو مهارة المهندس هو ما شيد الأهرام.

وعن طريق السخرة، كانت الدولة تلقي شباكها بشكل مؤقت على قوة عاملة أكبر من تلك التى كانت متاحة بانتظام من هؤلاء الذين توظفهم الدولة لبعض الوقت أو كل الوقت. وكانت الدولة من جانبها تدفع الرواتب، لكى لا يؤخذ عمل من تأثروا بلا مقابل.

إلا أن الأعمال كانت شاقة فى العادة: فى صورة جيش طارئ يخدم خارج البلاد، أو نوبات من النشاط فى المحاجر أو مواقع البناء. وكان هناك هؤلاء الذين يحاولون الفرار، وساعتها كانت الدولة تكشف عن جوانبها العقابية. وتفتح لنا وثيقة أساسية من أواخر الدولة الوسطى، وهى سجل أحد السجون، نافذة صغيرة على مصير هؤلاء الذين اختاروا ألا يتعاونوا[27]. وتقول مدونة تقليدية:

ابنة سنحور، تيتى، تحت إمرة كاتب حقول مدينة تيس: امرأة. صدر أمر للسجن الكبير فى سنة ٣١، الشهر الثالث من الصيف، يوم ٩، بإطلاق سراح أسرتها من المحكمة، وفى الوقت نفسه ينفذ فيها القانون الخاص بمن يفر دون أن يؤدى ما عليه من خدمة. حاضرة [علامة صح] . بيان من كاتب الوزير ددوآمون: «ينفذ؛ أغلقت القضية» .

ويبدو من هذا بوضوح أن أسرتها كانت قد احتجزت كرهينة لحين القبض عليها.

وعندما كانت تأثيرات البيروقراطية التعبوية تطبق على مشروع كبير ، كانت تتسم بشدة تأثيرها. ومما يؤسف له أنه ليس لدينا أي جزء من التوثيق الأصلي لأعمال البناء الكبيرة التى بقيت حتى الآن، مثل أهرام الجيزة. غير أن خيالنا تثيره بشدة تلك السجلات التى تركت محفورة على الحجر فى المناجم والمحاجر القديمة. وللحصول على مقياس واضح يمكننا الرجوع إلى نفس سجلات قطع الحجارة واستخراج المعادن التى أمدتنا بالتفاصيل الخاصة بطريقة دفع الأجور. ففى العام الملكي الثامن والثلاثين من عهد الملك سنوسرت الأول (حوالى ١٩٣٣ ق.م.) اتجهت إحدى الحملات إلى المحاجر الموجودة فى وادى الحمامات. وكان على رأس تلك الحملة «رسول» يدعى أمينى[28]. وكان أمينى يرأس ٨٠ موظفاً، وحوالي ١٨٦٦٠ من العمال المهرة وغير المهرة (كان بينهم ٣٠ صياداً وفرقة من الجند) ، بالإضافة إلى وحدة خدمات من الطحانين وصانعى الجعة والخبازين. وكان بين الموظفين ٢٠ من «عمد» المدن الصغيرة، حيث يفترض أنهم كانوا مسئولين عن توفير معظم العمال المجندين أو المسخرين. ومن المثير أن نعرف أن المشروع كله كان يرعاه ٨ من الكتبة.

ولإظهار مدى كثافة المراقبة وإمعان النظر اللذين كانت تراعيهما الدولة الوسطى، ليس أمامنا ما هو أفضل من الرجوع إلى مجموعة البرديات المتصلة بأنشطة عديدة

يجرى تنفيذها فى أرياف مصر، بجوار مدينة طيس بالقرب من أبيدوس[29]. ولم تشارك فى الأمر بعثة بناء أهرام أو تقطيع حجارة ذات حجم خرافى. ويتصل جزء من الأرشيف بإحدى ورش النجارة الملحقة بترسانة ملكية لصنع السفن، حيث كانت كل حركة صغيرة من حركات كتل الأخشاب أو جلد الماعز مدونة فى قائمة، وهى التى كانت تتلقى توجيهات مكتوبة بشأن أمور عظمت أو صغرت مباشرة من الوزير المقيم على مقربة من منف. ويتعامل جزء آخر مع الإنشاءات التى تتم فى معبد إقليمى، وهو ما يعد دليلاً على النمط الذى كشفت عنه الحفائر، حيث الطوب اللبن وليس الحجر هو المادة الأكثر شيوعاً. ويعد هذا النص أوضح دليل على المقاييس المفصلة لأحجام المواد المنقولة وتحويلها إلى أعباء العمل المذكورة آنفاً. وليس هناك ما يدعو إلى افتراض أن هذا الموقع الإقليمى كان مميزاً بسبب هذا القدر الكبير من كثافة الإشراف. بل إنه يوحى بأن هذا المستوى كان نموذجياً بالنسبة للدولة الوسطى.

ومن الممكن لأية سلطة أن تأمر شعبها بأن يقوم بعمل من الأعمال وأن تتركه يمضى فى تنفيذ معظمه كأحسن ما يكون. إلا أنه ما إن تقرر التحكم فى كل تفاصيل العملية حتى يتزايد عبء الإدارة بسرعة. وفى العالم الحديث تفلت الأمور بسهولة. ولكن المصريين نجحوا فى ذلك، لما كان لديهم من أهداف واضحة (إن لم تكن طموحة) وعدم وجود فلسفات تبعث على الانشقاق تبدد طاقاتهم.

والبيروقراطية حالة عقلية، وهى استعداد نجده كأوضح ما يكون فى الوثائق الأصلية. كما أنها تبدو بسهولة عالماً مريحاً يتمتع بالاكتفاء الذاتى، وخاصة أن الوثائق غالباً ما يدرسها خبراء اللغات القديمة فى عزلة وهم يعملون فى غرف المكتب أو المكتبات الهادئة ومزودين بالقواميس وكتب النحو. إلا أن الكاتب القديم كان يرى أن النظام يخص عالمه العقلى الداخلى. وعندما كان يضع قلمه ويرفع عينيه عن ورقة البردى الخاصة به، فإن المشاهد التى كانت تقع عليها عيناه ربما كانت أقل تنظيما بكثير. والواقع أن جوهر عملية الكتابة (أو الرسم) هو تحويل واقع معقد يتسم فى الغالب بالفوضى إلى نظام يمكن فهمه وإدراكه.

وتقع الوثائق القديمة على حدود الواقع المشتركة: حيث لا يتاح لنا معرفة الجانب الأقصى إلا من خلال علم الآثار. وقد أقحم هذا نفسه بالفعل على وصف الخبيز وصنع

الجعة. فهاتان العمليتان اللتان تتسمان بالفوضى وينبعث منهما الكثير من الدخان، كانتا هما الواقع وراء دقة بردية ريند الرياضية. إلا أنهما ليستا سوى دليل على قسوة وتعقد الحياة التى كانت البيروقراطية تسعى إلى ترويضها.

ومع أنه ينقصنا التوثيق المكتوب الأصلى بشأن بناء أهرام الجيزة، يمكننا من خلال نافذة علم الآثار الحصول على فكرة ما عن التعقيدات الفيزيقية الخاصة بالعملية التى كان على البيروقراطية أن تحد منها بصورة أو بأخرى. ولكى نفعل ذلك، علينا أن نرجع للوراء وألا نغرق أنفسنا فى الأهرام ذاتها (الشكل 45). بل يجب علينا أن نراها فى سياق موقعها، أى كل هضبة الجيزة، باعتبارها محصلة عملية إدارية ضخمة كان عليها تتبع العديد من خطوط الإدارة المتداخلة فى وقت واحد، مع احتمال أن أى خطأ فى أحدها قد يربك الخطوط الأخرى ويخرب المشروع العملاق برمته. ولكى ينجح هذا فهو يقتضى نظرة إدارية عامة وكلية يمكننا إعادة بناء مجالها باستخدام سلسلة من الملاحظات الأركيولوجية من الموقع[30].

ولم تكن هضبة الجيزة صفحة بيضاء، للمهندسين حرية التصميم عليها وتخطيط المبانى حسب اختياراتهم. فقد كان هناك قيد أساسى تفرضه طبيعة الموقع الجيولوجية. ذلك أن جزءاً كبيراً من سطح الهضبة عبارة عن الجزء الأعلى من طبقة من الحجر الجيرى (تكوين المقطم) ذات انحدار عام فى الاتجاه الجنوبى الشرقى. ويبدو أن بناة الأهرام كانوا يرغبون فى الحفاظ بطريقة أو بأخرى على مستوى كل من الأهرام الرئيسية الثلاثة (أهرام خوفو وخفرع ومنكاورع)، ولم يكن تحقيق ذلك ممكناً إلا بجعلها على خط واحد عمودى على اتجاه المنحدر. وكان الحجر الجيرى الخاص بتكوين المقطم مناسباً كذلك لتوفير معظم الحجر اللازم لبناء الأهرام الأساسى، وإن لم يكن ناعماً بما يكفى للكسورة الخارجية. وقد افْتُتِحَ لكل هرم محجر ملائم.

وانطوت الملاءمة على اعتبار مهمٍ آخر. فبما أن الهرم كان يعلو، فقد كان لابد من رفع الأحجار إلى مستويات أعلى وأعلى. ورغم اختلاف الباحثين بشأن التفاصيل، فهناك اتفاق عام على أن الكثير من الأحجار كان يرفع بجره على طرق صاعدة ضخمة كان لابد من تعليتها بما يتماشى مع أعمال التشييد. وكان جعل الانحدار أقل ما يمكن، إلى جانب تقليل المسافة من المحجر اعتباراً آخر على قدر كبير من الأهمية.

وعلاوة على ذلك كانت قدرة بناة الهرمين الثانى والثالث على المناورة محدودة بسبب أعمال أسلافهم. فقد اختار خوفو منطقة فى أقصى الطرف الشمالى الشرقى من تكوين المقطم، تقع مباشرة فوق جرف، وكان يأتى بالأحجار من المحاجر الواقعة فى الجانب الجنوبى، وكان يشغل الأرض الواقعة فى الشرق والغرب بمقابر أفراد القصر. وكان خلفاؤه مضطرين للانتقال إلى الجنوب الغربى، ولذلك لم يكن بمقدور أى إنسان أن يستغل ميزة الميل الطبيعى للأرض عن طريق تشييد الطرق الصاعدة على امتداده. ولابد أن الطرق الصاعدة رفعت مستوى الميل إلى حد ما. ولكن من المحتمل أن هناك سبباً وجيهاً لتفضيل هذا التنظيم من الطرق الصاعدة. ولم تكن كل الأحجار تُقتطع من محاجر محلية. ففى الأصل كانت الأهرام مكسوة بطبقة من الحجر الجيرى الفاخر الذى كان يؤتى به من محاجر على الجانب الآخر من نهر النيل، فى طرة، حيث كان يكملها فى حالة هرمى خفرع ومنكاورع جرانيت من أسوان. وكانت المعابد المصاحبة للأهرام تتطلب هى الأخرى حجراً من خارج المنطقة. ولابد أنه كان هناك كذلك طلب كبير على الأخشاب، التى كانت، بالإضافة إلى استخداماتها الأخرى، توضع على الطرق الصاعدة لتكون بمثابة سطح مناسب للزحافات. ولابد أن نقل المواد الثقيلة إلى الموقع كان يتم بالمراكب فى قناة أو قنوات، مما كان يقتضى وجود منطقة ترسو عليها. والموقع الطبيعى لذلك يقع إلى الجنوب، حيث يحدث انحدار الهضبة منخفضاً. وإذا كانت المنطقة الخاصة بتلقى ما يرد من مواد البناء وإعدادها كى توضع فى أماكنها فى الموقع توجد فى هذا المكان، فلابد أن مسارات الطرق الصاعدة الخاصة بالتشييد كانت تضع هذا الأمر فى اعتبارها كذلك. وبالتالى كانت إدارة الموقع التى تقوم بتوظيف مهارات التنسيق والتوقعات هى بحق ذروة القيادة فى بناء الأهرام، وليس مستغرباً أن نجد أن هذه المهمة يقوم بها أعلى الشخصيات فى البلاد، وكانوا مقربين من الملك إلى حد أنه كان من المعتاد فى الأسرة الرابعة أن يتولى ذلك أحد أبناء الملك[31].

وصورة الاختيارات والقيود الإدارية لها مصدران. أحد هذين المصدرين يتكون من الملاحظات المباشرة. ويتضح تحديد مواقع العديد من المحاجر من الحفائر الحديثة، وتشير بعض الدلائل إلى وجود حوض قديم يقع عند الطرف الجنوبى من الموقع. والمصدر الآخر نتيجة لوضع الإنسان نفسه موضع البنائين والبحث عن حل اقتصادى

فى الإطار الذى يتيحه علم الآثار. فإن مسارات الطرق الصاعدة، وهى فى حد ذاتها عمليات تشييد ضخمة، يمكن استنتاجها بهذه الطريقة وحدها، حيث إنه بعد الانتهاء من تشييد الأهرام كانت تلك الطرق تزال دون أن تترك وراءها أي أثر. وربما كانت الحاجة إلى تفكير واضح صريح، وتحديد مناطق النشاط للحيلولة دون انتشارها أبعد من اللازم، السبب وراء نمط الجدران الحجرية الخشنة التى تقسم هضبة الجيزة فى مكاني هرمي خفرع ومنكاورع إلى مناطق كبيرة. وقد تركت كملامح دائمة وكانت لتستمر، مع بعض الإضافات، فى تحديد الأرض التى تخص كل هرم تحديدا دقيقاً.

وكما أشرنا، فإن طرق التشييد الصاعدة كانت مشروعات رئيسية فى حد ذاتها. وكان كل منها يساوي على وجه التقريب ثلثي حجم الهرم الخاص به. وفى نهاية الأمر كان لا بد من التخلص منها. فمم كانت تصنع الطرق الصاعدة؟ تبين بعض المصادر اللاحقة أنه ربما كانت الطرق الصاعدة تتكون من خانات مشيدة بالطوب اللبن تملأ بالرمل. إلا أنه ليس فى الجيزة ما يدل على وجود مخلفات ضخمة من الطوب اللبن. بل إن هناك العديد من أجزاء هضبة الجيزة، وخاصة المحاجر والمنطقة المنخفضة الواقعة فى الجنوب، مدفونة تحت كسر الأحجار والتراب بكميات كبيرة ربما تكفى للدلالة على وجود الطرق الصاعدة. ويكشف هذا الأمر عن مسئولية إدارية أخرى: وهى توجيه تقطيع الأحجار من المحاجر والعمل الإضافى الضروري لوضع مخلفات المحاجر والمواد الصحراوية الرخوة فى الوضع الصحيح لخلق الطريق الصاعد المتدرج تدرجاً يصلح لمرحلة تشييد الهرم التى يتم الوصول إليها، لكون الطريق الصاعد كوماً طويلاً يقوم على قاعدة عريضة ويتكون من مادة رخوة.

وليس هناك من يعرف عدد من استخدموا لبناء الهرم الأكبر. فقد قيل لهيرودوت إنهم مائة ألف، غير أن هذا ربما كان تخميناً من جانب مرشده(32). ومن الواضح أنه كان عدداً كبيراً، هو ما يطرح سؤالاً آخر يجيب عنه الأثري: أين أسكنوا جميعاً؟ من الممكن بطبيعة الحال أن تكون الإجابة: على الأراضي التى تغمرها مياه الفيضان، وعند مستوى بات الآن مطموراً على عمق كبير يصعب على علماء الآثار الوصول إليه. غير أنه من الممكن كذلك أن المعسكرات أو قرى العمال كانت على الهضبة نفسها. وهذا بالتأكيد أمر يجب على علماء الآثار دراسته والبحث عنه.

وأثناء البحث عن آثار معسكرات العمل اقترح موقع فى أواخر القرن الماضى. ويقع هذا المكان إلى الغرب من هرم خفرع ويشكل بحق جزءاً من نمط جدران الركام والخطوط المستقيمة على هضبة الجيزة: إنه ملحق ضيق طويل شيد فى اتجاه الجزء الغربى من السور المحيط بالهرم. والخطوط العامة للطريق يمكن رؤيتها فى الوقت الراهن، غير أنه فيما يتعلق بفحص هذا الموقع فحصاً علمياً، فإننا نقتصر على ما ذكره بترى فى تقرير المسح الذى قام به للأهرام فى الثمانينيات. ويقول بترى:

تقع خلف السور الغربى الثكنات الكبيرة الخاصة بالعمال. وكانت تعتبر حتى الآن مجرد خطوط من بقايا الحجارة، أو أكوام نفايات البناءين. ورغم أن فايس فحص أحد الأجزاء، فهو لا يقول سوى أن الأجزاء المرتفعة من الأرض «اتضح أنها تتكون من الحجارة والرمل، ولم يكتشف أصلها»، ... غير أنه بالنظر إليها نظرة فاحصة لاحظت حواف الجدران المحددة تحديداً شديداً. وما إن بدأ العمال فى إزالة الأتربة عن تلك الجدران حتى بات بالإمكان رؤية الأجزاء العليا منها التى أصابها التلف، حيث كانت الفجوات قد ملأتها الرمال التى حملتها الرياح.

وهذه القاعات مشيدة بالحجر الجيرى غير المستوى (فيما يشبه السور الغربى)، يمسكها الطين ببعضها، وهى مكسوة بالطين الصلب، أو الطين والجير [لابد أن بترى يقصد الجبس]. وأرضيات القاعات هى الأخرى من الطين الصلب. وأطوالها متفاوتة، فى حدود التسعين قدماً؛ أما عرضها فـ١١٣ بوصة، ولها مداخل عرضها ٨٣ بوصة. والقاعات فى مجموعها ٩١ قاعة؛ وهو ما يعنى أن القاعات تمتد لمسافة تزيد على الميل ونصف الميل، بعرض ٩ $\frac{١}{٢}$ قدم وارتفاع ٧ أقدام. ويبدو أن مثل هذه المساحة الشاسعة الخاصة بالإقامة لا يمكن أن تكون سوى ثكنات العمال(33).

ومضى بترى فى حساباته ليصل إلى أنها يمكن أن تسع حوالى ٤ آلاف عامل.

فى تلك الفترة كان بترى يعمل على نطاق شديد التواضع، ومن غير المحتمل أن تكون حفائره قد شملت ما يزيد على حفرة استكشافية واحدة أو اثنتين. غير أنه منذ

ذلك الوقت بات هذا التأويل مقبولاً على نطاق واسع. إلا أنه لم يفسر غياب النفايات المنزلية التى كان سيخلفها وراءه مثل هذا الإشغال الكثيف. بل إن التخطيط العام يشبه تخطيط صفوف المخازن المتلاصقة التى كان المصريون يشيدونها فى المواقع الدينية، وهو ما يشير بذلك إلى افتراض بديل. وبدون الحفريات الجديدة نصبح فى موقف ضعيف لا يمكننا من تقييم هذا البناء.

وربما لم تكن كل القوى العاملة تقيم فى تكنات منفصلة بُنيت خصيصاً لها. فربما كانت بعض المجموعات تقيم فى معسكرات فى مواقع البناء. وقد أجريت حفائر فى واحدة من هذه المناطق فى موسم ١٩٧١/١٩٧٢ إلى الجنوب الشرقي من هرم منكاورع (الشكل 46)[34]. وهى تتكون من مجموعة من الأبنية التى شيدت على جانبي جدار من الركام به سلسلة من التغييرات الحادة فى الاتجاه. والمدى الكامل للموقع غير معروف، ذلك أنه يمتد دون أن تُجرى به حفائر تحت الصحراء فى الاتجاهين الشرقى والغربى. وكانتِ الأبنية المفردة، مثل الأسوار، مشيدة من الحجر غير المستوي والملاط الطينى. وتقع فى الشمال مجموعة بها ثلاثة منها. ويضم المبنى الأوسط CH13 من قاعة مساحتها ١٥×٥,٥ متر، وبها دعامات مربعة ربما كانت قواعد أعمدة. وفى الحجرة المجاورة وفى المبنيين الشماليين الآخرين CH12 و CH14 توجد فى الأرض حفر مستديرة عديدة. وعلى امتداد الجانب الشرقي من السور الرئيسي هناك ثلاث وحدات، هى H5 و H6 و H7 ولحاجتنا إلى استعمال مصطلح أفضل يمكن تسميتها «منازل»، غير أن السلسلة الحقيقية من الأنشطة التى كانت تتم داخلها وحولها ما تزال غير مؤكدة . ولكن ينبغي ملاحظة أنه فى المبنى H5 تحتوي الغرفة الرئيسية فى الجزء الشمالي على منصة منخفضة، من ذلك النوع الذى يشير عادة إلى غرفة النوم. إلا أنه على عكس الأمثلة المتأخرة، فإن هذه المنصة يميل سطحها من جانب لآخر. وفى الجانب الغربي، فى الطرف الجنوبي من الموقع، أزيلت الرمال عن منطقة مفتوحة كبيرة، مما يكشف عن خليط من الأبنية. وعلى الجانب الغربي من السور الرئيسي تجمع صف من البيوت الصغيرة جداً. ويحتوي المبنى H1 على منصة داخل فجوة فى الغرفة الوسطى ناحية الجنوب. ويحتوي المبنيان H2 و H3 على أفران وعلى ما قد يكون فرناً لحرق الفخار. وعلى طول الجانب الشمالي من المساحة التى أزيلت عنها الرمال يقع

جدار يحمي صفاً يضم اثني عشر فرناً أخرى لحرق الفخار. ويوحي هذا بالتدبير المحلي لجزء على الأقل من الحاجة الكبيرة إلى الأوانى الفخارية التى كانت المجتمعات القديمة تميل إليها دائماً. ويقع فى الجنوب مبنى يقوم بمفرده، هو H8 ، وربما كان منزلاً أو مبنى إدارياً. وهناك غرفتان فى الشمال بكل منهما فجوة بها منصة. ويقع مبنيان آخران، هما H9 و H10 ، على مسافة غير بعيدة. ويحتوى H9 على فرنين. ويتناثر على هذه المنطقة المفتوحة عدد كبير من كتل المرمر غير المستوية، إلى جانب قاعدة عمود من المرمر لم يتم تشطيبها. ويساعد هذا على تعريف الموقع بأنه جزء من معسكر عمل لتشييد الهرم. وتضم المساحة المفتوحة ذاتها مجموعة من الأبنية التى تعصى على التفسير. وهناك أربعة منها: أخاديد عريضة وغير عميقة تضم صفوفاً من القواعد المستطيلة المرصوصة بالقرب من بعضها وهى مشيدة من الحجر والملاط الطيني. ويتراوح طول القواعد بين ٩٥ و١١٠ سنتيمتراً وعرضها بين ٥٧ و٦٥ سنتيمتراً. ويصل إجمالي عددها إلى اثنتين وسبعين. ومهما كان الغرض منها، فيبدو أنها لم تدم طويلاً، ذلك أن المبنيين H9 و H10 أقيما فوقها.

وتضيف هذه الحفائر دليلاً آخر على صورة الجيزة باعتبارها موقعاً عملاقاً للتشييد. والسبب وراء بقاء معسكر العمل على هذه الصورة الجيدة، هو أنه دفن تحت كميات هائلة من النفايات الناتجة عن تكسير الحجارة الذى جرى فى أنحاء متفرقة من هضبة الجيزة. ويمكن فهم ظهورها المتأخر على المسرح – بعد هجر المعسكر – إذا نظرنا إليها باعتبارها بقايا تشييد أحد الأهرام التى أزيلت بعد الانتهاء من البناء وألقيت فى أقرب مكان متاح.

وليست كل مقالب النفايات فى الجيزة من كسر الحجر الجيري وتعد عقيمة من الناحية الأثرية. ففى الشرق والجنوب من معسكر عمل منكاورع تقع هوة كبيرة على امتداد الجرف الصخري وقد ملئت بصورة كبيرة بالنفايات. ومع أن ما يملأ هذا الجزء يبدو فى أول وهلة طبيعياً، فإن الجسات الأثرية توحي بغير ذلك. وكان بتري هو أول من أشار إلى أن هذه ليست بقعة طبيعية من الصحراء: «إن السطح بكامله مغطى بعمق أقدام كثيرة بكسر الأحجار الناتج عن المحاجر»[35]. ثم أنه فيما بين ١٩٧١ و١٩٧٥ قامت بعثة نمساوية (برئاسة ك. كرومر) بعمل جسات موسعة للحافة الشرقية،

حيث تصبح المنحدر الغربي للبروز الصخري الناتىء لمعبد الوادي الخاص بمنكاورع [36]. وقد أزيلت طبقات ضخمة من النفايات المنزلية الخاصة بالدولة القديمة، وهى التى تضمنت فخاراً ومصنوعات، دون أن تكون فيها أبنية. وتشير الجستان وسجل معسكر عمل منكاورع إلى احتمال أن الحافة الجنوبية من هضبة الجيزة بكاملها، وهى الجزء الأقل انخفاضاً، كانت موقعاً ضخماً لإلقاء النفايات التى تتكون فى جزء منها من ركام المنحدر وفى جزء آخر من مخلفات مواقع التشييد ومعسكرات العمل التى ألقيت هناك. وقد يوحي هذا بأن كثيرين عسكروا فى تلك المساحة، وبالتالي على الأطراف المحتملة لمنحدرات التشييد ومنطقة المرسى، وهو المكان الذى قد نتوقع فيه تركيز قدر كبير من العمل .

وهذه الجوانب الخفية إلى حد كبير من بناء الأهرام، حيث خلق مواقع التشييد والحفاظ عليها ثم إزالتها، ليست جوانب عديمة القيمة. فهى من وجهة النظر الإدارية ذات أهمية كبيرة إذا كانت العملية التى نحن بصددها تتضمن تشكيلاً وهندسة على قدر كبير من المهارة، أو نقل جبال من النفايات. فمنذ العصور القديمة وحجم أهرام الجيزة يعد معجزة، وكان الناس يتكهنون أعداد العمال المطلوبين وظروفهم. ولكن فى حين أنه قد يعد ضرباً من المبالغة أن نقول إن الأهرام التى نراها ليست من الناحية التنظيمية سوى قمة جبل الجليد، فإن علينا رغم ذلك أن نقر بأنه من الناحية الإدارية لم يكن الرص الفعلي للأحجار على شكل الهرم سوى عمل واحد من الأعمال العديدة الكبيرة والمؤثرة. ولو كانت لدينا بعض النصوص القديمة لوثقت الوسائل التى تمت بها تلبية الحاجات الإدارية. غير أنه مع ذلك قد لا تكون لدينا الصورة الكاملة. والنظر إلى الجوانب الأقل فخامة من آثار الجيزة أمر ضروري لفهم النطاق الكامل للإدارة الضرورية. ولا تكشف لنا دراسة النصوص القديمة إلا جانباً واحداً من جوانب الإدارة القديمة، وهو المتعلق بالوسائل الفنية التى أنجزت بها. ويقدم علم الآثار جزءاً من الصورة على قدر مساو من الأهمية. وفى هذه الحالة بالذات يقدم لنا كذلك مشكلة مثيرة للاهتمام تتعلق بالدليل: وهو علم الآثار الخاص بما لم يعد له وجود.

وكانت البيروقراطية فى العالم القديم أداة من أدوات الرفاهية من ذلك النوع الذى ظهر على السطح فى المناقشات الاقتصادية الحديثة، ويدور حول هذا السؤال: هل

الأشـغـال العـامـة التـى تقـتـضـي من الدولة تـوظيف أعـداد ضـخـمـة أمـر طيب؟ وتـخلط المناقشات الحديثة بين الاقتصاد والأيديولوجيا خلطاً شديد التعقيد، وتنطوي على درجة من المعرفة المجردة والقدرة على توجيه الاقتصادات ينفرد بها زماننا. ورغم ذلك فإنه حتى إذا رفضنا الإنفاق العام باعتبار أنه طريق حديث نحو الرفاهية، فإن علينا أن نعترف بأن جزءا من الخلفية التاريخية هو أن الاتجاه الأساسي للموارد الملتزمة بالمشروعات ذات العمالة المكثفة كان فى العصور القديمة هو محرك النمو العظيم، حيث خلق الكثير من حضارات العالم. وبالنسبة لقدماء المصريين، يمكننا إعادة بناء النظام بطريق شديدة التحديد. فيمكننا أن نرى الأعداد الضخمة من الناس تتلقى راتباً أساسيا - هو الحد الأدنى من الأجر - ومع ذلك كان عدد ليس بالقليل يحسن عمله. وكان عدد الوظائف (مع التأهل للحصول على الرواتب) يضخمه بطريقة مصطنعة أسلوب قديم للمشاركة فى العمل: وهو نظام القبيلة الذى يؤدي فيه الناس ما عليهم من واجبات لفترة محددة من كل سنة. وكانت الأرض والفلاحون مسخرين بمقتضى ضغط الطلب الذى يملى عليهم من أعلى كي ينتجوا ما يكفى. وكانت الدولة قد أصبحت بالفعل الممول الأكبر وكانت تنتج كل ما نرغب فى تسميته بحضارة مصرية. ودخلت الرفاهية (وكانت لا تزال بريئة من الأيديولوجيا الاجتماعية) التاريخ الإنساني فى وقت مبكر.

الفصل الرابع

مجتمعات نموذجية

رغم ما تتميز به البيروقراطية من الاهتمام بدقائق الأمور، فهي تتعامل بصورة متزايدة مع قطاعات كبيرة من المجتمع وتشكلها إلى حد ما. وفي الوقت الراهن غالباً ما يتم ذلك في مسعى متعمد لتحقيق أهداف اجتماعية بعينها، ولكي يكون جزءاً من عمليات «التخطيط» و«الهندسة الاجتماعية». ويحمل المشهد الحديث على مستوى العالم دلائل ذلك في حجم المدن والقرى وطبيعتها وتوزيعها، وكذلك في مظهر المباني المنفردة. وينبغي كذلك أن نتوقع وجود نظير لذلك في السجل الأثري للدول القديمة. ومع أن التوازن بين ما كانت تسمح به البيئة الطبيعية وعناد الإنسان وما تفرضه الدولة يميل أكثر بكثير ناحية ما تسمح به البيئة الطبيعية في العصور القديمة، فقد كان توازناً رغم ذلك. ونخطئ إن نحن تعاملنا مع المجتمعات القديمة على أن الطبيعة شكلتها تشكيلاً سلبياً.

إن خلق المباني والمستوطنات الكاملة لعمل سام يفرض النظام على البيئة الطبيعية. وأي مجتمع – حديثاً كان أم قديماً – يفعل ذلك، يترك بصمته وتوقيعه على الأرض. وهذا هو ما يقابله علماء الآثار في الغالب الأعم. فالسجل الذي تكتبه تلك الدول يتشكل حتماً باللغة المرئية الخاصة بالمخططات الأرضية – وهي لغة رمزية في حد ذاتها – التي كثيراً ما تعجز عن التحول إلى ما كان يقصده من بناها في الأصل (وحتى في المجتمعات الموثقة توثيقاً جيداً، كما هو الحال في مصر القديمة، يظل الأمر على قدر كبير من الصعوبة فيما يتعلق بتحديد الغرض المحدد الذي شيدت من أجله غرف منفردة ومبان بكاملها). غير أن هذا يظل أكثر الشهادات انتشاراً فيما يخص وجهاً بعينه من أوجه العنصر الإبداعي في المجتمع: وهو قدرته على تشكيل بيئته، وأكثر من ذلك قدرته على خلق رؤى خاصة بما ينبغي أن يكون عليه المجتمع الإنساني. والمكان الذي نعيش فيه –سواء أكان مدينة من الأكواخ أم مدينة من الفيلات الفاخرة– هو تعبير عن مجتمعنا. ورؤية أشكال المدن، قديمها وحديثها، على أنها صور مصغرة

المجتمع توفر لنا أمتن أساس لمقارنة المجتمعات عبر الزمان والمكان. ذلك أنه بينما يعد بقاء سجلات مكتوبة أمراً مرهوناً بالصدفة، وربما لا يكون هناك شيء بالمرة فى بعض المجتمعات. فعلم الآثار لديه سجل عالمي جيد جداً بالنسبة لإعادة المخططات وغيرها من المعلومات المادية الخاصة بالأماكن التى عاشت فيها المجتمعات فى يوم من الأيام.

إلا أننا إذا اعترفنا بأن الدليل فى حالة بعينها يشير إلى نموذج أساسي يتسم بالوضوح والثبات، فنحن حينئذ نعترف صراحة بوجود أيديولوجيا ما. وهى ليست بالضرورة أيديولوجيا تم وضعها والتعبير عنها بصورة رسمية كتلك التى رسمت صورة المُلك فى مصر، وإنما أيديولوجيا ضمنية للترتيب الاجتماعي.

ولابد أن تكون نقطة البداية التى ننطلق منها هى السجل المادي الذى تقدمه لنا مخططات المواقع القديمة. ولكن قبل أن ننظر إلى مدى انتشار الأدلة المصرية القديمة، علينا أن نواجه تلك المسألة الصعبة الخاصة بالجماليات المعمارية.

يُنشئ المهندسون المعماريون المحدثون مبانيهم على هيئة رسومات ونماذج صغيرة الحجم. وبذلك يمكن رؤية الانسجام المأمول للمنتج النهائي فى لحظة واحدة ومناقشته بكل ارتياح. ونحن لا نعرف إن كان المصريون قد قاموا بما يزيد على عمل خطوط سريعة للعمل فى مكان الإنشاء نفسه (الشكل 47)، حتى فى حالة المعابد الكبيرة، أم لا. وما يحتمل أنه كان شائعاً هو أن التخطيط والمناقشة كانا يتمان مباشرة فى الموقع بالحجم الطبيعي. وكانت الحبال والأوتاد وأدوات الرؤية البسيطة تحل محل المعدات الكتابية، بينما كانت الأرض تقوم مقام ورق البردي[14]. ربما كان ذلك يحتاج لجهد أكبر، إلا أن توفير العمال لم يمثل مشكلة قط. والواقع أن المخطط الذى يصبح مرئياً بالفعل فى أول الأمر هو شبكة الأساسات التى تكون تحت الأرض.

وأثناء العمل تتجمع ثلاثة عناصر معاً. فكان العنصر الأول هو النظام المحتمل للقياس على المسافات الطويلة، باستخدام حبل فيه عقد على مسافات محددة، كذلك الذى كان يستخدم للمساحة الأرضية. وعندما تصبح الأرض مستوية نسبياً، وتكون المبانى المزمع إنشاؤها مستطيلة، غالباً ما كانت تتكرر قياسات معينة. وكان العنصر الثانى هو سلسلة الأعمال التى كانت تُنجز فى كل مبنى، وكان التعبير عنها يتم على الأرض من خلال نمط من الحوائط (القواطيع) لخلق الغرف والممرات. وكان طبيعياً فى

تلك المرحلة ألا يحدد مواضع المداخل. أما العنصر الثالث فهو الإحساس الطبيعي لدى الجميع بالتناسق والانسجام الذى نمتلكه جميعاً ونستخدمه، على سبيل المثال فى تنظيم وضع قطع الأثاث فى غرف معيشتنا. وغالباً ما كان ينتج عن ذلك مخطط يبدو وكأنه ناتج عن درجة من التخطيط المتعمد القائم على المعرفة الرياضية الخاصة بتناسق النسب الطبيعية تزيد كثيراً عما كان عليه الحال فى واقع الأمر. ومن الممكن أن نأخذ، على سبيل المثال، تخطيط الدولة الوسطى لمدينة كاهون (سبق وصفه، وارجع إلى الشكل 53) وتحليله لبيان أمرين: الأمر الأول هو أنه يبدو أن وحدة قياس طولها ٨٠ ذراعاً، مقسمة إلى مربعات كل منها ١٠ أذرع، هى التى تحكم التنفيذ، والأمر الثاني هو أن مخطط المدينة بالكامل ومخططات المنازل تعكس التطبيق الواعي لقاعدة من قواعد التناسب تقوم على مثلث متساوي الساقين تكون النسبة فيه بين القاعدة والارتفاع هى ٨:٥، وهى النسبة أو القطاع «الذهبي» التقليدي فى التوافقيات الكلاسيكية[2]. ووجود هذه النسب فى كاهون وفى العديد من المباني المصرية الأخرى أمر يسهل بيانه. ولكن ما هو مشكوك فيه بشدة فى الواقع هو أن هذا يزيد على كونه محصلة الجمع بين استخدام الحبال المعقودة والإحساس الحدسي الخاص بالتناسق والتناسب .

معيار تصميم المدن القديمة

ظهرت المدن فى زمن الدولة القديمة (وفى بعض الأحيان قبل ذلك) فى أماكن كثيرة. وكان الشائع أن تكون المدن محاطة بسور سميك من الطوب اللبن، يتخذ فى بعض الأحيان مساراً منحنياً، وفى أحيان أخرى يكون مبنياً على هيئة قطاعات مستقيمة. والافتقار إلى التطابق فيما لابد أنه كان العمل الإنشائي الرئيسي فى المدينة – وهو سورها – يوحي بأن تلك الأسوار تمثل مبادرات محلية وليست نتيجة لمراسيم ملكية. إلا أنه سواء أصح هذا أم لم يصح، فقد كان للأسوار دور مهم فى تشكيل التصميمات الداخلية لكل مدينة على حدة. إذ إن المباني القريبة من سور المدينة غالباً ما كانت محاذية له، وربما استغلته ليدعم البناء بكامله. وربما تأثر اتجاه الشوارع المجاورة له تأثراً مشابهاً. وإذا كان سور المدينة مشيداً من سلسلة من القطاعات

المستقيمة، فحينئذ يكون من الطبيعي أن يضم داخل المدينة قدراً من الانتظام الداخلي. وأوضح مثال قديم هو هيراكونبوليس (شكل 48)[3]. فسور الدولة القديمة يحيط بمساحة غير منتظمة، ولكن من خلال سلسلة من القطاعات المستقيمة. وقد أجريت الحفائر فى شريط مائل عريض من المدينة، إلى جانب بضع بقع منفصلة. وفى إطار ما كشف عنه يمكننا أن نرى ميلاً واضحاً لدى الأسوار والشوارع الضيقة إلى اتباع اتجاهات متشابهة لمسافات معينة. ففى الطرف الجنوبي ما يحدد الاتجاه هو الجزء الجنوبي من السور. إلا أن ما يحدده فى وسط المدينة هو سور قصر قديم قائم ، غير أنه كان وقتها مهدماً. وما زال بالإمكان رؤية صفوف مشابهة من المنازل محاذية لأقرب جزء من السور فى الأجزاء التى اكتشفت من مدن الدولة القديمة والدولة الوسطى فى تل إدفو وأبيدوس[4].

هذا نظام نابع من التلاؤم الفوري، ومن التضليل أن نطبقه على مصطلح "التخطيط". وهو يختلف، كما سنرى بعد قليل، عن منتجات التخطيط العمراني فى أشياء كثيرة. فالتخطيط العمراني يميل إلى اتباع خطوط مقررة سلفاً تتجاهل الطبوغرافية، للمحافظة على الخطوط العامة على مسافات شديدة الطول، ولبيان وحدات بناء قياسية متكررة، وعلامات الالتزام بالتخطيط فى تصميمات الأجزاء الداخلية من المباني.

مدن الأهرام في الدولة القديمة

يغطي الشك الكبير بشأن المسئول عن المبادرات فى تطوير المدن الإقليمية على مسألة مدى اهتمام الدولة فى الدولة القديمة بالتخطيط العمراني. ولحسن الحظ أن هناك مجموعة من النماذج التى تقدم الإجابة الشافية.

لا تنتهى الحياة المنظمة فى مواقع الأهرام باستكمال المباني الحجرية ودفن الملك. فمن المصادر المكتوبة الخاصة بالدولة القديمة نعلم بوجود «مدن الأهرام»، التى كان يرعاها تسلسل هرمي من الموظفين[5]. وهناك ما يصل عددها إلى أربعة وعشرين لقباً مختلفاً للمسئولين تم تسجيلها، وإن كان بعضها نادراً. وحيثما وضعت هذا الألقاب

حسب الترتيب، فغالباً ما يأتي على رأسها كاهن أكبر، أو «مشرف على المدينة». ويقدم أرشيف نفر ار كا رع الذى تفحصناه فى الفصل السابق تفاصيل كيفية إدارة مدن الأهرام. فكيف كانت ممثلة على الأرض؟

ويعرفنا أرشيف نفر كا ار رع على مجتمع مشغول بتدريبات إمساك الدفاتر اليومية المفصلة فى واحد من الأهرام بأبي صير. وهذا مكان يستحسن البدء منه. فمعظم الآثار القديمة فى أبي صير أجرت الحفائر الخاصة بها بعثة ألمانية فيما بين ١٩٠٢ و١٩٠٨ (الشكل 49)[6]. وكما هى العادة، كان هناك معبد جنائزي شيد قبالة الجانب الشرقي من الهرم. وكان المعبد يتكون من التجميع المعتاد لغرف العبادة، والمخازن، والفناء الأمامي ذى الأعمدة، والمدخل من ناحية الطريق الصاعد. وكان مبنى فقيراً فى تشطيبه، حيث كان الفناء الأمامي ومعظم المخازن من الطوب وكانت الأعمدة من الخشب. وحدث أن أضيف ملمح غير معتاد عند تغيير مسار الطريق الصاعد لخدمة الهرم الملحق الخاص بالملك ني أوسر رع: وهو مدخل رسمي مغطى ذو أعمدة. وتزامن هذا التغيير مع بناء سور داخلي من الطوب اللبن. وشُغلت المسافة بين هذا السور والأجزاء الحجرية من المعبد بمبانى من الطوب اللبن. ويبدو أن بعضها كان منازل. وقد يكون لدينا بعض الشك فى أنها كان تخص جماعة الكهنة الرسميين وغيرهم ممن كانوا يتولون رعاية العبادة الجنائزية الخاصة بالملك نفر ار كا رع. ويمكننا التعرف من التخطيط على ما قد لايزيد على تسعة «منازل». ولا بد أنها فى الأماكن التى كان الكتبة والكهنة وغيرهم ممن فى الخدمة يقيمون فيها، بينما القيام بكل المهام مسجل بقدر شديد من الدقة فى البرديات. وهذا هو الدليل الوحيد الذى عثر عليه حتى الآن عن شغل المنطقة المحيطة بأبي صير، غير أن حجمه الصغير ومظهره شديد التواضع يتطابق مع أدلة من مواقع أخرى. فهو كمثال للمجتمع النموذجي يقع ضمن فئة «البعيد عن العين بعيد عن القلب». وعنصر النظام الوحيد يمثله السور الذى يتطابق مع الجزء الخارجي التذكاري للهرم، ويخفى عن العالم الخارجي مجموعة المنازل المكدسة داخله.

وربما أوت هذه «المدينة» جماعة صغيرة وحسب، ربما يقل عددها عن هؤلاء الذين يظهرون فى قوائم أرشيف نفر كا ار رع. إلا أننا لا بد أن نتذكر أن أفراد المعبد كانوا

يعملون فيه لمدة شهر فى السنة على فترات دورية فقط. وربما كانت البيوت الدائمة لهؤلاء الناس فى أماكن أخرى. والشيء الذى ينقصنا بشدة دليل مباشر عليه هو إذا ما كانت بيوتهم الدائمة فى قرى قريبة قد نشأت بصورة تدريجية، أو إذا ما كانت الدولة قد قدمت لهم جميعاً مدينة مخططة تخطيطاً تاماً هى الآن مفقودة تحت الحقول. والأمر الأول هو الأكثر احتمالاً لأن يكون صحيحاً.

ويمثل الموقع نفسه مشكلة واجهتها كل الدول التى تقيم مبانى فخمة: وهى الصيانة. فمع نهاية الدولة القديمة كانت مصر لديها أكثر من عشرين هرماً بمعابدها المتصلة بها، وكانت مشيدة بدرجات متفاوتة من المتانة (ولم يكن الانتهاء منها جميعاً قد تم). وكان معبد نفر كا ار رع واحداً من النماذج التى بنيت بطريقة أقل قوة. وخلال زمن «المدينة» الخاصة به أُصبحت الأسقف خطرة ووهنت الأعمدة الخشبية، وهو بلا شك ما أدى إليه هجوم النمل الأبيض الذى سرعان ما حول انتباهه إلى الأشغال الخشبية فى المواقع الصحراوية. وكان رد فعل الكهنة (الشكل 49) هو صَلب الأجزاء المهددة بحوائط من الطوب اللبن وإغلاقه. وأدى ذلك إلى تشويه المبنى تشويهاً شديداً، وإلى طمس الأعمدة المحيطة بالفناء الأمامي، غير أنه يفترض أنه أدى الغرض منه.

من هذا، وكذلك من المعاملة غير اللائقة لمعبد الوادي الخاص بمنكاورع من جانب كهنته كما سنوضح بعد قليل، فإننا قد نستنتج أنه لم تكن هناك سياسة عامة نحو صيانة رصيد المباني التاريخية ولا وسائل لتمويله. وفى وقت من الأوقات كان جزء كبير من هذه المباني إما أن يهجر أو يصبح نهباً للإهمال. ونقرأ فى بعض الأحيان عن ملوك يدفعهم الوازع الديني إلى ترميم معابد بعينها. بل إننا نجد أن ابن رمسيس الثاني، الكاهن خع ام وس، كان مهتماً بترميم بضعة مواقع قديمة للأهرام[7]. غير أن تلك كانت عملية مجزأة لم يكن بإمكانها أن تساير التعرض للزوال. وجاء التحسين الرئيسي مع قدوم الدولة الحديثة، عندما اتبعت سياسة عامة للاستعاضة عن المعابد القديمة فى المدن بأخرى جديدة مشيدة بالحجر. غير أن المواجهة غير المتكافئة مع الزمن كانت لا تزال ملحوظة. فقد كتب شاعر من تلك الفترة، مبجلاً مقابر الحكماء المشهورين الذين كانوا يذكرون لتعاليمهم:

تداعت بواباتهم ودورهم،

واختفى كهنتهم الجنائزيون؛

وغطت القاذورات شواهد قبورهم،

ونسيت أرماسهم.

بيد أن اسمهم تنطق به كتبهم،

تلك التى وضعوها وهم أحياء[8].

ولنعد من جديد إلى مدن أهرام الدولة القديمة: فبأهرام الأسرة الخامسة فى أبي صير كانت ذروة الضخامة فى تشييد الأهرام قد انتهت تماماً. فهل باستطاعتنا إيجاد المزيد من الآثار المهمة فى الجيزة؟

يقع ذلك الجزء من مدينة الموتى بالجيزة، الذى تم العثور فيه على ما يدل على مجتمعات الأهرام عن طريق الحفائر، إلى الشرق من هرم الملك منكاورع من الأسرة الرابعة، فى اتجاه سفح الهضبة الصحراوية المنخفضة، حيث تبدأ الأراضي الزراعية فى التداخل معها. وهناك جزآن منفصلان يبدو بعد إجراء الحفائر فيهما أنهما يدخلان فى ذلك: أحدهما شيد فى معبد الوادي الخاص بهرم منكاورع وما حوله، ويجاور الموقع الآخر المقبرة الكبيرة الخاصة بالملكة خنت كاوس الكبيرة، وهى إحدى الشخصيات المهمة فى الأسرة الرابعة. وسوف نعاين الموقع الأخير أولاً (الشكل 50).[9]

أقيمت مقبرة الملكة خنت كاوس حول مكعب صخري منحوت، كان بمثابة منصة مستطيلة منفصلة. وقد تم رفع هذه الصخرة بواسطة بناء ضخم شيدوه. وتقع فى الركن الجنوبي الغربي حفرة لوضع قارب جنائزي من الخشب. وحفر المعبد الجنائزي فى الواجهة الشرقية من المنصة الصخرية. وامتد فى المسافة من أمام المدخل حتى المعبد الجنائزي مجمع من الطوب اللبن ضيق وطويل، بطول ١٥٠ متر من الغرب للشرق. ويمتد على طول الجانب الجنوبي منه شارع مزدوج، بينما يمتد شارع مفرد على الجانب الشمالي. ويميز الحدود فى هذين الجانبين سور سمكه ٢,٥ متراً. ويمتد ناحية الشرق ملحق طوله ٨٠ متراً وعرضه ٤٠ متراً، مما يجعل تخطيط المجمع على شكل حرف L . ويمكن رؤية العديد من المداخل فى السور. ويمر الشارع المتجه شمالاً

فى واقع الأمر تحت الشارع الشرقي الغربي من خلال نفق باستخدام درجات سلم فى الشمال وطريق صاعد فى الجنوب. ويحتوي الجناح الشمالي على صف من أحد عشر مبنى منفصلاً، ربما كان معظمها منازل. ويتكرر التخطيط نفسه فى حالات عديدة مع بعض التعديلات الطفيفة، ربما أحدثتها التغييرات التى قام بها شاغلوها. وفى الوسط هناك ست وحدات من المنازل ذات التخطيط المشابه، حيث كل منها عرضه ١٢ متراً وطوله ١٥ متراً. وتبين مخططات المنازل أن هناك تشابهاً مع تلك الموجودة فى المواقع الأخرى من الدولة القديمة وكذلك من الدولة الوسطى. ويبدو أن سهولة الوصول داخل الغرف المستطيلة المتداخلة تأتي غالباً في المرتبة الثانية بعد الخصوصية والأمن، حيث تؤدي إلى استخدام الممرات، والغرف المؤدية إلى غرف أكبر منها، والدورانات العديدة، مما يخلق تصميماً معقداً. ويمكن التعرف فى معظم المنازل على غرفة وسطى توصل عادة إلى ثلاث غرف غيرها. وليست هناك أية دلائل على أن الأسقف كانت محمولة على أعمدة. وكانت باثنين من المنازل صوامع غلال مستديرة: واحدة فى المنزل الثالث من الغرب، وأربع فى المنزل السادس من غلال. وكانت الغرفة الوسطى فى الخلف (أو الجنوب) تقوم مقام المطبخ، الأمر الذى يقرره وجود أفران ورماد.

ويحتوي الجناح الجنوبي من مستوطنة خنت كاوس على ما لا يقل عن أربعة مبانى منفصلة ربما كانت مقراً للإدارة. ففى الجانب الشمالي من مساحة مفتوحة فى الوسط توجد مجموعة من صوامع الغلال المستديرة. وكان الوصول إلى هذا المكان يتم عبر درج سلم فى الغرب، وهو ما يعكس الانحدار من الصحراء. وإلى الشمال من هذا الفناء يقع فناء آخر يحتوي فقط على حوض مستطيل الشكل منحوت فى الصخر. وحال وجود جبانة حديثة دون إجراء المزيد من الحفائر فى الجزء الجنوبي والجنوبي الشرقي من المدينة. غير أن الجسات العميقة كشفت عن وجود جدران من الطوب على مساحة كبيرة، ولكن على أعماق تصل إلى ٦ أمتار تحت مستوى الأرض الحديثة.

والواقع أنه ليس هناك سبب واضح للمخطط الذى يأخذ شكل حرف L ، وإن كان لابد أن نتذكر أنه، طبقاً لإعادة إنشاء التصميم القديم لهضبة الجيزة بكامله الذى ناقشناه فى الفصل السابق، ربما كانت أرصفة وأحواض منطقة استقبال مواد البناء تقع على مقربة وكانت تمثل حداً للمبنى المتجه شرقاً. غير أن ما فعله هو أنه جعل الامتداد الجنوبي على اتصال تقريباً بموقع آخر ذي صلة وعلى قدر كبير من الأهمية: وهو معبد الوادي الخاص بالملك منكاورع (الشكل 51)(10).

وكان تخطيط مهندسي منكاورع أن يكون معبده الجنائزي ومعبد الوادي الخاص به مشيداً حسب التقليد الضخم السائد. ولكن ربما مات الملك في سن مبكرة واستكمل المبنى بالطوب اللبن. ولم يعثر في معبد الهرم نفسه على الهضبة بجوار الهرم على أثر لأي مستوطنة مصاحبة كتلك التي في أبي صير، إلا أن المنطقة المحيطة لم يتم كشفها بصورة كبيرة. ونحن نعرف أن المعبد الجنائزي كان لا يزال مستخدماً حتى أواخر الدولة القديمة من شذرات نقشين، ربما كانا مرسومين، يحملان اسم الملك مرنرع من الأسرة السادسة.

وكان بناء معبد الوادي قد استكمل بالطوب اللبن، وكان يحتوي على فناء أوسط يحيط به سور مزين بفجوات بأسلوب واجهة القصر ذات البوائك (الشكل 51، المرحلة 1). وخارج الواجهة الأصلية جعلت إضافة رسمية من الطوب، وهي التي وجهت المدخل نحو الشمال، في اتجاه الفراغ الذي يفصله عن مدينة الملكة خنت كاوس. وكانت تواجه كذلك طريقاً مرصوفاً بالطوب يأتي من ناحية الشرق. وهناك مدخل له مظلة تقوم على عمودين يؤدي إلى مجاز ذي أربعة أعمدة. وكان هذا بدوره يؤدي إلى فناء يقطعه بميل ممر من بلاطات الحجر الجيري يمتد في الأصل إلى مبنى معبد الوادي الخاص بمنكاورع. وكانت هناك ممرات وفراغات تقع وراء ذلك، ناحية الجنوب. غير أنه بنيت فوق هذه المنطقة مساكن صغيرة، في أماكن تقع فوق تراكمات النفايات. وكانت تقع إلى الجنوب من تلك المساكن صوامع مستديرة من الطوب لتخزين الغلال.

وعقب استكمال معبد الوادي نفسه بالطوب، بدأت المنازل تنتشر داخل الفناء الرئيسي. فقد شيدت أعداد من مخازن غلال مستديرة الشكل، حيث كانت تكثر في اتجاه الجانب الشمالي من الفناء الأصلي. وابتداء من هذه النقطة ترك معظم المعبد، ما عدا قدس الأقداس، نهباً للفناء. وفي بعض الأماكن دمر تدميراً فعلياً لتوفير مساحة لتوسيع المستوطنة، التي دفنت شيئاً فشيئاً الأجزاء السفلى من المعبد تحتها. ويبين التخطيط أن الجدران أقيمت على خرائب مردومة، وخاصة على الجانبين الجنوبي والجنوبي الغربي، حيث تعلو المنازل السور القديم. وعثر من قاموا بالحفائر على قدر كبير من معدات المعبد التي كانت لا تزال موجودة في المخازن الأصلية، حيث كانت مدفونة تحت الرمال والركام. وكانت ضمن هذه الفئة الثلاثيات الخاصة بالملك وغيره

من الشخصيات ، وهى مصنوعة من الشقف وتمثل بعض أجمل أعمال مثالي الدولة القديمة. وقد عجلت بالخراب عاصفة مفاجئة ضربت مؤخرة المبنى. وأعقبت ذلك محاولة للتجديد، ولكن ذلك تم فوق الركام. واعترفت هذه المحاولة بوجود المستوطنة وأحاطتها بسور جديد. كما شيدت بوابة داخلية وقدس الأقداس من جديد فى الموقعين القديمين. ولذلك فإن أي إنسان يريد بلوغ قدس الأقداس كان عليه أن يمشي من البوابة بين مجموعتين من الأكواخ والصوامع.

وقدس الأقداس الجديد له مجاز ذو أربعة أعمدة. وكانت تلك الأعمدة من الخشب وتقوم على قواعد من الحجر الجيري. وعلى الأرضية الطينية وضعت أربعة تماثيل جميلة بالحجم الطبيعي لمنكاورع، اثنان منها على كل جانب من جانبي الباب المؤدي إلى الغرف الداخلية. ووجدت مائدة قرابين قدس الأقداس الذى أعيد بناؤه سليمة إلى حد ما. وهى تتكون من مذبح ارتفاعه حوالي ٥٠ سنتيمتراً عبارة عن بلاطة متآكلة من المرمر موضوعة على حجرين خشنين قائمين. ويقع بجوارها حوض بسيط لتلقي دم الضحية. وبالقرب منه كانت هناك أربعة تماثيل من الديوريت للملك لم ينته العمل فيها ملقاة على جوانبها. وربما كانت فى واقع الأمر تقوم على المذبح وكانت موضوع عبادة التقديم فى تلك المرحلة الأخيرة من وجود المعبد.

إن تاريخ وظروف هذه العبادة التى كانت بالكاد تؤدي الغرض، لكونها تتم فى قاعة قذرة فى مؤخرة قرية مكدسة من الطين (داخل سور وبوابة جعلاها بالفعل قرية محصنة) تتضح من مصدرين. ويرتبط أحد المصدرين بالمادة الأثرية التى يبدو أنها لا تمتد إلى ما بعد نهاية الدولة القديمة. أما الآخر فهو مرسوم للملك بيبي الثاني من الأسرة السادسة عثر عليه فى ركام أرضية البوابة الداخلية. ويستثني المرسوم مدينة الهرم من بعض الالتزامات، ويعين مسئولاً لها. وهو يبين أن هذا الموقع كان يعتبر من الناحية الرسمية جزءاً من مدينة الهرم في تاريخ قريب جداً من نهاية الدولة القديمة. ويبدو أن الموقع هجر بعد ذلك وتوقفت عبادة الملك منكاورع توقفاً تاماً.

ويكشف التاريخ الكامل لهذه المستوطنة مقدار عظم الفجوة التى يمكن أن تكون بين النوايا والممارسة، وبين منتجات الصنعة المتفوقة والطريقة التى تعامل بها، وبين العالم الداخلي للنظام البيروقراطي والواقع القاسي فى الخارج. وكان ذلك تطبيقاً

لفلسفة «البعيد عن العين بعيد عن القلب» مع ضرب من الانتقام. ويبدو أن جانب خنت كاوس ظل خالياً من هذا الاضطراب، ولكن ربما كان السبب هو أنه شُغل لفترة قصيرة إلى حد ما.

ولم يكن منكاورع حالة غير عادية. فمعبد الوادي الخاص بالملك سنفرو من الأسرة الرابعة فى دهشور يمثل توضيحاً آخر لنفس الفلسفة (الشكل 52)[11]. وهنا نرى بقايا معبد من الحجر الجيري يحمل نقوشاً بارزة محفورة بدقة (تشمل حاملات القرابين اللاتي فى الشكل 40). وهو يقوم داخل سياج مستطيل يحدده سور من الطوب اللبن، تاركاً فراغاً قدره ١٥ فى ٤٨ متراً على الجانب الجنوبي. وكانت تلك المساحة تشغلها منازل الجماعة التى تخدم المعبد، وبذلك تخلق «مدينة» هرم أخرى. ويبدو أن ما مجموعه خمسة عشر منزلاً كانت موجودة، وكانت توفر المأوى لمن قد يصل عددهم إلى مائة شخص إذا كانت تشغلها أسر.

وتبدأ البيروقراطية بفرض النظام على مناطق محددة من النشاط. ويمكن أن ينمو مجال السيطرة ويصبح العامل الأساسي فى وجود المجتمع. وإذا ربط هذا بتخطيط معماري، فإن «المدينة النموذجية» تأتى إلى الوجود. والدليل المتاح يشير إلى أنه فى الدولة القديمة كان هذا الربط لا يزال فى مهده. وكان هناك مكونان على هيئة الجبانة الملكية المخططة وخلق المدن الجديدة، وخاصة عند الأهرام نفسها. غير أن مدن أهرام الدولة القديمة – وهى النماذج التقليدية للمجتمعات التى زرعتها الدولة عمداً – تبين أن المحتمل كان يتحقق فقط بدرجة محدودة، وكانت تمثله فيما وصلنا من أدلة مدينة الملكة خنت كاوس، التى لم تعش طويلاً، وحدها. لقد ترك الأمر للدولة الوسطى كى تتولى دمجها دمجاً كاملاً.

التخطيط فى أعلى درجاته: مدينة كاهون من الدولة الوسطى

فى سنة ١٨٨٩ أطلق الأثري البريطاني فلندرز بتري اسم «كاهون» على إحدى مستوطنات الدولة الوسطى فى المنطقة المتاخمة لبلدة اللاهون الحالية، القريبة من مدخل منخفض الفيوم (الشكل 53)[12] وهى تقع عند الحافة المرتفعة من الصحراء،

وقد ضاع جزء منها بسبب التوسع الجانبي للزراعة منذ العصور القديمة. ويتضح طابع المدينة والغرض منها من سياقها. فبجوارها يقع معبد لم يكن سوى خرائب فى وقت بتري، ويتضح من موقعه أنه كان معبد الوادي الخاص بهرم الملك سنوسرت الثاني الذى يقع على مسافة ١١٨٠ متراً إلى الغرب. ومن الواضح أن المدينة التى تأخذ نفس اتجاه الهرم تعد مثالاً كبيراً غير عادي لمدينة «الهرم»، وكانت تُؤوى الكهنة والأشخاص العلمانيين المسئولين عن العبادة الدائمة الخاصة بالملك المتوفى. وهذا هو ما تؤكده البرديات التى عثر عليها فى المدينة، ذلك أنها تتضمن جزءاً من الأرشيف الإداري للعبادة الجنائزية. وهى تعرفنا كذلك على الاسم القديم للمدينة، وهو حتب سنوسرت («الملك سنوسرت ينعم بالسكينة»).

إلا أن حجم كاهون أكبر بكثير من حجم سائر مدن الأهرام، وإن كان لا بد من الاعتراف بأن قاعدة المقارنة صغيرة. غير أنه طبقاً للمقياس العام للمدينة القديمة، تبرز كاهون كذلك كمدينة مهمة فى حد ذاتها. وربما كانت وظائفها لهذا السبب تتعدى بكثير مجرد إيواء العمال الذين شيدوا الهرم والكهنة وغيرهم ممن كانوا يقيمون شعائر عبادة الملك سنوسرت الثاني. وخرج الكثير من البرديات الإدارية من كاهون، غير أن الباحثين استغلوها بطريقة محبطة لإعادة بناء أنشطة المجتمع ككل. وأحد أسباب ذلك هو أن البرديات وجدت فى مجموعتين بالقرب من نهاية القرن التاسع عشر، وما تزال واحدة منهما لم تنشر نشراً كاملاً[13]. وتمثل المجموعتان أرشيفين مختلفين تمام الاختلاف بينهما القليل جداً من نقاط الاتصال. ويعود هذا فى جزء منه إلى أنهما تعودان إلى فترتين مختلفتين فى الدولة الوسطى. أما السبب الأكبر فهو أنهما تعكسان منطقتين مختلفتين من مناطق الحياة المنظمة. وجاءت إحدى المجموعتين من معبد العبادة الملكية وتهتم بتنظيم المعبد وأفراد المعبد، وبينما جاءت الأخرى من المدينة وتتناول حياة وأعمال مجتمع أكثر اتساعاً لا يقوم على النشاط الكهنوتي فحسب، وإنما على مناطق اهتمام كثيرة غير متصلة بهذا النشاط. والواقع أن بضع وثائق تتناول العمل الواقع خارج كاهون بالمرة، فى مشروع تشييد خاص بالملك سنوسرت الثالث - ربما كان جزءاً من مجمع الهرم الخاص به. وكان قيام مجموعات من الرجال بجر الأحجار هو موضوع العديد من البرديات، وكذلك زراعة الأرض التى تخص الكهنة وضياع المعبد

وقياسها. وليس معروفاً إن كانت كاهون تضم أناساً يقومون بأعمالهم الزراعية الخاصة بهم أم لا. غير أننا قد نكون فى سبيلنا لأن نسير فى طريق تفكير خاطىء: فربما كانت مدينة الهرم ذات الأبعاد العمرانية الكاملة والاعتماد الإداري الداخلي التام تتناسب مع مطامح الملك.

والمدينة مربعة الشكل تقريباً، وقياسات جوانبها هى ٣٨٤ متراً فى الشمال، و٣٣٥ متراً فى الغرب. وتنحدر الأرض انحداراً تدريجياً من الركن الجنوبي الشرقي فى اتجاه الركن الشمالي الشرقي، حيث تكون أعلى ما يسمى بالأكروبول. ويفصل جدار سميك الجزء الرئيسي من المدينة عن القطاع المنفصل فى الغرب. والسبب وراء هذا التقسيم غير معروف. ولا يبدو على السور المحيط بها أي أثر للتحصين. ولم تبق سوى بوابة واحدة، هى تلك الواقعة فى الاتجاه الشمالي الشرق. وربما كانت الغرفة المعزولة الواقعة داخل البوابة مباشرة تؤوى حارساً، إلا أننا لا نرى أية حماية إضافية عند البوابة. وإذا صدقنا مخطط بتري، فإن البوابة عرضها متران.

ومخطط المدينة داخل الأسوار متعامد على بعضه تعامداً صارماً. فالجانب الشمالي من الشارع الرئيسي المتجه من الشرق للغرب مقسم إلى سبع وحدات رئيسية، مع وجود ثلاث وحدات أخرى على الجانب الجنوبي. والوحدة الواقعة فى أقصى الغرب تقوم على بروز طبيعي من الصخر نحت على هيئة منصة لها جوانب رأسية ترتفع فوق المدينة ناحيتي الشرق والجنوب. والآثار القليلة جداً الباقية من الجدران فوق القمة توحي بأنها لم تكن مختلفة عن الوحدات الكبيرة الأخرى. إلا أن الوصول إليها كان يتم من خلال درج سلم رائع منحوت فى الصخر. ويبدو أن الوحدات الأخرى كانت بها منازل كبيرة (الشكل 54). ومعظمها قياسه ٤٢ × ٦٠ متراً.

وكما هو معتاد بالنسبة للمباني المصرية، فإن مركز اهتمام هذه المنازل الكبيرة يكاد يكون الجزء الداخلي وحده. وحسبما يدل المخطط، فإن أجزاءه الخارجية تبدو واجهة من الطوب خالية من أي شيء ولا يقطع اتصالها سوى فراغات الأبواب. وكان ذلك سيخلق تأثيراً سيئاً لو كان ترك خلواً من النقوش من أي نوع. ومن حسن الحظ أن لدينا مصدراً آخر يدل على ما كانت عليه منازل الدولة الوسطى الكبيرة فى الواقع. فهناك نماذج معاصرة بصورة أو بأخرى من المنازل مدفونة فى المقابر، وخاصة تلك

التى عثر عليها فى مقبرة مكيت رع فى طيبة، وهى تعود إلى الأسرة الحادية عشرة. وتمثل نموذج الخبيز وتحضير الجعة المذكور فى الفصل السابق(14). والأجزاء الخارجية من نموذجي منزل مكيت رع (الشكل 54)، وكذلك الجدار الداخلي المواجه للحديقة، به ثلاث بوائك مستطيلة. والبائكة الوسطى بها مدخل المنزل. والمدخل له مصراعان محوريان ومقوى بدعامتين أفقيتين ومؤمن بمزلاج فى الوسط. وفى الجزء الأعلى من البوابة حلية على شكل الرمز الهيروغليفى «جد»، وهو عبارة عن جذع شجرة ويستخدم فى كتابة كلمة «استقرار»، مع وجود حزمتين من زهور اللوتس وسط الجزء الأعلى. ولا يمكننا أن نعرف من النموذج إن كان ذلك الجزء العلوي عبارة شراعة منحوتة، أم مجرد حلية ملونة فى الملاط الطيني للواجهة. وإلى اليمين من هذا على الجدار الخارجي هناك مدخل جانبي، ذو مصراع محوري واحد ولا تحيط به أية نقوش. وإلى اليسار هناك ملمح مستطيل آخر يبدو أنه نافذة طويلة مشبكة ذات فتحات ضيقة تسمح بمرور الهواء والضوء الخافت، إلا أنه من المفترض سدها بسهولة عند هبوب الرياح التى تحمل معها الغبار. ويمكننا على سبيل التجربة إضافة هذه التفاصيل لجوانب الشارع الرئيسي فى كاهون فنضفى عليها بذلك شيئاً من الحياة.

والمخطط الداخلي لمنازل كاهون الكبيرة على قدر شديد من التعقيد. فهو يدل على اهتمام كبير من جانب من شيدها بأن يتمسك أشد ما يكون التمسك بالخط الخارجي المستطيل الذى لا يقطعه شيء، ويملء الجزء الداخلي بنسق مكثف ومعقد من الفراغات المستطيلة المتداخلة، مستغلاً فى كثير من الأحيان الحل الملتوي لمشكلة الوصول للغرف. والنماذج المستطيل شديدة الانتشار، ويبدو أنها تتناسب مع الطابع البيروقراطي ذي البنية المكثفة للدولة فى الدولة الوسطى، كما تدل على ذلك مصادر كثيرة.

ومن الفحص الدقيق لمخططات بتري، يمكننا التعرف على التقسيمات الأساسية العديدة. ويبدو أن الجزء السكني – وهو البيت نفسه – هو الجزء الأوسط من الغرف والأفنية. والوحدة ككل يكون دخولها من ناحية الشمال عبر ممر طويل يمر بمحاذاته، ويوصل إلى فناء الحديقة فى الجانب الشمالي. وكان يظلل هذه الواجهة الداخلية الشمالية من المنزل بهو أعمدة. وحيث إن المنازل على الجانب الجنوبي من الشارع، يبدو أن هذا الفناء الداخلي يقع غالباً فى الوسط من المبنى. وإذا استقطعنا قلب البيت

هذا بالإضافة إلى فناء حديقته وبهو الأعمدة، فسيكون لدينا في المقام الأول ما هو ممثل في نموذجي منزلي مكيت رع: وهو منزل ذو مدخلين رسميين في الأمام والخلف (اختصرا في هذين النموذجين إلى طبقة واحدة من الخشب)، بجوار حديقة مسورة، والواجهة الداخلية للمنزل يظللها مجاز ذو أعمدة. ويضيف نموذجا مكيت رع تفاصيل أخرى (انظر الشكل 54): وهي بركة وسطى تحيط بها الأشجار وأسوار الحديقة والمجاز المظلل مطلي بسنل أسود عريض فوقه إفريز ذو أشرطة زرقاء وصفراء وبيضاء يعلوها شريط أبيض أعرض منها. وفي المدخل صفان يضم كل منها أربعة أعمدة خشبية محفورة و طلية، وهي تقوم على قواعد مطلية باللون الأبيض على هيئة حزمة من سيقان نبات البردي، والصف الأول على هيئة براعم زهور اللوتس المربوطة مع بعضها وبها أشرطة ـنة باللونين الأحمر والأزرق. والعارضتان الخشبيتان اللتان تحملها مزينتان بالنجوم، بينما حفر السقف الخشبي الذى بينهما كي يمثل فلوق جذوع النخيل، وهو مطلي باللونين الأخضر والأحمر. والمجاز المظلل نفسه له سقف مستوى حاجزه الأمامي تخترقه ثلاثة مزاريب لماء المطر مطلية باللون الأبيض، إشارة إلى الحجر الجيري.

وفي الجزء الداخلي من منزل كاهون يمكن التعرف على غرفة استقبال يقوم سقفها على أربعة أعمدة. وإلى الغرب منها فناء صغير ذو أعمدة يحتوي على خزان حجري في وسط الأرضية. وتصور مخططات بتري كذلك مواقع تتراجع فيها جدران إحدى الغرف في أقصاها لتخلق فجوة. وتبين الأدلة اللاحقة أن مثل هذه الفجوات كانت لوضع الأسِرَّة في غرف النوم الرئيسية. وإذا صدق هذا على كاهون، فإن غرفة نوم رئيسية واحدة كانت موجودة في الجزء الداخلي من المنزل الرئيسي، غير أنه كانت هناك غرفة أخرى ناحية الغرب، فيما يبدو أنه ملحق سكني له فناؤه الخاص به. وسوف نناقش الغرض المحتمل من هذا الملحق بعد قليل.

والمنزل الرئيسي محاط من ثلاث جهات بمجموعات من الغرف والأفنية الصغيرة، وهي تشكل أجزاء من ضيعة حضرية. وبالنسبة لمجموعة واحدة فقط يمكننا من المخطط مباشرة تحديد الوظيفة المنوطة بالمبنى. فمن المؤكد تقريباً أن مجموعة من الغرف المربعة المتصلة ببعضها في الشمال الشرقي بفنائها الواقع أمامها مخزن

للحبوب. وتوجد مخازن غلال مماثلة فى بعض الحصون النوبية التى نتناولها فى جزء لاحق من هذا الفصل. ويعكس وجودها طابع الاقتصاد المصري الذى يقوم على السلع. ويضم نموذجا مكيت رع كذلك مخزن غلال ممتازا مصمما بطريقة مخزن كاهون. وفى هذا المخزن يؤدي المدخل إلى ممر طويل، وهو يضم نماذج حارس بوابة، وأربعة كتبة مع صناديق الوثائق، ومشرف ومساعده، وثلاثة عمال يكيلون الحبوب السائبة بمكيال الحقات قبل تعبئة الأكياس. ويؤدي باب من الممر إلى غرفة تحتوي على درج سلم يصعد إلى ممشى عريض على سطح ثلاث غرف مربعة متصلة ببعضها تخزن فيها الغلال.

وإجمالي سعة مخازن الغلال فى منازل كاهون الكبيرة ضخم جداً. ويسهل علينا من خلال مخططات بتري أن نقيس مساحات غرف التخزين المختلفة. وبالنسبة للارتفاع، تعد بعض الحصون النوبية دليلاً مباشراً: إذ إن ارتفاعها ٣,٤ متر. إلا أن مخازن الغلال النوبية كانت أكبر إلى حد ما، وبذلك يمكننا أن نفترض رقماً أقل بالنسبة للارتفاع المملوء وهو ٢,٥ متر. فما هو مقدار الغلال التى يمكن أن تحتويها؟ بل إن هناك سؤالاً أهم: وهو كم عدد الأشخاص الذين يمكن أن توفر لهم الطعام حسب متوسط الرواتب التى حسبناها فى الفصل السابق؟

ويلخص الجدول ٤-١ سعات مخازن غلال كاهون. وتبين هذه الأرقام أن كل مخازن غلال كاهون مجتمعة يمكن أن تحتوي على ما يكفى من الحبوب لعدد من السكان يصل إلى ٥ آلاف حسب الحد الأقصى من الرواتب، و٩ آلاف حسب الحد الأدنى، بفرض أن خمسة منازل فقط فى الجانب الشمالي هى التى بها مخازن غلال. ورقم ٩ آلاف يأتي بنفس الترتيب من حيث حجمه مع عدد سكان كاهون الإجمالي الذى افترض على أسس أخرى، وهو ما يتراوح بين ٨٥٠٠ و ١٠٠٠٠ . بل إن الرقم الأقل يوحي بأن قسماً كبيراً من سكان كاهون كان يعتمد على المنازل الكبيرة فى الحصول على الرواتب. علاوة على أن هذه الأرقام الخاصة بالسكان قد تكون هى نفسها أكبر مما يجب بكثير، كما سنرى بعد قليل.

جدول ١ عدد وحدات الرواتب السنوية القابلة للتخزين فى مخازن الغلال باستخدام الحد الأقصى والحد الأدنى لتقديرات حجم الرواتب

الموقع	سعة مخزن الغلال (بالمتر المربع)	الحد الأدنى لوحدات الرواتب السنوية	الحد الأقصى لوحدات الرواتب السنوية
كاهون: المنزل الشمالي	٣٣٦,٥٠	١.١٦٤	٦٧٥
كاهون:المنزل الجنوبي	٣١٦,٤٠	١.٠٩١	٦٣٣
كاهون:كل المنازل الكبيرة	٢.٦٣٦,٧٠	٩.٠٩٢	٥.٢٧٣

وتعد مخازن غلال كاهون دليلاً أساسياً على اعتبار كاهون مدينة لم تخلقها الإدارة وحسب، بل إنها حافظت عليها كذلك، حيث كان الكثير من السكان يعتمدون على رواتب يضعها كبار المسئولين فى المخازن. ولكن لماذا كانت هناك مخازن غلال عديدة وليس مخزناً مركزياً واحداً؟ لا بد أن الإجابة تكمن فى التركيبة الاجتماعية لكاهون، وهو ما سوف نتناوله بعد قليل.

وماذا عن سائر الأجزاء الموجودة داخل منازل كاهون الكبيرة؟ إن المخططات نفسها وملاحظات بتري لديها القليل مما يمكن أن تقوله لنا بشكل مباشر. غير أن سلسلة الأنشطة التى يمكن أن يرغب أحد مسئولي الدولة الوسطى المهمين فى أن يراها تمارس حوله تقدمها مرة أخرى بعض مجموعات النماذج التى عثر عليها فى المقابر. وفى هذا الأمر تفيدنا مجموعة ميكيت رع أيما فائدة. وقد درسنا ثلاثاً منها حتى الآن: وهى نموذجان يكادان يكونان متطابقين للمنزل الرئيسي، ومخزن الغلال. وهناك خمسة نماذج أخرى للمباني. أحد هذه النماذج حظيرة مواشي، والثاني مسلخ، والثالث يجمع المخبز ومكان إعداد الجعة اللذين وصفناهما فى الفصل السابق (انظر الشكل 42). والنماذج الباقية عبارة عن مشغل نسيج وسقيفة للنجارة.

فهل كل هذه النماذج مجتمعة أجزاء فى منزل كبير من نمط كاهون؟ وفى هذه الحالة نضطر للقفز إلى الأمام فى الزمان، وفيما يتعلق بترتيب الفصول فى هذا الكتاب،

ونأتي بمسكن تقليدي لموظف كبير من مدينة العمارنة فى الدولة الحديثة (انظر الشكلين 97 و98) لعقد مقارنة. وهنا يمكننا التعرف على الأجزاء العديدة بسهولة أكبر. ولا يتكون المسكن من مقر إقامة وحسب، وإنما كذلك من مخزن للغلال، ومطبخ منفصل ربما كان متاخماً للمخبز ، ومكان إعداد الجعة، وحظيرة ماشية وغيرها من المباني المنفصلة التى نعرف فى بعض الحالات أنها كانت تستخدم لإنتاج المصنوعات. وكثيراً ما كان يوجد منزل فرعي. أما من كان يقيم فى هذا المنزل الفرعي فأمر ليس مؤكداً تماماً. وكنوع من التخمين القائم على العلم، قد يمكننا أن نراه على أن المقصود به هو أن يقيم فيه الابن الأكبر الذى سيتولى المسئولية عن أبيه شيئاً فشيئاً. غير أنه لا بد من الإقرار بأن هناك أنماطاً أخرى من القاطنين فيه يمكن اقتراحها: كالخدم أو ناظر الأملاك. ونعرف كذلك من الأدلة التى كشفت عنها الحفائر أن غزل ونسج الكتان كانا يمارسان فى هذه الأنحاء من المنزل. وكانت كل هذه الأجزاء منظمة تنظيماً غير رسمي ومتناثرة داخل مجمع مسور، حيث يوجد المنزل عادة فى الوسط. وفى العمارنة كان المجال المتاح للمصمم محدوداً. فهو بصورة خاصة لم يمد يده ليرسم الأجزاء الخاصة بالسكن، إذ يبدو أنها النتاج المسترخي للتفضيلات الشخصية فى إطار حدود مرسومة سلفاً. غير أننا لو حاولنا تخيل المصمم القديم، الذى كانت تواجهه مهمة تصميم مجمع يحتوي على عناصر العمارنة، فهناك احتمال كبير أن نجده ينتج مخططاً شديد التنظيم مكونا من حجرات ومساحات مستطيلة متداخلة: من نفس النوع الذى نجده فى كاهون. وأفضل ما تفهم عليه منازل كاهون الكبيرة هو أنها نسخ مخططة من ضياع العمارنة أكثر جمالاً من الناحية الهندسية، حيث تحتوي على سلسلة من الوحدات التى تمثلها نماذج مكيت كأبنية منفصلة.

ويوضح لنا التناقض بين المنازل الكبيرة فى كل من العمارنة وكاهون شيئاً مهماً بشأن المجتمعين المختلفين. ففى العمارنة ينظرون إلى كل من أهل البيت والخدمات على أنهما أمران منفصلان، حيث تنتمي الخدمات إلى محيط السياج الذى يقع داخله البيت كملمح منعزل مركزي. وتعكس نوعية تصميم المجمعات وأحجامها كذلك مجتمعاً ذا سلسلة عريضة من الثروة والمكانة الشخصيتين. أما فى كاهون فينظر إلى أهل البيت والخدمات على أنهما جزآن غير منفصلين من وحدة منظمة تنظيماً رسمياً. غير أنه

ليس هناك انحدار كبير فى المنحنى الاجتماعي. وباعتباره مجتمعاً نموذجياً فهو يعترف بمجموعتين رئيسيتين من الناس: أصحاب المنازل الكبيرة جداً وأصحاب المنازل الصغيرة جداً. والأمر بكامله يعكس العقلية السائدة فى الدولة الوسطى، التى كانت تميل إلى النظر إلى المجتمع نظرة فيها تطرف، وهو ما يتضح فى الميل إلى وضع حسابات رياضية لكل جانب من جوانب الحياة الاقتصادية، وفى محاولة التحكم فى السلوك الإنساني والملكية عن طريق إطار بيروقراطي صارم. العمارنة إذن تعكس صورة مجتمع متدرج، بينما تعكس كاهون صورة مجتمع ذي مستويات مميزة.

وهناك جزء لا بأس به من داخل كاهون تشغله منازل صغيرة مبنية فى صفوف، ظهرها فى ظهر بعضها فى كثير من الأحيان. وهى موجودة فى مكان ما من المنطقة ٢٢٠ على مخطط بتري، بنسبة ١:٢٠ للمنازل الكبيرة. ويعطي مخطط بتري انطباعاً بأن جزءاً أكبر بكثير من المساحة المفقودة من كاهون كانت تشغله منازل صغيرة وليست كبيرة، وحسب هذا الحد غير المعروف لا بد من زيادة النسبة. ويقدم عدد المنازل أكثر الأدلة ضماناً لتقدير العدد الأصلي للسكان. وحتى إذا افترضنا أن نصف المنازل الأصلية فقط يتضمنها مخطط بتري، وقلنا بأن هناك ستة أشخاص فى كل منزل، فإننا نصل إلى عدد إجمالي للسكان مقداره ٣ آلاف، وهو ما يقل كثيراً عن الرقم الذى يقدر بـ ١٠ آلاف لاعتبارات أخرى. ويؤدي هذا بطبيعة الحال إلى زيادة انطباع اعتماد السكان ككل على مخازن الحبوب فى المنازل الكبيرة.

وتختلف التنظيمات الداخلية للغرف فى المنازل الصغيرة اختلافاً كبيراً. قد يعكس هذا إلى حد ما التغييرات التى أحدثها قاطنوها استجابة للظروف الشخصية. وهى تبين كذلك نفس التقسيم الداخلي المعقد للغرف كما هو الحال فى منازل كاهون الكبيرة. وعادة ما يكون هناك ممر فى المدخل يؤدي إلى غرفة. وهى وإن لم تكن كبيرة جداً فهى تمثل نقطة محورية داخل المنزل، حيث إن أبواباً عديدة تفتح عليها، وتؤدى فى كثير من الأحيان إلى غرف داخل غرف وليس إلى غرف مستقلة. والغرف التى داخل غرف يقصد بها أحياناً إطالة المسافة، أو إضافة الأمن والخصوصية إلى الراحة. وفى بعض الحالات يبدو الأمر وكأن منزلين أو أكثر قد وصلوا ببعض لتكوين منزل أكبر، وأقحمت الأعمدة إقحاما. وتقع نماذج من ذلك فى القطاع الغربي، على بعد ثمانية

صفوف من الشمال. وفي منازل عديدة رسمت دوائر على مخطط بتري الصغير. ويبدو أن الدوائر الأصغر حجماً عادة ما تكون قاعدة عمود، وهى طبقاً لما يقوله بتري تحمل عموداً خشبياً مثمناً قطره حوالي ٢٥ سنتيمتراً. وفي ملاحظاته المختصرة المنشورة يصف بتري نفسه مخازن الغلال بأنها أبنية مستديرة من الطوب قطرها ١,٦ و١,٩٣ متر، تم تلييسها من الداخل والخارج. ويبدو أنها كانت موجودة بشكل منفرد فى الغالب الأعم، غير أن منها ما هو مزدوج. وفى الصف الغربي، من بين إجمالي ١٥٠ منزلاً تقريباً، تحتوي ثلاثون على دوائر يمكن من كبر حجمها أن تكون مخازن غلال. وهذه كانت ستزيد سعة تخزين الغلال بالمدينة، إلا أن عدم تواترها النسبي بين المنازل الصغيرة يشير إلى اختلافات كبيرة فى ثروات سكان كاهون.

وهناك مبنى آخر داخل كاهون يستحق الملاحظة. ويقع هذا المبنى إلى الجنوب مباشرة من «الأكروبوليس». ويبدو أنه كان قائماً فى مساحة مفتوحة. ربما كان مبنى للإدارة والمخازن. إلا أن هناك احتمالاً بأن يكون معبداً. ونعرف من خلال إشارات كثيرة فى البرديات التى عثر عليها فى كاهون أن المدينة كان لها معبدها الخاص بها، وهو يختلف عن المعبد الجنائزي الخاص بالهرم. وكان هذا المعبد مخصصاً للإله النجم «سبدو، سيد الشرق»، وكان له كهنته. وإلى الجنوب من هذا المبنى هناك مبنى آخر لا يشبه أياً من المنازل الكبيرة أو الصغيرة، وربما كان لهذا السبب مبنى إدارياً. بينما كان يقع على الجانب الآخر من الشارع ناحية الشرق فناء يضم ثلاثة مخازن غلال مستديرة متوسطة الحجم.

وتتعامل البرديات التى عثر عليها فى كاهون مع العديد من جوانب تنظيم المدينة، غير أنها ما زالت بحاجة إلى دراسة حديثة مكتملة. وهناك مساهمة مهمة تقدمها هذه البرديات، وهى توفير المعلومات عمن عاشوا فى كاهون، أو بالأحرى طبقات الناس، أي هؤلاء الناس الذين يجب علينا أن نضعهم داخل المنازل الكبيرة والصغيرة إن شئنا تحويل مخطط الأثري إلى صورة لواقع قديم.

ويمكننا بلا أية صعوبة التعرف على عدد صغير من المسئولين المهمين. فقد كان فى المدينة «عمدة» (حاتي عا)، وكان الرئيس المعتاد لأية مدينة مصرية قديمة. وكان بها كذلك «مكتب الوزير»، حيث كانت تتم الإجراءات القانونية وتؤخذ العهود، وهو الذى كان

الوزير يتواجد به فى بعض الأحيان. إلا أنه لا بد من استبعاده كمقيم دائم بالمدينـة. إذ كان شخصية متنقلة مركزها العاصمة. وهناك مكتب للقسم الإداري يسمى «منطقة الحي الشمالي» (وا ع رت) كان يقع فى مكان ما، كما كان هناك مكتب لموظف حكومي كبير آخر، هو «المُبَلِّغ» (ويحيمو). وفى هذا المكتب الأخير كانت تعقد المحاكمات. وكان للمدينة سجنها الخاص. وأحد النصوص القيمة أشبه بقائمة تعداد للأسر تتناول كاهناً خاصاً بالعبادة الجنائزية الرسمية للملك سنوسرت الثاني. وكان اسم هذا الكاهن خاكاورع–سنفرو. وتضم القائمة من أفراد عائلته ابناً وابنة. غير أنه يليهما مجموعات من «الأقنان» من مصادر متعددة. وكانت تلك المجموعات تتضمن أقناناً من الواضح أنهم آلوا إليه مع منصب الكاهن، ويصل عددهم إلى ثلاثة عشر. وهناك مجموعة من ثلاثة أعطاه إياهم مسئول آخر، ومجموعة غير معروف عددها (تضم خمسة على الأقل) من الواضح أنه ورثها من عمته. وأكثر الحقائق إثارة للدهشة بشأن هؤلاء الأقنان هو أن معظمهم من الإناث، وكثير منهم عبارة عن أطفال الأقنان. غير أنه فى وثيقة من الفترة نفسها تتناول أقنان مسئول فى طيبة كانت القائمة تضم فى الأصل خمسة وتسعين منهم[15]. ويبدو أن ما يزيد على نصفهم كانوا آسيويين، وكانت نسبة النساء إلى الرجال هى ٢:١ . وكان الرجال يحملون ألقاباً مثل «الخادم المنزلي»، و«عامل الحقل»، و«صانع الجعة»، و«الطاهى»، و «المؤدِّب» أو «الحارس» و«صانع النعال». ومعظم النساء اللاتى ضمتهن القائمة كن حائكات، إلا أن هناك كذلك «مصففة الشعر» و «البستانية». ويمكننا استنتاج أن قائمة كاهون كانت تخص أحد أغنى أغنياء سكان كاهون، أي واحدا من هؤلاء الذين أقاموا فى المساكن الكبيرة شمالي المدينة. وإذا حوّلنا نماذج مكيت رع إلى وحدات واحد من هذه المساكن، فإنه من المفترض أن تغطي قائمة «الأقنان» الأشخاص الذين يملئون الكثير من النماذج بالعمل الدءوب، وإن لم يكن من الضروري أنهم عاشوا بالفعل فى المسكن ذاته.

ويمكن كذلك استنتاج اعتماد كثيرين على المساكن الكبيرة من ذلك الاستعداد الضخم لتخزين الغلال داخل كل منها. وكان قطاع كبير من سكان كاهون ينتمي إلى مراكز إعادة التوزيع الفرعية فى هيئة المساكن الكبيرة. وهذا بدوره يعكس تنظيماً نموذجياً للمجتمع. وبدلاً من اعتماد السكان جميعاً على مخزن غلال كبير واحد وإدارة

واحدة للرواتب، كانوا مقسمين من هذه الناحية إلى عدة مجموعات مميزة. ويبدو أن هذا التنظيم للسكان على هيئة فرق أو جماعات كان شائعاً فى مصر القديمة. وعشائر المعبد التى نقابلها فى أرشيف نفر ار كا رع مثال لذلك.

ويمكننا أن نلمح نوعية مهن سكان كاهون ووضعهم من البرديات التى عثر عليها هناك. فبالإضافة إلى "الأقنان"، كان هناك الجنود وكتبتهم، وأفراد المعبد بمن فيهم الحراس والمنشدون والراقصون الأجانب من الجنسين. ووصلتنا كذلك ثلاث قوائم تعداد أخرى، عثر عليها ملفوفة مع بعضها. وهى تضم أفراد أهل بيت جنديين، هما الأب (حوري) والابن (سنفرو) على مدى فترة غير معلومة من الزمن (الشكل 55)[16]. ويتكون أهل بيت الأب فى الأساس منه هو وزوجة وابن (سنفرو). وبعد ذلك انضمت إليهم أمه وخمس قريبات، يبدو أنهن أخوات رب الأسرة، ليصبح العدد تسعة. وعندما ورث الابن، وضعت القائمة الأخيرة، وأصبح أهل البيت حينئذ هو وأمه وجدته لأبيه وثلاث من عماته. ومن المغري اعتبار هؤلاء أهل بيت أحد قاطني المنازل الصغيرة. ويكشف هذا عن طبقة ثانية من التبعية داخل البيوت الصغيرة، وهى طبقة كانت تتغير بتواريخ أفراد الأسرة: مثل وفاة الزوجة المبكرة وزواج الأخت وهلم جرا. ويلاحظ كذلك تذبذب حجم أهل البيت: من ثلاثة إلى تسعة إلى ستة. وهذه قاعدة صغيرة يمكن التعميم من خلالها. غير أن متوسط الستة أفراد يأتي ضمن المدى المستخدم فى كثير من الأحيان لحساب أعداد السكان القدماء. وتوثق بعض البرديات الأخرى الشئون القانونية الخاصة بأهل كاهون، حيث باعوا أملاكهم «فى المدينة والريف» ودخلوا فى صراع مع مشاكل الديون، وهو ما يشي فى كل الحالات بأن اعتمادهم على الدولة كان جزئياً فقط.

وتشير النوعية البارزة فى مجتمع كاهون إلى المشكلة الأساسية الخاصة بالتخطيط كله: وهى مطابقة فى الواقع مع نموذج مجرد للمجتمع. فقد خطط كاهون شخص لم ير سوى مستويين اجتماعيين اثنين، يمثلهما الحجم المتغير لأهل بيت حوري–سنفرو (الشكل 55). وكان التقسيم الثنائي البسيط يمثل خرافة اجتماعية تؤمن بها النخبة. فهو لم يسع سعياً جاداً للتكيف مع الفوارق الاجتماعية والاقتصادية داخل جماعة بشرية متعددة بواسطة سعة من نوع أقل أو غيرها. وبعد الدولة الوسطى ،

نبذت الدولة فكرة التخطيط لمجتمعات خلاف مجموعات العمال الصغيرة. ومدينة العمارنة (الفصل السابع) تبين هذا بياناً حياً.

التخطيط فى مستوطنات أخرى من الدولة الوسطى: أداة للتجديد العمرانى والاستيطان الداخلى والخارجى

تمثل كاهون نموذجاً تقليدياً لتطبيق البيروقراطية على خلق المجتمعات على مستوى مدينة كاملة ذات حجم عادي بالمعايير القديمة. ومع أن سائر الأدلة التى عثر عليها فى مصر الدولة الوسطى ليست متساوية، فهى كافية لكي توحي بأن كاهون تمثل تفضيلاً عاماً للتصميم الصارم واسع المدى للأحياء الإدارية والسكنية. بل إنه يمكننا نتيجة لانتشار النماذج أن نبدأ فى التوصل إلى أن جهاز الدولة فى الدولة الوسطى شرع فى تنفيذ برنامج موسع بهذه الطريقة الخاضعة خضوعاً صارماً لنسق واحد. وكان أحد النماذج – الخاص بمجمع يضم معبداً ومخزناً ووحدة إدارية وربما سكنية من الدولة الوسطى فى المدامود – قد عُرض عرضاً موجزاً فى الفصل السابق (انظر الشكل 22)، بما يوحي بأنه بالإمكان التعرف على مجمع مشابه آخر فى هيراكونبوليس. وسوف يتم الآن اختيار مواقع أخرى لتوسيع الصورة أكثر وأكثر.

ويخص الموقع الأول هرم الملك أمنمحات الثالث المشيد من الطوب اللبن فى دهشور، ويعود للدولة الوسطى (الشكل 56)[17]. ولابد من مقارنته بكاهون من حيث وظيفته، وإن كانت مساحته أصغر. ولم يبق إلا القليل جداً خلاف الأساسات، وهو ما يزيد فى كثير من الحالات على مستوى يقل عن عتب الأبواب، بحيث تكون مواضع الأبواب غير معلومة. والمباني محاذية تماماً للهرم، وكذلك للاتجاهات الأصلية، غير أنه على عكس كاهون يحيط سور بالمجموعة ككل. وهناك جزآن أساسيان قائمان، على جانبي طريق يؤدي إلى الهرم. وذلك الجزء الواقع إلى الجنوب يبعد عن الطريق، ويمثله مبنى طوله حوالي ١٠٠ متر وعرضه حوالي ٥٠ متراً. ونجد فيه نفس تداخل الغرف والوحدات الأكبر حجماً داخل الشكل الخارجي المستطيل كما هو الحال فى كاهون، مما يقتضي وجود ممرات طويلة كذلك. ويلاحظ فى إحدى الغرف فى الجزء الأوسط أن

سمك جدرانها في الخلف (أو الجنوب) مماثل لما هو موجود في كاهون وفي عصور لاحقة، حيث يعد هذا دليلاً على أنها غرفة نوم رئيسية. واستنتج من قاموا بالحفائر من الفخار أن البناء ظل قائماً لفترة قصيرة إلى حد ما، ربما لم تتعد عهد أمنمحات الثالث نفسه. ومقدار المساحة الداخلية، وإن كان من الواضح أنها كانت مفتوحة، أكبر بكثير مما هو معتاد في مستوطنات من هذا النوع. ومرة أخرى اقترح من قاموا بالحفائر بعد تردد مركزاً مؤقتاً لتنظيم أعمال تشييد الهرم، وربما أماكن كان يعمل بها البناءون. وإذا صح هذا فسوف يكون نقيضاً مثيراً للاهتمام لموقع تشييد الدولة القديمة في الجيزة الذي يتميز بحرية العمل، الذي وصفناه في الفصل السابق.

ويقع بجوار الطريق من الناحية الشمالية صف آخر من المنازل المتلاصقة، طوله ١٣٧ متراً وعرضه ٣٣ متراً ويبدو أنه يتكون من مبنى ملاصق لفناء (الغرض منهما غير مؤكد) في الطرف الغربي، ثم من عدة منازل متجاورة تنظيم الغرف فيها مشابه لمنازل كاهون من حيث تعقد اتصالها ببعضها. وهي من حيث حجمها تقع في الوسط بين منازل كاهون الكبيرة والصغيرة.

والنموذج الثاني هو الأكثر أهمية إلى حد كبير: وهو طيبة، العاصمة الفعلية للإقليم الذي يضم الجزء الجنوبي من الوجه القبلي. ويبرز موقع طيبة في الدولة الوسطى فقط من العمل الذي يجري تنفيذه منذ السبعينيات. وأقدم ركام مدينة هناك ليس أقل من الأرض التي يقوم عليها مجمع معابد الكرنك الذي يعود إلى الدولة الحديثة (انظر الشكل 71). والواقع أنه ربما تعدى حدود سور الكرنك اللاحق.

وحتى الآن أجريت خمس من هذه الحفائر:

١ - أجريت أهم الحفائر في عامي ١٩٧١-١٩٧٢ إلى الشرق من البحيرة المقدسة، خلف مقاعد الصوت والضوء الحالية بالكرنك (الشكل 57)[18]. وتقع حافة البحيرة إلى الغرب. والسور ذو الأبراج الذي يقسم الحفائر جزء من سور معبد من الأسرة الثامنة عشرة. إلا أن الجدران التي في الشرق تقع على مستوى أدنى وتمر تحت السور والمباني التي في الغرب. كما أن لها اتجاهاً مختلفاً إلى حد ما. ومع أن

جزءاً بسيطاً من المخطط واضح للعيان، فهو يخص مستوطنة ذات مبانى على درجات شديدة التفاوت من متانة التشييد. إلا أنها جميعاً تتطابق تطابقاً شديداً مع مخطط واسع متعامد. ويقطع الموقع سور سمكه ٥ أمتار من الغرب إلى الشرق فى وسطه تقريباً. وفى الجنوب، حيث يفصله شارع، يوجد جزء مما يبدو مثالاً آخر لمبنى مستطيل مخطط تخطيطاً معقداً ذا أعمدة، وقد لا يكون وصفه بأنه «قصر» فى غير محله. وتقع حافة مبنى آخر أصغر حجماً عند الحافة الشمالية للحفائر. وإذا كان هذا القطاع تقليدياً بحال من الأحوال، فإن طيبة الدولة الوسطى قد تشبه نسخة من كاهون وإن كانت أكبر حجماً وأكثر تنوعاً من الداخل.

٢ – فى الجانب الشرقي من الفناء الذى يفصل بين الصرحين التاسع والعاشر، وأمام واجهة قاعة اليوبيل الخاصة بأمنحتب الثاني مباشرة، كشفت الحفائر التى أجريت على أعماق أقل عن جدران منازل، وصوامع غلال مستديرة، ومخازن صغيرة، وهى تحتوي على فخار من الدولة الوسطى وعصر الأنتقال الثاني[19].

٣ – وإلى الشرق من سور الكرنك وخارج سور الأسرة الثلاثين، أظهرت المجسات التى تمت تحت مستوى أرضية معبد إخناتون الذى لحق بها دمار شديد عن ركام مدينة من الدولة الوسطى وعصر الأنتقال الثاني كذلك. وتشمل الأدلة جزءاً من سور عرضه ستة أمتار يمتد بين الشمال والجنوب الحقيقيين (ويمكننا أن نستنتج من هذا السمك أنه ربما كان سور المدينة الرئيسي)، والكثير من الشقف على السطح من نوع محلي خشن من الفخار محفور عليه زخارف طولية تتميز به مستويات المدن المصرية القديمة فى أواخر الدولة الوسطى وعصر الانتقال الثاني[20].

٤ – وخارج سور الأسرة الثلاثين، وإن كان فى هذه المرة جهة الشمال، كشفت الحفائر عن أساسات مبنى حجري ليس محاذياً لمعبد الدولة الحديثة الرئيسي، وإنما للاتجاه العام للأسوار القديمة المواجهة للجزء الشرقي من البحيرة المقدسة. ويعرف المبنى نفسه على أنه «خزانة» تحتمس من الأسرة الثامنة عشرة[21]. غير أن المجسات التى تمت تحت الأرضية كشفت عن وجود جدران وفخار من عصر الانتقال الثاني، بينما عثر خارج المبنى على ما يشبه المادة السابقة على مستوى أعلى من مستوى أرضية «الخزانة». وهذا الموقع مثير للاهتمام بقدر كبير. ذلك أنه يوحي بأن خزانة

الدولة الحديثة شيدت فى حفرة غير عميقة بين ركام المدينة المهجورة الأكثر قدماً. غير أن جوانب الحفرة حافظت على الخطوط العامة لمخطط الأرض التى يحددها اتجاه شوارع المدينة القديمة.

٥ - كشف عن منازل الدولة الوسطى وعصر الانتقال الثاني تحت مستوى أرض الدولة الحديثة داخل سور معبد الإلهة موت.

هذه المكتشفات خرجت من مدينة طولها كيلو متر واحد على الأقل. والكشف رقم ١ وحده يقدم لنا مخططاً يدركه العقل ولا تراه العين، ولذلك لا يمكننا الحكم إن كانت طيبة بكاملها فى تلك الفترة قد تحولت إلى نسخة ضخمة من كاهون أم لا، أم أن جزءاً منها فقط هو الذى حدث فيه ذلك. إلا أنه يمكننا الشك فى أنه حسب طريقة بعض مدن العصور الوسطى الأوروبية التى احتفظت بالخطوط العامة لمخططات الشوارع الخاصة بما سبقتها من المدن الكلاسيكية، فإن بعض مدن الدولة الحديثة والمخططات اللاحقة فى الكرنك تعكس مخططات العصور السابقة. وبعض هذه المخططات موضح فى الشكل 57، غير أن المدى الحقيقي لهذا لن يكشف عنه سوف الحفائر التى تتم فى المستقبل. ومع ذلك فإن من الواجب علينا دراسة طيبة باعتبارها نموذجاً أساسياً لإحدى مدن الدولة الوسطى المخططة.

مكّن الدافع وراء خلق مدينة مخططة تخطيطاً تاماً ووسيلة تحقيق ذلك جهاز الدولة فى الدولة الوسطى من نشر العمران والسيطرة البيروقراطية فى أجزاء من البلاد كان استقرارها حتى ذلك الوقت استقراراً غير تام. وسوف يوضح ذلك نموذجان من على طرفى دلتا النيل.

تقع أبو غالب على الحافة الصحراوية لدلتا النيل على مسافة ٤٠ كيلومتراً شمال غربي القاهرة[23]. وقد أجرت أعمال المسح الحفائر هناك فى ثلاثة مواسم فيما بين ١٩٣٢ و١٩٣٤ بعثة سويدية كرست جزءاً من عملها لاختبار مكتشفات مدينة من الدولة الوسطى. وحسبما دل عليه السطح، قُدِّر أن المدينة تغطي مساحة طولها ٧٠٠ متر وعرضها ٦٠٠ متر. والحال كذلك، فهذا يعني أنها مدينة فى ضعف حجم كاهون تقريباً. وكان الموقع تغطيه طبقة كثيفة من الرواسب التى نقلتها الرياح، وظلت المنطقة

التى كشفت عنها الحفائر محدودة للغاية. غير أن ما كشف عنه كان كافياً لأن يبين أن المباني كانت مخططة على هيئة وحدات مستطيلة، حيث كانت تتبع خطوطاً متعامدة أساسية (الشكل 58، يسار). فبدلاً من محاذاتها للملامح الطبوغرافية الطبيعية، كانت تسير حسب الاتجاهات الأصلية، وهى سمة أخرى من سمات مباني الدولة الوسطى ومستوطناتها المخططة. والسبب فى إقامة مدينة جديدة هنا ليس معروفاً بالمرة. ربما أقيمت بجوار فرع من فروع النيل، حيث كانت تشارك فى شحن السلع بين الدلتا والصعيد. غير أن هذا محض تكهن. ويبدو اثنان من المباني على جانبي شارع عرضه متران وكأنهما كبيران إلى حد ما. والشارع المتقاطع المؤدي إلى منطقة مفتوحة أكثر اتساعاً، حيث يبلغ عرضه ثلاثة أمتار ونصف. وتقسيم الأجزاء الداخلية من المبنيين أقل تعقيداً مما فى كاهون. وقد عثر على الكثير من أفران الخبز والمواقد. إلا أن أبرز الاكتشافات كان الآلاف من الأدوات المصنوعة من حجر الصوان، الكثير منها عبارة عن أحجار صغيرة مثلثة الشكل يبدو أنها كانت تستخدم فى صناعة ضخمة للخرز الحجري. ومعاصرتها للمدينة التى تعود للدولة الوسطى لا خلاف عليه، رغم أنه عند رؤيتها خارج سياقها يدل مظهرها على أنها من قبل التاريخ. وهى تعد درساً فى تحفظ التكنولوجيا القديمة، والتشابه الضئيل بين التكنولوجيا والمنتج النهائي. ذلك أنه رغم الطبيعة البدائية للأدوات المستخدمة، فإن حلي الخرز الحجري من الدولة الوسطى كانت فى أغلب الأحيان من نوعية شديدة الدقة والجمال.

وتأتي أهمية تل الضبعة الواقعة شرقي الدلتا فى المقام الأول من مساهمتها فى تاريخ وأركيولوجيا عصر الانتقال الثاني، لكونها موقع عاصمة الهكسوس فى أواريس. ومنذ ١٩٦٦ وهى موضع حفائر طبقاتية تجريها بعثة نمساوية. ورغم احتلال طبقات عصر الهكسوس مركز الاهتمام الأساسي، فإن تاريخ تل الضبعة يعود فى أقل تقدير إلى عصر الانتقال الأول. وكشف المسح الذى أجري على الحقول المجاورة عن مستوطنة من عصر الدولة الوسطى وما بعدها، وهى تغطي مساحة مقدارها ١,٥ كيلو متر مربع ، إن لم تكن كيلو مترين مربعين. وفى ١٩٧٩ و١٩٨٠ بدأت الحفائر فى الأراضي الزراعية على بعد حوالي ٤٠٠ متر من تل الضبعة نفسها. وكشفت هذه الحفائر، أسفل قصر ضخم من الدولة الوسطى، عن مستوطنة كبيرة متعامدة التخطيط

من عصر الانتقال الأول[24]. والمنطقة المحدودة التى كان قد تم الكشف عنها حتى ذلك الوقت تضم وحدات سكنية صغيرة، يبدو أنها كان مجاورة لجزء من سور مستقيم (الشكل 58، يمين). وتحديد تاريخ المستوطنة على أنه يعود إلى عصر الانتقال الأول مثير للاهتمام بصورة كبيرة، ذلك أن النصوص الأدبية من تلك الفترة تبين اهتمام الملوك بأمن شرقي الدلتا فى مواجهة ضغط الهجرات القادمة من جنوب فلسطين. ويمكننا أن نرى فى إنشاء مدينة مخططة فى تل الضبعة أساس ما كانت فى واقع الأمر مستوطنة تابعة للدولة تشكل قاعدة أفضل للسيطرة والإدارة.

والحدود التى بلغها النزوع إلى التخطيط يمثلها موقع على قدر كبير من العزلة فى قصر الصاغة على الحافة الشمالية الغربية للفيوم. وفى هذا المكان شيدت مستعمرة مستطيلة الشكل من الطوب، وتتطابق جوانبها مع الاتجاهات الأصلية تطابقاً تاماً (الشكل 59). وحيث إن السياق يقدم تفسيراً لوجودها، فقد كانت تقع على نهاية طريق ممهد طويل يؤدي إلى محاجر البازلت فى التلال البعيدة، وربما كانت فى ذلك الوقت قريبة من شاطئ البحيرة التى كانت تملأ منخفض الفيوم فترة من الزمن فى الدولة الوسطى. ولابد أنها كانت قائمة هناك للإشراف على أعمال المحاجر . ويتناقض الدقة والنظام اللذان يتضحان فى تصميمها مع مستعمرة المحاجر فى أم الصوان (انظر الكل 83).

ويمثل استغلال إنشاء المستعمرات (والإدارة التى تصاحبها حتماً، فى الدولة الوسطى) كوسيلة لتأكيد السيطرة السياسية على الأرض، مقدمة مناسبة للنموذج الرئيسي لهذا من مصر القديمة: وهو الدولة الوسطى فى النوبة.

الحصون النوبية

أوجدت الخبرة المكتسبة من بناء الأهرام وإنشاء المدن وإرسال بعثات المحاجر إلى المناطق البعيدة منفذاً جديداً فى الدولة الوسطى: وهو الإمداد والتموين من أجل الحملات العسكرية. ويبين هذا أنه تم استيعاب الدروس المهمة. وكانت الشجاعة والوحشية والتكتيكات الناجحة فى ميدان القتال أمراً مشكوكاً فيه، ما لم يكن الجنود

والقادة متوفرين بالأعداد الكافية، وما كان للنصر أي معنى، ما لم تدعمه السيطرة الدائمة. وهكذا أصبح القتال فى النوبة مجرد بداية اتجاه بيروقراطي ضخم. وكان بناء الإمبراطورية فى ذلك الوقت يشمل مجموعتين شديدتي الاختلاف من البشر، هما الكتبة والجنود. وكما تشير أدلة الدولة الحديثة (الفصل الخامس)، فإن المجموعتين كانتا تدركان اختلاف اتجاهيهما إدراكاً تاماً.

وكان غزو مصر للنوبة قد بدأ فى الأسرة الأولى[25]. وفى الدولة القديمة خطا المصريون الخطوات الأولى نحو الاستيطان فى النوبة. وعكس ذلك الموقف الذى بات أكثر وضوحاً فى العصور اللاحقة، وهو أن النوبة شبه إقليم من أقاليم الدولة المصرية. وهناك جزء من مدينة من الدولة القديمة فى بوهن بحري، وهو الموقع الوحيد من هذه المرحلة الأقدم الذى عرف من خلال الحفائر. إلا أن قليلاً من شقف فخار الدولة القديمة الذى عثر عليه فى كوبان فى الشمال قد يدل على أن بوهن لم تكن وحدها فى ذلك الوقت[26].

وفى أعقاب الحرب الأهلية التى وقعت فى عصر الانتقال الأول، يبدو أن إرسال الحملات العسكرية إلى النوبة السفلى تم بسرعة، فى عهد محقق الانتصارات فى عصر الانتقال الأول الملك نب حتب رع (منتوحتب الثاني). وهناك حملة أخرى فى العام ٢٩ من عهد الملك أمنمحات الأول، وهو أول ملوك الأسرة الثانية عشرة، ونجدها مسجلة كخربشات فى قلب النوبة السفلى. وسياسة البناء التى تقدمت تقدماً كبيراً فى عهد خلفه الملك سنوسرت الأول هى فى حد ذاتها دليل قوي على أن النوبة السفلى كانت قد أخضعت إخضاعاً تاماً. وفى ذلك الوقت تم توجيه الاتجاه شديد البيروقراطية الذى يبدو أنه يميز الدولة الوسطى نحو النوبة السفلى، ونحو مرحلة متجددة من إنشاء المستوطنات. وأفرز هذا مع نهاية الأسرة الثانية عشرة سلسلة من المدن المحصنة، كانت بين كل واحدة منها والأخرى مسافة منتظمة على امتداد ٤٠٠ كيلومتر تقع بين الشلال الأول وسمنه على رأس الشلال الثاني. ومع أن هذه الإنشاءات تعكس الاعتبارات المحلية الخاصة، فهى تخبرنا كذلك بالكثير عن مدى إدارة الدولة الوسطى وعزمها على خلق بيئة مرغوب فيها فى مواجهة مصاعب شديدة.

وتنقسم الحصون النوبية على وجه التقريب إلى نمطين مختلفين من الأراضي، وبصورة ما إلى مرحلتين رئيسيتين من البناء[27]. بل إنه فى بعض المواقع شهدت

الحصون التى شيدت فى المرحلة الأولى العديد من التعديلات والتوسعات الكبرى، وهو ما قد يمثل مبادرات المجتمعات المحلية التى تميزت بالنشاط والفاعلية خلال فترة تزيد على القرنين.

وربما أمكننا أن نطلق على المجموعة الأولى من الحصون مصطلح "نمط السهول". فقد كانت تشيد على ضفاف النيل المستوية أو المنحدرة عند الشلال الثاني. وكانت أكبر حصون تشيد فى النوبة. وكانت بقلاعها والمناطق المتسعة داخل سورها وخارجه يمكنها استيعاب الكثير وتُؤوى العديد من قاطنيها من الرجال والحيوانات. ويمثل حصن بوهن بالقرب من الحدود الجنوبية لهذه المنطقة الموقع النمطي (الشكل ٦٠)[28]. وتبين النقوش أنه كان موجوداً بحلول العام الخامس من عهد الملك سنوسرت الأول (١٩٦٧ ق.م). وكان يقع على هضبة تنحدر انحداراً خفيفاً تطل على النهر مباشرة، دون أن تكون هناك زراعة كبيرة فى المنطقة المجاورة. وتركز السكان المحليون فى العصور القديمة والحديثة على الضفة المقابلة البعيدة الأكثر خصوبة. وشمل خطان من خطوط التحصين القديمة قلعة داخلية ومنطقة خارجية.

وكان طول القلعة ١٥٠ متراً وعرضها ١٣٨ متراً تقريباً، وكانت ملاصقة للنهر. وكان يحددها سور من الطوب اللبن سمكه ٥ أمتار به أبراج خارجية. وحسبما يدل عليه جزء باق من السور، فإن الارتفاع الأصلي يمكن تقديره بما يتراوح بين ٨ و٩ أمتار. وكانت واجهة النهر تزود بحماية إضافية من خلال سورين بارزين أطالا السور الشرقي شمالاً وجنوباً. وكان هذان السوران مزودين بالأبراج كذلك. وكانت هناك بوابتان توصلان إلى الجهة المطلة على النهر. وكان يقع أسفل البوابة الشمالية ممر تحيط به الأحجار الغرض منه ضمان الحصول على الماء بأمان فى وقت الحصار. وكانت بوابة ضخمة واحدة فى الناحية الغربية توصل إلى جانب الصحراء. وهذا المدخل الأخير كان يحميه سوران بارزان موازيان ومزودان كذلك بالأبراج. ولم يتم العثور على آثار مباشرة تدل على كيفية حماية الأجزاء العليا من الأسوار، إلا أن صوراً معاصرة للحصون والقصور فى بني حسن تبين أن الشُرُّافات كانت معتادة.

ولم يكن ما يحمي قاعدة السور خندقاً، وإنما استحكام ضيق مرصوف بالطوب له سوره الذى يحميه (الشكل 61). وكان السور الذى يحمي الاستحكام عبارة عن

جـدار أقل سـمكاً من الطوب وبه مـجـمـوعـات من المزاغل كل منهـا تتكون من ثـلاثة، المقصـود بهـا أن يستخدمها الرمـاة. وعلى مسافات، وفى الأركان، كـان الاستحكام والسور الأقل ارتفاعاً الذى يحميه يزدادان عرضاً بحيث تتشكل أبراج مزودة بمجموعة ثانية من المزاغل. والمزاغل الباقية فى الناحية الغربية تتجه لأسفل ناحية الخندق، غير أن تلك التى فى الجانب الشـمالي، وربما بقـية الجوانب، كـانت عبارة عن صف علوي يتـجه مـباشـرة للأمام. وكـان الجـانبـان الشـمـالي والجنوبي يخـتلفـان كذلك فى وجود مصطبـة خـاصـة على امتداد قـاعدة السـور أضيفت إليه كي يجلس عليهـا الرماة فى وضـع السجود. وبالنسبة للخندق فقد كـان جافاً ومحفوراً فى الصـخر، وكـان متوسط أبعاده ٧,٢ متر عرضاً و١,٣ متر عمقاً. وأقيم جدار للخندق على حافته الخـارجية كي يدعم المنحدر.

ويبدو أن داخل القلعة كـان مشـغـولاً إلى حد كـبـير بمبانى مـسـتطيلة الشـكل من الطوب متراصـة حول مجموعة من الشـوارع المتعامدة على بعضـها. وكانت المباني كافة، فيما عدا تلك التى فى الركن الشـمـالي الغربي وبعض تلك القريبة من الركن الشـمـالي الشرقي، يفصلهـا عن السـور الرئيـسي شـارع مـتـصل. وقـد بقيت المباني التى فى النـاحـيتين الغـربية فى حـالة جيدة نسبياً. أمـا البـاقي فـقد نال منه التدمـيـر وعوامل التـعـرية، بحـيث لم يبق منه سـوى أجـزاء مـحطمـة من الأسـاسـات. والمخططات التى رسمتـها بعثـات الحفائر لهذا الجزء، حيث ضمت الكثير من هذه البقايا إلى بعضـها لتشكل أجزاء متصلة، تخلق انطباعاً غريباً يعد خـادعاً إلى حد ما. فقد كانت متشظية أكثر من ذلك بكثير.

ويبـدو أن المبنى الذى فى الركن الشـمـالي الغربي كـان مـركـز قـيـادة الحـامـية. فـقد بني على السور الرئيسي مباشرة، وكان له الدرج الخـاص به المؤدي إلى السطح. وكان المبنى نفسه مؤلفاً من طابقين على الأقل. وفى المستوى الأرضي كـانت به قـاعات ذات أعـمدة، وأبهاء أعمدة ذات أرضـية من الحـجـر. وقد وضـع خزان مـربع من الحـجـر فى أرضية القـاعة الرئيسية. وهذا ملمح شـائع فى مـبانـي الدولة الوسطى، ولوحظ وجوده فى المنازل الكبيرة فى كاهون. وكانت الأعمدة التى فى تلك القاعات من الخشب، وكانت مثمنة ومطلية باللون الأحمر وتقوم على قواعد حجرية. وكانت الأبواب تحيط بهـا قوائم

وأعتاب خشبية. وبجوار هذا المبنى من جهة الشرق كانت هناك مجموعة من القاعات ذات الأعمدة التى خَمَّن و. ب. ايمري أنها مجموعة من الثكنات. إلا أن هذا قد يوحي بالشرط الرسمي للمعيشة الجماعية. بينما نجد فى مواقع مشابهة أن المنازل الصغيرة ذات الطراز الموحد هى السائدة. ولذلك فإن هذه القاعات ربما كان تخدم غرضاً آخر، قد يكون التخزين. وعلى مسافة ناحية الشرق يقع مبنى تم تعريفه على أنه معبد. وهذا ما يوحي به تخطيطه، وهو موجود تحت معبد الملكة حتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة. غير أنه لم يعثر على أية مصنوعات تؤيد ذلك. ونحن نعرف أنه فى عصر الانتقال الثاني أعيد استخدام المبنى لأغراض محلية، وإن كانت هناك أدلة منقوشة على أنه تمت أعمال بناء خاصة بمعبدٍ لحورس. وعلى امتداد سور القلعة الغربي كانت هناك مبان عديدة ذات تخطيط من الغرف المتداخلة التى تعد مثالاً للممارسة المعمارية المحلية فى الدولة الوسطى. وفى أجزاء كبيرة من بقية الموقع خططت صفوف متعامدة من الجدران تخطيطاً صارماً. وأغلب الظن أن معظمها كان بمثابة أساسات للمنازل أو الورش المكونة من حجرات متماثلة. وبعض حصون الشلال الثاني تضم نماذج أصغر حجماً من المنازل المتماثلة القائمة فى ظهر بعضها ويحتوي كل منها على قليل من الغرف. وتقع مجموعة مكثفة من الغرف المستطيلة فى الركن الشمالي الشرقي، حيث تلامس السور مباشرة. والارتفاع الذى بقي فى هذا الموضع يكفى لبيان أنه لا بد أن الكثير منها كان أقبية يدخلون إليها من أعلى، وربما كان بعضها لتخزين الحبوب.

وكان الخط الخارجي للتحصينات يشمل منطقة طولها ٤٢٠ متراً وعرضها ١٥٠ متراً تضم القلعة. وكانت الدفاعات الخارجية عبارة عن سلسلة من النتوءات المنتظمة، ويدعمها سور من الطوب يتراوح سمكه بين ٥ أمتار و٥,٥ متر، وبه أبراج مستطيلة فى الجهة الخارجية. وكان للخندق المنحوت فى الصخر استحكام خارجي له سور متصل، ويقطعه طريق صاعد صخري مقابل البوابة الضخمة الواقعة فى الجانب الغربي. وكانت البوابة تتخذ شكل سورين متوازيين، الداخلي منهما والخارجي به أبراج. وربما كانت الدفاعات الخارجية فى هذا الشكل على وجه التحديد قد أنشئت فى أواخر الدولة الوسطى. فقد وجد فى بعض المواضع أنه كانت تقع تحته بقايا استحكام من الطوب أقل متانة بكثير وبه أبراج مستديرة، ربما كان من صنع الدولة الوسطى.

ولم يتم قط فحص المساحة الواقعة بين القلعة والتحصينات الخارجية فحصاً تاماً، غير أن هناك احتمالاً كبيراً أنه لم تشيد فيها المباني بكثافة. وفى الناحية الغربية تمتد التحصينات الخارجية على جرف ارتفاعه متران. وفى الدولة الوسطى (ربما فى أواخر الدولة الوسطى) استغل هذا المكان كجبانة، تمتد تقريبياً بطول الأرض المسورة. ولم يعثر على أي أثر للإسكان خلال الحفائر التى أجريت فى هذا الجزء. وهذا يوحي بأن الجانب الغربي من السور الخارجي ظل بكامله خلواً من المباني، فيما عدا المقابر. والمعلومات التى لدينا عن المنطقة الواقعة جنوبي القلعة قليلة جداً. إلا أنه عثر فى الناحية الشمالية على مبنى مهم يقع مباشرة فى مواجهة سور القلعة. والواقع أنه كان على قدر كبير من القرب بحيث يحجب الجانب الشمالي كله من تحصينات القلعة ويجعله بلا أية كفاءة. ولم يبق من هذا المبنى إلا أساساته غير أنها تخص مبنى ضخما طوله ٢٥ , ٦٤ متر وعرضه ٢٥ , ٣١ متر. ومع أن بعض الجدران بقي منها ما يصل ارتفاعه إلى٥ , ١ متر، فهى لا تكشف عن أية مداخل. وهو ما يوحي بأنه كان طابقاً تحت الأرض، أو منصة تقوم عليها الغرف عند ارتفا ع ما على سطح الأرض. وفى أوائل الدولة الحديثة (وربما خلال عصر الانتقال الثاني) دمر هذا المبنى تدميراً جزئياً، وبني فوقه معبد صغير لحورس. والتقسيمات الداخلية لهذا المبنى تجعل منه مبنى كبيراً مميزاً سابق التخطيط مسبقاً من مباني الدولة الوسطى.

ويبدو أن أسلوب تحصينات بوهن وقوتها قد صممت لإحباط نمط متطور بعض الشيء من الحصار. ونعرف من الأدلة المصورة أنه مع بداية الأسرة الثانية عشرة كانت حرب الحصار باستخدام معدات الحصار معروفة فى مصر، كما يبين منظر من مقبرة حامل الأختام والقائد الحربي انتف من أواخر الأسرة الحادية عشرة فى طيبة، وفيه يستخدم برج حصار ذو عجلات[29]. ويطرح هذا سؤالاً مثيراً للاهتمام: وهو هل تمثل قلعة بوهن شكلاً من أشكال التحصين العمراني الذى ابتكر فى مصر أثناء الحروب الأهلية التى شهدها عصر الانتقال الأول، ونقل إلى النوبة كعمل إداري؟ وهل تكون العمارة ذاتها، لهذا السبب، نتاج قرار بيروقراطي وليست بدافع من تقدير استراتيجي محلي؟

ويقع فى نفس منطقة النوبة السفلى عامة حصن سورا، على الضفة الشرقية للنيل[30]. والملمح غير المعتاد هنا هو أن حوض النهر يدخل ضمن المحيط المحصن.

وهو بمثابة دليل مهم على أحد أغراض هذه الحصون، وهو حماية مرور الملاحة المصرية فى النوبة السفلى. وحصن سورا به خندق جاف، غير أن هذا الخندق ليس له استحكام أو سور خارجي. إلا أن الجانب الشمالي كان يحميه خندق بارز يبدو وكأن المقصود به هو الإحاطة بسور بارز به برج طرفي. وهو فى هذا يشبه حصون الشلال الثاني. ولكي تكون المباني الداخلية ملائمة لانحدار الأرض، شيدت على مدرجات اصطناعية. وبقي من المدرج الأعلى ما يكفى للكشف عن أن المباني مقامة على مخطط متعامد صارم يفصله شارع ضيق عن السور المحيط بالحصن.

حصون الشلال الثانى

جاءت المجموعة الثانية من الحصون نتيجة لضم مصر لمنطقة الشلال الثاني بكاملها فى عهد سنوسرت الثالث. ورغم ما يدل عليه اسم الشلال الثاني، فهو ليس مسقطاً مائياً شديد الاندفاع، وإنما مجموعة من العوائق الصغيرة مقسمة إلى مجموعتين، ويفصل بينهما حوالي ٣٥ كيلومتراً من المياه الخالية من أية عوائق إلى حد كبير. ويتميز الطرف الشمالي بمجموعة كثيفة من الجزر الصخرية المعوقة للملاحة. أما الجنوبي فيميزه حاجز صخري ضيق يمر النهر خلاله فى عدة تيارات شديدة الاندفاع. وفى كلتا الحالتين كانت الملاحة تحفها المخاطر عندما ينخفض منسوب النهر. إلا أن المياه فى موسم الفيضان كانت تغمر العوائق بما يسمح بالمرور الآمن للبحارة الواعين. وفى المنطقة الوعرة كان كل حصن من الحصون الجديدة يتخذ صورة شكل غير متساوي الأضلاع كي يتلاءم مع موقعه على النتوء الطبيعي غير المنتظم. وكانت الجروف التى تعلو إلى مستوى الموقع تقام عليها أسوار لتأمينها. وفى معظم المواضع كانت المنحدرات الطبيعية تغني عن الخندق. وتبين هذه الحصون أن صرامة التخطيط المتعامد يمكن التخلي عنها عندما يستدعي الأمر ذلك.

والنموذج الجيد لهذا النمط من الحصون هو شفلك على الضفة الغربية على حافة جرف يشرف على النيل (الشكل 62)[31]. والمنطقة المحصنة صغيرة نسبياً، حيث يبلغ طولها ٨٠ متراً وعرضها ٤٩ متراً فى أكثر أجزائها اتساعاً. وكان يحيط بها سور

سمكه ٥ أمتار به أبراج خارجية. إلا أن الأرض المحمية زادت زيادة كبيرة بالأسوار الخارجية، التي كان طول الجزء الشمالي منها ١١٥ متراً. وفي الشمال كان هناك مدخل صغير يؤدي من حول الأسوار إلى درج يهبط الصخرة من حول السور ليصل إلى حافة الماء. وكان المدخل الرئيسي يحميه زوج من الأسوار الخارجية. وكان الجزء الداخلي مبنياً بالكامل فيما عدا شوارع ضيقة كانت قائمة حول قاعدة السور الرئيسي وتفصل بين المباني الرئيسية. وكان مخزن الغلال يقع في مواجهة البوابة، وهو بحالة جيدة ومخططة يشبه مخطط مخازن الغلال في كاهون، ولا تدل غرف الغلال فيه على وجود مدخل خارجي. وربما كان الوصول إليها يتم باستخدام سلم خشبي ومداخل من السقف. ويمكن التعرف على مركز القيادة بجوار السور الشرقي. وتدل عليه جدرانه السميكة، التي ربما كانت تحمل من المباني ما يكفي لتحويل المركز إلى برج. ويفترض أن المباني الأخرى كانت تشغلها الحامية.

وكان شفلك واحداً من مجموعة حصون شيدها الملك سنوسرت الثالث تتجمع حول الجزء الجنوبي من الشلال الثاني وتشكل تجمعاً دفاعياً واضحاً على ممر سمنه الضيق. ويؤكد نقش لسنوسرت الثالث عثر عليه في سمنه أن هذا كان مقصوداً به في واقع الأمر أن يكون بمثابة حدود حقيقية.

السنة الثالثة، الشهر الثالث من الشتاء: أقام جلالته الحدود الجنوبية عند حح. «لقد أقمت حدودى، حيث أبحرت جنوبياً إلي أبعد مما بلغه آبائى. وهاأنا أزيد عما آل إلى بالميراث».

وأى ابن من أبنائى سوف يحافظ على هذه الحدود التى أقامها جلالتى، فهو ابنى ومن صلب جلالتى... أما الذى سيتنازل عنها، ولن يقاتل من أجلها، فليس ابنى، وليس من صلبى.

لقد أمرت جلالتى بإقامة تمثال لجلالتى على هذه الحدود التى أقامها جلالتى، عسي أن يحثك، وتقاتل باسمه.

وسوف يأتي ذكر المزيد عن هذا التمثال فيما بعد.

وعند سمنه تقطع النيل صخور متبلرة تاركة فجوة عرضها حوالي ٤٠٠ متر. وعلى نتوء صخري على الطرفين أقام سنوسرت الثالث تحصيناً: سمنه، وهو الأكبر ،

فى الغرب، وقمه فى الشرق (الشكل 63). وكان مخطط حصن سمنه على شكل حرف L، وكان الجناح الغربي يغطي قطعة من الأرض المستوية نسبياً[33] والأبعاد الأساسية هى حوالي ١٣٠ متراً من الشمال إلى الجنوب، والشيء نفسه من الشرق للغرب. وكان سور الحصن فى الجانب المطل على اليابسة تحميه أبراج بينها مسافات منتظمة، وكانت تعززه على مسافات أكبر أبراج ناتئة أعظم حجماً. وكانت الأرض المحيطة بالسور تميل إلى الاستواء، غير أنه لم يكن هناك اعتقاد بضرورة وجود استحكام أو سور خارجي. بل تم تنظيف الأرض لمسافة ٢٩ متراً، ثم كومت المواد التى أزيلت وكسيت بالحجر لتشكل منحدراً وجداراً خارجياً للخندق. وعند كل طرف من طرفى الجناح الشرقي كانت تخترق السور بوابة محصنة تسمح لطريق بأن يقطع الحصن بكامله، حيث يعبر المنحدر بواسطة طرق صاعدة. وكانت بوابة ضيقة فى الشرق توصل إلى درج يهبط إلى حافة الماء. وكانت هذه البوابة يحميها نفق ضخم مبانيه من الحجر الجاف.

وكانت الشوارع الضيقة داخل سمنه ممهدة ببلاطات غير منتظمة من الحجر. وكانت تسير حول السور وتقسم الداخل إلى بلوكات. ومما يؤسف له أنه ليس لدينا مخطط كامل لداخل الحصن. فقد ضاع قدر كبير أو غطاه معبد حجري من الأسرة الثامنة عشرة شيد وسط الجناح الشرقي، ولم تجر حفائر قط فى سائر الأجزاء. وفى الجناح الغربي كانت الأرض ترتفع فى اتجاه الغرب، وفى أعلى نقطة فى الحصن كان يقوم بناء ضخم ربما كان مركز القيادة. وقد بقيت الجدران بارتفاعات تكفى لبيان العلامات الدالة على عروق الخشب التى كانت تحمل أرضية طابق علوي. وتبين مبان أخرى استخدام تخطيط قياسي أساسي ويبدو أنها كانت منازل تضم حجرتين أو ثلاثاً. ولم يتم التعرف على أي مخزن للغلال.

وتشير نقوش الحدود الخاصة بسنوسرت الثالث إلى تمثال للملك موجود فى الحصن كي يحث خلفه على الدفاع عن الحدود. ولم يعثر على التمثال الأصلي. غير أنه فى عهد تحتمس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة شيد معبد صغير من الحجر الرملي وسط الجناح الشرقي. وكان أحد التماثيل الموجودة فيه للملك سنوسرت الثالث مؤسس سمنه. وحفرت على جدران قدس الأقداس صور للتمثال نفسه داخل مقصورة قارب محمول ذات شكل قياسي خاص بالدولة الحديثة[34].

وعلى الجانب الآخر من النهر كان قمه، وهو أصغر بكثير وأقيم فوق بروز صخري منحدر[35]. وكانت جوانبه شديدة الانحدار حتى أنهم اضطروا فى بعض الأماكن لبناء الأسوار على جسور من الحجر. والخطوط الخارجية للحصن مربعة على غير انتظام، مع وجود أسوار خارجية لتغطية الحواف الأقل ارتفاعاً. وكانت هناك بوابة ماء ذات درج تقع فى الركن الشمالي. أما فى الداخل فكان هناك التنظيم المعتاد للشوارع الضيقة، كتلك التى فى سمنه الممهدة بالبلاطات الحجرية غير المنتظمة. وبين الأبنية المفردة، يمكن التعرف على مخزن الغلال بسهولة.

وشملت دفاعات سمنه حصناً ثالثاً على بعد ١٥٠٠ متر إلى الجنوب من حصن سمنه[36]. وكان يقع فى العصور الحديثة على الحافة الجنوبية من سهل طيني، ولكن لا بد أنه كان يقع فى العصور القديمة على ضفة النهر. وكان حصناً صغيراً ومربعاً، طول كل جانب من جوانبه حوالي ٥٢ متراً. وكان به سور رئيسي عرضه تسعة أمتار عند القاعدة، وكانت تعززه أبراج فى الأركان، ثم خندق وسور خارجي فوق نتوء صخري. ويبدو أن داخل الحصن كان مكشوفاً. وكان يمر تحت السور والخندق نفق مبطن ببلاطات جرانيتية، الغرض منه تأمين مورد من الماء العذب. وهذا الملمح، الذى عثر عليه مدفوناً تحت السهل الطيني الحديث، هو الذى يبين أن الحصن كان فى الأصل يقع عند ضفة النهر. ويوحي صغر سمنه قبلي بأنه كان ملحقاً لسمنه، إما باعتباره نقطة مراقبة متقدمة، أو نقطة تفتيش للمرور القادم من الجنوب.

واكتشف المزيد من الأعمال الدفاعية فى سمنه فى موسم ١٩٦٥-١٩٦٦[37]. وكان سوراً من الطوب اللبن سمكه ٢,٥ متر تحصنه أبراج على نقاط مرتفعة ويمتد بجانب الطريق الذى يتبع، عند مغادرة البوابة الشمالية فى سمنه، النهر عبر منطقة الشلال الثاني. وقد أمكن تتبعه لمسافة ٤,٥ كيلو متر، وكانت بدايته الفعلية إلى الجنوب من سمنه، حيث يدور حول الحصن من الناحية الغربية ليخلق منطقة محمية كبيرة. وربما كان سمنه قبلي يحدد بدايته الفعلية. وهذا السور يؤكد جدية التهديد الذى كان يشعر به المصريون فى المنطقة، وحقيقة أن المرور البري كان له دور مهم فى استراتيجيتهم. وهو كذلك نموذج مبكر للأعمال الدفاعية الأرضية الطولية (من نوع

سور هادريان)(*)، وربما كان له نظير معاصر فى أسوان، لحماية الطريق البري حول الشلال الأول[38].

وتعد حصون الشلال الثاني نماذج مدهشة للعمارة الحربية فى أي مكان وتكشف عن توسع للتخطيط العمراني سبق أن قابلناه فى كاهون وفى غيرها. غير أنها فى ناحيتين أخريين كذلك توضح البيروقراطية المصرية: فالحصون تقوم كمراكز للنشاط الموجه فى منطقة نائية مفتوحة مترامية الأطراف، وهى بمثابة شاهد حي على حجم الإمدادات الخاصة بالرواتب وأهميتها.

ولم تكن الاستراتيجية المصرية فى النوبة قاصرة على الدفاع الثابت خلف أسوار ضخمة. فقد كان هناك عدد من مراكز الاستطلاع المزودة بالجنود فى منطقة الشلال الثاني. وهذه المراكز يمكن معرفتها من الكتابات التى تركها أشخاص من الدولة الوسطى عند نقط ملائمة[39]. وقد رئي كذلك أن مراكز الاستطلاع والحصون فى الشلال الثاني كانت على اتصال متبادل عن طريق الإشارات، التى ربما كانت من خلال أعمدة الدخان. وبوضوح أكثر تبين مجموعة من الوثائق عثر عليها فى مقبرة بطيبة تعود إلى عهد الملك أمنمحات الثالث أن الحصون كانت على اتصال دائم ببعضها البعض وبقاعدتها، التى ربما كانت طيبة نفسها، عن طريق التقارير المكتوبة المنتظمة. وهذه الوثائق تعرف باسم رسائل سمنه[40]. وهى تكشف كذلك عن أنه كانت تتبع سياسة فعالة لمراقبة الصحراء. وكان ذلك يتم بإرسال دوريات لقص آثار الأقدام وإحضار المتجولين لاستجوابهم. ولهذا الغرض استخدم المصريون رجال الصحراء النوبيين، وكانوا يسمون ميجاى. ونتج عن هذه السياسة تقارير كهذا: «الدورية التى خرجت للقيام بأعمال الدورية فى أطراف الصحراء...عادت وقدمت لي التقرير التالي: «وجدنا آثار أقدام ٣٢ رجلاً وثلاثة حمير». وتتناول رسائل أخرى التجارة مع النوبة عند حصن سمنه الحدودي نفسه. والتفاصيل الدقيقة التى ترد فى هذه الرسائل، التى يتم فحصها فى طيبة، هى سمة من سمات الميل المصري إلى تسجيل الأحداث

(*) شيده الأمبراطور الرومانى هادريان (١١٧ - ١٣٨) شمالى انجلترا عند أضيق نقطة فيها ليكون الحد الدائم للمنطقة الخاضعة للرومان ، حيث بدأ العمل فيه سنة ١٢١ أو ١٢٢ . ويبلغ إجمالى طول السور ١١٨كم ويحميه من على الجانبين خندق . ويتراوح سمك السور بين مترين و ٣,٥ متر وارتفاعه ٧ أمتار - (المترجم) .

التى قد تهم مسئولا عالي المستوى، وتكشف عن الإطار البيروقراطي للوجود المصري فى النوبة.

وامتدت شبكة السيطرة التامة التى طرحها المصريون على المنطقة إلى تنظيم الاتصالات مع المجتمعات النوبية الواقعة إلى الجنوب، خلف حدود السيطرة المصرية المباشرة. وقدمت سمنه نقشاً رسمياً آخر لسنوسرت الثالث:

الحدود الجنوبية التى أنشئت فى السنة الثامنة من حكم جلالة الملك سنوسرت الثالث لمنع أى نوبى من عبورها عند سفره شمالاً، سواء أكان على الأقدام أم بقارب، وكذلك الحال بالنسبة لأى من ماشية النوبيين. ويستثنى من ذلك أى نوبى سيأتى للمقايضة فى اكن، أو من يأتى برسالة رسمية[41].

وكانت التجارة والدبلوماسية مع العدو معترفا بهما ويتم تنظيمهما تنظيماً صحيحاً.

وظل موقع اكن موضع خلاف لسنوات كثيرة. وحسمت هذا الخلاف اكتشافات تمت في الستينيات، وهي التي أظهرت أن اكن كان الاسم القديم لموقع مرجيسا الحصين الكبير، الواقع خلف منطقة الحدود المحصنة تماماً، عند الطرف الشمالي للشلال الثاني[42]. ومما يؤسف له أنه لم يعثر فى هذا الموقع على ما يضيف لمعلوماتنا عن وظيفته كمركز تجاري، وإن كان يعد رغم ذلك مثالاً لا بأس به للتحصين والمعيشة المخططة.

والكثير من الحصون التى ذكرت حتى الآن، ومنها مرجيسا، بها مخازن غلال كبيرة جيدة البناء. وحيث إنه يمكننا التعرف على مباني مخازن الغلال وقياسها –بل والتوصل إلى ما كان عليه ارتفاعها الأصلي فى بعض الحالات – فإن بإمكاننا اتباع الخطوات التجريبية ذاتها، كما فى كاهون، لحساب مقدار الحبوب الذى ربما كانت تستوعبه، وما يكشفه ذلك لنا عن العملية النوبية عموماً. ورغم كثرة الشكوك عند القيام بذلك، فلا بد أن ندرك ولع المصريين بالكيل والحساب. وما كان بالإمكان بناء أي مخزن غلال بدون هذا الولع[43].

ويبين الجدول ٢ السعة، ويحدد الأرقام الإجمالية الخاصة بعدد السكان، من خلال تطبيق الأرقام القصوى والدنيا المستخدمة فى كاهون. وحتى إذا أخذنا بالأرقام الدنيا، فإن عدد السكان الناتج عن ذلك يكون كبيراً جداً مقارنة بحجم الحامية الذى كان مسلماً به فى الماضي. فقد قدر أحد من قاموا بالحفائر هناك، وهو ج. أ. ريزنر، وعلى أسس تخمينية، حامية قمه بما يتراوح بين ٥٠ و١٠٠ رجل، وحامية سمنه بما يتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ رجل، وتراوح تقدير أورونارتي بين ١٠٠ و٢٠٠ .

وما تزال أنشطة الحصون النوبية موثقة توثيقاً ناقصاً. فبالإضافة إلى وظيفتها كنقاط دفاعية ثابتة، فإننا نعرف من رسائل سمنه أنه كان يتم منها تشغيل نظام مراقبة للصحراء، باستخدام رجال ميجاى من الصحراء يفترض أنهم كانوا يحصلون على أجورهم فى صورة غلال. وربما كانت هناك حاجة إلى بعض الغلال للحمير التى لابد أنها كانت عنصراً مهماً فى النقل؛ ونعرف كذلك أن بعض الحصون كانت تشارك فى التجارة التى كان فيها المصريون يقدمون الخبز والجعة. إلا أنه إذا كان ذلك العنصر الأخير مهماً، فقد كان علينا أن نتوقع وجود أكبر مخزن للغلال فى مرجيسا التى نعلم من الأدلة المنقوشة أنها كانت مركز التجارة التى تحدد تحديداً رسمياً بالنسبة للنوبيين القادمين من الجنوب، من ذلك المكان المسمى اكن. غير أن الأمر ليس كذلك.

والحصون النوبية المحيطة بالشلال الثاني جنوبي مرجيسا شيدها سنوسرت الثالث للدفاع عن الحدود التى وضعها هو حديثاً. إلا أن الإجراءات الحربية التى اتخذت فى ذلك الوقت شملت كذلك حملات أرسلت إلى المناطق الواقعة إلى مسافة أبعد جنوباً. والجيوش بحاجة إلى الرواتب. ورغم عدم وجود شك فى أنه كانت هناك آمال فى الاستيلاء على مخازن غلال النوبيين المهزومين، فلم تكن الآلة الإدارية للدولة الوسطى هى من يترك المؤن والرواتب للصدفة. ومن النصوص التى ذكرت فى الفصل الثالث يمكننا أن نتخيل الاستعدادات: حساب أعداد الرجال، وطول الفترة الزمنية، وحجم الرواتب، وبالتالي الحد الأقصى لحجم المخازن. ويمكننا فقط أن ندرك حجم مخازن غلال الشلال الثاني وموقعها إن نحن نظرنا إليها باعتبارها جزءاً من استراتيجية حربية متكاملة للدفاع والهجوم. وتنتمي مخازن الغلال لسلسلة من الإمدادات المخططة بعناية. وأهميتها فى التفكير الحربي تبينها بوضوح جزيرة أسكوت المحصنة، الواقعة خلف حدود سمنه، وبذلك تصبح أكثر مجموعة الحصون أمناً.

ويشغل مخزن الغلال جزءاً كبيراً من داخل الحصن، وكأن الحصن بكامله فى حقيقة الأمر مخزن غلال محصن يقوم مقام مستودع مؤن للطوارىء أو فى الخطوط الخلفية[44].

والحرص المتبع فى كل الاستعدادات يتضح من موقعين آخرين أجريت فيهما حفائر، حيث عثر على «طيفين» لاثنين من القصور المعاصرة. وكان أولهما «مبنى إداري» فى كور[45]، والآخر هو الـ «قصر» الموجود على جزيرة أورونارتي (الشكل 64).[46] وكلاهما لم يُشغلا إلا لفترة قصيرة وكانا قد خططا تخطيطاً حُرِص فيه على أن يكونا متجهين ناحية الشمال، مع تجاهل موقع الأرض (وهو ما يتضح كذلك فى أبي غالب وقصر الصاغة، انظر الشكلين 58 و 59). وهذان القصران يصبح لهما معنى إن كان تأويلنا لهما أنهما مقران مؤقتان أقيما من أجل الملك أثناء قيادته لحملاته فى الأقاليم الواقعة خلف الحدود.

والأدلة الأثرية التى تعود للدولة الوسطى تشير إلى أن هذه المنطقة الحدودية العسكرية شهدت تطبيقاً ضخماً لإدارة الدولة الوسطى. ولابد أن يكون وراء الحصون جبل خفى من جهد الكتبة. ولا يسعنا نحن إلا أن نتعجب من عظم حجم الحماس والطاقة اللذين تكشف عنهما العملية بأسرها.

جدول ٢ جدول بأعداد وحدات الرواتب السنوية القابلة للتخزين فى مخازن الغلال باستخدام التقديرات القصوى والدنيا لحجم الرواتب

الموقع	سعة مخزن الغلال (بالمتر المكعب)	وحدات الرواتب السنوية الدنيا	وحدات الرواتب السنوية القصوى
شفلك	٣٨٩,٢٨	١.٣٤٢	٧٧٩
أورونارتي (البلوك ٦ فقط)	٤٤٤,٣٤	١.٥٣٢	٨٨٩
أورونارتي (٥+٦)	٧٧٠,٣٧	٢.٦٥٦	١.٥٤١
مجريسا	١.٠٦٣,٩٦	٣.٦٦٨	٢.١٢٧
قمه	٥٤٧,٣١	١.٩٨٠	١.١٤٩
أسكوت	١.٦٣٢,١٨	٥.٦٢٨	٣.٢٦٤
سمنه	[١٠٠٠]	[٣٤٤٨]	[٢٠٠٠]

يمثل تاريخ تخطيط المدن مفارقة فى الأحكام القيمية. فنحن فى الوقت الراهن ننظر إلى التخطيط على أنه مسئولية أساسية من مسئوليات الحكم المتمدين. وهو بالتالي أمر جيد. ونحن لذلك نميل إلى الثناء عليه عندما يظهر فى الآثار القديمة. إلا أن التخطيط القديم كان يميل إلى الشكل – أي التخطيط المتعامد أو المضلع – وهو ما بتنا ننظر إليه على أنه أسوأ أنواع التخطيط، وأكثر ما يجب الابتعاد عنه. وهاهم المخططون المحدثون قد عادوا إلى جذور حياة مجتمع ما قبل الحداثة وسعوا إلى استخلاص المبادىء من المجتمعات "العضوية" غير المتعمدة، مثل قرى التلال الإيطالية فى العصور الوسطى. والحال كذلك، هل ينبغي علينا ألا ننظر إلى المخططات المتعامدة القديمة على أنها أمر فرضته البيروقراطية ونتساءل إن كانت حقاً قيمة متمدينة أم لا؟ وهذا السؤال يحتل مكاناً متقدماً جداً عند دراسة أعظم مدينة بقيت من مصر القديمة: وهى العمارنة من الدولة الحديثة، وستكون موضوع الفصل السابع. وشُيِّد الجزء الأكبر من هذه المدينة على أساس من رفض أي فرض اجتماعي أو جماليات هندسية، أو تجاهلها. فنجد أن السائد هو الانسجام العضوي أو التنافر الناتج عن القرارات الفردية، وهو ما ينم عن عقلية تختلف فى واقع الأمر تمام الاختلاف عن تلك التى كانت وراء كاهون.

وتعكس المفارقة شيئاً أكثر أهمية. ففى النصوص التى درسناها فى الفصل السابق ، وفى المواقع الأثرية التى درست فى الفصل الحالي، تتخذ الدولة الوسطى شخصية مميزة: فقد كان ما يحركها عبارة عن رؤية – قد تكون متشظية وناقصة – ليوتوبيا بيروقراطية، وأيديولوجيا لم تُصَغ كانت بمثابة نموذج يحتذى عند اتخاذ القرارات. فنحن نجدها فى الميل إلى وضع أدوات حسابية لحساب سلسلة من جوانب الحياة الاقتصادية، ونراها فى الوثائق التى تسعى إلى التوجيه المركزي للعمل والملكية، وهى موجودة فى كاهون على هيئة فرض الطريقة التى ينبغي بها تنظيم مدينة بكاملها. ربما تبدو فجة فى جوانب كثيرة، ولكن كان يمكن أن يكون لها مستقبل. والنظم الأفضل توضع بإدخال التحسينات على النظم الأقدم منها. غير أن موارد الدولة، وهو

ما نعنى به فى نهاية الأمر مواردها البشرية، ثبت أنها لا تتساوى مع العمل. وكما ستكشف الفصول المتبقية من الكتاب، فإن اتجاه الدولة الوسطى البيروقراطي لم يحرز المزيد من التقدم. وكان نظام الدولة فى الدولة الحديثة، رغم نجاحه لمدة خمسة قرون تقريباً فى خلق الثروة ومظاهر التكريم وتوزيعها، نظاماً أقل صرامة قيد الكثير جداً من الطموحات الفردية تقييداً مؤقتاً.

لماذا انهارت مصر القديمة وأخفقت حضارتها؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تنطبق على كل الحضارات: وهى الرفض أكثر مما يجب لفترة أطول من اللازم للحياة المنظمة من أجل مصلحة حرية المناورة. ولو كان عمل مصر الدولة الوسطى – وعمل الفترات المقابلة من الهيمنة البيروقراطية فى الصين القديمة، ووادي السند، وبلاد الرافدين، وأمريكا الوسطى والجنوبية – قد تواصل باعتباره سلسلة سلمية متصلة الحلقات، وتم تحويل كل من تصدوا لها إلى دعم متحمس للنظام ولجمال أنظمة الحكم المنطقية، لكان من المحتمل أن يكون النظام العالمي اليوتوبي قد تحقق فى وقتنا الراهن بالفعل. غير أن الحب الفوضوي للاضطراب ورفض السلطة هما على السواء جزء من الشخصية الإنسانية. وما التاريخ إلا سجل للصراع بين نزعتين متناقضتين للعقل – هما النظام والفوضى، والإذعان والتمرد (وهو ما أدركه المصريون القدماء أنفسهم). وقيام الحضارة وانهيارها موجودان داخل كل منا.

الجزء الثالث

إرهاصات مستقبلنا

الفصل الخامس

مصر الدولة الحديثة:

الدولة الناضجة

أدير جهاز التلفزيون الخاص بى فتأتى نشرات الأخبار إلى بيتى بمشاهد المواكب الرئاسية التى تسير فى الشوارع المكتظة بالجماهير، وبالجموع الفرحة تحيى زعيماً يقف فى شرفة قصر شيد على طراز قديم، وأعمال عامة للعبادة والولاء تؤدى بأزياء غريبة. إننى، بعبارة أخرى، أشاهد تمثيل حياة حكام العصر البرونزى. ولا يسعنى أن أظل فى البيت دون أن أفعل شيئاً. فإن بإمكانى، كعضو فى واحدة من أقدم جامعات بريطانيا، أن أشارك بنفسى فى التجليات الصغرى للطقوس القديمة. أو أن أذهب إلى الكنيسة. لماذا نحتاج إلى مثل هذه الأشياء الآن (من أجل حاجة قائمة بكل تأكيد)؟ ولماذا نجد راحة فى تركات غريبة من الماضى الموغل فى القدم؟ إن التاريخ موضوع مدمر. فهو يدمر حقنا فى أن نحيا عصراً من العقل والتقدم. وبينما التكنولوجيا تشق طريقها إلى عصر الذرة، مازال الإنسان المؤسساتى (وكذلك الإنسان المفكر فى بعض الأحيان) يكافح من أجل الهرب من العصر البرونزى.

وقد أخفقت الدول البيروقراطية فى وضع أساس للتطور السلمى نحو المجتمع المنسجم العقلانى. وخلف لنا ذلك الإخفاق هذه التركات الغريبة. وربما أمكننا القول بأنه من أجل الحفاظ على الوحدة والاستقرار، كانت المجتمعات القديمة، التى تفتقر إلى الأساس الفلسفى العقلى للحكم، بحاجة إلى زعيم جليل يحدد مكانته الدين، ويعامل شخصه بما يعامل به أى إله من توقير وشعائر. وكان للدعم الدينى والوسائل المظهرية أهميتها. وكانت سلطة الحاكم المبجل فريدة، وليست موضع تساؤل، حيث لا ينشأ خطر التقسيم أو الازدواج إلا فى زمن الحرب الأهلية. إلا أن البشرية قطعت شوطاً طويلاً منذ أيام الفراعنة. ويمتد بيننا وبين مصر القديمة تاريخ طويل ومعقد من

الفكر السياسى المتطور وأشكال متباينة من الحكم، كانت تقوم إلى حد ما على فلسفات لا تنبع من الدين. وبينما تغير المجتمع المضيف، أبدت أشكال الحكم ومظاهره عن طريق زعيم جليل قدرة كبيرة على التكيف والاستمرار فى الحياة، وكانت محبوبة بشدة فى أغلب الأحيان. فالعقلانية تغرى، والردة تحكم.

وبحلول الدولة الحديثة - وهى الخمسة قرون أو نحو ذلك للأسرات من الثامنة عشرة للعشرين (حوالى ١٥٤٠ إلى ١٠٧٠ ق.م) - يمكننا رؤية أن مصر كانت قد تقدمت تقدماً كبيراً على طريق المواءمة المعقدة بين الواقع السياسى وأساطير الدولة. ولن نجد أى دليل على أن الناس فكروا تفكيراً جاداً فى أشكال بديلة لحكم الملك الجليل المباشر. وما يمكننا ملاحظته هو نشوء مجتمع أكثر تعددية قضى على إمكانية وجود الدولة التى كانت ستتطور تطوراً كاملاً يصل بها فى يوم من الأيام إلى تسلسل هرمى يعرف كل شخص فيه مكانه ويقبله؛ ومن ناحية أخرى تعديل نظام الحكم الملكى الجليل تبعاً للظروف المتغيرة بطرق ثبت أنه لا يمكن هدمها. وهدف هذا الفصل (وجزء من الفصل السابع) هو رسم صورة واضحة لذلك الجهاز الضخم الذى عبر تعبيراً واضحاً عن أسطورة الدولة، وكان يتمتع مع ذلك بمرونة فى تبنى شكل من أشكال الحكم كان سياسياً فى المقام الأول. وسوف يعيش قراء هذا الكتاب فى ظل تسوية مشابهة.

كان أسلوب الدولة الحديثة من الناحية الخارجية لا يزال مرتبطاً بشدة بالتراث الذى خلقته الفترات السابقة. ومع ذلك فقد كانت مجتمعاً يختلف عن ذلك المجتمع الذى شهد بناء الأهرام. ولم يطرأ أى تقدم على الاتجاه البيروقراطى. وكان الملوك لا يزالون ينعمون بمزاولة السلطة الفردية، غير أن دولتهم اضطرت لأن تسمح بتوازن متغير للقوى الداخلية، التى برزت فى الأساس من خلال ظهور مؤسسات ذات تماسك مهنى أشد. والدول منذ أول مراحلها بحاجة إلى خدمات الوكلاء المخلصين فى ولائهم لها ممن يقدمون المشورة وينفذون مشيئة الملك، ويدافعون عن منطقة نفوذه، بل ويزيدون من رقعتها بقوة السلاح، ويرعون الجوانب العملية شديدة الأهمية للأيديولوجيا. والوزراء، والجنود، والكهنة هم الأدوات الأساسية للدولة التى يمكن التعرف عليها فى مصر إبان الدولة القديمة. وكان كل من الوزراء والكهنة يتطلعون إلى موضع مادى بارز ومميز لحياتهم - وهو القصر والمعبد. ولابد أن القصر أصبح مؤسسة منذ فترة مبكرة،

وبحلول الأسرة الرابعة أصبحت المعابد الجنائزية بجوار الأهرام مؤسسات كذلك. وبينما تبدو جوانب الحكم المختلفة فى عصور سابقة على أنها أوجه لنظام واحد، فإننا بحلول الدولة الحديثة يمكننا التعرف على تحولها التام إلى مؤسسات. ولابد أن نضيف إلى هذا وضع مصر الدولى غير المسبوق كقوة إمبريالية. وعموماً كان يتكون هناك قدر من التألق والأسلوب المميز اللذين يجعلان الدولة الحديثة أقرب شبهاً بالدول التى قامت وبادت فى العالم منذ ذلك التاريخ وحتى وقتنا هذا. ولا بد لنا كذلك أن نحسب حساب قوة أخرى تقوم بهدوء وبطريقة خفية تقريباً بنخر أسس المجتمع المفروض: إنها التحرر الاقتصادى الفردى. وسوف يشكل ذلك أساس الفصل المقبل. ويشتهر عن مصر القديمة فى العصر الحديث أنها شديدة المحافظة من الناحية الثقافية. إلا أن الدولة الحديثة توضح أن هذا نفسه أمر غير صحيح، وكان السبب فى اعتقاده هو الخلط بين الشكل والمضمون. لقد كانت الظروف قد تغيرت، وكانت الأيديولوجيا والممارسات الأساسية تتواءم معها.

والتاريخ فرع من بين فروع العلوم الإنسانية العديدة التى هى لفظية فى المقام الأول. غير أنه بالنسبة لمن عاشوا فى فترة بعينها فإن تجاربهم تشكلها البيئة الطبيعية والمصنوعة بقوة (وإن كان ذلك يتم بدون وعى إلى حد كبير). والتعامل الأركيولوجى مع الماضى شديد البعد لابد أن يركز أكثر على سجل البيئة المادية، لأن هذا هو كل أو معظم ما يمكننا أن نضع يدنا عليه من أدلة. غير أن هذا ليس إحباطاً بالضرورة. فهو يذكرنا بأن التاريخ المكتوب، الذى نستقيه فقط من المصادر المكتوبة القديمة، إنما يتعامل مع الأدلة المادية التى ساعدت على تشكيل تجارب من يتناولهم على أنها أمر مسلم به. والواقع أن أدلة الثقافة المادية تعد بمثابة بيان غير مقصود عن المجتمع الذى أنتجها بصورة ما وبقوة رمزية لا تضاهيها الأدلة المكتوبة. وصورتنا الخاصة بالمجتمع المفروض للدولة الوسطى لا ترسمها النصوص الإدارية وحسب، بل كذلك المدن المخططة التى أنتجتها. وينطبق الشىء نفسه على الدولة الحديثة بطريقة أكثر تعقيداً وتبايناً.

الأيديولوجيا بحاجة إلى العمارة كى تعبر عن نفسها تعبيراً تاماً. وهى من خلال قدرتها على إقامة العمارة الضخمة تجبر الفرد على احترامها وتصبح الأفق المسيطر بالنسبة للجماعة. وهى تخلق حالة مزاجية بأسلوبها وباهتمامها بالتفاصيل. وسوف نبدأ مسحنا للدولة الحديثة بالمعابد، التى أدخلت مصر فى ذلك العصر وما تلاه من عصور بشكل من أشكال النزعة الجماعية[1].

وحسب علمنا، ظلت العمارة الضخمة فى الدولتين القديمة والوسطى فى صورة الأهرام ومعابدها على هامش العالم المنظور: أى على حافة الصحراء الغربية بين مدخل الفيوم وأبى رواش شمالى الجيزة. أما المعابد المحلية التى بنيت فى الغالب بالطوب اللبن فقد بنيت بأحجام تتناسب مع المدن المتواضعة المبنية بالطوب اللبن. وكان المعبد المحلى باعتباره مؤسسة ملحقاً بمنصب رئيس المجتمع المحلى، حتى أن لقب «كبير الكهنة» كثيراً ما كان يحمله «العمدة» المحلى. وفى الدولة الحديثة أدخلوا الحجم الكبير وتفضيل البناء الحجر المدن. وكان ذلك عصر المعبد الرسمى الناضج، كما بيناه فى الفصل الثانى. وبدأ الناس عامة العيش فى ظل الأبنية الحجرية العملاقة التى كانت إعلاناً عن اتفاق عرفى بين الملك والآلهة على أن السلطة والنفوذ قاصرة عليهم. وكانت طيبة مثالاً يشهد على ذلك، كما سنبين فى موضع لاحق من هذا الفصل.

ولكى نفهم أسلوب الدولة الحديثة فهماً كاملاً، لا بد من توضيح عاملين محددين. وقد نشأ العامل الأول من الازدواجية البنيوية لعبادة المعبد، التى تنطوى على جانبين أحدهما خفى والآخر ظاهر (الفصل الثانى). وقد رأت الدولة الحديثة أن هناك اهتماماً كبيراً بالعامل الثانى، وهو الصورة الدينية المحمولة، التى كان من أكثرها شيوعا المقصورة القارب المحمولة. ولم تكن القوارب المقدسة بالأمر الجديد. إذ يبدو من العصور القديمة أن لها دوراً رمزياً وشعائريا مهماً[2]. وما فعلته الدولة الحديثة هو المبالغة هى الاهتمام ببعضها على وجه التحديد (وخاصة سفينة آمون بالكرنك المسماة أوسرحات آمون، «جبار السفينة هو آمون»)، وابتكار نسخة محمولة منها أصغر حجماً. وأحد من حملوا لقب «كبير النجارين ورئيس الصاغة»، واسمه نخت جهوتى

وعاش فى عهد رمسيس الثانى، ومن الواضح أنه تخصص فى صنعها، تم تكليفه مراراً بصنع سفن جديدة منها لمعابد عديدة، ربما يصل عددها إلى ستة وعشرين معبداً[3]. وكلا من السفينة النهرية والسفينة المحمولة كانتا توضعان فى وسط تصميم المعبد واحتفالات المعبد. وكانت المقاصير القوارب تصنع من الخشب، غير أنها كانت تزين بالنقوش والذهب وتزود بمقصورة مغلقة (تسمى فى بعض الأحيان سح نتجر، «المقصورة الخيمة للإله») كان يجلس فيها تمثال للإله (الشكل 66 واللوحة 5). وكان على كل جانب قائم خشبى طويل للحمل وكان حوالى خمسة من الكهنة يحملون المقصورة على أكتافهم[4]. وكانت الأماكن التى توضع فيها المقاصير القوارب ذات تخطيط مميز: وهو عبارة عن غرفة بيضاوية على كل طرف من طرفيها مدخل وفى الوسط قاعدة حجرية مربعة كانت تستقر عليها المقصورة (راجع الشكل 68). ولابد لنا فى هذا المقام أن نتذكر القواعد التى كانت فى المعابد القديمة التى كانت توضع عليها تماثيل محمولة وتحميها مظلة مقوسة من الحصير (انظر الفصل الثانى والشكل 33). وحقيقة الأمر أن معظم معابد الدولة الحديثة كانت تبنى حول مقصورة القارب المقدس، وكانت مخططات الأجزاء الداخلية فيها وتصميمات أفنيتها المقدسة الخارجية تنبع من الرغبة فى عرض المقصورة القارب بطريقة تحقق أكبر فائدة درامية ممكنة (الشكل 65). ومع أن المعابد ظلت تضم تماثيل ثابتة للآلهة، فقد باتت هذه التماثيل تحتل المرتبة الثانية. والارتقاء بالمقصورة القارب إلى مرتبة من السمو فى ديانة المعبد كان يضاهى الحجم الكبير الجديد للمعابد المحلية. ولم تسيطر مواكب المقاصير القوارب التى تنطلق فى الشوارع على المدينة سيطرة مادية وحسب، فقد أدخلت درجة أكثر جمالاً من العرض الدينى إلى حياة المدينة. وهاهو حجم ديانة المعبد فى الدولة الحديثة ونزعتها الاحترافية يستعبدان الجماهير أكثر من ذى قبل، حيث استبدلت السيطرة البيروقراطية القديمة بالتحكم النفسى الأعظم قدراً والأكثر صراحة. وحينذاك، وكما هو الحال الآن، كان الناس يحبون المواكب الاحتفالية التى تنظمها الدولة، وكانوا يشعرون عقب أى من هذه المواكب بقدر أكبر من الحب نحو حكامهم.

وفيما يتعلق بالعامل الثانى، لابد أن نتحول إلى عمارة المعابد الخارجية، وكيف كانت تبدو للعالم خارجها، وهو العالم الذى كان فى الغالب مستبعداً للأبد من ولوج

أبواب المعبد. وكانت أسوار المعبد الحجرية، التى كانت تحمل مناظر منقوشة بألوان زاهية قوية على خلفية بيضاء مبهرة، لا تبدأ مباشرة من الشوارع أو الساحات العامة. فقد كان يقع بين المعبد والعالم الخارجى حرم ملىء بمبانى للصلاة من الطوب وربما بمقاصير أصغر حجماً، وكان يحيط بها جميعاً سور ضخم من الطوب اللبن. وكان ذلك السور هو أقصى ما يعلن به المعبد عن نفسه للعامة. وفى الدولة الحديثة كانت أسوار المعابد الكبيرة الخارجية تقام بطريقة تجعلها تبدو وكأنها حصون، حيث الأبراج والشُرَّافات[5]. ويأتى جزء مما يدل على ذلك من الحفائر. وفى الكرنك كشفت نفس الحفائر الواقعة إلى الشرق من البحيرة المقدسة، التى كشفت كذلك عن مدينة الدولة الوسطى المخططة التى تحتها (انظر الفصل الرابع والشكل 57)، عن جزء طوله ٢٠٠ متر من سور الأسرة الثامنة عشرة ذى الأبراج المربعة التى تفصل بين كل منها مسافة طولها حوالى ١٧ متراً. وهناك نماذج أخرى أكثر اكتمالاً عُثر عليها فى مواقع أخرى. إلا أن هناك كذلك أدلة معاصرة تعد تمثيلاً لهذا. وهذا أمر مهم لأنه يصور الشكل الذى كانت عليه الأجزاء العليا من الأسوار، وهو الشىء الذى لم تكن حفائر الأساسات لتكشف عنه. وأوضح مصدر هو خزان إراقة من الحجر الجيرى من الدولة التاسعة عشرة من منف، وهو مصنوع على هيئة سور به أبراج على مسافات منتظمة على جوانبه الأربعة تحمى الأركان، إلى جانب صف من الشُرَّافات تمتد على الجزء الأعلى من السور (الشكل 67)[6]. والجوانب منقوش عليها أدعية للإله بتاح معبود منف، حيث يقول أحد الأدعية: "المجد لك عند السور الكبير؛ فهذا هو المكان الذى يسمع عنده الدعاء." ولتأكيد ذلك حفرت أذن بشرية بأعلى كل برج. وهناك بعض الشك فى أن هذا المبنى ذا المزاغل يمثل السور الرئيسى لمعبد بتاح فى منف الذى يعود إلى الدولة الحديثة، ولم يكن مسموحاً للعامة بالوصول إلى الجزء الداخلى منه. وبالنسبة لساكن منف الذى صنع النموذج كجزء من تمثال نذرى، لم يكن المعبد مبنى حجرياً عجيباً للإله، بل كان قلعة يقف أمامها وحسب. وفى مقصورة بجوار الأبراج أو بينها يلتمس من قوة الإله أن تمر عبر الحواجز الضخمة التى أقامها إخوانه البشر. وقد يكون المعبد الشرقى فى الكرنك، الذى سيأتى ذكره لاحقاً، نموذجاً أكثر عظمة لنفس الظاهرة[7].

ولابد أن الشكل ذا الشُرَّافات لأسوار المعبد كان رمزياً إلى حد كبير فى الدولة الحديثة. وفى الحالات التى كان فيها الصرح الأمامى للمعبد يقطع السور ويحمل ،

هى كان العادة، مناظر ضخمة للملك وهو يقهر أعداءه فى حضرة الآلهة، كانت الأبراج والشُرّافات على الجانبين تكمل الحالة المزاجية للمنظر. وكان سور المعبد من حيث حجمه وطرازه وتفصيلاته، فى عالم بات أكثر وعياً من الناحية الحربية عما كان عليه من قبل، قد اتخذ أشد صور السلطة الدنيوية صراحة.

وبذلك كان المعبد يمثل للمجتمع الموجود فيه وجهين متناقضين: أحدهما هو صورة القوة الدنيوية، والثانى خاص بالانطلاق من خلال الاحتفالات الجماعية فى أيام الأعياد. ولم يمنع ذلك الناس من محاولة إقامة اتصال على قدر أكبر من الفردية مع المعبود العظيم الذى كان يقيم فى الداخل، كما تبين مقصورة منف الموجودة عند الأسوار الخارجية.

إن ما وصلنا من مصر القديمة مما له علاقة بالدين من الكثرة بما قد يجعلنا نستنتج أن الدولة حينذاك كانت دولة كهنوتية. ولو كنا عاجزين عن قراءة اللغة الهيروغليفية، لربما استنتجنا أن مصر كان يحكمها كاهن أكبر، وذلك نظراً لكثرة وجود صور الملك وهو يؤدى الفروض الدينية أمام تماثيل الآلهة. والواقع أننا لن نخطئ كثيراً ما دمنا نتذكر أن الكلمات الإنجليزية الحديثة مثل king [ملك] و priest [كاهن] لا يحملان نفس المدلول الذى كانا يحملانه فى العصور القديمة. غير أننا نخطئ إن نحن أوّلنا ذلك على أن الدولة كانت تقوم على قدر كبير من الروحانية. فقد كان الدين هو اللغة التى تصاغ بها الأمور المهمة التى لها وزنها.

وفى مكان ما بين صفوف الكهنة الذين نعرف أسماءهم، كان هناك علماء اللاهوت المسئولون، على سبيل المثال، عن النصوص والمشاهد المعقدة التى تظهر فى المقابر الملكية، وكانوا ينسخون النصوص القديمة ويدرسونها دراسة متأنية ويستخرجون منها تأويلات جديدة. إنهم هؤلاء المهتمون باللاهوت الذين يشبهون إلى أكبر حد تصورنا الخاص بـ «الكاهن». غير أنه من الصعب التعرف عليهم. ذلك أنهم يبدون فى المصادر التى وصلتنا أناساً ذوى ألقاب كهنوتية يشبهون إلى حد كبير المسئولين فى فروع الإدارة الأخرى. وواقع الأمر أنه قد تكون لديهم كذلك سلسلة من الألقاب التى تغطى الدور الكهنوتى إلى جانب أدوار أخرى لا علاقة لها بذلك. والمصطلح الحديث «كهنوت» يضللنا، رغم ملاءمته، إذا كان يوحى بوجود طبقة من الناس تعيش حياة على قدر كبير

من التميز. فكثير من العمل فى المعابد كان إما أداء روتينياً للشعائر الراسخة أو الإدارة الصرفة للسلع والأفراد. والمعابد باعتبارها مؤسسات تحظى بالاهتمام فى أية دراسة لنظام الدولة فى الدولة الحديثة، بسبب دورها الاقتصادى وكذلك لمساهمتها الروحية، ودورها فى تدعيم النظام الملكى.

وكان يُنظر إلى المعابد المصرية، بشيء من الحَرفية، على أنها مأوى تماثيل الآلهة وأنها مسكن الآلهة التى تعيش داخلها. وكان جوهر الآلهة الروحى (وكذلك الجوهر الروحى لتماثيل الملوك، أو أى فرد فى حقيقة الأمر) يقتضى تلك الاستدامة التى يمكن الحصول عليها من قرابين الأطعمة التى توضع بانتظام أمامها. وهذه القرابين مأخوذة من مصادر منتجة يملكها المعبد. غير أن تلك لم تكن هى الوظيفة الوحيدة التى يقوم بها المعبد. فقد كان فى الوقت ذاته يهب الآلهة مكانة تنسجم مع السلطة والأهمية على مستوى شديد المادية. إذ كانت الآلهة تعطى مكانة ذات نبالة أرضية تتناسب مع بعض مفاهيم المصريين المادية عن الألوهية. بل إننا نجد أن الإثراء المادى للأملاك الإلهية موضوع أساسى فى النصوص التى تتناول واجبات الملك.

ويبدو أن الثروات التى توهب للآلهة كانت تؤخذ من التنوع الكامل للمصادر المالية المصرية، وكلا الشكلين المعمرين للثروة (المواد الثمينة وكذلك الأوعية المقدسة المصنوعة من المواد الثمينة)، والمصادر الدائمة للعوائد. وتأتى ضمن النوع الثانى من الثروات الأراضى المزروعة حبوباً، دون أن تكون بالضرورة بجوار المعبد نفسه، بل يمكن أن تكون على مسافة ٣٢٠ كيلومتراً، أو حتى فى بلاد النوبة التى غزتها الحملات العسكرية[8]. ومع أن معابد الدولة الحديثة كان لديها العمال الخاصون بها، وكانوا فى الغالب من أسرى الحرب، يبدو أن جزءاً كبيراً من أراضى المعابد كانت تتم زراعتها على أساس معقد للتأجير، حيث كان ما يصل إلى ٣٠ بالمائة من المحصول يدفع للمعبد كإيجار[9]. وتبين وثيقة من وقت متأخر من ذلك العصر، وهى بردية ويلبور، صورة أراضى المعبد المقسمة تقسيماً معقداً من الحيازات، بعضها يفلحه وكلاء المعبد، والباقى يفلحه من يغطون طبقات المجتمع المصرى بكاملها، بدءاً من صغار الفلاحين الذين يفلحون الأرض بأنفسهم، مروراً بالكهنة والجنود، ووصولاً إلى الوزير نفسه. وبديهى أن المجموعات الأخيرة من الملاك الذين يستخدمون العمال، وبذلك يدخلون

طرفاً ثالثاً فى تقسيم المنتج[10]. وتضمينات ذلك بالنسبة لفهمنا لأساس حياة الطبقة الوسطى سوف نتابعها فى الفصول التالية. وفى وثيقة أخرى، هى بردية أميان، نلتقى بأسطول من إحدى وعشرين سفينة تعبر النيل ببطء وترسو عدة مرات لجمع الإيجارات من الحيازات الصغيرة من هذا النوع لنقلها إلى مخازن غلال المعبد فى طيبة (راجع الشكل 69)[11].

وشملت الحيازة الزراعة الأخرى التى كانت توهب للمعابد قطعان الماشية، وحقوق صيد السمك وصيد الطيور، وحقول الكتان لتوفير المواد الخام التى تصنع منها الملابس التيل فى ورش المعابد، وبساتين الخضروات، والكروم، والمناحل. وكانت الماشية، شأنها شأن المحاصيل التى تنمو من البذور، تتضاعف إن أحسنت رعايتها. ويبدو أنه كما هو الحال بالنسبة للأرض الزراعية، كان شائعاً فى الدولة الحديثة أن يربى الناس الماشية طبقاً لنظام للانتفاع يتفق عليه مع المعبد. ولذلك تولى أحد رؤساء الخدم الملكيين، واسمه نفر برعت، الذى قاتل فى حملة من حملات تحتمس الثالث فى فلسطين، مسئولية أربع بقرات فلسطينية، وبقرتين مصريتين، وثور، وسطل من البرونز (يفترض أنه لحمل الحليب)[12]. وكان على أخيه أن يرعاها وعلى ابنه أن يحمل الدلو. إلا أنه كان من المقرر «التقرب» بالماشية لمعبد تحتمس الثالث الجنائزى، أى أن هذا المعبد كان مالكها الحقيقى (وكلمة "قربان" لا يجب التعامل معها دائماً بمعناها الحرفى). وقد جعل المرسوم هذا النظام وراثياً. ولذلك فإن ورثة نفر برعت سيكون عليهم رعاية هذه المجموعة الصغيرة من الماشية. وكانت كذلك مستبعدة على وجه الخصوص من سلطة مشرف الماشية. وهو نموذج مصغر من المنطقة الموثقة توثيقاً جيداً فى القانون المصرى القديم: وهى الحماية من التعدى المؤسسى عليها (وهو ما سوف نتناوله فى الفصل المقبل). وبذلك فسوف يمضى نفر برعت فى رعاية قطيعه الصغير، ملتزماً بتسليم حصة من الخلفة والحليب (الذى يحمله ابنه) لمعبد الملك الجنائزى، ومسموحاً له بالاحتفاظ بما تبقى لنفسه، آمناً فى حمايته القانونية من الموظف الذى يكون مسئولاً فى العادة عن مثل هذا النظام.

وكانت المعابد تمنح الحق فى الوصول إلى الموارد المعدنية. ولذلك مُنح معبد سيتى الأول فى أبيدوس حقوقاً فى مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية، ومجموعة من

الرجال كى تجلب الذهب إلى المعبد، ومستوطنة بها بئر عند المناجم نفسها[13]. ويبدو أن معبد آمون بالكرنك قد حصل على ترتيب مشابه لاستخراج الذهب فى هذه المنطقة، وعلى ترتيب آخر للحصول على كبريتيد الرصاص المستخدم كزينة للعين وعلاج، وهو كذلك من الصحراء الشرقية[14]. وتبدو الهبات المباشرة من الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة هى الأخرى تعبيراً منتظماً عن التدين الملكى. وكان المعبد فى الوقت ذاته هو المكان الذى كان الملك يقدم له الفائض من غنائم الحملات الحربية الخارجية أو ما لا يريده منها. وكانت المعابد توفر التخزين الآمن والإدارة، بل وربما كذلك ما هو أهم، وهو إيصال على هيئة نصوص ومناظر فى المعبد الذى كان يسجل الهبة على أنها عمل عظيم ينم عن كرم دينى.

وكانت كل تلك الأشكال المتعددة للثروة، التى تتراوح بين خلايا النحل والقوارب، تجمعها كلمة واحدة هى «القرابين». ولابد أن ما كان يقدم بالفعل للإله أثناء شعائر تقديم القرابين ليس سوى رموز.

وعند دراستنا لدور المعبد الاقتصادى يواجهنا نموذج تقليدى للمشكلة العامة التى تعانى منها ثقافة ما (وهى ثقافتنا) عند تصنيف ثقافة أخرى. وكانت سجلات المعابد تكتب وكأن كل معبد منها مؤسسة مستقلة. ويمكن لهذا أن يخلق انطباعاً بأنها كانت مصادر مستقلة للثروة والنفوذ. غير أننا لو اتخذنا موقفاً أكثر بنيوية لأمكننا رؤية أن المعابد، التى ليست بينها أية فروق دينية دقيقة، كانت تشكل قطاعاً مهماً من «الدولة» كما نراها، حيث تعمل من خلال علاقة تكافلية مع القصر. وهكذا نجد أن قطاعاً منفصلاً من بردية ويلبور قد أُفرد لفئة خاصة من الأراضى الزراعية التى تسمى أرض خاتو، وهى التى كانت تخص الفرعون، غير أن المعابد هى التى كانت تديرها.

ويصبح غياب الحد الفاصل بين المعابد ومناطق الإدارة الأخرى شديد الوضوح عندما ندرس نموذج دفع رواتب عمال الجبانة فى دير المدينة بطيبة، الذين كان عملهم هو إعداد المقبرة الملكية فى وادى الملوك[15]. وكان هؤلاء فى الأساس موظفين لدى الملك، ولذلك يبدو من الطبيعى أن أجورهم تأتى فى بعض الأحيان من «خزانة فرعون» والمشرفين عليها. إلا أنه فى أواخر الأسرة العشرين، على ما يبدو فى زمن الضائقة الاقتصادية التى ألمت بطيبة، نجد غلالاً من تقديرات الضرائب المفروضة على المعابد

المختلفة، ومن أرض خاتو التى تديرها، قد نقلت إلى غربى طيبة من أجل عمال الجبانة وجرى تخزينها تحت مسئولية عمدة غربى طيبة (وهو استخدام آخر للعمد مثير للاهتمام)(16). وقبل ذلك بقليل نجد عمدة آخر من غربى طيبة يوجه له اللوم لعدم دفعه رواتب هؤلاء العمال من «القرابين» الخاصة بمعبد رمسيس الثانى الجنائزى (الرمسيوم) الذى شيد منذ قرون بعيدة. ويوحى تظاهر هؤلاء الرجال أمام معابد أخرى بأنهم كذلك كانوا يعتبرونها مصادر محتملة لدفع الرواتب، وهو ما يؤكده بشدة ما تبقى من سجلات دفع الرواتب(17). وفى أوقات أخرى كانت رواتب هؤلاء الرجال تدفع من معبد ماعت فى الكرنك، على الجانب الآخر من النهر(18). وعندما ساءت الأحوال، كان الملجأ الأخير إلى الوزير. وربما كان استقلال المعابد كمُلَّاك للثروة إلى حد بعيد مسألة فروق دينية لا تكاد تُرى.

وكانت القناة الثانية للإنفاق هى مصروفات المعابد الإضافية، وكانت تشمل فى المقام الأول دفع رواتب العاملين بها عيناً. وطبقاً لـ «الحق فى القرابين»، كانت القرابين التى تقدم فى واقع الأمر للإله تنقل أولاً لتوضع أمام أية تماثيل عبادتها أقل، ثم تقسم فى آخر الأمر بين الكهنة والعاملين فى المعبد. ومن خلال القناة ذاتها، أو قناة أخرى مختلفة، كانت عوائد المعبد تصل كذلك إلى الآخرين من ذوى التكليفات، مثل عمال جبانة طيبة من دير المدينة. وبالنسبة لأكبر المعابد كان التدفق اليومى من «القرابين» ضخماً. فقد بلغ إجمالى قرابين مدينة هابو ٥٥٠٠ رغيف، و٥٤ كعكة، و٣٤ صحن حلوى، و٢٠٤ جرة جعة، وأصنافاً عديدة من الأطعمة الأخرى(19). وليس معروفاً كيف كانت المعابد تدفع ثمن توسعتها وصيانة مبانيها. وكان إنشاء المعابد وتوسعتها من الواجبات التقليدية التى يقوم بها الملوك. ولكن حيث إن دخل المعابد كان يقدمه الملك فى المقام الأول، فإن استخدامه بعد ذلك لدفع ثمن التحسينات كان يظل فى إطار روح الهبة الأصلية. وفى أى من الحالات كان يفترض أن سلطته ضرورية لأى تغيير يطرأ على طريقة التصرف فى دخل المعابد. إلا أن هذا النظام كان يتميز بقدر من المرونة كذلك، إلى حد أنه بالإضافة إلى قيام إحدى المؤسسات بطلب ما تريده لأغراض خاصة من مؤسسة أخرى (انظر الفصل السادس)، كان بإمكان أحد المعابد استئجار الأراضى الزراعية من معبد آخر.

ويبدو جلياً من الشهادات المكتوبة القديمة، وكذلك من منطق الموقف، أن اقتصادات المعابد أفرزت فائضاً من الدخل يزيد على الاحتياجات. وكانت بعض السنوات جيدة بالنسبة للفلاحين، وكان البعض الآخر سيئاً. وكانت المعابد تتوقع عموماً أن يتراكم لديها احتياطى كبير أو مخزون احتياطى من الغلال وغيرها من السلع التى كانت تخزنها فى مجمعات ضخمة من المخازن داخل أسوار المعابد. وقد بقى العديد من التصميمات الكاملة نسبياً، وتكملها بعض الصور المعاصرة المفصلة[20]. وأفضل ما بقى من الناحية الأثرية مجموعة المخازن الملحقة بالرمسيوم، وهو معبد رمسيس الثانى الجنائزى (الشكل 68 واللوحة 6)[21].

ولكى نعطى القارئ فكرة عن التركيز الضخم لثروة الغلال التى كان بإمكان أحد المعابد الكبيرة أن يخزنها، فقد حسبنا السعة الإجمالية للحجرات الأكثر احتمالاً لأن تكون مخازن غلال، وقدمناها فى الكلام المصاحب للشكل 68 . وعندما حولت هذه الكمية إلى المكاييل المصرية القديمة كانت ٢٢٦٣٢٨ خار(*) (أو كيس). وإذا كان متوسط راتب عائلة العامل هو ٦٦ خار فى السنة من القمح والشعير (وهو ما تؤكده سجلات الدولة الحديثة التى عثر عليها فى دير المدينة)، فإن مخازن غلال الرمسيوم، فى حال امتلائها بكامل سعتها، كانت تكفى ٣٤٠٠ أسرة فى السنة، أى ما بين١٧ و٢٠ ألف فرد، وهو متوسط عدد سكان مدينة قديمة متوسطة الحجم، وعدد من السكان يزيد كثيراً على سكان قصر منف الخاص بسيتى الأول الذى تتم مناقشته فى موضع لاحق من هذا الفصل. ويمكننا استخلاص نتيجتين عامتين من هذه الممارسة: فليس من المحتمل أنه فى أى وقت بعينه كانت مخازن الغلال فى أكثر من معبد جنائزى تستخدم بكامل طاقتها . وكما هو حال مخازن الغلال الموجودة فى الحصون النوبية التى ناقشناها فى الفصل السابق، فإن السعة التخزينية تعكس ما يزيد كثيراً على حاجات عدد السكان المقيمين ويعتمدون عليها. وكان الاقتصاد الفرعونى فى زمن الاستقرار الداخلى يعمل على مستوى أعلى بكثير من مستوى الإعاشة. فقد كانت الغلال ثروة، وكانت مخازنها الكبيرة قائمة هناك من أجل شحنها إلى أنحاء البلاد، بل وإلى الخارج من أجل تنفيذ المشروعات الملكية العظيمة. لقد كانت المعابد الكبرى هى بنوك الاحتياط فى ذلك الوقت.

(*) يعادل الخار ١٦ حقاتاً ، أى ١٢٨ جالوناً (المترجم) .

كان النموذج المثالى هو الوفرة الزائدة، حيث تفيض مخازن الغلال بما فيها. وليس هناك ذكر فى النصوص القديمة لأى «ربح». غير أن هذا ما كانت تأتى به المحاصيل الجيدة. وكانت المعابد الكبرى تمتلك كذلك سفنها التجارية الخاصة بها، ليس فى مصر وحدها، بل فى الخارج كذلك. فعلى سبيل المثال قدم رمسيس الثانى لمعبد سيتى الأول فى أبيدوس سفينة بحرية للتجارة الخارجية مزودة بـ «الجلابين»[22]. ويبدو أن "الجلابين" كانوا مكوناً منتظماً من مكونات هيئات العاملين بالمعبد، ويفترض أنهم كانوا يتحملون مسئولية مقايضة فائض المنتجات – ليس من الغلال وحسب وإنما من الأشياء الأخرى مثل الكتان – بالسلع التى كان المعبد بحاجة إليها، وهى التى قد تكون زيت السمسم أو ورق البردى[23]. وبما أن كل شىء فى مصر كان قابلاً للمقايضة، فإن التراكم التدريجى للسلع التى لا تبلى، وخاصة المعادن، فى مخازن المعابد أدى إلى زيادة مخزون المعابد الدائم. ومن الصعب إدراك نتائج هذا. غير أنه لابد أن السيطرة المؤسسية على اقتصاد البلاد والقدرة على تجميع احتياطى ضخم كان لهما أثر مطرد على الاقتصاد العام ، حيث أدى ذلك إلى حدوث توازن بين آثار المحاصيل الجيدة وتلك السيئة ، وبذلك جعل الأسعار مستقرة استقراراً معقولاً على مدار السنة ومن سنة لأخرى. وعندما نصل إلى دراسة القطاع الخاص فى الفصل التالى، سوف يبرز هذا على أنه عامل مهم فى تلك الأدلة البسيطة التى تحت أيدينا.

وتسوقنا ثروة المعابد الكبيرة وسلطة آلهتها إلى سؤال مهم، وهو هل كان المديرون – أى الكهنة – يدركون مدى نفوذهم؟ وبشكل أكثر تحديداً، هل كان كهنة آمون فى طيبة يشكلون تهديداً كبيراً للملك؟ ولكى نجيب عن هذا السؤال لا بد من دراسة جانبين آخرين من جوانب مجتمع الدولة الحديثة: وهما العلاقة المتداخلة بين المُلك وعبادة آمون، ونفوذ المؤسسات الأخرى، وهى القصر والجيش على وجه الخصوص.

النظام الملكى وعبادة آمون

صارت المطالب التى على الملوك تلبيتها ضخمة. فقد كانوا يقفون على رأس إدارة كبيرة، أصبحت فى حالة المعابد تشمل مؤسسات مهمة ذات طابع شبه مستقل. كما كانوا مسئولين عن قيادة الجيوش فى المعارك ضد قوات غرب آسيا المجهزة

تجهيزاً جيداً، وكانت تكمن فى هذه الجيوش عزة دولة إمبريالية ذات علاقات دبلوماسية واسعة النطاق. وكان توقير الملوك ضرورياً للحفاظ على بنيان الدولة. إلا أن المُلك فى حد ذاته لا يضمن التوقير والاحترام. فقد كان جزء كبير جداً يعتمد على أحداث الولادة. وكان الأمر يلزمه دعم من الأسطورة والتعزيز المنتظم من الشعائر ، لوضع نقائص كل ملك قائم بذاته فى إطارها الصحيح. وعن طريق الأسطورة والشعائر لا يترك أى من الملوك معتمداً اعتماداً كاملاً على سجاياه هو. فتوقير شعبه له يتمحور حول منصبه. وقد بذلت الدولة الحديثة جهداً كبيراً لتحقيق ذلك. ويتضح ذلك أكثر ما يتضح فى تماهى الملك وآمون.

وفى الدولة القديمة كانت العقيدة التى ظهرت بقوة هى أن الملك ابن رع، إله الشمس. واعتباراً من منتصف الأسرة الرابعة كان خرطوشا الملك يصفانه كما يلى: «ابن رع، أ» (و أ هو اسم رع الخاص بالملك)، مثل «باقية أرواح رع» (وهو اسم رع الخاص بالملك منكاورع، بانى الهرم الثالث فى الجيزة). وأهمية الاعتماد الملكى على الشمس تم التعبير عنها بالحجر فى هيئة الأهرام، وفى الأسرة الخامسة من خلال معابد الشمس الكبيرة الملحقة بالأهرام. وكان المصريون يستخدمون كلمة "ابن" استخداماً مجازياً للإشارة إلى ما يشبه وضع الابن المخلص المحب الذى قد يحتله شخص ما، بمن فى ذلك الملك، لدى شخص آخر. إلا أن «ابن رع» كان يؤخذ مأخذاً أكثر حرفية. وهناك حكاية تعود إلى أواخر الدولة الوسطى (فى بردية ويستكار) تدور أحداثها فى الزمن القديم فى بلاط الملك خوفو، وهى تحكى كيف أن ملوك الأسرة الخامسة شديدى التدين جاءوا نتيجة اتحاد جنسى بين رع وزوجة أحد كهنة رع[24]. وليست الحكاية جزءاً مقدساً من الديانة، وقد لا تكون دليلاً على أن الأسطورة الحرفية الخاصة بالأصل الإلهى للملك كانت ديانة جادة قياسية فى العصور السابقة. إلا أنها كانت كذلك فى الدولة الحديثة.

ووجود الشمس كمعبود أسمى يخلق مشكلة. فهى أوضح مصادر القوة فوق البشرية وأكثر ما يراه الناس منها. إلا أن وضوحها وشكلها الثابت فى حد ذاتهما يجعلان فهمها بصور تشخيصية أمراً أكثر صعوبة. فأية ديانة لها ترانيم وصلوات وقرابين تضفى قدرة أشبه بالقدرة البشرية على جزء من المعبود كى يتلقاها. وهذا ما

أدركه المصريون بصورة فطرية، حيث أضفوا فى زمن مبكر جداً على معظم الآلهة والإلهات المصريين شكل الجسم الآدمى، وإن أبقوا فى بعض الأحيان على رأس حيوان ما كنوع من التمييز. وأحد أشكال إله الشمس، وهو حورس فى الأفق (رع حور أختى)، كان على هيئة رجل له رأس الصقر الخاصة بالإله حورس. إلا أنه فى سياقات أخرى كان قرص الشمس يترك كعنصر منفصل، ربما كان يدفعه دفعاً رمزياً للأمام جعران، هو نفسه رمز للخلق باعتباره الإله خبر، أو مسافراً فى مركب الشمس فوق إله له رأس كبش. وعندما بلغ الأمر عبادة الشمس مباشرة عن طريق الترانيم وتقديم القرابين من الأطعمة، بات من الصعب الحفاظ على جو الغموض الضرورى لتغطية العمل المصطنع إلى حد ما. فكانت الترانيم ترتل والقرابين تقدم من على منصة مكشوفة. وكانت الشمس تمثل صورة شاعرية جيدة للملك، غير أنها كانت نموذجاً لا يتناسب بالقدر الكافى مع نظيره الإلهى.

وتغلب علماء اللاهوت فى الدولة الحديثة على ذلك. فقد كان الإله الأسمى أباً للملك، وظل الأساس المطلق للتوقير الملكى وأعطوه شكل إنسان. وكان ذلك هو الإله آمون. ولم يكن هذا اختياراً تعسفياً، ذلك أن آمون كان معبوداً قديماً لطيبة، موئل ملوك الأسرة الثامنة عشرة. وتاريخ آمون المبكر ليس موثقاً توثيقاً جيداً، إلا أنه من الواضح أن تفوقه فى الدولة الحديثة كان نتيجة لتأكيد لاهوتى متعمد[25]. وهناك سمتان تعودان على أقل تقدير إلى الدولة الوسطى، وهما ما أسبغ على آمون صورة شديدة القوة. فبدون تعديل صورته البشرية أصبح إله الشمس آمون رع، وبات يتلقى (تحت الاسم المخفف آمون) الترانيم الموجهة للشمس. كما أنه كان يصور على أنه مصدر الخصب، وهو ما يتضح بقوة فى عبادة الإله مين القفطى، الذى اتخذ صورة يبرز فيها عضوه الذكرى. وفى الدولة الحديثة تم التعبير عن مكانته تعبيراً جيداً من خلال لقب شائع هو: «آمون رع، ملك الآلهة». وفى طيبة على وجه الخصوص كانوا يعرضونه فى المعابد على أنه الصورة الأبوية الإلهية التى ترعى الملك وتشرف على انتصاراته. وامتد هذا الدور إلى العبادة الجنائزية التى تركزت فى ذلك الوقت داخل المعابد الجنائزية ذات الأسلوب الحديث على الضفة الغربية من طيبة.

واستولى آمون كذلك على ولادة الملك الإلهية، وهو ما انضم فى ذلك الوقت إلى ذخيرة المناظر الموجودة على جدران المعابد. وبقى من ذلك مثالان مكتملان – فى معبد

الملكة حتشبسوت بالدير البحرى، وفى معبد أمنحتب الثالث فى الأقصر - غير أن هناك شذرات أخرى معروفة[26]. والحلقة المهمة فى السلسلة كلها يتم التعامل معها بحساسية شديدة (الشكل 70). إذ تبدو أم الملك الجالس على العرش وهى جالسة أمام الإله آمون، الذى يلمس يدها بإحدى يديه ويقدم لها باليد الأخرى الرمز الهيروغليفى الذى يشير لـ «الحياة». وتجلس المعبودتان الحاميتان نيت وسرقت تحتهما على فراش الزواج، حيث تمسكان بالزوجين اللذين فوقهما. والنص المصاحب لذلك أكثر وضوحاً:

الكلمات التي نطق بها آمون رع، سيد الكرنك، المبجل في حريمه، عندما اتخذ هيئة زوجها، وهبت الحياة للملك من خبرو رع (تحتمس الرابع). وقد وجدها وهى نائمة، فى قصرها فاستيقظت علي العبير الإلهى واستدارت ناحية جلالته. فاتجه هو نحوها علي الفور فأثارته. وهنا سمح لها برؤيته فى صورته الإلهية، بعد أن وقف أمامها، حتي أنها استمتعت برؤية كماله. ودخل حبه فى جسدها. وفاض القصر بالعبير الإلهى، وكل عطوره من تلك التى تأتى من بلاد بونت.

وبعد حديث قصير على لسان الملكة يعبر عن الفرح يعلن: "أمنحتب، أمير طيبة، هو اسم هذا الطفل الذى أودعته رحمك." وتصور المناظر التالية تشكيل الطفل وروحه (كا) على عجلة الفخار بيدى إله الخلق خنوم الذى له رأس كبش، وتتم الولادة نفسها فى حضور العديد من الأرواح الحامية.

وتمضى نسخة الملكة حتشبسوت لتوضح كيف أن قوة الصور المصنوعة صناعة جيدة ونفوذها يمكن أن تحل محل الواقع. فهى من الناحية التاريخية ابنة تحتمس الأول وزوجة خليفته تحتمس الثانى، الذى عاشت بعده أكثر من عشرين سنة. وفى السنوات القليلة الأولى من ترملها كانت وصية على خليفة الملك صغير السن، وهو ابن أخيها تحتمس الثالث، إلا أنها أعلنت نفسها ملكاً، وحكمت باعتبارها الشريك المهيمن. وفى معبدها الجنائزى بالدير البحرى، غربى طيبة، تظهر فى كل مكان باعتبارها الملك الشرعى، حيث نجدها مصورة ويشار إليها فى كثير من الأحيان فى النصوص على أنها ذكر. وفى هذه المسألة الأخيرة لم تكن تقاليد المُلك تتيح خياراً آخر.

وهنـاك مجموعة لطيفة من المناظر فى الدير البحرى تسجل قصة أصولها. وتأتى فى البداية سلسلة ولادتها الإلهية، حيث نجد أنه قصد بها منذ البداية أن تكون ملك مصر. وبينما تتكشف القصة، نجدها تنتقل شيئاً فشيئاً وببراعة إلى عالم البشر. فهى تزور الوجه القبلى مع والدها الحقيقى، تحتمس الأول، حيث تتولاها كل آلهة مصـر التى تتوجها وترفع لقبها. وفى الوقت الذى تندمج فيه بصورة أوثق مع العالم المادى يقدمها أبوها للبلاط ويعينها خليفة له وشريكة.

هذه ابنتى، خنيمت أمون حتشبسوت، طال عمرها. إنى أعينها خليفة لى، وهى من سيجلس على هذا العرش. إنها بكل تأكيد من سيجلس على هذا العرش الإلهى. وسـوف تصـدر المراسـيم للناس من كل أقسام القصر. وهى بكل تأكيد من ستتولى إرشادكم. أطيعوا ما تقوله، وتجمعوا عندما تأمركم ...ذلك أنها إلهكم وابنة الإله[27].

واتسم رد فعل الناس بفرحة يغلب عليها الانفعال، ونظم الكهنة المرتلون لقبها، ووضع اسمها على المبانى وعلى الأختام الرسمية، وفى نهاية الأمر توجت فى عيد السنة الجديدة. ووصلتنا سجلات أخرى لهذا الموقف – وهو أن حتشبسوت كانت وريثة تحتمس الأول وخليفته دون إشارة إلى أى من تحتمس الثـانى أو تحتمس الثـالث – فى الكرنك. وهى جميعاً تصف على نطاق واسع أحداثاً محددة ومفصلة، ولكنها، على حد رؤيتنا، تعد مخترعة بالكامل. بل إن تاريخ تتويج عيد السنة الجديدة كان يشير إلى عادة قديمة باتت مهجورة[28]. ولو كانت الصدفة حرمتنا من كل المصادر الأخرى الخاصة بتلك الفترة، ولم يكن تحت أيدينا سوى هذه المصادر، لاضطررنا إلى قبول ما سجلته على أنه تاريخ صادق.

وهذا التقديم الخاص بعهد حتشبسوت يعود بنا إلى الفصل الأول وإلى الأسطورة الأساسية الخاصة بالدولة: حيث التسلسل غير المنقطع للملوك الشرعيين الذين يحكمون من خلال سلسلة نسب واحدة متعاقبة من الملوك الذين ينحدرون من أصول إلهية. وقد جعلوا عهد حتشبسوت متوافقاً وحسب مع الصورة النموذجية. ورفض المصادر باعتبارها دعاية يحول دون فهمنا للمسألة، خاصة إذا كان هناك إيحاء بأنها تختلف فى أغراضها عن وثائق عهود أخرى. فالمعابد كانت تسجل من أجل الخلود، وكانت لا تقدم إلا صيغة واحدة للمُلك لا بد للأحداث الدنيوية أن تتلاءم معها بأى درجة

تقتضيها من التحويل. وبذلك جعلوا سجل عهد حتشبسوت متسقاً مع نمط قديم معترف به، وكان هذا هو ما يهم.

طيبة: مدينة الشعائر

واقع الأمر أن طيبة لم تكن عاصمة مصر إبان الدولة الحديثة، بمعنى أن يتركز فيها البلاط وأعلى المناصب الإدارية. فقد كان ذلك هو الدور الذى تقوم به منف، وقامت به فى أواخر الدولة الحديثة مدينة بر رعمسو الواقعة شرقى الدلتا (بالقرب من بلدة الختاعنة الحالية). وكانت عائلة ملوك الأسرة الثامنة عشرة قد نزحت من طيبة. وفى زمن الدولة الحديثة صارت لآمون إله طيبة شهرة غير عادية. وجعل ذلك للمدينة دوراً خاصاً فى الدولة، وهو دور المدينة المقدسة التى تقام بها الاحتفالات الدينية التى كان فيها لشعائر الملك الإلهى دور كبير. واحتفى الشعر بريادتها الرمزية:

> **طيبة هي النبراس لكل مدينة. ففيها الأرض والماء منذ بداية الزمان. وبلغتها الرمال كى تشكل الأرض، وكي تخلق أرضها علي هيئة تل مرتفع عندما فطرت الأرض. وكذلك جاء الإنسان إلى الوجود فيها، بغرض تأسيس كل مدينة على اسمها. فأى منها جميعاً تسمى «مدينة» على غرار طيبة[29].**

وكان قلب طيبة فى الدولة الحديثة هو معبد آمون بالكرنك[30]. وهذا المعبد يقوم حالياً داخل سياج ضخم يحيط به سور عريض من الطوب يعود إلى الأسرة الثلاثين. وفى بعض المواضع، وخاصة فى الجنوب، يسير هذا السور بمحاذاة سياج الدولة الحديثة، إلا أنه يتخذ فى الشرق مساراً يتجه للخارج إلى حد ما. ومع ذلك فلا بد أن السياج فى الدولة الحديثة كان يحيط بمساحة لا تقل عن ٤٠٠×٤٠٠ متر.

ومنذ ما يربو على المائة عام والمهندسون والباحثون يعملون على صيانة معابد الكرنك وتسجيلها. إلا أنه فى السنوات القريبة نسبياً فقط أصبح هناك اهتمام جاد بما يقع تحتها. وأظهرت الحفائر (وهى ملخصة فى الفصل الرابع، راجع الشكل 57) بصورة فعالة كيف كان أثر بناة المعابد فى الدولة الحديثة على المدينة القديمة عظيماً:

فقد دمروها تدميراً تاماً. وكانت مدينة طيبة فى عصور ما قبل الدولة الحديثة قد نمت بحلول أواخر الدولة الوسطى لتصبح مدينة واسعة تقوم على تل وتغطى مساحة لا تقل عن ١٠٠×٥٠٠ متر وربما أكثر من ذلك بكثير. وهو ما يضعها فى مصاف أماكن كانت كبيرة بالمقاييس القديمة. وكان جزء كبير منها قد خطط بحيث يتطابق مع تخطيط متعامد صارم، كانت تقع داخله القصور (وهو ما نعرفه كذلك من النصوص). وخلال الأسرة الثامنة عشرة أجليت المدينة بالكامل وسويت بالأرض لتصبح منصة أساسات تقوم عليها المعابد الحجرية الجديدة التى سادت. وربما حدث ذلك بصورة تدريجية، حيث نجد أن بعض أجزاء الموقع، وخاصة «خزانة» تحتمس الأول والجزء الجنوبى من طريق المواكب المتجه جنوباً (بين الصرحين الثامن والعاشر) يسير فى اتجاه يتفق مع الشارع الرئيسى ومخطط المدينة القديمة (انظر الشكل 57)، بينما اتخذ سائر المعبد اتجاهاً متعامداً على النهر، وهو الاتجاه الذى يبدو أن معبد الدولة الوسطى كان يتخذه كذلك.

ولا بد أن الجزء السكنى من طيبة أعيد بناؤه على أرض جديدة تقوم على تخصيص جديد لملكية قطع أراضى البناء. وكونها تقوم على أرض جديدة يعنى أنها كانت على مستوى أدنى من مستوى المعبد الجديد القائم على قمة تل المدينة القديمة الذى تمت تسويته. وربما تكون هذه المدينة الجديدة فى الوقت الراهن دون المستوى العام للمياه الجوفية. ومن المؤكد أن أياً من الحفائر الحديثة لم يصل إليها بعد. وموقع أحد الأحياء يحدده نقش على مسلة عملاقة قطعت فى عهد تحتمس الثالث وأقامها تحتمس الرابع فى مقصورة مثيرة للتساؤل أقيمت فى مواجهة السور الخلقى، أى الشرقى، من مبنى معبد الكرنك الرئيسى. وكان الغرض من تلك المقصورة أن تكون لمن ليس لهم الحق فى الوصول إلى المعبد الرئيسى. وكانت «موضع الأذن» بالنسبة للإله آمون، حيث كان بإمكان الإله أن يسمع دعوات أهل المدينة منها. ويبدو كذلك أنها كانت تضم تمثال «رمسيس الذى يسمع الدعاء»، وهو ما يكشف الحقيقة التى وراء عبادة الملوك الإلهيين[31]. ويذكر نقش المسلة أنها أقيمت فى «مدخل الكرنك الأعلى، المواجه لطيبة»[32]. وما يوحى به هذا بجلاء هو أنها كانت تتجه صوب المدينة الواقعة ناحية الشرق. إلا أنه ينبغى علينا أن نتخيل مدينة تغطى مساحة أكبر بكثير من ذى قبل، مما

يعكس الجو الأكثر توسعاً للدولة الحديثة (الشكل 71) . وكانت مدينة العمارنة التى لم تعمر طويلاً تنتشر الجزء المبنى منها على مساحة طولها ٥ كيلو مترات وعرضها كيلو متر واحد.

وهناك أدلة فى مواقع أخرى تبين أن ما طرأ على طبيعة طيبة فى الدولة الحديثة لم يكن أمراً غير عادى. إذ يبدو أن تلك الفترة اتسمت بالتجديد العمرانى. وبالنسبة للدولة الوسطى يمكننا التحدث عن التحول العمرانى على أنه سياسة من سياسات الدولة، وقد تم تحقيقه عن طريق إقامة المستوطنات سابقة التخطيط التى كانت تعكس بمخططاتها المتعامدة الصارمة سيطرة المجتمع البيروقراطى المكثفة. ويوضح التجديد العمرانى فى الدولة الحديثة أقل القليل من هذا، وربما نشأ نتيجة لإعادة تعمير المواقع داخل المدن باعتبارها متاخمة للمعابد. وصار لمبنى المعبد الإقليمى على نطاق واسع أولوية فى إنفاق الدولة إبان الدولة الحديثة للمرة الأولى. وكان إعادة بناء المدن والبلدات، بأسلوب أكثر انفتاحاً يعكس الطبيعة المتغيرة للمجتمع المصرى، نتاجاً فرعياً بات مرغوباً فى حد ذاته بصورة عامة.

وشيد الجزء الرئيسى من معبد الكرنك فى الأسرة الثامنة عشرة، وكان يحيط به من جوانبه الأربعة معبد الدولة الوسطى القديم الذى كان محاذياً، مع اختلاف طفيف، للمحور الرئيسى لحى الدولة الوسطى المخطط من المدينة ، وكان يتجه مباشرة صوب النهر. وتكشف المعابد الخاصة بالأسرة الثامنة عشرة عن قدر كبير من التباين والأصالة فى التصميم. ويصدق هذا بصورة خاصة على الكرنك. فالتخطيط فريد، فى تعقيده الداخلى وفى تخصيص جزء صغير للمساحة المكشوفة. وكان العنصر المركزى عبارة عن مقصورة مفتوحة من طرفيها، وكانت تحتوى على القارب المحمول الذى يمكن أن ينقل عليه تمثال آمون إلى خارج المعبد فى الاحتفالات المهمة. والمقصورة الجرانيتية الحالية تعد بديلاً متأخراً جداً تم على يد الملك المقدونى فليب أرهيدايوس، ويعود أصلها إلى الدولة الحديثة. وفى عهد تحتمس الثالث جرى توسيع المبنى الرئيسى بمقدار ٥٠ بالمائة تقريباً بالإضافة التى ألحقت بمؤخرة المبنى الحجرى، الذى بات يعرف بـ «بهو احتفالات» تحتمس الثالث[33]. وكان يقوم على جانبى مدخله زوج من تماثيل الملك فى الوضع الأوزيرى. وربما كان ذلك يعلن مباشرة أن المُلك يحظى باهتمام

خاص من المبنى. وفى الداخل، كان أكثر العناصر المعمارية روعة هو بهو أعمدة صمم بطريقة تعيد إلى الأذهان قوائم ومظلة النسخة المستطيلة الضخمة من المقصورة الخيمة، وهى إشارة مهمة إلى الأسطورة المصرية الخاصة بأصول المعابد (انظر الفصل الثانى). وتصور مناظر الجدران سوكر إله العالم السفلى، واحتفال الحب سد، وصورة آمون الخاصة بالخصوبة، وعبادة الشمس، وعبادة الأسلاف الملكيين. وكما هو حال معظم المعابد المصرية بصورة عامة، هناك القليل مما يتحدث صراحة عن الغرض من المبنى، وهو ما أدى إلى تأويلات متباينة تبايناً شديداً. أحد هذه التأويلات، وهو الذى يضع فى اعتباره تمثالى الملك الأوزيريين القائمين عند المدخل، يرى أن الغرض الأساسى كان الاحتفال بتجديد الملك الإلهى من خلال مطابقته بإله البعث سوكر وإلهى الشمس حورس ورع، ومن خلال طقوس الحب سد. وبذلك كانوا يجعلون قوى الملك النامية والمتجددة أبداً جزءاً لا يتجزأ من الرمزية المعمارية ومن الدورة السنوية لشعائر معبد آمون الرئيسى فى مصر. ومن المؤكد أن النقوش المحفورة على الجدار تبين أن سعادة الملك وسعادة أسلافه، كما تبينها التماثيل، كان يقدم لها ما يحققها فى الجو الدينى المشحون الخاص بهذا المبنى المسور. وكانت التماثيل المختلفة نفسها، ومن الواضح أنها كانت موضوعة فى أجزاء مختلفة من المبنى، تنقل فى مواكب إلى معبد الإلهة موت القريب(34).

وفى مكان ما من أرض معبد الكرنك كان يقع القصر الملكى(35). وقد غيرت الدولة الحديثة موقعه عند توسعة المعبد. ولا بد أنه كان مبنياً بالطوب اللبن. إذ لم يعثر على شىء من أساساته أو من كتل أحجاره المفككة. غير أننا تأكدنا من وجوده من الإشارات الواردة عنه فى النقوش. وفى حالة الملكة حتشبسوت نجد أن النقوش صريحة صراحة تكفى لتحديد الموقع الفعلى: وهو أمام واجهة معبد الأسرة الثامنة عشرة فى الجانب الشمالى. وتتوالى الإشارات إلى وجود قصر فى الكرنك إبان الدولة الحديثة، وإن كان الملوك لم يعودوا يقيمون فى طيبة اعتباراً من منتصف الأسرة الثامنة عشرة. إلا أن النصوص نفسها توضح أن هذا لم يكن قصراً عادياً للسكنى، بل كان مبنى شعائرياً يستعمل على سبيل المثال أثناء تتويج الملك. وكان الملك يزور طيبة باعتباره الابن الإلهى لآمون. وكان المكان الذى يقيم فيه يتخذ طابع المبنى المقدس. ولدينا المزيد من الأدلة المباشرة بشأن ما كان يبدو عليه أحد تلك القصور. وكان

برنامج مباني الكرنك الخاص بالملك الإصلاحي إخناتون يشمل قصرين ، وقد بقيت شذرات من صور هذا القصر على كتل الحجارة المحفورة. وهي تشير إلى مبنى ليست به أماكن للسكنى: فهو يضم في الأساس غرفة أو أكثر ذات أعمدة للمآدب، ومخازن. وشرفة للظهور أمام العامة (وسوف نناقش «شرفة الظهور» بعد قليل). وربما نتعامل مع مزيج من القصر الصغير المتعارف عليه الملحق بمعابد طيبة الجنائزية (انظر اللوحة 7 والشكل73) ونسخة أكبر حجماً هي في واقع الأمر خاصة بعصر إخناتون في العمارنة (دار الملك، انظر الفصل السابع). وهذه المباني لم تكن كبيرة جداً.

وتكشف نصوص حتشبسوت عن القيمة الأساسية لعبادة آمون في الكرنك. ففي احتفالات عديدة كانوا يخرجون بالمقصورة القارب المحمولة التي تحتوي على تمثال لآمون من المعبد الرئيسي، وكانت توضع على قوائم يحملها الكهنة على أكتافهم. وكان بالإمكان خلق فرصة من هذا كي يأتي آمون بـ «معجزة». وكانت حركة ما من القارب الخشبي الثقيل يمكن أن تنتقل إلى أكتاف حامليه، فيتم تضخيمها بحيث يحدث انحراف واضح عن المسار المحدد. وفي أحيان أخرى كانت المقصورة تميل إلى الأمام. وتزعم النصوص أن أحاديث كانت تصل من الإله، غير أن الوسيلة لم تكن واضحة. وبهذه الطريقة اصطفى آمون حتشبسوت اصطفاءً علنياً وفسرت المعجزة على أنها اختيار إلهي للملك التالي[36]. وبعد ذلك زعم تحتمس الثالث من خلال معجزة مشابهة في الكرنك أن آمون اصطفاه هو الآخر[37]. فكيف يكون تصرفنا نحن حيال مثل هذه المزاعم؟ هل ينبغي أن نكون متشككين ونقول إن كل شيء اصطنع في وقت لاحق من أجل أسباب دعائية؟ أم أن علينا أن نكون أكثر تفتحاً ونعتبر أنه ربما كان الأشخاص المختارون يسمعون بالفعل أصواتاً وهم في حالة الإثارة، أو ينطقون بما يلح عليهم به ضميرهم؟ أم أنه كانت لهؤلاء وسائل يمكنهم بها جعل صوت الإله يتكلم؟ وتصبح المسألة أكثر حدة بسبب حالة يدعي فيها أحد الملوك (وهو تحتمس الثالث مرة أخرى) أنه في شعيرة مد الحبل(*) ضمن شعائر وضع الأساسات تمهيداً لبناء معبد جديد

(*) أول طقوس تشييد المعبد ، حيث يقوم الملك ومعه كاهنة تمثل الألهة سشات ، إلهه الكتابة ، بتحديد مساحة المعبد بتثبت أربعة قوام في الأركان تبدأ من الشمال إلى الجنوب ، ثم من الشرق إلى الغرب . وبعد ذلك يمد بمساعدة الإلهة سشات حبلاً بين القوائم الأربعة . (المترجم) .

بالكرنك («بهو الاحتفالات» الخاص به)، «رغب جلالة هذا الإله المبجل فى مد الحبل بنفسه»[38]. كيف تعتمد تجربة الزهد التى يتم الشعور بها بعمق فى مواجهة اتباع الأسلوب الدينى المقولب، الذى نعتقد أنه كان موجوداً، اعتماداً كبيراً على الحالة الذهنية للقارئ الفرد. هذا ليس بالشىء الذى يمكن للبحث العلمى أن يجيب عنه إجابة صحيحة. وكل ما يسعنا قوله هو أن العبارات التى من هذا القبيل يكون لها مغزاها الأيديولوجى، حيث تؤكد على الأهمية الخاصة للحدث موضع البحث. فيقال للقارئ إن اختيار الملك التالى أو وضع مخطط لأحد المعابد (أو الأعمال الأخرى العديدة التى تقرها نبوءة آمون) يتمتع بأكبر سلطة يمكن للعقل ومفردات اللغة أن تنقلها. فهو يدلل على الدور الذى يقوم به آمون فى إضفاء الشرعية على الأمور واستخدام حرم معبد الكرنك كحلبة مناسبة لذلك.

وربما كان أقوى توضيح لكيفية وقوع الكرنك فى موضع القلب من أيديولوجيا نظام الدولة إبان الدولة الحديثة يمكن رؤيته فى عهد الملك إخناتون، الذى قام بإصلاح أساسى، وإن لم يعمر طويلاً، فى ديانة الدولة وصور المُلك وتماثيله فى الأسرة الثامنة عشرة. وانطوى ذلك على الرفض التام لآمون، وإقامة المعابد للشمس المرئية (آتون) التى شيدت على أنساق جديدة وبنقوش مبتدعة. وبدأ إخناتون برنامجه فى الكرنك نفسه ببناء العديد من المعابد الجديدة وأحد القصور واحتفال الحب سد[39]. وكان باختياره البدء من الكرنك يعلن بأشد ما له من قوة أن الأسلوب الجديد للمُلك وديانة الدولة، الذى يبلغ حد الاتفاق الجديد الذى عقد بين الملك والإله، يصدر من حاضرة السلطة المعترف بها فى مثل هذه الأمور. وكان بطبيعة الحال يقر فى الوقت ذاته الأهمية المستمرة لبيت آمون القديم. إلا أنه اضطر لتغيير ذلك خلال فترة قصيرة، عن طريق إنشاء مدينة جديدة لعبادة الشمس الخاصة به فى العمارنة. وهذا هو موضوع فصل لاحق.

وكانت مواكب تمثال الإله جزءاً أساسياً من حياة المعابد فى مصر القديمة، وطيبة على وجه الخصوص. ونعرف هذا من العمارة التى فى الكرنك، وكذلك من المناظر والنقوش الموجودة على جدران المعابد. فاعتباراً من الدولة الحديثة ، كان الاهتمام والموارد التى توجه إلى تخطيط طرق المواكب بنفس القدر الذى يوجه للمعابد نفسها.

وفى الحالات النموذجية كانت طرق المواكب ترصف بالحجارة، وكانت تصف على جوانبها تماثيل أبى الهول وما شابهها، وكانت تقطعها استراحات على مسافات: وهى عبارة عن مقاصير رسمية أو معابد متعامدة على الطريق مصممة على أن تكون بها مقصورة قارب محمولة موضوعة على قاعدة حجرية. وكانت تسمى كذلك «المقاصير الخيمة الخاصة بالإله» (سخ نتجر). وربما كانت المطالب الجسمانية لحمل القارب الخشبى الثقيل بوقار هى ما أوجب تلك الاستراحات، إن لم تكن الممارسة الفعلية ذاتها. وفى الكرنك كان مثل هذا الطريق يمتد من واجهة المعبد غرباً ناحية النهر، وينتهى عند رصيف حجرى أعلى حوض على رأس قناة. وفى الأسرة التاسعة عشرة جرى تقصير هذا الطريق حين شيد عليه بهو الأعمدة الكبير والصرح الثانى، الذى صار الواجهة الجديدة للمعبد. وفى الأسرة الثامنة عشرة خطط طريق جديد للمواكب يتجه جنوباً من عند ما كان وقتها واجهة المعبد (انظر الشكل 65). وقد وفروا له مظهراً مؤثراً على قدر خاص من الحسن. وفى زمن حورمحب كان يتكون من أربعة صروح تفصل بين العدد نفسه من الأفنية ذات المسلات وساريات الأعلام والتماثيل الملكية الضخمة أمام أبراج الصروح، وشيدت استراحة وبهو حب سد ملكى فى جوانب الأفنية. وبعد آخر صرح (وهو رقم ١٠ في سلسلة الكرنك) كان الطريق يستمر لمسافة ٣٥٠ متراً أخرى، تصطف على جانبيه تماثيل أبى الهول التى لها رؤوس كباش وتعود لعهد حورمحب وتقطعه استراحتان، إلى أن يصل إلى معبد منفصل تماماً مخصص للإلهة موت التى جعلوها فى الدولة الحديثة زوجة لآمون. وهناك طريق ثالث كان موازياً لكباش عهد أمنحتب الثالث الحجرية التى أعيد استخدامها، وكان مساره موازياً تقريباً لمعبد خنسو، الذى كان يكمل عائلة طيبة المقدسة، باعتباره ابن آمون وموت. ويعود المبنى الحالى إلى الأسرة العشرين. وهناك اعتقاد بأن هذا الطريق كان ينتهى كذلك فوق حوض متصل بالنيل[40]. وكانت تقع على مقربة منه بداية طريق مواكب آخر يتجه جنوباً لمسافة ٢ كيلو مترات حيث ينتهى أمام معبد الأقصر. والكباش التى تصطف الآن على جانبى هذا الطريق يعود تاريخها إلى الأسرة الثلاثين فقط، إلا أن مصدراً من عهد حتشبسوت يبين أن تحديد الطريق تم ولا بد بطريقة ما فى الدولة الحديثة.

وكانت احتفالات طيبة كثيرة، وكانت الكبيرة منها تجعل المعابد تنفق النفقات الإضافية الضخمة من «قرابين» الأطعمة، التى كانت توزع، من خلال شعيرة تسمى

«رد القرابين»، كرواتب إضافية لأفراد المعبد وغيرهم ممن يشاركون فى الاحتفالات. وكأمثلة لذلك يمكننا اقتباس نص أصابه العطب لتحتمس الثالث فى بهو الاحتفالات الخاص به فى الكرنك ويضم قائمة بأربعة وخمسين يوم عيد فى كل سنة[41]، مقابل ستين يوماً تضمنتها قائمة مدينة هابو فى عهد رمسيس الثالث[42]. وبالنسبة لكميات القرابين، يقدم لنا تقويم الأعياد والقرابين فى مدينة هابو حداً أدنى لبعض الأعياد الشهرية المنتظمة هو ٨٤ رغيفاً من الخبز و١٥ جرة جعة، إلا أنه يرتفع ارتفاعاً حاداً فى الأعياد الأكثر شعبية ليصل إلى ٣٦٩٤ رغيفاً و٤١٠ كعكات و ٩٠٥ جرة جعة فى حالة عيد الإله سوكر.

وكانت مواكب تماثيل عائلة طيبة المقدسة وكائنات مقدسة أخرى (بما فيها تماثيل آلهة من الأزمنة القديمة) تبدأ من المعابد المطلية بألوان زاهية، وتسير ببطء فى طرق منظمة تنظيماً رسمياً ذات مواقف على مسافات متباعدة رتبت بعناية، ومن حين لآخر تكون هناك فرحة بـ «بمعجزة» ما. وقد خلق هذا كله مشهداً مسلياً وسخاءً كان يعزز بانتظام سيطرة المعبد المادية والاقتصادية. وفى أكبر الاحتفالات كان الملك يأتى إلى طيبة بنفسه ليكون فى القلب ولكى يكتسب بعض القوة التى تولدها المناسبة.

وكان أهم الاحتفالات هو احتفال أوبت[43]. وكان يأتى فى كل عام فى الشهر الثانى من موسم الفيضان. وفى منتصف الأسرة الثامنة عشرة كان يستمر لمدة أحد عشر يوماً. ومع نهاية عهد رمسيس الثالث فى الأسرة العشرين طالت مدته إلى ما لايقل عن سبعة وعشرين يوماً. وفى ذلك الوقت الذى كان الاحتفال يقام فيه فى مدينة هابو، وكان يحتفل بتوزيع ١١٣٤١ رغيفاً و٨٥ كعكة و ٣٨٥ جرة جعة. وكان أساس الاحتفال موكباً طويلاً على غير العادة لتماثيل عائلة طيبة المقدسة. وكان طريق المعبد يقع بين الكرنك نفسه ومعبد الأقصر، الواقع على مسافة ٣ كيلو مترات جنوباً (انظر الشكل 71) . وفى زمن حتشبسوت كانت رحلة الذهاب تتم براً، باستخدام امتداد الأفنية والصروح المشيدة حديثاً فى الكرنك والتوقف فى ست محطات فى الطريق، بينما كانت رحلة الإياب تأخذ طريق النهر. وبحلول أواخر الأسرة الثامنة عشرة كانت كل من رحلتى الذهاب والإياب تتم عن طريق النهر. وكان كل معبود يوضع فى مركب منفصل تقطره قوارب أصغر حجماً ومجموعات من الرجال على الشاطىء،

تضم موظفين كبارا بالبلاط. وكان الاحتفال واحدة من المناسبات التى يمكن فيها لعامة الناس تقديم التوسلات للآلهة أمام قواربها المحمولة، وأمام تماثيل الكا الضخمة الخاصة بالملك. وتصور مناظر الكا المفصلة كذلك جنوداً وراقصات وعازفى موسيقى يتابعون مسيرة القوارب من على الشاطئ، وهى محفورة على جدران معبد الأقصر الذى كان الاحتفال يقصده.

إن جزءاً كبيراً من معبد الأقصر الحالى من أعمال أمنحتب الثالث ورمسيس الثاني. وفى اتجاهه صوب الكرنك وليس النهر المجاور له إعلان عن اعتماده على الكرنك. والواقع أنه يبدو أن المعبد وجد فى المقام الأول لخلق موضع على قدر مناسب من كبر الحجم لإقامة الشعائر التى يتوجها احتفال أوبت (الشكل 72)[44]. وكانت تلك الشعائر تحل المشكلة الأساسية التى كانت السلطة العليا تخلقها ولا شك: وهى كيفية التوفيق بين الحاكم الحالى وألوهية منصبه.

وقد تفحصنا بالفعل العملية التى يتم بها بدايةً نفخ الألوهية فى الطفل البشرى المقدر له أن يصير ملكاً. وشُرح الأمر بطريقة حرفية بعض الشيء، حيث كانت تتم بالاتحاد الجنسى بين أمه والإله آمون الذى كان يتخذ هيئة أبيه بصورة مؤقتة. وتشكل مجموعة من المناظر التى توضح بعضاً من نقوش الجزء الداخلى من معبد الأقصر. إلا أن طبيعة الجوهر الإلهى كان يتم تعريفها تعريفاً منفصلاً: وهى الكا الملكية. فقد كان للأشخاص كافة كا، وكانت تتشكل عند مولدهم من سلسلة متصلة غير مرئية لقوة الحياة ومقدر لها أن تبقى للأبد. ولكن بما أن الملوك الأحياء ينتمون إلى أعلى درجة فى السلم الاجتماعى، وهى درجة شديدة المحدودية، فقد كانت كا الملك جزءاً من الجوهر الإلهى الذى يشارك فيه الآلهة والأسلاف الملكيون. وكانت كل كا ملكية جديدة، تخلق فى اللحظة التى يتم فيها حمل ملك المستقبل (وبذلك تصور فى مناظر ولادة الملك الإلهية)، تمثل الوعاء التالى للقوة الإلهية فى سلسلة نسب تمتد عبر سلسال من الملوك الأسلاف ليصل إلى الفترة التى كانت فيها الآلهة تحكم بنفسها. وكانت الكا الملكية التى لا تفنى موجودة وجوداً موازياً لحياة الملك الحى، وكانت تعطى الملك شرعيته. وهى بطبيعة الحال لم تكن سوى فكرة. غير أنها شأن كل الأفكار الدينية كانوا يجعلونها أقرب ما يكون إلى الواقع من خلال إقامة الشعيرة. وكان معبد الأقصر مركز

تلك الشعيرة، حيث كانت زينته ونقوشه توفر قدراً عظيماً من السمو لكا الملك. وكان موكب احتفال الأوبت المهيب يصل بالملك إلى المعبد. وكان يترك الحشود فى الخارج ويدخل ويمضى فى سيره بصحبة الكهنة إلى الأبهاء المسورة فى الخلف. وهناك ، وفى جو مشحون يطلق فيه البخور بكثافة ويكون الإله آمون حاضراً فيه حضوراً مبهماً، كان الملك والكا الخاصة به يندمجان، وكان شخص الملك يتحول. وعندما يظهر الملك من جديد يكون ظهوره وقد تحول تحولاً معجزاً إلى ملك إلهى، «على رأس كل الكاهات الحية». وكان ظهوره من جديد أمام العامة وقد أحاطته للتو هالة من الجلال هو ذروة الأمر الحقيقية، وهى لحظة الهتاف الذى يوحى بأن المعجزة قد تحققت وبات تحققها مقبولاً. وكان معبد الأقصر طبقاً لما قاله من شيده فى الأصل (أى أمنحتب الثالث) «موضع تسويغه، الذى تجدد فيه شبابه. وهو القصر الذى يخرج منه جذلا فرحانا فى لحظة ظهوره، وقد أضحت تحولاته ملء عين الجميع». وكان معبد الأقصر بالنسبة للملك بمثابة موضع أساسى لتداخل جوانب الألوهية ظاهرها وباطنها، التى كانت المعابد الأخرى توفرها لتماثيل الآلهة.

وكان جوهر الاحتفال السنوى هو حضور الملك بنفسه. وبحلول الأسرة الثامنة عشرة لم يعد الملوك يقيمون فى طيبة. فقد كانوا يقيمون فى أغلب الوقت فى شمال مصر، وخاصة فى قصور منف. وبذلك باتت المشاركة الملكية كل عام فى احتفال أوبت تنطوى على انتقال الدولة إلى الجنوب. وهو ما أدى إلى امتداد ابتهاج الجماهير إلى مسافة أبعد وتحول الاحتفال إلى مؤسسة فى حد ذاته. وكان يتولى مهمة إطعام أفراد البلاط أثناء محطات التوقف الليلى العديدة فى الذهاب والإياب عمد المدن الإقليمية. وبحلول أواخر الأسرة الثامنة عشرة كان ذلك قد أضحى عبئاً اقتضى إصدار مرسوم ملكى لتخفيفه.

وكان لاندماج الملك مع الإله آمون ولكل مواكبه مهمة خاصة برسم خط فاصل بين السياسة والإسطورة. فالخلافة الملكية قد تسوء سوءاً شديداً، بل قد يتآمر البعض على قتل الملك واستبدال آخر به (كما حدث مع رمسيس الثالث). غير أن الواقع المرئى وراءه بنيان له ثقله الشديد من الأسطورة والاحتفال والموضع المعمارى الضخم الذى يمكنه امتصاص التوافه من تقلبات التاريخ وتسوية كل شذوذ واختلال. وضمن ذلك

استمرار الحكم الصحيح الذى كان عنصراً على قدر كبير من الأهمية فى الفكر المصرى. كما استطاع على وجه التحديد تحويل المغتصبين (أو الدم الجديد، حسبما هو مفضل) إلى نماذج تحتذى من المشروعية والتقليد. ويعد حورمحب نموذجاً أساسياً لهذا. فقد انتهت الأسرة الثامنة عشرة بانقراض السلالة الملكية فى أعقاب عصر العمارنة. وآل العرش إلى رجل قوى من الجيش، هو القائد حورمحب الذى علا نجمه فى عهد توت عنخ آمون. وهو لم يكن ملكياً بالنسب. بل كان من رجال البلاط فى منف، وفى تلك الفترة قرر استكمال مقبرة أنيقة له ولأسرته فى جبانة البلاط بسقارة. وارتقاؤه سدة الحكم مسجل فى نصوص رسمية، وتصل هذه النصوص إلى حد الاعتراف بالجزء المبكر من حياته عندما كان «رئيساً أعلى للأرض» ومستشاراً للملك. وعندما أصبح ملكاً، من خلال مكائد سياسة البلاط، وعن طريق ما وفرته له قيادة الجيش من سطوة ونفوذ، تمت مراسم تتويجه فى الكرنك والأقصر كجزء من احتفال أوبت فى ذلك العام. وحسب وصف النصوص لمراسم التتويج، فقد كانت كلها متداخلة مع احتفال أوبت، حتى أن موكب الكرنك-الأقصر الكبير أصبح استعراضاً احتفالياً للملك الذى حصل لتوه على المشروعية(45).

مدينة الموتى فى طيبة

كانت الأقصر والكرنك ومدينة طيبة ذاتها تقع على الضفة الشرقية للنيل. وفى الجانب الآخر للنهر على الضفة الغربية شهدت الدولة الحديثة تطوراً واسع النطاق لمدينة الموتى. واعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة هجر الملوك بناء الأهرام فى منطقة منف. فقد جعلوا مقابرهم فى طيبة وتبعهم خلفهم فى ذلك حتى نهاية الأسرة العشرين. ولكن طابع المقبرة الملكية حينذاك كان مختلفاً تمام الاختلاف. فمكان الدفن بالأسلوب الجديد كان عبارة عن حفرة تحت الأرض منحوتة فى التلال الصحراوية بوادى الملوك، وكانت منفصلة تماماً عن عبادة تقديم القرابين شديدة الأهمية التى بات مكانها فى ذلك الحين معبداً يقوم بمفرده بجوار الوادى الطينى. ومن السهل تفسير هذا التغير تفسيراً عملياً: فقد كانت مقابر وادى الملوك أصعب على السرقة، وهو ما يرجع فى المقام الأول إلى أن موقعها كان يظل طى الكتمان إلى حد كبير. والسبب الأكثر أهمية هو المراقبة

الأمنية الشديدة للمنطقة. كما أن الأسلوب الجديد للدفن وإحياء الذكرى انطوى كذلك على مراجعة أساسية لرمزية المقبرة الملكية، وربما كان هذا السبب، وليست الغايات العملية، هو ما أدى إلى هذه النتيجة. وكان الفرق الأساسى يتصل بالعلاقة بين الملك والمعبود الأعلى. ففى المقابر الجديدة لم تعد عبادة جثمان الملك وتمثاله تدخل ضمن صورة غاية فى الضخامة من عبادة الشمس، وهى الهرم. وكانت الإشارة الوحيدة وقتها إلى عبادة الشمس المرئية هى فناء مفتوح به منصة ودرج يؤدى إلى ظهر المعابد الجنائزية الجديدة. لقد كانت المعابد الجديدة بمثابة إعلان عن مركزية آمون وسموه.

ومع أننا اعتدنا الحديث عن هذه المعابد باعتبارها المعابد الجنائزية الملكية، فهى فى حقيقتها مخصصة لصورة بعينها من صور الإله آمون، الذى أصبح الملك مندمجاً فيه بعد مماته، من خلال وجود تماثيله داخل مقاصيرها، بعد أن كان ذلك من خلال زياراته للمعبد فى حياته[46]. وفى الدير البحرى كان هناك آمون "مقدس المقدسين" وفى الرمسيوم (وهو المعبد الجنائزى لرمسيس الثانى) آمون «المتحد مع الأبدية»، وهو الاسم القديم لمدينة هابو. والواقع أن كل معبد من المعابد الجنائزية كان معبداً لآمون اتخذه تمثال ملك بعينه مقاماً له. ويتضح هذا أكثر ما يتضح من عمارة المعابد التى بقيت فى حالة جيدة. وتلك المعابد التى تعود للأسرتين التاسعة عشرة والعشــرين (وهى معابد سيتى الأول ورمسيس الثانى ورمسيس الثالث) خصصت الغرف الوسطى الخلفية، وهى أقدس مكان فى المعبد، لعبادة آمون. ليس فقط فى صورة تمثال دائم، بل كذلك فى هيئة المقصورة القارب المحمولة التى كانت توضع داخل بهو أعمدة تتوسطه قاعدة. وبالنسبة للأسرة الثامنة عشرة يحتفظ معبد حتشبسوت وحده بقدر كاف من مبناه. ونجد أنه خلف منتصف الشرفة العليا كان هناك قدس أقداس منحوت فى الصخر يضم تمثالاً لآمون. وكانت المعابد الجنائزية تخدم كذلك جوانب أخرى من جوانب الأيديولوجيا. فكما أشرنا منذ قليل، خصص فناء مفتوح فى الجانب الشمالى مزود بمنصة حجرية يصعد إليها بدرج لعبادة الشمس المرئية القديمة. وهذا البناء هو ما يسميه المصريون تسمية غريبة هى «شمسية». وكانت تتلى من فوقه الترانيم الشمسية؛ وخصصت غرفة أو جناح من الغرف إلى الجنوب من قدس أقداس آمون لعبادة التواصل التاريخى، فى هيئة والد الملك وفى بعض الأحيان أسلافه كذلك[47]. إلا أن مقصورة قارب محمولة أخرى كانت تقوم فى هذا المكان.

وكان التعبير عن شبكة صلات آمون بالضفة الغربية يتم من خلال المزيد من المواكب. وكان «احتفال الوادى» يقام مرة واحدة فى السنة، وكان يسبق احتفال أوبت بخمسة أشهر تقريباً[43]. وفى هذا الاحتفال كانت تماثيل آمون وموت وخنسو، وهى عائلة طيبة المقدسة، يؤتى بها من الكرنك ويعبرون بها النيل من نفس المكان. وبعد العبور يستمرون فى رحلتهم إما براً أو فى الترعة ليصلوا إلى الدير البحرى، حيث يقع المعبد الجنائزى القديم ومقبرة الملك منتوحتب الثانى من الأسرة الحادية عشرة ومقبرة الملكة حتشبسوت ومعبدها الجنائزى. ويقع الدير البحرى مقابل الكرنك تماماً، مما يجعل الرحلة بكاملها فى خط واحد. إلا أنه بمرور عصر الدولة الحديثة أطيل الطريق كى تبيت القوارب المحمولة فى المعبد الجنائزى الخاص بالملك الجالس على العرش. وفى اليوم التالى كان الموكب يعود أدراجه إلى الكرنك. ومع أن ذلك كان احتفالاً أقصر بكثير من احتفال أوبت، فقد كان ينظر إليه نظرة إجلال وكان مناسبة تقوم فيها العائلات التى لها أقارب مدفونون فى تلال طيبة برحلة إلى مقبرة العائلة، لتناول وجبة طعام ولقضاء الليل هناك(*).

وحوفظ على علاقة أقل ولكنها أكثر تواتراً بين الضفتين الشرقية والغربية فى معبد صغير شيد (أو أعيد تشييده) فى الطرف الجنوبى من جبانة طيبة فى عهد تحتمس الثالث (حوالى ١٤٧٥ ق.م)، بجوار الأرض الفضاء التى سيشغلها فيما بعد معبد رمسيس الثالث الجنائزى بمدينة هابو[49]. وكان شكل المعبد قياسياً فى زمانه، غير أن هيئته الخالية من الإثارة كان تخفى حقيقة أنه كان تجسيداً للتلال الأزلية التى حدث عليها الخلق أول مرة، بل وواحداً منها. فقد كان «تل الغرب الأزلى»، وهو الاسم الذى قد ينقل فكرة أن كلاً من الخلق الأول ومولد الموتى من جديد فى الجبانة الصحراوية الغربية يرتبطان ببعضهما. وتكشف نقوش الأسرة الحادية والعشرين أنه كل عشرة أيام (وهو طول «أسبوع» العمل فى مصر القديمة) كان يؤتى بتمثال آمون الأوبتى (الأقصرى) عبر النهر لزيارة هذا المعبد، ويحتمل طبقاً للنقوش الموجودة فى الأقصر نفسها أن هذه العادة تعود إلى زمن رمسيس الثانى.

(*) عادة كانت لاتزال تتبع حتى وقت قريب جداً بصورة كبيرة ولكنها خفت الآن. ومن أشهر هذه الزيارات ما تعرف بـ «طلعة رجب». وكان الأسرة تأخذ معها «السحارات» وهى صناديق خشبية تحمل فيها ما تحتاجه من مأكل ومشرب وفراش خلال الفترة التى تقضيها فى الجبانات. (المترجم).

وعند رسم طرق هذه المواكب جميعاً - وهى احتفالات أوبت والوادى والرحلات المنتظمة إلى مدينة هابو - على خريطة، نجد أنها تشكل نمطاً محدداً: وهو محيط مواكب خاص بطيبة (انظر الشكل 71). ورؤية معابد طيبة فى الشرق والغرب على أنها أجزاء تتماشى مع مشروع أساسى ليس مجرد خيال حديث. فبعض النصوص القصيرة، وخاصة الأسماء التى تحدد مبانى بعينها، أو أجزاء من تلك المبانى، تكشف عن تواز واضح فى التفكير المصرى بين المعابد الجنائزية فى الغرب من ناحية، والكرنك والأقصر فى الشرق من ناحية أخرى. وهو التوازى الذى أبرزته مواكب المقاصير المراكب[50]. والمشروع الأساسى، وهو الفكرة العامة المتكاملة الخاصة بالأماكن المقدسة فى طيبة، يتلخص فى الحقيقة البسيطة التى تقول بأنها جميعاً تخص «ضيعة آمون». وهذا هو ما حدده محيط المواكب. إلا أن تحقيقه على أرض الواقع يكشف كذلك حدود تخطيط منطقة الدولة الحديثة، وهو ما سينجلى تماماً فى الفصل السابع الخاص بالعمارنة. ولم تكن هناك محاولة للبناء على ميراث الدولة الوسطى عن طريق مد التخطيط العام لإحدى المستوطنات ليصل إلى التنظيم المسبق لمجمع المعابد والمقابر الدينى الضخم. وتثير معابد طيبة المنفردة إعجابنا بتخطيطاتها التى حرصوا على أن تكون متماثلة. ولكن يبدو أن مواضع كل منها اعتمدت اعتماداً كبيراً على عوامل محلية تتعلق بالقداسة أو اليسر، مما أدى لظهور منطقة خاصة من العمارة الدينية. وحدث ذلك فى الأماكن التى ساهمت فيها طرق المواكب، حيث رُبطت الأجزاء المتناثرة ببعضها لتخلق شكلاً من الوحدة.

وكما أتاحت الكرنك والأقصر فرصة شعائرية جيدة للملك ، فقد أتاحت المعابد الجنائزية القائمة على الضفة الغربية فرصة أخرى. فاعتباراً من زمن حورمحب كان كل منها يضم موضعاً صغيراً يقع بالقرب من واجهة المعبد (اللوحة 7، وانظر كذلك الشكل 68)[51]. وكان ذلك الموضع بمثابة مكان محدود ولكنه مريح على ما يبدو لإقامة الملك وحاشيته خلال فترات من زياراته لطيبة ، التى لم تكن كثيرة فى العادة. وأشهر نموذج، وهو موجود فى مدينة هابو، له مدخلان يؤديان إلى الجزء الداخلى من القصر ويحمل كل منهما منظراً للملك وهو يدخل. وهو فى إحدى الحالتين يدخل «ليرى أباه آمون فى عيده عند بداية أوبت» وفى الأخرى «ليجعل أباه آمون يظهر فى عيد الوادى»[52]. وكان قصر المعبد الجنائزى يقع دوماً فى الجهة الجنوبية.

وعند هذه النقطة، التى كان يواجه فيها الفناء الأمامى للمعبد أو الطريق المؤدى إلى داخل المعبد، كانت له شرفة رسمية، وهى «شرفة الظهور» (الشكل 73)[53]. وكان ذلك مكان شعيرة المكافأة التى لم تكن تقام أكثر من مرة أو مرتين فى السنة، ضمن برنامج احتفالات طيبة. وكانت توضع حاشية على عتبة الشرفة نفسها، وكان يؤتى بأفراد البلاط وكبار الموظفين أمامها، حيث تمنح لهم المكافآت والإنعامات. ولم تكن شعيرة المكافأة الخاصة بطيبة سوى نسخة محلية من شعيرة تقديم العطايا العامة التى أقامها فراعنة الدولة الحديثة المتأخرون. ويصف مرسوم حورمحب بلغة مشرقة كيف أن وحدة الجيش، التى كانت تخدم فترة العشرة أيام من نوبة الحراسة بصورة مؤقتة، كانت تقدم لها رواتب إضافية خاصة فى شعيرة المكافأة التى تقام فى شرفة الظهور[54]. وسوف يرد المزيد عن هذا الموضوع فى الفصل السابع الخاص بمدينة العمارنة.

ولابد أن ندرة تواجد الملك فى طيبة كانت تضمن أن شعيرة المكافأة مناسبة شديدة الخصوصية تقتصر على حالات بارزة للتقدير. وكان هناك كذلك مدلول شعائرى إضافى. ولم يبق من فترة ما قبل حورمحب سوى معبد جنائزى ملكى واحد ظل بحالة جيدة: وهو معبد حتشبسوت بالدير البحرى. وهذا المعبد كانت به شرفة ظهور، دون أن تكون جزءاً من المعبد نفسه (فى الجهة الجنوبية من الفناء الأعلى) وكانت بذلك جزءاً أساسياً من المنطقة المخصصة للشعائر الدينية وحدها[55]. وهى لا تضم مناظر أو نصوصا، غير أن موقعها يوحى بأنها كانت بمثابة موضع لـ «ظهور» الملكة فى سياق شعيرة يحضرها الكهنة. ومن المحتم أن شرفات الظهور اللاحقة فى القصور الصغيرة ورثت الجو الشعائرى الخاص بالمناسبة الأصلية، وربما يصدق القول بأن أى ظهور رسمى للملك كان مشحوناً بالجو الشعائرى، حيث كان يمثل من جديد نظيراً لتجلى تمثال الإله المحمول فى مواكب المعبد.

احتفالات أمنحتب الثالث بالحب سد

كان المصريون عباقرة فى مواءمة الأساليب القديمة مع المتطلبات الجديدة. وكانت طيبة فى الدولة الحديثة نتاج مجتمع تغير تغيراً كبيراً منذ عصر بناة الأهرام العظيم. غير أنه فى ظل الإعجاب بالتقاليد ، وجد المصريون مشروعية للبدع.

وطبقاً لما ناقشناه فى الفصول السابقة، فإن بعض أول هذه الآثار الواضحة للمُلك التى وصلتنا كانت تتعلق باحتفال السلطة الدنيوية وقوة الملك، وهو احتفال الحب سد. وفى الدولة الحديثة كان لا يزال هذا الاحتفال مناسبة لها قدرها مثلما كان على الدوام، غير أن المصريين كانوا يبتدعون عادة أشكالاً جديدة من المواكب والاحتفالات وكانوا يكيفون الرمزية مع البيئة المتغيرة. وأشهر الحالات عبارة عن مجموعة من ثلاثة احتفالات حب سد احتفل بها الملك أمنحتب الثالث (حوالى ١٣٩١ -١٣٥٣ ق.م) فى السنوات التاسعة والعشرين-الثلاثين والرابعة والثلاثين والسابعة والثلاثين من حكمه[56]. ولم يكن اختيار تلك السنوات بعينها مسألة شخصية بالكامل. فقد أصبح الحب سد فى بادئ الأمر احتفالاً بمرور ثلاثين سنة على تولى الحكم ، وربما كان كذلك دائماً. إلا أن الملوك بعد ذلك كانت لهم حرية تكرار احتفالات الحب سد على فترات. وحظيت احتفالات الحب سد الخاصة بأمنحتب الثالث باهتمام خاص، بسبب بقاء الموقع الحقيقى الذى أقيم فيه أول احتفالين على الأقل. ويحمل هذا الموقع اسم ملكاتا فى الوقت الحالى، ويقع على الضفة الغربية من طيبة، إلى الجنوب من سلسلة المعابد الجنائزية ومحيط المواكب بطيبة (الشكلان 61 و74)[57]. ولأنه نوع من أرض الاحتفالات التى جُعلت لتقام عليها مواكب المُلك الكبيرة، فهى تعد نموذجاً حياً وغير تقليدى إلى حد ما لآثار الإسراف فى استغلال الموارد الذى تتميز به الدول الاستبدادية فى أعلى درجات نفوذها.

وكان احتفال الحب سد التقليدى ، كما أوضحنا فى الفصل الأول، عبارة عن دمج لشعيرتين منفصلتين، هما احتفال الحب سد نفسه وشعيرة أحقية ملكية الأرض. وكانت العمارة الجنائزية القديمة، وأحسن مثال لها الهرم المدرج فى سقارة، توفر مكاناً لكلا الاحتفالين، حيث كان جزء مهم منها عبارة عن حلبة كبيرة يعدو فيها الملك العدو المقدس. وفى ملكاتا تحول هذا الجزء إلى شعيرة مائية. فقد كان هناك حوض اصطناعى ضخم فى مكان التقاء السهل الطينى بالصحراء، وقد صمم على هيئة الحرف T . وكان ذلك هو الشكل الشائع للخزانات والبرك الصغيرة التى تضم ماء الشعائر الصافى. وبانتهاء حكم الملك جرى توسيع حوض ملكاتا ليصبح طول الجزء الرئيسى كيلومترين وعرضه كيلومتراً واحداً. وتم فرد جزء من ناتج حفر هذه الحفرة

الهائلة على الأرض لعمل مدرج اصطناعى قام عليه معبد الملك الجنائزى وجزء من القصر المجاور له، وكُوِّم جزء آخر ليشكل صفوفاً من التلال الاصطناعية. وما زالت بقايا هذا النموذج المبكر من خلق البيئة الاصطناعية قائمة (اللوحة 8). وحفظت مقبرة معاصرة من طيبة، وهى تخص مسئولاً كبيراً فى القصر يسمى خروف، وصفاً مختصراً ذا أسلوب مميز للحدث الأساسي فى أول حب سد للملك:

الظهور المجيد للملك عند الأبواب العظيمة المزدوجة في قصره، «منزل الابتهاج». يرشد الداخلين من الموظفين، وأصدقاء الملك، والياور، ورجال المدخل، ومعارف الملك، وطاقم السفينة، وقادة القلاع، وأصحاب المقام الرفيع. ووزعت المكافآت في صورة «ذهب الثناء» ويط وأسماك ذهبية، وتلقوا أوشحة من الكتان الأخضر، وجُعل كل شخص يأخذ مكانه في الوقوف تبعاً لمرتبته. وأُطعموا الطعام كجزء من إفطار الملك: خبزاً وجعة ولحم ثور ولحم طير. ووجهوا إلي بحيرة جلالته ليصطفوا في سفينة الملك. وأمسكوا بحبال الجر الخاصة بسفينة المساء وحبل مقدمة سفينة الصباح، وجروا السفينتين في المكان العظيم. وتوقفوا عند درجات العرش.

وكان جلالته هو الذى فعل ذلك اتباعاً لكتابات الأولين. [غير أن] الأجيال السابقة من البشر فى زمن الأسلاف لم تكن تحتفل بشعائر اليوبيل هذا.

وكانت سفينتا الصباح والمساء تحملان تماثيل إلهية، وكانتا تسميان كذلك لأنه قصد بهما أن تحاكيا السفينتين السماويتين اللتين كان إله الشمس يستقلهما فى رحلته اليومية. وأصبحت مواكب نهرية موسعة جزءاً من تراث الاحتفال فى طيبة، وكانت فى ذلك الوقت تمثل نموذجاً لاحتفال الحب سد. والجزء الأخير من النص يلم إلماماً جيداً بالمنهج المصرى: فقد كان بدعة، واختراعاً من مخترعات ذلك الزمان، غير أنه كان متسقاً مع إحساس الناس بالتراث[59].

والقدرة على الابتداع مع وجود الحس التاريخي القوى توضحه مناظر أخرى من مقبرة خرواف خاصة باحتفالات أمنحتب بالحب سد. وفى هذه المناظر يظهر الملك وهو

يرفع بطريقة شعائرية عموداً منقوشاً يسمى «عمود جد» فى وضع رأسى[60]. وكان العمود على شكل رمز هيروغليفى يستخدم فى كتابة كلمة تشبه فى معناها كلمة «استقرار»، وكانت عملية رفعه تأتى ضمن سلسلة من الرموز والشعائر التى تحض على النظام فى المجتمع. وبتحديد أكثر، كان ينظر إليه فى ذلك الوقت على أنه رمز للبعث. وكان بذلك يرتبط بأوزيريس، إله الموتى. ومن الواضح أن ناظر الشعائر لدى أمنحتب الثالث شعر أنه من المناسب تماماً إضافة شعيرة عمود جد إلى احتفال اليوبيل، مع أنه قد لا تكون هناك أية صلة بينهما من الناحية التاريخية. وهذه القابلية لتبادل الشعائر والأفكار المتصلة بها جعلت من السهل نسبياً ابتداع تكوينات جديدة عن طريق تقليب دست التراث. إلا أن مناظر الاحتفال الموجودة فى معابد أمنحتب نفسه (باعتبارها مميزة عن تلك التى فى مقبرة خرواف) تبدو أكثر تقليدية بكثير وتنأى بنفسها عن البدع[61].

وتتحدث النصوص عن قصر ما. ويبين منظر آخر فى مقبرة خرواف ملكاً وملكة يخرجان منه[62]. وهو أول ظهور لهما عند باب القصر فى عيد اليوبيل، أو الحب سد، حيث يرتديان زى اليوبيل الخاص، وهى لحظة حيوية أخرى تنطوى على أهمية كبيرة. وكانت لحظة تقليدية بحق، حيث يبدو أنه يتم إحياء ذكرى لحظة الخروج الأولى هذه من القصر عند الهرم المدرج. إلا أن هذا لم يكن هو القصر الملكى المعتاد. فقد كانت ملكاتا موقعاً أعد خصيصاً لهذا الاحتفال. ولذلك شيد بجوار بحيرة الشعائر قصر خاص من الطوب اللبن، صورت على جدرانه المناظر بالألوان الزاهية والنقوش الملونة. وكان الطعام والشراب الخاص بالاحتفالات يصل إليه فى جرار فخارية كانت أغطيتها الطينية الطويلة تحمل طوابع الأختام الخشبية التى تسجل المناسبة العظيمة. وعندما كان يحين يوم الاحتفال، كانت الجرار تفتح بكسر تلك الأغطية بطريقة فنية كقطعة واحدة، وكان الاحتفال يقام، وبعد ذلك كان القصر يغلق للمرة الأخيرة. وبعد فترة قصيرة كان العمل يستأنف فى البحيرة لتوسيعها لليوبيل التالى. وكان القصر يقف فى الطريق، ولذلك هدم وحملت أنقاضه المختلطة بالجرار المحطمة إلى الصحراء حيث ألقيت. وهذا الخليط من الطوب وجص الجدران المرسوم عليه والفوارغ المحطمة كشفت عنها حفائر أجريت سنة ١٩٧٣ .

شيد قصر شعائر جديد لليوبيل التالى، بعد أربع سنوات، وكان من الطوب اللبن كذلك. وكان هذا القصر يقع إلى اليسار. وكانت آثاره، التى ما تزال بها مئات الشقف المتبقية من جرار وجبة يوبيل الملك، قد كشفت عنها الحفائر سنة ١٩١٦ . ويشبه مخطط المبنى أحد المعابد، حيث يكمله بهو أعمدة ومجموعة من الدرج. وأوضح هذا التشابه قوالب الطوب الحاملة للختم المستخدمة فى البناء وتشير إلى «معبد آمون فى منزل الابتهاج». وهذا العنصر الأخير من الاسم، وهو ما سوف نعود إليه مرة أخرى، جاء ذكره فى نص خرو اف الذى سبق اقتباسه. وفى مثل هذه المناسبة الجليلة أصبح التمييز بين الملك والإله، والعمارة الخاصة بكل منهما، أمراً كيفياً إلى حد كبير، تماماً مثل معبد الأقصر الذى شيد فى المقام الأول ليكون موضعاً للشعيرة الملكية السنوية. كما أنه يؤكد كذلك الطريقة التى كان يقحم بها آمون ليقوم بالدور الرئيسى، حتى فى شعائر الحب سد القديمة، التى لم تكن لها صلة تاريخية بأى من طيبة أو آلهتها.

وكانت العائلة المالكة وأفراد البلاط والخدم الذين يطعمونهم والعمال الذين يمدونهم بكل ما هو ضرورى - بما فى ذلك الأوانى الزجاجية والحلى الصغيرة المزججة - يقيمون طيلة الاحتفال فى مجمع مركزى ضخم من القصور والفيلات والأكواخ. وكان القصر الرئيسى يضم مخدع الملك وحمامه وراء نسق رسمى من الأبهاء التى تضم العديد من الأجنحة لأفراد العائلة المالكة. وكان جزء كبير من هذا المبنى مصورة عليه مناظر من الطبيعة. وعلى مكان غير بعيد كان مرتفع من الأرض الصحراوية يشكل قاعدة لمنصة من الطوب تواجه فناء، ربما كان الملك يستقبل فيه الزوار المهمين الذين يحضرون عيده.

وكان تكامل الملك وعبادة المعبد الخاصة بآمون يلف شخص الملك بشرنقة معقدة من الغموض والمواكب. ونجح ذلك فى زيادة الصعوبة التى قد يعانى منها الناس فى التوفيق بين الجانبين الإلهى والدنيوى للحاكم الذى كان يرأس فى الوقت ذاته سلسلة من المؤسسات القوية. إلا أن الأمر بدا لفترة قصيرة وكأن هذه التسوية ليست إلا مرحلة وسيطة فى تطور نظام ملكى كاريزمى كان يسعى إلى نفس المستوى من التملق، غير أنه ركز حينذاك على المُلك دون ذلك الستار الحاجب من الغموض الدينى. وسوف يأتى ذكر ذلك فى الفصل السابع. وفى الوقت الراهن يمكن الإشارة إلى أنه رغم رؤيتى

إخناتون المزدوجتين الخاصتين بنظام ملكى يُعبد لذاته، وديانة كانت من البساطة بحيث خلصت الملك من حجب الغموض وفشلت فى إقناع معاصريه وماتت معه، فقد قدمت لمحة من مستقبل لا يزال بيننا. فقد كان مُلك إخناتون بمثابة رسم كاريكاتيرى لكل الزعماء المحدثين الغارقين فى مظاهر الكاريزمية. ولم يكن المصريون أنفسهم راضين عما يرونه. فمن الواضح أنه كان يؤذى إحساسهم بالذوق السليم. وبعد وفاته عادوا للتسوية الفكرية وغطوا من جديد عرى النظام الملكى بحجب الديانة السامية.

قوى علمانية فى البلاد

يبرز حكم إخناتون، الذى دام سبع عشرة سنة بلا دعم من الكهنوت التقليدى وكل العروض الملونة التى يمكن أن يقدمها، بالإضافة إلى إخفاق هذا الأسلوب الجديد عقب وفاته الذى يمكن وصفه بأى حال من الأحوال على أنه انتصار للكهنوت، مؤسستين أخريين داخل مجتمع الدولة الحديثة: هما القصر والجيش.

وفيما يتعلق بالطوب والملاط، فإن مصطلح «قصر» مفيد بالنسبة لأى مبنى مميز كان يقيم فيه ملك أو أحد أقاربه المهمين[63]. وكان الملوك المصريون يقومون برحلات داخل بلادهم بصورة موسعة جداً. وما لم تكن الرحلة على طريق منتظم، كانت الإقامة المؤقتة فى معسكرات من الخيام، كذلك المعسكر الذى استخدمه إخناتون فى زيارته الاستكشافية الأولى للعمارنة[64]. أما بالنسبة للرحلات المنتظمة، حيث كان يبنى ما يسمح بالإقامة ليلة واحدة، فقد كان من الضرورى أن يكون المبنى على قدر معين من الرسمية (كأن تكون به قاعة للعرش) تجعله يستحق كلمة "قصر" الحديثة عندما تكشف الحفائر عن بقاياه. وربما كان بمصر القديمة فى وقت من الأوقات عدد كبير جداً من «القصور»، التى تتراوح بين استراحات لليلة واحدة يمكن أن تكون صغيرة جداً مقارنة بالمجمعات الممتدة العظيمة فى المدن الكبرى التى ربما كان الفرعون يراها على أنها «بيت». وعندما نضيف إلى هذا كله أن الملوك من موقعهم الفريد يمكنهم بناء قصور تتسم بالتفرد وتقع خارج معايير عمارة العصر، مما يعكس اعتبارات قد تصل إلى حد النزوة، فليس من المستغرب أن نجد أن قصور الدولة الحديثة التى كشفت عنها الحفائر لا تتماشى مع النمط المتعارف عليه الذى يمكننا رؤيته فى المعابد والمقابر.

وكانت أغلب الرحلات التى تتم داخل مصر تستغل نهر النيل بصورة كبيرة. ولذلك كانت قصور الليلة الواحدة الصغيرة على الطرق الملكية تسمى «قصور المراسى الخاصة بفرعون». وربما كان مصطلح rest-house [استراحة] ينقل المعنى بصورة أفضل للغة الإنجليزية[65]. ولم يكن السفر بالنهر يعوق بحال من الأحوال أسلوب الملك: إذ يبين خطاب نموذجى يأمر باتخاذ الاستعدادات لوصول الملك إلى إحدى الاستراحات النيلية أنه من المتوقع أن تصاحبه قوة من العجلات الحربية[66]. وكان تزويد الاستراحات بالمؤن يتعرض لمشكلة إدارية: وهى كيفية توفير الطعام للزيادات الطارئة عند مرور الملك العابر. وكان الحل الجزئى يكمن فى تخصيص أرض زراعية للاستراحات، بحيث يكون هناك دخل ثابت لإطعام مجموعة صغيرة من العاملين بها، على أن يخزن الباقى فى مخازن الغلال ليكون جاهزاً لإطعام صحب الملك، كما يفترض أنه يستخدم كذلك فى المقايضة بما لا تنتجه المزرعة نفسها. وهناك مجموعة من «قصور المراسى الخاصة بفرعون» فى مصر الوسطى عرفناها من بردية ويلبور، وهى وثيقة كبيرة عن إيجارات الأراضى الزراعية[67]. ويقع أحدها بالقرب من قصر الحريم فى مدينة الغراب، وآخر فى مدينة حرداى على النيل. وكان بحوزة هذا القصر ٤٠١ أرورا من الأراضى الزراعية. إلا أنه من الصعب تخيل أن هذه الوسيلة البسيطة كانت تحل المشكلة. فبعض الملوك كانوا مبذرين أكثر من غيرهم، وربما كانوا يسافرون مع حريم لهن مطالب زائدة (ولنتذكر أن الحريم كان مؤسسة شبه مستقلة لها هيئة موظفيها الخاصة بها). والخطاب النموذجى الذى يحمل أوامر إلى موظف محلى مسئول عن بعض الاستراحات الملكية يتميز بقائمة تدعو للدهشة من السلع المطلوبة. ولكونه خطاباً نموذجياً يمكننا الشك فى وجود عنصر التدريب على المفردات، إلا أن فراعنة الدولة الحديثة لم يكونوا معتدلين فى أذواقهم. وهذه هى النقطة الوحيدة التى كان حلها الوحيد، بالنسبة للموظف المسئول المضغوط عليه ، هو الخروج وطلب مؤن إضافية من المؤسسات الأخرى والتعرض لاحتمال العقوبات المخيفة المنصوص عليها فى المراسيم الملكية المقصود بها حماية المؤسسات الفردية (مثل مرسوم نورى، الذى يأتى وصفه فى الفصل السادس).

كانت تسوية ذلك بطريقة جيدة هى جعل عمدة المدينة المحلية مسئولاً. وتم تصحيح الإفراط فى استخدام هذه الوسيلة فى مرسوم حورمحب (انظر الفصل السادس).

وعمد مصر القديمة مجموعة مثيرة للاهتمام. فقد كانوا فى العصور القديمة أصحاب نفوذ مطلق على المستوى المحلى، وكانوا فى العادة يتولون منصب كبير الكهنة فى معبد المدينة كذلك. وكانوا إلى حد ما خارج الأنظمة البيروقراطية النظامية، ولم يكن لهم تسلسل وظيفى خاص بموظفيهم. ولا بد أن سلطتهم كانت تكمن فى الاحترام والنفوذ الذى كانت توفره لهم أملاكهم المحلية والروابط العائلية وشبكة من الرعاية والالتزام. ومع أنه لم تكن لهم بيروقراطية خاصة بهم، كان من الطبيعى أن يتولوا مسئولية متابعة جباية الضرائب المحلية وتسليمها للوزير، وهو كبير ممثلى الملك. وكان من المفترض أن يقوموا مقام الحاجز بين مطالب الدولة الخارجية ورفاهية المجتمع المحلى الذى كانوا بمثابة الرئيس الرمزى له. وبالنسبة لتعويض النقص فى المؤن الخاصة بوصول الملك المفاجئ، من ذا الذى يقوم بهذه المهمة أفضل من العمدة؟ وسوف نورد بعد قليل مثالاً آخر من مسئولية العمد فيما يتعلق بمد القصر بالطعام.

فماذا كان شكل تلك الاستراحات؟ ربما كان ما يرشدنا إلى ذلك موجوداً فى القصور الصغيرة الملحقة بالمعابد الجنائزية على الضفة الغربية من طيبة، مع إضافة مخزن وبعض المطابخ والمنازل الصغيرة الخاصة بالخدم والقائمين على رعاية القصر (انظر اللوحة 7 والشكلين 68 و 73). وأشار الخطاب النموذجى مرات عديدة إلى وجود نافذة خاصة عند "المرسى"، وهى ربما كانت ما ينبغى تسميته بـ"شرفة الظهور". وحقيقة أن هذا كان ملمحاً قياسياً فى قصور المعابد الجنائزية فى الضفة الغربية تقوى حجة استخدامها نموذجاً لهذا النمط من الاستراحة الملكية الإقليمية. وأحد نماذج الاستراحات، الذى يبدو أنه كان يستخدم كمسكن فى رحلات الصيد، اكتشف بالفعل وأجريت فيه الحفائر، غير أنه لم ينشر النشر الصحيح. وهو يعود إلى عصر توت عنخ آمون ويقع على مقربة من تمثال أبى الهول بالجيزة. ولكن ما سبب وجوده فى هذا المكان؟ بحلول الدولة الحديثة كان أبو الهول – وهو فى الأصل تمثال للملك خفرع بانى الهرم الثانى فى الجيزة – قد أعيد تعريفه على أنه تمثال إله الشمس حور ام أخت (وهو مثال آخر للابتداع الدينى). وكان الملوك والأفراد يتقربون إليه بالواجبات الدينية. وشيد أمنحتب الثانى معبداً صغيراً خاصاً من الطوب على مسافة غير بعيدة منه. وكان بالموقع مَعلَم آخر كذلك. فاللوحة الكبيرة الموجودة فى معبد أمنحتب الثانى تسجل كيف

أنه عندما كان لا يزال أميراً كان يقود عربته الحربية فى الصحراء القريبة. وفى يوم من الأيام خرج ابنه، الذى أصبح فيما بعد تحتمس الرابع، لممارسة رياضة القنص، بما فى ذلك صيد الأسود، فى نفس المكان. وإلى الجنوب من أبى الهول، احتفظ ملوك الأسرة الثامنة عشرة بقصر صغير أدخلوا فيه معبد الوادى القديم الخاص بخفرع. ومما يؤسف له أن أوائل الأثريين شديدى الاهتمام بآثار الدولة القديمة دمروه ولم يسجلوا منه إلا القليل جداً[68]. ويوحى تخطيط جزء منه أنه كان يتكون من مجموعة من المبانى التى كانت تشبه المنازل الكبيرة فى العمارنة (الشكل 75). وكان أحدها يحتوى على إطار باب من الحجر المنقوش يحمل خرطوش توت عنخ آمون حدث أن اغتصبه رمسيس الثانى فيما بعد. واكتشف العديد من أغطية جرار النبيذ. وربما يشير وصف لحفائر أجريت فى ١٩٠٧ إلى سياج من الطوب به أبراج خارجية مربعة على مسافات منتظمة.

وتقع استراحة صغيرة لها نفس الغرض – وهو ممارسة قيادة العربات الحربية – على حافة الصحراء جنوب ملكاتا، فى موقع يعرف باسم كوم العبد. وقد شيدها أمنحتب الثالث، وكان ملمحها الأساسى منصة مستوية من الطوب يصل إليها طريق صاعد (الشكل 67). وقد افترض أن خياماً كانت تقام عليها[69].

وتتضح آثار قصور الدولة الحديثة أحسن ما تتضح فى العمارنة، التى خصص الفصل السابع جزئياً لموقعها. وخارج العمارنة تقل الأدلة التى كشفت عنها الحفائر غنى عما كنا نأمل. ونعرف من النصوص ومن الظروف التاريخية العامة أنه كانت هناك قصور سكنية كبيرة فى منف، واعتباراً من عهد رمسيس الثانى فى بررعمسو (بالقرب من الختاعنة الحالية) شرقى الدلتا. وحتى وقتنا هذا كانت قصور بر رعمسو تمثلها أجزاء من سور ضخم من الطوب وبقايا منصة العرش المزججة وقد انفصلت عنها. وكانت منف قد قطعت شوطاً أفضل: ففيها صالة استقبال فخمة بها كل أبعاد وعظمة مبنى معبد يخص الملك مرنبتاح كشفت عنه الحفائر فى أوائل القرن الحالى[70]. وتأتى أوضح صورة لدينا عن القصر السكنى الحقيقى خارج العمارنة من ملكاتا، وكان قد أنشىء لتقيم فيه حاشية أمنحتب الثالث الضخمة عندما انتقلت إلى طيبة للاحتفال بيوبيله (الشكل 74).

ويبدو أن أحد دوافع إقامة بعض القصور كان خلق ملتجأ، بعيداً عن ضغوط البلاط وإدارييه. ومن الحالات الواضحة لهذا هو القصر الموجود فى مدينة الغراب، على حافة الصحراء بالقرب من مدخل الفيوم[71]. وقد بناه تحتمس الثالث وظل مستخدماً طوال عصر العمارنة. وهو قصر يستحق قدراً خاصة من الاهتمام ، لأنه كان يأوى أبرز سيدات العائلة الملكية ومعهن موظفوهن وخدمهن ومجموعة النساجين الخاصة بهن. لقد كان قصر حريم حيث يمكن لشاغلاته أن يحيين حياة خاصة منعزلة، ويقمن كذلك بتنشئة بعض أطفال العائلة المالكة. ودفن فى هذا المكان أحد الأمراء الرعامسة المهمين على الأقل. ولا يمكن أن يترك الجو الساخن من التآمر الشخصى والمكائد السياسية الذى يمكن أن يولده مثل هذا القصر للخيال وحده. فقد سقط أعظم فراعنة الأسرة العشرين، رمسيس الثالث قاهر الجحافل الأجنبية، بمن فيها «شعوب البحر»، ضحية لمؤامرة حيكت فى واحد منها. ونحن نعرف هذا من ملخص وصلنا لأحكام صادرة عن محاكمة المتآمرين[72]. وقد تورط فيها واحد وثلاثون رجلاً مع ست من زوجاتهن. وقد أعدموا جميعاً أو سمح لهم بقتل أنفسهم إلا أربعة. إلا أن المؤامرة تركزت على نساء الحريم، وعلى شخص يُدعى تيى من الواضح أن المتآمرين كانوا يأملون فى جعل ابنه ملكاً. ومع أن الابن كان ضمن من ثبتت إدانتهم، يبدو أن نساء الحريم أنفسهن قد تركن لحالهن. وتدل على ذلك تركيبة المجموعة: فقد كان أحد عشر منهم موظفين فى الحريم نفسه، وكان اثنا عشر موظفين أو من رجال البلاط بألقاب أخرى، وخمسة فقط من رجال الجيش، وكان بينهم كاتب واحد. وتورط أحد الجنود، وهو قائد مجموعة رماة من النوبة، لأن أخته التى كانت فى الحريم كانت قد كتبت إليه تستحثه على إشعال ثورة . وبنى قصر آخر يلجأ إليه، أو بالأحرى مجموعة تضم قصرين بالقرى المصاحبة لهما، بحلول أوائل الأسرة الثامنة عشرة فى البلاص على بعد ٢٢ كيلومتراً شمالى طيبة[73].

ولم يكن تزويد الأسرة المالكة بالمؤن ينطوى فقط على إمداد جيب مسافر ذى استهلاك ضخم بالزاد، وإنما كذلك دعم الجماعات الدائمة فى القصور الكبيرة التى كانت بمثابة قواعد للبيوت. وكان أحد هذه القصور موجوداً فى منف. ولدينا مجموعة من الوثائق من إدارة إمدادات الخبز بقصر منف فى عهد سيتى الأول

(حوالى ١٣٠٠ ق.م)[74]. ويقول أحد العناوين: «استلام القمح من مخزن حبوب الفرعون في منف، بغرض تحويله إلى أرغفة فى المخبز الخاضع لسلطة عمدة منف نفر حتب، لكى يرسل إلى مخزن فرعون». وتلى ذلك قوائم بالكميات اليومية التى تتراوح بين ١٠٠ و١٨٠ كيس (حوالى ٧٣٠٠ و١٣٣٠٠ لتر). وتضم قائمة تكميلية الجزء الأخير من العملية: «استلام الخبز من المخبز الخاضع لسلطة عمدة منف، نفر حتب، فى مخزن فرعون». والواقع أن الكميات التى كان يتم استلامها كل بضعة أيام كانت تتراوح عادة بين ألفى وأربعة آلاف رغيف صغير. ولنلاحظ الطريقة التى جعل بها عمدة منف مسئولاً عن الجزء الصعب – أى إدارة دار الخبيز الفعلية، وهو مكان على قدر مكثف من العمل (كما تبين ذلك الأدلة الموجودة فى العمارنة) حيث نظام التحكم فى تدفق السلع يسهل اختراقه بشدة، لأن الغلال كانت تحول إلى دقيق تصنع منه أرغفة الخبز. وكان هذا موثقاً بشكل منفصل فى هذه البرديات. ونعرف أن ٣,٥ كيس من الدقيق تصنع ١٦٨ رغيفاً من الحجم القياسى أو ٦٠٢ من الأرغفة الصغيرة، مع ملاحظات متفرقة تتعلق بالوزن وما ينقص منه أثناء عملية الخبيز. ويبدو أن كيس الدقيق هو نتاج حوالى كيسين من الغلال، غير أنه غير مسموح لأحد بأن يأخذ الراتب المتوسط أمراً مسلماً به. وكان الكيل يتم فى كل خطوة وكانت الفروق توضع فى الاعتبار. وجرى العرف على أن يكون الطحن مهمة تتولاها المرأة، وهناك مادة مختصرة توضح ذلك: فى يوم واحد جمعت ثلاث نساء، يمثلن مجموعة قوامها ست وعشرين امرأة، ١٠,٥ كيساً من الحبوب تحولت إلى ٧,٢٥ كيساً من الدقيق. وكان معدل إنتاج القمح يصل إلى حوالى ٥٠ ألف كيس كل عام، وهو ما كان بحاجة إلى مخزن غلال فى ربع حجم ذلك المخزن الذى فى الرمسيوم، وإن كان لا بد كذلك أن نسمح بكمية منفصلة وأساسية من الغلال المستخدمة فى صنع الجعة. ولكن بما أن القمح كان يستخدم للخبيز الفورى، فلا بد كذلك من قبول وجود عدد كبير من السكان العالة، الذين يبلغ عددهم المئات، إن لم يكن بضعة آلاف.

وكان القصر بطبيعة الحال يتعدى بكثير مجرد العمارة والمؤن. ولابد أن قرارات الدولة وأمور توارث العرش داخل الأسرة الحاكمة كانت أكثر أهمية فى عقول من كانوا يعيشون فيه، وما كانوا يتوصلون إليه ويفعلونه أمد المؤرخ بالمادة الخام التى استفاد منها فى عمله. وتعد مؤامرة الحريم التى تمت فى عهد رمسيس الثالث مثالاً لذلك.

والمنطقة التى توضح أكثر ما يكون التوضيح الواقعية السياسية التى كان يتم بها العمل فى البلاط هى الشئون الخارجية. وشهدت الدولة الحديثة تغيراً كبيراً فى وضع مصر الدولى. فقد انتقلت الفتوحات والإمبراطورية إلى مكان متقدم من السياسات الواقعية وكذلك من الأيديولوجيا. وأسفر ذلك عن إمبراطورية ضمت معظم الجزء الشمالى من السودان، وفلسطين، وأجزاء من سوريا فى الشمال الشرقى. وعزز واقع الفتوحات الكبير صورة الملك باعتباره فاتحاً جباراً، الأمر الذى يتم بقوة كبيرة وعدم وجود أى حرج على جدران المعابد وفى سياقات كثيرة أخرى (الشكل 77). إلا أن النجاح فى المعركة أدى كذلك إلى اتباع أساليب سياسية مريبة وقاتلة مع الأعداء الأقوياء الذين حال دونهم بعد الشقة، ولم يكن بوسع الفرعون أن يأمل فى غزوهم. وتصبح دراسات علاقات الدولة الحديثة الخارجية أهم نافذة مفتوحة نلاحظ من خلالها ، وعلى أعلى مستوى، وجود الفطنة السياسية الفطرية التى تتعامل تعاملاً براجماتياً مع الأوضاع الواقعية الصعبة، بعيداً عن استعلاء الملوك الذى يصل إلى أقصى مدى، كما هو مصور تصويراً متزامناً فى الفن المصرى.

والمصدر الأول هو مستودع من ألواح الفخار عُثر عليها فى أحد المكاتب الحكومية فى وسط عاصمة إخناتون، العمارنة، مكتوبة كتابة مسمارية باستخدام إحدى لهجات اللغة الأكادية[75]. ومن بين النصوص هناك القليل مما قصد به مساعدة المصريين على تعلم اللغة الأكادية، وتعليم الأكاديين اللغة المصرية. وأغلب الألواح عبارة عن رسائل من قصور فى غرب آسيا، ونسخ من رسائل أرسلها البلاط فى مصر رداً عليها. ومن الناحية السياسية، تنقسم الرسائل إلى مجموعتين رئيسيتين تحددان على الفور مجال النفوذ المصرى فى الخارج. إحداهما مراسلات بين مصر ودول أخرى تتمتع بنفوذ كبير، حيث أسلوب المخاطبة المتبادل هو «الأخ». وهذه هى دول بابل وآشور وميتانى والحيثيين وألاشيا (قبرص). والمضمون فى أساسه شخصى، غير أنه قد يشمل عنصراً سياسياً، كما هو الحال مع نصيحة ملك ألاشيا بعدم الانحياز لملكى بلاد الحيثيين وبابل (EA35) . وكان يصاحب الرسائل تبادل الهدايا، وهى ممارسة كانت تؤخذ مأخذاً على قدر كبير من الجد، وكان الملوك أكثر ما يكونوا حساسية فيما يتعلق بموازنة ما يعطونه بما يتلقونه. وكانت الزيجات الدبلوماسية المرتبة واحدة من المناطق الحساسة[76].

وتتعلق المجموعة الثانية من الرسائل بالدول المدن فى فلسطين وسوريا، وبأمرائها والمسئولين المصريين المقيمين بها. وهى تخاطب فرعون بـ «سيدى». وهذه الدول الأقرب إلى مصر كان أملها ضعيفاً فى أن يكون أمامها بديل أفضل، إلا أن الأمراء السوريين كانوا فى وضع يسمح لهم بخيار أن يجعلوا لأنفسهم أهمية كبرى. وتلخصت آمالهم فيما يلى: الحفاظ على استقلالهم المحلى، ومد حكمهم ليشمل الجيران، والإبقاء على مظهر من مظاهر الولاء للمصريين لضمان الرجال والمال، وإما المعارضة والاستسلام لملك الحيثيين حسبما تمليه الظروف[77]. ويغلب على رسائلهم أنها ذات شكل يتميز بمقدمة طويلة تقدم فروض الولاء التام صيغت بلغة تنم عن الخنوع:

هذه رسالة من عبد إلي سيده بعد أن سمع ما [قاله] الرسول الطيب من لدن الملك لخادمه عند وصوله إلى هنا، و [شعر بـ] العبير الحلو الذى خرج من فم جلالتكم نحو عبده.

وذلك ما قاله أبيملكى ملك صور (EA 147) . وفى مثل تلك الحالات غالباً ما تكون الرسالة السياسية المباشرة مخصص لها الجملة الأخيرة أو الجملتان، وإن كان بعض من يكتبونها، وخاصة ريب عدى ملك بابل، يسهبون فى طلبهم الدعم حتى أنه كان يشمل جزءاً كبيراً من رسائلهم. وكان العنصر الدائم هو اتهام أمير مجاور بعدم الولاء لملك مصر. وبما أن الاتهامات امتدت فى بعض الأحيان لقتل أحد الأمراء على يد أمير آخر (مثال ذلك EA 89 وكذلك 73 و 75 و 81 و 140)، وليس بالضرورة أن تلك كانت ترفض باعتبارها أقوالاً مخترعة.

والنتيجة الجلية التى نخلص إليها من هذه المادة هى أنه رغم عدم بقاء أى أثر لأى شيء من قبيل تعليق موضوعى على أى وضع عالمى، كانت العلاقات الخارجية المصرية تقوم على قاعدة سياسية تتوارى خلف واجهة التفوق العسكرى الشامل، وكانت تقتضى التأويل المتروى والحكم الصائب، كما كانت تنطوى على مناقشة الأوضاع فيما يتعلق بالدوافع الإنسانية. ولهذا فقد نفترض أن المصريين كانوا مؤهلين تأهيلاً جيداً. فهم فى المقام الأول يميلون إلى كتابة الرسائل إلى من هم أعلى منهم بأسلوب مبالغ فيه لا يختلف عن ذلك. والأمر الثانى أن إصدار الأحكام القانونية (الأمر الذى لم يكن

مقصوراً على طبقة من القضاة المحترفين، ولكنه ربما كان خاصية من خواص تقلد أى منصب مهم) كان يتعلق فى الأساس بتسوية الإفادات المتضاربة وتقييم السلوك الإنسانى، رغم أنه قد يشمل كذلك الرجوع إلى الأرشيفات الوثائقية. والذين يمكنهم إصدار حكم فى قضية معقدة ، تتعلق بالتنازع على ملكية أرض تعود إلى عدة أجيال مضت، لديهم الإطار العقلى الصحيح لقراءة ما بين سطور الرسائل الدبلوماسية[78].

غير أن الرسائل كان لها بعد آخر أكثر خداعاً. فقد خلقت عالماً ذهنياً خاصاً بها سيقت إليه كل المراسلات. وكان بالنسبة لملك مصر عالما ربما يضم خمسين عضواً، كل منهم حاكم أو فى بعض الأحيان فرد آخر من أسرة الحاكم. وكانوا يكتبون إلى بعضهم على فترات طويلة، غير أنه كان منها ما يكفى لأن يكون هناك منصب دائم وسكرتارية فى البلاط المصرى (ومن المؤكد فى قصور كثيرة فى أماكن أخرى) للتعامل معها. ولابد أنه بينما كانوا يقرءون الرسائل ويردون عليها ، كانت تتكون فى أذهان كل منهم صورة غير واضحة عن الآخر، وهى الصورة التى كانت فى كثير من الأحيان خاطئة جداً فى تفاصيلها، إلا أنها كانت تدرك جوهر الموقف: وهو أنهم جميعاً كانوا ممثلين على خشبة مسرح سياسى ولديهم دافع على قدر كبير من التشابه. ورغم أنهم عادة ما كانوا يكتبون لتحقيق غاية بعينها، فقد كانت رسائلهم تمثل كذلك تحركات فى مباراة تقاس فيها الجوائز بالهيبة والعزة. وفى هذا العالم المركب تركيباً اصطناعياً من الاتصال عبر المسافات البعيدة ، قد يحمر وجه أحد الملوك ويستشيط غضباً عند التفكير فيما قيل عنه فى بلاط بعيد لا يمكنه رؤيته ولا يسعه معاقبته، وهى أفكار تشكلها كلمات رسالة من الفخار وحكايات المبعوث الذى أتى بها. وقد هبطت مناظر المعارك المصرية على جدران المعابد بالصراع الدولى إلى مستوى من البساطة المطلقة. وكان الفرعون يقرع بعون من الآلهة الأعداء الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة دون أن يلحق به أى أذى. إلا أن الرسائل كانت تجر الفرعون نفسه إلى عالم من الغرور الدولى كان فيه ثمن قبوله كممثل نجم هو التعرض للمنافسة. وحينذاك لا يظل إلهاً كما كان.

وقد أتت الإمبراطورية إلى مصر بعسكرية جديدة. ففى العصور المبكرة كانت الحروب الأهلية تنشب ويتم غزو الأراضى، وخاصة فى النوبة. وابتُكر مستوى مذهل من العمارة العسكرية المتخصصة للدفاع عن المدن (الفصل الرابع). غير أن كل الأدلة

تشير إلى أن القتال كانت تقوم به ميليشيات تم تجميعها لحملة بعينها، وكانت فى بعض الأحيان تعزز ببعض المقاتلين الصحراويين النوبيين (شعب الميجاى). وظلت الأسلحة المستخدمة فى ميدان القتال بدائية إلى حد كبير - وكانت هراوات ورماح من الصوان حتى في الدولة الوسطى. وتغير كل هذا تغيراً ضخماً فى الدولة الحديثة. وعندما واجهت المصريين الحاجة إلى القتال بصورة أكثر جدية ضد جيوش غرب آسيا المجهزة تجهيزاً جيداً، استعاروا التكنولوجيا والتكتيكات، ويبدو أنهم أسسوا لأول مرة جيشاً دائماً يتكون من جنود وضباط يخدمون فيه فترات طويلة[79].

والجيوش غرضها واضح وصريح والكثير مما يمكن قوله بشأنها يتخذ شكل كتالوج للأسلحة، وقوائم بالرتب والوحدات، ورصدا لمعارك بعينها. ولم يكن جيش الدولة الحديثة مستثنى من هذا. ومن وجهة نظرنا نحن، فإن ما يلى هو الأكثر إثارة للاهتمام: فكل المؤسسات لها مكان فى الدولة، وهى جزء من النظام تمارس من خلاله السلطة فى الداخل. فمتى أصبح الجيش جزءاً من الحكومة فى الدولة الحديثة؟

بسبب طبيعة الإدارة المصرية - وكانت فى الأساس مجموعة ممتدة من مراكز الأنشطة ينافس الواحد منها غيره - من الواضح تماماً أن أفراد «المهنة» الواحدة كانوا يشعرون بأنهم جزء من مجموعة ذات مصلحة مشتركة، وبالتالى كانت لهم سلطة سياسية، من الناحية الاحتمالية على الأقل. وربما لم يكن الكهنوت مستثنى من هذا؛ إلا أن الجيش كان كذلك بالفعل. ونحن نصف جيش الدولة الحديثة بالاحتراف، ليس فقط على أساس من المظهر العام الذى يشبه العمل التجارى. فقد كان يأخذ المجندين الصغار ويضعهم فى معسكرات تدريب، وكانت الحملات ومهام الحاميات منتظمة إلى حد ما. وكانت وحدات الجيش تتمركز داخل مصر. ويتحدث مرسوم حورمحب على سبيل المثال عن فيلقين من فيالق الجيش، أحدهما فى الجنوب والآخر فى الشمال. وكانت تتاح لجنوده فرصة التواجد فى القصر لحراسة الملك شخصياً. ويؤكد المرسوم عادة استخدام الحرس الشخصى للملك لمجموعة من الجنود من الأقاليم تتغير كل عشرة أيام («الأسبوع» المصرى)، حيث كان التغيير يتميز بتوزيع رواتب إضافية خاصة من شرفة الظهور[80]. وبالنسبة للمحاربين القدماء ، هناك ما يدل على أنه اعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة، وكذلك من أواخر الأسرة العشرين، كانت تمنح لهم

هبات من الأراضى الزراعية[81]. ويسبب طبيعة حياة جيش الدولة الحديثة ، كان جهازاً من الرجال ومؤسسة لها إحساسها الخاص بالهوية النابع من انفصالها عن الحياة الطبيعية. وزادت حدة ذلك الانفصال مع زيادة الدولة الحديثة لممارسة تجنيد المرتزقة الأجانب: من ليبيا ومن دول شرقى البحر المتوسط. وكان هؤلاء كذلك يتمتعون بهبات الأراضى فى مصر.

وعند دراسة دور الجيش – أى القوات المسلحة التى تأخذ شكل المؤسسة – لابد أن نسأل أنفسنا سؤالاً غاية فى الأهمية: وهو من كانوا ملوك مصر فى واقع الأمر؟ ومن أين أتوا؟ إن المصريين أنفسهم أقاموا ستاراً ضخماً وشديد الفاعلية حول هذه المسألة. وكانت تلك السلسلة المرتبة بعناية من المواكب والطقوس والأساطير والشارات ولغة الخضوع، التى أحاطت بالملوك من التتويج حتى الموت وما بعد ذلك، تمثل فى مجملها هجوماً فكرياً وسلوكياً كاسحاً على المجتمع، إلى حد أن مكانة الملك الجالس على العرش ليست موضع تساؤل ولا يمكن التعرض لها. وحيث إن مسألة مَن مِن ذكور العائلة الملكية هو الذى سيخلف الملك فى الحكم كانت محصورة داخل القصر ، فقد أتاح ذلك الفرص لتدبير المكائد، وظلت الخلافة الملكية لفترات طويلة داخل عائلة واحدة، أو أسرة حاكمة. وحتى عندما كانت الأسرات تتغير، ربما كان من الواجب على الوافد الجديد أن يسعى للحصول على الشرعية عن طريق زواجه من إحدى سيدات البيت الملكى البائد. إلا أن الأسرات كانت تتغير. ومن الصعب علينا فى كل الحالات تقريباً تتبع أصول الوافدين الجدد، اللهم إلا إذا كانوا من الأجانب، وذلك بسبب نقص الأدلة عموماً. وفى بعض الأحيان يبدو أنهم كانوا شخصيات بارزة فى البلاط، وفى أحيان أخرى كانوا يأتون من الأقاليم. والأمر الذى يجب علينا قبوله هو أنهم كانوا يرون منصب الملك على ما كان عليه فى واقع الأمر: أى أنه هدف يمكن أن ينتزعه رجل طموح حين يسدل ستار المُلك الإلهى بشكل مؤقت، مما يجعل مثل هذه الخطوة تبدو ممكنة. ولم يكن المغتصبون ومؤسسو الأسرات الجديدة يتم استدعاؤهم من حالة البراءة على يد الكهنة أو الأصوات الغامضة أو الإشارات الخارقة للطبيعة. بل كانوا يستجيبون لصوت الطموح وحده. ولا يبدو أنه فيما قبل الدولة الحديثة كان هناك جيش دائم محترف. ولكن إذا كانت العسكرية عاملاً أقل أهمية فى الفترات السابقة،

فكذلك كانت خبرة الناس الخاصة بها. وهذا معناه ببساطة أن الترهيب كان يتحقق بما هو أقل. وقد برزت الأسرة الحادية عشرة ووضع طيبة التاريخى نتيجة للانتصار فى حرب أهلية. والانتقال من الأسرة الحادية عشرة إلى الثانية عشرة ليس واضحاً تمام الوضوح، غير أن المغتصب الفائز أمنمحات الأول نفسه كانت ضحية للاغتيال. ولو عدنا إلى البداية المبكرة للتاريخ المصرى لوجدنا أن المصادر تشير إلى أن النظام الملكى نشأ من فترة حروب داخلية ظهرت من جديد فى نهاية الأسرة الثانية. وأبقى ستار المُلك الإلهى الملوك والأسرات فى السلطة لفترات طويلة من الاستقرار السياسى، إلا أن المُلك بات فى نهاية الأمر محصلة من محصلات القوة.

وتكونت الدولة الحديثة نتيجة لهزيمة الجيوش الأجنبية. وكانت العسكرية الجديدة ترى أن صورة المُلك فى المجتمع مقابلة لصورة القيادة العسكرية المعززة تعزيزاً شديداً. فقد كان نفوذ السلاح الكبير يقابله الملك الذى يقدم على أنه بطل عسكرى. وكان بعض الملوك يستجيبون لذلك بولعهم الشديد بميدان القتال. وبينما كانت القوة المسلحة فى الماضى تحشد لخدمة الطموح، باتت القوة المسلحة موجودة فى كل حين، وكانت متفرقة فى الأقاليم الداخلية وفى الخارج. وقد أصبحت مصدر الطموح. وبلغ ذلك مداه فى نهاية الأسرة الثامنة عشرة. ولذلك فعلينا أن نتخيل أنه فى عصر العمارنة أبعدت التغييرات الدينية التى أجراها إخناتون كهنة العبادات القديمة، وخاصة كهنة آمون الذين سعى إخناتون إلى القضاء على وجودهم. إلا أنه فى الفترة التالية لإخناتون كانت العصبة التى أصبح ممثلها ملكاً – هو القائد حورمحب – هى الجيش. وانتقل العرش من بعده لعائلة عسكرية من شرقى الدلتا أسست سلسلة الملوك الرعامسة[82].

ومع ذلك لم تكن العسكرية سمة المجتمع المصرى المتعلم كافة. واعتمد الجيش والإمبراطورية فى نهاية الأمر على الإدارة المدنية، التى خرج من بين صفوفها كذلك أفراد ذوو نفوذ سياسى. وفى المدرسة، ومن خلال النصوص التى كانت تعد نماذج للنسخ، كان الكتبة الصغار يُعلَّمون ازدراء كل ما عدا مهنتهم من مهن. وامتد هذا إلى المهن العسكرية، حيث انصب الاحتقار على الجندى وضابط العربة الحربية وعلى الخدمة فى الخارج. وهذه النصوص ليست دليلاً على أى جانب إيجابى بخلاف الأنانية – كونك كاتباً «يوفر عليك الكد والعناء، ويحميك من كل شكل من أشكال العمل»[83] –

ولكن بتفضيل السلطة من خلال الإدارة القديمة على المجد من خلال المغامرة، فلابد أن يكون من قبلوا هذه الروح مصدر نزاعات مضادة لمن فى الجيش. وأدى إنشاء مستعمرات فى النوبة على نمط مدن المعابد المصرية الخاصة بالدولة الحديثة إلى مد الإدارة مصرية الأسلوب إلى قطاع كامل من الإمبراطورية، تاركاً غربى آسيا لتكون المجال الرئيسى للعروض العسكرية، وإن كانت مهمة تحديد من هو العدو يقوم بها المسئولون الموجودون داخل البلاد، كما توحى بذلك رسائل العمارنة.

ويمكننا رؤية الخطوط العامة المبهمة لمجموعتين متعارضتين من مجموعات المصالح فى الدولة الحديثة: وهما الجيش والكتبة. وكان للمجموعة الثانية ممثلوها من ذوى المكانة الرفيعة بين رجال البلاط. وشملت مؤامرة الحريم فى عهد رمسيس كثيرين، وسعى القادة للحصول على الدعم من الجيش (وإن لم يكن من الكهنوت). وكانت تلك المؤامرة «سياسية» بالمعنى الضيق للكلمة ، لأن من شاركوا فيها دبروها ونفذوها وفقاً لتقييم براجماتى للمكسب والخسارة.

ولكن أين الكهنوت من هذا؟ فى حالة أهم منصب، وهو منصب كاهن آمون الأكبر فى الكرنك، يمكننا تتبع أحواله خلال معظم الدولة الحديثة[81]. فبالنسبة للأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وحتى عهد رمسيس الثانى، كان كل كاهن أكبر يعين من قبل الملك ويؤتى به من صفوف طبقة الموظفين (كان اثنان منهم وزيرين، هما بتاح ميس وباسر) أو ممن لديهم خلفية من الخدمة فى المعابد، وإن لم يكن ذلك بالضرورة فى الكرنك أو طيبة. إلا أن الكهنوت فى أواخر الأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرين كانت تسيطر عليه عائلتان سيطرة كبيرة (من خلال صلات المصاهرة) حيث نجحتا فى احتكار منصب كبير الكهنة وكثير من المناصب الأقل فى عبادة آمون بالكرنك، لتشكلا بذلك اثنتين من الأسرات الكهنوتية الحقيقية. غير أن قاعدة نفوذهما كانت مدنية: وهى عزة المنصب الرفيع، والصلات العائلية، والرعاية التى تحت أيديهم. وفشلت عائلات الكهنة فى الاختبار الأخير، حيث لم تقدم ملوك المستقبل. وتصادفت الفترة الفاصلة بين العائلتين مع بعض القلاقل المدنية المرتبطة بنزاع الأسرات الذى أدى إلى مجىء الأسرة العشرين. وفى فترة من بداية الأسرة العشرين كان منصب كبير الكهنة فى يد شخص يسمى باكن خنسو، وهو ابن رجل كان مسئولاً عن الحامية

العسكرية التى كانت تدافع حينذاك عن ضيعة آمون فى طيبة. إلا أن اعتماد النفوذ المدنى اعتماداً كاملاً على الجيش لم يعد قائماً. والواقع أن كبير الكهنة ما قبل الأخير اقصى عن منصبه لمدة ثمانية أو تسعة أشهر خلال حرب أهلية حقيقية فى الوجه القبلى شارك فيها نائب ملك كوش على رأس جيش نوبى. وعين هذا الرجل نفسه فى طيبة وجعل نفسه مسئولاً، لفترة قصيرة، عن واردات الغلال إلى ضيعة آمون (وهو العمل الذى يبدو أنه أدى فى مرة سابقة إلى استقرار أسعار الغلال)(85). وعندما انتهت الأسرة، تولى منصب كبير الكهنة قائد عسكرى اسمه حريحور. وكانت القرون الثلاثة التالية عصراً للجيوش الخاصة. وأصبحت المنطقة المحيطة بطيبة إقليماً شبه مستقل عن طريق كاهن آمون الأكبر الذى كان قائداً لأحد الجيوش وأميراً فى كثير من الأحيان للبيت الحاكم فى شمال مصر، وهو نفس تداخل الدين والنفوذ العلمانى كما تجسد فى المُلك.

ولم يتحقق الانتصار لأى من الجيش أو الكهنوت وإنما للواقعية السياسية. وهنا يكمن درس مهم. فلم تكن الرهبة الدينية أساس النفوذ فى حد ذاتها: إذ كانت صور نفوذها مجرد وهم، ما لم تكن تعبر عن العزم السياسى لمن كان يشعرون بالرغبة فى الحكم، إما بحق المولد أو الطموح. وربما لم يروا هم أنفسهم الأمر أو يفهمونه بهذه الفجاجة. وسبب ذلك أنه لم تكن هناك مفردات جاهزة للسياسة والمصالح الذاتية. ولكنهم إذا كانوا قد قبلوا اللغة والمفاهيم الدينية، فقد كانوا كذلك يلوون الصور فى اتجاههم ويضعون أنفسهم فى المركز. وكان رجال السلطة الحقيقيون يتسامحون مع الكهنوت المدنى القوى ، طالما أنه لم يعترض طريقهم.

وبذلك نعود إلى أفكار هذا الفصل الافتتاحية. فأنا أقيم فى بريطانيا وأدرك تمام الإدراك أن المواكب والمراسم ليست تعبيراً رمزياً عن النفوذ السياسى. ويرتبط جزء كبير من هذا برئيس الوزراء، وهو شخصية تم الحد مما يحيط بها من أبهة. فقد تغيرت الأمور تغيراً واضحاً وبقدر كبير من العصور القديمة. ولكن لنتوقف قليلاً. فإن النظارة الذين كانت توجه لهم أبهة الفراعنة كانوا يبدءون بالبلاط، ثم يمتدون إلى الموظفين الأقل قدراً، وربما شملوا بحلول الدولة الحديثة مجموعات رمزية على الأقل من الناس كافة. ولكن فكرة السلطة الجمعية لم تكن قد ولدت بعد. وكان النظارة فى الغالب

محايدين سياسياً. وكان الناس يشكون من مطالبات الضرائب التى لم يكن هناك ما يبررها، وكانوا يتظاهرون عندما لا تصل الرواتب، غير أنهم لم يشكلوا أحزاباً سياسية ولم يكونوا جماهير ثورية. ولم تكن المواكب دفعاً لتهديد حقيقي. فهؤلاء الذين كانوا يشكلون تهديداً للملك فى أغلب الأحيان كانوا أفراداً أقرب ما يكونون إليه، ممن هم «داخل» الأبهة وربما ساعدوا فى تنظيمها، وكانوا بذلك أقل تأثراً بها من غيرهم.

ونحن محقون فى البحث عن اتصالات أساسية بشأن أفكار الحكم داخل مواكب البلاط، مصاغة بمصطلحات العصر التى نفهمها. ذلك أن المصطلحات نفسها ربما كان لها قدر ضئيل من الوجود المستقل عن الاحتفال نفسه. فهل لنا على سبيل المثال أن نزعم أن الحب سد كان موجوداً وجوداً مستقلاً عن الاحتفال به (أو الاحتفال المتوقع به)؟ وكانت وسيلة الاتصال نفسها أيديولوجيا. وكانت المواكب والشعائر علاجاً نفسياً تبادلياً، أى شكل «اتصال» ما للتعبير يجد كل المهتمون رضا فى المشاركة فيه، بمن فى ذلك المنظرون - ويفترض أنهم الكهنة - الذين صاغوا المدلول، ويرون أنه لن يكون هناك أى مدلول بدون العرض. ولم يكن النظارة هم وحدهم من يشملهم ذلك، بل المؤدين الرئيسيين كذلك.

والمجتمع الحديث، عندما يمقرط المواكب والشعائر ويقدمها فى الوقت نفسه لبطلات الترفيه وأبطاله، فهو يبين بطريقة مفيدة أن الأبهة حدث اجتماعى جمعى يمكن الإبقاء عليه بطريقة مستقلة عن السلطة السياسية. وفى العالم القديم كان دمج الأدوار يميل إلى حجب هذا، ولكن لابد أنه ظل صحيحاً. مكان يحكم، ومن هب للتأييد، ومن سقط، وما هى الحروب التى تحارب والضرائب التى تحصل، وما هى المراسيم الجديدة التى صدرت: لقد كانت ممارسة السلطة الحقيقية، من وراء الستار، لا صلة لها بالأبهة والاحتفالات.

الفصل السادس

مولد الإنسان الاقتصادى

من الممكن تجميع موسوعة تضم أبرز شخصيات مصر القديمة فى عصور بعينها. والدولة الحديثة من بين هذه العصور. وإذا نظرنا إلى النتيجة لظهرت حقيقة شديدة الجلاء: وهى أنه ما من شخص تحقق له ما تحقق من الشهرة والنجاح وزعم أن ذلك كان يقوم على أساس مستقل عن الدولة. فقد كان كل واحد «موظفاً». ومن الممكن أن ترتقى من خلفية متواضعة لتصبح أقوى رجل فى البلاد بعد الملك، ولا سبب لذلك إلا أن الملك يعترف بسجاياك ، التى من بينها إخلاصك ووفاؤك. ولن نرى عصاميين من الحرفيين والصناعيين ، ولا من الجلابين أو المرابين أو صانعى مقابر الغير. وهذا على أقل تقدير ما تقوله لنا النقوش ، تلك السير الذاتية المحفورة فى المقابر. ونتيجة لذلك ، وبناء على الأدلة الرسمية المكتوبة والمصورة ، فإننا نخلص إلى أن الجزء المؤثر من المجتمع المصرى كان يتكون من المؤسسات وحدها.

إلا أنه كما هو الحال دائماً ، لا بد أن نحذر الخلط بين الأسطورة وبنية المجتمع. ويصح كذلك القول بأن مصر القديمة لم يكن بها ساسة ، بالمعنى الذى تستخدم به الكلمة فى الوقت الراهن؛ أى الإشارة إلى أشخاص جعلوا شغلهم الشاغل هو التعبير عن مصالح جماعة بعينها والكفاح من أجل ذلك. غير أن المصريين لم يتسموا بالبراءة السياسية. ففى إطار تسلسل الولاء الهرمى للنظام الوظيفى ، كان الأفراد الطموحون يدفعون بأنفسهم إلى أعلى ويتآمرون للقضاء على من يقفون فى طريقهم. فقد كانت سياسة المصالح الذاتية موجودة كأوضح ما يكون ، حيث كان يحتويها نظام واحد للإدارة. إنه عالم جاء بعد ذلك بزمان ، وكان يميل أكثر إلى الفكر المجرد ويقل تماسكه من الداخل ، ذلك الذى أمد المخطط السياسى بـ «السبب» وجماعة المصالح الخاصة ، وبالتالى فرصة الإعلان عن السياسة باعتبارها موضوعاً مستقلاً ومهنة.

ويقدم لنا علم الاقتصاد صورة مشابهة بعض الشيء. فلم يفكر أحد فى "علم الاقتصاد" أو يسعى وراءه كهدف مستقل ، ومع ذلك هل ينبغى علينا استنتاج أن المصريين كانوا سذجاً من الناحية الاقتصادية؟ إن ما يجعل هذا الأمر غير واضح هو ذلك القدر من النظرية الشاملة التى تجمع بين كل من المجتمعات القديمة و"البدائية" ، وهى النظرية التى غالباً ما تميل إلى ادعاء مثل هذه البراءة الاقتصادية وحسب. وبالنسبة لمصر القديمة ، كانت هذه المنطقة الخاصة من النظرية الاقتصادية بطيئة فى الحدوث ، غير أنها تركت أثرها بالفعل. وهى تمثل فى المقام الأول استجابة متأخرة لعمل المؤرخ الاقتصادى المجرى الأمريكى كارل بولانيى (١٨٨٦ – ١٩٦٤) [1]. وقليل ما ذكرته أعمال بولانيى عن مصر القديمة ، غير أن اسمه أصبح يشير إلى نوع خاصة من مقاربة التاريخ الاقتصادى والأنثروبولوجيا بصفة عامة. وهكذا فإن المناقشة التالية ليست فى واقع الأمر لوجهة نظر بولانيى ، وإنما لوجهات نظر غيره ممن كونوا آراء بشأن الاقتصاد المصرى القديم فى السنوات الأخيرة متأثرين بأفكاره[2]. وتتميز هذه المقاربة بالابتعاد الواعى والمتعمد للمؤرخ عن العالم الاقتصادى الحديث. فعلى سبيل المثال ، يجب ألا نأخذ التجربة الأساسية لتقييم تعاملاتنا فيما يتعلق بالمكسب والخسارة أمراً مسلماً. وذلك لأن الأنظمة الاقتصادية للماضى العتيق كانت مختلفة اختلافاً كبيراً عن أنظمة الحاضر. ويمكننا تقديم نماذج لكيفية أنهم كانوا ينطلقون فحسب من المصادر القديمة نفسها ، ومن استغلال عاقل للأدب الإثنوغرافى ، ومن نقاط مرجعية بعينها تبدو فى عمومها صالحة للاقتصادات فى المجتمعات المعقدة القديمة. وطبقاً لوجهة النظر هذه ، لا بد من الحذر من أخطار زرع دوافع الاقتصادات المألوفة لنا نحن ووسائلها فى الماضى. وهذه قاعدة قيمة ومهمة فى واقع الأمر ، غير أنها إذا تركت هنا فإنها تتعرض لخطر عزل الماضى وإفقار المناقشة. وهى تصور على وجه الخصوص الأنظمة القديمة على أنها كيانات جامدة خالية من آليات التكيف مع الظروف المتغيرة.

وعلاوة على ذلك ، فإنه إذا كان التناقض بين الماضى والحاضر بهذه الحدة ، فإنه من المهم أن تكون هناك قاعدة معروفة لما يشكل «الحاضر» وحسب. ويكمن فى هذا مصدر آخر من مصادر الضعف. ففى المناقشات التى من هذا النوع يجعلون الأنظمة

الاقتصادية الخاصة بالحاضر مرادفة لـ «اقتصادات السوق» ، وهى نتاج التفكير والممارسة التجاريين للقرون القليلة الماضية التى كانت بداياتهما فى الغرب. وهذه قاعدة لا يصح الانطلاق منها . فعلى مستوى الدول الفردية لا يضم العالم الحديث نماذج لنظام اقتصادى يقوم بالكامل على قوى السوق. وحتى بالنسبة لهؤلاء الساسة الذين يرغبون أشد ما تكون الرغبة فى ذلك ، تظل هذه غاية لا تدرك. وتمثل كل الأنظمة الاقتصادية الكبيرة توازناً وحلاً وسطاً وهدنة مزعزعة بين قوتين: هما رغبة الدولة فى تزويد نفسها بقاعدة مأمونة لوجودها وخططها من ناحية ، والضغط المتشظى للطلب الخاص من ناحية أخرى.

وعلى أحد طرفى النسق نجد تلك الدول التى تنشئ اقتصاداً يدار إدارة موجهة بالكامل ، بسبب الأيديولوجيا (أو فى بعض الأحيان لدواعى الحرب). وتعد دول الكتلة السوفيتية أوضح أمثلة على ذلك. فهى تستخدم وسائل حديثة لتحقيق شىء مألوف الآن من دراسة النظم القديمة: ونعنى بذلك «إعادة توزيع الثروة» (وهو مصطلح يعنى فى علم الآثار الجمع المركزى واسع المدى للمنتج الذى يوزع بعد ذلك على نطاق كبير مثله). ويقصد بالمعاملات الاقتصادية تحقيق أهداف اجتماعية مساواتية هى بالتالى «جزء لا يتجزأ» (وهو مصطلح أساسى لدى بولانيى) من أيديولوجيا سياسية تهدف إلى خلق مجموعة بعينها من العلاقات الاجتماعية والسياسية (أى الاشتراكية). ولكى يعمل هذا النظام بالطريقة التى يقصدها من أوجدوه ، لا بد أن يكون على قدر كاف من الحساسية فى توقعه للحاجات والظروف الفردية ، وأن يكون مرناً فى استجابته بما يقدمه من سلع وخدمات لجعل الناس كافة فى حالة رضا . وتخفق كل الأنظمة الحديثة فى مواجهة ضخامة تلك المهمة. وحيثما يكون الإخفاق ينشأ أحد حلول السوق ، وإن كان العالم الحديث يعيد تسمية رد فعل السوق الطبيعية داخل الاقتصاد الموجه بـ «السوق السوداء» ، وهى تسمية مضللة. وكل ما تفعله "السوق السوداء" هو ملء الفجوات فى النظام الضخم.

وبعد ذلك نجد تلك الدول المؤمنة بحرية السوق. إلا أن هذه الفلسفة عند تطبيقها تكون محدودة على الدوام. فهى تزدهر أوضح ما يكون الازدهار فى تصنيع المنتجات الاستهلاكية وتجارتها . والدول الحديثة من هذا النوع تُبقى على قطاعات موجهة ضخمة

تعمل فى إطارها السوق الحرة – وهى الخدمة المدنية ، والقوات المسلحة ، والإمداد والتموين الدفاعى ، ودعم أسعار المنتجات الزراعية ، وتعويضات البطالة ، وخطط الضمان الاجتماعى ، ومراقبة الجهاز المصرفى. ودول قطاعات السوق الحديثة صاحبة عمل على مستوى ضخم ومعينة للشعب (من خلال خطط الرفاهية) ، ومشترية ضخمة لأشياء كثيرة بينها المال ، غير أنها فى حد ذاتها ليست منظمات تجارية يحكمها زيادة الربح وتقليل الخسارة. وعلى أى مستوى غير المستوى المحلى ، ما السوق التى تنظم نفسها وتثبت الأسعار وتستجيب استجابة تامة للعرض والطلب إلا وهم. فآليات السوق الحديثة جزء أساسى فى قطاع الدولة الموجه ، وكذلك مراقبة الدولة التى تكاد تكون دائمة للنظام المصرفى ، ومستويات تحصيل الضرائب ، والمعروض النقدى ، وهى نفسها جزء لا يتجزأ من اعتبارات قومية أعرض مثل «المصلحة الوطنية» و «الاعتبارات السياسية للحزب» و «المسئولية الاجتماعية والأخلاقية». وتعتمد آليات السوق اعتماداً جزئياً على كل ما فات.

فما علاقة هذا كله بدراسة الماضى العتيق؟ إن كل الأنظمة الاقتصادية الضخمة ، رغم الاختلافات فى الفلسفة والممارسة ، تمثل مخاليط مختلفة من نفس المكونين الأساسيين: وهما طموح الدولة من ناحية ، والطلب الخاص على ماهو أكثر من المشاركة المساواتية فى موارد الدولة من ناحية أخرى. وسواء أكان تركيزنا على الدول المؤمنة بالاستثمار الحر التى قد ترغب فى الانسحاب من السيطرة الاقتصادية النهائية، أو تلك التى لها فلسفة على النقيض من ذلك تماماً ، فإننا نجدها فى الواقع تحرك فحسب الحدود بين منطقتين. ولذلك يتوجب علينا أن نطرح سؤالاً عن الأنظمة الماضية: هل هى كذلك تمثل خليطاً خاصاً بها فى إطار هيكل اقتصادى ضخم عالمى حتمى ، خُلق عندما ظهرت الدول الأولى ، ويتيح إمكانية الظهور المحتمل لبعض الجوانب بصورة مختلفة ، مثل «السوق السوداء» الحديثة؟

ليس هناك شك فى جانب من جوانب الخليط القديم الذى يقوم على إعادة توزيع الثروة ، الذى كانت توجهه الإدارة المؤسسية. غير أن هذا ليس هو حال الجانب الآخر ، وهو تلبية الحاجة الفردية ، حيث يكون تركيز رأى بولانيى على الحد من قوته الاقتصادية. وإذا كنا نعتبر الاقتصاد الموجه سائداً سيادة تامة ، حيث هناك ما

يشجعنا على ذلك بالنسبة للدول القديمة مثل مصر ، فـإن علينـا قبـول توفـر شـرط أو شرطين: فإما أن النظام نفسه كان قادراً دوماً على تقدير الحاجات الحقيقية لكل فرد وتلبيتها ، أو أن حاجات قطاعات عريضة جداً من السكان لم تظل ثابتة بصورة سلبية لفترات طويلة ، مما يقدم صورة معكوسة للتذبذب داخل نظام الدولة: أى أنه عندما كان ما لدى الدولة لتقدمه قليلاً ، كان الناس يكيفون أنفسهم مع تلقى ما هو أقل. وبالنسـبة للحالة الأولى ، فـإنهـا لو وجـدت فى يوم من الأيام لكان من اللازم اعتبارها واحدة من حيل الزمن العتيق المفقودة ، حيث إنها كانت ستمثل مستوى من الإدارة الاقتصادية يغيب عن إدراك الحكومات الحديثة. إلا أنه بالنسبة للشرط الثانى ، فلا بد أن نضع فى اعتبارنا كلاً من طبيعة الطلب القديم ومدى ثبات الأنظمة القديمة.

قطاع الدولة : قوته ونقاط ضعفه

إن الجانب الموجه الخاص بإعادة توزيع الثروة فى الاقتصاد المصرى أجلى من أن يتطلب الشرح الكثير. فالعديد من البرديات أو المجموعات البردية توثق أمثلة بعينها بتفصيل كبير لفترات مختلفة[3] ، ويمكننا إضافة قدر هائل من المصادر الثانوية إلى هذه المصادر الرئيسية. كما يمكننا الاستفادة من الأدلة الأركيولوجية ، بما فيها مخازن الغلال الضخمة ، التى تشهد على حجم ما تحتفظ به الدولة من مخزون الغلال الاحتياطى ، الذى كان يعالج تذبذب المعروض منها بسبب اختلاف غلة الحصاد على مر السنين[4]. ولتوضيح عرضها فى الفصل السابق ، أولينا الاهتمام لمثال واحد بعينه، وهو الذى فى الرمسيوم (انظر الشكل 68). ولا ينبغى التهوين من قدر هذا الوزن الاقتصادى السلبى. فالأداء الاقتصادى مسألة دورية ، وفى العالم الحديث تعمل سيطرة الدولة على القطاعات الأساسية على سد الفجوة التى بين القمم والقيعان الحتمية . وما نفهمه من المعاملات الاقتصادية الصرفة فى العالم القديم أقل بكثير مما يمكننا من وضع نموذج للمناخ الاقتصادى المتغير الذى يجب أن نعترف بأنه كان عاملاً مهماً ودائم الوجود. غير أنه فى حالة مصر يمكننا التأكد من عنصر دورى واحد: وهو عنصر حجم مياه النيل. فالفيضان السنوى ، وهو العامل الأساسى فى الزراعة ، الذى لم يكن يختلف من عام لعام وحسب ، بل كان كذلك خاضعاً لدورات مناخية أوسع على مر السنين ، كانت له عواقبه الوخيمة على الاقتصاد الزراعى . وكان لتدخل الدولة (فى صورة المعابد والقصر) دوره القوى فى الحد من هذا الأثر.

وهو لم يكن نظاماً ضخماً. فكما رأينا ، كان هناك ، إلى جانب القصر ومراكز السلطة الإدارية المختلفة التابعة له ، شبكة معقدة من المؤسسات الدينية شبه المستقلة حيث كان مركز الاهتمام عبادة تماثيل الآلهة والملوك. وكانت تماثيل الملوك تشمل تلك الخاصة بالمقابر الملكية والمعابد المرتبطة بها[5]. وكانت تلك المؤسسات ، وبدرجات متفاوتة ، جباة للعوائد ، حيث كانت تخزن جزءاً وتوزع آخر فى صورة رواتب وأجور. ويبدو أن عدد من كانوا يستفيدون كان يضاعف عمداً فى بعض الأحيان من خلال نظام القبيلة ، التى كانت تشترك فى واجبات المعبد (وأرباحه) على أساس العمل لبعض الوقت[6]. وكما لاحظنا ، كانت الدولة الوسطى على ما يبدو هى التى قطعت شوطاً أبعد فى هذا الطريق على وجه الخصوص.

وهنا تبرز نقطة عامة مهمة. ففى السنوات الأخيرة أبدى علماء الآثار اهتماماً بدراسة جوانب المجتمعات القديمة باعتبارها «أنظمة». وبذلك فإن مكوناتها وخطوط تفاعلها يمكن تحديدها وعرضها توضيحياً كأنها لوحة تمثل سير العمل الخاص بالإدارة الحديثة. وهذا رأى له قيمته ، غير أن فيه عيبا دلاليا. فنحن قد نتعرف على الأنظمة فى عمليات المجتمعات القديمة، ولكن من غير الضرورى أن تكون منظمة بحال من الأحوال، ذلك أن كلمة منظمة توحى بدرجة كبيرة من المنطق والنظام. وعمليات الإدارة المصرية فى فتراتها المختلفة واضحة وضوحاً معقولاً ، غير أنها لا تبدو نتاجاً لسلسلة كبيرة من الأنشطة. فهى بعيدة عن ذلك. كما أن النظام يمضى فى قنوات السلطة. وفى إطار أى من القنوات يمكن أن تكون الإجراءات على قدر كبير من الفاعلية (وليس الكفاءة) فى تحقيق هدف ما ، مثل نقل الأحجار من المحاجر ، وإقامة تمثال ضخم ذى حجم معين. ففى ذلك ازدهرت المواهب البيروقراطية. غير أننا سنبحث دون جدوى عن أدلة تتعلق بالاندماج الواعى للأجزاء الفردية لتصبح مشروعاً عاماً للإدارة.

وتبين وثيقة من الدولة الحديثة بوضوح تام كيف أن الحكومة القديمة كانت تتكون من تراكم للترتيبات المؤسسية المفردة مداه شديد المحدودية. إنها مرسوم حورمحب (حوالى ١٣٢٠ ق.م)[7]. وعندما صدر هذا المرسوم كان عصر العمارنة قد انتهى للتو ، وكان القائد العسكرى حورمحب قد أضحى ملكاً. وربما توقعنا أن ذلك كان عصر

إعادة التنظيم فى أنحاء البلاد ، وإعادة تأكيد السلطة الملكية ذات الشكل التقليدى. غير أن الجزء الأول من المرسوم كان عبارة عن مجموعة من المراسيم الملكية المفردة الموجهة ضد حالات محددة من التحصيل الخاطئ والزائد عن الحد للعوائد من قبل مجموعات مختلفة من الأفراد المسئولين أمام الملك. وهى تعطى انطباعاً واضحاً بأنها ردود على شكاوى فردية وليست نتيجة لممارسة مدروسة ضمن إصلاح الإدارة بصورة عامة. وهى بذلك توحى بأنه لم يكن هناك نظام مقنن لتحصيل العوائد كما قد نفهمه نحن. فبدلاً من ذلك كانت هناك سلسلة من الممارسات الفردية التى يقرها العرف. إذ كانت مجموعة من الموظفين تقوم بعمل ما ، وتقوم مجموعة أخرى بعمل غيره. وفى إحدى الحالات كان العرف ذا ذاكرة حديثة. فالسلطة التى تُذكر بصورة منفصلة فى المرسوم هى الحريم الملكى الذى كانت له سلطات تحصيل العوائد الخاصة به. وفى كل عام كان الملك وبعض أهل بيته يسافرون جنوباً إلى طيبة من أجل احتفال أوبت. وكانت مهمة إطعامهم أثناء السفر قد انتقلت ، فى عهد تحتمس الثالث ، إلى عمد المدن المحلية. وحول موظفو الملكة والحريم الملكى هذا إلى مسألة سلب حاول المرسوم إصلاحها. ومن المغرى أن نتخيل ملكة سريعة الغضب تعوض ملل الرحلة الطويلة بعيداً عن وسائل الراحة التى فى قصرها بنهب العمد الإقليميين سيئى الحظ وتخلق بالتالى تقليداً إدارياً. ولكن القيام بذلك يكشف عن حقيقة مؤلمة بشأن البحث العلمى: فهو يتسم بالحياة فقط عندما يستنشق أبخرة الخيال التاريخى.

ولأن مصر القديمة حققت نجاحاً لفترات طويلة كمجتمع مركب ، فلا بد أن نقبل رغم ذلك أن نوعاً ما من الفعل الموازن الاقتصادى الشامل كان سائداً. ويكمن جزء من العملية فيما كان بالفعل تفويضاً ضخماً للإدارة قصيرة المدى من خلال المؤسسات الدينية. وقد علقنا بالفعل ، فى الفصل الخامس ، على العلاقة التعايشية بين المعبد والقصر. فوضعهما كمركزين دينيين راسخين فى الأيديولوجيا العامة للدولة ، وكذلك بيروقراطيتهما الداخلية ، أعطياهما السلطة والوسيلة كى يعملا بفاعلية وليس بحسم. إلا أنهما تعرضا على المدى الطويل لعملية تعديل تدريجى خسرت خلالها المؤسسات الأقدم والأقل وضعاً هباتها لتحصل عليها مؤسسات جديدة. وكانت فكرة أن العبادات تأسست لتبقى إلى الأبد خرافة لم تعق تدخل الدولة. وفيما يتعلق بالعوائد والنفقات ،

كان المبلغ الخاص بأنشطتها ، إضافة إلى مستوى عام للنفقات الملكية على حياة القصر ، يمثل «ميزانية» أو موازنة عامة للبلاد. ومن المحتمل أن الأمر لم يُر قط بمثل هذه الطريقة المجردة. غير أن الشكاوى من أسفل بشأن الموارد غير الكافية ربما أوضحت لكبار الموظفين قدراً من عدم التوازن الذى كان يمكنهم حينذاك السعى إلى تصحيحه.

وكان الحفاظ على المستوى الأساسى للإنفاق الملكى يتم فى جانب منه من خلال دخل الأراضى وغيرها من المصادر الإنتاجية المملوكة ملكية مباشرة ، وفى جانب آخر من خلال سلطات جمع العوائد التى تمنح لموظفين بعينهم من مؤسسات بعينها ، وفى جانب ثالث من خلال جباية الضرائب فى أنحاء البلاد. وكان النظر يعاد فى ذلك من حين لآخر ، ويفترض أنه كان لتغطية نقص فى العوائد[8]. والسجل المفصل الذى تحت أيدينا بخصوص الضرائب العامة المفروضة على المدن والمناطق الإقليمية لمصلحة الملك (من خلال وزيره) هو منظر جباية الضرائب فى مقبرة رخميرع فى طيبة (الشكل 80)[9]. إلا أن هذا المصدر يوحى بأن الكميات التى كانت تجمع بهذه الطريقة كانت شديدة التواضع. ومع ذلك فإن ظروفاً بعينها كانت تخلق بانتظام المطالب الإضافية ، وإن كانت لا تدوم طويلاً. وكان الإجراء وقتها ببساطة هو نقلها إلى القنوات الإدارية. وكان مثل هذا الطلب فى الظروف المثالية مصحوباً بأمر لإخراج بعض من مخزون الدولة الاحتياطى من مخازن إحدى المؤسسات الميسورة لتغطية الطلب. إلا أنه من الناحية العملية لم يكن هذا هو ما يحدث دائماً. فقد كان من المتوقع إيجاد حل خاص ، وكان ذلك الحل إما أن يتحقق عن طريق الطلب المحلى الفورى ممن كان ضعيفاً ، أو بالإغارة على موارد منطقة أخرى من مناطق الإدارة.

والشعور السيىء الذى ولَّده تشابك الأنظمة الفردية لجمع العوائد ، الذى كانت تقوم به مؤسسات ومجموعات من الموظفين يعيشون عيشة رغدة بالمعنى الحرفى للكلمة، تصوره وثيقة أخرى من الدولة الحديثة ، وهى مرسوم نورى الخاص بسيتى الأول. وهو ينتمى لعهد واحد من الملوك «العظام» وهو بذلك مبرأ من تهمة أنه يعرض نظاماً جيداً يسير بطريقة خاطئة فى ظل ملك فاسد. وكان أحد أعمال سيتى الأول الدينية العظيمة بناء معبد زينه بسخاء وأثثه ببذخ لآمون وأوزيريس فى مدينة أبيدوس المقدسة.

وكما جرت العادة ، فقد تبرع بما يكفى من الأراضى وغيرها من موارد الدخل لجعل المعبد مؤسسة ثرية على الدوام. وكانت بعض الأراضى تقع على مسافة بعيدة فى المناطق التى فتحت من السودان. وكان الغرض من المرسوم فقط هو حماية التبرعات الجديدة من المؤسسات الرسمية الأخرى التى ربما كان عملاؤها قد وصلوا إلى مزرعة أو محطة ماشية وطالبوا بدفع الضرائب. وكان العقاب الذى يلقاه مثل هؤلاء الموظفين شديداً: فكان غرامات كبيرة ، وضرب ، وبتر أطراف. وفى كل عام كذلك كان أسطول من السفن يخرج من بلاد النوبة فى رحلة طويلة إلى الشمال ، ليس فقط لتعيد ملء المستودعات الضخمة الملحقة بالمعبد بالمحصول النوبى السنوى ، بل كذلك لتأتى بالسلع التجارية الخارجية التى يشتريها «الجلابون» الذين يستأجرهم المعبد عن طريق المقايضة. وكانت القافلة تمر وهى فى طريقها إلى الشمال على القلاع المصرية التى كانت وظيفتها الحقيقية حماية الحياة والممتلكات فى مصر. ويبدو أن أحدها كان يقع بالقرب من نورى ، وهو مكان قفر منعزل :

> **وبالنسبة لأى قائد من قادة الحصن (المحلى) ، وكاتب الحصن ، وأى مفتش ينتمى للحصن يصعد سفينة تخص المعبد ويأخذ ذهباً ، [أو عاجاً أو أبنوساً؟] ، أو جلود فهد أو أى حيوان آخر ، أو ذيول زراف ، أو جلد زراف ، أو غيره ، أو أى من سلع كوش التى يؤتي بها كعوائد للمعبد، سوف توقع عليه العقوبة علي هيئة مائة جلدة، وسوف يُغرَّم باسم المعبد فيما يتعلق بقيمة السلع بمقدار ثمانين إلى واحد[10] .**

ولم يكن بعد نورى وانعزالها فى حد ذاتهما ليجعلا المرسوم استثناءً. ويوضح النص الكامل أن نسخة نورى لم تكن سوى نسخة واحدة من مرسوم كان يطبق على الأراضى الزراعية المفتوحة فى النوبة ، حيث شيدت المدن الاستيطانية المصرية وكانت إدارة مصرية الأسلوب بالكامل هى التى تمارس. ولم يكن المرسوم نفسه فريداً بالنسبة للفترة التى صدر فيها. فهناك مراسيم أخرى معروفة من عهود أخرى ، بينها مرسوم لرمسيس الثالث من فيله ومراسيم أخرى من عصر الرعامسة ومن أرمنت وهرموبوليس[11]. والواقع أن تقليد المراسيم الصادرة لحماية المؤسسات المنفردة من اغتصاب الآخرين يعود إلى الدولة القديمة[12].

وكان الحكم فى مصر القديمة يتم بالمرسوم الملكى ، وكان نظام الإدارة هو محصلة هذه المراسيم ، وما ينتج عن ذلك من تداخلات وتضارب فى المسئولية يتم علاجه بمراسيم جديدة استجابة لشكاوى بعينها. وكانت تلك الدورة من القرارات وعريضة الشكوى والمعالجة هى الجزء الأساسى من الحياة البيروقراطية ، إلى حد أن مجموعات الرسائل النموذجية المستخدمة فى تدريب الكتبة كثيراً ما كانت تضم رسالة أو عريضة شكوى نموذجية[13]. وكانت الصورة الشائعة لجابى الضرائب الجشع والفلاح الذى يعانى ترتبط فى مصر القديمة بصورة الموظف النهاب الذى يستولى على حقوق زميله.

وقد وجد قطاع الدولة فى الاقتصاد المصرى لتلبية الحاجات المؤسسية ، ولابد أنه كان يتمتع بقدر محدود جداً من المرونة. وإذا كان يلبى كذلك معظم الطلب الخاص ، فلا بد أن ذلك الطلب كان منخفض الكثافة. ولذلك فلا بد أن نطلع بعد ذلك على النمط الحقيقى للطلب الخاص.

قوة الطلب الخاص

عندما نلجأ إلى سجل علم الآثار ، وخاصة ذلك الذى نحصل عليه من المقابر ، يتضح بشدة أنه خلال الفترة الأخيرة من عصر ما قبل الأسرات دخل المجتمع المصرى تلك المرحلة ذات الأهمية الاجتماعية والنفسية: وهى الاستهلاك الضخم. فقد أثر إنشاء المقابر الخاصة الكبيرة والمذهلة وتراكم السلع الخاصة بالدفن على كافة أنحاء مصر من الناحية الجغرافية ، وخلق طموحاً نفذ بعمق داخل المجتمع. وإن نحن أقررنا منهج بولانيى لوجدنا أن اقتصاد إعادة توزيع الثروة والاستهلاك الضخم لا يتعارضان. فالالتزامات الاجتماعية تجمع بين الاثنين: إذ إن الملك يكافئ رجاله العظام، حيث الكثير منهم لهم صلات إقليمية. وهؤلاء بدورهم يفيضون بهباتهم على أقاربهم الفقراء ومن يعولون. ويصبح كل فرد راض (أو عاجز عن التعبير عن عدم رضائه من الناحية الاقتصادية) ، وعند الموت يأخذ مكانه فى جبانة تعكس كذلك الترتيب الاجتماعى والاقتصادى: فالزعماء المحليون فى مقابر أنيقة متوسطة الموقع محاطة بالكثير من المقابر الأصغر حجماً الخاصة بمن دونهم من القوم (تعد بنى حسن

ونجا الدير نموذجان جيدان من الدولتين القديمة والوسطى بالترتيب)[14]. ويمكننا أن نجعل مصر نموذجاً لاقتصاد إعادة توزيع الثروة.

إلا أنه على المستوى السياسى (أى الرغبة فى ممارسة السلطة) ، تبين الدولة القديمة أن نموذج الإجماع وهم. ويظهر حكام الأقاليم (nomarchs) ، وعندما سمحت الظروف في نهاية الأسرة السادسة ، جاهد الطموحون منهم بأية وسيلة للحصول على مساحات أكبر من الأراضى لأنفسهم ، مما أدى فى بعض الحالات إلى نشوب حرب أهلية[15]. وكانت سياسة المصالح الذاتية موجودة وجوداً قوياً وحقيقياً. ولم يكن الإحساس بالالتزام الاجتماعي مفقوداً. والمثال التقليدي هو عنخ تيفي من هيراكونبوليس الذي وجد نفسه ، بعد استيلائه على إقليم إدفو المجاور ، يوزع إغاثة المجاعة في منطقة ضخمة. وكان عنخ تيفي يحكم بالفعل دولة مصغرة لوقت قصير ، بعد استيلائه على الأرض[16].

وإغاثة المجاعة حالة خاصة من الالتزام. فهل رأس عنخ تيفى كذلك إدارة قادرة على تلبية الحاجات الطبيعية؟ الواقع أنه تعوزنا الأدلة الأركيولوجية من الجبانات المعاصرة فى منطقته التى تمكننا من أن نرى بأنفسنا كيف صار حال الناس في أرضه. إلا أنه في الشمال من تلك المنطقة ، فى مصر الوسطى ، لدينا سجل جبانة موثق توثيقاً جيداً لهذه الفترة والفترات السابقة عليها. ويستقى هذا من عمل الأثري ج. برونتون فى منطقة قاو/البدارى/ماعت مار/المستجدة[17]. وفى عصر الانتقال الأول كانت تلك ضمن المنطقة الحدودية بين أسرات هيراكونبوليس وطيبة المتنازعة ، وإن لم يتضح دور مدير الإقليم المحلى فيما وصلنا من مصادر. وهذه الفترة تمثلها المدافن تمثيلاً جيداً ، لدرجة أن هناك من يرى أن توليفة المجاعة والحرب الأهلية أدت إلى زيادة حادة في معدل الوفيات[18]. ومع ذلك فإن ما تحويه المقابر لا يحمل ما يدل على فقر عام. وقد وجه برونتون جهده إلى هذه النقطة:

> **فى جبانات قاو والبدارى كانت معظم الأشياء التى فى المقابر علي وجه التحديد من عصر الأسرتين السابعة والثامنة. وهنا نجد أكبر وفرة من الخرز والتمائم، دون أن يكون هناك نقص فى عدد المزهريات المرمر ، وكل مساند الرأس المرمر. ونجد كذلك أكبر**

عدد من المرايا من أى عصر، وأقل عدد من المقابر الضحلة البسيطة. وقد تبدى صنعة التمائم المزججة قدراً كبيراً من الرقة. وتعد السيقان العقيق هى الأفضل من نوعها. والتمائم المنقوشة التى على هيئة الحيوان محفورة بمهارة وحرص[19].

وأوضح بروتون بعد ذلك أن المزيد من الخرز والتمائم تم صنعه فى هذه الفترة كذلك. ومن غير المنطقى القول بأن أغلب هذه المادة مسروق من مقابر أقدم ، لأن الكثير منها مصنوع بأسلوب غريب عن هذه الفترة . كما لم تكن تلك المقابر متجمعة حول مقابر كبيرة وضعت فى الوسط لزعماء وممولين. فهى موجودة فى سلسلة من الجبانات الصغيرة المنتشرة على حافة الصحراء وكأنها تمثل مدافن قرى متفرقة على مسافات متباعدة. ومن السذاجة بمكان افتراض أن هؤلاء الناس كانوا متلقين سلبيين لنظام إعادة توزيع الثروة الخاص بالدولة ، وهو النظام الذى كان بطبيعته على قدر محدود من المرونة.

ومن حسن حظنا أن عصر الانتقال الأول أمدنا كذلك ببعض الأوراق الشخصية الأساسية ، فى هيئة أرشيف حقانخت(*). وقد عاش حقانخت إلى الجنوب مباشرة من طيبة ، فى الدولة التى أقامها الحكام الطيبيون من الأسرة الحادية عشرة التى كانت فى ذلك الوقت قد شملت مصر كلها. وكان حقانخت مزارعاً صغيراً ، كتب فى رحلاته التى غاب فيها عن موطنه ، خطابات تنم عن العصبية إلى أسرته. وتفصح هذه الخطابات عن رغبة قوية فى زيادة دخل الأسرة عن طريق صفقات تتسم بالمكر والذكاء مع الجيران وغيرهم من الناس ، دون أن تشير بالمرة إلى أى نظام خارجي أو سلطة خارجية.

(*) مجموعة من رسائل الدولة الوسطى كتبها والد يدعى حقا نخت إلى ولده الأكبر مرسو ، ظهر فيها ما يكشف عن السلطة التى يراها الآباء لأنفسهم على أبنائهم ولو بلغوا سن العمل ، وعن التباين الطبيعى فى معاملة الأب لأبنائه وفق أعمارهم ، ومايكشف عن أن ارتباط المصرى القديم بأسرته وأبنائه لم يمنعه من السفر إلى حيث يكون الرزق . (انظر تفاصيل أكثر فى عبد العزيز صالح ، التربية والتعليم فى مصر القديمة ، الدار القومية للنشر ، القاهرة ١٩٦٦). (المترجم)

لقد استطاع دفع إيجار أرضه مقدماً ، بالإضافة إلى أنه تمكن من إعارة كميات كبيرة من الحبوب وتحت يده نحاس وزيت وأقمشة منسوجة من الكتان الذى زرعه فى مزرعته ، وجميعها يمكن استغلالها فى عمليات الشراء. كما أنه زرع أكثر مما يلزم طلبات أهل بيته فى الوقت الراهن، ولديه احتياطى كبير من رأس المال[20].

وكان يمتلك كذلك قطيعاً من خمسة وثلاثين حيواناً. وكان يبدى نحو أهل بيته التزاماً يتسم بالصرامة ، حيث كان يصرف لكل فرد بما فى ذلك أمه راتباً شهرياً ، وكان بذلك يكرر على نطاق ضيق نفس نظام توزيع الرواتب المألوف فى النصوص الرسمية. غير أن العلاقة بالعالم الخارجى كانت علاقة المكسب المحسوب. فهو على سبيل المثال يحث أحد أهل بيته على الاحتفاظ بثور فى قطيع يوشك أن يرسله ، لأنه لاحت فرصة جيدة جداً للبيع: «فقد زاد سعره بقدار النصف»[22] .

وكان لابد من ذكر أن حقانخت كان يعيش فى زمن صعب، وهو يشير إشارات واضحة إلى المجاعة. غير أن هذا لا علاقة له بالموضوع الرئيسى: فحقانخت يمثل عقلية إنسان يعيش من خلال التعامل الشخصى الذى يتسم بالدهاء ، لا عقلية من تقوم ثروته على موقعه داخل نظام من الالتزام الاجتماعى والدعم الموجه.

كان حقانخت يكد فى وقت من التغيير هو فى مجمله غير معتاد فى مسار التاريخ الفرعونى. ولكن رغم عدم تجربة الاقتصادات القديمة للتذبذب طويل المدى الخاص بالعصور الحديثة ، فمن الخطأ بمكان أن نتصور أنها كانت ثابتة. وكان جيل واحد هو ما يفصل بين حقانخت عن حكومة منف المركزية فى أوائل الأسرة الثانية عشرة. وعموماً فإنه فيما بين ٢١٠٠ و١٥٠٠ ق.م امتدت حدود سلطة الدولة ودخلت فى دورتين حجمهما عظيم. وفى أحسن الظروف ، عندما لم يعد للمجاعة والحرب الأهلية وجود ، كان لا يزال على نظام الدولة أن يكيف نفسه مع التغيير ، وبالأخص مطالب الملوك الطامحين. وكانت تلك معابد جديدة ، وأساطيل جديدة من السفن ، وإعادة تزويد الجيش بالعتاد من أجل الذهاب إلى حملات جديدة. كل هذا كان يمكن أن يخلق مطالب مفاجئة بالنسبة لإعادة توجيه الموارد القائمة وبالنسبة للعائدات الإضافية. وأى نظام نقترحه لمصر القديمة لا بد أن يكون قادراً على تفسير التعديلات الناجحة نجاحاً جلياً

التى أجرتها المجتمعات المحلية على التغييرات مختلفة الأحجام ، فى إطار نظام دولة للتوجيه يتسم بعدم النضج النسبى.

فما هي الأسباب الأخرى غير الشح التى جعلت حقانخت يكدس الثروة؟ الواقع أن أحد المعلقين ، وهو كلاوس بير ، قدم لنا على أقل تقدير جزءاً من الإجابة عن هذا السؤال: إنه الدفن الجيد[23]. وسواء جمع المرء الأشياء فى حياته ، أو ترك لورثته أمر الاختيار من بين ما هو متاح ، فالأثر واحد. ذلك أنها من الناحية النظرية حفرة لا قاع لها كانت توضع فيها نسبة من سلع البلاد ، مما خلق طلباً مستمراً على الاستبدال – والسبب من الناحية النظرية هو أن لصوص المقابر كانوا يجلبون بعضها دوماً فى حركة سرية لإعادة التدوير. وفى حالة معظم الموظفين أصحاب الحظوة ، ربما كانت الموارد الملكية تساعد على الأقل فى توفير العمال لحفر المقبرة نفسها ونقشها. وهذا مذكور فى النقوش[24]. إلا أنه بالنسبة للأغلبية فقد كانت تكلفة الدفن مسألة خاصة. وكانت المسئولية الخاصة بالنسبة للدفن الجيد محفوظة فى القانون: " يقول قانون الفرعون (لتعطى الممتلكات لمن يقوم بالدفن). هذا ما يعلنه أحد الأطراف من الدولة الحديثة فى قضية تنازع على الإرث. وتبين هذه الوثيقة وغيرها أن النمط المعتاد لإرث الممتلكات كان خاضعاً لشرط ذهاب كل الممتلكات لمن يتولى القيام بعملية الدفن الحقيقية[25]. والوريث المحتمل قد يحرم نفسه من الميراث بتجاهله ذلك. والممارسة ونوع التكاليف فى حالة غير المسئولين توضحها حالة الرجل حوى (من دير المدينة) الذى دفنته زوجته أى . ويبدو أنها هى التى ورثته ، حيث إنها هى التى تأمر له بالتابوت وتدفع ثمنه منزلاً كان فى الأصل ملكاً لزوجها. ومن الناحية النسبية كانت تلك تكلفة باهظة شملت بيع المنزل ، وإن كان الأمل فى الإرث قد جعل ولا شك ثقل الالتزام أخف وطأة .

إلا أن الدفن الجيد كان فقط جزءاً من الضغط الاقتصادى فى الطلب الخاص. فالموظف الميسور الحال قد يسعى إلى بناء منزل جديد لنفسه. وهذا موعود به فى النصوص المدرسية من الدولة الحديثة[26]، إلا أن لدينا خطاباً حقيقياً حول هذا الموضوع كتبه عمدة إقليمى (ربما كان عمدة أرمنت) من الأسرة الثامنة عشرة واسمه منتوحتب ، إلى «كاتب» اسمه أحمس تربطه به علاقة ود . وكان بصفته نائباً لـ"رئيس

الأشغال" مفيداً له فى موقعه. الموضوع: توجيهات فى المراحل الأولى لبناء منزل جديد لمنتوحتب ، وهو منزل يمكن الحكم عليه من أبعاده أنه كان منزلاً رائعاً. وهنا قد نكون بصدد حالة أحد أعيان الأقاليم يقيم منزلاً ثانياً فى إحدى المدن الملكية ، وهى فى هذا المثال طيبة. ومن الواضح فى هذه الحالة أنه يدفع ثمنه بنفسه. ذلك أنه عند نهاية الرسالة أضاف قائلاً: «ادفع ثمن أرض المنزل لصاحبها ، وتأكد من أن رضى به . وتأكد من أنه عند وصولى لا يكون لديه ما يقوله لى» (بردية B.M. 10102)[27] .

وبعد ذلك كانت السلع التى كان لا بد للبنات والأبناء أن يحصلوا عليها لخلق الأملاك المشتركة التى كانت تشكل الأساس لعقد الزواج . وقد كانت هناك نفقات دينية فى المقاصير ، ربما كانت عطايا أو رشاوى من أجل التعزيز ، والعرض التنافسى العام للثروة الناشىء عن وجود فناء يدل على التفاخر والسخاء. وبخلاف الأملاك والسلع التى تكشف عنها حفائر المستوطنات والجبانات ، تخبرنا مصادر أخرى أن الموظفين الرسميين كانت لهم أساطيل من المراكب النيلية (الشكل 81)[28]، وفى الدولة الحديثة كانت لهم خيول وعربات كذلك. وكانت تحيط بالناس أسباب لتكديس الثروة ، وهى التى قد تظهر فجأة. وآثار حرية العمل الخاصة بالامتلاك التنافسى غير المرتبط بعادات الدفن يمكن رؤيتها فى مدينة العمارنة فى الدولة الحديثة ، حيث كان يعلن عن الثروة والمنزلة من خلال نظام مرتب ترتيباً دقيقاً لحجم المنازل والرموز المعمارية الخاصة بالمنزلة (انظر الفصل السابع)[29]. وهى توحى بوجود نظام اقتصادى ينسجم انسجاماً دقيقاً مع الطموح والظروف الفردية.

ورد منهج بولانيى على وجود طلب على الأشياء التى لم تكن هامشية فى الحياة وحسب هو السلبية الاقتصادية المطعمة بالتفاؤل: أى العمل بأمانة ، وانتظار الإخلاص بصبر ، والعمل الجاد ، والتزام الآخرين الاجتماعى بأن ياتوا بأوقات أفضل. وشىء مثل هذا كان يعرض فى الزمن القديم باعتباره نموذجاً حقيقياً. وتقول نصيحة الحكيم كاجمنى التى تدل على الزهد «إن كأساً من الماء تروى الظمأ ، ومضغة أعشاب تقوى القلب»[30]. إلا أن العناصر التى أشرنا إليها حتى الآن لا تمثل هذه الفلسفة. ويمكننا تحديد مناطق للطلب الخاص القوى الذى استمرت تلبيته بغض النظر عن فاعلية نظام الدولة. وعصر الانتقال الأول له أهميته الكبيرة فى هذا الصدد ، حيث يوحى بأن

التسليم بموضع المرء فى النظام الاجتماعى وبالتالى الاقتصادى لم يكن سمة مميزة بحال من الأحوال. فكثيرون كان يستفيدون أيما استفادة من فرص الثراء التى لاحت لهم.

وتقدم الدولة الحديثة قدراً رائعاً من التوثيق (فى صورة أرشيف من البرديات التى تتناول التحقيقات والمحاكمات) بشأن وعد الثراء السريع من خلال السرقة[31]. لم يكن هناك شيء مقدس. فقد كان مخزون المعابد من الغلال يسلب بهدوء، وكانت المقابر تسرق، وكانت معدات المعابد وتجهيزاتها تنهب. ومع أن سرقة المقابر اجتذبت من ينتمون فى المقام الأول للطبقة الدنيا، فإن أشكالاً أقل عسراً ومشقة من السرقة والخيانة اجتذبت كذلك مسئولين، بمن فيهم كهنة المعابد. وبخلاف تصوير الجانب الأشد سوءاً من النسيج المهلهل لمجتمع أواخر الدولة الحديثة وكذلك الإجراءات القانونية عندما كانت تُوضع التنفيذ فى نهاية الأمر، تصور البرديات بطريقة غاية فى التحيز الدوافع والوسائل التى فى الاقتصاد المعاصر. وهى تعبر بحيوية عن رغبة فجة فى إثراء الذات، وهى الرغبة التى كان ينبغى السمو بها من خلال المشاركة فى السوق، أو بيع السلع، أو تأجير الأراضى، أو تقديم القروض ذات الفوائد، وجميعها ممارسات موثقة توثيقاً صحيحاً. كما أنها تبين كذلك مصير السلع المسروقة وهى تدخل اقتصاد الأحياء مرة أخرى، وتضيف بذلك إضافة مفيدة إلى معرفتنا المحددة الخاصة بالسلوك الاقتصادى فى تلك الفترة.

وكان اللصوص بصفة عامة من سكان المدن أو القرى وأرباب الأسر بها، حتى وإن كانوا من طبقات دنيا. وكان كثيرون منهم يعيشون فى مدينة مايونحس التى كانت تقع حول معبد رمسيس الثالث الجنائزى (مدينة هابو، انظر الفصل السابع). وكثير مما كانوا يسرقونه كانوا يحتفظون به كجزء من ممتلكات الأسرة. وبخلاف الذهب والفضة تشمل قوائم السلع المستعادة كمية لا بأس بها من أقمشة الكتان والملابس المصنوعة منه، وجرار الزيت، وزينة التوابيت، وقطع من الخشب. وكان النحاس والبرونز بأية صورة من الصور مرغوباً بشدة. وكان طاقماً من حلقات الحمل النحاسية المنزوعة من صندوق خشبى هو حصيلة سرقة أحد المعابد (البردية B.M. 10402). وتتكون قائمة بكاملها من السلع المستعادة تقريباً من هذين المعدنين. وفى بعض الأحيان يكون الصنف محدداً – «طشت غسيل من البرونز يساوى ٢٠ دبن» – ولكن

فى أغلب الأحيان يقدم رقم بمقدار الدبن المثمن بها الأشياء ، وقد تكون المبالغ صغيرة جداً : «السيدة عا رف من مدينة الموتى ، زوجة العامل حورى: 1 ؛ السيدة تاكيرى من مدينة الموتى : 1» (البردية B.M. 10053 ، الصفحة اليمنى 2.18-19). وكان الدبن الواحد يساوى فقط ثمن زوج من النعال.

إلا أن الثروة المادية كانت فى نهاية الأمر وسيلة للشراء. وتعترف زوجة أحد اللصوص قائلة: «أخذت نصيب زوجى ووضعته فى خزانتى ، ثم أخذت دبناً واحداً من الفضة منه واستخدمته فى شراء الغلال» (البردية B.M. 10052, 6.6-7) . وهناك زوجة أخرى أكثر ذكاءً (أو ربما أكثر أمانة) ، عندما سئلت كيف اشترت الخدم ما لم يكن عن طريق سرقة الفضة ، أجابت بقولها: «لقد اشتريتهم مقابل إنتاج البستان» (البردية B.M. 10052, 10. 14-15). ومع أن كلماتها قد تبدو ساذجة ، فمن الواضح أنها كانت تأمل فى أن يصدقوا ما تقول. وكانت فى واقع الأمر تبنى دفاعها على كونها قادرة على زراعة محاصيل نقدية على نطاق واسع. وهى نقطة مهمة فى حد ذاتها. وقد قدمت زوجة أخرى دفاعاً بنفس القدر من الإيجابية عندما طُلب منها تفسير مصدر كمية من الفضة: «لقد حصلت عليها مقابل الشعير فى عام الضباع ، عندما كانت هناك مجاعة» (البردية B.M. 10052, 11.5-8). وهنا يقوم الزعم على الندرة التى رفعت سعر سلعة أساسية ، وهى علاقة تقليدية بين العرض والطلب. وتقدم قضية أكثر تعقيداً عن طريق اعتراف كاهن آخر وبستانى المعبد كير بشأن موضوع نزع صفائح من الذهب من على أبواب المعبد:

«عدنا مرة أخرى إلى عارضتى الباب ... ونزعنا ٥ كايت من الذهب. واشترينا بها ذرة من طيبة وقسمناها. ... وبعد عدة أيام تشاجر معنا رئيسنا بيمينو قائلاً: إنكم لم تعطونى شيئاً. وهكذا عدنا مرة أخرى إلى عارضتى الباب ونزعنا منهما ٥ كايت من الذهب واستبدلناها بثور وأعطيناه «ليمينو» . (البردية ,B.M. 10053 ، الصفحة اليسرى 3.10-13) .

وهذه القضية مثيرة إلى حد كبير للاهتمام. فقد فضل بيمينو الماشية الجيدة على الكمية المثيرة للشك من صفائح الذهب.

وهناك المزيد من الأمثلة التى يمكن اقتباسها لبيان تنوع المشتريات. «الاتهام المتعلق بمقصورة خشب الأرز ، التمثال والأخشاب معاً ، التى استولى عليها كاتب السجلات الملكية ست إخ مس. وقد باعها فى طيبة وتلقى الثمن» (البردية B.M. 10053 ، الصفحة اليسرى 5.5). ويعطى المشرف على حقل معبد الإله آمون ، آخن مينو ، «دبن واحداً من الفضة و ٥ كايت من الذهب مقابل الأرض» (البردية B.M. 10052, 2.19). ويعطى كاتب أمنحتب ، ويدعى سيريت من معبد آمون ، «2 دبن (من الفضة) مقابل أرض ، ومقابل ٤ دبن من النحاس ، ومقابل ١٠ خار من الشعير» (البردية B.M. 10052, 2,22). ويسلم الخادم شدبج قائمة من السلع «ثمناً للعبد ديجاى» (البردية B.M. 10052. 2.23-25). ويعترف آخر قائلاً: «أعطيت ٥ كايت من الفضة لحارق البخور فى معبد آمون مقابل ١٠ هن من عسل النحل» (البردية B.M. 10052, 2a.1؛ راجع كذلك الأسطر 14-4). ويبدأ اعتراف الراعى بوخ عاف كالتالى: "جاءت السيدة نيسموت إلى حيث كنت وقالت لى: «بعض الرجال عثروا على شىء ما يمكن بيعه مقابل الخبز(*) هيا نذهب حتى يمكنك أن تأكله معهم» (البردية B.M. 10052, 1.8-10). ويمكننا هنا أن نتعرف على لهجة طيبة المحلية: فلا بد أن «الخبز» يعنى «السلع الفاخرة» أو ما شابه ذلك.

وكانت الأشياء المنهوبة ضرورية لشراء الخدمات ، فى هيئة الحماية: «وعندما ألقى القبض علينا ، جاءنى كاتب المنطقة خيميبت ... وأعطيته ٥ كايت من الذهب كانت من نصيبى (البردية B.M. 10054 ، الصفحة اليمنى 1.11-12). وفى قضية أخرى: «ولكن كاتب السجلات الملكية ست اخ مس كان قد استرق السمع وهددنا قائلاً: «سوف أبلغ الأمر لكبير كهنة آمون». ولذلك جئنا بـ٣ كايت من الذهب وأعطيناها لكاتب السجلات الملكية ست إخ مس» (البردية B.M.10053 ، الصفحة اليسرى، 3.13-14). وربما كانت بعض الأشياء تسلم لأداء بعض الالتزامات أو لقاء الحظوة:

الاتهام المتعلق بالأربعة ألواح من خشب الأرز الخاصة بأرضية

(*) هذا تعبير مشابه للتعبير المستخدم فى العامية المصرية وهو «يطلع لنا منه لقمة عيش» ، بمعنى أن نكسب المال من ورائه ، وهو مايدل فى كلتا الحالتين على أهمية الخبز فى حياة المصرى القديم والمحدث . (المترجم)

الفضة للملك أوسر ماعت رع-ست بن رع [رمسيس الثانى] الإله الأعظم ، التى أعطاها الكاتب سدى للسيدة تيحر أر ، زوجة أبى الإله حورى: أعطاها هو للنجار أحاوتى بمعبد دوى الجنائزى، وصنع منها تابوتاً لها.

(البردية B.M. 10068 ، الصفحة اليسري 4-4.14).

وربما كانت أكثر المواد إثارة من الناحية الاقتصادية قائمة من الذهب والفضة «استعيدت من العمال اللصوص فى مدينة الموتى ، وثبت أنهم أعطوها لجلابي كل منشأة» (البردية B.M. 10068 ، الصفحة اليمنى 8-4.1). وضمت القائمة أسماء أربعة عشر جلاباً ، ممن لهم صلة بالمعابد والأسر الخاصة. وكانت مهمة "الجلاب" هى الحفاظ على ميزان العرض والطلب الخاص بأحد أصحاب الأعمال عن طريق المتاجرة فى السلع الفائضة عن الحاجة أو غير المرغوب فيها مقابل ما هو مطلوب. ولذلك فإن هؤلاء اللصوص ، الذين لم يكونوا فى وضع يسمح بأن يكون لهم «جلابون» فى عملهم ، كانوا يتعلقون بأى نظام محترف لتحويل ما نهبوه إلى سلع أخرى ، مقابل عمولة كبيرة بلا شك. وباعتبارهم سكاناً حضريين فى مايونحس ، كانت لهم قنوات اتصال مع عالم أرحب.

وقد عولجت حالة المجتمع الخربة فى نهاية الدولة الحديثة ، وإن كان ذلك بشكل مؤقت ، بفرض القانون العسكرى. وليست البرديات القانونية الخاصة بذلك الزمان بمرشد إلى حالة الأمور فى وقت سابق من تلك الفترة. وهى ذات صلة بالموضوع ، لأنها تقدم شهادة حرفية على الموقف من الثروة المادية وعلى الحق الطبيعى والسهل الذى كان الناس يتمتعون به فى الوصول إلى سوق حرة من السلع والعبيد والماشية والطعام وحتى الأراضى. ومن الغباء القول بأن فرص المقايضة ، والأسواق نفسها ، من خلق عدم أمانة العصر. ففى الأوقات التى تتسم بقدر أكبر من التنظيم كان الناس لا يزالون يتلقون الكسب غير المتوقع – من المواريث ، وعطايا الدولة – وكان لديهم سلسلة مشابهة من الاختيارات فيما يتعلق بما يفعلونه بها . فإما أن يكنزونها فى البيت ، أو يقايضونها بأشياء أخرى. ونشرت سرقات أواخر الدولة الحديثة موجة من الثروة فى المجتمع من القاع بطبيعة الحال. وكانت الأسرة الثامنة عشرة قد فعلت

الشيء نفسه ، من غنائم المعارك ، ولكن من أعلى وطبقاً لنظام محكم.

ويبين اكتشاف فى العمارنة بحق أن تركيزات الثروة السائلة كانت دولاً فى هذه الفترة السابقة. ففى منطقة فضاء مفتوحة بجوار بئر عامة فى الحى الشمالى دفنت جرة من الفخار ، وكان بها ثلاث وعشرون سبيكة من الذهب وكمية من الشظايا الفضية والخواتم المصنوعة بطريقة خشنة ، إلى جانب تماثيل صغيرة من الفضة لإله حيثى (الشكل 82)[32]. وقد صنعت السبائك بصب الذهب المنصهر فى تجاويف حفرت بالإصبع فى الرمل. وكان إجمالى وزن الذهب هو ٣٣٧٥,٣٦ جرام ، أى ما يساوى بالوزن القديم ٣٧ دبن. وبلغ إجمالى وزن الفضة ١٠٨٥,٨٥ جرام ، أى ١٢ دبن. ويمثل هذا قدراً لا بأس به من الثروة ، وإن لم يكن مبلغاً مذهلاً. وأكثر سرقات مقابر الدولة الحديثة نجاحاً ، من مقبرة الملك سوبك ام ساف من الأسرة السابعة عشرة ، كان إجماليها ١٦٠ دبن من الذهب. ويمكن معرفة قيمتها الشرائية من نسبة الذهب إلى الفضة (٥ : ٣ وأصبحت فيما بعد٢ : ١) ، ومن نسبة الفضة إلى النحاس (١ : ١٠٠) . وهكذا فإن الذهب يمكن استخدامه فى شراء عشر أو اثنتى عشرة رأس ماشية. والأثريون الذين عثروا على خبيئة العمارنة افترضوا أنها كانت جزءاً مما سرقه أحد اللصوص . وفى ضوء غرابة المكان الذى وجدت فيه يبدو هذا معقولاً ، وإن كانت هناك احتمالات أخرى. إذ يمكن القول كذلك بأنها كانت مخزوناً من دكان صائغ[33]. ومهما كان أصلها ، فهى تمثل ثروة يسهل تحويلها قامت على نقطة الدخول من جديد فى الاقتصاد على مستوى خاص.

واقتضى تلبية الطلب الخاص على السلع المصنعة توفير المواد الخام. وكثيراً ما تفسر النصوص الرسمية على إنها توحى بأن الاحتكار الملكى كان قائماً بالنسبة لتلك المواد الخام التى كانت تقع خارج وادى النيل. والواقع أن النقوش التى فى المناجم والمحاجر تكشف عن حجم العملية التى يمكن أن تتولاها الدولة[34]. إلا أن هذا ليس بالضرورة هو المعتاد. ولنأخذ المرمر كمثال. كان أحد المصادر الأساسية الصحراء الواقعة إلى الشرق من منطقة أسيوط والمنيا فى مصر الوسطى ، وهى المنطقة التى تشمل محاجر حاتنوب[35]. وكانت حاتنوب هدفاً للحملات الكبيرة التى أرسلها الملوك. إلا أنه من السهل زيارتها على الحمير فى يوم واحد[36]. وإذا زودت مجموعة من

الناس بزاد يكفى لعدة أيام من الماء والطعام ، وبعض السلال والأدوات البسيطة ، لعادوا بحمل كبير من كتل المرمر الصغيرة الصالحة لعمل المزهريات ، وربما استفادوا بالقطع التى خلفتها وراءها الحملات الكبيرة. والعمليات البسيطة كهذه يمكن أن تترك بعض البقايا الأركيولوجية خلفها . والمؤشر الآخر على أن المصادر المكتوبة ليست دليلاً كاملاً على توريد المواد الخام هو أن مواد بعينها مستبعدة استبعاداً تاماً. وليست لدينا سجلات للحملات المرسلة إلى تقطيع الحجارة اللينة التى كانت أساساً لصلصال المرل(*) الذى كان يستخدم على نطاق واسع فى صناعة الفخار(37) ، وينطبق الشىء نفسه على النطرون(**) وعلى الجبس . ولم تكن هذه العمليات تلزمها الحملات عسكرية الطابع . فقد كان بالإمكان إنجازها على أيدى مجموعات صغيرة من العمال الأقوياء الذين يعسكرون ويعملون بأسلوب بدائى (مثل محاجر الجبس بالفيوم ، الشكل 83)(38). وباستحضار نمط بسيط للتوريد يمكننا أن نشرح بسهولة التوافر الدائم للمواد الخام فى عصور الضعف الداخلى. فلم يكن هناك على سبيل المثال نقص فى القطع الصغيرة من المرمر اللازمة لصناع المزهريات فى مصر الوسطى فى عصر الانتقال الأول.

وكان النطرون فى العصر اليونانى الرومانى ، شأن غيره من السلع ، موضع احتكار من الدولة. والاحتكار كلمة تستخدم أحياناً للعصر الفرعونى كذلك(39). إلا أن وجودها المبكر يقوم على الاستنتاج وليس التوثيق ، ولا يتفق مع الصورة العامة لمواقف

(*) طين يحتوى على القليل جداً من المواد العضوية ، ولكنه يحتوى على مقدار كبير نسبياً من كربونات الكالسيوم ولونه رمادى يميل إلى البنى وهو مبتل ، فى حين يكون رمادى اللون وهو جاف ، فإذا أحرق صار لونه رمادياً مائلاً للخضرة كذلك . وأهم المناطق التى يوجد فيها قنا والبلاص فى الوجه القبلى . (انظر : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، الفريد لوكاس ، ترجمة زكى اسكندر ومحمد زكريا غنيم ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٩١). (المترجم)

(**) مادة طبيعية تتركب من كربونات الصوديوم وبيكربونات الصوديوم ، ويوجد فى وادى النطرون ومحافظة البحيرة والطالب بالوجه القبلى . وتراكم النطرون فى هذه المناطق نتيجة لتفاعلات كيماوية بمرور الزمان. وعندما تغمر المنطقة بالماء يصعد إلى سطح الأرض بعد ذوبانه ثم يترسب بعد أن يتبخر الماء . وكان المصريون يستخدمونه فى طقس فتح الفم وعمل البخور وصناعة الزجاج والتزجيج وربما لصنع المادتين الزرقاء والخضراء وفى الطب والطهى وتبييض الكتان والتحنيط (انظر المصدر السابق). (المترجم)

الناس فى مصر الفرعونية. واستقرار مصر السياسى وترابطها الثقافى على مر العصور الطويلة جزء من صورتها الثابتة. ولا بد أنهما يعكسان قبولاً عريضاً للأفكار والنماذج التى نشأت فى البلاط. إلا أنه تحت هذا الشكل الخارجى المطيع للقانون كانت تكمن غريزة النهب التى كانت موجهة صوب الأملاك وليس الأفراد. وكانت اليقظة المؤسساتية تسعى من أجل الخطط المحكمة لفرض القيود وكانت تهدد بالعقوبات المخيفة. وعندما انهارت هذه اليقظة انتشرت الخيانة بسرعة. وتعرضت مقابر الملوك والعامة للسرقة ، ومعدات المعابد وممتلكاتها للاختلاس. وفى مثل هذا الجو لا يمكن أن يكون أى احتكار قد اعتمد على قبول ضمنى لشرعيته. وربما تطلب كذلك فرضه بالمراسيم والعقوبات. وسوف نبحث دون جدوى فى هذا القدر الكبير من الوثائق الإدارية على مثل هذه الإشارات.

وحتى فيما يتعلق بالتجارة الخارجية ، ينبغى أن نتوخى الحذر عند استعمال مصطلح «احتكار»[40]. إنه على سبيل المثال ليس التفسير الطبيعى الذى نضعه على المشهد الشهير فى مقبرة حاكم الإقليم خنوم حتب الثالث فى بنى حسن ، الذي يبين وصول مجموعة فلسطينية صغيرة من مواب جالبة معها كمية من طلاء العين (مسدمت)(*) (الشكل 84)[41]. ومع أن أحد ألقاب خنوم حتب ، وهو «مدير الصحراء الشرقية» ، يوحى ببعض المسئولية المعترف بها رسمياً عن المنطقة الصحراوية المتاخمة، فإن الغرض العام من المنظر واضح بالقدر الكافى. فالمجموعة الفلسطينية تمثل وحسب جزءاً واحداً من سلسلة منتجات "ضيعة" خنوم حتب الكبيرة، وتشمل الطيور التى صيدت فى الصحراء وكذلك المنتجات الزراعية من أراضى وادى النيل. والواقع أن الفلسطينيين يقدمهم "كبير الصيادين". ومرة أخرى نجد وسيلة للتلبية منخفضة المستوى للحاجات المحلية إلى المنتجات بعيداً عن متناول سكان الوادى

(*) كان أكثر أكحلة العين شيوعاً فى مصر القديمة الملخيت (وهو خام أخضر من خامات النحاس) والجالينا (وهو خام أشهب من خامات الرصاص) . وكانت هذه المواد متوفرة فى مصر ، إلا أن الأنتيمون كان يستورد من آسيا الصغرى وإيران وربما الجزيرة العربية . (لمزيد من المعلومات ، انظر الفصل السادس من كتاب المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، الفريد لوكاس ، ترجمة زكى اسكندر ومحمد زكريا غنيم ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٩١) (المترجم)

الكادحين: وهى مجموعات تجارية من أماكن بعيدة تشق طريقها عبر الصحراء إلى نقاط إقليمية متصلة بداخل وادى النيل. ومنظر إحدى المقابر لا يعد نمطاً متكرراً ، غير أنه يشير إلى احتمال لا يمكن إنكاره إلا باللجوء إلى العبارة الدوجماتية: "كانت التجارة الخارجية احتكاراً" ، وهى عبارة لا يمكن دعمها الدعم المباشر. وتوافر المواد الخام والسلع المصنعة المستوردة فى مصر القديمة هو بحق مثال آخر على الجهة التى كانت تميل إليها كفة الميزان من عصر إلى آخر بين الدولة والقطاع الخاص.

علم اقتصاد بلا نقود

كانت طرق التعاملات الاقتصادية صغيرة الحجم معروفة جيداً للدولة الحديثة ، وخاصةً من ثروة البيانات التى عثر عليها فى قرية العمال فى دير المدينة (اللوحة 9)[42]. وكان الحصول على السلع وتصريفها يتم بالمقايضة ، ولكن لم يكن ذلك من خلال إيماءة مندفعة من قبيل: سوف أقايضك بخنزير مقابل زوج من النعال. فقد كانت لكل شىء قيمته التى يتم التعبير عنها بوحدات مختلفة كانت تتوافق مع كميات من سلع بعينها: مثاقيل الفضة والنحاس/البرونز ، ووحدات مكاييل الغلال وزيت السمسم (الشكل 85). وكانت المعادن نفسها تستخدم فى المقايضات ، ولكنها لم تستخدم كعملات معدنية. وأقرب خطوة إلى طريق النقود وجدت فى المثاقيل الحجرية التى كانت عندما تستخدم فى كفتى الميزان تتحقق من الأوزان وبالتالى من قيمة المعادن ، سواء أكانت ثمينة أم غير ذلك. واحتفظت مجموعة من لصوص طيبة فى أحد المنازل بمثقال حجرى استخدموه فى تقسيم الغنيمة التى أتوا بها من أحد المقابر (البردية B.M. 10052, 3.8 وراجع كذلك 5.20). وكانت الأسعار تتفاوت من مناسبة لأخرى ، وكانت نسب قيمة السلع تتغير (مثال ذلك هبوط الفضة مقابل النحاس فى أواخر الدولة الحديثة فى طيبة من ١ : ١٠٠ إلى ١ : ٦٠ . وربما كان السبب هو ذلك الطوفان من الفضة الذى جاءت به السرقات الكثيرة). وفى إحدى التعاملات التقليدية يشترى رجل شرطة من أحد العمال ثوراً ويدفع ثمناً له جرة من الدسم قيمتها ٣٠ دبن ، وثوبين قيمتهما ١٠ دبن، وخردة من النحاس/البرونز تزن (وتساوى) ٥ دبن ، و١٠ هن من الزيوت النباتية قيمتها ١٠ دبن[43]. وكان المجموع ٥٠ دبن (من النحاس). ويسمى الإيصال الصغير

الإجمالى «فضة»، وهى كلمة كانت تستخدم استخداماً عامياً يعنى شيئاً قريباً جداً من كلمة "نقد" الحديثة(*). وكان هذا النظام من القيم يغطى كذلك سعر العمل والمواد الخام. وكان شد الحبال على السرير الخشبى يكلف ١ خار من الغلال، بينما كان صنعه يتكلف حوالى ٥ خار، وكان تزيينه يتكلف ١,٥ خار، وكان الخشب يتكلف ٣ دبن. وحيث أن ١ خار من الغلال يساوى تقريباً ١ دبن، فإن الإجمالى يكون ١٨ دبن. وكان شراء السرير الجاهز يكلف ما بين ١٢ و٢٥ دبن، وهو صورة منطقية للعمل مضافاً إليه تكاليف المواد المستخدمة[44].

ولكن هل كان للدولة أى دور فى تحديد الأسعار؟ بإمكاننا أن نتأكد من أنها لم تكن تنظمها تنظيماً صريحاً. فليس ثمة أدلة مباشرة على قيام الملوك أو غيرهم من المسئولين بذلك. كما أن دراسة الأسعار نفسها تكشف عن الكثير جداً من التفاوت، وإن كانت تبين أن هناك قدراً كبيراً من القياسات. لقد كانت الأسعار تحدد نفسها. ولكن انطلاقاً من حقيقة أن المؤسسات تشارك مشاركة قوية فى دفع الأجور وجمع السلع المحتجزة كمخزون احتياطى وتخزينها وتصريفها، على أقل تقدير خلال فترات الإدارة المركزية القوية، يمكننا استنتاج أن المستويات العامة كان يحافظ عليها ضمنياً. إلا أن هذا إطار عام تعمل من خلاله كل النظم الاقتصادية الحديثة بغض النظر عن مدى نشاط قطاع السوق "الحرة" الخاص بها.

وتحديد أسعار المواد الخام وغيرها من السلع، من الغلال حتى الجوارى، يقودنا إلى قلب الصعوبات التى نكابدها فى التوصل إلى اتفاق مع الاقتصادات القديمة. وهناك ما يغرى البعض بعقد مقارنات بين الطريقة التى ربما كان يتم بها ذلك قديماً وما ينظر إليه على أنه الحل الحديث لتحديد الأسعار: أى عن طريق السوق الحرة التى تنشأ فيها العلاقة بين العرض والطلب بطريقة آلية. ويبدو أن هذه العملية الحديثة تجتذب قدراً غير ضرورى من الغموض. وأدت النزعة الاستهلاكية – أى الشراء المستمر من جانب الأفراد للمنتجات الجديدة التى غالباً ما يكون عمرها قصير – إلى حدوث

(*) كان أهل الصعيد إلى عهد قريب يستعملون كلمة «٢٠ فضة» للدلالة على نصف القرش ، وكان يقال «ستين فضة» على القرش والنصف و«ميت فضة» على القرشين والنصف . كما كان يقال «ثلاثة أبيض» و«خمسة أبيض» على نفس المبلغين . وربما كانت هناك صلة بين هذا وبين التسيمة المصرية القديمة . (المترجم)

زيادة كبيرة فى عدد التعاملات فى المجتمع ، بحيث باتت تعكس قياسات حسابية. وهو ما أدت إلى نموه أكثر وأكثر السرعة التى تُنقل بها المعلومات. وهذه القياسات غالباً ما تسمى بطريقة مضللة "قوانين" اقتصادية. إلا أنه فى عمليات البيع التى تتم فى أسواق الشوارع للمربات المصنوعة فى المنازل، ومخزون المحال التى أفلست، والكتب المستعملة، تبدأ البنى المجردة الخاصة بالاقتصاديات الحديثة فى الذوبان. ومع أن كتاباً مستعملاً نادراً يباع فى المزاد يمكن أن يبين، من خلال العطاء التنافسى، كيفية تحديد السعر عن طريق الطلب الذى يفوق العرض بكثير، فإن الكتب غير المهمة يتم تسعيرها بما يعتقد البائع من الناحية الحدسية أنها قيمة عامة. غير أن المشترى قد يعتبرها فى الحالات الفردية صفقة مذهلة، رغم أنه ربما لا يوافقه مشترون آخرون على ذلك.

ويمثل المفهوم شديد الشخصية لـ"القيمة" - هل أعتقد أن شيئاً ما يساوى سعراً بعينه؟ - حداً عاماً للتسويق ككل، تعمل فى إطاره علاقة العرض والطلب بكثافة تتفاوت تبعاً للظروف. وهى علاقة تعكس فى الأساس تفضيلاً بشرياً عاماً للشراء بسعر رخيص، تصحبها حدود مقاومة الأسعار التى تبدو مرتفعة مقارنة بتقدير حدسى لـ"قيمة" شيء ما. والطريقة التى تتكون بها القيمة مسألة نفسية إلى حد كبير تقع خارج مجال الاقتصاد تماماً. وهى موجودة باعتبارها نظاماً صارماً حديثاً فقط، لأنه من المحتم حدوث القياسات الإحصائية، ما دام هناك ما يكفى من الأمثلة الدالة على أية ظاهرة.

وعندما ندرس المجتمعات القديمة، حيث مستوى التعامل وسرعة الاتصال أقل بكثير بكل تأكيد من العصور الحديثة، فإن وجود أية قياسات إحصائية تبدو كـ"قوانين" فى الاقتصاد لابد أن يتبخر. وما ينبغى أن نتوقعه هو نمط غير منتظم ولا يمكن التنبؤ بما سيكون عليه إذا حُددت الأسعار تحديداً حراً. ومثل هذا النمط ليس دليلاً ضد التسويق وتبادل السلع بواسطة أناس مدفوعين نحو الخروج من الصفقة ولديهم إحساس بأنهم أحسنوا صنعاً، مع الأخذ فى الاعتبار أنه فى حال وجود سابق معرفة بينهما ربما كانت الصداقة أو الواجب يحد من عنفوان سعيهم لتحقيق الصفقة.

والمعلومات الخاصة بالأسعار التى وصلتنا من مصر القديمة محايدة بصورة أو بأخرى ، من حيث كونها مصدراً للدلالة على كيفية تحديد الأسعار ذاتها، بحيث يمكن استخدامها لدعم التأويلات المتباينة تبايناً شديداً. فالدراسة التى قام بها يانسن

لاقتصاديات القرية فى دير المدينة تستخدمها كدليل على النقص العام للوعى الاقتصادى من جانب القوم المشاركين فى ذلك، وعلى أن الأسعار لها قوة تنظيم ذاتى ضئيلة. إلا أنه بالسهولة نفسها يمكن وضعها ضمن نظام تقوم فيه القوى الاقتصادية بدور أكثر فاعلية. وهكذا فإن سعر زوج من النعال[45]. ظل على مدى ١٥٠ سنة تقريباً يتراوح بين ١ دبن و٢ دبن، وفى بعض الأحيان ٣ دبن. ويرى يانسن هذا الاستقرار على أنه دليل على أن "العرف" قام بدور كبير فى تحديد الأسعار. هذا صحيح، ولكنه لا يستبعد وجود أساس منطقى. فبإمكاننا القول كذلك إنه لعدم وجود الآلات الحديثة المستخدمة فى الإنتاج الضخم، فإن سعر زوج من النعال كان يعكس سعراً أدنى لعيش الكفاف بالنسبة لصانع النعال. وكان ما يوقف الأسعار عند هذا الحد هو مقاومة المشترى، الذى إذا ما ووجه بالأسعار المرتفعة كان فى العادة يسير فى نعله المهترئ إلى أبعد مكان كى يشترى من صانع نعال بالسعر المعتاد. لقد كان "العرف" يمثل توازناً بين العرض والطلب.

ومجموعة الأسعار المثيرة للانتباه بصورة خاصة هى أسعار الغلال (القمح والشعير)، وهى سلعة تتعرض عموماً لتذبذب حركة الأسعار وتصبح بالتالى موضوعاً لخطط تدخل ضخمة فى اقتصادات «السوق الحرة» الحديثة. وكان التدخل الذى يأخذ صورة إمكانية التخزين الضخمة، مما يخلق مخزوناً احتياطياً قياسياً فى مصر القديمة كذلك، على المستوى المؤسسى وفى إطار اقتصادات الضياع الخاصة، سواء فى زمن السلم والوفرة (مثل ضياع العمارنة) أو فى أيام المجاعات والاضطرابات (مثل عنخ تيفى). وكان ذلك تدخلاً سلبياً لم يشمل المحاولات الرسمية لتنظيم الأسعار. وتوضح بيانات الأسعار الخاصة بالدولة الحديثة أسعاراً كثيرة تتراوح بين 1 دبن و2 دبن للخار، وهو ما يفترض أنه يعكس عائداً عادلاً بالنسبة لكل من شاركوا فى الزراعة، وإن لم يكن هامش الفرق صغيراً، حيث كانت تدخل فى ذلك كميات كبيرة من الغلال المرسلة على سبيل الأمانة. غير أن حد مقاومة المشترى كان أقل بكثير. إذ كان مدفوعاً إلى ذلك باحتمال الجوع. وفى اقتصاد غربى طيبة فى أواخر الأسرة العشرين تذبذبت الأسعار، حيث تراوحت بين المستويات الأقرب للمعتاد والمستويات شديدة الارتفاع، لتصل فى عهود الرعامسة من السابع حتى التاسع إلى ٨ دبن، بل و١٢ دبن. ولم تكن

تلك حالة "تضخم" عام من ذلك النوع المألوف فى العالم الحديث، إذ إن الأسعار الأخرى لم تتخذ مساراً مشابهاً، وليس هناك ما يدل على حدوث تغييرات فى وحدات الكيل نفسها. وأحد الدلائل هى تلك الإشارة إلى المجاعة التى اقتبسناها آنفاً: وفيها امرأة زعمت أنها باعت شعيراً مقابل فضة "فى عام الضبع، عندما كانت هناك مجاعة". ومما يؤسف له أن المصدر لا يذكر الكميات التى تم التعامل فيها. إلا أن الطريقة التى صاغت بها ردها توحى بأن مقايضة الشعير بالفضة التى تمت فى تلك المجاعة كانت صفقة مميزة، والسعر المرتفع هو التفسير الطبيعى والأسعار الفعلية اعتباراً من هذا الوقت تقريباً (الجزء الأول من عهد رمسيس الحادى عشر) تبين أن هناك مضاعفة للسعر الأعلى التقليدى. مثال ذلك أن الخار يساوى ٤ دبن. ويمكننا النظر إلى الشكاوى المتكررة من نقص الطعام من جانب أهل دير المدينة اعتباراً من عهد رمسيس الثالث، كى نفسر تذبذب أسعار الغلال فى عصور لاحقة من حكم الرعامسة، وإن ظلت الصلة بين العلة والأثر عرضية(46).

ويبدى بعض المعلقين تخوفاً من أن المصريين. وكذلك بعض الشعوب القديمة الأخرى، لم تشر إلى "الربح" إشارة واضحة، أو حتى لديها مفردة مناسبة لذلك فى لغاتها. إلا أنه لا ينبغى المبالغة فى تفسيرنا لذلك. فالفكرة المجردة للربح من المبيعات عقلنة لنتيجة إتمام صفقة ناجحة، أى الحصول على سعر جيد. وهذه الفكرة المجردة للربح تنتمى إلى استراتيجيات البقاء الحدسية التى هى جزء من كوننا بشراً. ويبدو أن حقانخت مطلع على الأمر تماما الاطلاع، وغياب فكرة "الربح" عن ذهنه لم يعقه عن تمييز السعر الجيد من السعر الردىء، ولا ينبغى أن يعوقنا نحن عن أن نرد الفضل إليه وإلى أهل المجتمعات القديمة عامة فيما يتعلق بالإحساس التجارى الكافى فقد عاش المصريون الاقتصاد بدلاً من أن يفكروا فيه. وهم لم يستهدفوا الربح كمعيار مجرد للنجاح فى التجارة أو صنع الأشياء، بل استهدفوا كميات كبيرة من الأشياء الجيدة التى تجعلك تشعر بالشبع وتُشعِر الآخرين بالحسد. إلا أن نتائج ذلك لم تختلف كثيراً عن نتائج نظرائهم المحدثين الذين يتمتعون بوعى اقتصادى أكبر.

وتخلو سجلات صفقات دير المدينة من أى ذكر للموقع، هو كما الحال بالنسبة لاعترافات لصوص طيبة بصفة عامة. ولا بد أن بعض الصفقات قد تمت لأن كلاً من المشترى والبائع الموجودين فى قرية واحدة كانا يعرفان بعضهما. وقد يصح هذا عندما

يتعلق الأمر بالتصنيع. فإنك إن أردت الحصول على مسند للقدم فمن المفترض أنك تعرف أين يقيم النجار. وتتم الصفقة فى بيت ما. إما بيتك أو بيته تبعاً لمكانتك النسبية. ولكن هل تكفى الصلات الشخصية تماماً للجمع بين الطلب والعرض؟ هل كانت هناك أسواق معترف بها ينشر فيها البائعون بضاعتهم؟ إحدى النساء المتهمات فى برديات السرقة تقدم مشهداً معبراً: «حدث أننى كنا أجلس جائعة [تشحذ؟] تحت أشجار الجميز، وكان الرجال يتاجرون فى النحاس بينما نجلس جائعين» (البردية B.M. 10403,3. 5-7) . ولا ندرى أين تقع أشجار الجميز بالنسبة لطبوغرافيا غربى طيبة. ولكن بعض أسواق طيبة كانت تقع على شاطئ النهر[47]. وهذا نعرفه من نقوش المقابر. وليست هناك نصوص تشرح هذه الصور. ويعتمد فهمنا لها على تفسيرنا الصحيح للحركات الجسدية التي استخدمها الفنان لنقل المعنى.

أحد هذه النقوش وجد فى مقبرة لمثّال من دير المدينة اسمه ايبى، وكان يتطلع إلى العالم الآخر وحياة نموذج الكاتب (الشكل 86)[48]. ووسط المنظر سفينة نهرية تأتى بمحصول الغلال السنوى إلى مخزن الغلال الخاص، إلى جانب حزم من البردى وما قد تكون حزم من العلف. وفى الوقت الذى يتم فيه التفريغ تباع بعض أكياس الحبوب وكذلك الخضروات. والباعة مشترون فى الوقت ذاته: نقصد النساء الجالسات وأمامهن سلة واحدة من المنتجات. وهن يبعن السمك مقابل الحبوب وأرغفة الخبز والخضروات. وقد أقامت خلف إحدى بائعات الخبز مظلة تحمى جرتى مشروب. ويقول منطق الصورة إن هذه كذلك سلعة قابلة للبيع[49]. وهذا المشهد يكمل شهادة بعض برديات السرقة: بخصوص الدور الذى تقوم به نساء كثيرات فى البيع والشراء للأسرة، بما فى ذلك المحاصيل النقدية.

ويصور المشهد الثانى، رغم كونه مشابهاً من حيث التصميم، التعاملات على مستوى شديد الاختلاف. وهو من مقبرة كينامون، عمدة طيبة فى الأسرة الثامنة عشرة وكان مسئولاً كذلك عن مخازن غلال معبد الكرنك (الشكل 86)[50]. والموضوع هو وصول أسطول سفن بحرية إلى طيبة من سوريا وبحر إيجه. وتفرغ السفن حمولتها، وفى جزء آخر من المشهد تقدم بضائعها لكينامون نفسه. وهنا يكمن أول غموض. هل كينامون، الذى كان بصفته عمدة مواطناً بارزاً وثرياً، يتلقى البضائع لنفسه، حيث

يحقق ذلك السطر المكتوب فى النص المدرسى الذى جاء فيه أن سفينة الكاتب "عادت من سوريا محملة بكل الأطايب"؟ أم هو يتلقى السلع المرسلة، مثلاً، لخزائن المعبد؟ وكما هو الحال بالنسبة للوحة إيبى، فإن بعض البضائع تباع وهى فى طريقها إلى مقصدها، حيث يفترض أن يتم ذلك على شاطئ النهر. والمشترون هم حتماً بائعون كذلك، ولكنهم لم يعودوا ربات بيوت تحمل الواحدة منهن سلة وحيدة من المواد الغذائية. إن اثنين من الجلابين الثلاثة من الرجال، ويجلس ثلاثتهم تحت مظلات، ويعرضون مجموعة من السلع: نعال وأقمشة بعضها ذو شراشيب، وخبز وأطعمة أخرى، وما يمكن أن تكون صنارات لصيد السمك. وتظهر إحدى الصفقات: حيث يعرض أحد السوريين جرة نبيد مختومة. ويمسك الجلابان ميزانين فى أيديهما. وهذه الموازين توجد أحياناً فى الحفائر (وقد جاء اثنان من منزل صغير فى الحى الشمالى من العمارنة)[51]، وفى بعض الأحيان تصور فى الاستخدام بتفاصيل أكثر. وكان أحد أغراضها (وربما كان الغرض الأساسى) هو وزن المعدن مقابل المثاقيل الحجرية ذات القيمة المعروفة بموازين الدبن. وتطبيق ظهورها فى هذا المشهد هو أن المعادن كانت جزءاً من الصفقة. إذ ربما كان الأجانب يحملون مجموعاتهم من المثاقيل حماية لأنفسهم من الغش. وبدا الجلابون المصريون أكثر احترافاً من ربات البيوت فى مقبرة إيبى. ولكن من كان هؤلاء فى واقع الأمر؟ هذه منطقة مهمة من مناطق الغموض. هل كانوا «جلابين» بالمعنى الذى كان المصريون يستخدمون به هذه الكلمة، أى وكلاء تجاريون للمسئولين؟ أم كانوا يتاجرون لحساب أنفسهم؟ إننا إذا عرفنا الرد لكان لدينا قدر مهم من المعرفة فيما يتعلق بالاقتصاد المصرى فى تلك الفترة. ذلك أنه فى الحالة الأخيرة قد يكونون فى واقع الأمر أصحاب دكاكين يعيشون على البيع والشراء وبالتالى من الربح الذى يتحقق بين الصفقات. إلا أنه حتى فى غياب هذه المعرفة لا بد أن نعترف أن هذه المشاهد لا توضح المقايضات الخاصة بين الجيران فى إحدى القرى. إنها تعرض نوعاً من السلوك الهادف من جانب البائعين يخص أسواقاً فى حد ذاتها ليس المشترون فيها بالضرورة من نفس المجتمع بحال من الأحوال، وبالتالى فهم ليسوا متأثرين تأثراً كبيراً بالواجب الاجتماعى. وهو نفس نوع الآلية المطلوبة لأى نمط اقتصادى يتيح مجالاً أكبر للنشاط التجارى الخاص.

وهذه المشاهد التى تعود إلى الدولة الحديثة وراءها تاريخ طويل، بما لها من أسلاف فى العديد من مقابر الدولة القديمة التى دار حولها نقاش كثير فى السنوات الأخيرة[52]. إلا أنه كما هو حال نظيراتها المتأخرة، لا بد من تفسيرها من ناحية كيفية فهمنا للإطار الاقتصادى العام وكذلك من أية تفاصيل محددة داخل المشاهد نفسها، التى تظل غامضة فى حد ذاتها. وهناك تغير اجتماعى واحد يجب ملاحظته. ففى مشاهد الدولة القديمة البائعون عادة من الرجال. وهناك كذلك نص مصاحب شديد الوضوح. ففى صفقة قماش العبارة المكتوبة هى: "س ذراع من القماش مقابل ٦ شات". ومع أن طبيعة هذا الشات المحددة فى ذلك الوقت غير معروفة، فلا بد أن يكون وحدة ذات قيمة مطلقة شبيهة بوحدات النحاس والغلال والزيت وغيرها فى الدولة الحديثة[53].

كان دير المدينة مجتمعاً غير قياسى من ناحيتين: إذ رغم كونه قرية صغيرة، فقد كان على اتصال بالمسئولين الكبار والعملاء الأثرياء وبالتالى مع الحياة الرغدة، وهو ما انعكس على آمال أهل القرية، وكانت حاجاته تلبى باعتبارها رواتب من الدولة. إلا أن الظرف الأخير يضيف وحسب اهتماماً بما يدل على قيام القرويين بأعمال خاصة: مثل مقايضة السلع فيما بينهم ومع الأغراب، وصناعة الأسرَّة، وبيع مهاراتهم الخاصة كصناع للتماثيل والتوابيت، وتأجير الحمير أو إعارتها من أجل المصلحة أو الحصول على قيمة الإيجار. وكانوا عموماً يوجهون جزءاً من حياتهم نحو تكديس الثروة، التى كان جزء منها ينتهى به الأمر إلى أن يكون دفناتهم حسنة التجهيز[54]. وأظهر القرويون فى حياتهم أن الدولة، حتى وهى فى موضع من يوفر الحاجات، يمكنها أن تفعل ذلك فقط بما يفى بالغرض، من خلال رواتب الحبوب المنتظمة ويضع منح أخرى، تاركة تفاصيل المطلب الفردى للمعاملات الخاصة والمحلية، أى إلى السوق. والمثال الجيد الذى يوضح أين يقع الحد الفاصل بين التدبير الخاص والعام هو تموين الماء الذى يصل القرية، التى لم يكن يقع بالقرب منها مصدر طبيعى خاص بها (وإن جرت محاولة فى آخر الأمر، وربما لم تنجح، لحفر بئر غير بعيدة عن القرية، انظر الفصل السابع). وهكذا زودت القرية بمجموعة من حاملى المياه. وكان ممكناً لأى رجل أن يحمل الماء فى جرة فخارية إما على كتفه أو مدلاة من عود يحمله على كتفيه (وتصور

مناظر المقابر الحالتين)، ولكن كان من الأسهل استعمال حمار. وهكذا كان حمالو الماء، وكانوا رجالاً فقراء، يستأجرون الحمير بشكل منتظم من عمال دير المدينة أنفسهم[55].

وكان لدير المدينة نظير فى مدينة العمارنة فى الأسرة الثامنة عشرة، فى قرية العمال الواقعة خارجها فى الصحراء شرقى المدينة. وقد كشفت الحفائر عن مادة مكتوبة لا تكاد تذكر، إلا أنه اتضح أن الموقع فى المقابل كان غنياً بالمعلومات الأثرية الأساسية الخاصة بالأنواع غير المتواجدة فى الكثير جداً من المستوطنات المصرية، بما فى ذلك دير المدينة نفسه. وإحدى القضايا التى أثارتها الحفائر هى الحد الفاصل بين تدبير الدولة والأعمال الخاصة. فقد أقامت الدولة سوراً مربعاً ليعيش القرويون داخله، ووضعت التصميمات الأساسية للمنازل. إلا أنه من الواضح بعد ذلك أن القرويين تُركوا لمواردهم الخاصة كى يكملوا بناء منازلهم ولكى يشيدوا المقاصير وغيرها من المنشآت بأنفسهم. وقد فعلوا ذلك بالاستعاضة عن الطوب اللبن المعتاد المصنوع من طمى النيل بطوب مصنوع من الطفلة التى جاءوا بها من خارج أسوار القرية مباشرة. وأغرب اكتشافات صناعة القرويين هو مزرعة للخنازير[56]. وكانت الحيوانات تولد وتربى فى مجموعات من الحظائر التى بنيت بطريقة خاصة (اللوحة 10). وكانوا يغذونها بالحبوب، وكان معظم الخلفة يذبح فى عامه الأول أو الثانى. وكان الذبح وتمليح اللحوم وتعبئتها فى جرار من الفخار يتم فى أماكن خاصة كسيت بطبقة من الجبس حفاظاً على الصحة. والمجمع فى مجمله يمثل عملية منظمة تنظيماً جيداً لم يكن لها مثيل حتى ذلك الوقت فى المدينة الرئيسية، ولا فى دير المدينة. وتوحى الرعاية النسبية ودرجة التنظيم الشديد فى المزرعة أنها كانت أكثر من مجرد نشاط جانبى يديره بعض القرويين من أجل متطلبات الغذاء الخاصة بمجتمعهم؛ بل إنها كانت توفر كذلك دخلاً من خلال ما تبيعه فى المدينة الرئيسية.

وكان قاطنو قرى العمال محدودى الوسائل والمنزلة والطموح. وليس هناك أى قدر من الأدلة التى عثر عليها فى مثل هذه المجتمعات تصف الاقتصاد المصرى وصفاً تاماً. ومنطقة الاتصال المهمة بين نظام الدولة والحاجة الخاصة كانت المسئولين، وهم المجموعة المعرضة أكثر من غيرها للضغوط التنافسية. ومع أنهم يتلقون الرواتب وغيرها من المكافآت من الدولة، فقد كانوا يملكون الأراضى أو يستأجرونها. وهو ما

كان يأتى لهم بدخل يزيد كثيراً على حد الكفاف. فما الذى كان المسئولون يفعلونه لتلبية احتياجاتهم التى لم يكن نظام الدولة المحدود، بما يتميز به من طابع، يلبيها؟ كان هؤلاء رجالاً ونساء على قدر من الانشغال أو الكبرياء لا يجعلهم يساومون على سعر حمار مع جار يرتدى رث الثياب. ولكنهم مع ذلك كانوا يمتلكون ثروة مخزونة بوفرة فى منازلهم وحولها.

الإجابة تسوقها لنا طبقة من الأشخاص سبق أن التقينا بهم، وتربطهم تعاملات مع لصوص غربى طيبة. إنهم الرجال الذين يحملون لقب "شاتى"، وهى الكلمة التى تعد أفضل ترجمة لها «جلاب»(57). وهم على الدوام يستأجرهم شخص آخر، إما معبد أو أحد المسئولين، ولا بد أنهم كانوا وكلاء تجاريين مفوضين فى عملية شراء ما كانت هناك حاجة إليه مقايضة بالثروة المكدسة. واشتراك كل من المعبد والأسرة الخاصة فى صفة استئجار الجلابين يكشف فى حد ذاته عن كثير فيما يتصل بالطابع المشترك الخاص بالأساس الاقتصادى لكل منهما. فكلاهما كان يكدس المنتجات الزراعية والسلع المصنعة (وكانت فى المقام الأول الأقمشة الكتان فى حالة الأسر، وإن لم يقتصر الأمر عليها) من الدخل المنتظم ولكنهما لم يكونا مكتفيين ذاتياً بالكامل وكانا يضطران إلى الشراء من الموردين من نوع أو آخر. وفى برديات السرقة المشار إليها آنفاً (P.B.M. 10068، الصفحة اليمنى 18-4.1) استعيد الذهب والفضة من أربعة عشر "جلاباً من كل منشأة". وكان ما لا يقل عن سبعة منهم (اثنان منهم أخوان) يتبعون عائلة جندى من رتبة كبيرة، وهو قائد القوات الحيثية واسمه آمون نفر. وكان اثنان يتبعان ابنة ضابط آخر، وهى سيدة تدعى إيزيس كانت كذلك منشدة فى المعبد. وكان اثنان آخران يخصان ضباطاً فى الجيش. أما الثلاثة الباقون فكانوا يخصون المعابد وكانوا مكلفين من قبل كاهن ذكر اسمه. وفى موضع آخر من البرديات تظهر مجموعة من ثمانية جلابين من بلدة مير ور الواقعة عند مدخل الفيوم. وكان ذلك هو المكان الذى يقع فيه أحد قصور الحريم الرئيسية الخاصة بسيدات الأسرة المالكة، وربما كان بمثابة منفذ آمن بما يكفى للكنز المسروق.

وكانت مكانة الجلابين متفاوتة. فمن الممكن أن يكون الواحد منهم على قدر من الثراء يسمح له بامتلاك العبد الخاص به، أو على درجة من الفقر تجعله فى الوقت نفسه عبداً لمن يعمل لحسابه. وكانت اتصالاتهم تمكنهم من عقد صفقات لحسابهم الخاص على الهامش: ليس فقط تلقى السلع المسروقة، وإنما كذلك إعارة الغلال للفلاح

الفقير العاجز عن تسديد ديونه ولو بإعطائه زوجته لهم، كما جاء فى أحد النصوص المدرسية الساخرة[58]. والصورة التى ترسمها العديد من النصوص هى أن «الجلاب» - أى الوكيل التجارى أو مرتب الصفقات - كان شخصية شائعة الوجود فى مصر الدولة الحديثة. وكانوا يقطعون النيل بالمراكب بحثاً عن الأسواق المناسبة: "يسافر الجلابون شمالاً وجنوباً، فى حركة كحركة النحل [حرفياً: النحاس] حاملين السلع من بلدة إلى أخرى، وملبين الحاجات" (بردية لانسنج، 4.9-4.8). وكانت رحلاتهم تقودهم إلى خارج البلاد. "عادت سفينتك من سوريا محملة بكل صنف من الأطايب" (بردية أنستاسى الرابع) وهو ما جاء فى نص مدرسى خاص بالكتبة يحلم بالحياة الطيبة المتاحة للموظف الناجح[59]. وهذا الجانب بعيد المدى من التجارة يؤكد النقطة التى طرحت وتتصل بمشاهد التسويق فى المقابر: وهى أنه ربما كان هناك قدر قليل من الإحساس بالالتزام الاجتماعى بين الجلاب والزبون، أو لم يكن له أى وجود بالمرة.

والواقع أن القدرة على الحركة فى الداخل تمثل حجة لها وزنها ضد الرأى القائل بأن المعاملات الاقتصادية الشخصية كانت فى أغلب الأحيان مقايضات تبادلية مريحة بين الأقارب والجيران ، باعتبار أنها تشكل البديل الجاد الوحيد لإعادة توزيع الثروة. وهناك جانبان على قدر كبير من الأهمية، أحدهما كان الأصل الإقليمى (والروابط المتصلة) لبعض المسئولين الذين تمركزوا فى إحدى المدن الملكية (وهو ما يتم بحثه فى الفصل التالى). فعندما انتقل العمدة منتوحتب إلى منزله الجديد فى طيبة (وهو ما سبق ذكره)، المشيد على أرض اشتريت من غريب، فإن من جاء معهم للقيام بأعمال تجارية لم يكونوا ينتمون إلى نفس مكانته الاجتماعية، ولم تكن هناك أسس لفكرة "تبادل المشاعر" لتغيير الأسعار المطلوبة والأسعار المدفوعة. والجانب الآخر هو التجارة الداخلية طويلة المدى الموثقة توثيقاً جيداً التى كانت تستهلها المؤسسات الكبرى ويتولاها «الجلابون» الخاصون بها، كما أسلفنا. وما توحى به سلسلة من المصادر هو أن حركة البضائع النهرية الداخلية كانت عاملا أساسياً فى حياة مصر واقتصادها، وربما فاقت فى بعض الأحيان الحركة الداخلية للمنتجات على مستوى القرية. وتبطل حقيقة "الكوزموبوليتانية الداخلية" الاعتماد أكثر مما يجب على دراسات الحالة الخاصة بالمجتمعات الفلاحية الحديثة لتقديم نماذج اجتماعية

واقتصادية لمصر القديمة. فإننا حين نفعل ذلك نقبل أفقاً شديد المحلية ونتجاهل قوة نهر النيل، ليس فقط فيما يتعلق بالمحافظة على الحياة، وإنما كذلك بتوفيره قناة للاتصال.

وربما ظلت غالبية كبيرة من السكان الذين كانوا يحيون حياة محدودة فى القرى أو المناطق الحضرية مفصولة إلى حد كبير عن الجانب الديناميكى للحياة المصرية. إلا أن مصر بصورة عامة كانت بلداً غنياً، حيث كانت توفر أسلوب معيشة أعلى بكثير من مستوى الكفاف لطبقة كبيرة من الموظفين الرسميين الذين لا بد أنهم كانوا فى الغالب أقل التحاماً بالنسيج الاجتماعى من الفلاحين أو الحرفيين بكثير. وهذه هى الطبقة التى يجب أن نركز عليها إذا كان لصورتنا عن الاقتصاد المصرى القديم أن تكتمل. ومما يؤسف له أننا إن فعلنا ذلك يكون علينا أن نحيل إلى الهامش المصدر الرئيسى للوثائق الاقتصادية المكتوبة من الدولة الحديثة، وهى تلك الوثائق الخاصة بمجتمع دير المدينة.

ويصبح هذا التعليق شديد الوضوح عندما نمعن النظر فى الطريقة التى تصور بها الغالبية العظمى من الوثائق التى تسجل التعاملات المقايضة التى يبادل فيها البائع مجموعة متنوعة من السلع مقابل ما يشتريه. إلا أنه ربما كانت هذه صورة مشوهة وحسب، لأن الكثير جداً منها ينبع من مصدر واحد، هو قرية دير المدينة، وهى ذات مكانة اجتماعية أدنى من مكانة مجموعة عريضة من المسئولين القاطنين فى المدينة. وقد رأينا من خلال برديات السرقات أن الأشخاص ذوى المكانة المتواضعة فى طيبة لم يترددوا، عندما أتيحت لهم الفرصة، فى استخدام الذهب والفضة لشراء الأشياء. ولا بد أن هذا كان أكثر شيوعاً بين من هم أشد ثراء وأعلى منزلة. ولا يقول لنا المنطق هذا فقط عندما كانت تشترى قطعة أرض للبناء فى طيبة ، على سبيل المثال، بل إن مصادر مكتوبة متفرقة تخبرنا به كذلك. فمجموعة من شذرات البردى من الأسرة الثامنة عشرة (بردية بولاق XI=P القاهرة 58070) تسجل سلسلة من التعاملات يبيع فيها أحد موردى اللحوم (ربما كان أحد المعابد وإن لم يكن بالضرورة كذلك) قطع لحم (وفى بعض الأحيان جرار نبيذ) لـ «جلابين» مقابل كميات من الذهب والفضة[60]. والكمية الشائعة هى ١ سنيو من الذهب، وهو ما يساوى $\frac{١}{١٢}$ من الدبن، أى حوالى

٦،٧ جرام. وكان الجلاب نفسه يشترى كمية كبيرة أو تكاد تكون كذلك من اللحوم يومياً. ولم يأت ذكر من يعمل لحسابه. ولكن لا بد أنه كان لديه أهل بيت عددهم كبير يعولهم ويحسن إطعامهم، إن لم يكن الجلاب فى حقيقة الأمر يعمل لحساب مؤسسة أخرى. وعلى هذا المستوى من الإنفاق فإن الذهب الموجود فى الكنز المدفون الذى عثر عليه فى العمارنة كان سيكفى لمدة تزيد على العام. والسؤال الذى يمكن طرحه هو: إذا كانت الأسر الكبيرة والمؤسسات تربى قطعانها من الماشية، فلماذا كانت تشترى اللحم مقطعاً؟ الإجابة بسيطة: وهى أن التموين اليومى من اللحم الطازج كان يتطلب ذبح أحد الحيوانات يومياً. وقليلون جداً من كانت لديهم قطعان بهذا الحجم. والعجل السمين من ذلك النوع الذى كان المصريون يعتبرونه مثالياً كان به من اللحم ما يكفى لإطعام مائة أو مائتين من الأشخاص. ونعرف أن حفظ قطع اللحم كان ممارسة شائعة، ولكنه رغم ذلك ربما كان الذبح يجتذب مجموعة من المشترين، بعضهم فقراء ويأملون فى الحصول على الفضلات والأجزاء التى يعافها الأغنياء.

ويظل هناك جزء من الدائرة ينبغى استكماله. فمن أين كان المسئولون يحصلون على إمداداتهم من الذهب والفضة؟ كان القصر أحد المصادر. وفى الدولة الحديثة كان التدفق ينظم من خلال طقس المكافأة عند نافذة الظهور، مغذياً القطاع الخاص ليحافظ فى نهاية الأمر على واردات هذا المعدن الثمين[61]. ولولا حجم التداول المفهوم ضمناً بالنسبة لمجتمع الدولة الحديثة لكان علينا كذلك قبول أن المسئولين كانوا فى بعض الأحيان يبيعون - من خلال جلابيهم - ما يفيض عن حاجتهم من الحبوب وفى بعض الأحيان الماشية وقطع اللحم - بل ونجرؤ على الاعتقاد بأنهم كانوا يبيعون كذلك بعض "الأطايب" المجلوبة من سوريا - مقابل الذهب والفضة. بعبارة أخرى، ينبغى علينا قبول أن كمية كبيرة من الذهب والفضة كانت متداولة. وهذا يفسر، على سبيل المثال، الذهب الذى عثر عليه فى مقابر عصر الانتقال الأول فى منطقة قاو الذى علقنا عليه آنفاً. كما أنه يفسر كذلك كيف أن الذهب والفضة كانا يحتلان مكانة بارزة بين السلع التى كانت تستخدمها المدن والمناطق الإقليمية لدفع الضرائب المحلية لمكتب الوزير، كما هو مصور فى مقبرة رخميرع (انظر الشكل 80)[62].

وكانت منزلة الجلاب منزلة متواضعة. فلم يستخدم هذه الكلمة شخص حقق نجاحاً فى حياته لقباً له. وعليه فلا يمكننا ترجمتها "تاجر". وفى هذه النقطة ينقسم العالمين القديم والحديث بشأن الاقتصاد. فقد كانت الجلابة قريبة فى مرتبتها من صنع النعال. إذ كان الأغنياء يتمتعون بفوائد الجلابة ولكنهم لم يسعوا إلى اتخاذها مهنة لهم، بينما كانت فكرة أن النشاط فى حد ذاته يمكن أن يأتى بالثروة والمكانة أمراً لا يخطر ببال كل من يهمهم ذلك بالمعنى الحرفى للكلمة. لم يكن هناك أمراء جلابون، تماماً مثلما لم يكن هناك أمراء من صانعى النعال. واحتكر المسئولون – «الكتبة» – السلطة والمكانة الرفيعة والثروة. ولم تكن تلك مؤامرة. حيث نتخيل أن المواقف كانت تتخذ بدون تفكير.

إن نظام مصر القديمة الاقتصادى واضح إلى حد ما، إذا ما سمحنا للمنطق بخلق الإطار الذى يمكن أن توضع فيه الأدلة النصية والأثرية. وبداية الفهم هى قبول أن مصر القديمة كانت . دولة غنية، حسب معايير العالم القديم. ففى أوقات الاستقرار كانت لديها ثروات هائلة مخزونة ومتداولة، مما يوفر للجميع احتمال أو حلم الحياة فوق مستوى الكفاف بكثير. وخلق هذا ظاهرة الطلب الخاص: وهو الذى كان قوياً ومنتشراً على نطاق واسع من عصر ما قبل الأسرات. وعندما كانت الدولة قوية ومنظمة تنظيماً جيداً كانت أعداد كبيرة من الناس تكسب الكثير من آليات إعادة توزيع الثروة، التى لا بد أنها كانت فى تلك العصور نفسها بمثابة الرقابة العامة على . الاقتصاد برمته بسبب ضخامتها وحسب. إلا أنه بالنسبة لتلك الحاجات التى لم تلبيها هبات الدولة (وكان ذلك يشمل كل شىء بالفعل فى عصور الحكم الضعيف) قدم التسويق الحل: أى كل من التعاملات المباشرة، التى يحرفها فى بعض الأحيان الواجب الاجتماعى عن مسارها، والمقايضات الأوسع مدى التى تشمل الوسطاء المستأجرين – أى "الجلابون". وقد حجبت القيم الاجتماعية واقع العملية، تاركة منطقة مبهمة بشأن مفهوم الربح. غير أن أى مصرى قديم كان يفهم الفرق بين الثمن الجيد والثمن البخس كان ممثلاً لـ«الإنسان الاقتصادى».

وهذا يقدم لنا دوراً أكثر تحدياً للتاريخ الاقتصادى فى مصر القديمة. وتحدد المقاربة الوصفية للاقتصاد المصرى مجالين – هما مقايضات الفلاحين وما تقوم به

الدولة من إعادة توزيع للثروة – وتترك كلاً منهما بلا ديناميكية تؤهله للقيام بدور فى التاريخ. ولكن كما رأينا من قبل، أخفقت هذه المقاربة فى تعليل كل من الاندماج الواضح للمسئولين الطموحين فى النظام، والقدرة على التكيف التى تماثله فى الوضوح، وكان النظام ككل يتمتع بها. وهذه الأمور يمكننا تسويتها بقبول وجود قطاع خاص على قدر من الديناميكية النسبية. ولذلك يمكننا القول بأنه لا بد أن واحدة من أفكار التاريخ السياسى الأساسية – وهى مد وجزر السلطة المركزية فى مواجهة إثبات الذات الإقليمى – كان لها نظيرها الاقتصادى فى اتساع القطاع الخاص وانكماشه، وهو ما يتجلى تجلياً جزئياً فى التسويق المحلى والإقليمى. وهنا تكون لدينا فكرة ديناميكية بحق تصاغ باللغة الاقتصادية، وبالتالى أساس للتاريخ الاقتصادى الحقيقى.

ومحاولة تعريف الاقتصادات القديمة على أنها نوع خاص من النظام الاقتصادى، ينطوى على أنماط خاصة من التعامل والعلاقات المتبادلة، قد تكون أداة مفيدة لتجميع المصادر وتركيز الانتباه، إلا أنها تؤدى فى الوقت ذاته إلى مجادلات حول لا شىء. وفى داخل إطار الاقتصاد الكلى الوحيد، الذى يشمل كل الدول التى وجدت حتى الآن، يكون هدف البحث هو تحديد الطرق التى حققت بها القوتان – المؤسساتية والخاصة – مصالحها، من ناحية الوسائل التى استخدمتها والمظاهر التى اتخذتها. ومن المضلل كذلك أن ننظر إلى الاقتصادات القديمة على أنها مرحلة فى عملية ارتقائية: ذلك أنه هناك من الأنظمة الاقتصادية المتباينة فى العالم الحديث ما يكفى لجعل خيار المسار الارتقائى خياراً تعسفياً. وبدلاً من ذلك يمكن النظر إليها على أنها مزيد من التنويعات على فكرة واحدة، وحلول مختلفة لمشكلة عامة: وهى كيف تظل المجتمعات الكبيرة، التى تتكون حتماً من مصالح متنافسة، موجودة زمناً طويلاً؟

الفصل السابع

مصر فى عالم مصغر :

مدينــة العمــارنة(*)

فى المجتمعات المتطورة لا يظل الدين فى حالة ثبات لفترة طويلة. فدافع الفكر الخلاق ضرورى للعقل الإنسانى. ويصدق هذا على تلك الديانات التى تقوم على كتب مقدسة – وفى مقدمتها اليهودية والمسيحية والإسلام، وهى الديانات "الكتابية". ومع أنها تبدو أنساقاً فكرية مغلقة، فإن ثلاثتها لها تاريخ طويل وأدبيات ضخمة من التأمل بشأن أهمية تجلياتها، التى اعتمدت فى كثير من الأحيان على تراث الهلينية "الوثنية" المتأخرة الخاص بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة. ولم تكن الديانة المصرية مستثناة من هذا. والواقع أن كونها نسقاً فكرياً مفتوحاً. ولأنها فى المقام الأول لغة لاهوتية تستهدف السعى إلى التأمل فى الجوانب الخفية من العالم، فقد كانت عرضة إلى حد كبير للتغيير. إلا أنه بحلول أواخر عصر الأسرات كانت الديانة المصرية قد صارت مختلفة تمام الاختلاف عن ديانة العصور السابقة، كرد فعل للتغيرات النفسية العميقة فى السكان بصورة عامة. ولو كانت مصر قد ظلت بلداً أكثر انعزالاً ولم تتكالب عليها التأثيرات من العالم الهلينيستى ، لاستمرت الديانة القديمة فى التغير بلا شك، وربما بقيت حتى الوقت الحاضر باعتبارها نسقاً فكرياً قابلاً للنمو.

وتكمن أداة التغيير فى العمل البحثى الخاص الذى يقوم به الكهنة الذين كانوا يقرءون النصوص القديمة وينسخونها، ويضيفون فى بعض الأحيان الحواشى التفسيرية، وكانوا يشعرون من وقت لآخر بالرغبة فى تأليف مادة جديدة تصاغ على الدوام بلغة لاهوتية تنهل من مستودع ضخم للصور التراثية. وبالنسبة للدولة الحديثة،

(*) تسمى هذه القرية حالياً تل العمارنة أو تل بنى عمران وهو اسم القبيلة التى نزلت بهذا المكان . وهى تابعة لمركز ملوى بمحافظة المنيا وتقع شرقى النيل جوار الصحراء ويقابلها من الناحية الأخرى تل العمارنة الغربى . (المترجم)

لدينا أمثلة لا بأس بها من العمل البحثى الخاص بتلك الفترة محفوظ فى النقوش المرسومة داخل مقابر وادى الملوك[1]. ويصور هذا بكمال امتزاج المادة القديمة والجديدة، وهو ما كان يهدف فى أحد جوانبه إلى ضمان سعادة الملك المتوفى فى الحياة الآخرة الرحبة، وفى جانب آخر تصوير القوى والعمليات ذات التأثير فى الحياة الأولى.

وأسماء هؤلاء المسئولين غير معلومة. وكان ذلك هو عمل الكهنة الأصلى وكانت ثمار عملهم تفوق فى علوها هامات معظم الناس. وكان المصريون المتعلمون فى عمومهم أكثر تأثراً إلى حد كبير بمن كانوا يقدمون النصائح المعقولة بشأن السلوك والأخلاق، أو من كان الناس يعرفونهم معرفة جيدة بمنجزاتهم العملية. وكان الطريق إلى شهرة المرء وإلى أن يصبح اسمه على كل لسان لعدة أجيال لاحقة هو أن يصبح مشيداً عظيماً[2]، أو أن يكتب "توجيهاً"، وهو ما ليس له علاقة كبيرة باللاهوت وإنما يحمل رسالة يمكن للناس بصورة عامة فهمها، أو على الأقل يجدونها لافتة للنظر. وكانت معظم التعاليم تتحدث حديثاً مباشراً. ويقدم أحدها، وهو من تأليف حكيم من الدولة الوسطى اسمه إبوور، وجهة نظر رؤيوية للعالم الذى يتسم بالفوضى ولكن فيها من الدراما والتفاصيل الحية ما جعلها تداعب خيال الناس وظلت مقروءة بشغف قروناً بعد تأليفها[3]. وفى الدولة الحديثة كان المصريون لا يزالون يعيشون فى عالم على قدر من الأمان والثقة بحيث تُرك اللاهوت لكهنة يتخذون سبيل التفكير الحر الذى كان ينتج دوماً أجوبة مقبولة، بسبب احترامهم الفطرى الضخم لتقاليدهم. وكان الارتقاء المحترم هو العملية التى يحدث بها التغيير. قد يكون هناك شىء جديد، ولكنه ما كان سيقره الأسلاف وحسبْ . وكما أشرت فى المقدمة، نصب هذا لنا شَرَكاً غائراً، ذلك أننا بتفسيرنا للديانة المصرية نكاد نضيف إليها بكل تأكيد.

المؤسس : إخناتون ، "الملك الهرطوقى"

الواقع أن فى تاريخ الديانة المصرية اسم واحد، وهو اسم لملك من أواخر الأسرة الثامنة عشرة: إنه إخناتون ابن أمنحتب الثالث. واستغلالاً منه لما تحت يديه من سلطة وثروة عظيمتين، قام بحركة جريئة ابتعد بها عن حياة الملوك التقليدية فى مصر؛ فقد

حاول القيام بإصلاح دينى[4]. ويظل السبب وراء خروج إخناتون عن عقلية عصره لغزاً لا يبدو أننا سنحله فى يوم من الأيام. إلا أنه سعى إلى أن يخلق من تقاليد مصر الدينية عبادة جديدة أكثر سهولة. وقد علقنا أكثر من مرة على الديانة المصرية فى الفصول السابقة. فقد قامت على الافتتان بالأسماء والكلمات. وكانت إحدى النتائج تأليفاً يظهر على جدران بعض المقابر الملكية فى طيبة. ولأنه يعرف باسم ابتهال رع، فهو يستدعى إله الشمس رع بأسمائه الخمسة والسبعين، التى هى أسماء آلهة أخرى[5]. وهو بالتالى «جسد» (مادة؟) آتوم وشو وتفنوت وجب ونوت، وهى المعبودات التى تمثل عناصر الطبيعة الأساسية(*) وفى هذا الشكل المتطور من لعبة الكلمات اللاهوتية، الذى ينطوى على التعامل مع أسماء الآلهة على أنها معبودات منطقية، كان هناك سعى للوصول إلى توازن وانسجام فى الفكر الذى كانوا يتحاشون فيه عدم التوافق المحتمل لتعددية الآلهة التاريخية من ناحية، ووحدة السلطة الإلهية من ناحية أخرى. لقد وضعت فكرة الآلهة المتعددة داخل غلاف ذهنى للوحدانية المطلقة التى كان جوهرها قوة الشمس.

وأمد التعقيد المتوارث للديانة المصرية الكهنة بتحد يمكن التغلب عليه بالوسائل الفكرية التى لم تنتهك حرمة الماضى. ويبدو أن إخناتون وجد أن الانتهاك ضرورى للوصول إلى قرار بخصوص نظام مختلف تماماً من البساطة. لقد تجاهل الكثير من النظام المتوارث وحسب. إلا أنه رفض التراكم الرئيسى الخاص بعبادة الشمس – أى الإله آمون أو آمون رع الخاص بطيبة، الذى كان يتخذ شكلاً آدمياً. وقد شوهت

(*)	آتوم	إله الشمس الخالق	أنجب شو وتفنوت
	شو	إله الهواء الجاف	
	تفنوت	إلهة الرطوبة	
	جب	إله الأرض	
	نوت	إله السماء	

(انظر : ديانة مصر القديمة ، أدولف ايرمان ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٧) . (المترجم)

أسماء آمون وتماثيله فى حملة منظمة من التحطيم الموجه للتماثيل القديمة. ووضع مكان كل شيء من الماضى قرص الشمس المرئى، الذى أعطاه المصريون بعامة اسم آتون. وكانت صورته على هيئة قرص كانت تتدلى منه أشعة كثيرة، تنهى كل منها بيد. وكأى ملك، أعطى لآتون اسمين يكتبان فى خرطوشين. وكانت معابده أفنية كبيرة زاخرة بالمذابح. وكانت المعابد التقليدية تلف تمثال الإله بالظلام والسرية داخل أبهاء لا نوافذ لها. أما الإله آتون فكان يمكن رؤيته مباشرة فى السماء، بلا غموض، وكان يحتاج المعابد فقط لتكون أماكن لمواكب عبادة الملك. وهذه كان يؤديها على «الشماسى» ، وهى المذابح المنصات المألوفة فى المعابد الجنائزية بطيبة.

وكان إخناتون ينظر إلى آتون على أنه خالق الحياة كلها، وكان يحتفى بذلك فى العديد من الترانيم التى بقيت بين النقوش المحفورة على صخور مقابر بعض رجال بلاطه فى العمارنة[6] . ولم تكن أفكارها فى حد ذاتها جديدة فى مصر. فإحدى الترانيم المشهورة المدونة على بردية فى متحف القاهرة يعود تاريخها إلى ما قبل عهد إخناتون تخاطب إله طيبة آمون بكلمات مشابهة خاصة بالسلطة الكونية والصور الشمسية[7]. والنقطة التى تختلف فيها ترنيمة إخناتون هى غياب الإشارات إلى الآلهة الأخرى التى كان ينظر إليها فى الترانيم القديمة على أنها جوانب مكملة لآمون. وتكمن أصالة إخناتون فى فهمه لبساطة عبادة الشمس، وبالتالى عدم وجود مكان لكثير من لعبة الكلمات اللاهوتية التقليدية. وأصبح قرص الشمس الخالى من أية ملامح بشرية الصورة الإلهية الوحيدة فى معابد إخناتون الجديدة وفى النقوش الموجودة داخل مقبرته فى العمارنة. لقد اختفت تماماً تلك الصور المفصلة للكون الذى تسكنه كائنات إلهية. كما أن تخيل ميلاد الملك من اتحاد بين أمه وإله الشمس المتجسد فى صورة بشرية أصبح مستحيلاً. وماتت لعبة اللغة الدينية ونظيراتها المصورة بصورة أو بأخرى.

ومنذ الأيام الأولى لعلم المصريات والناس مفتونة بالسؤال الذى يقول: هل هذه وحدانية؟ إنه افتتان كانت تغذيه فى الماضى وجهة النظر الغربية المحلية التى تقول بأن الإيمان بإله واحد أسمى من الإيمان بآلهة متعددة. إلا أنه يكاد يكون من الصعب الإجابة عن السؤال إجابة معقولة فيما يتعلق بهذه النقطة. فالديانة ظاهرة من التعقيد بحيث لا يمكن معالجتها باستعمال صفات بسيطة. والأشكال المتطورة للمسيحية

والإسلام لها مقاربات لتجليات الألوهية والسلطة الخارقة للطبيعة أكثر غموضاً وتعقيدا مما يوحى به مصطلح «الوحدانية». وواقع الأمر أننى كشخص من الخارج أرى أنه من غير المنطقى تصنيف المسيحية على أنها ديانة توحيدية. فإننى إذا تجولت فى إحدى الكنائس الأوروبية الكبرى، وأنظر إليها بعين الأثرى، فإن عدد التماثيل والصور المقدسة المصنوعة من الحجر والخشب والنحاس الأصفر والزجاج المعشق سوف يقودنى إلى إعادة تركيب نسق شديد الإتقان ومتعدد المراكز خاص بعقيدة تشمل ثالوثاً للكيانات المقدسة. ويهرب المؤمن المسيحى من التناقض عن طريق تكيف عقلى مبهر يقوم على فكرة "الغموض"، وهى طريقة تفكير أنا مستبعد منها باعتبارى غير مؤمن. وقد فعل المصرى القديم الذكى الشىء نفسه، حيث حول الإحساس الدينى إلى مصطلحات لغوية خاصة بثقافته. وبهذه الطريقة فإنه عندما يطبق مصطلح "وحدانية" على المصريين يصبح غير دقيق بقولنا إن الديانة المصرية كانت متشظية وغير متماسكة. والواقع أن المسألة تحل نفسها لتصبح مقارنة بين إخناتون ويهودية العهد القديم.

لقد عاش إخناتون فى زمن يسبق إقامة مملكة إسرائيل بكثير. ومع ذلك فإن الصور التى فى الترنيمة الموجهة إلى آتون لها أصداء واضحة فى أحد المزامير التوراتية. بل إنه فى كلا النسقين من التفكير يمكننا رؤية نفس العزم الجاد شديد الجدية على بلوغ عبارات موجزة خاصة بتعريف محدد لطبيعة الإله. وكلاهما يعكس إحساساً بعدم الرضا. إلا أن عدم وجود أدلة معاصرة من الخلفية يمنعننا من معرفة إذا ما كان ذلك يمثل قلقاً فكرياً أكثر انتشاراً عبر عن نفسه فى أشكال متباينة وانتشر فى أرجاء الشرق الوسط القديم أم لا. وكانت النتائج فى أى الأحوال مختلفة. فلولا ذلك ما أمكن أن يتوفر لها ذلك المقابل الضخم فى الوسط الثقافى. وكان آمون قوة تهيمن هيمنة حميدة، ولكن من بعد، على عالم مستقر ومألوف. فهو لم يكن إلهاً سريع الغضب مستعداً لأن يتدخل فى شئون الإنسان ويملى عليه سلوكه. فقد كانت التعاليم الأخلاقية مستقرة منذ زمن بعيد فى مصر، وغالباً ما كانت منفصلة عن اللاهوت، حيث كان الاهتمام الأساسى بالطريقة التى يعمل بها الكون. وكان هذا هو تراث ديانة إخناتون: لم يكن اهتمامه بمصير الإنسان أو الظرف الذى هو فيه - فلم يكن هذا فى واقع الأمر

موضوعاً يشغل المصريين كثيراً فى الأوقات العادية - وإنما كان مهتماً بمصدر الحياة نفسها. وقد وجد فى آتون إجابة بسيطة وغير فكرية. فلم يكن المصدر سوى ما كان يراه بنفسه، وهو قرص الشمس. واختفى الغموض - أى الوعد بأن هناك دوماً المزيد الذى يمكن اكتشافه - من الكتابات الدينية ومن المعابد. وتحدث إخناتون عن كونه العارف الأوحد بأسرار آتون، إلا أنه حتى فى خصوصية مدفنه فى العمارنة لا يمكننا اكتشاف ما يدل على أى شىء ليس معلوماً بصورة كبيرة.

وكانت اليهودية الموسوية، بقانونها المميز للعيش، قوة إيجابية بالنسبة للمجتمع المضيف، مما أعطى بنى إسرائيل إحساساً بالهوية فى عالم معاد. لقد صارت وسيلة لرفض ثقافات الآخرين. وعلى النقيض من ذلك سلب آتون من المصريين تراثاً لتفسير ظواهر الكون من خلال خيال يتسم بخصوبة غير عادية نجح، بالنسبة لمن درسوه، فى أن يحتوى المفهوم القائل بأن أية وحدة، أى وحدانية، يمكن أن توجد فى تعددية الأشكال والأسماء الإلهية. وكان إخناتون يقول للمصريين شيئاً يعرفونه بالفعل، وإنما بطريقة جعلت المزيد من التأمل الجاد غير ذى أهمية. ومن السهل أن تفهم أن المصريين رفضوا ديانة الملك بعد وفاته. ذلك أنه حاول قتل الحياة الفكرية.

وفى فهمنا الحديث للعالم، ليس هناك موضع للديانة المصرية التقليدية وللعبة اللغة. فهما تشكلان نموذجاً حيوياً ومثيراً للاهتمام للفكر ما قبل العلمى. وقد يبدو لنا إخناتون على أنه شخصية مميزة ومأساوية إلى حد ما، إذ يبدو أنه أدرك عدم ملاءمة الكثير من فكر العصر الذى عاش فيه، ومع ذلك لم يمكنه أن يستعيض عنه بأى شىء يرضى نزعة الإنسان العالمية نحو التعقيد فى الفكر. كما لم يكن حوله من حفزهم الفراغ الفكرى الذى خلقه كى يتقدموا إلى ما وراء حدود الدين بحثاً عن تأويلات للظواهر.

وليس لنا علم بأية قصص أو تقاليد لاحقة تتعلق بإخناتون. وبعد وفاته رفضت أفكاره رفضاً قوياً وحطمت آثاره أو خربت. لقد بات وكأنه لم يكن. وكل ما نعرفه عنه يأتى من الكمية الكبيرة من التماثيل فى عهده التى أعادت الأجيال التالية استخدامها كأساسات لمبان أخرى، ومن خلق مدينة بأكملها فى موقع صحراوى ظلت مهجورة حتى أعيد اكتشافها حديثاً. وحيث إن إخناتون كان بانياً وافر البنيان، فإنه لا يمكن إلغاء

وجـوده. إلا أن هذا يجـرنا إلى سـؤال لا نأمل أبداً فى الإجـابة عنه: وهو هـل كـان إخناتون يمـثل تراثاً صغيراً وغير ظاهر فى العادة من الانشقاق الفكرى، ولكنه كان رغم ذلك قائماً؟ هل يكمن تفرده فقط فى كونه ملكاً، وبالتالى يمكنه أن يأتى برؤية بديلة إلى الفضاء العام؟

إن نقص مصادر الخلفية يعوق المؤرخ. فقد ثبت أنه من المستحيل كتابة تاريخ لعهد إخناتون لا يتضمن عنصر الخيال التاريخى. ويبدو الأمر وكأن على المرء أن يقرر أى الممثلين يؤدى الدور أفضل من غيره: هل هو الحالم العاجز أم المجنون المخيف المستبد. إذا كانت المثالية الدينية تشير إلى الأول، فإن مقاربته لمنصبه والحقيقة البسيطة التى تقول إنه أنجز ما أنجز تقودنا إلى الناحية المقابلة. فهروب إخناتون من الماضى له حدوده. فالملك فى مصر جزء لا يتجزأ من اللاهوت. ولم يكن إخناتون يعتزم القضاء على سلطة الفرعون. بل العكس هو الصحيح. فبين الرؤية البسيطة للشمس واهبة الحياة، من ناحية، والإنسانية والطبيعة من الناحية الأخرى، كان الملك يقف هو وعائلته باعتبارهم الوسطاء الوحيدين. وهنا كذلك كان ثمة ابتداع. وعند رسم صورة للملك وعائلته يفشل أى تأويل ساذج لعقل الملك. فقد أعطيت العائلة الملكية، التى صورت فيها الملكة نفرتيتى وكأن لها دوراً مهيمناً (رغم أنه لا يسعنا القول إن كانت تلك هى شخصيتها أم لا)، أسلوباً جديداً للعرض. واختلط التصوف بعدم التمسك بأية قيود الذى بلغ حد السُبات بطريقة كثيراً ما كانت تقترب مما هو مغاير لكل ما هو طبيعى ونموذجى، وكانت غريبة على مفاهيم المصريين الخاصة بالشكل الجيد.

وادعاء «الصوفية» يعنى الانحياز إلى تأويل بعينه للأسباب التى وراء رسم ملامح الملك وأسرته بطريقة تجعل فن عصره فريداً. وتبين بقايا معابده فى الكرنك أن هذا أمر تطور تطوراً سريعاً فى البدايات الأولى لعهده. وتبلغ الغرائب قائمة من التشوهات: رقبة طويلة تميل إلى الأمام، وفك متدل، وعينان ضيقتان، وبطن وأرداف متورمة. والملك يرتدى دوماً تاجاً، ولكن عندما تنتقل الصفات إلى أفراد عائلته الآخرين فهى تشمل كذلك استطالة فى الجزء الخلفى من الجمجمة. وبنية الجسم الغريبة هذه نراها كأوضح ما تكون فى التماثيل الضخمة حيث يقف الناظر أسفل منها لتسيطر عليه بسهولة الغرابة الشديدة للتأثير العام. وكان نقل ذلك إلى النقوش الجدارية ثنائية الأبعاد أقل نجاحاً.

ويرى كثيرون فى التشوهات التى فى جسمه محاولة مخلصة لتصوير آثار مرض خطير كان يعانى منه الملك. إلا أن الخيار الأكثر معقولية هو أنه يمثل محاولة جريئة لتصوير المُلك على أنه قوة لها صفات تضعها خارج المستوى المعتاد للتجربة البشرية. وكان هناك تراث صغير فى مصر من استخدام النحت لنقل إحساس فكرى أكثر تعقيداً بأن قوة الحياة التى كانت تحرك الآلهة والملوك وعامة البشر بدرجات متفاوتة كانت تتجسد فى صورة الجسم البشرى الشاب المثالى. وكان عادة ما يميز تمثال أى إله عن تمثال ملك من الملوك أو مسئول رفيع المستوى هو الاسم المكتوب فى مكان ما من التمثال، ومفردات الزى الذى يرتديه، والشارة المميزة. وكان التعرف عليهم يتم بنفس الطريقة الصريحة والبريئة إلى حد ما. أما تماثيل إخناتون الشخصية فكانت تجريبية ولا معقولة، حيث صنعت على أساس من خلفية ثقافية غير مناسبة إلى حد كبير. وهناك نقطة أساسية فى تقييم نواياه، وهى أن محاولته لتصوير غموض القوة العليا من خلال الفن اللامعقول، وليس من خلال لعبة الكلمات، كانت قاصرة عليه وعلى عائلته. وشكل آتون لا ينطوى على أى غموض. فقد كشفت القوة الإلهية التى تفوق الفهم للبشرية من خلال وكيل آتون على الأرض: أى الملك. ومن هنا جاء الخرطوشان المزدوجان: الكبيران لآتون والصغيران للملك - الإله وابن الإله يحكمان معاً.

وكانت تماثيل الملك الضخمة تقف معلنة عن كنهها من خلال شكلها. وفى الفن ثنائى الأبعاد - أى النقوش الجدارية البارزة والألواح - كانت مجموعة العائلة الملكية تصور فى مناظر من عدم الرسمية الشديدة. ولكن هذه المناظر فى حد ذاتها كانت موضع حب وإخلاص من جانب رجال البلاط والمسئولين. ويبدو أن حياة الملك العائلية الدافئة لم يقصد بها أن تكون نموذجاً يحتذى أو تشجيعاً لقدر أكبر من الاتصال بين العائلة الملكية وسائر المجتمع. إذ قد يُظن أنها على العكس من ذلك استغلت لإبرازهم كمجموعة محبة على درجة من الكمال تضمن لهم التوقير والتعظيم. وفى صلوات رجال البلاط كان إخناتون ونفرتيتى يستحضران كإلهين إلى جانب آتون[8]. ولم توفر العبادة الجديدة أية قناة للتدين الفردى بين الناس. فهم لم ينظروا إليها على أنها عبادة ديمقراطية، بل تركيز منقح وغريب للولاء والإخلاص. ويمكننا أن نقرن مكانته فى تاريخ الفكر، باعتباره عقلانياً مبكراً ، بمكانة مساوية فى النضج المبكر فى تاريخ الحكم: وهى

مكانة الدكتاتور المجيد. وسوف يرد بعد قليل المزيد عن إعادة كتابة إخناتون للسيناريو العقلى الخاص بالمُلك.

وتستحق تركيبة مجموعة العائلة الملكية فى حد ذاتها الملاحظة. فهى جميعها باستثناء إخناتون من الإناث. فبالإضافة إلى نفرتيتى هناك ما يزيد على ست بنات. وكانت أكبرهن مريت آتون، التى كان هناك عزم على أن ترث العرش. وقد كان لها فى عهد إخناتون قدر متزايد من الرفعة، ربما لأنها شبت عن الطوق. وكانت تليها فى العمر مكيت آتون، التى توفيت صغيرة ودفنت فى المقبرة الملكية فى العمارنة، فى جناح خاص بها. ثم تأتى عنخ سن با آتون، التى تغير اسمها إلى عنخ سن آمون، وتزوجت فى النهاية توت عنخ آمون، وأصبحت بعض فترة قصيرة ملكة مصر. والثلاث الأخريات لا نعرف إلا أسماءهن: وهن نفر نفرو آتون الصغرى (حيث إن نفر نفرو آتون هو خرطوش الاسم الأول لنفرتيتى)، ونفر نفرو رع وستبن رع. ومن الممكن أن هذه المجموعة التى كلها من الإناث تصوير مخلص لكامل حجم عائلة إخناتون. غير أن هناك دليلاً قوياً لجعل توت عنخ آمون ابناً لإخناتون، وإن لم يكن بالضرورة من نفرتيتى، حيث إنه من المعروف أن إخناتون كانت له أكثر من زوجة(9). وإذا كان الأمر كذلك، فإن التركيز على الأنوثة قد يكون واجهة لأيديولوجيا إخناتون.

وهناك مفهوم دينى آخر أبقى عليه إخناتون، بل وأبرزه. كان ذلك هو "ماعت" التى يمكن ترجمتها على أنها تعنى "الحق" أو "العدل"، وهى فى واقع الأمر تشمل كل النظام الصحيح للكون(10). ففى تحول مميز من المجرد إلى ما هو ملموس ، جعل المصريون ماعت إلهة، وهى ابنة رع إله الشمس. ورغم أن الإلهة نفسها حظيت بقليل من الاهتمام من إخناتون، فإن النعت الذى وضع قديماً "يعيش مع ماعت"، الذى كان فى يوم من الأيام مقصوراً على الآلهة، كان يستخدمه إخناتون استخداماً منتظماً لوصف نفسه. و"الذى يعيش مع ماعت" هو أحد عبارات نقوش إخناتون. وتعنى هذه الكلمات أن "الحق" هو الموضوع الذى يستغرق تفكيره. ومع أن استخدام المصريين العادى للكلمة لم يكن يحمل القوة الشديدة والملزمة التى لها فى الاستخدام الحديث، فإنه فى ظل اهتمامات إخناتون يكون من الحمق ألا نعترف، بغض النظر عن استخدام الكلمة من

قبل، بأن "الحق" كان فى ذلك الوقت هو التجلى الجديد والأسمى لطبيعة الإله. وكان "الحق" فى سبيله لأن تكون له القوة التى صارت له فى العقائد الحديثة.

وكان قد أشير فى الفصل الخامس إلى أن مبادرة إخناتون الرئيسية الأولى فى إقامة العبادة الجديدة تمت فى الكرنك، فى مركز عبادة آمون. واتخذ ذلك شكل بناء سلسلة من المعابد تشبه نمط المخطط المُفتوح الذى كان يناسب أكثر من غيره عبادة الشمس المرئية، وزينت بتماثيل ومناظر جدارية بالأسلوب الجديد المفزع. وبلغت العملية بكاملها ذروتها باحتفال الحب سد قبل حلول موعده بسنوات. وعثر على الآلاف من قطع الحجارة السائبة من هذه المعابد المبكرة، وكذلك قطع من تماثيل الملك الضخمة. وهذه هى آخر ما بلغه الأسلوب الفنى فى عهده، وهى تبين أنه ابتكر منذ بداية هذا العهد[11].

الأساس: أخت آتون، "أفق قرص الشمس"

فى العام الخامس من حكمه اختار إخناتون أن يشيد مدينة ملكية ومركزاً لعبادته جديدة بالكامل. وهى مدينة شيدت حول معابد آتون وقصور لعائلته بالأسلوب المستحدث الذى أمكنه الوقوف دون تحد من أعمال الماضى. وكان اسم المدينة هو أخت آتون، أى "أفق آتون". وكان موقعها على وجه التقريب فى منتصف المسافة بين منف وطيبة: شريحة كاملة من وادى النيل، عبارة عن شريط عريض من الأرض الزراعية إلى الغرب من قطعة من الصحراء فى الشرق من الواضح أنها كانت غير مأهولة ، لكى تتم فيها معظم أعمال البناء. ونواياه الحالة مسجلة على سلسلة من الألواح (ألواح الحدود) المنحوتة على مسافات فى الصخور على جانبى النيل (الشكل 87)[12]. ويُقال إن آتون هو الذى هداه إلى الموقع واصطفاه، وأنه لم يكن من قبل يخص إلهاً آخر أو إلهة. وفيما بين الألواح أقيمت المعابد والقصور، ووجدت الحقول والقرى القائمة على الضفة المقابلة من النهر نفسها جزءاً من مشروع كبير. وبعد عام قام بزيارة رسمية للموقع، ونقشت مجموعة أخرى من الألواح فى التلال. وكانت الألواح تحتوى على قسم الملك :

قسمي بالحق، الذي أرغب في النطق به، وهو ما لن أقول عنه أبداً إنه كاذب، دائماً وأبداً: تمتد أخِت آتون من اللوح الجنوبي حتي اللوح الشمالي، وتمتد بين لوح ولوح في الجبل الشرقي، مثلما من اللوح الجنوبي الغربي حتي اللوح الشمالي الغربي في الجبل الغربي لأخِت آتون. والمنطقة المحصورة بين هذه الألواح الأربعة هي أخِت آتون نفسها. وهي تخص آتون أبي: بجبالها وصحراواتها ومروجها وجزرها ومرتفعاتها ومنخفضاتها وقراها ورجالها وحيواناتها وكل ما سوف يفطره آتون أبي دائماً وأبداً. ولن أهمل هذا القسم الذي قطعته علي نفسي لأبي آتون دائماً وأبداً.

وتكرر قسم آخر شبيه على اثنين من الألواح بعد عامين، ربما فى الوقت الذى أتى فيه الملك للإقامة. وهناك فقرة فى الألواح تعطى انطباعاً بأن إخناتون نفسه أقسم ألا يغادر حدود المدينة. غير أن هذا فيه سوء فهم. فالفقرات المتصلة بذلك عندما تذكر أنه لن يذهب بعيداً عن الحدود، تعنى أنه لن يوسع حدود أخِت آتون عما هى عليه. وتحتوى فقرات أخرى الشرط شديد الوضوح الخاص بموته إذا ما خرج من المدينة:

«إذا مت في أية مدينة في الشمال أو الجنوب أو الغرب أو الشرق، بعد عديد من السنين، سوف يؤتي بي، ويكون مدفني في أخِت آتون».

وكان أكبر ما يدل على إخلاص إخناتون وانقطاعه عن الماضى هو هذا الوعد بإقامة مقابر لنفسه ولعائلته فى التلال الشرقية، التى هى وادى ملوك جديد. وكان منتظراً من رجال بلاطه أن يحذوا حذوه.

شُيدت المدينة على عجل، وأقام بها عدد هائل من السكان. إلا أن حياتها كانت قصيرة. فقد مات الملك فى العام الملكى السابع عشر. وما أعقب ذلك مباشرة يظل غامضاً، ولكن من خلفه فى نهاية الأمر كان توت عنخ آمون وزوجته، الابنة الملكية الثالثة عنخ سن با آتون[13]. وخلال سنوات حكمه التسع رُفضت أفكار والده، وحدثت عودة كاملة للأصولية الدينية. وأوضح هذا تمام الإيضاح مرسومه بإعادة عبادة آمون فى

الكرنك[14]. ومما يثير الاهتمام أنه صدر من منف، وهى دلالة على مدى حلول منف محل طيبة باعتبارها المدينة الملكية الأساسية فى الدولة الحديثة. ويبين إعداد إخناتون لمقبرة فى العمارنة أنه كان يؤمن بأن المدينة وأفكاره سوف تبقى للأبد. ولكن خاب ظنه. فقد رفضته الأجيال اللاحقة باعتباره ملكاً غير شرعى، وصاروا يشيرون إليه على أنه "ذلك العدو من أخت آتون" وأشياء أخرى من هذا القبيل[15]. وكان التخلى السريع عن أفكاره يعنى أن المدينة هى الأخرى لم يعد لها مستقبل كبير. فقد بقى عدد كبير من السكان لبعض الوقت، ربما حتى عهد توت عنخ آمون. غير أنها أضحت بعد ذلك مدينة أشباح، باستثناء منطقة بجوار الجانب المطل على النهر.

واكتشفت طبيعة العمارنة شيئاً فشيئاً عن طريق أعمال الحفائر والمسح التى بدأت فى القرن الماضى، واستمرت مع فترات توقف حتى سنة ١٩٣٦ ثم استؤنفت سنة ١٩٧٧[16] والمدينة نفسها، بالإضافة إلى المعلومات التى تقدمها لنا عن مفاهيم إخناتون، موقع مهم بالنسبة لدراسة العمران القديم بصورة عامة. وقليل ما نجده من المواقع الأثرية التى على هذا الحجم فى العالم ما قبل الكلاسيكى، حيث تخطيط الأرض على قدر كبير من الوضوح أو موثق توثيقاً جيداً كهذا. ومع أن ظروف تأسيسها فريدة من نوعها، فهى تشكل أساساً مناسباً لدراسة جوانب بعينها من المجتمع المصرى القديم، ولتوضيح الأثر الذى كان للمُلك عليها.

والعمارنة هو الاسم الحالى لذلك الجزء من المدينة الواقع على الضفة الشرقية (الشكل 89). إلا أن حدود المدينة القديمة كانت تضم منطقة طولها ١٦ كيلومتراً وعرضها ١٣ كيلومتراً محصورة بين ألواح الحدود (الشكلان 87 و88). ومن الواضح أن جزءاً كبيراً من الأراضى الزراعية كان موجوداً، ولكننا لا يسعنا إلا تخمين مساحتها. ومع ذلك فالأمر يستحق المحاولة، لأنه فى هذه الحالة يكون من الممكن دراسة مقدار ما كانت عليه طاقة تحميل الأرض (أى عدد الأفراد الذين كانت تطعمهم منتجاتها الزراعية) فيما يتعلق بتعداد سكان المدينة المحتمل.

وهناك شىء نحن متأكدون منه إلى حد معقول، وهو أن مجرى النهر فى موضعه الحالى الذى يمر من أمام العمارنة ليس بعيداً جداً عن مجراه إبان الأسرة الثامنة عشرة، حيث إن العديد من مناظر المقابر واضحة فى جعل حدود مائية للجزء الأوسط

من المدينة. والأرض الطينية لا يقطعها من الشمال إلى الجنوب النيل وحسب، بل كذلك مجرى مائى مواز إلى الغرب منه يسمى بحر يوسف(*) يتفرع من النيل من منطقة ديروط[17]. وإذا قصرنا الأرض الزراعية فى الدولة الحديثة على تلك الواقعة على بحر يوسف - وخاصة فى اتجاه الجنوب، فإن هذا سوف ينتج عنه تقدير شديد التحفظ - إذ سيكون لدينا إجمالى يقدر تقريباً بـ ١٦٢ كيلومتراً مربعاً، أو 59200 أرورا، وهو وحدة قياس الأرض القديمة. وقد وضعت تقديرات فيما يتعلق بعدد السكان الذين يطعمهم أرورا واحد: ربما ٥,٠ ساكن ريفى لكل أرورا، بالإضافة إلى نسبة أقل لغير المزارعين مقدارها ٢٥,٠[18]. ويمكننا تقدير أن حقول أخِت آتون كان يمكنها إطعام سكان يبلغ عددهم ٤٥ ألف نسمة. وكما سنرى، فإن تقديرات سكان المدينة الفعليين يتراوح بين ٢٠ ألفاً و٥٠ ألفاً.

وعلينا كذلك أن نمعن النظر فيما نقصده بالعناصر الزراعية وغير الزراعية فى السكان. فطابع منازل العمارنة يوحى بقوة بأن كثيراً من «المسئولين» الذين كانوا يقيمون فى المدينة كانوا يتلقون كذلك دخلاً زراعياً، إما من أراضيهم البعيدة أو من الأراضى المؤجرة على الجانب الآخر من النهر فى حقول أخِت آتون. وبذلك ربما كان عدد سكان القرى فى الغرب، الذى يتألف إلى حد كبير من العمال، صغيراً جداً. ومن المستحيل فى غياب أدلة يعول عليها أكثر أن نمضى فى هذا الخط من التفكير أبعد من ذلك، ولكن ما تبينه الممارسة هو أن هناك توازناً شديد البدائية بين طاقة تحميل الأرض وعدد السكان داخل حدود أخِت آتون. غير أن النموذج العام كان هو تكديس مخزون فائض الغلال (أى جبال الغلال بلغة العصر). وسعياً لتحقيق ذلك، فقد كان بالإمكان زيادة حجم الإنتاج المحلى بمنتجات الضياع الخاصة خارج الحدود، وربما

(*) فرع طبيعى للنيل كان يسمى حتى العصر الأيوبى «بحر المنهى» وبحر يوسف تسمية حديثة له. ومع ذلك فهناك أسطورة تربط التسمية بالبطريرك يوسف وأخرى بسيدنا يوسف عليه السلام. وهو يتفرع من الترعة الابراهيمية عند ديروط ويمر عند المنيا وسمالوط ومغاغة والفشن وبنى سويف إلى أن يلتقى مرة أخرى مع النيل. (للاطلاع على الأسطورتين انظر: الناس فى صعيد مصر، وينفريد بلاكمان، ١٦-١٨، ترجمة أحمد محمود، دار عين، القاهرة ١٩٩٥). (المترجم)

كذلك بدخل آتون من الأماكن الأخرى، وكانت معابد آتون فى الكرنك تصلها "قرابين من مصادر شديدة التنوع، منها العمد الإقليميين[19]. غير أن هذا كان فى أيام الملك الأولى. وربما كانت الإعلانات التى فى ألواح الحدود تعنى أنه من الآن فصاعد يجب أن تمول آتون في أخت آتون الأرض التى هى أرضـــه، أى تلك الأرض التى تحـــددها الألواح. وتخصيص كتلة كبيرة من الأرض على مسافة قريبة لمؤسسة واحدة ينافى كثيراً النمط المعتاد لحيازة المؤسسات للأراضى، وهو ما قد يكون فى حد ذاته تطبيقاً للبساطة المستحدثة التى ربما وجد إخناتون أنها جذابة.

وكشفت الحفائر التى قام بها الأثريون حدود المبانى المدمرة، غير أن النتائج قد تكون بعيدة عما كانت تبدو عليه المدينة لمن أقاموا فيها. ونحن محظوظون فى العمارنة لوجود صور للمدينة كما رسمها بعض الفنانين الذين شاهدوها، وهى مسجلة فى العديد من المقابر الصخرية في الموقع[20]. وقد كان منظورهم مختلفاً كثيراً عن منظورنا: إذ كان غرضهم هو تسجيل الأحاسيس المرئية لكونهم فى أماكن مهمة، وليس رسمها بالدقة الطبوغرافية. وبناء عليه فلا بد من استخدامها بحرص. إلا أنها تبين ملامح معمارية مهمة كثيرة لم تكن لتعرف لولا ذلك، كما تبين أن حب المصريين القدماء للأشجار والحدائق كانت ممثلاً تمثيلاً جيداً فى المدينة. ولا بد أنه كانت بها خضرة يفتقر إليها ما عليه الموقع الحالى من جدب تام.

وتوجد المقابر الصخرية فى مجموعتين، شمالية وجنوبية، وهى منحوتة فى الصخور والتلال التى تحيط بالموقع فى هيئة قوس كبير يقع فى الجهة الشرقية. وتخص هذه المقابر رجال البلاط والمسئولين. ومن الشائع فى طيبة أن تجد مقابر لم يتم تشطيبها. غير أن هذه هى القاعدة فى العمارنة. ولكن حيث إن الممارسة القياسية القديمة كان هى أن يأتوا بالنقاشين بمجرد إعداد الجدران لهم، فإن قدراً كبيراً من النقوش الجدارية المحفورة كان قد انتهى حتى قبل أن ينتهى البناءون من حفر الغرف الداخلية. والنقوش عبارة عن تنويعات على عدد محدود من الأفكار، وتتركز معظمها حول حياة العائلة الملكية. ويبدو صاحب المقبرة على أنه شخصية ثانوية وحسب، فبماعدا عند مدخل المقبرة، حيث كان يسمح له بشغل الحوائط الجانبية بصور له وهو يتلو دعاء طويلاً، وفى مؤخرة المقبرة ، حيث كان يوجد فى حالات قليلة تمثال لصاحبها بعد العمل فيه ومحاط بتماثيل صغيرة لعائلته.

وهناك مصدر مصور آخر للمعلومات. فقد كان المعبد الجديد والقصر الكبير قد شيدا جزئياً من الحجر، وكانت جدرانهما مزينة بمناظر كانت تبين فى بعض الأحيان نفس الأنواع من صور حياة المدينة حول العائلة الملكية كما هو الحال فى المقابر الخاصة. وفى زمن رمسيس الثانى، بعد ذلك بما يتراوح بين خمسين ومائة عام، كانت العمارنة مدينة خالية إلى حد كبير وقد هجرت مبانيها العامة ولكنها لا تزال فى حالة جيدة. وكانت تلك المبانى مغرية كمصادر لحجر البناء الرخيص. وبذلك هدمت بالكامل وحملت المراكب أحجارها لاستخدامها فى برنامج الملك الضخم لبناء المعابد. والكثير منها سار فى رحلة قصيرة إلى مدينة هرموبوليس (الأشمونين(*) الحالية) على الناحية الأخرى من النهر. وكشفت الحفائر عن حوالى ١٥٠٠ حجر، ولكن يبدو أن هذا ليس سوى جزء يسير من الكمية الأصلية. وهى لا يمكن تجميعها مع بعضها لتشكل مناظر كاملة، غير أنها وهى منفردة أو على هيئة مجموعات صغيرة تعد مصدراً مفيداً للمعلومات[21].

وعلى ألواح الحدود وعد إخناتون بإقامة مقابر لنفسه ولعائلته فى أخِت آتون. وكان وادى الملوك الجديد فى موقع بعيد بصورة غريبة ناحية الشرق. ومن المدينة يسير المرء فى مدق طوله ٣ أميال (٥ كيلومترات) حتى مدخل الوادى المؤدى إلى الوادى الملكى، إلا أنه يقطع أربعة أميال (٦ كيلومترات) أخرى قبل بلوغه موقع الجبانة الملكية. ومن بين المقابر العديدة المخططة، كانت واحدة فقط هى التى اقتربت من الاكتمال، وهى مقبرة إخناتون نفسه. وهى تتسم بأن لها نفس أبعاد وطابع مقابر وادى الملوك فى طيبة. وقد ضاعت معظم النقوش، إلا أن الشذرات المتبقية تبين صوراً مألوفة للعائلة الملكية وآتون. والملمح الذى يعد غير عادى بحق هو أنه كان يقصد بها أن تكون نواة لمقبرة عائلية. فعندما ماتت الابنة الثانية، مكيت آتون، دفنت فى مجموعة منفصلة من الغرف تبدأ من عند دهليز المدخل الرئيسى. وتوجد على الجدران مناظر مؤثرة للعائلة

(*) على مقربة من ملوى بمحافظة المنيا وكانت تسمى فى العصر الفرعونى «خمن» أى مدينة الثمانية، إشارة إلى ثامون الآلهة، وهو أصل اسمها الحالى. وكانت للمدينة أهمية خاصة فى الدولة الحديثة، بسبب كبار كهنة آمون من أهلها الذين جعلوها مدينة دينية. وبها إلى جانب الآثار الفرعونية آثار يونانية رومانية أهمها المعبد الذى شيده فيليب ايريديوس أخو الإسكندر الأكبر. (المترجم)

الملتاعة. ويلى ذلك جناح جانبى كانوا قد شرعوا فيه، وهو يبين كل ما يدل على أنهم كانوا يعتزمون جعله مقبرة ملكية أخرى. والاقتراح المغرى هو أنها كانت ستصبح لنفرتيتى[22].

وكان أمن الجبانات هماً مصرياً منذ قديم الزمان. وكانت سرقة المقابر مهنة قديمة. وبعد أجيال قليلة من عصر العمارنة كانت السلطات فى طيبة مشغولة فى التحقيق بشأن السرقات من جبانات طيبة. وفى العمارنة يبدو أن الصحراء الواقعة خلف المدينة وحول الصخور كانت تُسَيَّر فيها الدوريات بصورة منظمة. وترك هذا فى الصحراء شبكة من الطرق مازالت واضحة للعيان[23]. وكانت تتم بإزاحة أحجار الصحراء إلى جانبى الطريق بحيث تكون هناك حافتين مرتفعتين تحدانه. وربما كانت لا تبدو ضرورية فى ضوء النهار، غير أن فائدتها كانت تتضح فى الليل، حيث يجعل ضوء القمر، أو حتى النجوم، الخافت عدم استواء الصحراء واضحاً وضوحاً مذهلاً. وتتجه الطرق من الشمال إلى الجنوب، وتدور حول قريتين صحراويتين، وتلتقى عند ما تشبه النقطة المركزية فى الشطر الجنوبى من الصحراء، وتعبر طرق أخرى تسير فى خطوط مستقيمة مباشرة إلى المقابر الصخرية المهمة. ويسير أحد المدقات مع حافة الصخور، حيث تقطعه الأودية العميقة إلى قطاعات منفصلة.

ولابد أن إنشاء أخِت آتون استلزم قوة عاملة من العمال والفنانين. إلا أن وجود مجموعة كبيرة ومنظمة كهذه أمر لا تدل عليه السجلات الأثرية. ربما كان كثيرون منهم من سكان المدينة الذين كانت منازلهم فى كل مكان. وهناك استثناء من هذا يقع فى الصحراء خلف المدينة الوسطى. فهناك هضبة منخفضة تبدأ من سفوح الصخور متجهة ناحية المدينة، وفى واد فرعى صغير كانت تقع قرية مسورة مربعة تضم ثمانية وستين منزلاً ذات حجم واحد، بالإضافة إلى منزل أكبر حجماً، يفترض أنه كان يخص الموظف المسئول. ولا تقع القرية بعيداً جداً عن المجموعة الجنوبية من المقابر الصخرية، وهو ما قد يكون فيه مفتاح السبب الذى وراء إنشاء القرية: فقد كانت تؤوى جماعة من الرجال الذين أبقتهم الحكومة لحفر المقابر ونقشها. وكانت هناك قرية مشابهة موجودة فى طيبة، عند موقع دير المدينة، وإن كانت مسئولية الرجال الأساسية فى تلك الحالة هى المقبرة الملكية الحالية. ولا يمكننا الجزم بأن هذا كان ينطبق كذلك على الأشخاص

الموجودين فى قرية العمال بالعمارنة أم لا. ذلك أن المقبرة الملكية كانت على مسافة بعيدة.

وكانت قرية العمال أول موقع فى الحفائر الحديثة المستأنفة لجمعية استكشاف مصر فى بريطانيا العظمى[24]. وكانت معظم الحفائر تتركز فى الأرض الواقعة خارج أسوار القرية مباشرة، حيث ألقيت فى الزمن القديم كميات كبيرة من النفايات تكشف، بالإضافة إلى التغيرات التى طرأت على المبانى، عن قدر من النشاط الذى نجده مدهشاً إذا ما قورن بقصر مدة عملهم. وهو يمتد كذلك إلى السنوات المشكوك فيها التى أعقبت وفاة إخناتون. وفى ذلك الوقت، عندما اعتلى توت عنخ آمون العرش، بدأت مرحلة جديدة من نشاط البناء خارج القرية مباشرة. فقد بدأ السكان فى بناء مزارات على التل قصد بها أن تكون أماكن للتجمعات العائلية. وعثر على بعض النقوش التى تذكر فى المقام الأول الآلهة التقليدية، بمن فيها آمون رع، الذى اعتبره إخناتون كبير الأعداء. وتشير الدلائل إلى أن الناس بقوا فى هذا المكان بعد وفاة إخناتون زمناً يزيد عما هو مفترض غالباً. وربما كانوا يرعون المقابر، إما إلى أن يتم نقل محتوياتها الثمينة، أو ربما انتظاراً لأن يدور التاريخ دورته ويعيد البلاط مرة أخرى. وأكدت حفائر لاحقة فى المدينة الوسطى، فى مكان كان يمد القرية بالماء وربما كذلك ببعض الفخار، أن عهد توت عنخ آمون أمد فى حياة بعض أجزاء العمارنة، وإن لم تبق طويلاً.

حلبة العرض الملكى

ذكرنا فى الفصل الخامس أن مصادر مُلك إخناتون تخلق، دون قصد بالمرة، صورة كاريكاتيرية للدور العام للزعيم الكاريزمى كما كان منذ العصر البرونزى حتى الوقت الراهن. ويمكن تلخيص العناصر فيما يلى:

١ – موكب الدولة .

٢ – الحرس المسلح المرافق .

٣ – أوضاع من التكريم الخاص لمن يسمح لهم بالاقتراب .

٤ – «الظهور» ، بمفرده أو مع العائلة ، فى شرفة القصر .

٥ – استعراض القوات وممثلى الإمبراطورية فى الهواء الطلق .

٦ – شعائر العبادة العامة أو شبه العامة .

٧ – صورة القائد، بمفرده أو مع العائلة، فى منازل الشعب (الشكل 94)

وتمدنا العمارنة بمزيج فريد من المصادر يسمح لنا بإعادة تركيب المظهر العام لنظام المُلك المصرى. فلدينا صور الحركة فى المناظر الموجودة فى المقابر الصخرية، وعرفنا من الحفائر الكثير عن الموضع المادى الفعلي. وسوف نجد عينات من العناصر ١ حتى ٦ كما ترد فى مناظر المقابر فى الأشكال 90 و92 و 93. ويبقى بعد ذلك وصف التخطيط.

ومع أن تخطيط المدينة كان على مساحة من الصحراء المنبسطة نسبياً الخالية من العوائق، فلم تكن درجة التخطيط المستقبلى عظيمة، وكان قاصراً إلى حد كبير على المبانى الرسمية التى خلقت هذا الموضع الخاص. وهذه هى العناصر التى نريد عزلها (الشكل 91). وكان العمود الفقرى شارع مستقيم طويل، وهو ما يسمى الطريق الملكى، وكان يربط المدينة الوسطى بالمدينة الشمالية. وكان خيار تحديد مبتداه ومنتهاه بيد طبوغرافيا الموقع. ورغم أننا نتحدث عن "سهل العمارنة" فهو ليس مستوياً تماماً، حسبما قال من زاروه. فهو من شماله حتى جنوبه به العديد من التموجات العريضة التى يشعر بها من ينتقلون من طرف إلى آخر. ويربط الطريق الملكى بين اثنين منها. وتقع المدينة الرئيسة على أحدها، حيث يقوم على قمته دار الملك على حَيْد يتجه شرقاً بنيت عليه كذلك نقطة الشرطة، وعلى الطرف الآخر تقع المدينة الشمالية فى أمان عند سفح المنحدرات أسفل الصخور، فى الموضع الذى تشرف فيه على النهر.

وكانت المدينة الشمالية تضم مبنى مهماً، وهو القصر النهرى الشمالى بسوره المحصن الضخم. وربما كان ذلك المقر الملكى الرئيسى، حيث كان يتسم بالخصوصية والانفصال عن سائر المدينة، وكان فى الوقت نفسه محصناً تحصيناً جيداً[25]. ومازال جزء من هذا السور، الذى تتوسطه بوابة ضخمة، معلماً بارزة من معالم المدينة. وبين السور والقصر نفسه كانت هناك مخازن وغيرها من المبانى التى ربما كانت ثكنات لحرس الملك. وعلى الجانب الآخر من الطريق كانت هناك مجموعة من المنازل، بعضها

هى الأكبر حجماً فى المدينة كلها ويفترض أنها كانت تخص بعض رجال البلاط المقربين أكثر من سواهم للملك. وكانت المدينة الشمالية تحدها من الشمال المبانى الإدارية المشيدة على مدرجات على سفوح الصخرة، وكانت تضم مجمعا ضخماً من مخازن السلع، ربما كان جزء منها مخازن غلال. ويوحى هذا بأن المدينة الشمالية ومقر الملك الخاص كانا مكتفيين ذاتياً من الطعام، بتموين مستقل عن المصادر التى تغذى سائر المدينة. وبسبب الصخرة المطلة على الموقع، كان له بكامله جو مختلف تماماً عن سائر المدينة. ومن الواضح أنه كان مكاناً جذاباً لإخناتون، كما لا يزال كذلك بالنسبة للزوار فى وقتنا هذا.

وكان الطريق الملكى يبدأ من هذا الموضع، ثم يتجه جنوباً عبر أرض مفتوحة منخفضة نحو المدينة الوسطى. وكان ذلك هو خط سير الموكب الملكى، وهو المفضل بين مناظر المقابر. والواقع أن أحد هذه المناظر يبين القصر النهرى الشمالى، وهو مرسوم على هيئة حصن على الطراز التقليدى تكمله الشُرَّافات، باعتباره نقطة الانطلاق الملكية، وما يشبه السياج على جوانب الطريق الكبير (الشكل 90). ورأينا فى الفصل الخامس مدى أهمية مواكب آلهة طيبة الاحتفالية بالنسبة للمدينة، وكيف أنها كانت توفر على مدار السنة مشهداً عاماً وبياناً رمزياً لأحقية الملكية للعالم الخارجى عن طريق عبور مسافات طويلة. وبالنسبة لأكثر هذه المواكب أهمية كان الملك يصل ليضيف إليها ويغمر ذاته فيها. وجاءت عبادة آتون فألغيت كل هذا. إذ لم تعد هناك مقاصير مراكب مقدسة لتحمل. فقرص آتون كان يقوم برحلته عبر السماء، فى موكب لا ينقطع. وخلق إخناتون فراغاً آخر وسعى إلى ملئه بمواكب خاصة به هو باعتباره بؤرة التزلف العام، حيث استعاض بالموكب العسكرى عما كان يجرى فى الماضى من مواكب فخمة وصاخبة تكثر فيها الألوان ويحملون خلالها تماثيل الآلهة. وهنا نشم مرة أخرى رائحة عالم آت. كان الملك والملكة وبناتهما والأتباع فى عرباتهم، والحرس يجرون على طول الطريق فى وضع منحن (الشكل 90). ويمكننا التعرف على أساس المشهد وهو يعاد فى زماننا هذا فى العواصم وفى المناسبات الرسمية فى أنحاء العالم. فنجد أن سيارة الرئاسة الليموزين، والعربة الملكية، وراكبى الدراجات النارية، ومستشاري الرئيس، وحرس

الأمن جميعهم أجزاء من عرض عام يؤدى على مر آلاف السنين اللاحقة، حيث يستجيب الحكام والزعماء للرغبة الشديدة فى الهتاف الجماهيرى.

وكان الطريق الملكى يمر فى اتجاهه ناحية الجنوب على مبنى منعزل يواجه النهر، وهو القصر الشمالى[26]. وعندما أجريت فيه الحفائر فى العشرينيات وجد أنه مقر ملكى مكتف بذاته يضم قاعات استقبال رسمية، وجناح إقامة به غرفة نوم وحمام، ومعبد شمسى مفتوح، وحدائق وأفنية وكانت الجدران مزينة بمناظر طبيعية، كما كانت تربى فيه الطيور والحيوانات. وتبين شذرات النقوش الكثيرة التى اكتشفت أن الشخص الذى كانوا يعتزمون جعل القصر الشمالى له فى آخر الأمر هى الأميرة الكبرى ووريثة العرش مريت آمون. وربما أصبح مقرها الرئيسى عندما شبت عن الطوق فى عهد أبيها. وهو فى غرضه الأساسى – ليكون بمثابة قصر منفصل للملكة الأولى وأهل بيتها – يتفق مع نمط قصر الحريم الموثق من كل من النصوص وموقع مدينة الغراب (انظر الفصل الخامس). ويمكن مقارنته من حيث رسميته، على سبيل المثال، بما تبقى من قصر مرنبتاح فى منف.

وبعد القصر الشمالى، كان الطريق الملكى يسير فى النهاية فى أول مناطق المنازل الخاصة كثيفة المبانى، وهى الضاحية الشمالية، ثم يصعد صعوداً خفيفاً إلى الهضبة المنخفضة التى كانت تقع عليها المدينة الوسطى. وكانت المدينة الوسطى قد خُططت حول نهاية الجزء الرئيسى من الطريق الملكى (الشكل 89)[27]. وكان القصر الكبير يقع على الجانب الغربى بكامله، وربما كان يغطى كل الأرض الممتدة حتى الواجهة المائية[28]. وكان هذا يشمل منطقة خاصة من الأفنية والقاعات الجميلة ذات الرسومات الزاهية (انظر الشكل 77 للاطلاع على الرصف المرسوم). إلا أن الجزء الرئيسى من المبنى كان فناءً ضخماً تحيط به تماثيل إخناتون الضخمة، ومجمع قاعات أفنية صغيرة ونصب تذكارية. وكانت هذه الأجزاء مشيدة من الحجر. وحيث إن الأحجار نقلت نقلاً منظماً، بعد أن هجرت المدينة، فمن الصعب فى الوقت الراهن التأكد من الشكل الذى كانت تبدو عليه. إلا أنه مهما كانت التفاصيل، فقد كان الغرض من المكان برمته أن يوفر للملك موضعاً فخماً شبه دينى يعلن عن دينه وفنه الجديدين ويمكن أن تجرى فيه الاستقبالات والمراسم الرسمية، التى قد تشمل تلك التى تقام لأهم مبعوثى الملوك

الأجانب الذين كان ينبغى أن يعودوا لسادتهم بحكايات عجيبة عن بذخ الحاكم الجديد وابتداعه. وكانت فى الطرف الجنوبى من القصر الكبير إضافة غير عادية، وهى قاعة شيدت لخليفة إخناتون المباشر سمنخ كا رع، وكانت تضم 544 عموداً من الطوب ولها جدران مكسوة بالبلاط المزجج. وكان هناك كوبرى يعبر الطريق الملكى ويربط القصر الكبير بمقر صغير، هو دار الملك. وهذا يمثل القصور الصغيرة – مراسى فرعون – التى ناقشناها فى الفصل الخامس، وكان بمثابة مقر عمل الملك. وهو لذلك كان يضم شرفة الظهور، حيث كان الملك يظهر هو وأسرته ليكافئ المسئولين المخلصين ويعلن ترقياتهم إلى مناصب أعلى. وسوف يرد المزيد عن هذه الشرفة فى القسم التالى.

وقد جرى بالفعل وصف أحد مبانى الدولة الواقع فى الوسط: وهو القصر الكبير. ويقع مبنيان آخران على طرف الجانب الآخر من الطريق، حيث يغلقان طرفى المدينة الوسطى. وكانا معبدين، ولكن لم يبق من العناصر الأساسية المشيدة بالحجر سوى أساساتهما. وكان المبنى الواقع إلى الشمال أكثر هو معبد آمون الكبير[29]. وكان يحيط بهذا المعبد سور ضخم عرضه ٢٢٩ متراً ويمتد للخلف من الطريق الملكى بطول 730 متراً. ويبدو أن جزءاً كبيراً من داخل المعبد كان مساحة مفتوحة. ولكن لا بد أن نشك فى أن هذا يعود وحسب إلى أن إخناتون لم يتم قط خططه العظيمة. وفى كلا المعبدين هناك أدلة على أن البناءين الأولين كانا من الطوب، وذلك لخلق المواضع الضرورية للعبادة على وجه السرعة. وتبع ذلك برنامج للإحلال والتحسين. ويعطى سور معبد آتون الكبير الانطباع الواضح بأنه موقع احتفالى ضخم مازال فى انتظار استكمال مبانيه المقدسة لتضاف إليه. وفى النهاية شيد مبنيان فقط، يقعان على المحور الشرقى الغربى.

وأدخل سور المعبد بين برجين (أو صرحين) من الطوب فى المقدمة، كانا يؤديان مباشرة إلى المبنيين الحجريين المسميين «بيت الابتهاج». وعلى العكس من المعابد المصرية المعتادة التى كانت تبدأ بفناء مفتوح تعقبه قاعات مسقوفة، عكس هذا المعبد الترتيب بأن بدأ ببهو أعمدة يوصل لسلسلة من الأفنية المفتوحة الزاخرة بموائد القرابين الحجرية. وفى مؤخرة المبنى كانت هناك منطقة سميت تسمية منفصلة: هى «جم آتون» أو «آتون وُجِد». وكان هذا يختلف اختلافاً طفيفاً عن سائر المعبد، إلا أن

بعض المذابح المحيطة بجوانب الأفنية كانت تحميها جدران. وكان توفير مذابح كثيرة أحد ملامح عبادة إخناتون. وتبين مناظر المقابر التى تصور المعابد المعاصرة لتلك المذابح وهى مكدسة بقرابين الطعام والشراب. وكانت تلك هى الطريقة التقليدية لخدمة الآلهة. ولكن يبدو أن إخناتون استخدمها لإبداء الورع الزائد. وقد بلغ ذروته بجوار "بيت الابتهاج"، حيث وضعت المئات من موائد القرابين فوق حقل حقيقى فى الجانب الجنوبى. وفى الجزء الخلفى من المعبد الكبير كان يقع المبنى الحجرى الآخر، حيث كان الملمح الأساسى مرة أخرى هو الأفنية المفتوحة ذات الصفوف من موائد القرابين . ولا بد أن نتذكر عند النظر إلى المخططات ورسومات إعادة البناء الخاصة بهذه المبانى أن كل ما تبقى هو الأساسات، إلى جانب الرسومات القديمة فى المقابر الصخرية بالعمارنة. وهى تسمح بمجال لا بأس به من التأويلات المختلفة. فعلى سبيل المثال، بينما تخيل من قاموا بالحفائر أنها بنيت بصورة أو بأخرى على مستوى أرضى وأحيطت بجدران مرتفعة، فمن المحتمل القول بأنها كانت، فى أغلب الأحيان، مشيدة على منصات من خرسانة الجبس أجزائها الأمامية مفتوحة بحيث تكون أعمال العبادة الأولية التى يقوم بها الملك مرئية على نطاق أوسع، كما توحى بذلك صور المقابر (الشكل 93)[30].

وهناك بناء مقدس آخر داخل السياج وكان نصباً يقف بمفرده، وهو حجر بن بن. ومرة أخرى نحن مدينون لمناظر المقابر القديمة لإعطائنا شكله (الشكل 30 (5)). وكان يقوم على قاعدة، وهو عبارة عن قطعة واحدة من الحجر جعلت لها قمة مستديرة. وكما أشرنا فى الفصل الثانى، فإنه منذ العصور المبكرة كان ذلك هو الشكل الخاص برمز الشمس، وربما كان الأصل قائماً فى هليوبوليس، الواقعة على أطراف القاهرة الحالية. وأصل الشكل والسبب وراء ارتباطه بالشمس ليسا معروفين فى واقع الأمر، إلا أن استبقاء إخناتون له أحد الدلائل على أنه اعتمد اعتماداً كبيراً فى شكل عبادته وعرضها على أفكار تقليدية.

وكان بالمدينة الوسطى معبد آخر أصغر حجماً لآتون يسمى «دار آتون». وكان يقع بجوار دار الملك مباشرة. وهو بالضرورة نسخة مصغرة من المعبد الكبير. وكان سياجه أصغر بكثير وكان يحيط به سور ذو أبراج على مسافات على الواجهة

الخارجية. وهذا أمر معروف عن معابد الدولة الحديثة الأخرى، حيث نبين الأدلة أن الأبراج كانت تنتهى فى أعلاها بشرافات، كى تعطى العالم الخارجى انطباعاً بأن المعبد يقع داخل حصن (انظر الفصل الخامس). وكان المدخل بين برجين على هيئة صرحين ، وهما ما يزالا ملمحاً بارزاً من ملامح المنظر العام. وكانت بواجهتيهما الخارجيتين فتحات غائرة كانت تنصب فيها الساريات التى كانت ترفرف الرايات فى أعلاها . وكانت تقع فى وسط الفناء الأول منصة "شمسية" كبيرة، خلف صرحى المدخل. وخلف مجموعتين أخريين من الصروح كان يقع قدس أقداس من الحجر، وهو ما يكاد يكون نسخة من ذلك الذى فى المعبد الكبير. وقد اتضح بجلاء تام من إعادة فحص أجزاء هذا المعبد كيف أنه كان عرضة لعملية تحسين فى عصر العمارنة. وقد ظهرت "الشمسية" أولاً، وربما كانت أول موضع فى العمارنة حيث تمكن فيه الملك من أن يعبد آتون العبادة الحق. وبعد ذلك دمرت حتى أساساتها، ربما لكى يستعاض عنها بقدس الأقداس الحجرى فى مكان يقع خلفها. وفى هذا الوقت فقط شيدت الصروح، وكان لا بد أن تنتظر عهد سخمنرع قبل أن يمكن إيجاد بناءى الحجر ليبدءوا عملية نقش أحجار المدخل الرئيسى[31].

وتشير الدلائل إلى أن هذا المعبد الصغير، كما يدل موقعه فى وسط المدينة، كان هو المكان الذى تتم فيه أعمال عبادة الملك شبه العامة، وكان بالتالى معبداً ملكياً. وسواء أكانت الصدفة وراء هذا الأمر أم لا، فإنك عندما تقف عند واجهة صرحى المعبد وتنظر مباشرة بطول محور المعبد نحو الصخرة البعيدة، فسوف تجد أن محور المعبد يشير على وجه التقريب إلى مدخل الوادى الذى كان يؤدى إلى المقبرة الملكية. ويمكننا القول نتيجة لهذا أن المعبد كان المرادف للمعبد الجنائزى، حيث كانت تماثيل إخناتون تتلقى قدراً من الاهتمام أثناء العبادة أكثر تركيزاً مما كان ستتلقاه فى أية مبان ملكية أخرى. ويضيف التواجد فى الفناء الآخر من المبنى الصغير، الذى ربما كان يتكون من غرفة ملابس وشرفة الظهور، بعض الثقل لهذا السبب، ذلك أن هذا الملمح كان عنصراً أساسياً فى المعابد الجنائزية فى طيبة[32]. وكذلك الحال بالنسبة لاستخدام مصطلح «دار»، الذى كان يستخدم بشيوع فى المعابد الجنائزية والمقاصير فى الدولة الحديثة، وإن لم يكن مقصوراً عليها.

وكانت عبادة تمثال الملك جزءاً قديماً من أيديولوجيا الدولة المصرية، إلا أنه فى الظروف المعتادة تقتصر أدلتنا على المعابد. ومرة واحدة يسمح لنا هذا الامتداد الفريد للأدلة التى كشفت عنها الحفائر فى العمارنة أن نرى إلى أى مدى كان يمكن أن يزيد على ذلك. ويأتى أهم دليل من مبنى (R43.2) الذى كان يقع فى الموضع الذى تلتقى عنده المنطقة الرسمية من المدينة بالمنطقة السكنية الجنوبية (الشكل 95)[33]. وقد بُنى بالطوب اللبن وبه عناصر معينة من تصميم المعبد التقليدى : فناء أمامى مفتوح (به أشجار) وبهو أعمدة كبير وصغير، وكل العناصر مرصوصة بتماثل حول محور مركزى. وفى وسط البهو الداخلى كانت تقع مقصورة خشبية منقوشة ومصور عليها مناظر لآمون وللعائلة الملكية. ويذكر أحد النقوش "التمثال الكبير الذى أمر الملك بصنعه"، ويفترض أنه كان يقف داخل المقصورة. وعثر هناك كذلك على أجزاء من تماثيل خشبية وتمثال خشبى صغير لأبى الهول، إلى جانب العديد من الخرز والدلايات. وأحد جوانب المبنى الغربية هو ما تبدو غرفة نوم ملحقة بقاعة التماثيل. ولا يسعنا سوى التخمين فيما يتعلق بطبيعة العبادة، رغم أن موقع المبنى وتواضعه يدل على أنه ربما كان موضع رعاية مؤسسات خاصة.

ورغم اختفاء هذا التمثال، فقد كشفت الحفائر التى أجريت فى الأجزاء السكنية من المدينة عن قطع أخرى من التماثيل الملكية التى لا بد أنها كانت تقف فى مقاصير صغيرة تزدان بها حدائق عدد صغير من الأثرياء، أو كانت، فى حالات قليلة، تقوم بالفعل داخل المنزل نفسه. وعوضاً عن التمثال قد تكفي لوحة محفورة عليها صورة للعائلة الملكية (انظر الشكل 94)، وكانت صورتها مرسومة على جدران المقاصير كذلك. وهذه المقاصير ملمح مثير للانتباه من ملامح بعض منازل الطبقة الميسورة (وليس كلها). ويشير هذا إلى أنه كان من حسن الذوق، وليس من باب الإجبار، عرض ما كانت فى الأساس صورة للملك أو العائلة الملكية وتبجيلها. وهذا التعزيز لوجود الزعماء ما زال ممارسة تلقى التقدير فى الدول التى تؤيد عبادة الزعيم العظيم.

وهناك نقطة واضحة لا بد من الإشارة إليها، وهى أننا فى العمارنة قد نرى تجلياً من تجليات عبادة الحاكم أكثر تطرفاً مما كان معتاداً فى الدولة الحديثة، باعتبار أن أفضليات إخناتون كانت فى هذا الاتجاه. إلا أن المسألة كانت فى الوقت نفسه مسألة

منزلة. وتشير بردية من عصر أمنحتب الثانى إلى "تمثال الرب (الحياة والرفاهية والصحة!) الموجود فى المقصورة التى فى بيت الخازن الأكبر" فى منف[34]، بينما أحضر كبير الكهنة فى العمارنة، بانحسى، معه إلى المدينة لوحة لأمنحتب الثالث والملكة تى ليضعها فى مقصورة منزلية[35].

والمدينة ذاتها كانت تنتهى بقرية الحاج قنديل الحالية، ولكن هذه كانت لا تزال فى منتصف المسافة على الخط الذى يربط بين ألواح الحدود والصخور. وترك هذا مساحة للمبانى المنعزلة. وكان أشهرها يسمى مرو آتون[36] وكان يتكون من سياجين مسورين كبيرين وكانت الملامح الأساسية بحيرات ضحلة. وكانت تحيط بها حدائق مزروعة بعناية، وكان فى وسط الحدائق صروح ومجموعة من المقاصير، بينها مجموعة من منصات "الشمسيات" الواقعة على جزيرة محاطة بخندق مائى ضحل. وعثر على عدد كبير من جرار النبيذ مخزنة فى مبنى واحد. ويبدو أن المجمع بكامله يعد نموذجاً لروح عبادة الشمس، حيث يمثل حديقة غناء من الخضرة والماء تطل عليها الشمس. وهى تمثل كذلك الرغبة فى العزلة التى جاء ذكرها عند تناولنا للقصور فى الفصل الخامس، وهى تدل على العصر من حيث إنها جزء مهم منه. وكانت «الشمسية» نفسها (وربما المبنى بكامله) تخص سيدة بارزة من العائلة الملكية. ومع نهاية عصر العمارنة كانت المالكة الرسمية مرى آتون كبرى بنات الملك.

وأدت أحدث الحفائر فى العمارنة إلى اكتشاف مجمع معابد منعزل آخر إلى الجنوب من المدينة، عند الموقع المعروف حالياً باسم كوم النانا. وعلى العكس من مرو آتون، كان ملمحه الأساسى معبداً كبيراً من الحجر، ولكن جزءاً منه كان محاطاً بحديقة صغيرة ذات أشجار منسقة. إلا أن ملمحه المميز الرئيسى، الذى اكتشف حتى الآن، مجموعة من مبانى الخدمات داخل السياج المسور الممتد. وكانت هذه المبانى تشمل مخبزاً كبيراً وربما ورشة كانت تصنع فيها سلع أخرى، وهى التى ربما جعلته مؤسسة مكتفية ذاتياً. وهو يشى بالكثير عن جهلنا بعصر العمارنة، لدرجة أن وجود هذا المبنى الكبير، الذى لا يزال اسمه ومالكه الأصليان غير معروفين، ظل مجهولاً حتى فترة قريبة جداً.

وقبل إخناتون كانت السنة المصرية تحددها الاحتفالات الدينية، التى كان بعضها كبير (مثل احتفالى الأوبت والوادى فى طيبة) وكثير منها صغير. وكانت الاحتفالات

الدورية المنتظمة ينتظرها الناس بصورة أساسية ، مما يضطرنا إلى طرح هذا التساؤل: بماذا استعاض إخناتون عنها؟ إننا نعرف من نصوصه التى حصلنا عليها من معابده فى الكرنك أن مؤناً وفيرة كانت تعد من أجل القرابين اليومية. وهناك شذرة مماثلة، لا تقدم لنا معلومة كاملة، وجدت فى العمارنة[37]. إلا أن مثل هذه النصوص لم توثق حتى الآن الاحتفالات الدورية. وهنا نواجه مرة أخرى فراغاً مفاجئاً. فعبادة الشمس تقدم مجموعة جاهزة من الأعياد التى تتبع التقويم، والانقلابين والاعتدالين الشمسيين ، وكان يمكن دمج الاحتفال بها فى عمارة المعابد. ولكن يبدو أن مفهوم إخناتون عن الشمس كان من البساطة (أو النقاء، حسب ما قد تراه) حتى أنه لم تدمج أية صفات للسلوك السنوى للشمس فى الديانة. بل إن الأمر الأكثر غرابة هو توازى المعابد والمذابح فى العمارنة. ومن الواضح أن هذا أمر فرضته طبوغرافيا المدينة، وليس العوامل السماوية. وكان ذلك ينطبق على معابد الدولة الحديثة بصورة عامة (وإن لم ينطبق على الأهرام المبكرة والمعابد المرتبطة بها). وربما كان الإخفاق فى وضع برنامج للاحتفالات والأعياد ذات الجاذبية الشعبية التى تقام حول آتون، باعتباره منفصلاً عن الملك، من أهم الأسباب وراء فشل إخناتون[38].

وهناك احتفالان فقط مسجلان فى العمارنة، وكانا كلاهما يركزان على الملك. وكان أحدهما احتفالاً للمرة الثانية بالحب سد[39]، والآخر استقبالاً ضخماً للمبعوثين الأجانب وخراجهم وهداياهم الدبلوماسية أقيم فى العمارنة فى العام الثانى عشر من حكم الملك[40]. وبالنسبة للاحتفال الأول، ليس لدينا قدر كبير من المصادر بحال من الأحوال، ويظل الأمر ضرباً من التخمين فيما يتعلق بالمكان الذى نرغب فى أن نجعل فيه الاحتفال الرئيسى. أما الاحتفال الآخر، فتسجل مقبرتان خاصتان بقدر كبير من التفاصيل فرق الأجانب وهى تقاد أمام العائلة الملكية كى تقدم فروض الولاء الرسمية وتتقدم بهداياها التى جلبتها من بلادها. وكان الجنود المصريون موجودين كذلك، إلا أننا لا ندرى إن كانت أعدادهم تزيد على أعداد الحرس الملكى المعتاد أم لا. ويصور موضع الاحتفال على أنه مساحة مفتوحة تضم عدداً من المبانى الصغيرة: هى فى الأساس منصة يصعد إليها بدرج ومظللة بسقف تحمله أعمدة. وهذا هو المكان الذى كان يجلس فيه الملك والملكة وهما يلوحان لممثلى الدول من أقبل منهم ومن أدبر. وعلى

مسافة غير بعيدة كانت تقوم مجموعة قياسية تضم ثلاث منصات "شمسية"، وكانت كبراها تحيط بها الجدران وتضم مائدة قرابين. وعلى جانبى المجموعة يظهر ما يبدو أنهما سياجان يضمان المؤن من مأكولات ومشروبات. ومن الصعوبة بمكان التعرف على هذا المكان على أرض الواقع، لأنه لا يمكننا بالضرورة افتراض أن الموضع المعمارى معروض بالكامل. وإذا جاز لنا ذلك، يمكننا الإشارة إلى مجموعة معزولة من المبانى فى الصحراء بين القصر الشمالى والمقابر الجنوبية، وهى معروفة باسم "مذابح الصحراء" (الشكلان 89 و91)[41]. وفى المرحلة الأخيرة منها ظهرت منطقة صحراوية مساحتها على وجه التقريب ٢٥٠ × ٣٠٠ متر من الأحجار وبنيت فيها مجموعة من ثلاثة مبانى (3-1)، على محور واحد. ورقم 3 هو الأساس الطوب لمظلة تتكون من منصة يتم بلوغها بطريق صاعد. ويمثل المخطط الداخلى المعقد نمطاً من الأساسات لصفوف من الأعمدة المقامة على قمة المنصة، مما يبين أن المبنى كان مسقوفاً، وكان الكثير منها يضم كذلك نواة داخلية من الغرف ذات الحوائط أو الأعمدة. والمبنى 2 عبارة عن مجموعة من ثلاث «شماسى»، الشمسية الوسطى منها أعيد بناؤها فى مرحلة ما، وبذلك استعيض عن مائدة القرابين الرئيسية الوحيدة باثنتين. وكان المبنى 1 منصة أخرى يتم بلوغها بطرق صاعدة، إلا أن المنصة فى هذه المرة تركت مفتوحة للسماء. وفى الوسط منخفض مربع مبطن بالطوب ، ربما يحدد الموضع الأصلى لحجر كان موجوداً (حجر بن بن؟) وأزيل فى زمن قديم.

والمبنيان 2 و3 فى سياقهما الذى يشبه ساحة استعراض يبدوان إلى حد كبير مثل المنظر الذى فى مقبرة حويا. صحيح أنه ليس هناك ما يقابل السياجين اللذين بداخلهما مؤن الطعام ولا يظهر المبنى 1، ولكن من المحتمل أن الموقع شهد المزيد من الاستخدام أزيل خلاله المبنى 3، كما يعتقد من قاموا بالحفائر. ولذلك يمكن أن يكون المبنى 1 قد شيد لغرض ما بعد استقبال العام الثانى عشر، وهو الغرض الذى شهد تعديل «الشمسية» الرئيسية. وحينئذ أصبح الموقع برمته أشبه بملكاتا على نطاق أصغر، أى حلبة للعمارة الاحتفالية لزمن قصير.

وكان الانتظار الطويل فى الشمس محنة بالنسبة للمبعوثين المجتمعين من خارج البلاد. ومن إحدى هذه المناسبات فى وقت لاحق اشتكى ممثلو ملك آشور،

آشورأوباليت الأول، من ذلك لسيدهم الذى أرسل بعد ذلك شكواهم إلى إخناتون وبلغة فيه سخرية:

لما يترك مبعوثي واقفين تحت الشمس؟ إنهم سيموتون تحت الشمس. إذا كان يفيد الملك أن يقف تحت الشمس، فليقف إذن تحت الشمس بمفرده، وليمت هو. وحينئذ ستكون هناك فائدة للملك[42]!

ولكن كما تبين مناظر المقابر بوضوح، فإن إخناتون كان يحمى نفسه من التعرض لفترات طويلة لأشعة إلهه بالشماسى والمظلات.

ومع ذلك ، ما زلنا أمام فجوة مهمة بين سخاء الطقوس اليومى والاحتفالات الكبيرة التى تقام من حين لآخر. وإذا كانت هناك احتفالات دورية على مدار العام، فلا يمكن أن نشك فى أنها كانت تركز على أحداث فى حياة الملك وعائلته.

أركيولوجيا المؤسسات الموجودة فى العمارنة

كانت اهتمامات إخناتون موجهة نحو الأهداف الفكرية والأيديولوجية. ومع أن النتائج السياسية كانت تأتى فى أعقابها، ولابد أن مجموعة من المؤسسات - وهى المعابد - كانت ممزقة شر ممزق، فليس من دليل على أنه حاول تغيير طبيعة الدولة نفسها، أو طبيعة المجتمع المصرى. ولدينا مصادر كثيرة لما قامت به الدولة فى الدولة الحديثة. ولدينا فى العمارنة صورة مادية، عبارة عن مسرح ضخم، لما قد يعنيه هذا على أرض الواقع.

وتكمن وراء الأدلة الخاصة بالقصور وجولات العربات الحربية أمر عام مهم بشأن مضمون الحكم الملكى: وهو الفصل المادى وكذلك الرمزى للملك وعائلته عن العالم الخارجى. فقد كانوا يقيمون بعيداً فى الشمال فى القصر المحصن الكبير الواقع شمالى المدينة، حيث يخرجون - ولا علم لنا بعدد المرات ولا بانتظامها - ليهبطوا فى موكب فخيم إلى دار الملك فى المدينة الوسطى. وكانت تلك قاعدتهم لممارسة شعائر العبادة فى المعبد، ومقابلة كبار الموظفين ومكافأتهم، وإقامة الاستعراضات. وكانت دار

الملك المكان الذى يتم فيه الاتصال المباشر الروتينى بين الوزراء العاملين.وكان كثيرون من هؤلاء يقيمون على مسافة تكاد تكون مساوية فى الاتجاه الآخر. وكان الوزير نخت على سبيل المثال يقيم على مسافة كيلومترين تقريباً إلى الجنوب، وكانت بعض المنازل الأخرى من أكبر الأحجام تقع بعد ذلك. ومن المثير للاهتمام فى هذا الخصوص أن نلاحظ أنه حتى هؤلاء المسئولين الأقرب للملك - وهم هؤلاء أصحاب المقابر المنقوشة - كانوا لا يزالون يصورون اتصالهم الرئيسى به على أنه يتم فى دار الملك.

وكانت دار الملك تقع فى قلب مجمع مبانى كانت مخصصة للأعمال الدنيوية التى كان الملك مضطراً للقيام بها (انظر الشكل 89). وكانت الرابطة الإدارية تربط هذه المبانى بدار الملك مما جعلها تشكل أجزاء من «قصر» أكبر حجماً، رغم عدم وجود اعتراف معمارى لوحدة الغرض الأساسية هذه. ولم يكن هناك سور يحيط بها ويربطها ببعضها . وكانت تقع خلف دار الملك مباشرة مجموعة متواضعة من المكاتب الصغيرة، وكان الغرض منها حفظ الأرشيفات وإقامة موظفى تلك الإدارات التى كانت تعمل مباشرة تحت إمرة الملك. وفيما عدا حالتين اثنتين، فإن ما نعرفه بالتفصيل عن أى الإدارات كانت تشغل أى المكاتب قليل. وأحد الاستثناءات هو «مكتب مراسلات الفرعون». ففى أواخر القرن التاسع عشر اكتشف القرويون المحليون داخله كنزاً من الألواح الفخارية الصغيرة التى تعرف حالياً باسم رسائل العمارنة، وهى أرشيف المراسلات الدبلوماسية التى ناقشناها بإيجاز فى الفصل الخامس. والمبنى الآخر، الذى نعرف الغرض منه مما هو مطبوع على قوالب الطوب، كان يسمى «بيت الحياة». وكان المصريون القدماء يشيرون بهذا المصطلح إلى مؤسسة كانت تجرى فيها دراسة ونسخ لفائف عن الموضوعات الدينية وغيرها من الموضوعات المهمة (كالطب والفلك وغيرهما). وكان ما بها من نسخ ونصوص يجعلها مكتبة. ومن الجدير بالذكر أن إخناتون لم يتخلص من هذا المركز التقليدى للتعليم.

وكان مقر هذا الجهاز الفنى للحكم شديد التواضع. وكان جزء أكبر مما يجب مخصصاً لخدمة الجانب الوقفى للمُلك: وهو توزيع السلع والرواتب. وتتكون دار الملك من ثلاثة أجزاء رئيسية: قصر صغير، وفناء به ممر تقوم على جانبيه الأشجار بشكل منتظم، ومجموعة كبيرة من المخازن. وكانت هناك مداخل عديدة، إلا أن المداخل

الرئيسية كانت جهة الغرب إما من الطريق الملكى أو من القصر الكبير عبر كوبرى، وجهة الشمال بين زوج من الأبراج الصروح. وربما كان القصر الصغير يتكون من أكثر من طابق، وفى هذه الحالة فقدنا كل المعلومات بشأن الأجزاء العلوية التى يحتمل أن تكون أكثر خصوصية. ويبدو أن الطابق الأرضى يتكون من العديد من غرف الملابس (التى تميزها السواتر المصنوعة من الطوب)، والمخازن، وبهو كبير يقوم على أعمدة. وفى قاعة جانبية بنيت منصة على الحائط الشمالى. وعلى الجزء الخارجى من الجدار فى المكان نفسه كان السطح مزيناً ببائكة منقوشة، تصور الأسرى الأجانب المقيدين. وهذا دليل مهم، لأنه يحدد موقع شرفة الظهور التى كثيراً ما تظهر فى المقابر الصخرية الخاصة فى العمارنة، حيث لا يوجد سوى بائكة منقوشة أسفلها[43]. ولا بد أن الشرفة كانت فتحة فى الجدار تعلوها مباشرة، وكان بها جزء بارز، بحيث كانت العائلة الملكية تقف داخل الفتحة وفى الوقت نفسه على المنصة الواقعة خلفها مباشرة. وكان طقس المكافأة يتم فى الفناء الكبير، حيث كان المتلقى يدخل بين الصرحين ويتجه نحو النافذة وسط طريق تحفه الأشجار. وتركز صور الطقس على مناسبات خاصة: هدايا من الذهب وأشياء ثمينة أخرى، أو إعلان رسمى عن ترقية لمنصب أعلى (انظر الشكل 92). إلا أننا نعرف من مرسوم حورمحب، الذى تكرر ذكره فى الفصول السابقة، أن طقس المكافأة فى النافذة قد يستخدم كذلك للتوزيع المنتظم للرواتب. وكان ذلك بمثابة تعزيز طقسى متكرر وتذكرة لاعتماد كبار المسئولين على الملك. وبذلك يفسر قرب مجمع المخازن الكبير. فقد كان يستخدم لتخزين السلع كرواتب لموظفى الملك. ولا بد أن جزءاً منه، ربما جزء كبير، كان مخزن غلال. ويمكننا معرفة ذلك من الأقسام المبنية من الطوب لتخزين الغلال، وهى منسوخة بدقة فى إحدى مقابر العمارنة.

ومساحة أرضية مخزن الغلال هذا حوالى ٢٠٠٠ متر مربع، وبالتالى حوالى ربع مساحة مخزن الغلال بالرمسيوم الذى تناولناه فى الفصل الخامس، إلا أنه قادر على تخزين الغلال لإطعام عدة آلاف من البشر، وإن كانوا لا يزالون مجرد جزء من الإجمالى المحتمل لعدد السكان. ويرتبط مقدار عظم العدد بما أشارت إليها سجلات مخابز قصر منف الخاص بسيتى الأول، التى جاء ذكرها كذلك فى الفصل الخامس. وتبرز هنا مشكلة صغيرة مثيرة للاهتمام. ففى أفضل مجتمعات العصر تسجيلاً، وهى

قرية دير المدينة، كان العمال يتلقون أجورهم غلالاً، وكانوا يستخدمون الغلال كوسيلة للمقايضة. إلا أن السجلات الخاصة بتوزيع الرواتب على نطاق واسع، بعضها من القصور والمعابد الكبرى تحت عنوان "قرابين"، كانت تضم الخبز والجعة باعتبارهما الشكل الذى كانت توزع به الغلال. وليس معروفاً الأساس الذى كان يتخذ عليه قرار تفضيل أرغفة الخبز على أكياس الغلال. ربما كان الخبز يحجز للرواتب الإضافية أو قصيرة الأجل وليس للإعالة التامة والدائمة التى تدفع على مدار السنة. إلا أن تفضيل المعابد للخبز والجعة يشير إلى فجوة مثيرة للاهتمام فى الأدلة. فحتى فى حال وجود تصميمات المعابد بحالة جيدة (كما فى الرمسيوم)، ليس هناك وجود لفرن رغم الآثار شديدة الوضوح التى خلفتها المخابز القديمة: وهى العديد من الأفران، وبقايا الرماد، وكميات كبيرة من قوالب الخبز المحطمة. وربما تفسر طبيعة مثل هذه البقايا غياب الأفران. فقد كانت الأفران أماكن يصدر عنها دخان، وتنتج السخام والرماد والشقف، وكان من الأفضل الإبقاء عليها خارج الحرم المقدس. ولذلك فلا بد أنه كان فى مكان ما من بالقرب من الرمسيوم، ولكن خارج السياج المسور، مخبز ومعمل للجعة كبيران لم يكتشفا حتى الآن.

غير أنه فى العمارنة، حيث سهولة الوصول إلى الأرض خارج سياج المعبد بنفس القدر من سهولة الوصول إلى الأرض داخله، كشفت الحفائر عن مخبزين مؤسسيين كبيرين. وكانا يشغلان مجموعات من الغرف المتوازية الضيقة، التى تقع على مقربة من جدران السياج الجنوبية لمعبدى آتون (الشكل 96)[44]. وكانت كل غرفة وحدة خبيز مستقلة، حيث تحتوى فى مؤخرتها على فرن واحد مستدير الشكل أو أكثر من التصميم المنزلى القياسى. وكان هناك العديد من الصوامع المصنوعة من الطوب المتراصة على الجدران. وبلغ إجمالى عدد غرف الخبيز فى المخبز المجاور لمعبد آتون الكبير ما يربو على المائة. وتفاصيل ما كان يجرى فى الداخل مرسومة على واحد من أحجار هرموبوليس (الشكل 96)، وهو يصور جزءاً من أحد المخابز. من أحد جانبى الفناء تنفتح غرفتان. وربما كان التقويس الذى فى الأعلى يصور سقفاً مقبياً. وفى كل غرفة رجل يرعى فرناً. وخلف الرجل الذى على اليسار أرغفة مستديرة مسطحة مرصوصة على طاولة، بينما تحمل الطاولة التى خلف الآخر بدلاً من ذلك قوالب خبز

أسطوانية طويلة. وهذا يعكس الطريقتين المصريتين الأساسيتين لصنع الخبز: وهما الأرغفة المسطحة المخبوزة على أقراص مستديرة من الطين،(*) والأرغفة الرفيعة الطويلة المخبوزة داخل قوالب فخارية أسطوانية. وكسر عشرات الآلاف من هذه القوالب ليس مكوماً في الصحراء خلف مخبز العمارنة المركزي وحسب، بل يبدو من الكثرة بحيث يغطى غرف الخبيز كذلك.

والقوالب الفخارية نمط مميز يسهل التعرف عليه وسط مجموعة من النفايات القديمة. إلا أن دراسة أجريت على الفخار الذى عثر عليه في الحفائر الضخمة بالعمارنة تكشف أن توزيعه كان غير متساو بصورة كبيرة. فقد كان نادراً في المناطق السكنية، وشائعاً حول المخابز المركزية. فما هو الشيء الذى كانت تختص به الأرغفة المخبوزة في القوالب؟ بحلول الدولة الحديثة، يبدو أنها كانت تدل على معنى المناسبة، وخاصة في المناسبات الدينية. وربما أنه ليس من قبيل الصدفة أنه في كلتا الحالتين لم تكن مجمعات الأفران هذه ملحقة بمنطقة الملك الخاصة وحسب، بل كذلك بمعابد آتون. وكانت تلك المعابد تمتلك من الناحية الاسمية قطعة الأرض التى كانت توفر نواة طعام المدينة. ومع ذلك فإنه على العكس من معابد الدولة الحديثة المعتادة، لم تبن مخازن غلال داخل حرمها. ومخزن الغلال الكبير الذى يمكن تحديده على وجه الدقة في المدينة الوسطى هو ذلك الخاص بدار الملك. ويشير هذا إلى سيطرة ملكية مباشرة جداً على ثروة المعابد، وهو أمر يتسق مع المضمون العام لعهد إخناتون. فقد كانت معابد آتون إبداعاته شديدة الشخصية، ومن الواضح أنها كانت امتداداً لمنطقة القصر. وهو ما يدل عليه تخطيط المدينة الوسطى.

ويكشف شكل هذه المخابز إلى حد كبير المنهج المصرى في التنظيم. وهنا كان تحد كبير: فكيف يمكن خبيز الخبز بكميات صناعية؟ وربما كانت المقاربة الحديثة هى إعادة التفكير في تنظيم العملية برمتها وإعادة تصميم الأفران بزيادة سعتها، وذلك لكى تتحسن نسبة عدد الأرغفة إلى القوى العاملة. وهذه هى عقلية «الإنتاجية» و«الكفاءة». لقد كان الحل المصرى مختلفاً إلى حد كبير. فهو لم يكن سوى تكرار، مرات ومرات، للمطبخ المنزلى الأساسى إلى أن يتم بلوغ الطاقة الإنتاجية المطلوبة. ومن

(*) ماتزال هذه الأقراص مستخدمه حالياً في الصعيد لصنع مايعرف بالخبز الشمسى . (المترجم)

المفترض أن هذا كان يشمل كذلك مضاعفة عدد الأشخاص المطلوبين، وكانوا يقسمون إلى فرق بحسب عدد الغرف، وكان لكل غرفة مشرف، وكانوا جميعاً يعملون تحت مسئولية أحد الموظفين. ويبدو أن هذا كذلك كان النظام الذى وراء سجلات المخابز التى عثر عليها فى منف من عهد سيتى الأول، بعد أقل من خمسين سنة، وسبقت مناقشتها فى الفصل الخامس[5] . وهناك كانت مسئولية الخبيز فى يد عمدة منف. ومن الجدير بالذكر أن العمارنة كان لها هى الأخرى عمدتها، وإن كان موقع منزله غير معروف، بينما تم التعرف على مقبرته (رقم 13)[46]. وهذه المقاربة الخلوية -نسبة للخلية- لعملية واسعة النطاق تعد نموذجاً للنظام القديم برمته. فقد كان نظاماً يقوم على مورد جاهز من العمالة الرخيصة. ولهذا يمكن القول بأن المصريين كانوا فعالين إلى حد كبير فى التنظيم، فى حين لا يمكننا أن القول بأنهم كانوا أكفاء بحال من الأحوال.

ويوضح مورد الماء الخاص بالمدينة الظاهرة نفسها. فقد كان الطلب على الماء كبيراً. إذ كان لا بد أن يخدم ليس السكان ومواشيهم فحسب، بل كذلك الأشجار وغيرها من الخضرة التى كانوا يزرعونها فى حدائق المنازل الكبيرة. ومع أن المدينة كانت تقع على النيل، فقد كانت هناك منازل تقع على مسافة منه تزيد على الكيلومتر، ولذلك كان يوفر لها مورد ماء مستقل من خلال ما يخرج من الآبار العديدة، وإن كان بعضها يقع على مسافة ٣٥٠ متراً فقط من الخط المحتمل لشاطئ النهر القديم. وما نعانى منه من نقص عام لمواقع المدن والبلدات المصرية التى كشفتها الحفائر يجعل المقارنة صعبة، غير أن ما هو موجود من أدلة لا يشبه العمارنة فى عدد آبارها. ولا بد أن بلدة كاهون الكبيرة بكاملها، على سبيل المثال، كانت تمد بالماء المحمول من مصدر خارج أسوار البلدة. ويبدو أن ملكاتا ودير البلاص ومدينة الغراب ينطبق عليها الشىء نفسه. وبالمثل كان على دير المدينة أن تعتمد على الماء المجلوب على الحمير، وإن كانت هناك محاولات فى الأسرة العشرين لعلاج هذا عن طريق حفر بئر مستطيلة بها درج متصل بجوار القرية، وكانت تصل لعمق مدهش مقداره ٥٢ متراً[47]. والكثافة الفريدة فى عدد الآبار فى العمارنة قد تمثل خطة أخرى من خطط إخناتون المبتكرة، وهى فى هذه الحالة لتزويد مدينته الجديدة بمصدر للماء مستقل عن النيل.

وكان لتصميم الآبار – تلك الكبيرة التى فى المراكز الإدارية، أو الصغيرة التى فى الضياع الخاصة، أو الآبار العامة الواقعة بين بيوت الفقراء – ملمح مشترك ملحوظ.

فقد اعتمدت على حمل الإنسان للماء فى جزء من عمقها. فيبدو أنه كان ينظر إليها على أنها حفر ماء شديدة الغور. وكانت المسافة الرأسية للماء الذى يرفع بواسطة الحبل والدلو، أو باستخدام الشادوف كما فى حالة الآبار الإدارية الكبيرة، يُبقى عليها منخفضة بقدر الإمكان ، وذلك بحفر فوهة البئر نفسها فى الأرض بحيث يجب بلوغها بالنزول على درج حلزونى فى حفرة دائرية كبيرة. ويمكن رؤية بعض النماذج المرممة فى الشكل 98 .

وأظهرت بئر إدارية كبيرة كشفت عنها الحفائر سنة ١٩٨٧ مشكلة فنية خطيرة كانت تواجه حافرو الآبار، على الأقل فى هذا المثال[48]. احفر فى الصحراء فى العمارنة وسوف تجد أن الطبقة الرقيقة من الرمل والحصى السطحى تغطى طبقة أسفلها من المرل الصلب. استمر فى الحفر لأسفل فى هذه الطبقة وستصل فى النهاية إلى طبقة كثيفة من الرمل الرمادى الفاتح الناعم. وهذه هى الطبقة الحاملة للماء العذب. وعند هذه النقطة على وجه التحديد.كان الماء يبدأ على عمق سبعة أمتار تقريباً تحت السطح. وكان الرمل من النعومة بحيث ينهال بمجرد كشفه. وقد يستهدف أى حل عصرى بئرا ضيقة مبطنة بمادة صلبة جيدة، كالحجر أو الطوب المحروق، ورفع الماء بالحبال وربما بآلة رفع توفر العمالة. أما الحل القديم فلم يعر أى اهتمام للعمالة، كما بينا منذ قليل. فكان الماء يرفع بالحمالين الذين كانوا يصعدون به فى أوانى فخارية على أكتافهم. ولذلك كانت البئر فى معظم عمقها حفرة مفتوحة، اتساعها ٩ أمتار مربعة، وبها طريق صاعد منحدر. وفوق طبقة الرمل الناعم الحاملة للماء مباشرة كانت الحفرة تضيق لتصبح بئراً، وكانت الوسيلة الوحيدة المستخدمة لمنع انهيارها هى تلييس الجوانب بطبقة غير منتظمة من الطفلة والرمل. ولم تكن هذه الطريقة فعالة إلى حد كبير، ولا بد أنهم كانوا يرونها كذلك. وكان الفرق بين اتساع البئر واتساع الجزء العلوى يسمح بالانهيال التدريجى للبئر، وبالتالى اتساعها التدريجى حتى تبدأ فى تقويض الحوائط الصخرية للجزء العلوى. وعند هذه النقطة تكون البئر قد أصبحت أشد خطورة بكثير وقد تجب مغادرتها فى نهاية الأمر. وبانتهاء عصر العمارنة كانت هذه البئر العينة تقترب من هذه النقطة.

وكانت دار الملك مركز الاستهلاك المظهرى المتسم بالبذخ بالنسبة لكثير من المسئولين. وكان معظم ما يتلقونه هنا يأخذونه معهم إلى بيوتهم، إلا أنه ما تزال هناك

بقايا متراكمة من القمامة الأكثر ثراء من المعتاد. وكان المكان الرئيسى للنفايات قطعة أرض فضاء على حافة المدينة الوسطى، بجوار مركز الشرطة الرئيسى[49]. وعندما فحصها فلتشر بترى سنة ١٨٩٢ وجد أنها غنية بخواتم مزججة محطمة تحمل خراطيش الملوك وشظايا زجاجات صغيرة مصنوعة من الزجاج الملون، وكانت تضم كذلك أعداداً كبيرة من الجرار الفخارية المحطمة المستوردة من بحر إيجة أو شرق المتوسط، وكان التصميم الأصلى من مسيني. وهى كواردات ربما كانت تحتوى زيتاً.

ومناظر حياة الملك العامة التى تغلب على نقوش المقابر الصخرية تخصص مكاناً بارزاً للجندية. فحيثما ذهب الملك نرى فرقاً من وحدات الجيش المصرية أو الأجنبية. وهذا يتماشى مع العنصر العسكرى القوى فى مجتمع الدولة الحديثة، كما يتناسب مع العبارات التى جاءت فى مرسوم حورمحب، حيث يشار إلى التغيير الدائم للحرس الملكى. ومع ذلك فإنه فى تخطيط المدينة تغيب العمارة العسكرية غياباً ملحوظاً. وكان القصر النهرى الشمالى يبدو من الخارج كحصن حربى كبير، وربما أمكننا التعرف فى الأجزاء الخارجية على الخطوط العامة لثكنات تخص حرس الملك. إلا أنه لا وجود لشىء كهذا فى المدينة الوسطى داخل المناطق السكنية. والشىء الذى نجده على الحافة الشرقية القصوى من المدينة الوسطى هو مجموعة من المبانى من الواضح أنها كانت لقوة من الرجال والعربات الحربية، حيث كانت الخيول توضع فى مجموعة من الإسطبلات ذات الأرضيات المرصوفة بالحصى، والمذاود ، ومرابط الخيل. إلا أن المبانى ظلت من الناحية الخارجية عادية وغير محصنة. وتخبرنا مقبرة مَحو - رئيس شرطة ميجاي - أن الأمن فى المدينة كانت تحفظه قوة من الشرطة مزودة بعربات حربية منفصلة عن الجيش المعتاد[50]. ولا بد أن هناك احتمالاً قوياً بأن تلك المبانى كانت مقر الميجاي. وكان مركز للشرطة أصغر حجماً يقع فى الصحراء خلف الحى الجنوبى، وكان كذلك بدون أية مظاهر للتحصين[51].

ويمكننا أن نستنتج من الأدلة المنتشرة فى العمارنة أنه رغم أن الجيش كان يشكل جزءاً من الحاجز الذى يفصل بين الملك والعالم الخارجى، ومع أن الملك كان يتنقل بصورة عامة كجزء من فرقة عسكرية وكان يرى العالم تحيط به رماح الجنود مثلما تحيط به أشعة آتون، فلم تكن العسكرية والصلة بالجيش جزءاً من التجربة المعتادة

لحياة المدينة فى الدولة الحديثة. ربما كان للمرء جاره الضابط فى الجيش، ولكنه كان فى منزله يحيا حياة مدنية (انظر مخطط الأحياء، الشكل 97).

وتعتمد الصورة التى لدينا عن المدينة الوسطى اعتماداً كبيراً على الحفائر التى أجريت فى الثلاثينيات. إلا أنه رغم إجرائها على نطاق واسع فهى لم تستنفد بحال من الأحوال من الأرض التى تغطيها المبانى "الرسمية". وقد استمرت هذه المبانى لمسافة كبيرة على جانبى الامتداد الجنوبى من الطريق الملكى. ومع أنها لم تُجر بها حفائر فى العصور الحديثة فإن خطوطها العامة واضحة على الخرائط القديمة، وفى الصور الملتقطة من الجو، وللعين الفاحصة فى الوقت الراهن. وهى تبدو فى بادئ الأمر مخازن، وربما مخازن غلال[52]. وبينما يمكن لتلك المحيطة بدار الملك أن تكون متناسبة مع وظيفة إعادة توزيع الثروة الخاصة بنظام المُلك فى المجتمع المصرى، فإن سياق هذه المجموعة من المبانى، وبالتالى مدلولها، غير معروفين إلى حد كبير. وعند هذا الحد تكون صورتنا عن المدينة غير مكتملة.

حياة الضواحى

كان معظم سكان العمارنة يقيمون فى منطقتين سكنيتين كبيرتين شمالى المدينة الوسطى وجنوبها: وهما الضاحية الشمالية والمدينة الرئيسية. وكانت الدولة الوسطى قد شهدت نمو تراث فى مصر خاص بالتخطيط المتقاطع البسيط، وطبق على شوارع ومنازل مستعمرات بلغ حجمها البلدات المكتملة. إلا أنه فى الدولة الحديثة فقدت فكرة التخطيط الشامل جاذبيتها. وقد رأينا ذلك بالفعل، فى طيبة، فى المقارنة بين التخطيط المتماثل الجامد للمعابد الفردية وعلاقاتها المتبادلة الطارئة التى كانت تخفيها طرق المواكب التى تربط بينها. وفى العمارنة، خارج ممر المبانى الملكية، تلاشى التخطيط بالمرة. وبدلاً من التصميم الموحد ، نجد بعض الشوارع العريضة غير المستقيمة الممتدة بصورة أو بأخرى بمحاذاة النيل لتربط الضواحى بالمركز، بينما تتقاطع عليها شوارع أضيق بزوايا مستقيمة. والانطباع الغالب هو أنها سلسلة من القرى المتصلة ببعضها. وتتداخل مخططات المنازل الفردية فى أنماط معقدة، مما يخلق أحياء مميزة (الشكلان 97 و98). وفى بعض الأحيان تكون هناك مجموعات من المنازل الكبيرة

والصغيرة، إلا أن النمطين يختلطان اختلاطاً شديداً فى كثير من الأحيان. وفيهما كان يعيش الأغنياء والفقراء جنباً إلى جنب. وكان هناك مفهوم بسيط عن الموقع المتاز، إضافة إلى أن تطل الواجهة على أحد الطرق الشمالية الجنوبية الرئيسية. وبصورة استثنائية فى المدينة الشمالية، كانت مجموعة من المنازل الكبيرة بصورة غير عادية تقع بجوار القصر الرئيسى (القصر النهرى الشمالى)، ومن هذا نخمن أنها كانت تأوى أناساً على صلة وثيقة بالملك. غير أنه من ناحية أخرى يبدو أن القرب من المدينة الوسطى أو من الطريق الملكى كان يتمتع بجاذبية قليلة أو لم تكن له أية جاذبية بالمرة. وقد أشرنا من قبل إلى أن أحد أكبر موظفى الملك، وهو الوزير نَخت، كان يكاد يقيم أبعد ما يمكنه عن الملك. وكان منزل بانحسى كبير الكهنة (وهو أحد القلة ذات الحظوة التى لها مقبرة كبيرة فى المجموعة الشمالية وكذلك مقر رسمى بجوار معبد آتون الكبير) فى المدينة الرئيسية خلف الطريق الملكى. وكان كاهن آخر، اسمه باواح، يقيم فى منزل كبير فى وسط المدينة الرئيسية. وكانت الأعمال فى المدينة الوسطى أو مع الملك تعنى الانتقال اليومى، بالعربة. وهذا كذلك مسجل تسجيلاً أميناً فى مناظر المقابر.

ومخططات منازل العمارنة المنفردة موحدة بصورة كبيرة، بغض النظر عن الحجم[53]. ومع أنه من النادر أن نجد منزلين متطابقين، فإن العناصر نفسها كانت تتكرر باستمرار مع تركيبات تختلف اختلافاً طفيفاً (الشكل 97). والملمح الرئيسى عبارة عن غرفة معيشة مركزية مربعة. وفى أحد الأطراف كانت توجد مصطبة منخفضة من الطوب، حيث كان صاحب الدار يجلس هو وزوجته عليها لاستقبال الضيوف. وعلى حائط آخر كان فى بعض الأحيان مكان للاغتسال من الحجر المُليس. ولا بد أن عموداً خشبياً أو أكثر كان يرفع السقف بما يسمح بوضع شرفات فى الجزء الأعلى من الجدران. وفى المنازل الكبيرة كانت مثل هذه الشرفات تأخذ شكل شبيكة من الحجر. وكانت تتجمع حول الغرفة الوسطى مجموعة أخرى من الغرف: غرفة استقبال خارجية، ومخازن، والأجزاء الأكثر خصوصية الخاصة بأهل الدار. وكانت غرفة نوم رئيسية تخدم صاحب الدار، وكان بها سرير خشبى واحد فى الجزء الخلفى منها داخل مضجع مرتفع عن الأرض. وبجوارها كان هناك فى الحالات النموذجية حمام وحوض للغسيل. إلا أن التخلص من النفايات السائلة كان من أبسط ما يكون. وليس هناك أى أثر بالمرة لنظام صرف عام داخل المدينة.

وحسب علمنا كانت المنازل بها نقوش قليلة. وربما كانت الحوائط الداخلية والخارجية مليسة ومطلية بالجبس. ولكنه بخلاف هذا كانت المنازل الأكثر ثراء تحتوى فقط على مناطق محدودة جداً من الرسومات التقليدية، وهى فى أغلب الأحيان نقوش هندسية. وفيما يتعلق بأسلوب حياة من كانوا يقيمون فى هذه المنازل وأنشطتهم ، فإن علم الآثار يتلقى العون من مصادر أخرى ، منها بعض الصور القديمة (الشكلان 99 و100).

وهناك مشكلة تواجه الأثريين فى كل مكان. فإن نحن وجدنا بقايا أحد المبانى، كيف يمكننا معرفة إن كان يتكون من أكثر من طابق أم لا؟ والشيء المقبول بصفة عامة هو أن المنازل فى العمارنة كانت مكونة من طابق واحد. فالنوافذ الواقعة أسفل أسقف الغرفة الوسطى المرفوعة تضمن هذا بالنسبة للجزء الأوسط. إلا أن منازل كثيرة كان بها كذلك درج سلم داخلى. والمفترض عامة أن هذا الدرج كان يؤدى إلى السطح وحسب، وهى منطقة مفيدة بالنسبة للتخزين والنوم صيفاً، فيما عدا حالة المنازل الكبيرة التى ربما كانت بها غرفة علوية مقامة على الجزء الأمامى من المنزل. وكان هذا يوفر قدراً أكبر من الخصوصية لعالم النساء السلوكى. إلا أن الحفائر التى أجريت مؤخراً فى قرية العمال أظهرت أن هذه الغرفة العلوية ربما كانت أكثر انتشاراً[54]. وهى النقطة التى ينبغى أن توضحها الحفائر التى تجرى فى المستقبل.

ويقوم المنزل النموذجى داخل أراضيه محاطاً بسور يمكن أن يصل ارتفاعه إلى ٣ أمتار، ويتميز مدخله الرئيسى بجدارين بارزين منخفضين كانا يرشدان العربات فى الدخول بزوايا مستقيمة، وكانا بذلك يمنعان الأطراف البارزة من المحاور من الاحتكاك بدعامتى الباب. ويقف الترتيب الفضفاض للعناصر على طرف نقيض من مكانها المرتب بعناية فى تخطيطات الدولة الوسطى الرسمية التى ناقشناها فى الفصل الرابع واتخذنا كاهون مثالاً لها. ولاتزال تفاصيل كثيرة للاستخدام غير واضحة ولكن الخطوط العامة واضحة بعض الشيء. وقائمة العناصر الأساسية هى:

١ - مخازن الغلال: وكانت طبقاً لسعة منفردة معينة عبارة عن أبنية مرتفعة ومستديرة من الطوب، وكان قطرها حوالى 2.5 متر فى المتوسط، وكان أعلاها مقبب (اللوحة 11). وكانت الغلال الرئيسية هى القمح والشعير، وكانت تصب من أعلى

وتسحب من خلال باب قلاب فى أسفلها. إلا أنه عندما تكون هناك زيادة عن حجم معين كان يستعاض عنها بغرف طويلة ذات أسقف مقبية من ذلك النوع الذى يشكل أساس "المخازن". وبما أن سلعاً أخرى كانت تخزن بها، فحينئذ يصبح فى تقدير سعة الغلال قدر أكبر بكثير من المخاطرة.

٢ – حظائر الحيوانات: وهى تحدد عموماً بأنها زرائب ذات أسقف تقوم على عدة أعمدة من الطوب.

٣ – بـــئر.

٤ – حديقة ذات أشجار، من المفترض أنها كانت من أجل الخضروات والزهور.

٥ – المطابخ: غالباً ما كانت تقع فى الطرف الجنوبى، فى اتجاه الرياح الشمالية السائدة، وهو ما كان يقلل ما يسببه الدخان من إزعاج (ما عدا بالنسبة للجيران). وكانت مسائل بسيطة: مجموعات صغيرة من الأفران المستديرة المصنوعة من الطفلة المستخدمة فى المقام الأول لخبيز الخبز. وعند إعداد الوجبات المطهوة كانت تستخدم مواقد مفتوحة، ومرة أخرى كانت خارج المنزل، حيث إنه من المحتمل أن الطهو كان يتم فى قصاع من البرونز أو النحاس.

٦ – سقائف وسياجات لأغراض غير مؤكدة، وإن كان من الممكن فى بعض الحالات استخدامها لأنشطة حرفية. وكان المثالون، الذين يسهل على الأثريون التعرف على نفاياتهم، مجموعة من الناس تقع ورشهم داخل مجمعات منازلهم أو بجوارها.

٧ – مقصورة، وكانت فى منازل الأكثر ثراء تقع فى مكانها المنسق بطريقة منظمة مع بحيرة للزينة ومدخل صرح منفصل يؤدى للشارع.

٨ – مكان منفصل للمعيشة، ويشمل مسكن البواب عند البوابة، ولكن الأكثر أهمية هو منزل منفصل. وتظل مسألة من كان يشغل هذا المنزل غامضة: هل هو ناظر الأملاك، أم ابن متزوج، أم الخدم؟

وتتميز منازل الأغنياء عن منازل الفقراء بحجمها أكثر من تصميمها، وإن كانت المنازل الأكبر حجماً لها ملامحها، مثل المدخل المظلل، وهى ما كانت تدل فى حد ذاتها على المنزلة والمكانة. فإذا أخذنا حجم منزل شخص ما على أنه مقياس تقريبى لمكانته

فى المجتمع، فإن انتشار أحجام المنازل يمثل صورة عامة لنوعية المجتمع الذى نتعامل معه.[55] والطريقة السهلة لرؤية مقدار البيانات بالكامل هى أن تكون فى صورة جداول (الشكل 101). ومع أن هناك بعض الفواصل والفجوات، فإن النمط العام للبيانات يتفق مع منحنى واحد فيه المنازل الكبيرة تصبح أكثر ندرة باطراد، بعد نقطة من الإسكان الأساسى جداً. وليست هناك انكسارات أو خطوط مستوية واضحة. وإذا تذكرنا أن هذا كان زمن الرفاهية القومية الكبرى، فإن الهوة التى بين الأغنياء والفقراء فى هذا الخصوص لم تكن كبيرة كما قد نتوقع. إذ كان الأغنياء وأصحاب النفوذ يعيشون فى منازل كبيرة، وليس فى قصور. وكانت الهوة الكبيرة بين الملك وكل من عداه.

وخرائط المدينة التى تحدد الأسوار والفراغات على هيئة خطوط سوداء وخلفية بيضاء تخلق أثراً علمياً يمكن أن يكون مضللاً. وكذلك الحال بالنسبة للرسومات التى تعيد بناء العمارنة وتحيلها إلى ضاحية بهيجة عامرة بالحدائق. وللحصول على انطباع حقيقى لما كان عليه الحال هناك، لا بد أن نبدأ بعمل سجل لإجمالى مخلفات النشاط الإنسانى. والشكل 102 قطاع صغير من مخطط حديث يهدف إلى عمل ذلك وحسب. وهو يبين قطاعاً من المدينة قبل الحفائر، وإن كانت بعض الأجزاء قد عبث بها من خلال المجسات التى يقوم بها صائدو الكنوز فى القرن الماضى. فالسطح متموج، مما يجعله يشكل نمطاً معقداً من المرتفعات والمنخفضات، التى تمثلها هنا خطوط المناسيب. وعند السير لأول مرة على الأرض فإن أثر ذلك يحدث تشويشاً كبيراً. إلا أن القدر الأكبر من الألفة يؤدى إلى شىء من الفهم، وخاصة بسبب التنويعات الغامضة فى تركيب السطح. فهذه التنويعات تمكننا من التمييز بين أكوام الركام والرمال التى تغطى المنازل التى لم تجر بها حفائر، وتلك التى هى بقايا أكوام نفايات قديمة. فالثانية مظللة فى الشكل 102. ولا بد أن نقبل بانتشارها فى الثلاثة آلاف سنة التى انقضت منذ تكونها، وكذلك نقص بعض الحجم، حيث إن الرمال والأتربة قد حملتها الرياح بعيداً. وحينئذ نبقى مع صورة من الأكوام البارزة من النفايات المنزلية التى تكونت بصورة أو بأخرى فى كل مساحة مكشوفة متاحة خارج المجمعات المسورة لميسورى الحال، بعيداً عن الطرق الشمالية الجنوبية العريضة. وهى تظهر بوضوح بالقرب من الآبار العامة، ولابد أنها حدت من القدرة على بلوغ المنازل الصغيرة وصولاً إلى الممرات الضيقة التى

كانت تخترقها. كما أنها ربما تفسد الصورة التى رسمناها لمدينة إخناتون، ولكن لا ينبغى أن نعيرها أى اهتمام. فقد قبلها قاطنوها الأصليون (الذين ربما حملوا نفاياتهم إلى مكان أبعد) وهى ذات أهمية كبيرة بالنسبة للأثرى. وفى عصور علم الآثار السابقة كانوا يقومون بحفائر المنازل فى العمارنة أملاً فى العثور على الأشياء التى خلفها قاطنوها الأصليون. وكانت النتائج فى كثير من الأحيان مخيبة للآمال، لسببين. السبب الأول هو أن المدينة لم تهجر على عجل شديد: إذ يبدو أن الناس كان لديهم الوقت الكافى لحزم أمتعتهم؛ أما الثانى فهو أن المصريين فى أى الأحوال كانوا معتادين على كنس منازلهم والتخلص من النفايات بانتظام. غير أن ما كانوا يكنسونه لم يكونوا يحملونه إلى مكان بعيد. ويشمل الشكل 102 جزء من منزل كبير ومجمع خاص بأحد كبار المسئولين فى العمارنة (Q46.1) وكانت البوابة الكبيرة تقع إلى الشرق ، حيث تنفتح على الطريق الرئيسى؛ وكانت البوابة الخلفية تطل على منطقة صغيرة من أرض النفايات. وفى جانب واحد فقط هناك كوم نفايات واحد، وكان فى الأصل يرتكز على سور المجمع. ومن المغرى جداً تعريف هذا الكوم على أنه كوم النفايات الرئيسى الخاص بالبيت الكبير. وقد أجريت الحفائر فى البيت الكبير سنة 1914، وما زال كوم النفايات لم يحفر. وإذا أردنا استكمال سجلنا عما خلّفه قاطنو البيت، فلا بد أن نحفر فى هذا المكان كذلك.

خلع إخناتون عباءة الديانة المؤسساتية، حيث ترك بقيامه بذلك أصول العقيدة العامة فى العراء لفترة قصيرة. وفى ظل هذه الظروف الفريدة يمكننا أن نكتشف الطريقة التى كان الناس يستجيبون بها، خلال عهد إخناتون، ولفترة قصيرة بعد ذلك فى عهد توت عنخ آمون، عندما ظلوا يقيمون فى أجزاء كبيرة من المدينة وكانت الأخطار التى تعرض لها النظام القديم قد زالت. وكما رأينا فقد حققت عبادة الملك نجاحاً، فى الحدائق الخلفية. ومن كان بمقدورهم عمل حديقة مسورة كانوا فى كثير من الأحيان يضعون فيها مقصورة صغيرة للعائلة الملكية. ولكننا لا نعلم كيفية استغلال السكان لها ولا ما الذى كانت تمثله لهم من الناحية العاطفية. ربما كانت أكثر من تملق أو تعبير فارغ عن النفعية، ذلك أنه فى عصر الرعامسة، الذى جاء بعد ذلك، بلغت عبادة التماثيل الملكية التى يرعاها المسئولون ذروتها[56]. وعلاوة على ذلك لا يبدو أن تماثيل إخناتون

فى مقاصير الحدائق الخاصة كانت بالأسلوب الكاريكاتيرى الذى كانت تفضله المبانى الملكية. وكان إخناتون يتحكم فى المصدر القوى والحقيقى للسلطة. فقد كان الفرعون على الدوام إلهاً، وربما وجدت الصورة الملكية الجديدة هدفاً عاطفياً جديداً. وكذلك الحال بالنسبة لآتون. ولعدم وجود أدلة، ونتيجة لفشل أفكار إخناتون فى أن تبقى بعد وفاته، فمن السهل استنتاج أن عبادة آتون كانت لها تبعية شعبية قليلة. ومع ذلك فإنه وسط هذه الصورة السلبية يقف خطابان كتبهما على البردى موظف صغير من العمارنة إلى أقاربه بشأن مسائل شديدة الخصوصية. وفيهما كان آتون يستخدم بكثرة بصفته مانح النعم والبركات، تماماً مثلما كان آمون وغيره من الآلهة فى رسائل العصور الأخرى[57]. ولو كان التاريخ اتخذ مساراً مختلفاً واستبقى الملوك اللاحقون عبادة آتون، لأمكننا بناء على أدلة كهذه أن آتون كان من الممكن أن يصبح بمرور الوقت أحد الجوانب الشعبية بحق.

وكما رأينا فى الفصل الخامس، كان للمعابد التقليدية مقاصير هامشية صغيرة خارج الأسوار حيث كان يمكن لمن ليسوا من الكهنة أن يتصلوا بأحد المعبودات الكبرى وأن يتركوا قرباناً نذرياً. وكان ذلك يلبى دوافع التدين، وفى الوقت نفسه إذا كانت الهبة تمثالاً أو ما شابه ذلك، كان يصبح بلاغاً عن قدرة المرء على السيطرة على مثل هذا الشىء وبالتالى يعزز مكانته فى المجتمع. ومن الصعب التعرف على ما يماثل ذلك فى معبد آتون، غير أنه من المؤكد أن فرصة هبات المعبد الخاصة ظلت قائمة. وأحسن ما يوضح ذلك مجموعة من الأوانى البرونزية التى اكتشفت فى معبد آتون الكبير. وكان أحدها قد أهداه ضابط من الجيش، وهو "حامل لواء" اسمه رعموسى[58]. وكان المضمون العام لديانة إخناتون هو أن الملك يمثل مركز الصلاة، وفى المعبد المقام لتمثال الملك (R43.2) على حافة المدينة الوسطى، لدينا مكان محتمل لهذا المستوى من العبادة (انظر الشكل 95). إلا أنه كانت هناك مراكز أخرى للاهتمام الروحى بالحياة المصرية تعتمد اعتماداً كبيراً على الديانة المؤسساتية.

وفى قرية العمال، وهى مجتمع يرتبط ارتباطاً وثيقاً جداً بالدولة، كانت الأسر تبنى مقاصيرها خارج أسوار القرية مباشرة[59]. وبمرور الوقت كانت تصير أماكن لدفن وإحياء ذكرى أفراد الأسر المتوفين ولذا أسميناها المقابر المزارات. إلا أن وظيفتها

الأولى هى أن تكون بمثابة مراكز يتم فيها تناول الوجبات العائلية فى مناسبات بعينها فى جو هادئ وطاهر. وكان ذلك قريباً من نموذج دائم بالنسبة للمصريين بصورة عامة. وكما سنرى فى القسم التالى، ربما حافظ عدد كبير جداً من المواطنين فى العمارنة على روابط وثيقة الصلة بالبلدات والمدن الأخرى. وذلك هو الموضع الذى كانت فيه الكثير من المقابر العائلية ويتوجب علينا أن نتخيل أنه على مدار السنة كان الحج إلى مقابر الأسلاف ، لتناول وجبة خاصة من الطعام هناك ، حدثاً مرتقباً بقدر كبير من الاستمتاع. ولكن هذه ليست نهاية القصة. فكثير من مزارات قرية العمال بنيت بعد وفاة إخناتون. وشعر القرويون بحرية إحياء ذكر الآلهة التى يفضلونها. فمن اختاروا؟ الأدلة بسيطة ولكنها تتضمن إشارات قليلة إلى آمون وآمون رع فى أدعية قصيرة منقوشة على الجدران، وألواح من الحجر الجيرى للإلهة إيزيس وشِدْ "المُخَلِّص"، الذى كان يهب الحماية من الحوادث مثل لدغة العقرب. إلا أن آتون موجود كذلك وقد جرد من مكانته الفريدة، ولكن الشىء المؤكد أنهم لم يتجاهلوه.

وعموماً فإن إحدى طرق تحديد منطقة المعتقد غير الكهنوتى، أى غير الاحترافى، فى مصر القديمة هى النظر إلى مادة النذور الخاصة، التى هى نتيجة للاختيار الشخصى وتنطوى على جهد ما أو قدر من الإنفاق. وتوفر العمارنة بعض هذه المناطق، وإن لم تكن بالكميات ومناطق التركيز التى تراكمت بها فى المدن القديمة حول المعابد. وتأتى مجموعة صغيرة من الألواح من السقيفة المحيطة بإحدى المقابر الصخرية الجنوبية، وكانت تخص كاتباً يسمى آنى[60]. ومن الواضح أن المانحين كانوا أصدقاء له وشقيقه، وكان موضوع إهدائهم هو المتوفى آنى نفسه. وهى تعكس عادة قديمة للتكريم فى منطقة وسط بين احترام روح رجل حقق شهرة كبيرة فى المجتمع (أسلاف المشايخ المحدثين) وعبادتها، ومن استطاعوا أن يتعدوا ذلك ليصبحوا آلهة صغرى، مثل أمنحتب بن حابو.

وتتكون المادة النذرية المتبقية من العمارنة فى معظمها من عدد قليل متناثر من الرقائق وألواح الحجر الجيرى الصغيرة التى تحمل نقوشاً بالحبر أو الحفر البدائى[61]. وتشمل المادة أشكالاً للآلهة: الإله القرد تحوت (رب الكتابة)، وبتاح (ويرتبط بصورة خاصة بمنف)، والكبش المقدس، وتويريس (ربة الولادة)؛ وصور لعملية

جذب الاهتمام: صورة رجل يقدم القرابين أمام المذبح، ومجموعة من الآذان المرسومة بطريقة بدائية التى كانت تعين الإله على السمع. وإذا بحثنا عن المناطق التى يتركز فيها هذا النوع من المادة أملاً فى التعرف على المقاصير الفعلية فى المدينة فستكون النتائج سلبية إلى حد كبير. وجاء لوح يصور رجلاً أمام أحد المذابح من مجموعة غرف بجوار إحدى الآبار العامة فى الضاحية الشمالية (T36.67) ، غير أن مخطط الحوائط يدلنا على الشيء القليل: فليس لها طابع المنزل ولا المقصورة. ولكن الأدلة التى عثر عليها فى المدينة الرئيسية أفضل قليلاً. فمرة أخرى أجريت الحفائر فى منزل بجوار إحدى الآبار العامة (P47.10) ويبدو من مخططه أنه أشبه بمقصورة، وإن لم تصاحبه مادة نذرية (انظر الشكل 97)[62]. وفى مكان غير بعيد، ومن الواضح أنه فى نفس المساحة المفتوحة وإن كان السياق قد لحق به دمار شديد نتيجة للفيضان، كشفت الحفائر نفسها عن مبنى صغير يعد أقوى مرشح بينها جميعاً لأن يكون مقصورة فى مكان عام (P48.4، انظر الشكل 293). وبالإضافة إلى مخططه الذى يشبه المقصورة، فقد اكتشف لوح من الحجر الجيرى يصور رجل يتعبد أمام مائدة قرابين، وفوقه مجموعة من ثلاثة معبودات، هى عائلة فيله المقدسة: خنوم وساتت وعنقت[63]. .

إلا أن معظم المادة النذرية، وهى ليست بالكثيرة، تأتى من المنازل، كبيرها وصغيرها، وتثير تساؤلاً عما إذا كان المقصود بها أن توضع فى مكان صغير فى المنزل نفسه أم لا. وكان بداخل عدد قليل من المنازل الكبيرة مذابح منصة صغيرة، إلا أن مجموعة من المادة النذرية التى عثر عليها فى صورة مرتبة (المنزل N49.21) جاءت من غرفة صغيرة تحت درج السلم[64]. وكانت تتكون من لوح يبين امرأة وفتاة أمام تويريس وأجزاء من تمثالين نسائيين ونموذجى سريرين من الفخار. وتمثل القطع الأخيرة فئة من الأدلة أكثر عدداً بكثير بالنسبة لمنطقة عبادة منزلية كانت تتركز حول بيئة النساء وخطورة الولادة وغموضها[65]. وكانت تشمل الإلهة تويريس والقزم والإله الجنى بس، وهو موضوع شائع بالنسبة للدلايات المزججة الصغيرة التى تعلق فى العقود والقلائد. وفى قرية العمال تظهر تويريس وبس على نقوش الجدران، وهناك بعض الأدلة على أن غرفة فى الطابق الأعلى ذات رسومات جدارية خاصة كانت بمثابة مركز اهتمام نساء المنزل[66]. وكانت العبادات المنزلية تشمل كذلك المعبودة الكوبرا،

وربما كانت الإلهة رنن أوتت التى صنعت لها تماثيل وأشكال صغيرة زين بها قعر السلاطين الفخارية[67].

ويظهر فى العمارنة نمط ربما كانت له شرعية عامة بالنسبة للممارسة الدينية فى الدولة الحديثة. ويمكننا التعرف على أربعة اتجاهات أساسية للاهتمام: نحو صور الملك (وفى الظروف المعتادة تماثيل للآلهة الرئيسية فى مقاصير المعابد الكبيرة الموجودة خارج أسوارها) كمصدر لسلطة كبيرة ولكنها بعيدة يمكن فى بعض الأحيان البدء فى استغلالها بطريقة مفيدة؛ ونحو مزار العائلة الذى كان يضم مقبرة العائلة وكانت تعطى لمفهوم العائلة ذات الأسلاف المكانة والقدسية؛ ونحو العبادات التى تتركز فى أهل المنزل وبالذات تلك الخاصة بنساء المنزل؛ ونحو مجموعة متنوعة من المعبودات والبشر المبجلين العرضيين الذين يستحوذون على مشاعر الاحترام ويمكن أن يقدموا ذلك الإحساس العام بالسعادة المأمولة التى تتضمنها كلمة «بركة».

رسم صورة لسكان العمارنة: الأدلة المباشرة وغير المباشرة

ما هو حجم السكان الذين عاشوا فى العمارنة؟ ربما يكون السؤال الذى يحقق فائدة أكثر واقعية هو: أى نوع من البشر كانوا؟ ولا بد أن نضع السؤال الأول جانباً لبعض الوقت بسبب الصعوبات الفنية الملازمة له. وقد أجريت الحفائر فيما يكفى من المدينة، وهناك قدر كاف مما تبقى يمكن تتبعه بصورة عامة فى الصحراء، لتكوين الأساس لتقدير عدد المنازل التى كانت موجودة أصلاً بالكامل. ومن هذا يمكننا أن نمضى إلى تقدير آخر لعدد من كانت تؤويهم من البشر. وهذه هى نقطة الصعوبة الحقيقية. وهناك أدلة مباشرة قليلة جداً على متوسط حجم الأسر فى مصر القديمة[68]، وأفضل ما يمكن عمله هو الاستفادة من الأرقام فى المجتمعات القروية الحديثة فى الشرق الأوسط، و نتائج تعداد بداية القرن الحالى فى مصر، وهى نفسها تدل على تباينات كبيرة من مكان لمكان. بل إن علينا دراسة احتمال أن أسر المصريين القدماء لم تكن تشمل الأسرة النووية وحدها وإنما مجموعة متنوعة ممن كانت تعولهم. ولذلك فإن أفضل ما يمكن تجربته هو ترتيب عام لحجم الأسر فى العمارنة. وقد نفذ اثنان من تمرينات التقدير هذه، حيث نتجت عنهما أرقام تتراوح بين ٢٠ ألفاً و٣٠ ألفاً

فى إحدى الحالات (باستخدام متوسط لعدد أفراد الأسرة ربما يكون شديد التواضع)، وأكثر من ٥٠ ألفاً فى حالة أخرى[69].

ونحن عند دراسة تركيبة هذا العدد الكبير من السكان نركز انتباهنا على الصورة الأساسية للمجتمع المصرى القديم عامة، وفى الوقت ذاته نكشف القصور الشديد فيما لدينا من أدلة. وفى نسبة ضئيلة من الحالات سيكون للمنزل عنصر مباشر من عناصر الهوية الشخصية. وعادة ما يكون السبب فى ذلك هو أننا نعرف اسم المالك. وكان من عادة المواطنين البارزين أن يتخذوا لأبواب منازلهم الأمامية أطراً من الحجر أو الخشب تحفر عليها أسماؤهم وألقابهم الرسمية. ومما يؤسف له أنه عندما هجرت المدينة يبدو أن ما حدث هو إما أن معظم الناس أخذوا معهم مثل هذه الأشياء غالية الثمن، أو أن الأرضة قد التهمت الخشب عن آخره، مما جعل معرفتنا بمن أقام فى مكان ما أمراً نادراً. وكان الشخص الأكثر أهمية فى هذه الفئة هو الوزير المسمى نخت الذى سبقت الإشارة إليه وكان له منزل كبير جداً به مزيد من القاعات ذات الأعمدة ،ولكنه كان لا يزال صغيراً مقارنة بالقصر الملكى. وأشرنا كذلك إلى منزلى الكاهنين، بانحسى وباواح. وكان لضباط الجيش منازل متناثرة فى أنحاء المدينة: مثل رع نفر كبير قائدى العربات، وكان يملك منزلاً شديد التواضع فى أحد أركان حى يضم منازل صغيرة أو ورش؛ وكان قائد القوات رعموسى يمتلك منزلاً على بعد عدة شوارع (انظر الشكل 97). ولا بد أن مالكى منزلين آخرين كان مشتركين فى أعمال البناء الخاصة بإخناتون. وكان أحدهما، وهو ملاحظ البنائين ماع ناخت أوتف، يمتلك منزلاً متواضعاً فى المدينة الرئيسية. وعلى مسافة منه شمالاً، فى الضاحية الشمالية، كان حاتياى ملاحظ الأشغال على وشك الانتهاء من بيت جديد لنفسه على أطراف المدينة عندما جاء النداء بترك كل شيء ومغادرة المدينة. وتركت عتبة الباب العليا المنقوشة نقشاً جميلاً أمام المكان الذى كانوا يعتزمون وضعها فيه، وهو الباب الأمامى. إلا أن أشهر قاطن بيت من ناحية الاهتمام العام الحديث كان تحتمس النحات (انظر الشكل 97)[70]. وكانت ورشته القريبة من منزله تقع فى جزء من المدينة الرئيسية، حيث كان يقيم غيره من النحاتين ويتخذون لهم ورشاً. وكانت الورش عبارة عن أفنية بسيطة بها أكواخ صغيرة مقامة بجوار الحوائط. وعندما هجرت المدينة، تركت التماثيل غير المكتملة والقطع

المستخدمة كنماذج ملقاة على الأرض أو نقلت إلى منزل النحات. وكانت إحدى هذه القطع رأس الملكة نفرتيتى الملونة الشهيرة.

إلا أن هذه الأمثلة التى تتسم بالفردية استثنائية. فالمدينة بصورة عامة تظل بالنسبة لنا مكاناً مجهول الهوية، غير أن هذا يعنى فقط أننا لا بد أن نبذل المزيد من الجهد مع ما تجمع لدينا من أدلة. ويعنى هذا إلقاء شباكنا على الأدلة المكتوبة وغيرها من أدلة حصلنا عليها من خلفية أكثر اتساعاً من العمارنة وحدها، متذكرين دائماً أن المجتمع المصرى كان يتغير عبر الزمان ومن إقليم لإقليم.

ويمكن أن نبدأ بوضع توقع – أو نموذج – لنوعية السكان الذين سنجدهم فى مدينة من مدن الدولة الحديثة. وتحتوى إحدى برديات السرقات من عهد الرعامسة المستخدمة فى الفصل السابق لبيان حركة الثروة المفاجئة على قائمة من الأسر الموجودة فى غربى طيبة (بما فى ذلك دير المدينة)[71]. وهى فى مجملها ١٧٩، منها 155 تخص مستوطنة واحدة تسمى مايونحس. ولا يمكن أن يكون هناك شك منطقى فى أن مايونحس كان اسم بلدة تكونت فوق خرائب المبانى التى كانت تحيط بالسياج الداخلى لمعبد رمسيس الثالث الجنائزى بمدينة هابو. وبقى شطر من هذه المستوطنة حتى السنوات الأولى من القرن الحالى وأجريت به الحفائر. وكانت كل أسرة تعرف باسم كبيرها من الذكور ومهنته. ويمكن أن يكون غياب النساء (على سبيل المثال من فئة الأرامل) مصادفة فى هذا المجتمع، حيث إن النساء كان لهن دور فى امتلاك العقارات معترف به صراحة. وكان لكل "منزل" سكانه الذين يتكونون من أسرة نووية وربما خدمها كذلك، حيث إن الخدم والعبيد لم تكن تضمهم قوائم منفصلة. ولذلك فلا بد أن نضرب عدد الأسر فى رقم مناسب (حوالى ٦)، كى نصل إلى تقدير لعدد سكان هذه البلدة، الذى سيكون فى هذه الحالة ألف شخص. ويمكننا إجمال حرف أرباب الأسر فى ثمانى فئات. كما يلى: ٧ موظفين رفيعى المستوى فى الدولة، و٣٢ كاهناً، و١٢ كاتباً، و١٢ «عسكرى» (شرطة أو رئيس إسطبلات)، و١٣ موظفاً صغيراً، و٣١ حرفيا مدنيا، و٤٧ يعملون فى حرف ريفية، وواحد ليست له مهنة محددة. وهذه هى الملاحظة الأولى: كان للجميع ما عدا واحدا منهم لقب أو مهنة محددة. وكما أشرنا للتو، ليست هناك «منازل» خدم أو عبيد، مما يجعلنا نشك أن هؤلاء الناس (الذين ربما لم

يكن عددهم كبيراً فى الأسر من المتوسطة إلى الصغيرة) كانوا يقيمون داخل مبانى المالك أو بجانبها. وهناك حالة عبودية واحدة، وهو فلاح صغير كان يملكه أحد الكتبة، ولكن الكاتب نفسه (المذكور اسمه) لم يكن يقيم فى البلدة.

ويمكننا النظر إلى هذه المعلومات بطريقتين: تجميع المهن مع بعضها لخلق صورة سوسيولوجية عامة، ودراسة إذا ما كان للقائمة جانب طبوغرافى أم لا. بالنسبة للطريقة الأولى، لا بد أن نتذكر أن أية تقسيمات أو تجميعات نقوم بها سوف تكون تعسفية حتماً، أى انعكاساً لسيولة مصر القديمة الاجتماعية النسبية. والقائمة نفسها توضح هذا أكمل توضيح: فقد كان اثنان من الكهنة حدادين كذلك، وكان اثنان من زملائهما لهما عملان مدنيان آخران، إذ كان أحدهما مفتشاً وكان الآخر كبير حراس. ومع ذلك فإننا إذا قمنا بعمل تقسيم تقريبى من مجموعتين عريضتين: أى "موظفون" (بما فى ذلك الكهنة) تدفع لهم أجور مقابل عمل غير إنتاجى، وهؤلاء الذين يشتغلون بالصناعة والزراعة، فستكون النتيجة تقسيماً يدعو للدهشة بالمناصفة (٧٨ – ٧٦)[72]. وهذا يعلله إلى حد كبير وجود ما لا يقل عن اثنين وثلاثين كاهناً من مختلف الرتب. ويمكننا استخدام وجود معابد مدينة هابو كحجة على أن هذا كان مجتمعاً غريباً، ولكن البيانات الأخرى (بما فى ذلك قوائم ويلبور الخاصة بأرباب الأسر- الشكل 103) توحى بأن مهنة الكاهن فى أواخر الدولة الحديثة كانت شائعة بصورة عامة. وليس هذا بطبيعة الحال من أمارات الروحانية غير المعتادة، لأن الكهانة كانت عملاً أكثر منها مهنة.

وكان ثلث أرباب أسر مايونحس يشتغلون بالزراعة والأعمال المتصلة بها، غير أن نسب التقسيمات الفرعية العديدة تبين من الوهلة الأولى أن تربية الماشية كانت أكثر أهمية من زراعة الحبوب (حيث يمثلها ستة فلاحين أو «حراثين» صغار أو ربما «وكلاء زراعيين»[73]. إلا أن هذا قد يكون مضللاً. فهناك أدلة وفيرة (منها بردية ويلبور) تبين أن أهل الفئات المهنية كانوا يملكون أو يؤجرون أراضى زراعية، عبارة عن حقول غلال ومزارع خضروات. ولا يجيب هذا عن السؤال الخاص بمن هو الذى كان يعمل بالفعل فى الأرض، حيث الخيار بين العمال والأطفال الذين يتقاضون أجراً ، وبين الأقارب الأقل حظاً من الثروة الذين كانوا ضمن أسرة رب البيت. ولا يبدو أن مايونحس نفسها

كان بها عدد كبير من السكان العاملين مقسمين على ما بها من أسر. وقد نقول إن هؤلاء الناس كانوا يعيشون متناثرين فى أراضى مجاورة ولذلك لم يجدوا لهم مكاناً فى القائمة، إن لم يكن السبب هو أن ما لا يقل عن اثنى عشر رب أسرة كانوا صيادى سمك. وحتى إذا كانوا يقومون بالصيد فى المستنقعات الخلفية القريبة من الصحراء (التى جفت واختفت فى العصور الحديثة)[74] وليس فى النيل، فإنهم أشخاص قد نتوقع أنهم بالمثل كانوا يعيشون خارج البلدة. وحيث إن الأقارب الفقراء كانوا أرخص من العمال الأجراء، فمن الممكن أن أسر مايونحس كانت تشبه أسرة حقانخت التى عاشت فى نفس المنطقة قبل ذلك بتسعة قرون (الفصل السادس). وكان يقوم بالعمل الزراعى على أرضه خمسة رجال كانوا جزءاً من أسرته، وربما كانوا كذلك أبناءه. ويبدو أن الانتماء إلى الأسرة، كقريب أو كشخص يحظى بالرعاية، كانت أمنية مصرية مهمة. وإذا كانت تلك هى الحالة بصورة كبيرة فى مايونحس، فحينئذ قد يتعدى عدد الأشخاص الذين نضعهم فى المائة وخمس وخمسين أسرة الألف سالفة الذكر، وربما كان يمثل بعض الأسر على أرض الواقع، حسبما هو معترف به رسمياً، عدد المنازل فى مجموعة متجاورة من المنازل، وهو ما يمكن أن نتبينه فى ضواحى العمارنة[75]. ويشير هذا كذلك إلى سؤال مهم فى التاريخ الاجتماعى للعالم القديم لا يمكننا الإجابة عنه: وهو متى بدأ يصبح للمدن طبقة عاملة حضرية كبيرة، أى هؤلاء السكان من الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا عمالاً وحسب، وكانوا يسعون إلى أن يوظفهم مصدر خارج أسرتهم؟ وربما كان ظهور هذه المجموعة على حساب «العوائل» التى يبدو أنها كانت ذات أهمية بالنسبة للمصريين، غير أننا لسنا متأكدين مما إذا كان هناك تغير بحال من الأحوال على هذه الجبهة خلال العصور الفرعونية أم لا.

إن الكاتب الذى جمع قائمة أسر مايونحس فعل ذلك دون أى نسق واضح للترتيب. ويمكننا أن نرى هذا على سبيل المثال بالنظر إلى الموضع الذى ترد فيه شرطة مجاى. فالأفراد السبعة فى هذه المجموعة المميزة موزعون فرادى على القائمة. وهذا يجعلنا على الأقل نصدق أن القائمة جمعت على أساس الشوارع والأحياء[76]. وإذا نظرنا إلى القائمة فى ضوء هذا يصبح لها مغزى كبير. فقد بدأ الكاتب من المجموعة التى ربما تتكون من خمسة منازل كبيرة لرجال بارزين من البلدة: كاتب فى الجيش،

والعمدة نفسه، وثلاثة آخرين. ولا نعرف كيف كان يسير فى الشوارع الملتوية، حيث يحتمل بشدة أنها كانت تفصل عن غير عمد الأسر التى كانت فى واقع الأمر مجاورة لبعضها. ورغم ذلك تبقى مجموعات أخرى عديدة (مجموعتان من خمسة كهنة، ومجموعة تضم أربعة من صناع النعال، ومجموعة تضم خمسة ممن يربون الماشية والماعز وأخرى تضم أربعة منهم)، وكذلك أزواج (مثل اثنان من صانعى الجعة، واثنان من الغسالين، واثنان من صيادى السمك، واثنان من النحاسين، واثنان من كتبة السجلات الإلهية). وتوحى القائمة بميل نحو التجمع المهنى، وربما يشمل أسراً كانت تربطها صلة الدم. إلا أنه ليس هناك فصل صارم، حيث إن معظم المهن توجد متجاورة على جانبى غيرها من المهن، وغالباً من مكانة مختلفة تماماً.

وهذا الانطباع شديد العمومية الخاص بمايونحس يتناسب تماماً مع ضواحى العمارنة تمام التناسب. فهناك ميل نحو تجمع المنازل الكبيرة مقابل تجمع المنازل الصغيرة، ولا شيء أكثر من هذا. ولم يتكن هناك فواصل صارمة بكل تأكيد. ومن الممكن كذلك أن نتعرف بين المنازل الصغيرة على مجموعات متلاصقة، وكأنها تخص شبكة عائلية. وإذا كانت مثل هذه المجموعة من المنازل الصغيرة التى تضم العديد من الأسر الفقيرة التى تربطها صلة القرابة تعامل إدارياً على أنها أسرة واحدة، فسوف يفسر هذا نقص طبقة العمال والخدم فى قائمة مايونحس.

وتحديد أماكن التجمعات المهنية في العمارنة أكثر صعوبة. والمهنة الواضحة من حيث مخلفاتها هى مهنة النحات. فقد عثر على العديد من الورش، ويبدو إلى حد كبير أنها كانت مقصورة على منطقة واحدة داخل المدينة الرئيسية، وإن لم يكن الأمر بالكثافة التى تجعلنا نطلق عليه "حى النحاتين". وقد أجريت الحفائر بشكل جزئى سنة ١٩٨٧ فى ورشة أخرى لها على ما يبدو شكل مشابه (وليست على مسافة بعيدة) وإن كان منتجها مختلفاً تمام الاختلاف[77]. وهى فى المخطط تتكون من سياج مستطيل يحيط به سور محصن يقع بجوار البئر الكبيرة المذكورة آنفاً. وقد بنيت سلسلة من الغرف على الواجهة الداخلية، حيث تحيط بمساحة وسطى مفتوحة. ووسط النفايات والرماد، التى دُفن المبنى تحتها بصورة متزايدة أثناء استخدامه، كانت الأدلة على أنه مخصص لتصنيع أنواع عديدة، من بينها التزجيج وصنع الفخار. والواقع أن منطقة

الحفائر كانت تضم كذلك المصنع الذى كان يصنع به الفخار. والأدلة التى خلفوها كانت من أربعة أنواع: واحدة وربما اثنتان من حفر التخمير حيث كان طين صانعى الفخار يعد فى أول الأمر؛ وعدة مئات من الشقف الطينى من أوانى لم تحرق، الكثير منه استبعده صانع الفخار بسبب عيوب فى الصناعة؛ وقمائن الفخار. والقمائن الموجودة عددها اثنتان: واحدة هجرت بعد طول استخدام وامتلأت بعد ذلك بالنفايات؛ والأخرى حلت محلها ولم تستخدم قط فى واقع الأمر. والشقف الطينى مثير للاهتمام بشكل كبير لأنه يبين مدى أنماط الأوانى التى كان يجرى تصنيعها، وكان على قدر كبير من الاتساع، وهو يشمل سلاطين الكوبرا وكذلك تماثيل نسائية صغيرة. بل إنه بينما صنع الشقف من طمى النيل، يبدو أن بعضها صنع من طفلة الصحراء. كما وجدت ألوان حمراء وصفراء عليها.

وهذا الاكتشاف لا يوضح عمليات التصنيع الخاصة بفخار الدولة الحديثة وحسب، بل إن له تضمينات أوسع فيما يتعلق بالمدينة ككل. فعندما نعرف الشكل الذى كانت عليه مجموعة من القمائن والمخلفات المرتبطة بها، يصبح من المفيد أن نبحث عن أمثلة أخرى فى مخططات الحفائر السابقة وتوصيفاتها. وقد تم التعرف على ما يحتمل أنها قمائن وسط المنازل، وأعيد بالفعل إجراء الحفائر فيها. وأكد هذا أن قمائن الفخار البسيطة كانت تقع داخل أراضى بعض المنازل الخاصة الكبيرة، مثل P47.20 و P47.22 انظر الشكل 97). والمستغرب بالنسبة لوجهة نظرنا هو أن القمينة الأخيرة كانت تقع على مقربة من مكان مزار خاص. ويمكن أن نضيف كذلك إلى هذه الأدلة ملاحظة أن قطع القمينة المزججة توجد على نطاق واسع فى منطقة الضواحى الرئيسية، مما يخلق افتراضاً قوياً بأن صنع الفخار كان على قدر كبير من الشيوع والانتشار فى العمارنة، وليس فقط داخل المصانع الخاصة التى يمكن أن نشك فى أن الدولة كانت تديرها، بل كذلك داخل أراضى المنازل الخاصة. وربما يصدق الشىء نفسه كذلك على صنع الخواتم المزججة الصغيرة وغيرها من الحلى التى كانت تلبس على نطاق واسع فى تلك الفترة. بينما تأكد منذ زمن بعيد بالاكتشافات الحقيقية وصور المقابر (انظر الشكل 99) والنماذج أن غزل ونسج الأقمشة كان صناعة منزلية قياسية أخرى .

ولم تكن العمارنة مدينة لها ضواح هادئة ذات حدائق. بالإضافة إلى النفايات التى ملأت كل مساحة مكشوفة فى الضاحية الرئيسية، كانت المنازل مراكز عامرة بالتصنيع الخاص وكذلك بتخزين المنتجات الزراعية والتعامل فيها. فقد كانت مولدات لجزء من ثروة المدينة الاقتصادية.

والجانب الخاص بالمركز الزراعى تم توثيقه بصورة جيدة، ذلك أن الجزء الأكبر من منازل العمارنة يشبه المزارع الصغيرة، وهى بذلك تعكس طابع الاقتصاد المصرى الذى يقوم على السلع، وفى الوقت ذاته تساهم مساهمة مهمة فيما يدور من جدل حول الاقتصاديات الخاصة فى مصر الدولة الحديثة. ويمكننا تقدير أن سعة الصومعة المتوسطة التى لا تملأ بكامل سعتها كان حوالى ٩٥٠٠ لتر، وهو ما يوازى بالمكاييل القديمة ١٢٥ خار من الحنطة[78]. وفى قرية عمال دير المدينة بجبانة طيبة كان الأجر السنوى للصانع الماهر بالنسبة لأسرته يتضمن على الأكثر 48 خار من الحنطة، بينما كان ملاحظ العمال يتقاضى ٦٦ . وبالنسبة للحراس والبوابين كان المعدل السنوى ٢٤ و١٢ . وكانت الأجور التى تدفع شعيراً حوالى الثلث. وبذلك يبدو أن اثنتين أو ثلاثاً من هذه الصوامع، وهو رقم كان شائعاً فى مجمعات العمارنة، تكفى عائلة ذات قوة شرائية أكبر إلى حد ما من قدرة ملاحظ عمال فى دير المدينة. إلا أن أرباب الأسر فى دير المدينة لم يكن لديهم صوامع كبيرة لتخزين حبوبهم فيها. فقد كانت أجورهم تدفع لهم شهرياً ومن الواضح أنهم كانوا يستهلكون معظم ما يحصلون عليه، إما كطعام أو كوسيلة للمقايضة. وبعبارة أخرى، لم يكدسوا أرصدة من الحبوب. وبالتالى فإن مجموعات الصوامع فى العمارنة تشير إلى احتمالين (كخيارين أو متلازمين): وهما إما تخزين المحصول السنوى، أو أن ما يتم الحصول عليه شهرياً من رواتب يزيد كثيراً عن الحاجات الأساسية.

ولكى نكوِّن حكماً أفضل على ما يكمن وراء الصوامع، لا بد أن نعود مرة أخرى للبيانات الخارجية وندرس جوانب معينة من جوانب الاقتصاد الزراعى والصورة العامة للدولة الحديثة، بدءاً بمدى حيازة الأراضى الخاصة وطبيعتها فى الدولة الحديثة. وكانت الحيازة التى تؤول بالوراثة ممكنة. ويعرفنا نص معروف باسم نقش مس على مساحة من الأراضى منحها الملك أحمس فى بداية الأسرة الثامنة عشرة لـ «ضابط سفن»

كمكافأة على الخدمة العسكرية[79]. وبعد حوالى ثلاثة قرون، وفى عهد رمسيس الثانى، نجد أن الأرض نفسها ما تزال فى أيدى العائلة ذاتها، وهم خلف البطل الأصلى، حيث كانوا فى ذلك الوقت يتنازعون على تقسيمها إلى أنصبة، وكانوا يلتمسون نسخ مجموعة من سجلات الأراضى الحكومية، التى كانت تحفظها الخزانة وإدارة مخازن الغلال، التى كان يسجل فيها تاريخ الحيازة. بل إن بردية من عصر رمسيس الرابع (بردية فالينساى الأول) أكثر وضوحاً فى رسم التمييز بين أرض خاتو الخاصة بالفرعون والأرض المملوكة ملكية خاصة وكانت ضرائبها تدفع بصورة مستقلة للخزانة[80]. ولا بد أن نضيف لهذا ما يدل على انتشار تأجير أراضى المعابد (وخاصة الواردة فى بردية ويلبور التى نناقشها بعد قليل)، مع تلميحات إلى أن هذه قد تكون ممارسة موروثة. وإذا جمعنا الأدلة مع بعضها سيكون لدينا الخطوط العامة للقطاع الخاص ذى النمط شديد التعقيد لحيازة الأراضى وفيه لم تكن «المزرعة» قطعة منفصلة من الأراضى الزراعية، وإنما سلسلة كاملة من القطع المتناثرة التى تتم حيازتها بطرق مختلفة: إما ممتلكة ملكية تامة أو مؤجرة من أحد المعابد أو من مالك آخر.

وماذا عن «المزارعين»؟ لم يكونوا سوى أناس لهم ألقاب رسمية بحاجة إلى دخل ضيعة صغيرة، من أجل وضع من الاحترام والمعيشة المريحة. ونصوص التدريبات المدرسية توضح ذلك كثيراً. فهى بالإضافة إلى الرسائل النموذجية تضم قطعاً تركز على الفوائد التى ينعم بها الرجل الذى يعرف القراءة والكتابة. وهى تتنبأ بنصيبه ليس على أنه مجموعة من الواجبات المهمة فى الدوائر الرسمية، وإنما باعتباره حياة دعة ريفية فى فيلته التى تحيط بها منتجات المزرعة ذات المخزون الجيد والإدارة الحسنة.

> **إنك تهبط سفينتك المصنوعة من خشب الشربين المزودة بالرجال من المقدمة حتي الدفة. وتصل إلي فيلتك الجميلة، تلك التي شيدتها لنفسك. وفمك ملئ بالنبيذ والجعة، وبالخبز واللحم والكعك. وتُنحر الثيران ويُفتح النبيذ، ويكون الغناء الرخيم أمامك. ويعطرك كبير معطريك بدهان المستكة. ويحمل ناظر أراضيك الزراعية أكاليل الزهور. ويأتي كبير مربي الطيور لديك بالبط، ويحضر صياد السمك سمكاً. لقد عادت سفينتك من سوريا محملة بكل أصناف**

الأطايب. وزريبتك عامرة بالعجول، ونساجوك في حالة من النشاط. إنك مستقر بينما عدوك يسقط، ومن تكلم ضدك لم يعد له وجود[81].

إن التأكيد على الجانب العصامى للمسئول أمر ملحوظ. ولا نجد هنا أية إشارة إلى الحياة الطيبة التي يهبها الملك مقابل الخدمة المخلصة. وهذا هو بالطبع النموذج المرسوم فى كثير من صور مقابر الدولة الحديثة والعصور السابقة. وكان الموظفون من أى نوع يتطلعون إلى حياة خالدة كانت من ملامحها البارزة مباهج النظر فى سكينة إلى الفلاحين السعداء وهم يعملون فى حقول الضيعة[82].

إن حاجتنا إلى زيادة حدة وضوح الصور المعممة من هذا النوع تخدمها مرة أخرى المادة الإحصائية المكتوبة الطارئة. وبذلك فإن بردية ويلبور تقدم صورة بسيطة لفئات الأشخاص الذين كانوا يستأجرون الحقول من المعابد فى منطقة مصر الوسطى فى أواخر الدولة الحديثة (الشكل 103). ولهذا بعض الملامح المدهشة، منها نسبة النساء المرتفعة. وربما كانت أعداد الجنود (بمن فى ذلك مرتزقة شردانا الأجانب) خصوصية محلية، رغم أنها تعكس جيداً ممارسة توطين المحاربين القدماء فى الأراضى الزراعية[83].

ولابد أن يترك منظر الريف فى مصر القديمة بصورة كبيرة جداً للخيال. ويمدنا علم الآثار بأدلة مباشرة بالنسبة للمدن، ويمثل مجتمع الأرض وممارسات الفلاحة من العصور القديمة حتى الحديثة أساساً جيداً لتصوير المشهد الريفى بطريقة شديدة العمومية. إلا أنه بالنسبة لمقدار ما كان من توطين خارج المدن ونوعيته، فإن ما لدينا ليس سوى خطوط عامة غير واضحة. وكما ذكر فى موضع سابق من هذا الفصل، تشير ألواح حدود العمارنة إلى "قرى" على الناحية الأخرى من النهر، ولكن تنقصنا الأدلة فيما يتعلق بعدد من عاشوا فيها ومن هم. وربما كان أقرب ما يمكننا الرجوع إليه كمصدر للدولة الحديثة هى بردية ويلبور.

هذه الوثيقة الضخمة عبارة عن سجل لتقدير مقياس وعائد بعض فئات الأراضى الزراعية فى مساحة مقدارها حوالى ١٥٠ كيلومتراً فى مصر الوسطى فى العام الرابع

من عهد رمسيس الخامس (١١٤٢ ق.م)، وبالتالى على مقربة من نهاية الدولة الحديثة[84]. وهى ليست قائمة مواضع، ولكن بإشارتها إلى قطع الأراضى تشير مراراً إلى أماكن كبيرة وصغيرة. ويكاد يكون فى حكم المؤكد تقريباً أنها ليست سجلاً كاملاً للمنطقة. وكيفية العلاقة التى كانت بين المواضع وبعضها أمر يصعب تحديده إلى حد كبير. إلا أنه لا يوجد حتى الآن مصدر غيرها يقاربها فيما تحتويه من تفاصيل. ففيها ذكر لأسماء 416 مستوطنة. وهذه المستوطنات يمكن أن تنسب لكل منطقة من مناطق أربع. وفى ظل وجود أهم المواضع، التى يحكم عليها بأنها كذلك تلك الكمية من الأراضى التى تملكها أو تسيطر عليها، يمكننا أن نتجه إلى حد ما نحو تحديدها على الخريطة. أما بالنسبة لسائر المواضع فإن كل ما نفعله هو أن ننسبها كبلوكات إلى منطقة بعينها. وطابع أسماء المواضع يشبه إلى حد كبير طابع مصر الحديثة. وبعضها أسماء «أعلام»، ولكن عدداً كبيراً منها أسماء مركبة الجزء الأول منها وصفى. وفى مصر الحديثة أكثرها شيوعاً «كوم» و «بيت» و «عزبة» (وهى فى الأصل مستوطنة للفلاحين الذين يعملون لدى مالك الأرض)، و«نجع» (وهى فى الأصل مستوطنة عربية بدوية)، و«زاوية» (قرية صغيرة)، و«دير» (أى الدير القبطى). وعلى سبيل المثال يقع قصر أمنحتب الثالث فى ملكاتا اليوم بجوار قرية حديثة تسمى عزبة باسيلى، وهى على اسم مالك أراضى بارز من العصور السابقة يحمل الاسم القبطى اليونانى فاسيلى، الذى عاش فى واقع الأمر بالأقصر على الجانب الآخر من النهر. ويقدم لنا ويلبور "ايات" (كوم)، و«آل» (بيت)، و «وحيت» (زاوية)، و «بخن» (فيلا أحد المسئولين)، و«سجا» (برج). وإجمالاً، هناك ١٤١ من هذه المواضع مقسمة كما يلى: 51 كوماً، و٣٧ بيتاً، و٢٩ زاوية، و١٧ فيلا، و٧ أبراج. إلا أنها ليست منتشرة بالتساوى على المناطق الأربع. فـ"البيوت" تميل إلى الزيادة فى المناطق التى كان بها عدد أقل من البلدات الكبيرة، بينما «الفيلات» و «الأبراج» تتجمع فى المناطق التى تتميز بالبلدات الكبيرة. وبالنسبة لبحثنا فإن أكثر المجموعات إثارة للانتباه هى الفيلات (بخن). وهذا هو المصطلح نفسه المستخدم فى تدريبات الكتبة بخصوص مقر المسئول الذى يتوافر مخزون المنتجات الزراعية. وتقول المصادر نفسها عن الفيلا النموذجية أنها "فوق ارض مدينتك" فى إحدى الحالات، و «فى مدينتك» فى حالة أخرى. وشهدت أراضى ويلبور تركيزاً لهذا فى مناطق البلدات الكبيرة، وخاصة بالقرب من العاصمة الإقليمية هيراكونبوليس.

ولأراضى ويلبور مساهمة أخرى فيما يتعلق بفهمنا لمن عاشوا فى المدينة «العاصمة». وكان العنصر الثانى من أسماء المواضع التى ناقشناها للتو هو أسماء الأشخاص، «فيلا فلان الفلانى». وهى بذلك المقابل القديم لعزبة باسيلى. وهذه الأسماء هى أسماء مصرية شائعة بدون ألقاب، مما لا يجعلنا نعرف المزيد عنها، بسبب نقص المعلومات التى كانت لدى أهل تلك الفترة، إلا فى حالة واحدة. فإحدى الفيلات كانت «فيلا الوزير». ويمكننا هنا أن نضع مصدراً صغيراً آخر بالنسبة لإحدى المناطق: وهى جبانة هيراكونبوليس نفسها، التى كانت تقع على أقرب قطعة من الصحراء فى منطقة تعرف باسم سدمنت الجبل. ويحمل العديد من مقابر الدولة الحديثة التى أجريت فيها الحفائر فى فى وقت سابق من هذا القرن أدلة عمن كانوا يملكونها(85). كان بعضهم أناساً بارزين فى المجتمع المحلى، وهو ما كان يعنى فى الواقع كهانة المعبد المحلى. ولدينا شخص يسمى أمنحتب، وكان كاهنا للإله المحلى حريشف، وآخر اسمه أمنمحات الذى كان أباً سماوياً فى نفس العبادة. وهناك كذلك سجل لعمدة اسمه مننا. إلا أن الباقين موظفون في البلاط أو الجيش: نبنكمت (كبير الرماة وحامل المروحة على السفينة الملكية خايم ماعت)، وسيتى (القائد والمشرف على خدم رب الأرضين، والسفير فى كل البلاد)، وباحم نتر (نائب قائد سلاح العربات، وكبير الرماة)، ورع حتب وبا رع حتب (الوزيران)، وربما وزير أقدم يسمى تحتمس. وهذه هى مجرد رتب الموظفين التى نجدها فى العمارنة وربما وجدت فى طيبة ومنف وبرعمسو.

وتقدم العمارنة ذاتها مثالاً كلاسيكياً، فى الشخص الذى لا يقل عن الرجل الذى أصبح فيما بعد ملكاً بعد توت عنخ آمون، وهو آى. وهناك حجة قوية يمكن إثباتها فيما يتعلق بآى باعتباره فرداً فى عائلة بارزة كان موطنها مدينة أخميم بالوجه القبلى. وربما كان أبواه يويا وتويو اللذين اكتشفت مقبرتهما فى وقت سابق من هذا القرن فى وادى الملوك. وقد نالا هذا الشرف لأن ابنتهما تزوجت أمنحتب الثالث وأصبحت زوجته الرئيسية، الملكة تى. وكان الأمر الذى تميز به هذا العصر، وكذلك العصور الأخرى، أن الأسرة كانت له مواقع قيادية فى كهنوت أخميم المحلى وفى الجيش. واتخذ آى نفسه ألقاب الجيش. وعندما أصبح فى النهاية ملكاً، استطاع أن يقدم لفتة مؤثرة نحو أخميم، حيث أمر بحفر معبد صغير فى الصخور الواقعة خلف المدينة(86). وهذا يدل

على جانب آخر من جوانب مصر الدولة الحديثة. فكما أوضحنا فى الفصل الخامس، كانت تلك هى المرة الأولى بالنسبة لكثير من البلدات أو المدن التى يكون لها معبد له أهميته مشيد من الحجر. وقد وفر تزيينه أو الإضافة إلى أرضه فرصة لا بأس بها للأشخاص المهمين كى يكونوا أسخياء مع بلدتهم الأصلية، حيث سجلوا ذلك بطريقة مبجلة للأجيال التالية.

وفى الدولة الحديثة كان النمط الرئيسى لوصول أى شاب إلى المناصب العليا هو أن يربى فى البلاط. وبالنسبة لأى رجل كان ذلك يعطيه اللقب الفخرى "ابن الحضانة"، وكان لقب المرأة "زينة الملك". وحسب علمنا فإن الوصول كان بالاتصال الشخصى والتوصية. ولكن من الواضح أنه بينما كانت هناك بلا شك عائلات أصولها الأساسية والدائمة فى إحدى المدن الملكية، فلا بد أن مسئولين كثيرين كانوا ينحدرون من عائلات أصولها فى الأقاليم. وكان أحد أفراد الأسرة الذى فى البلاط يفتح قناة للآخرين. ولا بد أن درجة الاتصال بالموطن الرئيسى كانت متفاوتة، إلا أن جبانة هيراكونبوليس تبين أنه حتى الوزراء كانت لديهم رغبة شديدة فى أن ينقلوا إلى موطنهم الأصلى ليدفنوا هناك. والآن يتضح السبب فى أنه فى أراضى ويلبور كان هناك الكثير من المسئولين من كل الرتب حتى الوزير الذين يستأجرون أراضى زراعية. وحتى إذا كانت رتبتهم تربطهم بقوة بالبلاط أو وحدات الجيش المحاربة، فإن كثيرين منهم كانت لديهم روابط قوية بالموطن الأصلى تمتد إلى إحدى الفيلات بأراضيها الزراعية. وكان وزراء هيراكونبوليس ضمن من يحتفظون بفيلا فى المناطق الريفية القريبة.

والآن يمكننا أن نفهم الأساس الاجتماعى والاقتصادى للعمارنة. فلا بد أن المنازل التى نراها تمثل لبعض المسئولين كل ما لديهم من أملاك، وعندما كان هذا يشمل الصوامع والمخازن فقد كانت لتخزين منتجات الأراضى التى يديرونها، وربما لم تكن على مسافة بعيدة جداً. وكانت أخت آتون تشمل المساحة الكبيرة من الأراضى الزراعية على الضفة الغربية. وربما كانت الطريقة المتعارف عليها فى مصر فيما يتعلق بتصريف شئون هذه الأراضى أن تؤجر للمسئولين الذين كان لهم منزل بالمدينة، وإن كان من المفروض أن إخناتون صادرها من أجل آتون. وبالنسبة للآخرين، ممن لا يسعنا تحديد نسبتهم، لم تكن فيلا المدينة هى كل شىء. فقد حافظوا على صلاتهم الإقليمية

بأصولهم، ومن المحتم أن هذا كان يشمل حقوق الملكية والأمل فى المزيد من الإرث. ونظراً للتغيرات المفاجئة فى المصائر التى كانت تحدث عندما كان ملك جديد يتولى السلطة، ربما كان من الحكمة أن يبقى الإنسان على هذه الصلات ويتطلع إلى تقاعد نهائي والدفن فى مسقط رأسه. وواقع الأمر أنه ربما كان هناك كذلك إحساس بالنفى فى إقامة بيت فى المدينة الملكية.

وكان من السهل الإبقاء على الصلات مع القاعدة الإقليمية وشبه الريفية. فقد كان المصريون حريصين بشدة على كتابة الرسائل وعلى السفر بانتظام فى النيل. ووصلتنا رسالتان كتبهما «غلاى زيت» يسمى رعموسى من العمارنة أرسلهما إلى أخيه، وكان كاتب خزانة فى طيبة، وإلى أخته[87]. ويمكننا أن نعرف من محتوياتهما أنهما جزء من مراسلات منتظمة. وكانت هناك سفينة ضمن سلسلة من الممتلكات الشخصية الجذابة. وكانت الزيارات – أى العطلات – تنظم رسمياً كذلك بطريقتين. كانت الأولى حملة التريض، لصيد السمك والطيور، وكانت تخرج فيها الأسرة بكاملها، كما تبين صور المقابر فى كثير من الأحيان. أما الأخرى فكانت الحج إلى مقبرة العائلة: للتفتيش عليها، والترتيب للمزيد من العمال، والجلوس لتناول وجبة خاصة فى صحبة روحانية مع الأسلاف. وقد رأينا من قبل أنه فى طيبة كان «احتفال الوادى الجميل» يستغل مناسبة عامة للحج إلى المقابر وقضاء الليل بها. ولا شك فى أن البلدات الإقليمية وجباناتها كان لها ما يقابل ذلك (وهناك حالة موثقة توثيقاً جيداً من الدولة الوسطى فى أسيوط)[88].

وعندما نفحص منازل العمارنة فإننا لا نجد وحسب تنوعاً كبيراً فى القدرات الفردية على التخزين، بل نرى كذلك أن هذا التنوع لا يضاهى كثيراً حجم المنزل الملحق به[89]. فأمارتا المكانة والثروة – أى حجم المنزل من جهة وحجم الصوامع والمخازن من جهة أخرى – مستقلتان إلى حد ما. ويمكن أن نفسر ذلك بالقول بأن اقتصادات الفيلا كانت تعكس كلا من دخل صاحبها ومدى الروابط الإقليمية. فعلى سبيل المثال ربما كانت ثروة الوزير نخت بكاملها لا تشمل فقط المنزل الذى فى المدينة الرئيسية فى العمارنة، وإنما أملاكاً فى بلدته الأصلية، بغض النظر عما كانت عليه. وأحد النصوص المدرسية يميز بين السياق الحضرى للفيلا النموذجية والحيازات الزراعية فى قرية الشخص:

سوف أبنى لك فيلا علي أرض مدينتى، تحيط بها الأشجار. مرابطها فى الداخل، ومخازن عامرة غلالها بالشعير والحنطة.... سوف أرعى لك خمسة أرورات من أحواض الخيار إلى الجنوب من قريتك، وسوف يكون الخيار والخروب [الترجمة غير مؤكدة] وفيراً كحبات الرمل. ولتأتى السفن لتحمله[90].

وتفسر الصلات الإقليمية المستمرة كذلك شذوذاً أكثر وضوحاً فى العمارنة. فألواح حدود أخت آتون تعلن أن من بين الأعمال التى يجب القيام بها فى أخت آتون بناء مقابر للمسئولين، ومكانها فى الصحراء الشرقية. ونتيجة لهذا الإعلان ظهرت مجموعتان من المقابر الصخرية، وهى المقابر الشمالية والمقابر الجنوبية. إلا أن أعدادها تقل كثيراً عن عدد المسئولين الذين عاشوا فى المدينة، حسب تقديرنا. وبالنسبة لهذا التقدير يمكننا أن نأخذ أصغر المنازل التى عرفنا أنه كان يشغلها أحد المسئولين، وهو فى الواقع المنزل N49.18 (ضابط سلاح العربات رع نفر). وهنا يمكننا أن نفترض أن كل المنازل التى من هذا الحجم فما فوق يحتمل أن تكون ملكاً لمثل هؤلاء الناس. وتمثل مناطق المنازل التى أجريت بها حفائر ما يقارب ٥٠ بالمائة من إجمالى ما يحتمل أنه المنطقة السكنية، ولذلك لا بد أن نفكر فى حوالى ١٣٠ منها باعتبارها على أقل تقدير نسقاً خاصاً بمكانة المسئولين من الدرجات الأعلى من المرتبة المتواضعة. إلا أن هذا قد يكون أمراً مقصوراً عليها وحدها. وكما أشرنا من قبل، ليست هناك قفزات فى أحجام المنازل كلما ارتقينا السلم الاجتماعى. إلا أن ملامح معينة تظهر فى المنازل ذات الأحجام المتزايدة. من هذه الملامح المدخل المظلل ذو الأعمدة. وإذا تعاملنا مع هذا الملمح على أنه أمارة على أن المالكين من منزلة ما، أى أن أصحابها من المسئولين الذين ينتمون إلى ما هو أعلى من المرتبة الأدنى، فإن العدد الذى أجريت فيه الحفائر يرتفع ارتفاعاً كبيراً. وأظهرت إحدى الدراسات أن ١٥ منزلاً فقط من بين المائة والعشرين منزلاً الأكبر حجماً ينقصها هذا الملمح[91]. وإذا أخذنا العدد ١٢٠ على أنه قاعدة لمنازل «المسئولين»، وما زال هذا 15 بالمائة فقط من العدد الإجمالى للمنازل التى أجريت بها الحفائر (وهى نسبة صغيرة مقارنة بأسر مايونحس)، وسمحنا للعينة التى أجريت بها الحفائر أن تكون حوالى النصف فقط من الأصل، فإن عدد من كان من المتوقع أن يوفروا مقبرة مزينة لأنفسهم ولعائلاتهم يرتفع إلى ٢٤٠ .

وكانت كل مقابر العمارنة تقريباً لم تشطب بعد عندما هجرت المدينة. إلا أن الأعمال الأولية كانت قد تمت بالنسبة لثلاث وأربعين منها. وقد كانت متفاوتة بصورة كبيرة من حيث حجمها وإتقانها، الأمر الذى يعكس مكانة أصحابها ومواردهم. ورغم حالتها غير المنتهية، ما زال بإمكاننا أن نقسمها تقسيمين فرعيين: بين تلك التى قصد بها أن تكون بها قاعة داخلية ذات أعمدة (أو أكثر من قاعة)، وتلك التى لم يكن العزم معقوداً على جعلها كذلك. ولدينا ست عشرة من المجموعة الأولى، وعشرون من الثانية، وسبع لا يمكننا تحديد المجموعة التى تنتمى إليها. والأشخاص الذين قد نتوقع، تبعاً لمنصبهم، أن يكونوا مهمين، لهم مقابر فى الفئة الأولى، التى بها قاعة ذات أعمدة. ومن بين هؤلاء الوزير نخت (با آتون)، وعمدة أخت آتون نفرخبرو هر سخبر، وكبير الكهنة مرى رع، وناظرا الأملاك الشخصية لنفرتيتى (مرى رع الثانى) والملكة الأم تى (حويا)، والحاجب توتو الذى ربما كان مسئولاً كذلك عن المراسلات مع القوى الخارجية والحكام التابعين فى غرب آسيا، وضابط سلاح العربات آى، الذى صار فيما بعد ملكاً.

من الواضح أن ما مجموعه ثلاث وأربعون مقبرة صخرية أقل بكثير من إجمالى عدد المسئولين الذين كانت لهم منازل فى العمارنة. بل إن عدد من تقلدوا مناصبهم فى وقت مبكر، مما يسمح لهم برؤية تقدم كبير فى مقابرهم، كان كبيراً بحيث لا يقل عن خمسة وعشرين على الأكثر، وإن كان لابد أن الشىء نفسه كان يصدق إلى حد ما فى المدينة: فقد استمر فى الزيادة حتى النهاية، حيث انتقل المزيد من الناس كى يبدءوا حياتهم العملية هناك. إلا أن عدم التوازن ظل قائماً. وليس من الصعب العثور على تفسير يتفق مع النمط المعروف لمجتمع الدولة الحديثة.

وعندما كان أحد الملوك يعتلى العرش كان يأتى معه بمجموعة من الأشخاص الذين شاركوه تنشئته. ولا بد أن هذا كان إيذاناً بتغيير فى مناصب السلطة الرئيسية، وربما كان من تقلدوها فى السابق يتقاعدون فى مسقط رأسهم إذا كانوا قد نزحوا من الأقاليم. ولا بد أن تغيير الوجوه هذا كان يمتد بطريقة ما إلى أسفل فى صفوف طبقة الموظفين قبل أن يتلاشى. وكانت المقابر الصخرية فى العمارنة أمارة من أمارات القرب من الملك أو المسئولين المفضلين لديه، وكانت تعبيراً عن الولاء للنظام الجديد. وحيث إن عددها كان قليلاً نسبياً، فقد يمكننا أن نتخذها دليلاً على أنه حتى فى ظل الظروف

القصوى المحيطة باعتلاء العرش هذا على وجه التحديد، كان تغيير الوجوه محدوداً بشدة فى عدده، وإن لم يكن بالضرورة فى النفوذ. ونحن هنا نتحدث عن زمرة ملكية محدودة تضم ما بين عشرين إلى ثلاثين رجلاً فى وقت واحد. وكل من انتقلوا إلى العمارنة ولم يكونوا ينتمون لهذه المجموعة المغلقة تركوا وراءهم جذوراً إما فى المدينة الملكية أو فى الأقاليم، وهى الجذور التى كانت تشمل منطقة عائلية داخل الجبانة، وضيعة ريفية للاستمتاع بالتقاعد، فى حالة الأقلية الثرية. والواقع أنه ربما شجع الانتقال إلى العمارنة عمل مخططات المدافن حول مقبرة العائلة القديمة. والمقابر التى أقيمت فى العمارنة كانت تحمل فى نقوشها طابع أفضليات الملك الجديد. وبدلاً من أن ينعم صاحب المقبرة باهتمام عائلته، حيث يمضى الساعات فى ضيعته، ويتأكد من أنه على وفاق مع بعض آلهة العالم السفلى، نجده الآن يتطلع فى ذل وتعبد بينما العائلة الملكية تعبد آتون وتستعرض نفسها فى أنحاء العاصمة. ففى خلوة مقبرتك كان مخطط إخناتون الجديد ينذر بأن يكون معك إلى الأبد.

وكان هناك جزء من أية مدينة ملكية تشغله عائلات هى موطنها الدائم، وكان جزء آخر يقيم فيه أناس من الأقاليم جاءوا من أجل المستقبل الوظيفى، آملين فى أن يوفر موطئ قدمهم الفرص لأبنائهم وأقاربهم. وفى عصر إخناتون كانت المدينتان الملكيتان الرئيسيتان هما طيبة ومنف. فمن أين جاء معظم سكان العمارنة؟ لا بد أن إخناتون كان يمضى فى السنوات الأربع الأولى من حكمه الكثير من الوقت فى طيبة، بغرض الإشراف على تشييد المعابد الجديدة وللاحتفال بعيد الحب سد الخاص به، الذى أقيم مبكراً جداً فى فترة حكمه. وتبين نقوشه البارزة قصراً فى مدينة طيبة نفسها. وكان أبوه أمنحتب الثالث يمضى كذلك أوقاتاً كثيرة فى طيبة فى الأيام الأخيرة من حياته. ولهذا الغرض بنى قصر ملكاتا الذى كان كبيراً بما يكفى لإقامة أفراد البلاط طوال الأسابيع، بل ربما الشهور، التى كانوا يقضونها هناك. إلا أن ملكاتا لم تكن بالمكان القريب من أية مدينة ملكية، وباستثناء وجود رمزى لمن يرعون القصر، ربما لم يكن يستخدم كثيراً بعد وفاة أمنحتب الثالث. والواقع أن الأدلة التى عثر عليها فى طيبة لا تؤيد الفكرة القائلة بأن ملوك الأسرة الثامنة عشرة أقاموا هناك فترة طويلة تكفى لضمان البناء الدائم لمنازل المسئولين جميعاً الذين كانوا يديرون أعمال الملك ومن كانوا

يعولونهم. وكان أقرب شىء إلى «القاعدة الأساسية» للملوك هى منف، وكان الكثيرون من طبقة الموظفين التى كانت تخدم مصالح الملك تقيم هناك إقامة دائمة. ولا بد أن مصالح إخناتون كانت مطابقة فى بعضها لمصالح أسلافه، وكانت جديدة فى بعضها الآخر عند تعيين هيئات معابد آتون. ولا ندرى من أين جئ بتلك الهيئات، رغم أنه من غير الممكن أنه كانت هناك جماعة مناسبة متاحة تقع خارج طبقة المجتمع التى كانت فى العادة من يشغل المناصب الرسمية. إلا أنه بالنسبة للكثيرين فإن أكثر الأماكن احتمالاً لإقامتهم فى السابق هى منف، حتى وإن كانت جذورهم العائلية فى الأقاليم، بما فى ذلك طيبة نفسها. (وكانت الرسالتان الفريدتان اللتان كتبتا من العمارنة وجاء ذكرهما آنفاً موجهتين إلى أقارب يقيمون فى طيبة، حيث عثر عليهما، وكانت إحداهما لأخ يعمل "كاتب خزانة". وقد عثر عليهما بالصدفة فى إحدى المقابر. فهل كان الكاتب يأمل كذلك أن يدفن بين أقاربه فى طيبة؟). وعندما انتهت التجربة وغادر توت عنخ آمون العمارنة وأصدر مرسوماً بترميم المعابد، صدر هذا المرسوم من المقر الملكى فى منف رغم أن معبد آمون فى طيبة كان هو المستفيد الرئيسى[92].

وبينا فى الفصل السادس أن الاقتصاد المصرى القديم ينظر إليه باحثون كثيرون على أنه بناء من طبقتين: أى الجمع الموجه وإعادة توزيع السلع فى صورة رواتب فى الجزء العلوى، وتحتها اقتصادات القرى المحلية المغلقة الواقعة خارج مؤسسات الدولة العديدة، بحيث لا تترك مجالاً لوجود أية سوق حرة للسلع، ولو حتى سوق محدودة. وبالنسبة لمجتمع الدولة الحديث بصفة عامة والعمارنة على وجه الخصوص، لا بد أن نسأل أنفسنا هذا السؤال: هل يبرر مثل هذا النظام كل ما نراه؟

لقد أتيحت لنا الفرصة فى الفصل الرابع لكى نلفت الانتباه إلى واحدة من النتائج المادية لرؤية قديمة ذات بناء محدد بوضوح للمجتمع، وهو المجتمع الذى يتكون من عدد صغير من كبار البيروقراط وعدد كبير ممن سواهم. وكانت الفئة الثانية تعتمد اقتصادياً على الأولى: كما هو الحال فى مدينة كاهون (وربما الكثير غيرها من مدن الدولة الوسطى). وهذا يقدم نظيراً مادياً للنظام الاقتصادى ذى الطبقتين الذى بيناه آنفاً. وجرت مقارنة هذا المجتمع النموذجى كذلك فى الفصل الرابع بالعمارنة. وكما رأينا الآن بتفصيل أكثر فى العمارنة، فإن التدرج المستمر بصورة أو بأخرى فى حجم

المنازل وغيرها من مؤشرات المكانة (انظر الشكل 101)، وذلك النمط الأفقى المتداخل للمنازل ذات الأحجام المختلفة، يوحيان بنمط من العلاقات الاقتصادية التى تتسم بشىء من التعقيد. وتبدو الأجزاء السكنية من المدينة للعالم بأسره على أنها تجمع للقرى والأحياء، لكل منها طبقاته الكثيرة من الاعتماد، الاقتصادى وغيره. إلا أنه إذا كان مخطط المدينة يوحى بوجود تنوع كبير فى الحاجات والظروف الفردية الخاصة بكل أسرة، فما يتبعه هو أن النموذج الاقتصادى ذا الطبقتين عليه أن يوفر وسائل للعرض على قدر مساو من المرونة ومولفة توليفاً دقيقاً، فى المقام الأول من قطاع الدولة المسيطر. وفى هذا تحد للمنطق، وكذلك لتلك الأدلة التى لدينا من الدولة الحديثة. ذلك أنه يبدو أن الدولة الحديثة كانت موجهة نحو البيروقراطية الممتدة توجيهاً يقل بصورة ما عن الدولة الوسطى.

ولا يخامرنا الشك فى أن الوسائل الخاصة كانت موجودة لتلبية جانب الطلب فى الاقتصاد. ويتضح هذا بجلاء فى التدابير الضخمة، وإن كانت متباينة، التى كانت تتخذ لتخزين الغلال وغيرها من السلع فى المساكن الخاصة. وربما كان الفائض يأتى من محصول المالك (فى الأراضى المملوكة أو المستأجرة)، أو مما تقدمه الدولة من رواتب، أو من كليهما معاً. ولا بد أن نقبل كذلك أن نسبة من المسئولين فى العمارنة كانت لهم صلات بضياع ومنازل بعيدة فى أقاليمهم الأصلية. ولذلك كان المسئولون الأكثر نجاحاً مؤسسات مصغرة. وكانت أفراد عائلاتهم يشتغلون كذلك، وبدرجات متفاوتة، بالتصنيع. وكان لدى الضياع الخاصة فائض فى المواد الغذائية والسلع تتخلص منه، إما من خلال الهدايا أو عن طريق البيع، وكان «الجلابون» يفوضون فى بعض الأحيان بالبيع. وكان ذلك النظام الاقتصادى المختلط فعالاً، ذلك أنه كان يوزع الموارد بتدرج متكافئ بعض الشىء فى أنحاء هذه المدينة الكبيرة.

لم تكن العمارنة مدينة مصرية تقليدية. ولم يكن ممكناً لأية مدينة ملكية أن تكون كذلك. فلا بد أنه كانت لكل من منف وطيبة وبر رعمسو فى الدلتا شخصيتها الفردية النابعة من مبادرات الملوك الطامحين. ومع ذلك فما زالت البقايا التى فى العمارنة قادرة على إلقاء الضوء على مجتمع الدولة الحديثة على كل المستويات، من القمة حتى القاعدة. وهناك جانبان لا بد من التأكيد عليهما بصفة خاصة. أحد هذين الجانبين هو

ترابط المجتمع المصرى الشديد، من خلال العلاقات الحميمة التى كانت تربط سكان المدينة بالبلد، حتى أنها جعلت من مجموعة من القرى عاصمة عظيمة. وكان للأثرياء مكانتهم ورعايتهم، غير أنهم لم يكونوا بمنأى عن الحياة العادية. كما أنه لا يمكننا التعرف على وجود طبقة عاملة تعيش وتعمل خارج نمط الأحياء المترابط ترابطا شديداً، أو حتى نشك فى وجودها. ولم تكن المدينة فى مصر القديمة مكاناً غريباً، رغم أن الحراك الداخلى أحدث مواجهات ومفاضلات كثيرة بين الغرباء. لقد كانت جزءاً لا يتجزأ من المجتمع ككل. أما الجانب الثانى فهو فصل حياة الملك والعائلة الملكية عن الحياة الواقعية، أو إزالتها منها تقريباً. فقد عاشت معزولة من الناحية المادية فى ممر من المبانى التى كثيراً ما كانت تربطها فى حجمها وأسلوبها علاقة بسيطة بالبيئات السكنية الخاصة حتى بكبار مسئوليها. كما أنها كانت تعيش فى عزلة نفسية فى جو مشحون من التملق والطقوس الدينية والمواكب العسكرية. وكان لا بد أن يكون الاتصال هناك بالمسئولين، إلا أن هذا كان ينظم فى دار الملك، التى كانت تقوم وسط شبكة من العلاقات الاقتصادية والسياسية، وكانت تمثلها على أرض الواقع سلسلة من المبانى المختلفة تمثيلاً جيداً.

وخارج المناطق الملكية، وفى أحياء المدينة المزدحمة، كان الملك وحاشيته يتراجعون للخلف، وكانت الأيقونات هى أهم ما يذكر الناس بوجوده. وفى المنازل الكبيرة نجد المسئولين يعيشون الحياة الطيبة القائمة على الدخل الخاص وهبات الدولة التى وعدت بها النصوص المدرسية، أو يكافحون لتحقيق هذه الحياة، حيث كانوا يقسمون وقتهم وولاءهم بين بيتهم فى المدينة وموطنهم الأصلى فى الأقاليم، وكانوا يكتبون الرسائل ويقومون بالزيارات للحفاظ على هذه الصلة. وكان يتزاحم فى البيوت الصغيرة مجموعة من ذوى المكانة الدنيا، بعضهم من الخدم، والبعض الآخر من أصحاب المناصب الصغرى، وكان الكثير منهم يصنعون أشياء كى يبيعوها: كالنعال وقماش الكتان والأسِرَّة والسلال والخرز؛ وربما كان الصيادون والمراكبية بالقرب من شاطئ النهر يتولون تعدية بائعى الخضروات والعلف والحمام والعسل إلى العمارنة. وكان المزيد من السفن يأتى بالغلال والماشية والنبيذ وغيرها من المنتجات من ضياع المؤسسات: أى الأسر الخاصة الكبيرة والقصر والمعابد. وكانت المقايضة لا تتوقف: مساومات القوم

الأدنى وهم يشترون ما تهفو إليه نفوسهم بسلة أو كيس من الأشياء البسيطة، وصفقات الجلابين فى مخازن المؤسسات حيث يشترون بالذهب والفضة، أو داخل بيت من يعملون لديه يبيعون الغلال واللحم.

أناس مشغولون بالعمل، وقوم عاطلون، وبعض الناس يشعر بلا شك باليأس، وكثير منهم منهك: فجزء كبير من سكان المدينة عالمهم مستقل حتى عن ملك غريب الأطوار تسيطر عليه فكرة واحدة. وكان لا بد أن تصبح هذه هي المكافأة طويلة الأجل التى يحصل عليها الحكام الذين ينشدون حياة من الانفصال السامى ويتخلون عن نفوذهم للإنسان الاقتصادى.

خـاتمــة

بدءاً من العصر البرونزى

إن مصر التى نتركها مع عصر العمارنة تنتمى إلى المرحلة الأخيرة من العصر البرونزى فى شرقى المتوسط. ولا ينبغى أن نعترض بشأن الكثرة النسبية للبرونز مقابل الحديد فى تلك الفترة: فمصطلح العصر البرونزى يقصد به الإشارة إلى عصر الدول الأولى التى قامت على أسس متينة. ويمكننا أن نرى فيها صوراً مميزة لأنفسنا ولمجتمعاتنا. وهى بذلك تشكل علامة بارزة ومهمة فى تقييم التقدم البشرى. فما هو الشوط الذى قطعته البشرية، وقطعناه نحن، منذ ذلك الوقت؟

إن الحضارة تحوى مفارقة. فهى محصلة السلوك الذى يمكن أن يكون مقززاً عندما يواجه مواجهة فردية. بيد أننا عندما نقف بعيداً نغفر ذلك، لأننا نقر المنتج النهائى. وهذا التناقض الوجدانى فى القيم يتضح عندما نمعن النظر فى "الحكام العظام" و"الفترات العظيمة" فيما مضى من الزمان.

وفى السنوات القليلة الماضية شهد علم المصريات ظهور ما لا يقل عن ثلاثة كتب عن حياة وعصر فرعون الدولة الحديثة رمسيس الثالث، "العظيم". وهى جميعاً أعمال جادة، وأحدها دراسة رائعة لمجتمع العصر كتبه أستاذ للمصادر الأصلية لا شك فيه [1]. وتقر ثلاثتها، وإن كانت بدرجات متفاوتة، بأن هذه كانت حقبة مجيدة، وأنه ينبغى علينا الإعجاب بانتصاراتها، وأن نهتف فى بعض الأحيان عندما يفوز المصريون. ويساهم المؤلفون فى فلسفة تاريخ بعينها: وهى أن وجود الملوك «العظام» أمر طيب، وأن العظمة هى محصلة الاحترام المكتسب فى الخارج من خلال الشجاعة الحربية، ومن الثروة والاستقرار فى الداخل، اللذين تعلن عنهما الأشغال العامة التى تتحول إلى شكل دائم من الإحساس بالإنجاز فى البلاد ككل. وبهذه الأحكام نضع أنفسنا على الجانب المنتصر ونعزز هذه الفلسفة. إن رمسيس الثانى عظيم لأننا عندما نقرأ عنه ننظر إلى العالم من خلال عينيه ويعجبنا ما نراه: أى النصر والنجاح.

وفلسفتنا نحن فى هذه الحالة فلسفة تنحدر انحداراً مباشراً من القدماء أنفسهم. فهذه كذلك هى الطريقة التى كانوا يرون بها الأشياء.

إن صورة الحاكم الحكيم ذى القوة، الشديد فى العدل ولكنه جواد على من يحترمه، هى النموذج الذى يهلل له الناس حتى يومنا هذا، رغم أن أعداءهم سوف ينظرون إلى زعمائهم هم النظرة ذاتها. وواقع الأمر أن الطابع المحلى لهذا النموذج ينسفه نسفاً باعتباره فلسفة ذات مسار يهدف إلى المنفعة العامة. فأى إنسان ينبرى لكتابة تاريخ بلد من البلدان أو شعب من الشعوب التى فتك بها رمسيس الثانى سوف يرى ما حققه من "انتصارات" بطريقة مختلفة تماماً.

والواقع أن هناك دراسة كهذه تماماً عن بلاد النوبة(2) فالمؤلف و ى آدامز يتبنى فلسفة الكتابة من وجهة نظر نوبية. فالمجتمع النوبى قبل الغزوات المصرية "نموذجا رعويا"، ويصبح المصريون عنده المدمرين ورمسيس الثانى "الفرعون المصاب بجنون العظمة". وتأتى المشكلة التى تواجه هذه الرؤية للتاريخ النوبى لاحقاً. وفى النهاية استوعب النوبيون درسهم وأصبحوا هم أنفسهم إمبرياليين، حيث غزوا مصر وتولوا الحكم فترة من الزمن باعتبارهم الأسرة الخامسة والعشرين. ولا بد أن خلفاء هؤلاء الفراعنة السودانيين، الذين يسميهم المؤرخون ملوك مروى، قد فرضوا سطوتهم فى أعقاب ذلك على الكثير من الأقوام الرعوية البسيطة فى السهول السودانية الشاسعة. وفى المستقبل قد يأتى أحد علماء الآثار تخصصه هو هؤلاء الناس ليكتب تاريخاً لهم يكون فيه ملوك مروى لصوصاً مختالين. ومن بدهيات التاريخ أن الخاسر يقلد سيده، لو أتيحت له الفرصة.

ومع هذا فإن القارئ وهو يومئ بالموافقة قد يشعر كذلك، استجابة لرؤية المنطق، أن الحضارة حظيت بالرعاية فى ظل الملوك «العظام» وحدهم. فدورهم فى الإشراف على مجتمع ازدهر فيه الفنانون والمفكرون يفوق على المدى البعيد للتاريخ الخسائر التى حدثت بين من كان عليهم أن يسددوا الفاتورة. وحقيقة أننى أكتب والقارئ يقرأ، بدلاً من أن يجمع كلانا الحبوب البرية، أمر ممكن فقط لأن الممالك والإمبراطوريات السابقة حفرت واحات من وقت الفراغ للموهوبين والمتعلمين. وبدون استعداد الإنسان لأن يقهر جيرانه لعاش فى عصر حجرى أبدى.

وهذا أمر لا سبيل لإنكاره. إلا أنه من المفارقات أن ظهور تلك المواقف والمؤسسات والتقاليد التى تحد من السلطة المطلقة وتضع أخلاقيات عامة لإدارة الأمور، وبذلك تقضى على وجهة النظر الأبوية القديمة الحميمية الخاصة بالحاكم النموذجى، هو الذى يقدم الادعاء الرئيسى بوجود تقدم فى تاريخ الحضارة. إلا أنه بينما يرعى الحكام العظام ومن يعجبون بهم أنفسهم، تحتاج قوى المعارضة العقلانية إلى الرعاية والتعزيز.

لقد بدأت الحضارة بداية جيدة، وتعد مصر نموذجاً جيداً لمنتجاتها الأولى. وبعيداً تماماً عن المنجزات المذهلة فى الفنون، والنمط المفتوح شديد الجاذبية للتأمل الفكرى (الذى نراه على أنه ديانة)، ابتكرت الدولة الفرعونية فى أوجها (كما أدركنا مؤخراً) نظام حكم على قدر من العقلانية حافظ، عن طريق التدخل المؤسسى الضخم فى الاقتصاد الزراعى، على استقلال المعروض من الغلال وعلى أسعارها وبالتالى استقرار الهيكل الاقتصادى العام ورفاهية البلاد الاقتصادية العامة. كما أنه كانت بيدها سلطة توجيه العمل فى مشروعات الأشغال العامة، حيث استغلتها على نطاق واسع، وكانت تدفع فى المقابل أجراً أساسياً فى صورة راتب من الغلال على مستوى الكفاف وما أعلى منه. وقد قبلت مضاعفة أعداد "الموظفين" الذين يعملون لبعض الوقت، وبذلك وسعت مزايا المرتبة والدخل الإضافى. وأتاحت الدولة الفرص للموهوبين. وسمحت لقطاع اقتصادى خاص محدود أن يزدهر. وهذا كحل لمشاكل خلق "الدولة" وترابط أطرافها يمكننا أن نسميه، على سبيل التيسير، الحل المصرى. وكان جهازها يفتقر إلى النضج فى أوجه كثيرة وكان يقوم على أيديولوجيا قوية غريبة عن مكانها وزمانها، وهو جهاز يبدو فى الوقت الراهن فى موضع اتهام: فقد كان بكامله من أجل مجد الملوك والآلهة. كما أنه لم يكن ارتقاء فريداً. وكان له ما يناظره فى أماكن أخرى من العالم، فى بلاد الرافدين وفى وادى السند وفى الصين وفى الأمريكتين قبل كولمبس. إلا أنه رغم العناصر البدائية والغريبة يمكننا أن نتعرف فى الشكل العام على ما يبشر بنمط شائع من الدولة الممولة. وكان ذلك حلاً للمسألة الخاصة بالطريقة التى ينبغى أن يرتبط بها كل من الدولة ورجالها بالآخر، وهو لايزال يحظى بقبول واسع النطاق، وإن كان يتخذ أشكالاً مختلفة.

ومع ذلك فليس ثمة خط عقلانى مباشر ومتصل للارتقاء. فبحلول الدولة الحديثة فى مصر كانت العملية الارتقائية فى هذا الاتجاه قد توقفت. وكانت مصر الدولة

الحديثة دولة ذات هيكل فضفاض بصورة أكبر. وعقب ذلك مضت مصر فى طريقها لتصبح مجرد جزء من عالم البحر المتوسط يتميز بخليط يتسم بالفوضى والطيش يتكون من سلطة الدولة وتأكيد الأفراد لذواتهم كان الغرب الحديث من نتاجه. ويبدو الحل المصرى اتجاهاً يتطور ليصبح درجة متطرفة فى مسار ارتقاء المجتمع، ومن ثم يعتدل ويعود إلى عالم أكثر تعقيداً من التسوية بين الدولة والشعب. والمنطق يقف فى صف الدولة الممولة. فهى قادرة على تحقيق الكثير من الناحية المادية إذا ربط الناس أنفسهم بالأهداف، أو على الأقل قبلوا بها. ولكن تأكيد الذات يسمح للمنطق على هذا المستوى بأن يحقق انتصارات مؤقتة وحسب.

لقد جعل التقدم العالم الحديث معترفاً به فى جوانب كثيرة مقارنة بالعالم القديم، أو حتى الماضى القريب. ومع ذلك فكثير من التقدم فى المعرفة وفى التكنولوجيا أسفر عن كونه غير أخلاقى. فهناك من أزهقت أرواحهم، مثلما أن هناك من تحسنت حياتهم. والاعتراف الفورى منا بحكام الماضى «العظام» هو نفسه أمارة أكيدة على مقدار قلة ما تغير من أشياء أساسية. ويعكس هذا مشهداً عالمياً آنياً حياً ذا مؤشرات تدل على سلطة هذه الصورة الرجعية التى لم تنته، وعلى القوة الدائمة للرموز والأيديولوجيا والمعتقدات والطقوس، والميل إلى التقاليد العجيبة. تلك السلسلة الكاملة من هذه الأدوات التى تم بها التحكم فى الناس بصورة جماعية منذ عصر البرونز.

وإذا كانت لدينا الجرأة على قبول أن تقدم الحضارة يجب قياسه بظهور تلك العوامل التى تحد من ممارسة السلطة التى بدأت العملية فى مستهل الأمر أو تضفى عليها صبغة إنسانية، فما الذى يجعلنا مختلفين عن أسلافنا الأقدمين؟ إننا ينبغى أن نشك فى الدين. فبالنسبة للغرب وبعض أجزاء الشرق ترجع أصول الديانات الرئيسية نفسها فى الوقت الراهن إلى الشرق الأوسط القديم وتعكس قيوده، وليست أخلاقياتها الخاصة بها بالأمر الرائع. وهى فى عدم تسامحها واستعدادها للانضمام إلى قوى تشكيل الدولة زادت من تفاقم البغض البشرى، وخلقت نسخة سماوية من «الحاكم العظيم».

إن ما نختلف فيه نحن فى واقع الأمر عمن سبقونا يكمن فى امتلاك الخيار فيما يتعلق بطبيعة أساطيرنا، وفى فهم الدور الذى تقوم به الأسطورة فى عقولنا، ولو كان

فهماً غير مكتمل. ونحن فى قطبى حياتنا - أى استراتيجياتنا الشخصية الحدسية التى تساعد على البقاء، وتوجيه أيديولوجيات دولنا ومجتمعاتنا وأدواتها لنا - نظل كما كنا منذ ظهور المجتمع المعقد لأول مرة. فنحن لا نزال نعيش فى ظل عصر البرونز. وتبين ذلك بقوة مجتمعات الماضى البعيد، كتلك التى كانت فى مصر القديمة. ويمكننا أن نرى فيها عظام الوجود البشرى العارية منذ ذلك الوقت. ونحن موضوعون بطريقة مختلفة فى نمو الأسطورة العقلانية وأصول المعرفة المختزنة. وأهم المعارف هى رؤية العقل الموضوعية، وطبيعة الأسطورة نفسها ودورها. وفى مقدورنا أن نخضع أنفسنا للدرس العلمى، وأن نرى أنفسنا ومجتمعاتنا على أنها نتاج عالم قديم، حيث نفصل ونبحث عما هى فى واقع الأمر العناصر الباقية من الأسطورة غير العقلانية والأصلية، والأيديولوجيات المفرقة والمحلية والرجعية التى ما زالوا يدعوننا إلى دعمها. لقد كان «الحاكم العظيم» بكامل عدته من وسائل الإيضاح المرئية أداة ضرورية لبدء عملية التمدين. أما الآن فقد كشف عنه القناع. وبات بإمكاننا أن نضعه فى سياقه الصحيح. وما أن بدأنا فهم العملية واختيار الأساطير الإنسانية العقلانية أهدافاً لنا، فينبغى أن تكون حاجتنا إليه أقل. إن الدراسة الحقيقية للإنسان تهدم ما استقر فى أذهاننا من أفكار.

اللوحات والأشكال

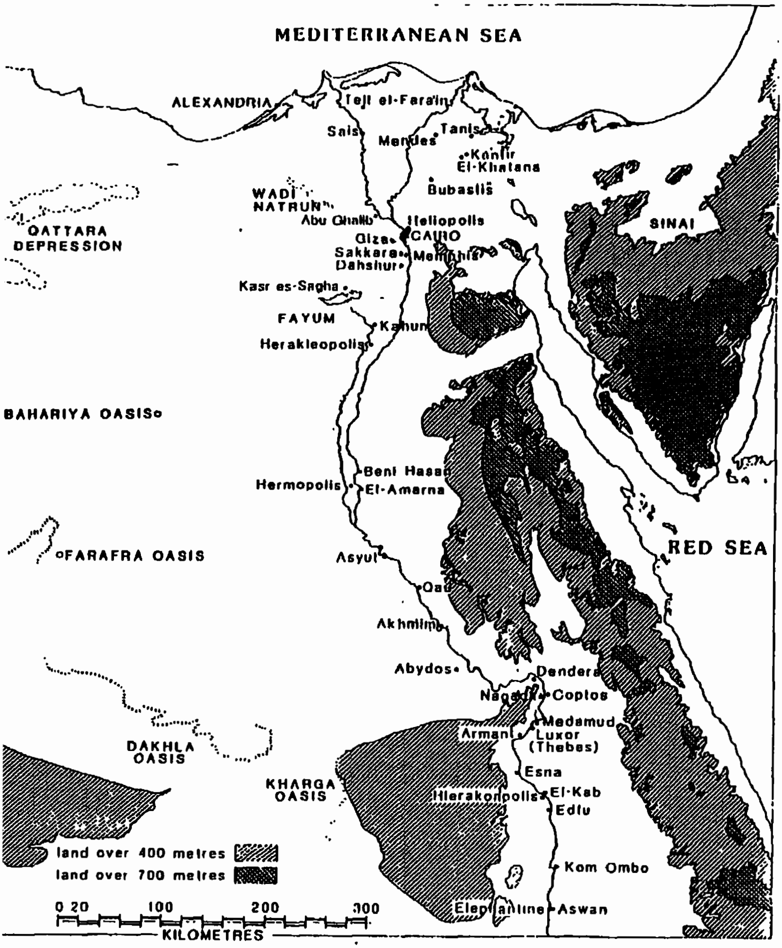

الشكل 1 خريطة لشمال وادى النيل تبين مواقع مصر القديمة.

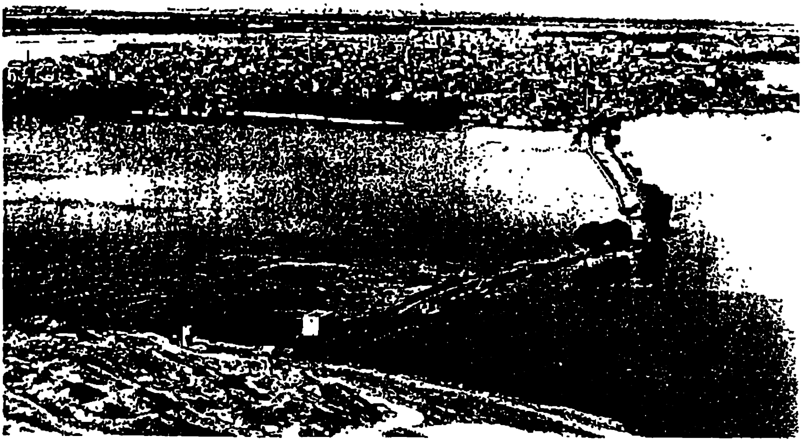

اللوحة 1 منظر لمدينة أسيوط فى ذروة موسم الفيضان التقط فى وقت سابق من هذا القرن، من L.
Borchardt and H. *Ricke, Egypt, Life of the people,* Orbis Terrarum, 1930.

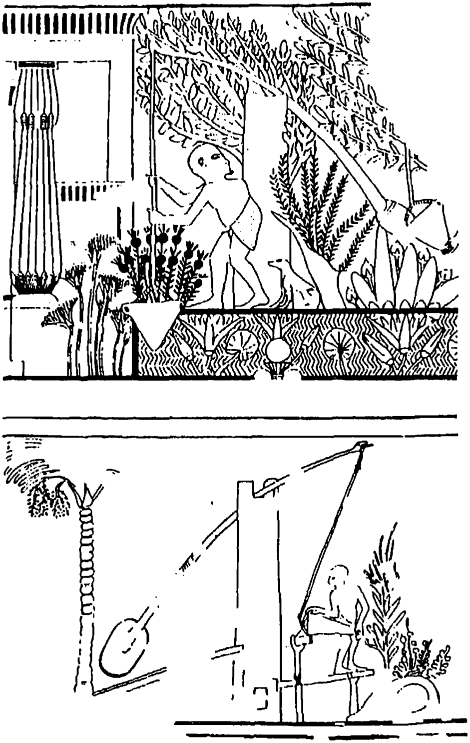

الشكل 2 زراعة الحدائق والبساتين الدائمة: طريقة الدولة الحديثة المحسنة، باستخدام الشادوف. ويبين المنظر الأعلى شادوفاً بسيطاً يستخدم لري حديقة بجوار إحدى المقاصير. ويقف الرجل (الذى وراءه الكلب) على شاطئ الترعة ويسحب العود الأفقي لأسفل كي ينزل الدلو في الماء. ويستقر عود الشادوف المحوري على عمود طويل من الطوب، وبه ثقل مستدير في الطرف المقابل. أما دلو الشادوف الآخر فيتم تفريغه في الطرف الأيمن من الصورة. مقبرة ايبي، طيبة، حوالى ١٢٥٠ ق.م. من N. de G. Davies, *Two Ramesside Tombs at Thebes*, New York, Plate XXXIX. وتبين الصورة السفلى شادوفاً أكثر اكتمالاً أثناء العمل. وهو قائم بجوار بئر (فى الطرف الأيمن من الصورة)، وتبرز فوقه منصة يقف عليها العامل. هذا الرجل يفرغ الدلو فى حوض مرفوع يمر من خلال عمود الشادوف المبني من الطوب ليروى بستاناً. مقبرة نفرحتب، طيبة، حوالى ١٣٤٠ ق.م. ، من N. de G. Davies, *The Tomb of Nefer-hotep at Thebes*, New York, 1933, Plate XLVI.

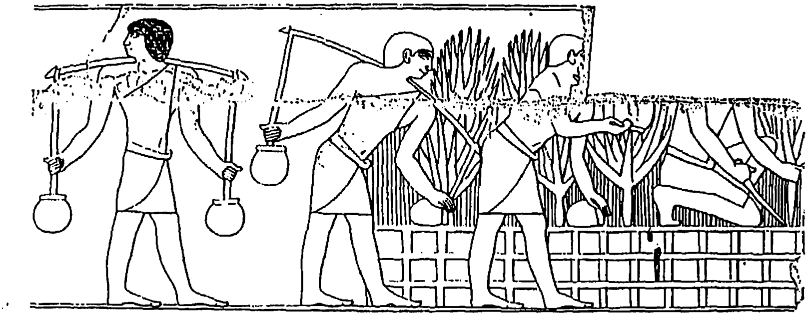

الشكل 3 زراعة الحدائق الدائمة: الطريقة الأصلية. الماء يحمل إلى أحواض الزراعة المربعة فى أزواج من الجرار الفخارية المعلقة فى نير خشبى. وفى الجهة اليمنى يجثو رجل على ركبتيه ويزرع الخس فى حفرة باستعمال عصا. مقبرة مروروكا، سقارة، حوالى ٢٣٠٠ ق.م.، من P. Duell, *The Mastaba of Mereruka 1*, Chicago, 1938, Plate 21 (Redrawn by B. Garfi).

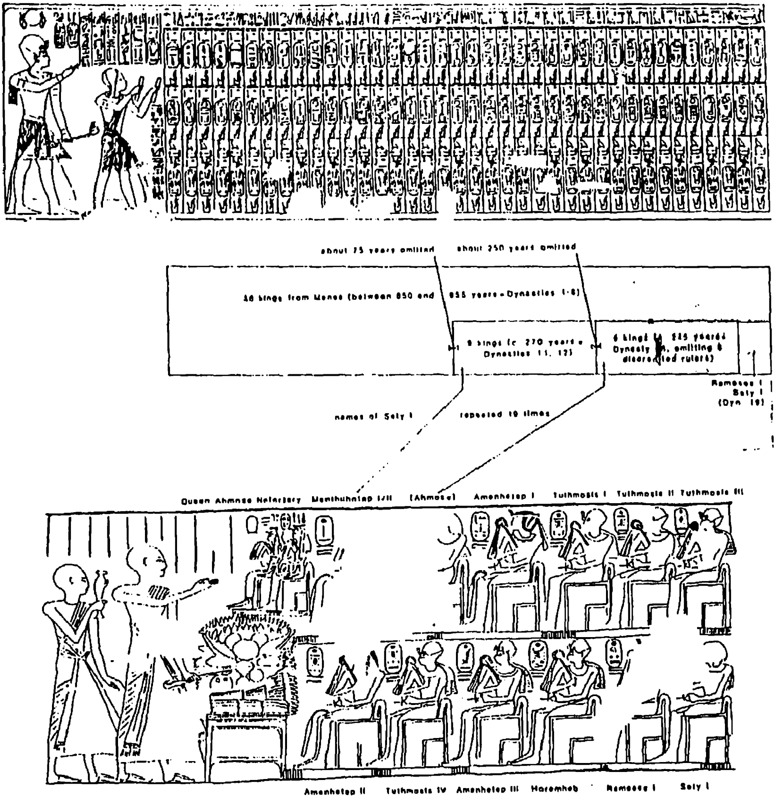

الشكل 4 أعلى: إعطاء الشرعية للحاضر عن طريق تبجيل نسخة محررة من الماضى. الملك سيتى الأول (والأمير رمسيس) يقدمان القرابين لأسماء ملوك جمعتهم سلسلة متصلة تربط سيتى الأول بمينا، وهو أقدم ملك كان لدى المصريين سجلاً موثقاً له. وفى الرسم التخطيطى المصاحب قسمت الأسماء إلى بلوكات تمثل فترات الحكم الشرعى حسب تفسير كهنة أبيدوس. والفجوات التى فى الزمن والتاريخ «الحقيقيين»، حسبما تبدو لنا، كانت فترات لحقت بها وصمة عار. وتركيز القائمة على ملوك العصور القديمة أمر مثير للاهتمام، ويفترض أن هذا يعطى إحساساً أشد عمقاً بالماضى البعيد. وقد تحقق ذلك بتضمين القائمة ملوك الأسرة الثامنة، التى كانت فترات حكم ملوكها القصيرة استمراراً لحكم ملوك منف العظام من الدولة القديمة، ولكن فى ظروف أقل شأناً. معبد سيتى الأول فى أبيدوس (حوالى ١٣٠٠ ق.م.). أسفل: تبجيل خاص للبيت الحاكم وأسلافه من أمن مس كبير الكهنة فى صورة من صور عبادة الملك أمنحتب الأول الذى كان قد مضى زمن طويل على وفاته. وعاش أمن مس فى عهد رمسيس الأول وسيتى الأول. من مقبرته فى غربى طيبة، من G. Foucart, *Le Tombeau d'Amonmos*, Cairo, 1935, Plate XIIB، وهى نفسها نسخة قام برسمها فى القرن التاسع عشر توماس هاى.

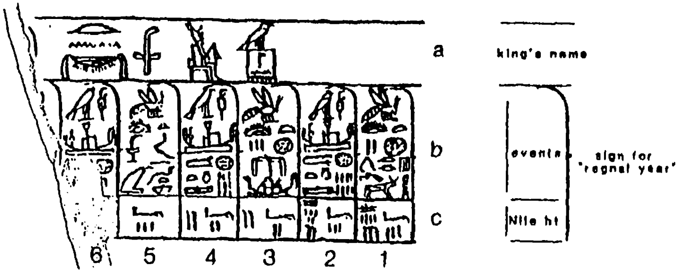

الشكل 5 قطاع من حجر باليرمو يسجل أحداثاً خلال ست سنوات من حكم الملك نتجر من الأسرة الثانية. واسمه مكتوب فى الصف (A). وخانات الصفين (B) و (C) تقسمها تقسيماً رأسياً خطوط انحنت رؤوسها. والواقع أن كلاً من هذه الخطوط هو الرمز الهيروغليفى المستخدم لكتابة كلمة «سنة» (انظر كذلك الشكل F 20 والخانات مقسمة بعد ذلك إلى صفين أفقين، (B) و (C). ويلخص الصف (B) بالرموز الهيروغليفية أحداث السنة الرئيسية: (1) ظهور الملك، والجرى الثانى للعجل أبيس. (2) موكب حورس (أى الملك)، والمرة الثامنة للعد. (3) ظهور الملك، والمرة الثالثة لاحتفال سوكر. (4) موكب حورس، والمرة التاسعة للعد. (5) ظهور الملك، وتقديم .... الإلهة نخبت... احتفال الجت. (6) موكب حورس، والمرة العاشرة [للعد]. وكان الإيقاع الحولى للملك، الذى يقوم على عد ثروة البلاد كل عامين (ربما كان صورة مبكرة من سجل التعداد)، أمراً مثيراً للاهتمام. والصف الأدنى من الخانة (C) يحتوى القياس الدقيق لارتفاع فيضان النيل:(1) ٢ أذرع و4 قبضات و3 أصابع (1.92 متر) ؛ (2) 3 أذرع و5 قبضات وإصبعان (1.98 متر) ؛ (3) ذراعان وإصبعان (1.2 متر)؛ (5) 3 أذرع (1.57 متر)؛ (6) ممسوح. وتباين الارتفاع فى تلك السنوات الخمس 0.78 متر كان يمكن أن يؤثر على غلة الحقول الواقعة فى أماكن أعلى من غيرها.

الشكل 6 مصدر النظام السياسي والاستقرار: تصالح القوى المتصارعة التي يمثلها الإلهان حورس (على اليسار) والإله ست (على اليمين)، وبتصالحهما اجتمع شمل أقسام مصر (انظر الشكل 17). ويرمز للتصالح بربط النباتات التي تمثل الوجهين القبلي والبحري حول الرمز الهيروغليفي الذي يعني "التوحيد". قاعدة عرش سنوسرت الأول (1971–1928 ق.م.) من معبد هرمه في اللشت. J.-E. Gautier and G. Jequier, *Memoire sur les fouilles des Licht*, Cairo, 1902, p. 36, fig. 35; K. Lange and M. Hirmer, *Egypt: Architecture, Sculpture, Painting in Three Thousand Years*, third edn, London, 1961, p. 68 (prepared by B. Garfi).

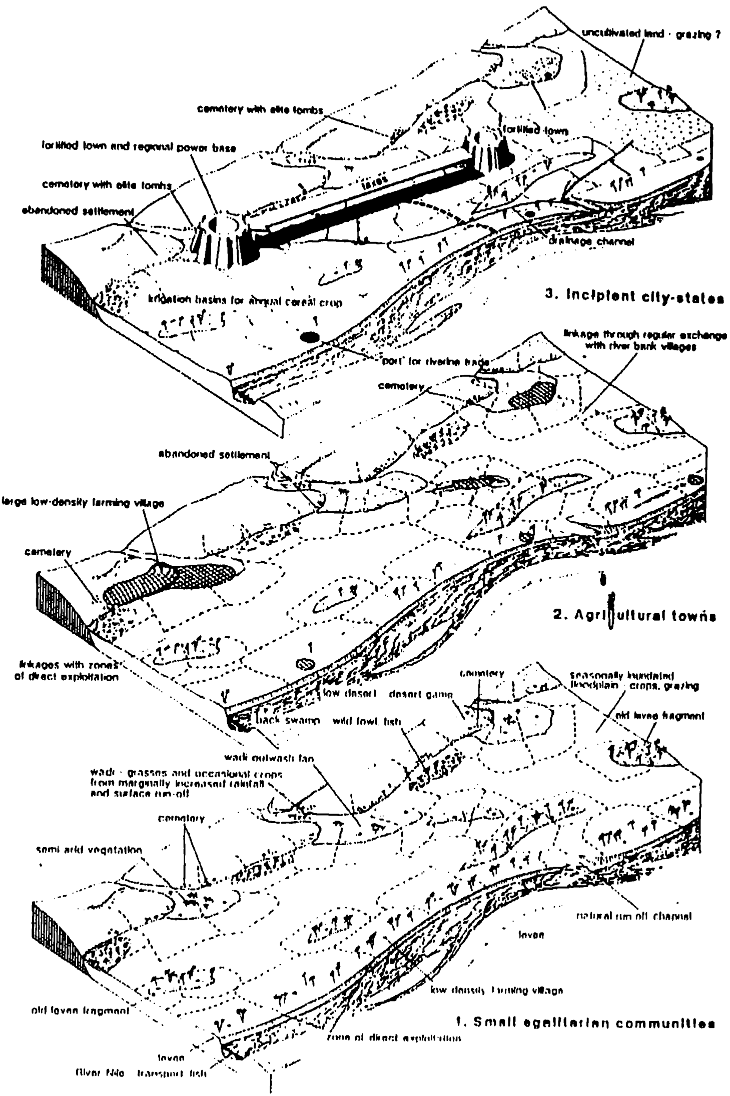

الشكل 7 نموذج لأراضي الوجه القبلى فى عصر ما قبل الأسرات يبين العوامل البيئية المحتملة والنمط المحلى للتوسع الإقليمي والسياسى خلال مرحلة مهمة من مراحل تكوين الدولة.

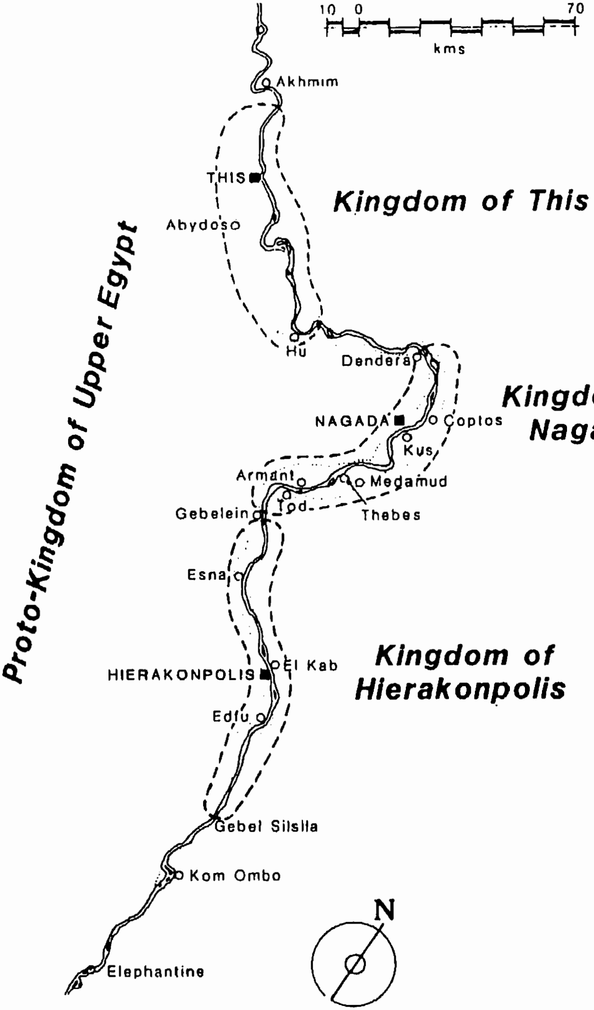

الشكل 8 تكوين الدولة: خريطة افتراضية لأهم الأشكال الأولى للدولة فى الوجه القبلى كما كانت عليه فى أواخر عصر ما قبل الأسرات.

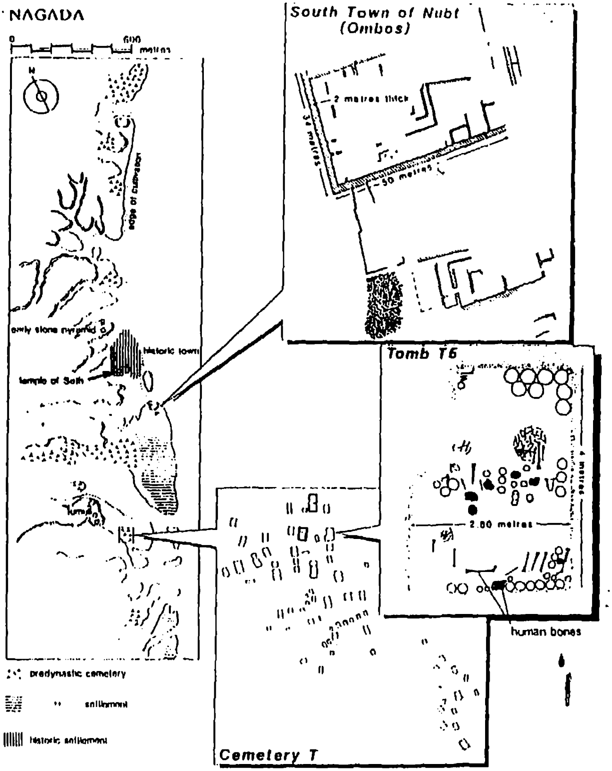

الشكل 9 نقادة: مركز واحد من أشكال الدولة الأولى فى وادى النيل. لاحظ حجم بلدة ما قبل الأسرات بسياجها الضخم من الطوب اللبن وغيره من المبانى التى فى الطرف الشمالى. واحتلت بلدة العصر التاريخى مساحة أقل بكثير، ولكن ربما عوضت ذلك فى زياد كثافة الإشغال. إلا أن معبد ست ظل مبنى ذا حجم متواضع فى أنحاء العصور العتيقة. وجبانة ما قبل الأسرات الواقعة خلف بلدة ما قبل الأسرات هى أكبر ما وصلنا من هذه الفترة. وكانت الجبانة T رغم صغرها تحتوى مقابر مشيدة تشييداً جيداً بطريقة غير معتادة لدفن الأثرياء، وربما كانت مقابر البيت الحاكم فى نقادة. الخريطة الأساسية من W. Kaisar, "Bericht uber eine archalogisch-geologisch Felduntersuchung in Ober- und Mittelagypten", *Mitteilung des Deutschen Archaologischen Instituts, Abteilung Kairo* 17 (1961), 16, Abb. 3 (cf. W.M. F. Petrie and J.E. Quibell, *Nagada and Ballas*, London, 1896, Plate 1A)؛ خريطة البلدة الجنوبية المكبرة من Petrie and Quibell, op. Cit., Plate LXXXV, والمقبرة T5 من المصدر السابق Plate LXXXII؛ والخريطة المكبرة للمقبرة T نفسها من B.J.Kemp, "Photographs of the Decorated Tomb at Hierakonopolis", Jpurnal of Egyptian Arcaeology 59 (1973), 39, Fig. 1 وهى نفسها من Petrie and Quibell, op. Cit. , Plate LXXXVI.

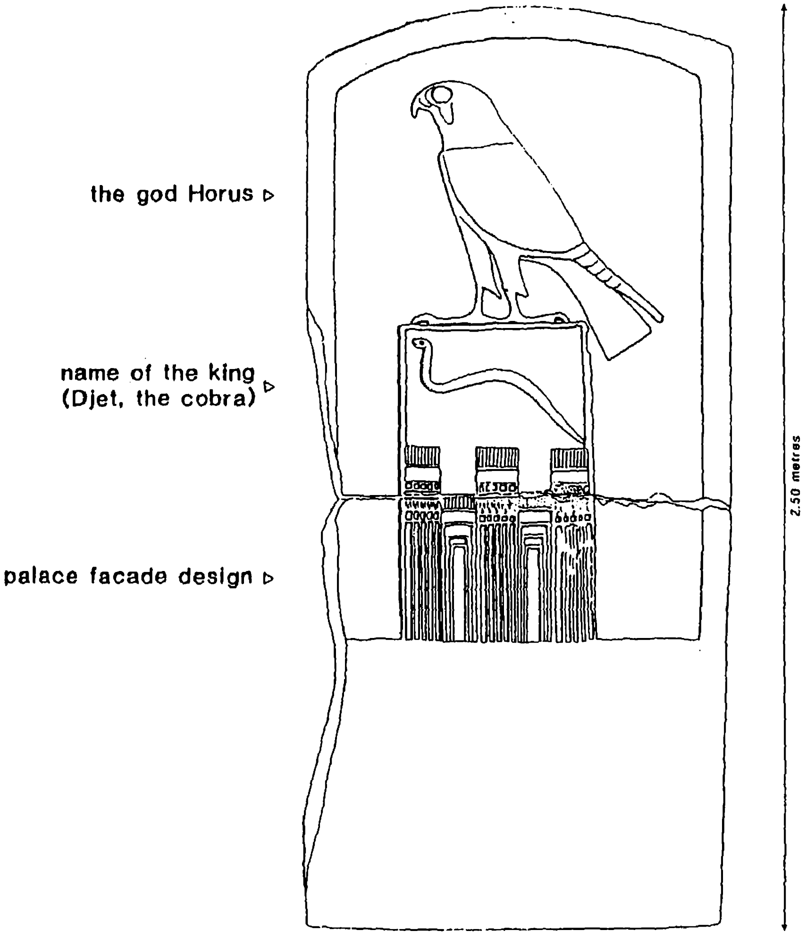

الشكل 10 جوهر النظام الملكى المبكر. اسم الملك جت من الأسرة الأولى (حوالى 2900 ق.م.)، مكتوب بالرمز الفرعونى للكوبرا، وهو يعلو رسم مؤسلب لعمارة القصر الملكى المميزة (انظر الأشكال 12 و17 و18). ويقف فوقه الإله الصقر حورس، الذى كان كل ملك تجسيداً له. اللوحة الجنائزى للملك جت، من مقبرته فى أبيدوس. من A. Vigneau, *Encyclopedie photographic d'art: Les antiquites egyptienne de musee du Louvre*, Paris, 1935, p. 4.

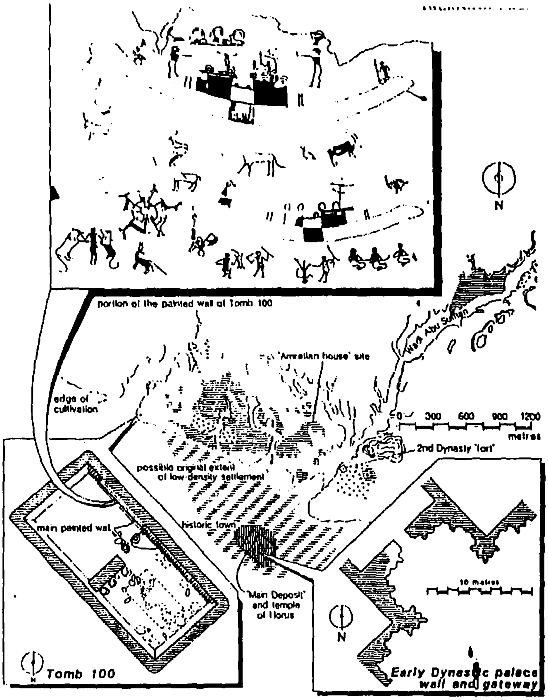

الشكل 11 هيراكونبوليس: مهد المُلك المصرى. تبين الخريطة الأساسية المناطق قليلة الكثافة فى
المستوطنة التى تعود إلى عصر ما قبل الأسرات إلى جانب الجبانات الموجودة فى الصحراء المنخفضة،
والاستمرار المحتمل للمستوطنة أسفل السهل الطينى الحالى، على مكان مروحى الشكل من الحصى والرمال
نقلها واد قديم مدفون تحت الطين. وفى وسط المنطقة الثانية تقع بلدة هيراكونبوليس من عصر ما قبل
الأســـرات (انظر الشكل 25). والخـــريطة من W. Kaiser, "*Bericht uber des Deutschen*
Archaologischen Instituts, Abteilung Kairo 17 (1961) 6, Abb. 1 and M. Hoffman, *The*
Predynastic of Hierakonpolis, Giza and Macomb, I11. end map . نحــو بداية التسلسل
التطورى للمُلك نجد المقبرة 100 («المقبرة المنقوشة»)، وربما كانت مقبرة ملك من ملوك هيراكونبوليس فى
عصر نقادة الثانى (حوالى 3300/3400 ق.م.)؛ وفى الطرف الآخر من الجزء المتبقى من سور عصر
الأسرات المبكر (حوالى 3300/3000 ق.م.) و«الحصن» الضخم المبنى من الطوب اللبن من نهاية الأسرة
الثانية كلاهما آثار العائلة الأرستقراطية التى ظلت تشغل هيراكونبوليس لعدة أجيال بعد بداية الأسرة الأولى.
وبوابة قصر عصر الأسرات المبكر وسوره من K. Weeks, "Preliminary report on the first and
Journal of the قصــر عصــر الأســرات المبكر second seasons at Hierakonpolis. Part II
"الخبيئة الرئيسية*American Research Center in Egypt* 9 (1971-2), unnumbered figure ."
عبارة عن خبيئة من معدات النذور الخاصة بالمعبد جرى إخفاؤها قديماً وهو تعود لعصر ما قبل
الأسرات/الأسرات المبكر ووقت لاحق لذلك، وقد عثر عليها فى سياج معبد حورس القديم. وتقد خريطة مفصلة
لبقايا المعبد فى الشكل 25. وكان من بين المادة التى فى الخبيئة صلاية نعرمر (الشكل 12) وصلاية
هيراكونبوليس الصغرى (أو الكلبين) المبينة فى الشكل 14.

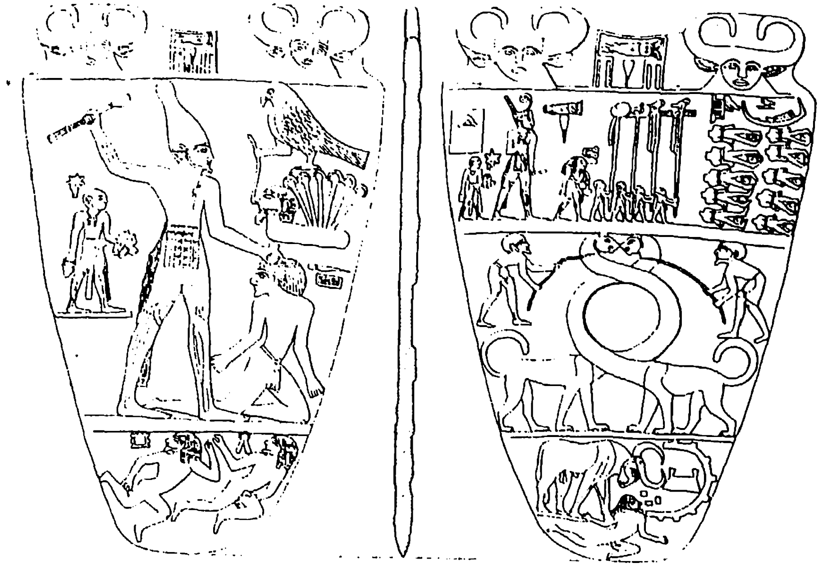

الشكل 12 صلاية نعرمر، وارتفاعها 63 سنتيمتراً، عبارة عن لوح من الإردواز محفور على وجهيه مناظر تحيي ذكرى عهد ملك اسمه الحورى نعرمر (مكتوب فى الجزء العلوى فى «واجهة القصر»)، ولا بد أنه عاش قبيل بداية الأسرة الأولى وربما كان آخر ملوك الأسرة صقر فى هيراكونبوليس وأقواهم. وعلى الجانب الأيسر نعرمر مرتدياً تاج الوجه القبلى أحمر اللون وغيره من شارات الملكية القديمة، ويقف رافعاً دبوسه ويوشك أن يضرب به أسير راكع على الأرض. وبجوار رأس الأسير مجموعة من الرموز الهيروغليفية تشير إلى اسمه على أنه واش. وربما ينقل الرسم الذى فوقه الرسالة المكملة التى تقول إن حورس الملك (الصقر) قد أحرز نصراً على عدو مركزه الدلتا، يفترض أن واش هو حاكمهم. ونجد خلف نارمر شخصية رفيعة المقام تحمل نعل الملك. وفى الجانب الأيمن يزن صور الغزو فى الجزءين الأعلى والأسفل رسم أوسط يعبر عن الانسجام والتناغم، فى هيئة حيوانين خرافيين عنقاهما ملتفان على بعضهما ومأسورين. وفى الجزء الأعلى نجد أن نعرمر، الذى يلبس الآن تاج الوجه القبلى الأحمر ويصحبه رجلان ذوا منصب رفيع ومميز، يسير كى يستعرض صفين من الأعداء المكبلين والمقطوعة رؤوسهم. ويسبق المجموعة أربعة من حملة الألوية ذات الشكل المميز. وهذه الرايات سميت فيما بعد "أتباع حورس"، أو "الآلهة التى تتبع حورس". وبغض النظر عن أصلها، فمن الواضح أنها فى زمن نعرمر كانت جزءاً من مجموعة من الرموز التى ساهمت فى تكون خلق هالة فريدة للمُلك. والرموز التى تعلو الأعداء مقطوعى الرؤوس لا يمكن ترجمتها بثقة. وفى الجزء الأسفل نجد أن قوة الملك القاهرة، التى يرمز لها بالثور، موجهة نحو بلدة مسورة ومحصنة. رسوم الصلايا من J. E. Quibell, "Slate palette from Hierakonpolis", *Zeitschrift fur Agyptische Sprache* 36 (1898), Taf. XII, XIII; J.E. Quibell, *Hierakonpolis* 1, London, 1900, Plate XXIX; W.M.F. Petrie, *Ceremonial Slate Palettes and Corpus of Proto-dynastic Pottery*, London, 1953, للمزيد من المعلومات عن أتبـاع حـورس، انظر Plated J, K. W. Helck and Otto, *Lexikon der Agyptologie*, Wiesbaden, 1975-86, III, 52-3.

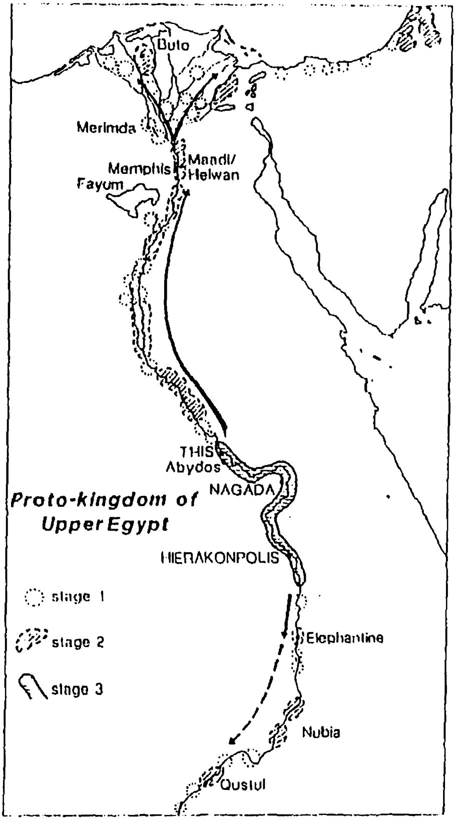

الشكل 13 تكوين الدولة: خريطة افتراضية لمصر عشية تكوين دولة موحدة في بداية الأسرة الأولى. وتعمل عمليات تركيز السلطة في كل أنحاء المنطقة ولكن بمعدلات متفاوتة، مما أدى إلى بلوغ مراحل مختلفة من التطور (اختصرت تعسفاً إلى ثلاث) بحلول الوقت الذي شرع فيه أقوى المراكز نمواً من الناحية السياسية، وهي مملكة بدائية في الوجه القبلي قامت في هيراكونبوليس (انظر الشكل 8) على أساس من التوسع العسكري (وتحدده الأسهم) وشملت مصر بكاملها. وفي بداية الأسرة الأولى استمر التوسع حتى بلغ النوبة.

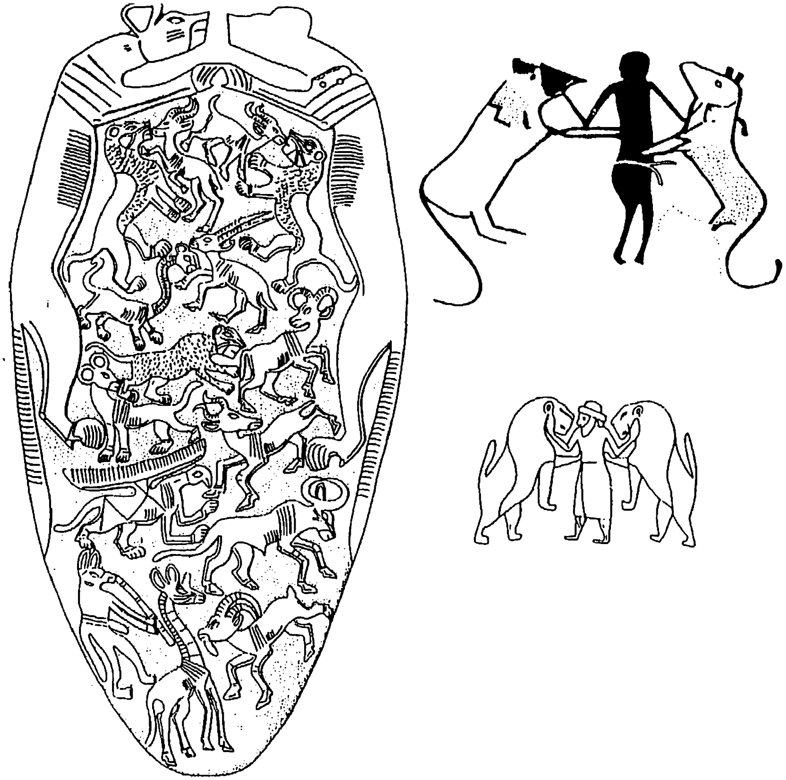

الشكل 14 احتواء الجامحين فى الكون. على اليسار: صلاية هيراكونبوليس الصغرى (ذات الكلبين)، الجانب الخلفى. وهى تصور الحياة بطريقة رمزية باعتبارها صراعاً غير متكافئ بين القوى والضعيف، ويبدو أن ما يحركها هو ذلك الشكل الذى يشبه ست ويعزف الناى فى الركن الأيسر أسفل الصلاية. والضوارى المهيمنة أسدان فى الجزء العلوى يواجهان بعضهما، إلا انهما ليس بعيدين نقطة التعادل التى تتوازن فيها قوتهما توازنا متبادلاً. ويشار إلى ذروة الانسجام باتخاذ شكلين لكلبى صيد مفترسين إطارا لها. على اليمين: تبين النقطة الحقيقية للصراع الذى أخمد على أنها تحققت فى مشهدين آخرين فيهما الأسدان المواجهان لبعضهما فرق بينهما شكل آدمى، ربما كان ملكاً. والمثال الأعلى من المقبرة المنقوشة فى هيراكونبوليس (انظر الشكل 11)؛ أما الأعلى فهو مقبض سكين جبل الأراك. صور الصلاية من W.M. F Petrie, *Ceremonial Slate Palettes of Proto-dynastic Pottery*, London, 1953, Plate F; J.E. Quibell and F.W. Green, *Hierakonpolis* II, London, 1902, Plate XXVIII; M.J. Mellink and J. filip, *Fruhe Stufen der Kunst* (Propylaen Kunstgeschichte, 13), Berlin 1974, Mellink and Filip, op. Cit., Taf. 210; انظر Taf. 208. لمعرفة المزيد عن سكين جبل الأراك، W.M.F. petrie, "Egypt and Mesopotamia", *Ancient Egypt* 1917, 29. Fig. 4.

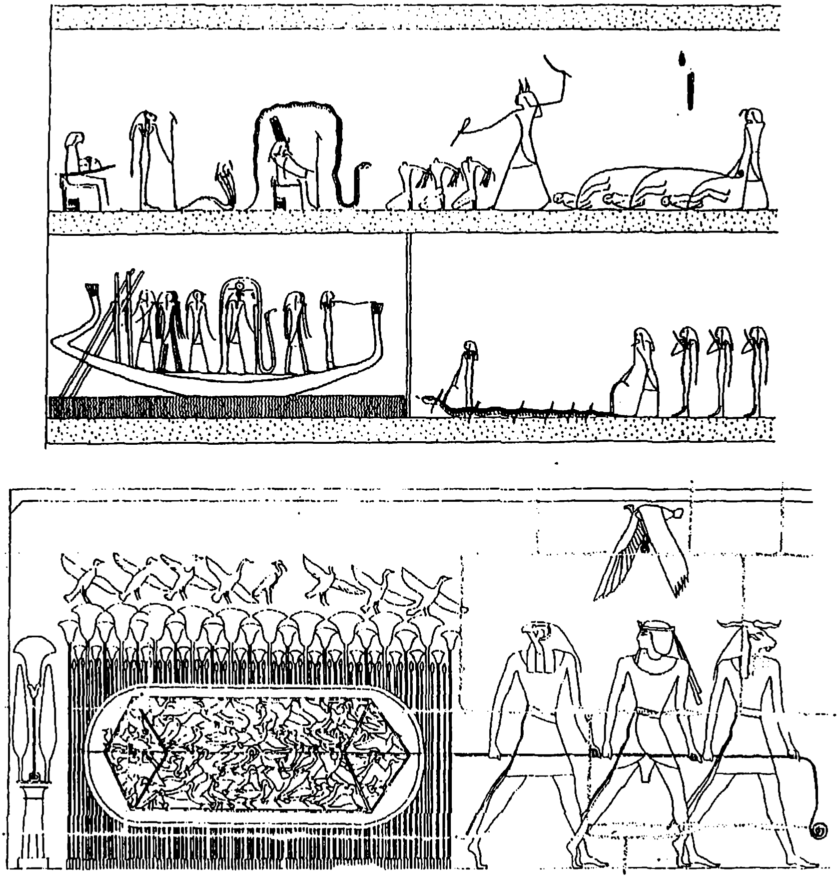

الشكل 15 أعلى: نقلت الفكرة (احتواء الجامحين) إلى مستوى كونى لإعادة الميلاد الدورى فيه المسافر المنتصر هو إله الشمس، وهنا يمر فى مركبه فى واحدة من ساعات الليل. وفى الرسم الأعلى يمثل الأشخاص الثلاثة مقطوعو الرأس "أعداء أوزيريس"، وثلاثة أشخاص موتى وصفوا بأنهم «متمردون». وفى الرسم الأسفل يذبح الشيطان أبوبيس، الحية العملاقة. جزء من «كتاب ما فى العالم الآخر» كما هو مصور على جدران مقبرة الملك تحتمس الثالث فى وادى الملوك بطيبة (حوالى 1430 ق.م.). وقد حذف النص الهيروغليفى. من A. Piankoff, *The Tomb of Ramesses VI* I, new York, 1954, Fig. 80. الصور الملونة موجودة فى J. Romer, *Romer's Egypt*, London, 1982, pp. 170, 173. أسفل: نفس الفكرة موضحة برمز بسيط من الطبيعة. فيرمز للفوضى بالطيور البرية التى فى مستنقعات البردى. إنها تصاد وتحبس حريتها شبكة صيد الطيور التى يعمل بها الملك رمسيس الثانى والإلهان حورس (على اليسار) وخنوم (على اليمين). بهو الأعمدة الكبير فى الكرنك، الوجه الداخلى للسور الجنوبى. انظر Frankfort, *Kingship and the Gods*, Chicago, 1984, fig. 14.

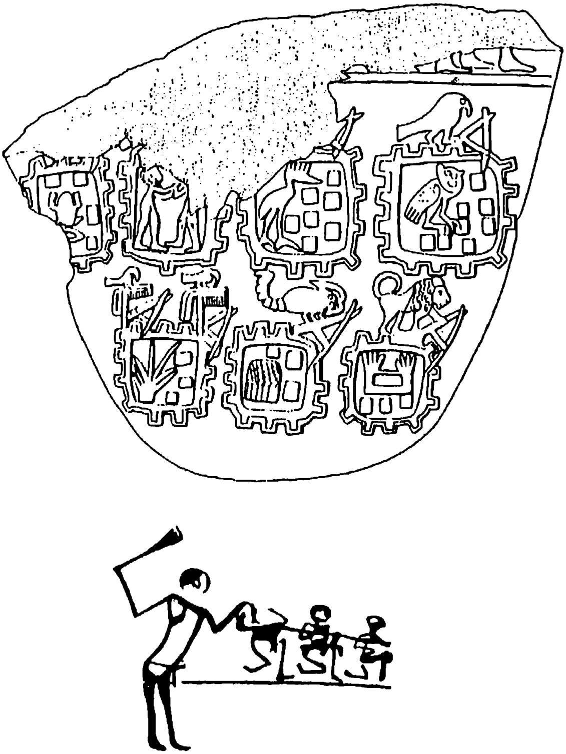

الشكل 16 أعلى: أحد جانبى صلاية تجيهينو. وقد فقد المنظر الرئيسى، الذى ربما كان منظر معركة. ويبين الجزء الأسفل المتبقى سبع بلدات محصنة تهاجمها حيوانات ترمز للنظام الملكى وإحكام قبضة السلطة. ومن المفترض أن الصلاية كانت تحتفى بسلسلة من الانتصارات فى توسع مملكة هيراكونبوليس فى اتجاه الشـمـال. من W.M.F. Petrie, *Ceremonial Slate Palettes and Corpus of Proto-dynastic Pottery*, London, 1953, Plate G; M.J. Filip, *Fruhe Stufen der Kunst* (Propylaen Kunstgeschichte, 13), Berlin, 1974, Taf. 214 b. أسفل: منظر محارب يرفع دبوساً على صف من الأسرى المقيدين مأخوذ من المقبرة المنقوشة فى هيراكونبوليس (انظر الشكل 11)، وهو ربما يصور أحد ملوك ما قبل الأسرات فى دور المنتصر فى المعركة.

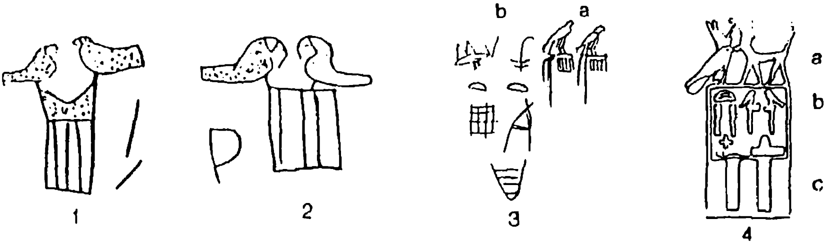

الشكل 17 فكرة الازدواج فى الرموز والأسماء الملكية المبكرة. رقم 1 و2 (الانتقال إلى الأسرة الأولى) رمزان يمثلان بطريقة بسيطة قطاعاً فى واجهة القصر الملكى، دون إضافة اسم الملك (قارن بالشكل 10)، وهو فى كل حالة من الحالتين يعلون شكلان لحورس. من J. Cledat, "Les vases de El-Beda", *Annales du Service des Antiquite de l'Egypte* 13, (1914), Plate XIII; H. Junker, *Turah*, Vienna, 1912, p. 47, Abb. 57. وفى رقم 3 شكلا حورس نفسهما (A) يصاحب اسم الملك (اجيب) مر بو بيا (B) من الأسرة الأولى (من W.M.F. Petrie, *Royal Tombs* I, London, 1900, Plate V.12). رقم 4 كتابة لاسم الملك خع سخموى من الأسرة الثانية وفيه استعيض عن أحد شكلى حورس بست (قارن بالشكل 6).
من J. Capart, *Memphis a l'ombre des pyramides,* Brussels, 1930, p. 119, Fig. 116.

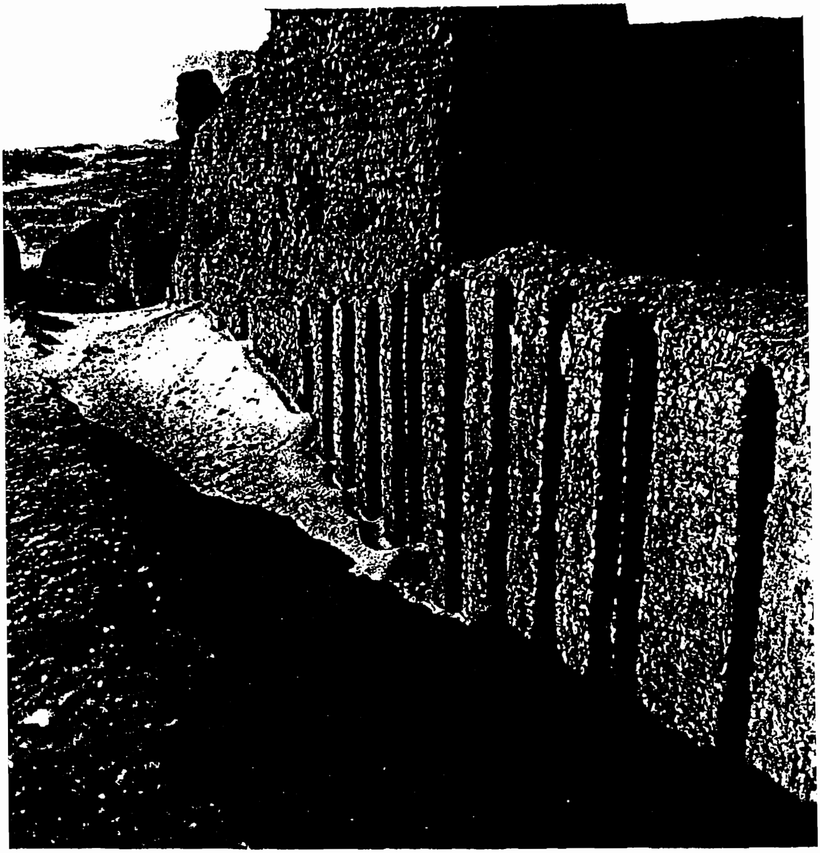

اللوحة 2 العمارة الملكية المبكرة. شونة الزبيب فى أبيدوس، وهو قصر الملك خع سخموى الجنائزى المشي
الطوب اللبن فى الأسرة الثانية (حوالى 3640 ق.م.)، ووجهته جنوبية شرقية.

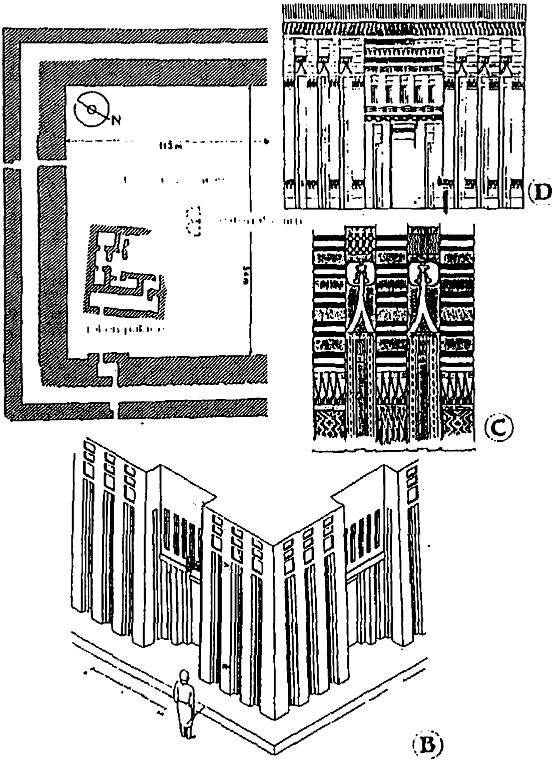

الشكل 18 أسلوب العمارة الملكى فى عصر الأسرات المبكر. (A) القطاع الجنوبى الشرقى من شونة الزبيب فى أبيدوس (اللوحة 2؛ عهد خع سخموى، فى أواخر الأسرة الثانية، حوالى 3640 ق.م). موقع الركام الذى على شكل حرف B افتراضى. من E.R. Ayrton, C.T. Currelly, and A.E.P. Weigall, *Abydos* III, London, 1904, Plate VI. لاحظ أسلوب "واجهة القصر" البسيط ذا الكوات فى الواجهة الخارجية المشيدة من الطوب. للاطلاع على قطاع سور قصر حقيقى (تميزاً له عن الجنائزى) انظر الشكل 11، من هيراكونبوليس، وكذلك الشكل 10. (B) إعادة بناء لجزء من واجهة مقبرة بلاط من الأسرة الأولى، حيث تبين بصورة مصغرة عمارة "واجهة القصر" الخاصة بعمارة مبانى البلاط. (C) إعادة لرسم النقوش المفصلة الموجودة على الأجزاء العليا وهو يعتمد على المستنسخات المتأخرة على التوابيت وأماكن تقديم القرابين فى المقابر المزارات. وهذا المثال مستمد من مقبرة تبيمنخ بابى صير وهى من الأسرة الخامسة، من J. Capart, *L'art egyptien 1: L'architecture*, Brussels and Paris, 1922, Plate 46 وهو نفسه مأخوذ من L. Borchardt, *Das Grabdenkmal des Konigs Ne-user-re*, Leipzig, 1907, Blatt 24 (D) مثال آخر عبارة عن تابوت محفور من الأسرة الرابعة من الجيزة، مقبرة فى فى، من S. Hassan, *Excavations at Giza* (1929-1930), Oxford, 1932, Plate LXV.

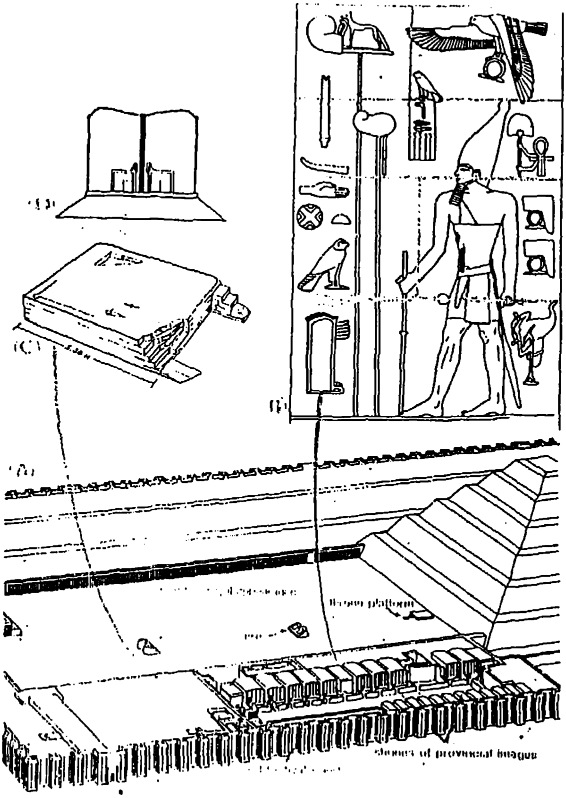

الشكل 19 العمارة السياسية. (A) إعادة بناء للجزء الجنوبي من هرم الملك زوسر المدرج في سقارة، الميدان الأبدي للعرض الملكي لاحتفال الحب سد (انظر اللوحة 4)، من J.-Ph Lauer, *La pyramide a degree,* Cairo, 1936, Plate IV. (B) منظر يعرض زيارة الملك زوسر لمقصورة حورس البحدتي المؤقتة، وعمود الرموز الهيروغليفية الذي أمام الملك يقول: «الوقوف عند مقصورة حورس البحدتي». والرمز الأخير في الواقع صورة لمقصورة مؤقتة من النوع المصنوع من الحجر حول فناء الحب سد عند الهرم المدرج. اللوح الشمالي أسفل الهرم المدرج في سقارة، من G. M. Firth and J.E. Quibell, *The Step Pyramid* II, Cairo, 1935, Plate 17 و A.H. Gardiner, "Horus the Behdetite", *Journal of Egyptian Archaeology* 30 (1944), Plate III.4. (C) منصة حجرية ذات درجين كما وجدت في الطرف الجنوبي من فناء الحب سد عند الهرم المدرج (انظر اللوحة 4)، من Lauer, op. Cit. Plate LVI.1 and page 145, Fig. 146. (D) بيان قديم للعرش المزدوج عليه مظلة كما كان يستخدم في احتفال الحب سد، وهو يستند على عتبة الملك سنوسرت الثالث المحفورة (الأسرة الثانية عشرة) كما أعيد رسمها في K. Lange and M. Himmer, *Egypt: Architecture, Sculpture, Painting in Three Thousand Years,* third edn, London, 1961, pp. 102-4.

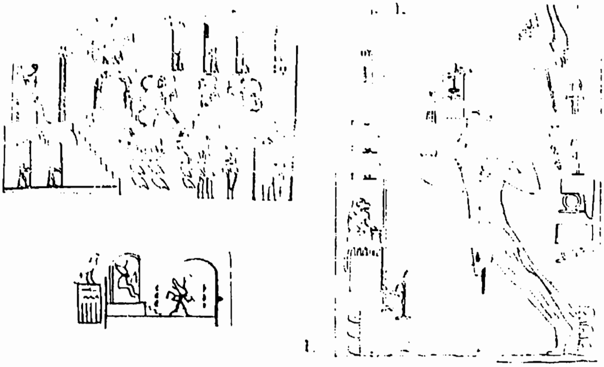

الشكل 20 شعيرة تأكيد أحقية حيازة الأرض. (E) منظر الملك زوسر وهو يركض (أو يهرول) فى حلبة الاحتفال بين مجموعتين من الأبنية الصغيرة التى على شكل حرف B التى ترمز لحدود الأرض. وأمام الملك شعار الإله ويبواوت وعمود رأسى من الرموز الهيروغليفية معناها غامض بعض الشيء. والترجمة الحرفية لما هو مكتوب: «البيض العظام»، وهى إشارة بالجمع للإله القرد الذى تحتل صورته جزءاً من آخر رمز هيروغليفى. إلا أن أول عنصر فى الاسم هو كذلك كلمة تعنى مقصورة، ومن الواضح أنها «مقصورة بيضاء». وقد رئى أن قردة الرياح هنا صور لأرواح الأسلاف، وإن لم يكن هذا سوى افتراض. انظر W. Helck an E. Otto, *Lexikon* II, pp. 1078-80; A. Erman and H. Grapow, *Worterbuch der Ägyptischen Sprache*, Leipzig, 1926031, III, 209.6; H.W. Fairman, "Notes on the alphabetic signs employed in the hieroglyphic inscriptions of the Temple of Edfu", *Annals du Service des Antiquite de l'Egypte* 43 (1943). 260-61; A.J. Spencer, *Catalogue of Egyptian Antiquities in the British Museum V, Early Dynastic Objects*, London, 1980, pp. 13, 16, no. 16, Plate 8, 9; G. Dreyer, *Elephantin VIII. Der Tempel der Satet. Die Funde der Fruhzeit und des Alten Reiches*, Mainz, 1986, p. 69. وخلف الملك هناك زوج من الرموز يستخدم لكتابة كلمة (مدنبو) وتعنى "الحدود". اللوح الذى عثر عليه أسفل الهرم المدرج فى سقارة، من C.M. Firth and J.E. Quibell, *The Step Pyramid* II, Cairo, 1935, Plate 16. (و) جزء من الرقعة الخشبية الخاصة بالملك دن من الأسرة الأولى من مقبرته فى أبيدوس، وهى تقرأ من اليمين إلى اليسار: 1) الرمز الذى يعنى «العام الملكى» (انظر الشكل 5)؛ 2) الملك يجرى بين ركام حدود الأرض؛ يبدو الملك جالساً تحت مظلة على كرسى عرش ذى درج؛ 4) الاسم الحورى للملك دن. من W.M.F. Petrie, *Royal Tombs* I, London, 1900, Plates XI. 14, XV.16. (ز) جزء من منظر على دبوس احتفالات الملك نارمر، من الأسرة الأولى، من هيراكونبوليس. وهو يصور ظهور احتفالى للملك على كرسى العرش ذى المظلة والدرج (1)، يصحبه حملة رايات «أتباع حورس» (انظر الشكل 12). ومن الواضح أن المناسبة هى استعراض الأسرى والحيوانات التى جيء بهم من المعركة. والرموز الصغيرة الكثيرة فى الصف ج عبارة عن أعداد. لاحظ الشخص الجالس (الثانى من اليسار فى الصف ب؛ هل هو مقدس؟) على محفة عليها مظلة مقوسة (راجع الشكل 33). وهناك عنصر له أهمية خاصة وهو الطريقة التى يستعرض بها الأسرى بين ركام علامات الأرض. من J.E. Quibell, *Hierakonpolis* I, Plate XXVI.B .

The intellectual foundations of the early state 61

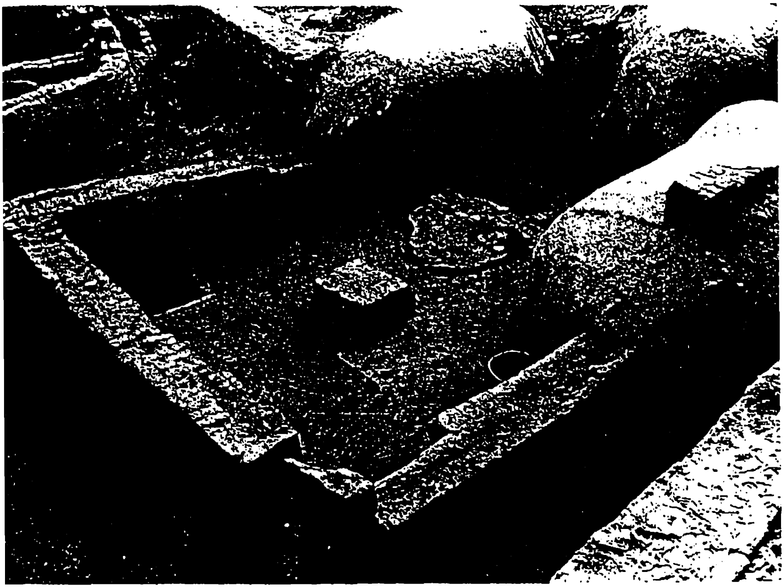

اللوحة 3 تراث إقليمى: معبد أولى من الطوب اللبن فى فيله فى مرحلة الدولة القديمة، وهو يتجه نا.
الجنوب الغربى، من *Dreyer, Elephentine VIII. Der Tempel der Satet,* Mainz, 1986, Taf. 2a. By Courtesy Philipp von Zabern.

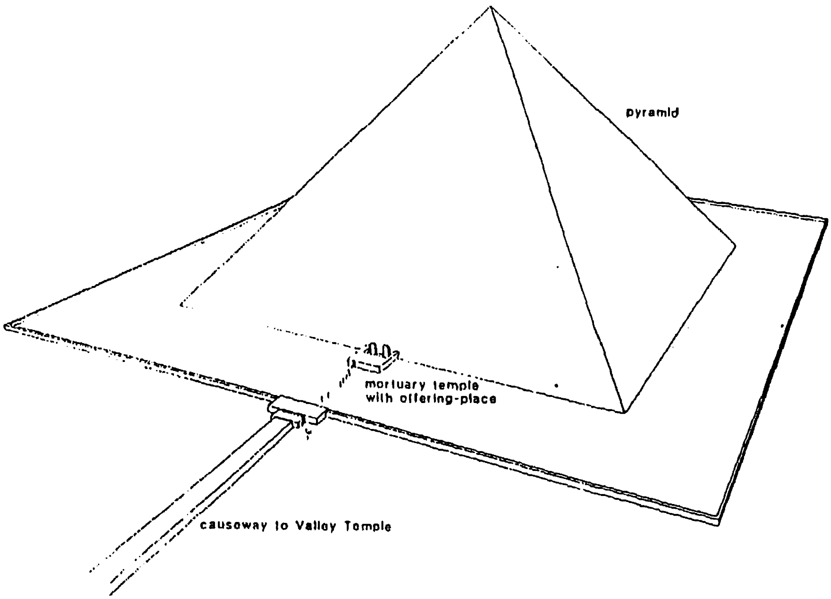

الشكل 21 تمجيد المُلك. كان هرم ميدوم (عهد الملك حونى، نهاية الأسرة الثالثة، حولى 2575 ق.م.) هو الأول من جيل جديد من المقابر الأهرام التى كانت تعبر عن وجهة نظر مختلفة جذرياً عن طابع النظام الملكى. فبدلاً من المقبرة التى تحتفى بالملك كصاحب حق أسمى فى ملكية الأرض وكانت تؤبد مواكبه الأرضية (الشكل 19)، كانت الأهرام التى بالأسلوب الجديد تعلن استيعابه فى رمز الشمس الغامض. وكان معبد القرابين الضئيل الحجم هو الملمح الرئيسى الذى يعبر عن جانبه البشرى. وقد خففت مجمعات الأهرام من هذا التناقض الحاد فيما بين حجم الهرم والمعبد.

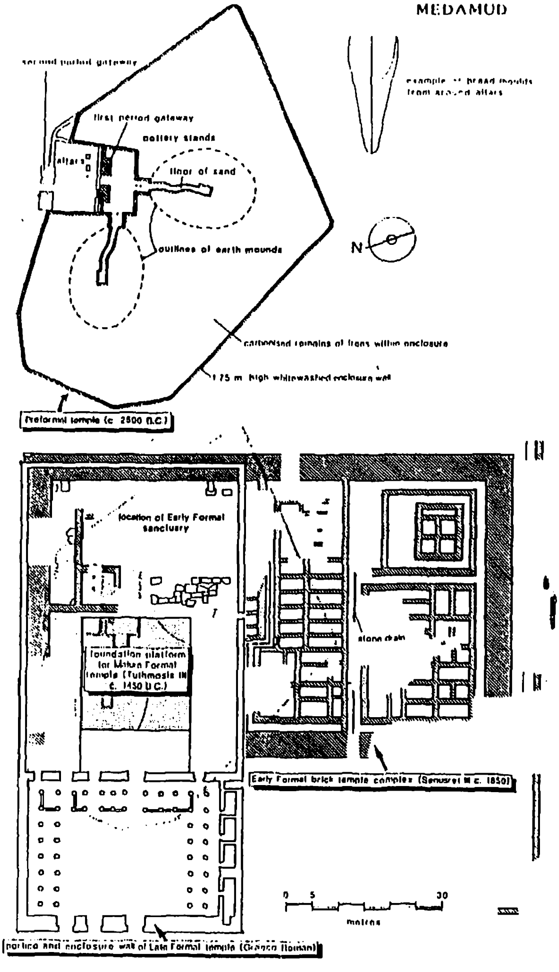

الشكل 22 ألفان وخمسمائة سنة من عبادة المعابد: المعبد الذى فى موقع المدامود، وهو يبين الطبقات التى تعلو بعضها من العمارة. من C. Robichon and A. Varille, "Medamoud. Fouilles du Musee de Louvre, 1938", *Chronique d'Egypte* 14, no. 27 (1939), 84, Fig. 2; C. Robichon and A. Varille, *Description sommaire du temple primitif de Medamoud*, Cairo, 1940, folding plan at end.

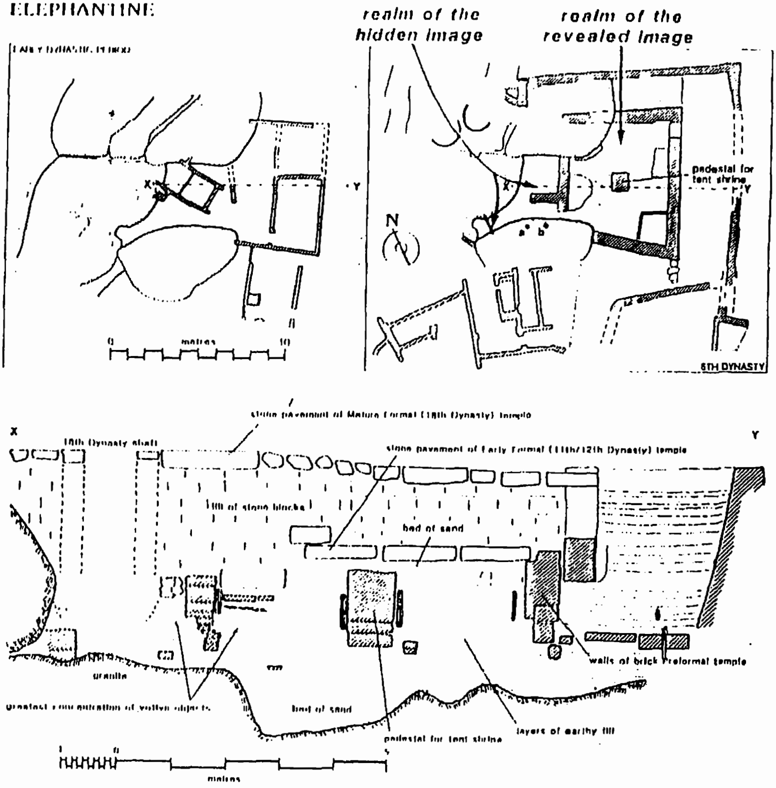

الشكل 23 المقصورة المبكرة فى فيله، وهى محفوظة تحت رصف معبد الأسرة الثامنة عشرة الخاص بالإلهة ساتيت. المخططان العلويان يسجلان مرحلتين فى التطور المعمارى لمقصورة الطوب. وفى مخطط الأسرة السادسة عشرة a هى خرطوش بيبى الثانى و d نقش قصير لمرنرع. المخطط الأسفل قطاع على امتداد الخط x-y. للاطلاع على إعادة بناء قاعدة التمثال المحمول، انظر الشكل ٣٢، من G. Dreyer, *Elephentine VIII. Der Tempel der Stet*, Mainz, 1986, Abb. 1, 4, 7.

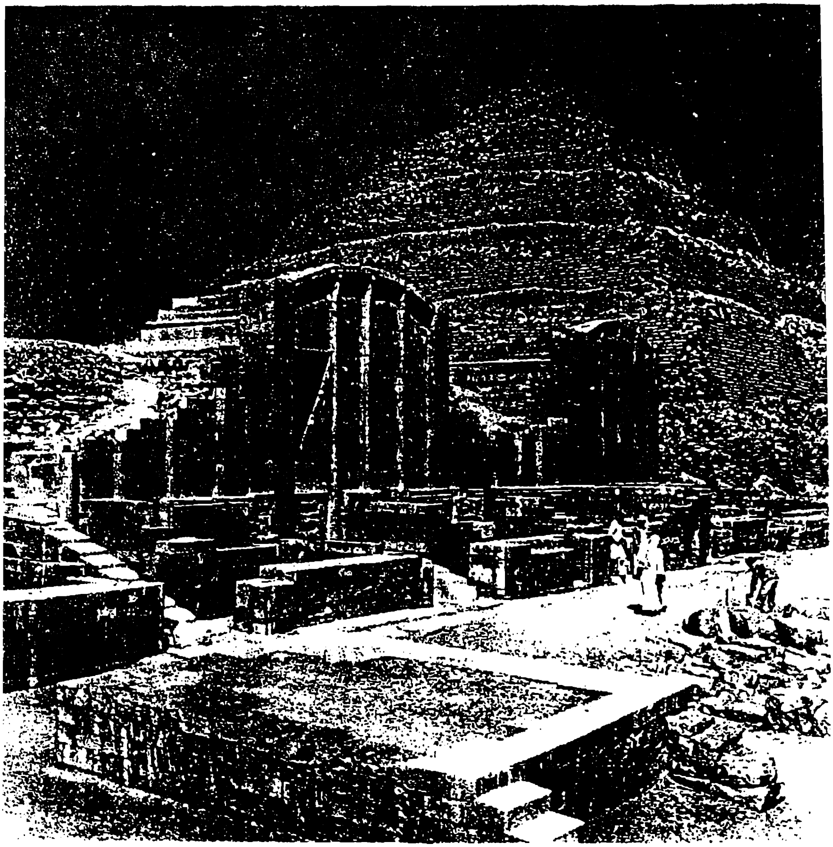

اللوحة 4 هرم الملك زوسر المدرج من الأسرة الثالثة فى سقارة، واتجاهه جنوبى غربى. أمام الهرم الصور الحجرية من المقاصير الخيام المقامة على قواعد، حيث تشكل جزءاً من فناء الحب سد. لاحظ ما يحتمل أن تكون منصة العرش المزدوج فى المقدمة.

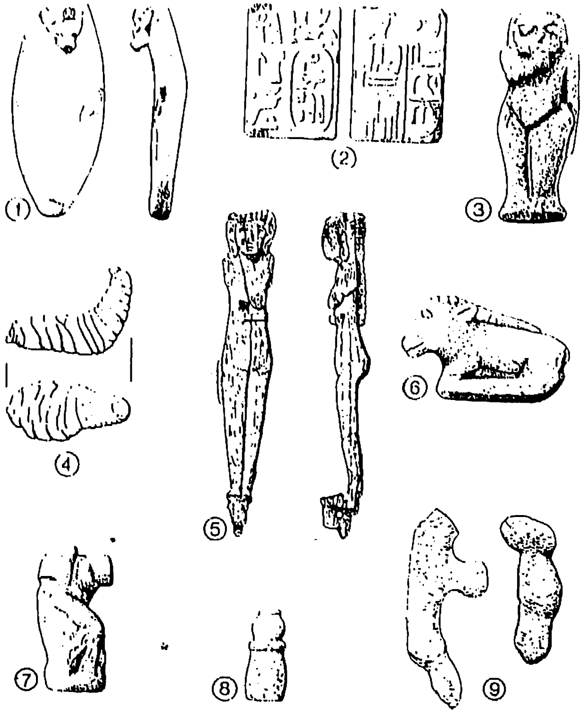

الشكل 24 مجموعة مختارة من النذور من خبيئات المعبد البكرة فى فيله (الصف العلوى) وهيراكونبوليس (الصف الأوسط) وأبيدوس (الصف الأسفل). (1) لوح من القيشانى الأزرق له راس قنفذ، ارتفاعه 8.5 سنتيمتر (من G. Dryer, *Elephentine VIII, Der Tempel der Satet,* Mainz, 1986, Taf. 37.202). (3) لوح من القيشانى الأزرق يخلد ذكرى أول احتفال حب سد للملك بيبى الأول من الأسرة السادسة، أبعاده 6.4 X4.5X1.5 سنتيمتر (من المصدر السابق Abb. 58, Taf 54.440). (3) تمثال صغير من القيشانى الأزرق لفتاة صغيرة ارتفاعه 8.1 سنتيمتر (من المصدر السابق Taf. 17.42). (4) عقرب رافع ذنبه من القيشانى الأزرق طوله 6.7 سنتيمتر (من B. Adams, *Ancient Hierakonpolis,* Warminister, 1974, Plate 13.98). (5) تمثال صغير لامرأة من العاج ارتفاعه 40.4 سنتيمتر (المصدر السابق Plate 44.360). (6) تمثال صغير من القيشانى الأزرق لوعل جالس على الأرض ارتفاعه 9.4 سنتيمتر (من J.E. Quibell, *Hierakonpolis* I, London, 1990, Plate VI.51). (7) قرد من القيشانى الأزرق ارتفاعه 19.9 سنتيمتر (من W.M.F. Petrie, *Abydos* II, London , 1903, Plate VI.51). (8) نموذج من القيشانى الأزرق لجرة موضوعة على مسند ارتفاعه 6.8 سنتيمتر (من المصدر السابق Plate XI.244). (9) قطعتان طبيعيتان من الظران لهما شكل موح ارتفاعهما 87.6 و 64.8 سنتيمتر (من المصدر السابق Plate IX.195,196). للاطلاع على أشكال أخرى من النذور، انظر الأشكال 12 و 32 و33 (4).

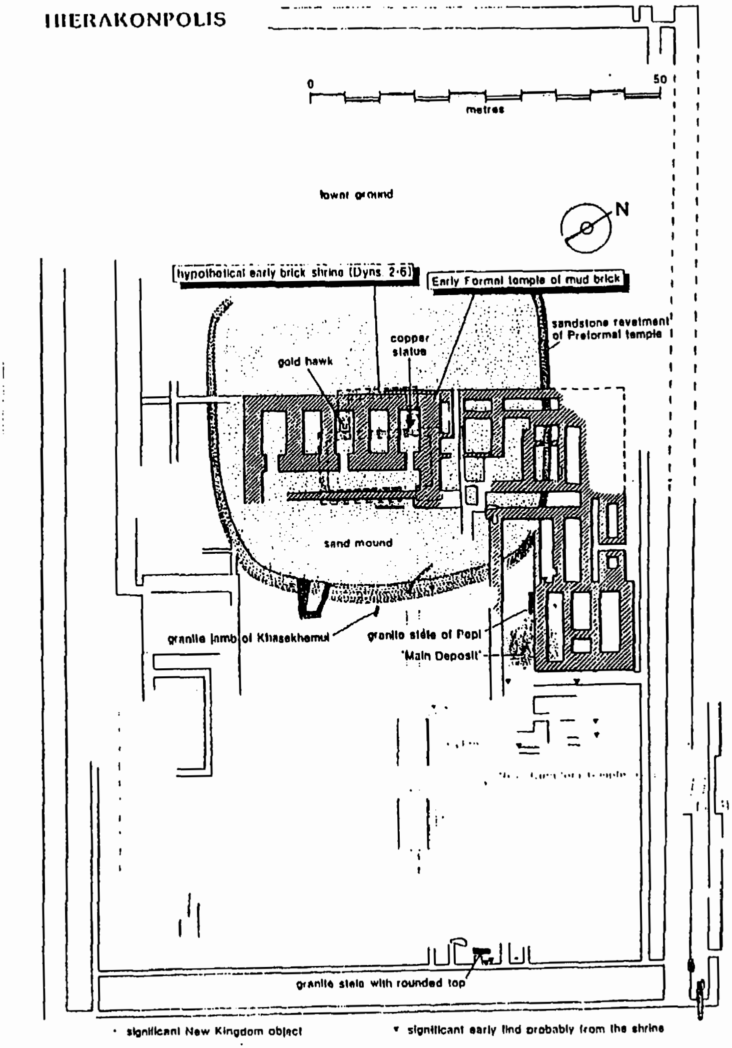

الشكل 25 بقايا المعبد فى هيراكونبوليس (انظر الشكلين ١١ و ٤٨). البقايا القليلة جداً من المعبد الرسمى الناضج (الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها) باللون الرمادى. من J.E. Quibell and F.W. Green, *Hierakonpolis* II, London, Plate LXXII.

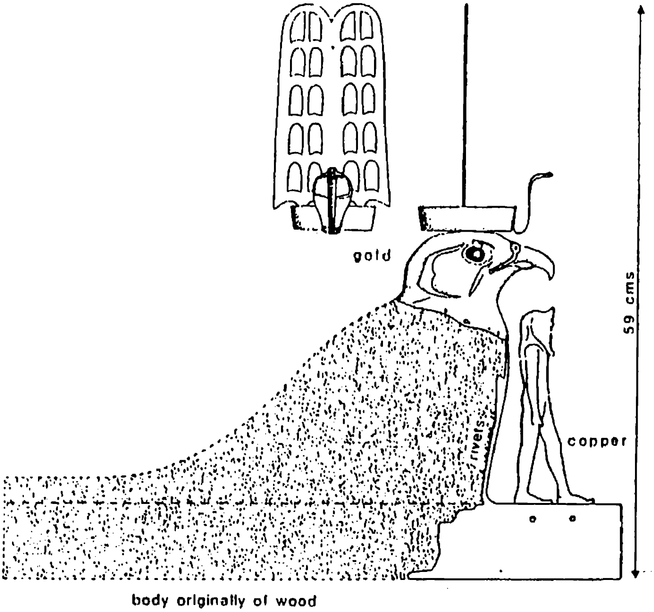

الشكل 26 صورة إلهية مبكرة: الإله الصقر حورس من هيراكونبوليس يحمى تمثال أحد الملوك. وهو فى الأصل من الخشب (وقد تآكل الآن) وكان رأسه مكسواً بالذهب وجسمه بالنحاس. وجد التمثال مدفوناً فى حفرة فى قدس أقداس المعبد الرسمى المبكر فى هيراكونبوليس (الشكل ٢٥). من J.E. Quibell and F.W. Green, *Hierakonpolis* II, London, 1902, Plate XLVII; J.E. Quibell, *Catalogue general des antiquites egyptienne du Musee du Caire: Archaic objects,* Cairo, 1904-5, Plate 65.

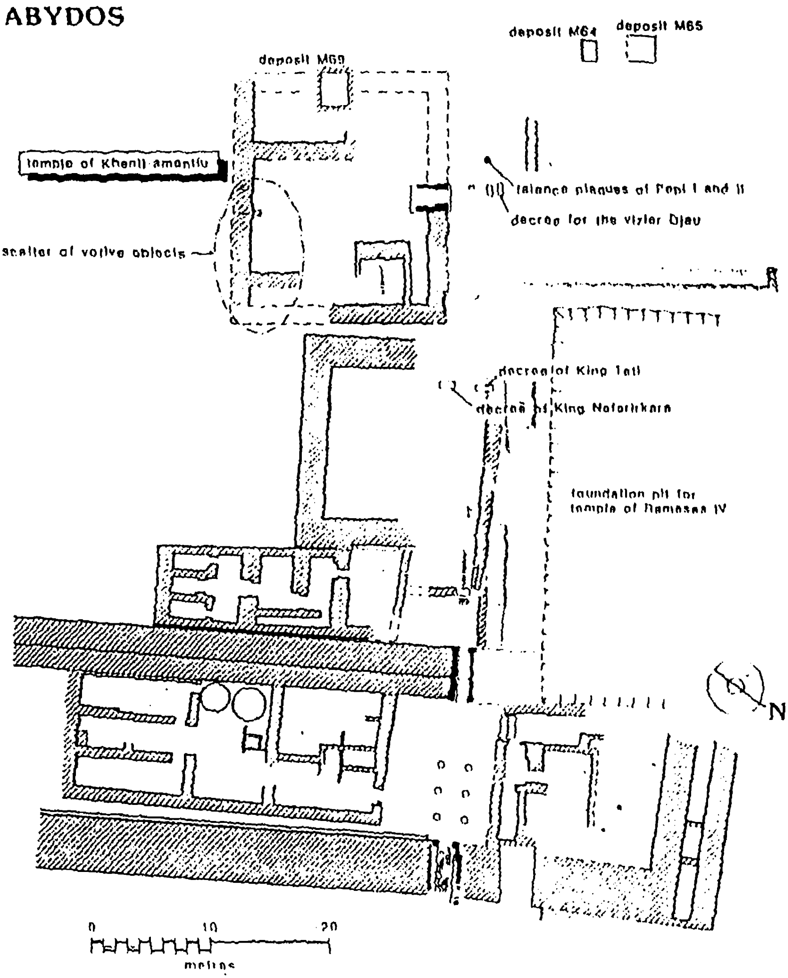

الشكل 27 بقايا المعبد المبكر للإله خنتي أمنتيو في أبيدوس. وكان المعبد يقع بالقرب من سياج عليه سور ضخم تحيط به مخازن ومبان أخرى. من W.M.F Petrie, *Abydos* II, London, 1903, Plates L-LIV.

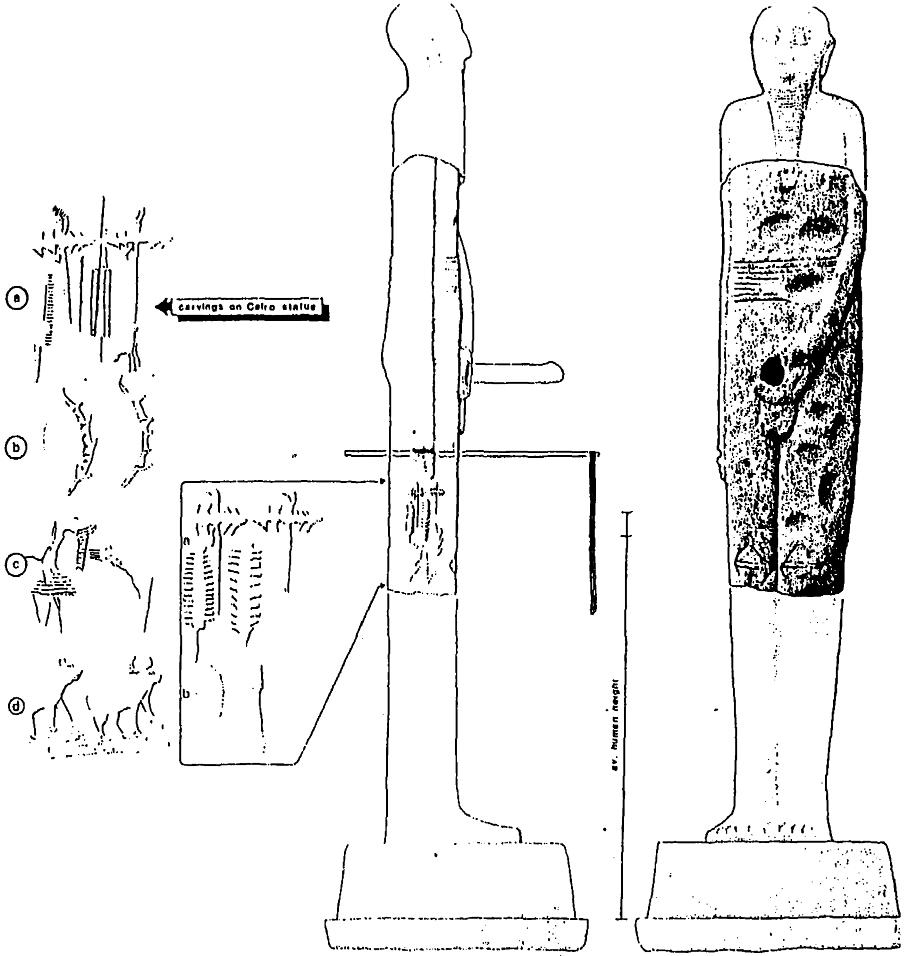

الشكل 28 فن بدائى على مستوى التماثيل الضخمة: واحد من ثلاثة تماثيل ضخمة من الحجر الجيرى لإله الخصوبة من قفط. الجزء الذى يشمل الجذع والفخذين موجود فى Ashmolean Museum بأكسفورد. ارتفاع 1.9 متراً. وقد جرى ترميم الجزء الأسفل من الساقين مع القاعدة، وإن كان الشكل العام للرأس واللحية يعتمد على نفس الرأس المحطمة التى عثر عليها فى قفط كذلك، وهى موجودة فى المتحف نفسه. وارتفاع التمثال بعد ترميمه (بدون الجزء الخشن الأسفل من القاعدة) هو 4.1 متراً. العلامات المحفورة على اليمين من W.M.F Petrie, *Koptos*, London, 1896, Plates III, IV. وتم تحديد الأشكال المحفورة كما يلى: A) زوج من الرايات تعلوهما شارة "الصاعقة" وريشة بالتبادل مع زوج من منشار سمك المنشار من البحر الأحمر (وأضيفت نعامة على تمثال القاهرة)؛ B) زوج من المحار (وهو بلح البحر من البحر الأحمر، ويفصل بينهما رمح فى التمثال الموجود فى Ashmolean Museum)؛ C) فيل ترتكز قوائمه على تلال قمعية الشكل، وطائر (الجزء الخلفى فقط هو ما تبقى)؛ D) ضبع وثور، ترتكز قوائمهما على تلال قمعية الشكل.

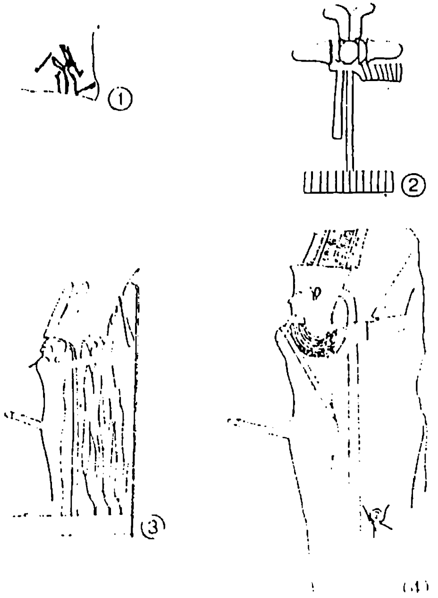

الشكل 29 الصور الرسمية للإله مين. ويمثل رقما 3 و4 الصور التقليدية لمين باعتباره إله الخصوبة، حيث يضاف للصورة البشرية النموذجية للإله عنصرى القضيب المنتصب وشارة القوة (نخخ) التى يرفعها بإحدى يديه المأخوذين من تماثيل قفط الضخمة. والتاج المصنوع من الريش الطويل هو الآخر أمر شائع فى صور الإله آمون التى عثر عليها فى طيبة القريبة من قفط. وخلف مين فى رقم 3 حوض مؤسلب من الخس الطويل، حيث كانوا يعتبرون عصارته البيضاء رمزاً للمنى؛ وخلف رقم 4 كان فى الأصل تصوير لمقصورة خيمة غريبة على عبادة مين: وهى خيمة أسطوانية طويلة يربطها حبل بعمود فى أعلاه قرنا ثور. ورقم 3 من مرسوم من معبد قفط فى عهد بيبى الأول من الأسرة السادسة (حوالى 2250 ق.م.)، من R. Weill, *Les decrets royaux de L'ancien empire egyptien*, Paris, 1912, Plate IX; H.M. Stewart, *Egyptian Stelae, Reliefs and Paintings from Petrie Collection* II, Warminister. 1979, Plate 39. ورقم 4 شكل من نفس المكان، ولكن من عهد سنوسرت الأول من الأسرة الثانية عشرة (حوالى 1950 ق.م.)، من W.M.F. Petrie, Koptos, London, 1996, Plate 39. وأقدم صورة معروفة لمين فى التراث الرسمى هى رقم 1 وهو رسم بالحبر على شقفة من سلطانية حجرية من مقبرة الملك خع سخموى من الأسرة الثانية (حوالى 2640 ق.م.) فى أبيدوس، من W.M.F. Petrie, *Abydos* I, London, 1902, 4, Plate III.48. ورقم 2 هو رمز «الصاعقة» الخاص بمين وهو يستخدم كذلك اسماً لإقليم قفط. وكان وحده من بين الرموز المحفورة على تماثيل قفط الضخمة (انظر الشكل 28) الذى أدخل فى القانون الرسمى للصور المستخدمة لمين. وهذا المثال من معبد الوادى الخاص بسنفرو بدهشور (حوالى 2575 ق.م.)، من A. Fakhry, *The Monuments of Senefru at Dahshur* II. 1, Cairo, 1961, p. 20, Fig. 9.

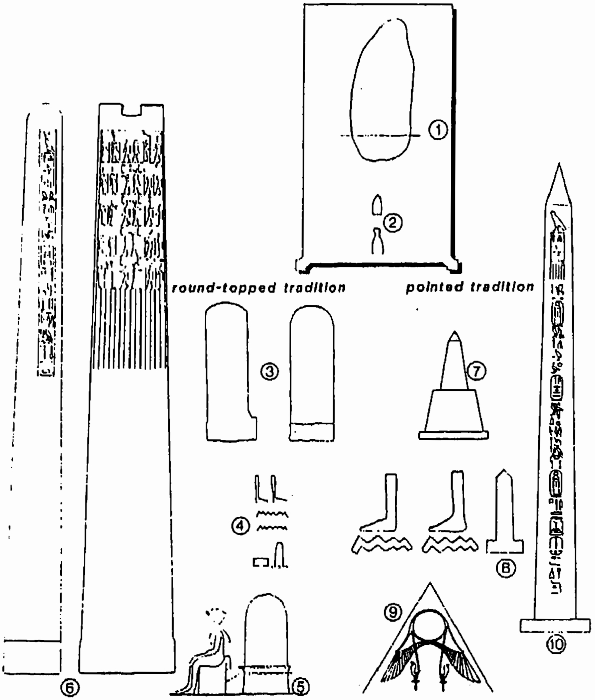

الشكل 30 تحوير فني لأحد الرموز: حجر بن بن المقدس الخاص بهليوبوليس. (1) حجر مقدس أصلى افتراضى. (2) صور مبكرة على هيئة رموز هيروغليفية فى متون الأهرام (Pyr 1652b, 2069a). وكان الفنانون يفضلون إعطاءه شكلاً هندسياً متماثلاً، مما خلق تقليدين، أحدهما ذو قطاع مستطيل مسطح قمته مستديرة (3-6)، وآخر ذو قطاع مربع رأسه مدبب (7-10). (3) لوح مستدير القمة من معبد هيراكونبوليس، ارتفاعه 6 أمتار، من J.E. Quibell and F.W. Green, *Hierakonpolis* II, London, 1902, Plate LXVII. (4) كتابة حجر بن بن فى مقبرة مرى رع فى العمارنة، الأسرة الثامنة عشرة، من LD III, 97e. (5) تصوير لحجر بن بن منصوب فى أحد معبد العمارنة (انظر الفصل السابع)، مقبرة مرى رع، من N. de G. Davies, *Rock tombs of El Amarna* I, London. 1903, Plate XXXIII. (6) حجر من الجرانيت واقف فى ابجيج بالفيوم، وقد أقامه سنوسرت الأول من الأسرة الثانية عشرة، ارتفاعه 12.63 متر، من K.R. Lepsius (ed.) *Denkmaeler aus Aegypten und Aethiopen,* Berlin, 1849-58, II, B1 119. (7) صورة جانبية تم ترميمها حسب الوصف القديم، وهى ملمح أساسى من ملامح معابد الشمس فى الأسرة الخامسة فى أبى غراب؛ (8) كتابة بن بن على نقش من العمارنة، من J.D.S. Pendlebury, *The City of Akenaten* III, London 1951, Plate CIII.48 (9) غطاء هريم من قمة هرم الملك خنجر من الأسرة الثالثة عشرة بسقارة، وهو محفور عليه قرص الشمس المجنح. من G. Jequier, *Deux Pyramides du moyen empire,* Cairo, 1933, Fig. 17. (10) مسلة من الجرانيت خاصة بسنوسرت الأول فى هليوبوليس نفسها، ارتفاعها 20.4 متر، من Lepsius, op. cit., II, B1 118h

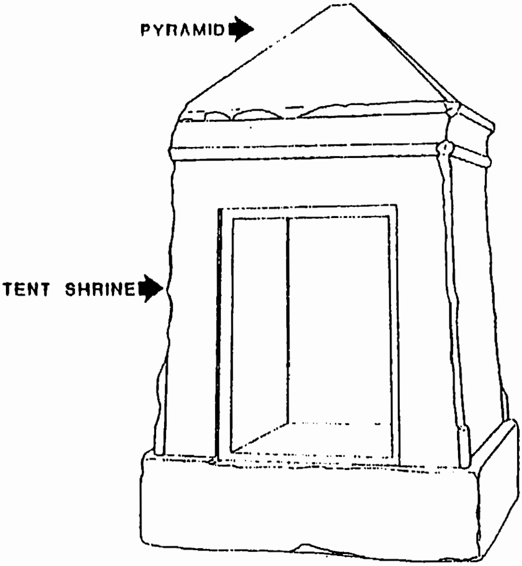

الشكل 31 تجميع رموز لا علاقة بينها. ناووس (أو مقصورة داخلية لتمثال إلهى) على هيئة المقصورة الخيمة وقد وضع على قمتها هرم، وهو أمر متنافر من الناحية البنيوية، غير أنه مقبول من الناحية الجمالية باعتباره تجميع للرموز. الأسرة الثلاثون، من G. Roeder, *Catalogue general des antiquites egyptiennes du Muse du Caire: Naos,* Leipzig, 1914, Taf. 16b.

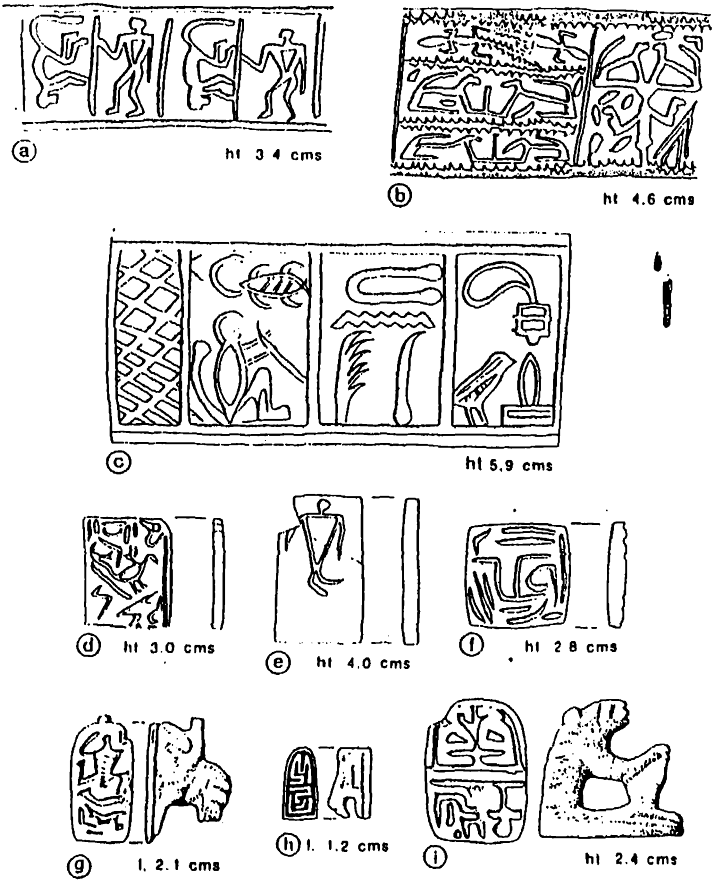

الشكل 32 نتاج أسلوب فني بديل لم يتطور كشفت عنه النقوش الصغيرة المنحوتة على أشياء من الدولة القديمة. (A)-(C) أختام من أبي صير، Staatliche Museen, Berlin, 15600; Cairo Museum, JdE 72610; Staaliche Museen , Berlin, 16433. من H.G. Fischer,*Metropolitan Museum J* 6(1972), 5-16, Figs 4, 18, 21; (د)-(و) ألواح من القيشاني الأزرق من معبد في فيله، من G. Dreyer, *Elephentine VIII. Der Tempel der Satel,* Mainz, 1986, p. 151, Abb. 60, Taf. 57; (ز)-(ى) أختام أزرار من مصر الوسطى، من G. Brunton, *Qau and Badari* I, London, 1927, Plate XXXIII. 118, 121. 122.

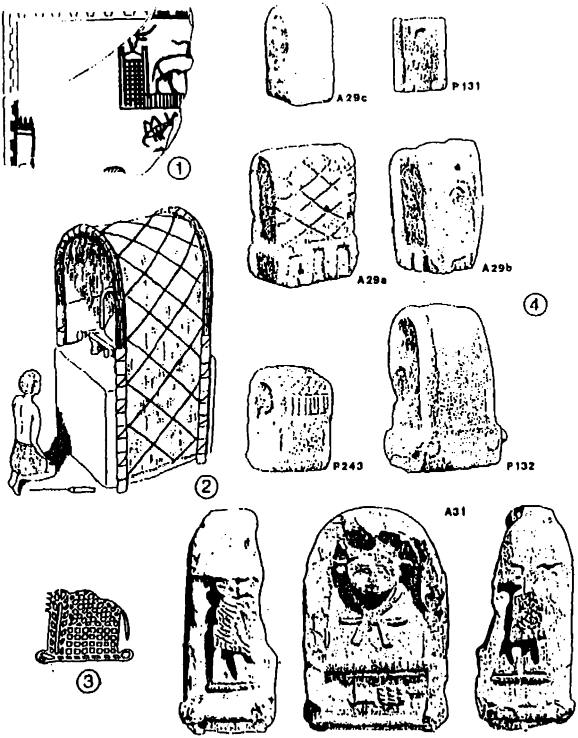

الشكل 33 المقصورة الخيمة المبكرة: النموذج الأول للعمارة الرسمية الفرعونية. (1) مقصورة خيمة لعبادة تمثال كبش، موضوعة داخل سياج من الطوب به بوائك. لوح صغير من العاج من مقبرة الملك دن فى أبيدوس، الأسرة الأولى. من W.M.F. Petrie, *The Royal Tombs of the Earliest Dynasties* II, London, 1901, p. 25, Plate VII.8. (2) إعادة بناء لمقصورة خيمة لتمثال مكشوف للإله، على بالاعتماد على العرش المصنوع من الطب فى معبد الدولة القديمة فى فيله، انظر الشكل 23 واللوحة 3 . (3) تصوير قديم للمصورة الخيمة مع صورة جانبية لأحد الحيوانات، ربما كانت على إطار حامل وبالتالى كانت محمولة. جزء من نقش على أثر لخاتم للطين من مقبرة من عهد الملك حور أحا فى أوائل الأسرة الأولى، من W.M. *Emery, Hor-aha,* Cairo, 1939, p. 27, Fig. 23. *(4)* نماذج من المقاصير المبكرة ، الأشكال P131 و P132 و P243 من القيشاني الأزرق من الخبيئات المبكرة فى أبيدوس (من W.MF. Petrie, Abydos II, London, 1903, Plates VII. 131, 132, XI.243) A29a-c من القيشاني الأزرق و A31 من الحجر الجيرى من مصدر غير معلوم، ربما كانت من أبيدوس كذلك (من H.W. Muller, *Agyptische Kunstwerke, Kleinfunde und Glas in der Sammlung E. und M. Kofler-Truniger, Luzern,* Berlin, 1964). وهو تتنوع فى حجمها بين 4 و 10 سنتيميترات.

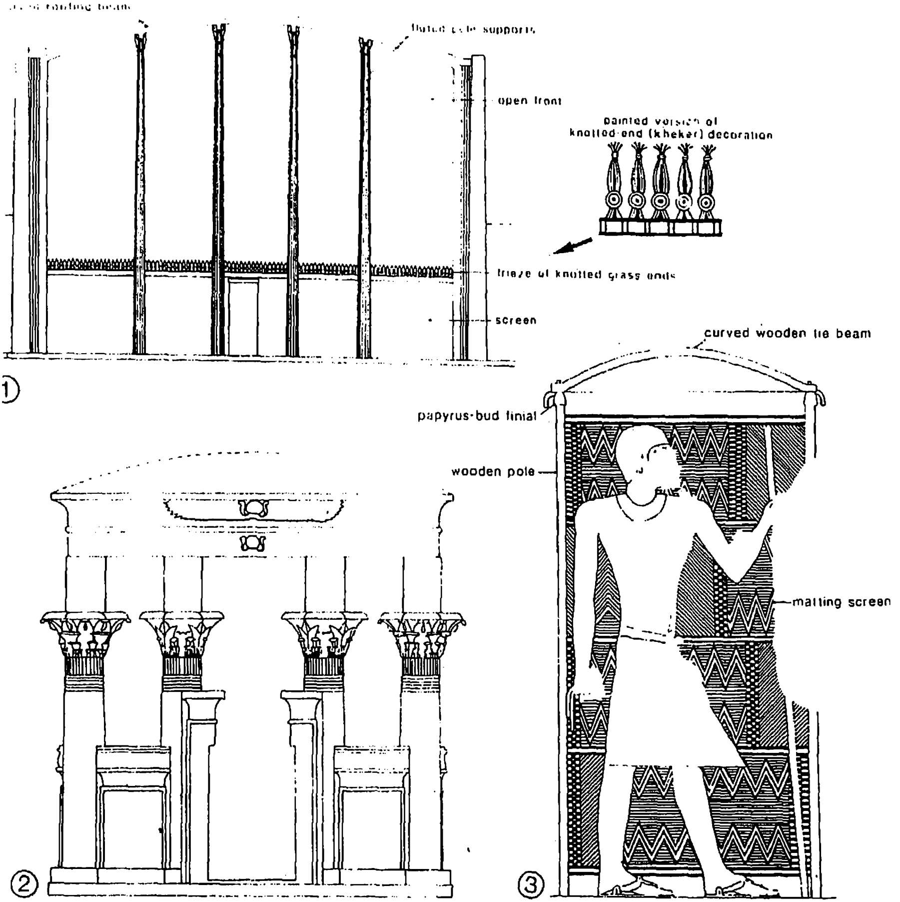

الشكل 34 أنماط نموذجية فى العمارة: المقصورة الخيمة ذات الواجهة المفتوحة (انظر اللوحة 4).
(1) تحولت إلى حجر فى هرم زوسر فى سقارة، من L. Borchardt, *Agyptische Templ mit*
Umgang, Cairo , 1938, Blatt 10. (2) الشيء نفسه ولكن بصورة أكثر تطوراً فى الجوسق الرومانى
فى فيله، السقف المحطم يمثل سقفاً خشبياً مقوساً ليس له وجود الآن، المصدر السابق Blatt 5.
(3) نفس العمارة أبقى حوفظ عليها من أجل التيسير فى صورة خيمة محمولة ذات هيكل تستعمل فى الريف،
من مقبرة ويرينى من الأسرة الخامسة بالشيخ سعيد، من N. de G. Davies, *Rock Tombs of Sheikh*
Said, London, 1901, Plate XV.

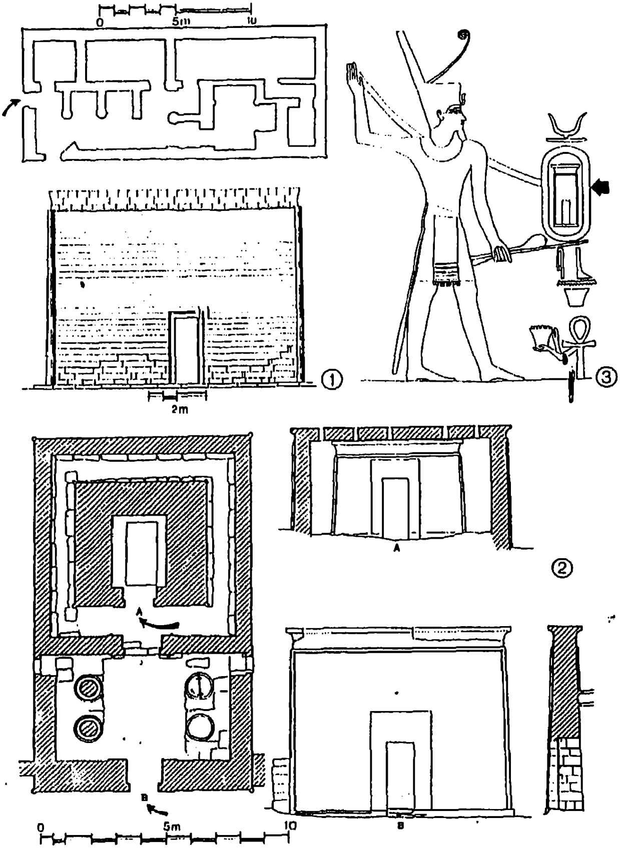

الشكل 35 الأنماط النموذجية فى العمارة: المقصورة الخيمة المُكَنَّفة. (1) المعبد T فى هرم زوسر المدرج ، من J.-Ph , *La pyramide a degree* I, and II, Cairo, 1936, Plate LV and Fig. 157.

(2) المقبرة المعبد الخاصة بزوجة الإله أمينيريدس الأولى بمدينة هابو (حوالى 715 قبل الميلاد)، التى يوجد بها مقصورة خيمة داخل أخرى، وهى حيلة معمارية مصرية شائعة. من U. Holscher, *The Excavation of Medinet Habu V. Post-Ramessid Remains*, Chicago, 1954, Fig. 24.

(3) منظر للملك تحتمس الثالث وهو يقوم بتطهير معبد عمادة فى النوبة بنثر النطرون عليه، أمام الإله حور أختى. المعبد نفسه يرمز له بصورة مقصورة خيمة (يشير إليها السهم). من H. Gautier, Les *Temples immerge de la Nubie: le temple d'Amada*, Cairo, 1913, Plate XVIi.

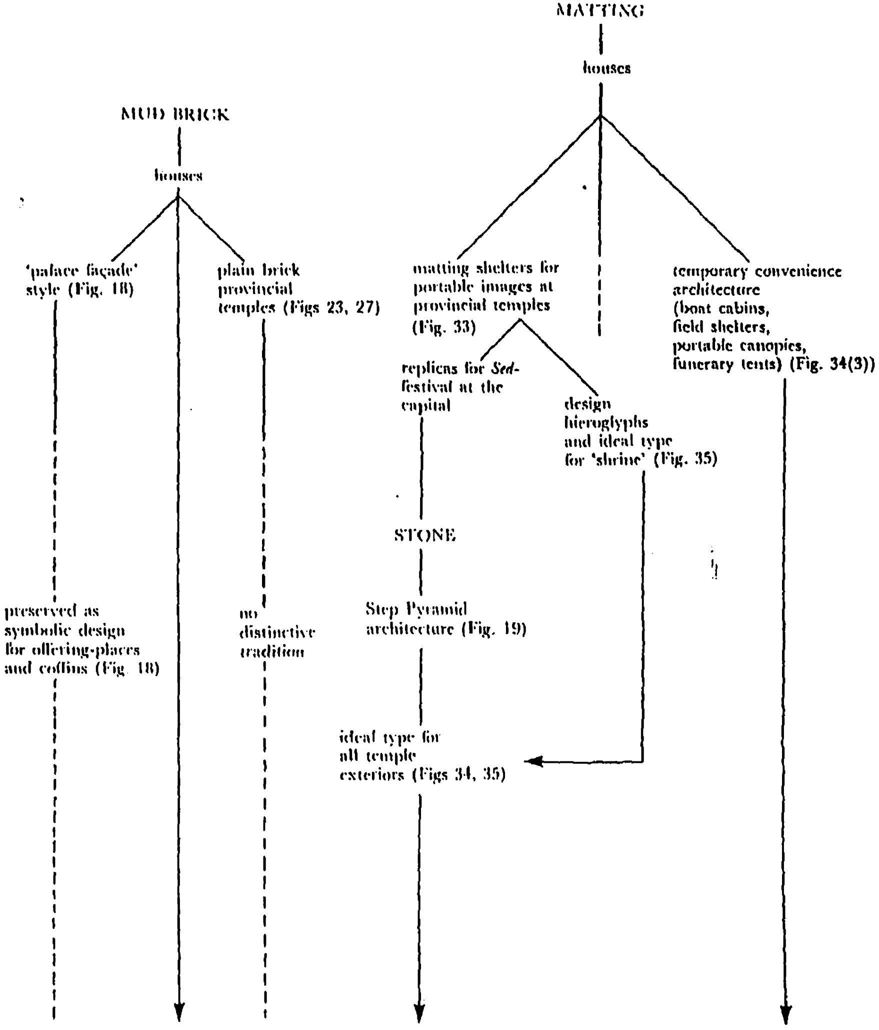

الشكل 36 مصادر الأساليب المعمارية المصرية.

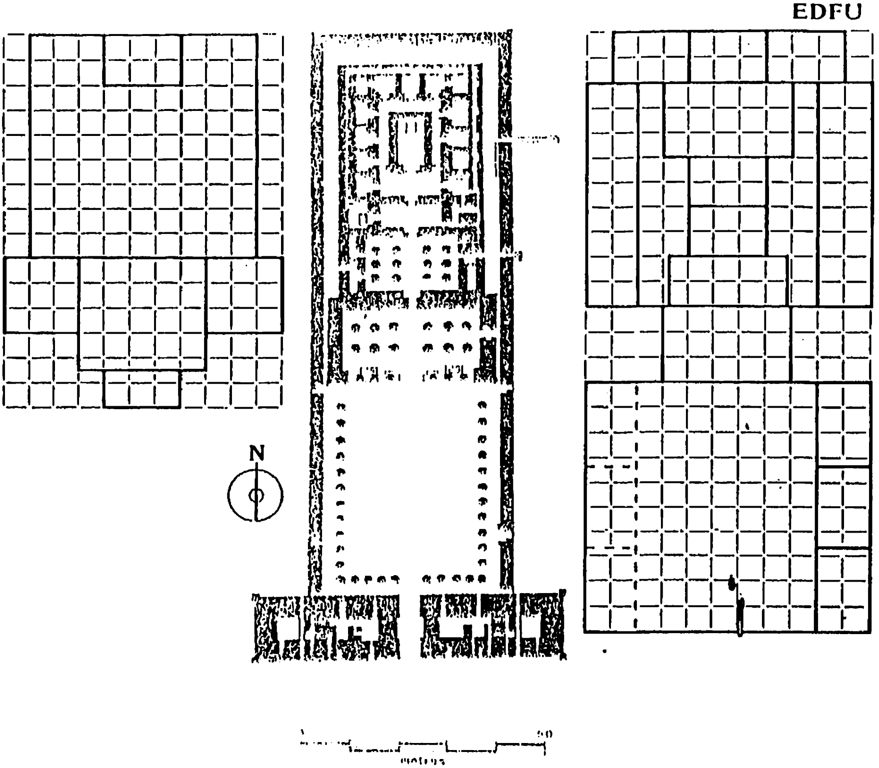

الشكل 37 معابد العقل، فى الوسط مخطط معبد حورس فى إدفو، العصر البطلمى، 236-57 ق.م. على اليمن وعلى اليسار خطوط عامة تمثل المعابد الأسطورية التى اخترعت من خلال عمليات تأملية قام بها الكهنة وتم التعبير عنها كأوصاف مكتوبة تكملها أبعاد بالأذرع، كل مربع يساوى 10 أذرع. على اليسار: المعبد البدائى للصقر المقدس (حورس). النص الافتتاحى يقول: "وضع الأساس الذى تم فى معبد 'رافع الإله' فى عهد(الإله) تاتن، فى حضور رع، طبقاً لما فى الكتاب المسمى 'خواص التلال المقدسة من العصر البدائى'". على اليمين: معبد الإله الشمس. ومع أن هذه المعابد (وغيرها) وضعت فى العصر البدائى الأسطورى للآلهة قبل أن يوجد البشر، فهى فى صورتها العامة وأبعادها تعكس المنظور المعمارى للكهنة البطالمة. ومن غير المحتمل أن تكون سجلاً للمبانى الحقيقية المبكرة. من E.A.E. Reymond, *The Mythical origin of The Egyptian Temple*, Manchester, 1969. نصوص إدفو الأخرى التى تصف أساس المعبد الحقيقى تقدم وصفاً، مع أبعاد بالأذرع، تعد واقعية إلى حد ما – انظر S. Cauville Devauchelle, "Les mesure reelles du temple d'Edfu", *Bulletin de L'institut Francais d'Archeologie Orientale* 84 (1948), 23-34.

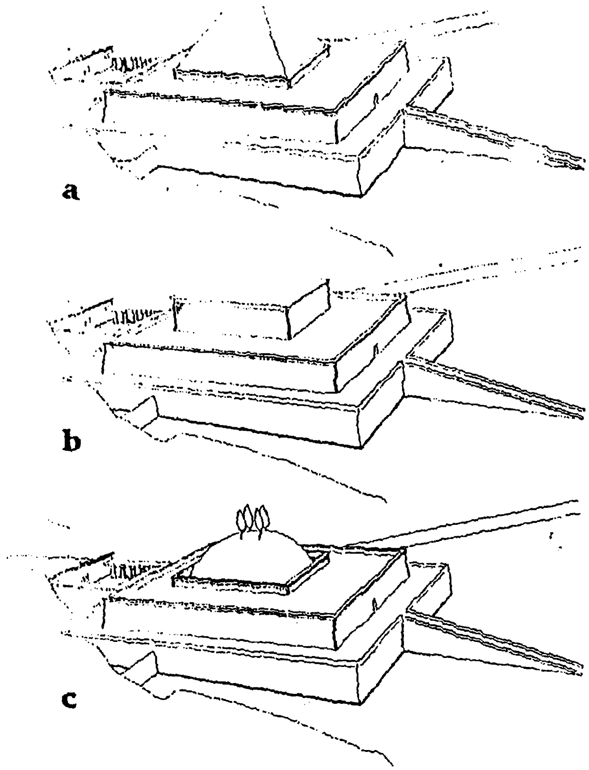

الشكل 38 استئناف لعبة اللغة الدينية: التلاعب البحثى فى الرموز الدينية المصرية من أجل الغايات التعليمية الحديثة. إعادة بناء معبد الملك نبحتب رع منتوحتب في الدير البحرى بطيبة من الأسرة الحادية عشرة بثلاثة أشكال. كل واحد منها "صادق" بالنسبة لروح الديانة المصرية ويمكن أن تدعمه حجه علمية، وهى بالتالى تستمر فى تحقيق احتمال الفكر المصرى القديم. ولن نعرف إن كان منها "حقيقياً"، بمعنى أنه بنى بالفعل فى الدير البحرى. (A) هرم حقيقى، من E. Naville, *The XIth Dynasty temple at Deir el Bahary*, London 1910, Plate XXIV (B) كوم مستوى السطح مبنى من الحجر، اقترحه D. Arnold, *Der Tempel des Konigs von Deir el Bahari I. Architekt* und Deutung, Mainz, 1974, Frontis (C) كوم من التراب عليه أشجار، اقترحه R. Stadelmann, *Die Agyptischen Pyramiden*, Mainz, 1985, p. 229, Abb. 74.

name											the altar of Ra			in crates		
of the	through deliveries sent to the residence						name of the	brought from the palace			in the solar temple					
porter	jars of *sekhpet*-drink	jars of beer	jars of flour	*beset*-bread	*pezen*-bread	*hetja*-bread	place of origin	*tua*-bread, *pat*-bread, *hetja*-bread, *pezen*-bread, beer			consignments of *pat*-bread			good things		
											balance	delivered	amount due	balance	delivered	amount due
								18		18			14			
temple								18		18			14			
employees		3		1	1		estate of Kakai	18		18			14			
									18	18			14			
	1	1	1	1	1	1	Iu-Shedefwi		18	18		30	14			
									18	18	14		14			
Ne-Ankh-Kakai		3		1	1		estate of Kakai	18		18	14		14			
								18		18	14		14			
Ne-Tawi-Kakai		3		1	1		estate of Kakai	18		18	14		14			
son of								18		18	14		14	10		10
Hatu		1		1	1	1	Djed-Sneferu		36	18	14		14	10		10
										18		14	14			
								18		18		14	14			
								18		18		14	14			
								18		18		14	14			
		3		1	1		estate of Kakai		36	18		14	14			
										18		14	14			
								18		18		14	14			
								18		18		14	14			
										18		14	14	10		10
										18		14	14	(10)		(10)
										18		14	14			
Ne-Tawi-Kakai	2 haunches of beef		+ fowl		100	(?)	[illegible]			18	(14)		14			
										18	(14)		14			
	mixed			mixed						18	(14)		14			
brought by	30			30			solar temple			18	(14)		14			
boat										18		14	14			
	1	1	1	1	1	1	Iu-Shedefwi			18		14	14			
										18		14	14			

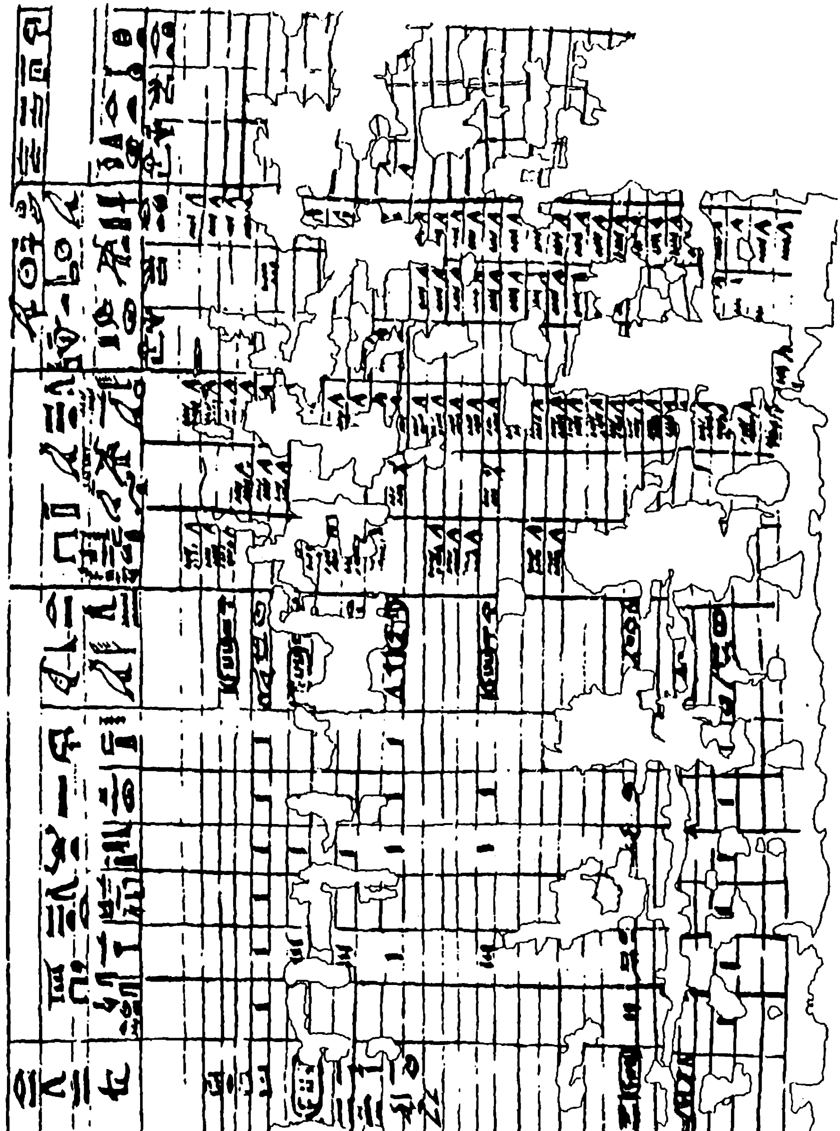

الشكل 39 كشف حساب للدخل اليومى لفترة شهر، من الأرشيف الإدارى لأحد أهرام الدولة القيمة ، وهو هرم الملك نفر ار كا رع فى أبى صير، راجع الشكل 41، للاطلاع على جزء آخر من الأرشيف، والشكل 49 للاطلاع على مخطط الموقع. من P. Posner-Krieger and J.L de Cenival, *Hieratic papyri in the British Museum. 5th series. The Abu Sir Papyri,* London , 11968, Plate XXXIV.

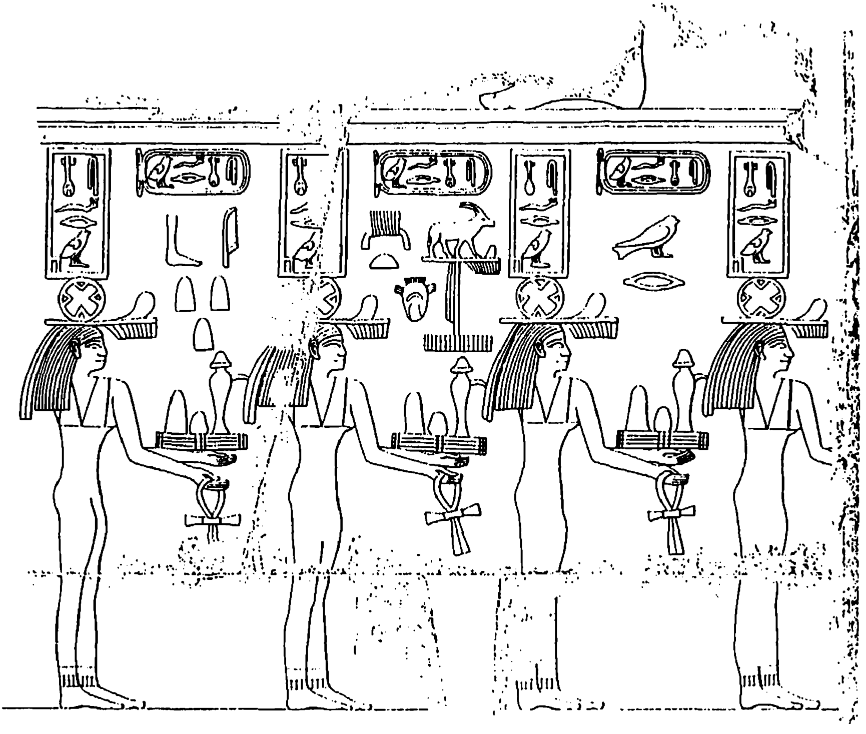

الشكل 40 جزء من قـائمة الضيـاع التى تقدم الدخل لمعبد هرم الملك سنفرو من الأسرة الرابعة في دهشور. كل ضيعة تجسدها امرأة تحمل صينية من طعام القرابين. اسم كل ضيعة مكتوب أمـا كل شكل وفوقه، وهى مجمعة طبقاً للأقاليم (الأقسام الإدارية). أمام الشكل الثانى من اليسار العنوان «إقليم أوريكس» وهى منطقـة بنى حسن. من A. Fakhry, *The Monuments of Snefero at Dahshur* II, Cairo, 1963, Fig. 16; redrawn by B. Garfi.

haematite	crystalline stone				flint	iron			
bowl:	bowls		vases		ritual knife	blade	total of	offering-tables	
gold-plated	black	white	black	white				small	large
	[bowl]	[bowl]	[vase]	[vase]	[knife]	[blade]	silver items	[table]	[table]
1	2	1	1	1	1	2	23	2	1
	(?)	various repairs to rim & base (x2) (x2) & to sides	repairs to rim & base	repairs to sides; holed (x2)	handle chipped; repaired	splinters missing, having been dropped		badly split; loose joints; corroded	badly split; loose joints; corroded
1	2	1	1	1	1	2	23	2	1
	(?)	ditto	ditto	ditto	handle & blade chipped	ditto		ditto	ditto
1	2	1	1	1	1	2	23	2	1
	ditto	ditto	ditto	ditto	ditto	ditto		ditto	ditto
	(?)	ditto	ditto	ditto	ditto	ditto		badly split; loose joints, holed	badly split; loose joints; holed
1	2	1	1	1	1	2	23	2	1
		(repairs) ditto	ditto	(chipped) ditto	ditto	ditto		ditto	ditto
1	2	1	1	1	1	2	23	2	1

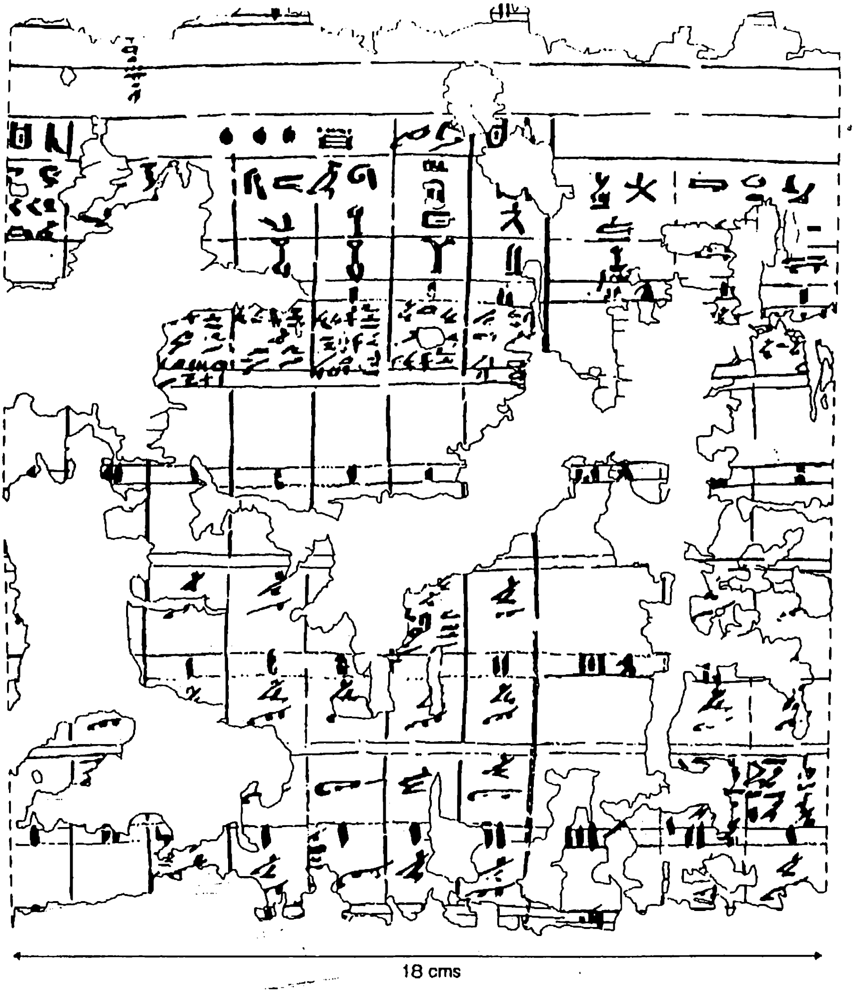

الشكل 41 كشف جرد المعدات، من نفس مصدر الشكل 39، p. 115. من P. Posener-Krieger an
J.L de Cenival, *Hieratic Papyri in the British Museum. 5th Series. The Abu Sir Papyri*, London, 1968, Plate XX.

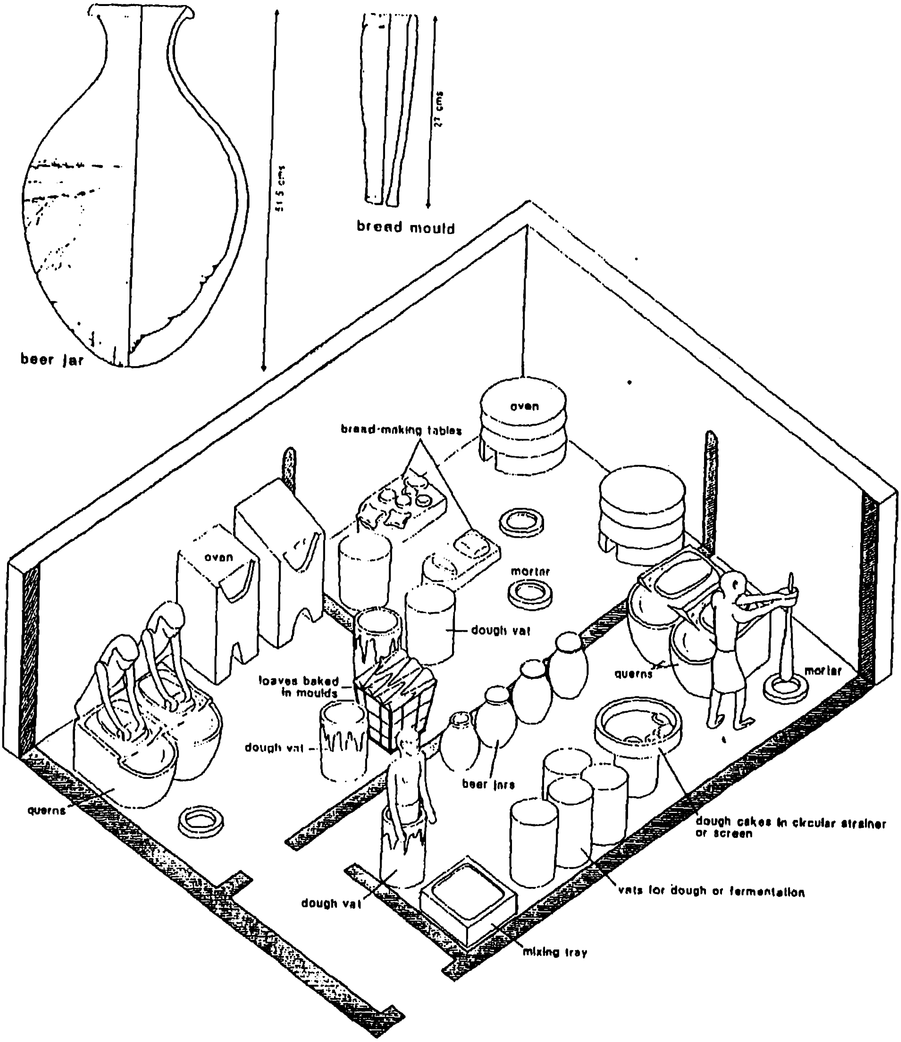

الشكل 42 الخبيز وصنع الجعة: نموذج المخبز ومعمل الجعة من مقبرة مكيت رع فى طيبة، الأسرة الحادية عشرة، من H.E. Winlock, *Models of Daily Life,* New York, 1955, Figs 22, 23, 64, 65. الجرتان اللتان أضيفتا إلى النموذج من بلدة المعبد الجنائزى لأمنحتب الثالث فى دهشور، من Do. Arnold, "Keramikbearbeitung in Dahschur 1976-1981", *Mitteilungen des Deutschen Archaologischen Instituts, Abteilung* kairo 38 (1982), 29, Abb. 5, 31, Abb. 6.

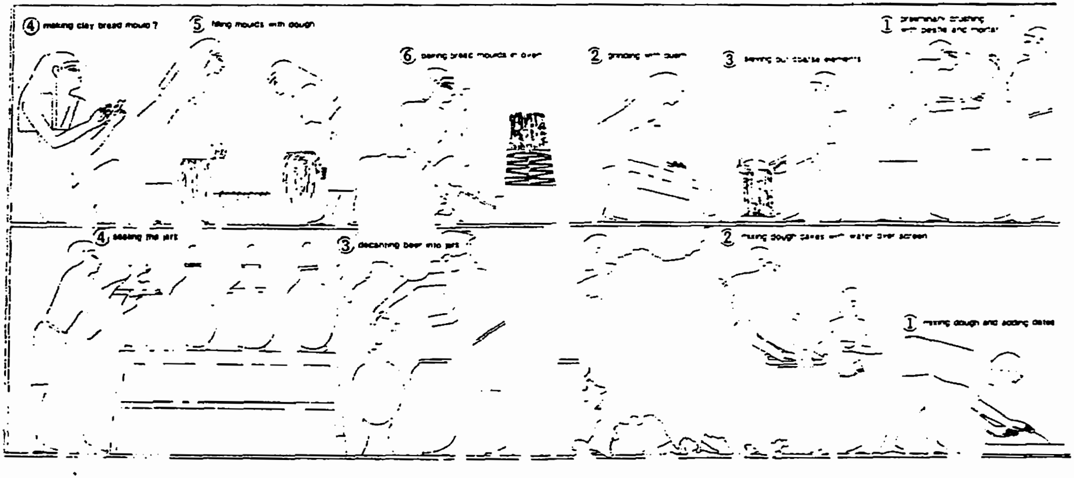

الشكل 43 الخبيز وصنع الجعة كما هما مصوران في مقبرة نتف أوكر في طيبة، من N. de G. Davies, *The Tomb of Antefoker*, London, 1920, Plates XI, XII.

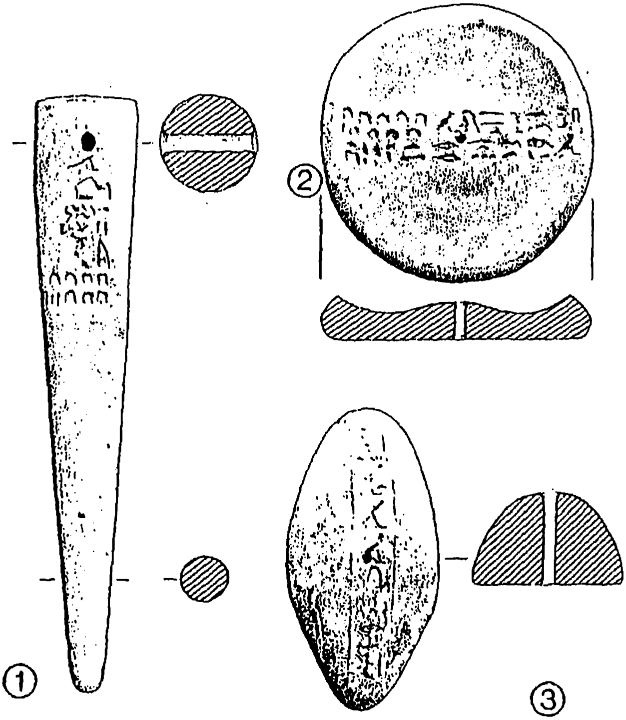

الشكل 44 عدادات رواتب الجنود من الخبز. وهى مصنوعة من الخشب الملبس بالجبس ومطلية. وكل منها يأخذ شكل نوع بعينه من الأرغفة ويحمل نقشاً محفوراً قصيراً تصعب ترجمته. رقم 1: رغيف أسطوانى من النوع الذى يخبز فى القوالب الفخارية، وارتفاعه 24.7 سنتيمتر؛ وتشير الرموز الهيروغليفية إلى خمسة وسبعين رغيفاً للجندى. رقم 2: رغيف مستدير مسطح وسطه مرتفع وقطره 12.8 سنتيمتر؛ وتشير الرموز الهيروغليفية إلى تسعين رغيفاً من حقات واحد من القمح. رقم 3: رغيف بيضاوى قاعدته مسطحة وطوله 12.7 سنتيمتر؛ وتشير الرموز الهيروغليفية إلى 60 رغيفاً. من حصن أورونارتى الذى يعود إلى أواخر الأسرة الثانية عشرة فى النوبة. من D. Dunham, *Uronarti Shaflak Mirgissa*, Boston, 1967, Plates XXVII, XXVIII, and pp. 34-5.

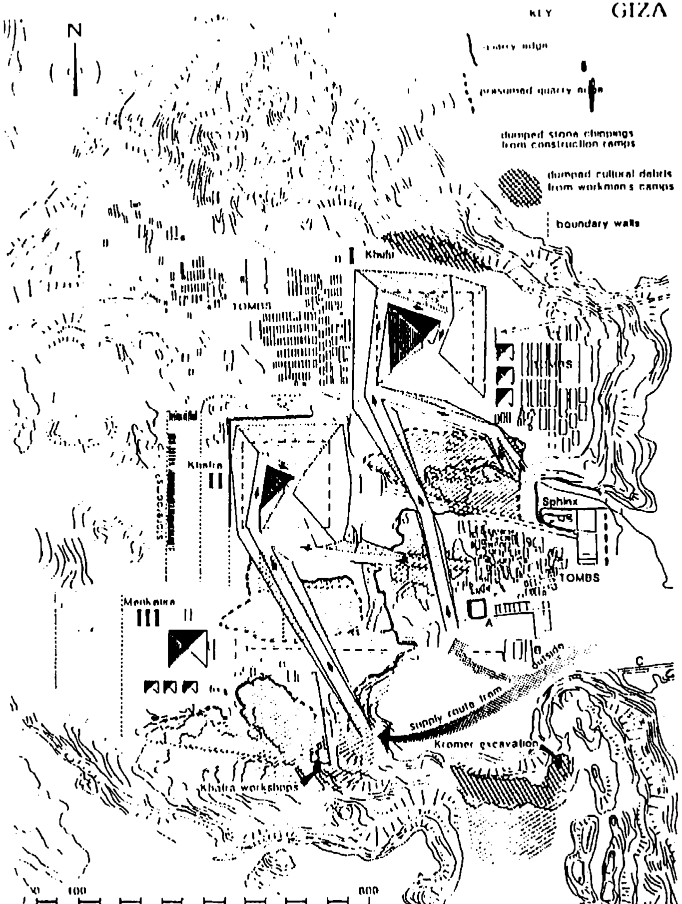

الشكل 45 أركيولوجيا الأشغال العامة واسعة النطاق: هضبة الهرم، وتبدو المحاجر ومخلفات التشييد، بالإضافة إلى خطوط عامة افتراضية للطرق الصاعدة «الحلزونية» المستخدمة في تشييد الهرمين الأول والثانى. من M. Lehner, "A contextual approach to Giza pyramids', *Archiv fur Orientforschung* 32 (1985), 136-58. للاطلاع على ورش خفرع، انظر الشكل 46، وللاطلاع على معبد الوادى الخاص بمنكاورع، انظر الشكل 15؛ وبالنسبة لمدينة خنت كاوس، انظر الشكل 50.

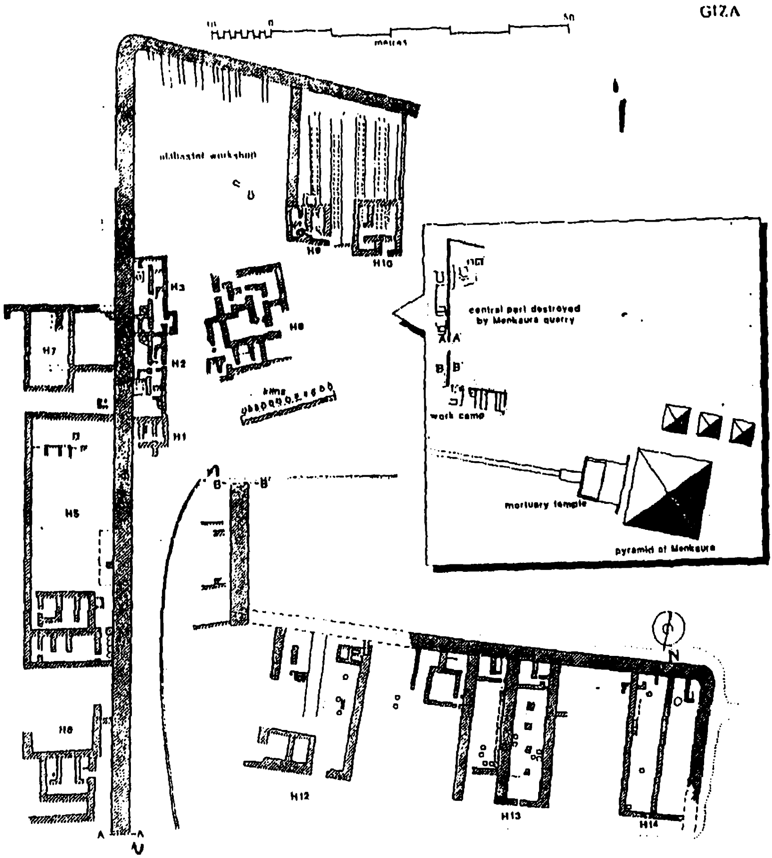

الشكل 46 جزء من معسكر العمل بالقرب من هرم منكاورع بالجيزة، ولكن ربما كان هناك عزم على استخدامه لهرم خفرع، انظر الشكل 131. من Abdel Aziz Saleh, "Excavations around *Mycerinus complex", Mitteilung des Deutschen Archaologischen Instituts, Abteilung Kairo* 30 (1974), 132, Fig. 1, 142, Fig. 2.

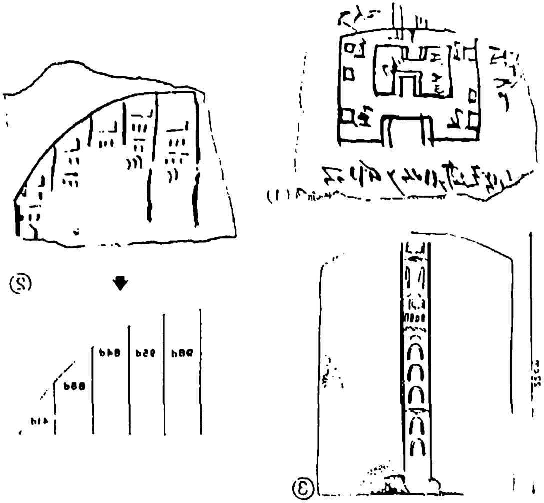

الشكل 47 وسائل معينة عملية خاصة بالكتبة: (1) اسكتش سريع به أبعاد عامة ربما كانت كل ما هو ضروري للبدء في أعمال البناء، وهو يحدد الأرض والأساسات. وفي هذه الحالة الاسكتش على شقفة فخار ويعود إلى أواخر الأسرة الثامنة عشرة أو أوائل التاسعة عشرة. وهناك تعليقات مختصرة، تشمل الأبعاد، مكتوبة باللغة الهيراطيقية. ومن الواضح أن المبنى كان مكاناً أوسط للعبادة مفتوح من طرفيه ويحتوي على قاعة داخلية مفتوحة كذلك من طرفيها ويحيط بها بهو أعمدة. وكانت المقاييس الخارجية 27 ذراعاً (حوالي 14 متراً) من كل جانب؛ وكانت المقصورة الداخلية 6X14 أذرع. وتظهر ستة أعمدة على الجانبين (مكتوب "عمود" بجوار أربعة منها)، ولكن ربما لم يكن هذا بالضبط هو العدد المزمع إقامته من الأعمدة. وربما بينت التفاصيل الموسعة بالحجارة أثناء عملية البناء. العرض 9.5 سنتيمتراً. British Museum 41228 من الدير البحري. من S.R.K. Glaville, "Working plan for a shrine", *Journal of Egyptian Archaeology* 16 (1930), 237-9. (2) رسم بياني مرسوم على عجل على قطعة من الحجر الجيري يبين كيفية رسم خط منحنى. فينبغي رسم خط متعامد ذي طول معين على مسافات منتظمة (مقدارها ذراع واحد، وإن لم يكن هذا مذكوراً صراحة). الأرقام بالذراع (وقد اختزلت هنا إلى رموز للتيسير). وعند توصيل النقاط التي في آخر الخطوط ببعضها يتكون منحنى. من سقارة، ربما من الأسرة الثالثة واستخدم في بناء السطح المقوس للمقبرة الجنوبية. العرض 17.8 سنتيمتر. Cairo Museum JE 50036. من Somers Clarke and R. Engelbach, *Ancient Egyptian masonry,* Oxford, 1930, pp. 52-3, Fig. 53, 54. (3) لوح من الحجر الجيري من كاهون، ربما كان يستخدم لتحديد موضع مجموعة مزمع إقامتها من المنازل. النقوش التي عليه أشبه بما يلي: "بلوك يضم أربعة منازل -) 20X30 ذراعاً)"، أي حوالي 10X15 أمتار. من G.A. Wainwright, "Antiquities from Middle East and the Fayum", *Annals de Services des Antiquites de l'Egypte* 25 (1925), 144-5, plate وكذلك H.g. Fischer, "Deux steles villageoises du Moyen Empire", *Chronique d'Egypte* 55, no. 109-110 (1980), 13-16.

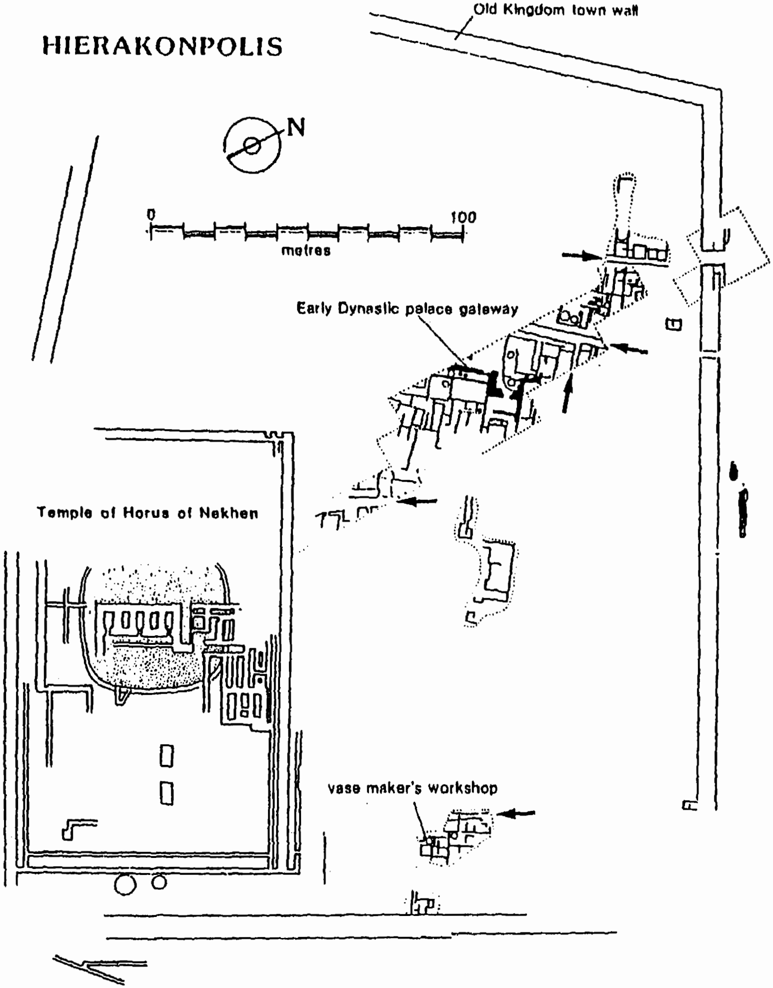

الشكل 48 تخطيط عمراني على قدر من الانتظام فرضه سور المدينة: بلدة الدولة القديمة في هيراكونبوليس (راجع الشكل 11 والشكل 25). السهام تشير إلى ما يحتمل أن تكون شوارع. من J.E. Quibell and F.W. Green, *Hierakonpolis* II, London, 1902, Plate LXXIII; W. Fairservis, K.R. Weeks and M. Hoffman, "Preliminary report on the first two seasons at Hierakonpolis", Journal of the *American Research Center in Egypt* 9 (1971-1972), Figs 3, 9-15.

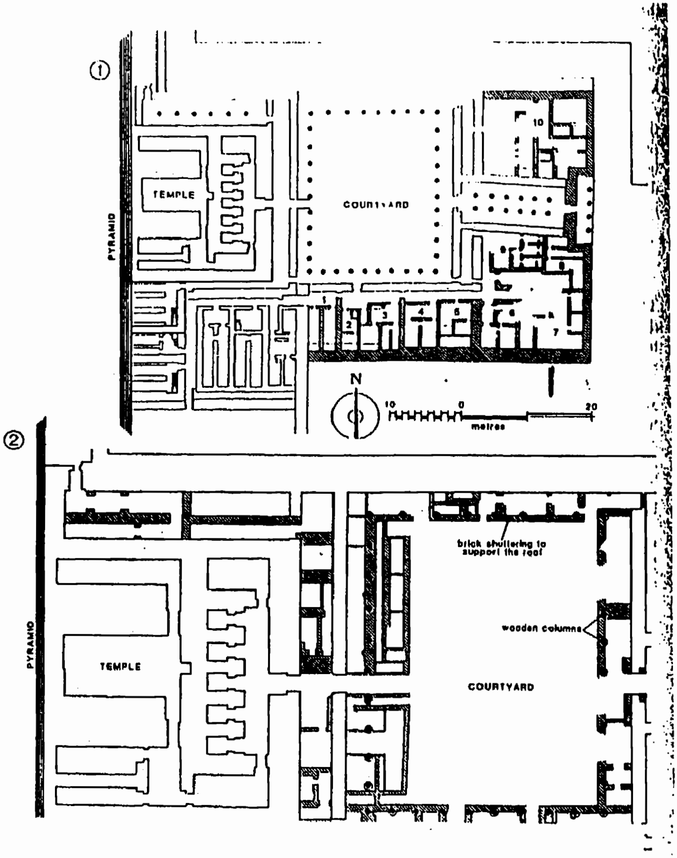

الشكل 49 تداعى أثر وأركيولوجيا الصيانة: المعبد الجنائزى عند هرم الملك نفر ار كا رع من الأسرة الخامسة فى أبى صير. (1) الخطوط الأكثر سمكاً من المعبد تمثل المبانى الحجر؛ أما الباقى فمن الطوب. ويمثل الجزء المظلل "مدينة" الهرم التى بنيت عقب الانتهاء منه. ومن المفترض أن المبانى من 1 إلى 9 منازل؛ ووظيفة رقم 10 غير مؤكدة. (2) نفس المعبد الجنائزى، بعد جيل أو أكثر. الأجزاء المظللة دعامات من الطوب ومصاريع بناها الكهنة لصلب سقف بهو الأعمدة المحيط بالفناء الأمامى وأسقف الممرين الشرقى والشمالى فى المعبد. وكانت الأعمدة من الخشب، ومن الواضح أنه كان من المحتمل أن تنهار واجهة المعبد بالكامل. وقد استغل الملجأ الإضافى الذى وفرته الحوائط الحاملة لنيران الطهى حيثما تيسر ذلك. من L. Bochhardt, *Das Grabdenkmal des Konigs Nefer-ir-ke-re,* Leipzig, 1909, p. 56, Abb. 63, Blatt 10.

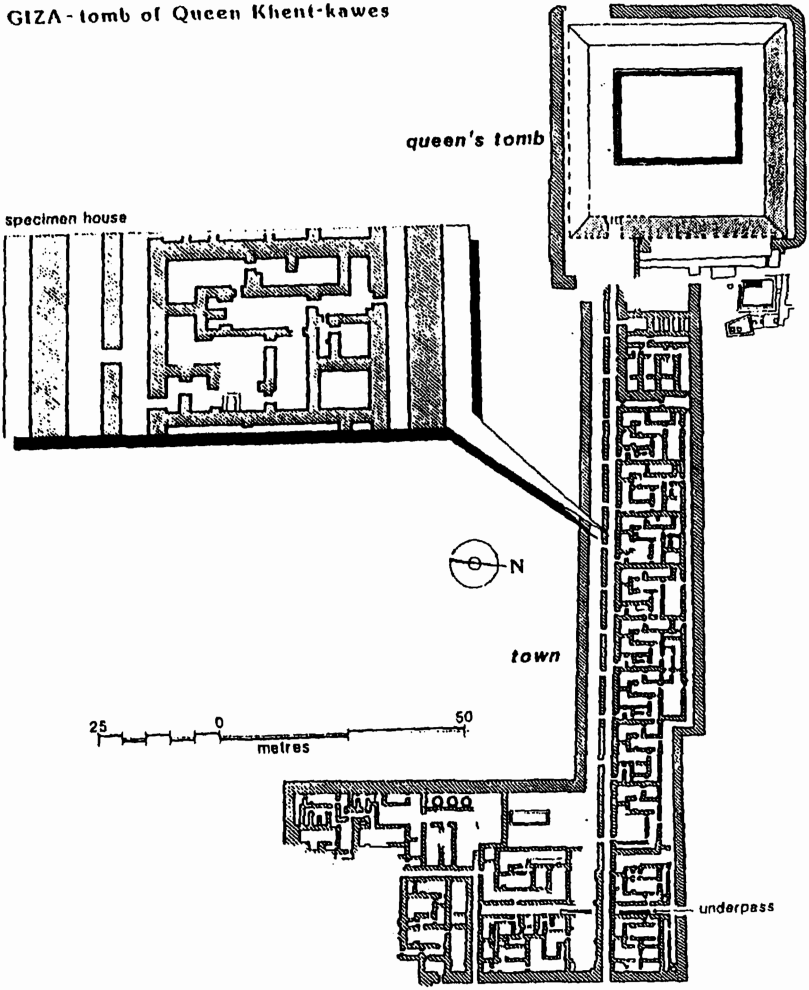

الشكل 50 تخطيط عمرانى مبكر: المدينة التى كان يعتزم أن تؤوى الجماعة المؤيدة لتقديس الملكة الراحلة
نت كاوس بالجيزة من الأسرة الرابعة (راجع الشكل 45 لمعرفة الموقع). من S. hassan , *Excavations*
at Giza IV (1932-33), Cairo, 1943, Fig.

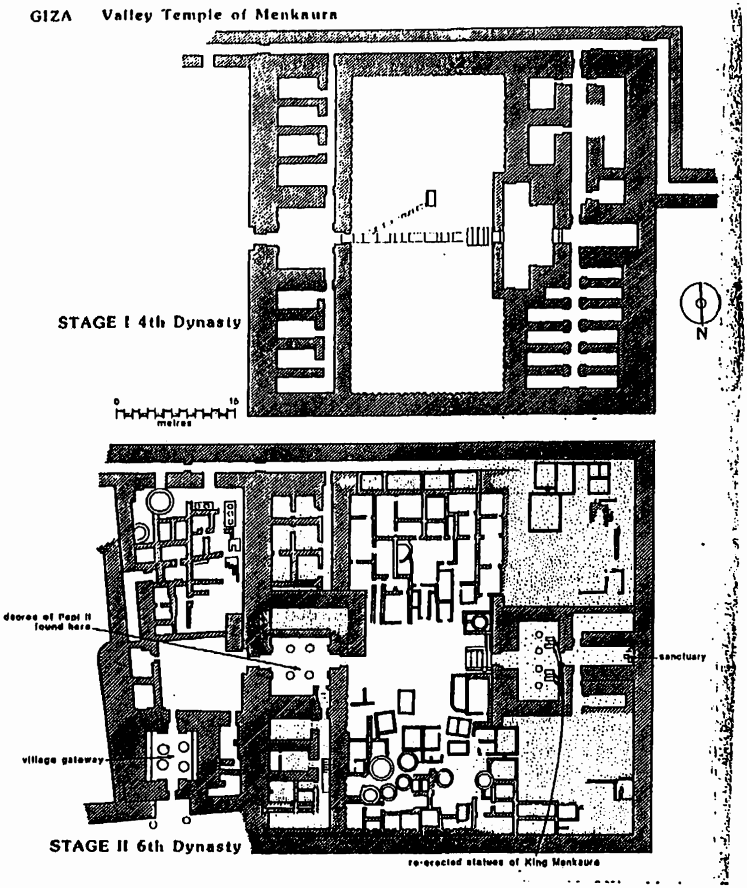

الشكل 51 تحويل الأثر إلى "قرية": معبد الوادى الخاص بهرم الملك منكاورع بالجيزة (راجع الشكل 45 لتحديد الموقع). أعلى: مخطط المعبد عند الانتهاء من تشييده بعد وفاة منكاورع (حوالى 2471 ق.م.). لاحظ تزيين واجهة القصر فى جوانب الفناء الرئيسى. والمبنى بكامله نموذج جيد للعمارة الضخمة الرسمية من الطوب. أسفل: المبنى نفسه بعد حوالى ثلاثة قرون، فى عهد الملك ببى الثانى. المرسوم الملكى الموجود على لوح عثر عليه فى بهو المدخل يبين أن المبنى كان لا يزال من الناحية الرسمية مدينة الهرم الخاصة بمنكاورع. وبمرور الوقت كان مجتمع الكهنة قد انتقل إلى هناك وبنى منازله ومخازن غلاله (المبانى المستديرة) وكان بعضها لداخل بقايا المعبد والبعض الآخر فوقها. وقد جعلها سورها السميك والبوابتان الضخمتان قرية محصنة فى واقع الأمر. من G.A. Reisner, *Mycerinus*, Cambridge, mass., 1931 Chapter III, Plates VIII, IX.

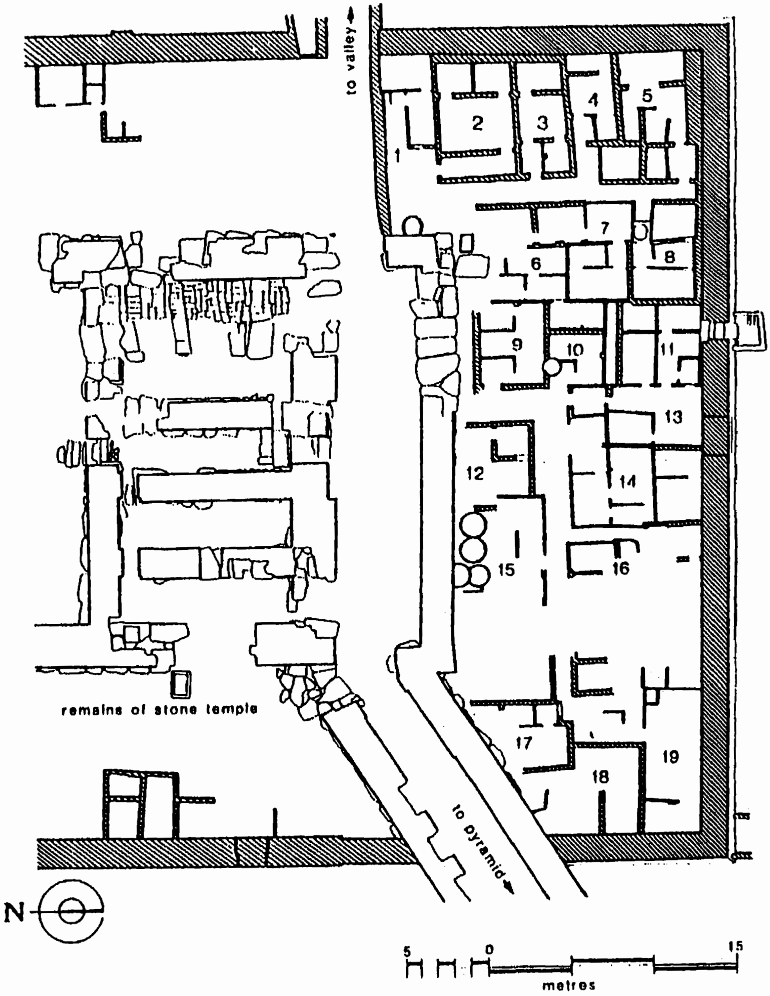

الشكل 52 «مدينة» العبادة الجنائزية من الدولة القديمة الملحقة بمعبد الوادى الخاص بالملك سنفرو فى دهشور ·راجع الشكل 40). الأرقام 1-11 و 13 و14 و16 ربما تكون منازل، أما رقم 15 فيحتوى على مجموعة من أربعة مخازن غلال. من A. Fakhry, *The Monuments of Snefru at Dahshur* II.1, Cairo, 1961, Fig. 4.

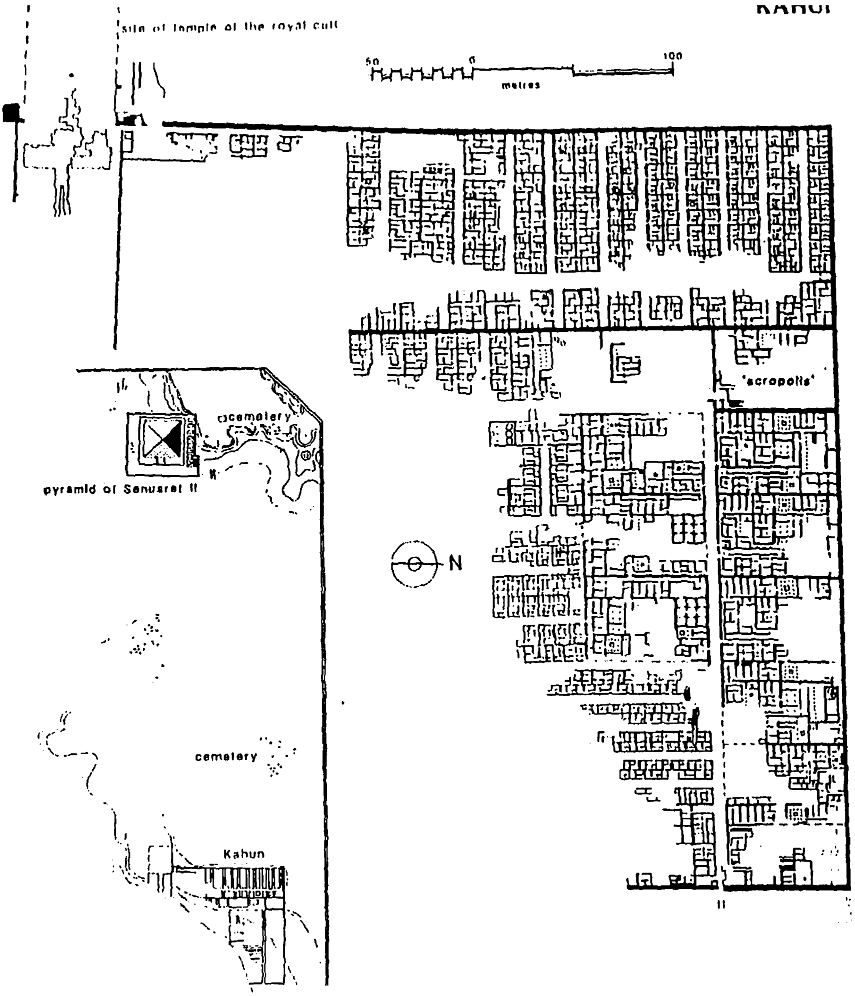

الشكل 53 الموقع النموذجي لتخطيط المدن المتعامد فى مصر القديمة: مدينة كاهون من الدولة الوسطى، الملحقة بهرم سنوسرت الثانى، من W.M.F. Petrie, *Illahun, Kahun and Gurob,* London, 1981, Plate XIV; W.M.F. Petrie, G. Brunton, and M.A. Murray, *Lahun* II, London, 1923, Plates II, XXXVIA.

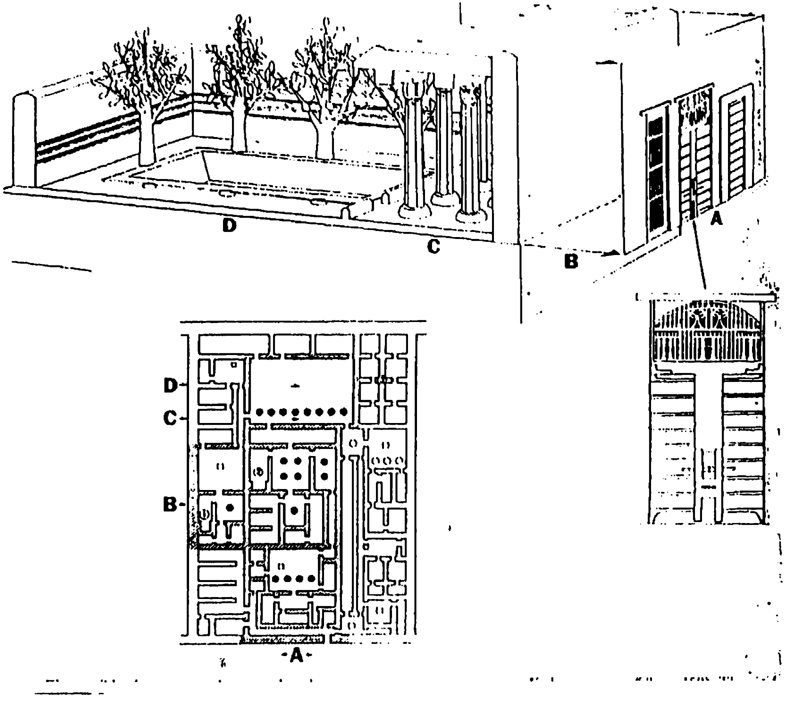

الشكل 54 منزل كبير بالمدينة: المخطط تكوين مأخوذ من كاهون (الشكل 53) المنزل الأساسي –الجزء السكني– مظلل. ويمكن التعرف على غرفتي نوم رئيسيتان بهما تجويف في الجدار للسرير (وهما 1 و2، راجع الشكل 98). ولا بد أن سائر المنزل قد خصص للتخزين (بما في ذلك مخزن الغلال، رقم 3)، والورش. والمنظور المرسوم مأخوذ من نماذج منازل الأسرة الحادية عشرة التي عثر عليها في مقبرة مكيت رع في طيبة. أجزاء من A حتى D تتطابق مع الأجزاء التي تحمل نفس الحروف في المخطط. "A" هو المدخل المواجه للشارع، و"B" هو الجزء الرئيسي من المنزل (وقد أختزل في النموذج عند سمك الطرف الخشبي في النموذج)، و"C" هو المدخل المظلل، و"D" هو الحديقة. من H.E. Winlock, *Models of Daily Life in Ancient Egypt*, New York, 1955, Figs 9-12, 56-7.

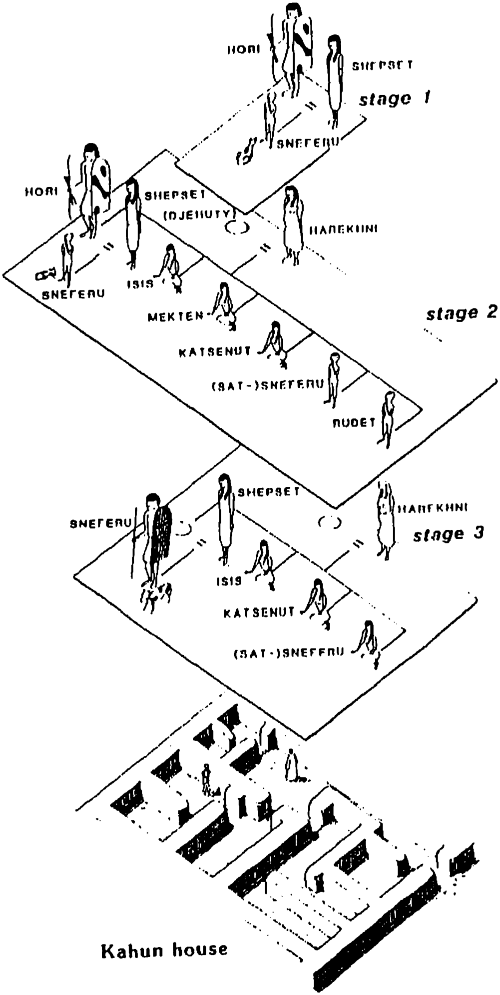

الشكل 55 الحجم المتغير لأهل أحد بيوت كاهون الذي يخص جندياً وأسرته. من أرشيف بردي من الموقع. طول الزمن غير معروف ولكن يحتمل أن يكون قصيراً بعض الشيء. ومن المفترض أنهم عاشوا في واحد من المنازل العادية، كما هو موضح في الشكل.

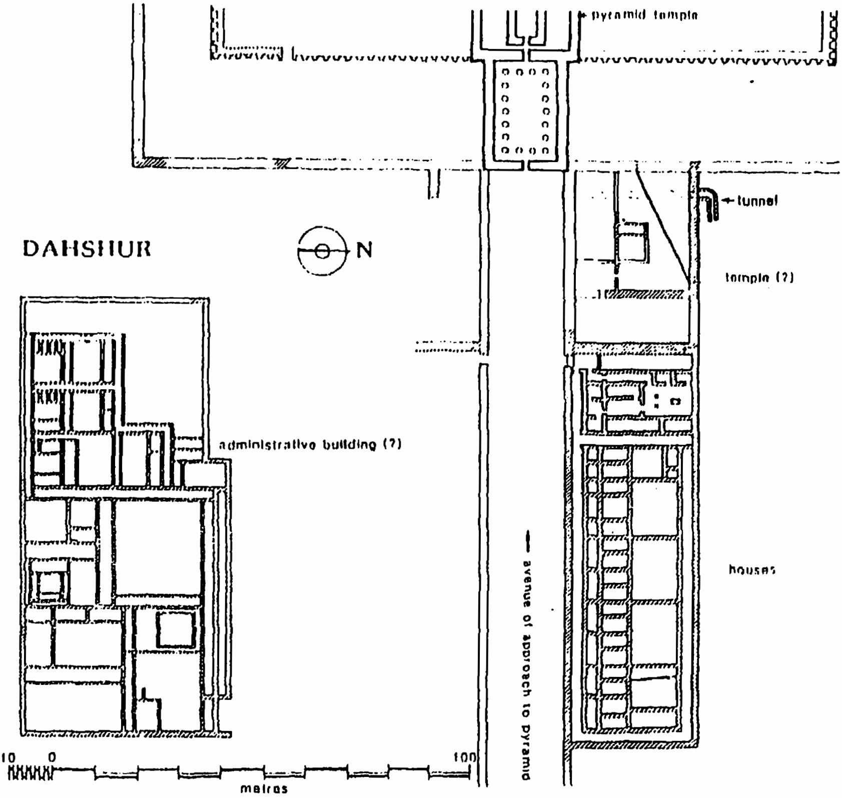

الشكل 56 أساسات المنازل والمباني المساعدة في «مدينة» هرم أمنمحات الثالث في دهشور، وهي تبين
التخطيط المتعامد دون أن يكون هناك سور يحيط بها. من D. Arnold, *Der Pyramidenbezirkt des Königs Amenemḥet II, in Dahschur*, Mainz, 1987, Taf. 36.

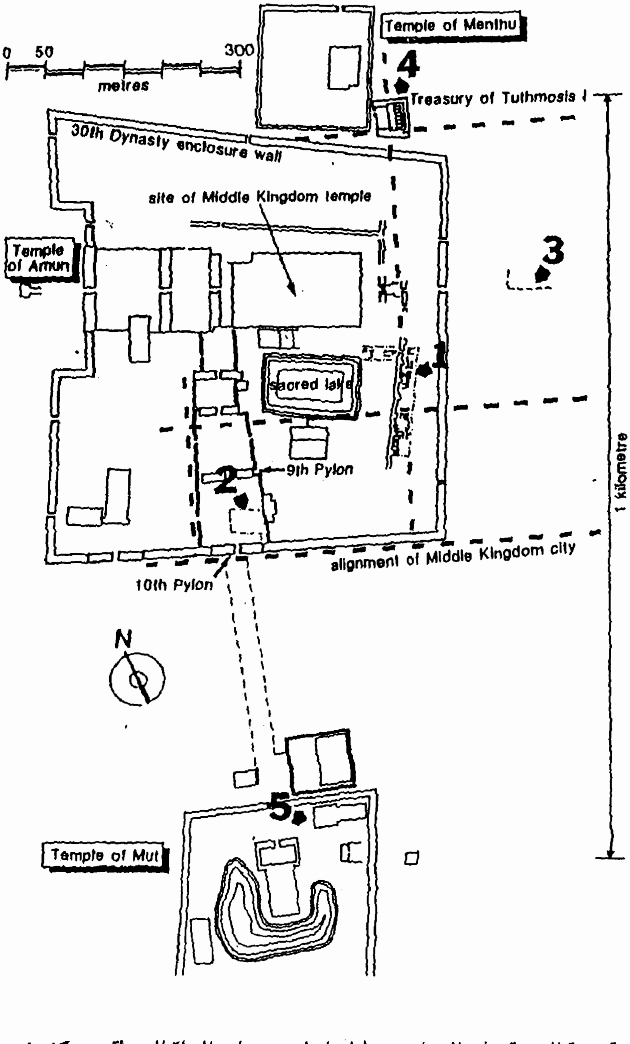

الشكل 57 مدينة طيبة القديمة. على اليسار: مخطط عام لجمع معابد الدولة الحديثة يبين كشوف مدينة ما قبل الدولة الحديثة (1و2، انظر النص لمعرفة الشرح). على اليمين: تفاصيل الكشف رقم 1، وهو جزء من مدينة الدولة الوسطى المخططة تخطيطاً متعامداً، من *Karnak V (1970)*, 26, Fig. 13.

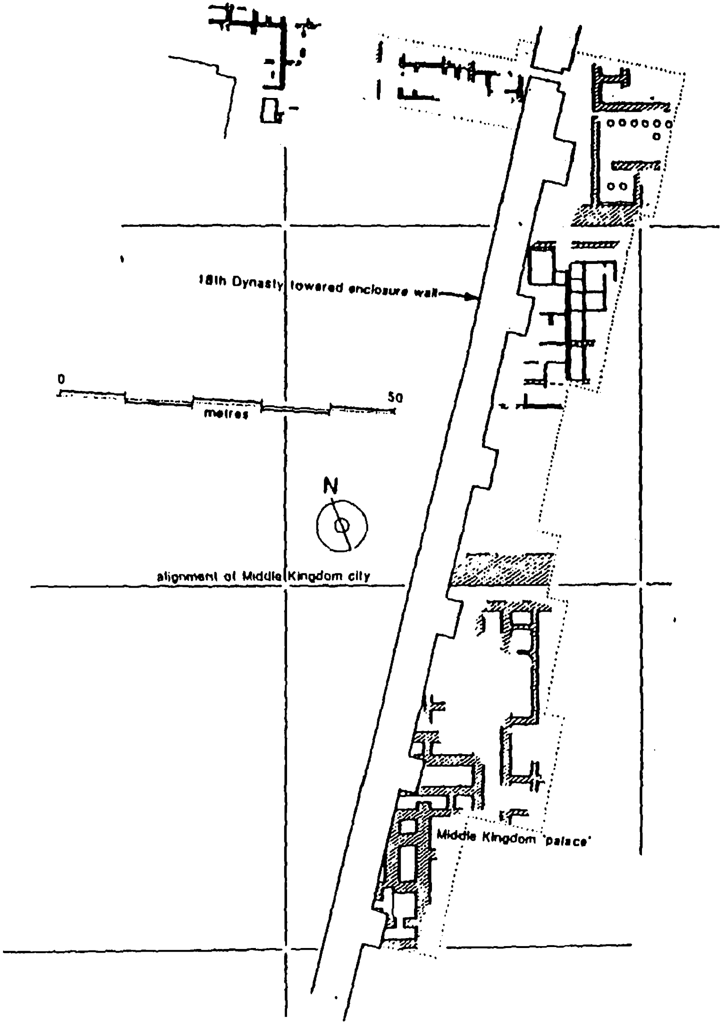

18th Dynasty towered enclosure wall
0
50
metres
N
alignment of Middle Kingdom city
Middle Kingdom 'palace'

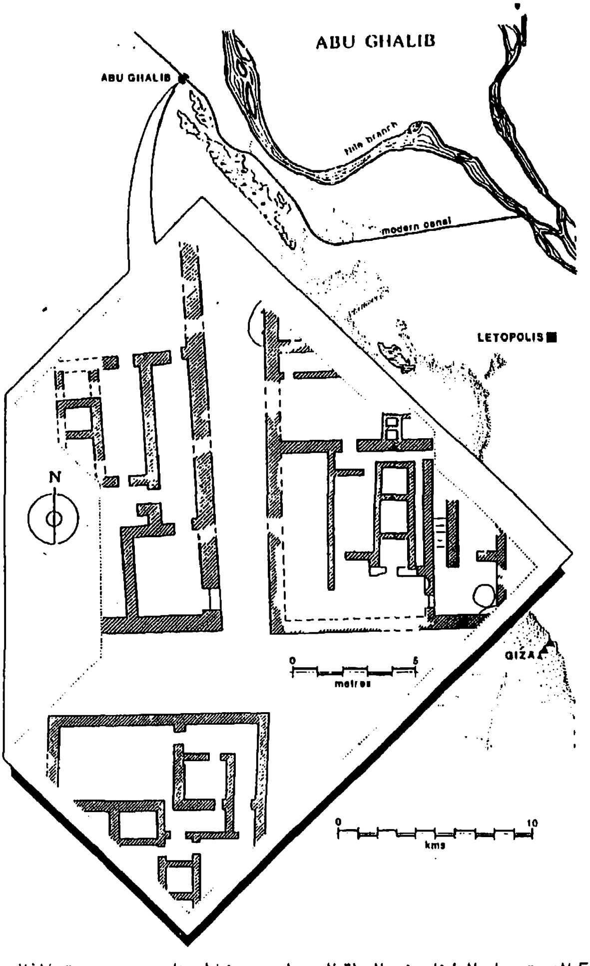

الشكل 58 الاستعمار الداخلي في الدولة الوسطى من خلال بناء مدن جديدة. المثالان كلاهما في دلتا النيل. على اليسار: موقع أبو غالب، وربما كان في الأصل بجانب النهر وأحد الموانئ المهمة. لاحظ الاتجاه الصارم في اتجاه الشمال، وهو مخالف للاتجاه الطبيعي للموقع. من H. Larsen, "Vorbericht Uber die schedeischen Grabungen in Abu Ghalib 1932-1934", *Mitteilungen des Deutschen Instituts fur Agyptische Altertumskunde in Kairo* 6 (1953), Abb. 5. على اليمين: جزء من أقدم مستوى في موقع تل الضبعة في شمال شرقي الدلتا، ويعود تاريخه إلى عصر الانتقال الأول/أوائل الدولة الوسطى، وربما كانت مستعمرة عسكرية. من M. Bietak, "Tell el-Dab'a", *Archiv fur Orientforschung* 32 (1985), 132-3.

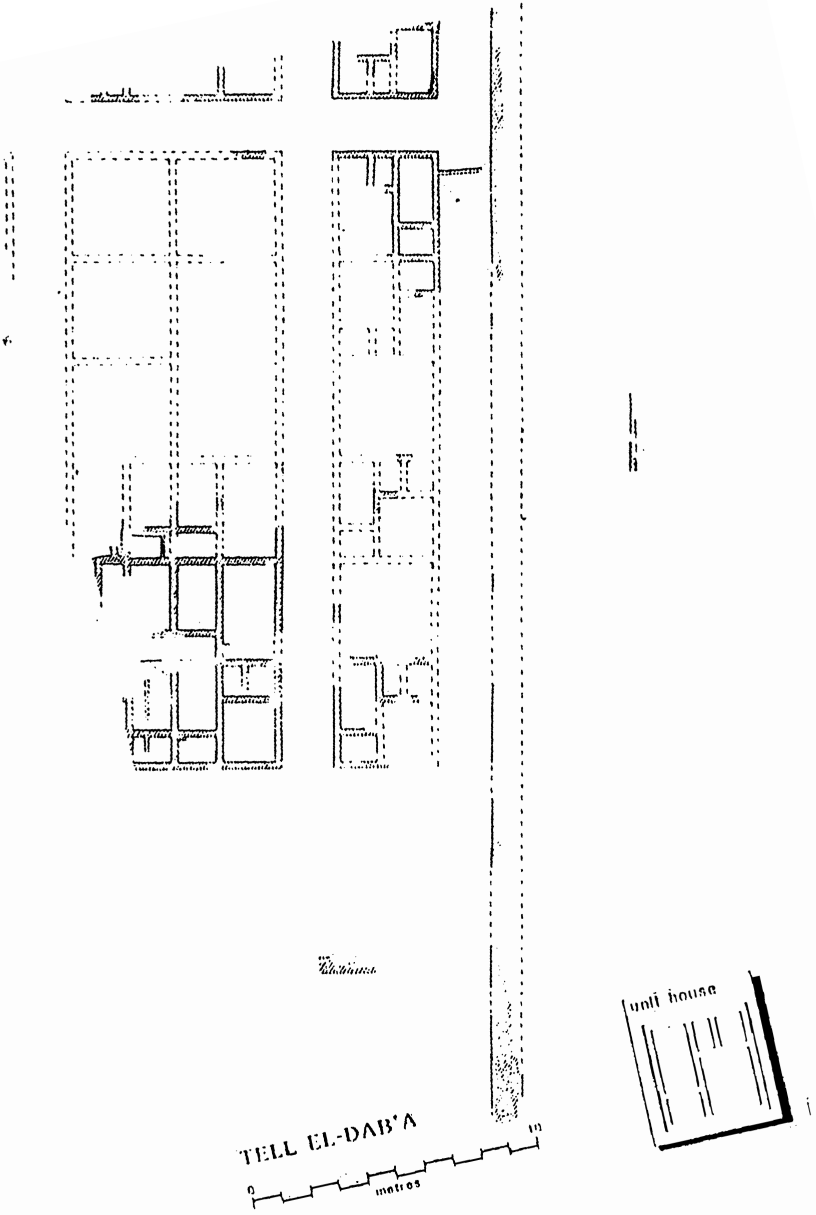
TELL EL-DAB'A
0
10
metres
unit house

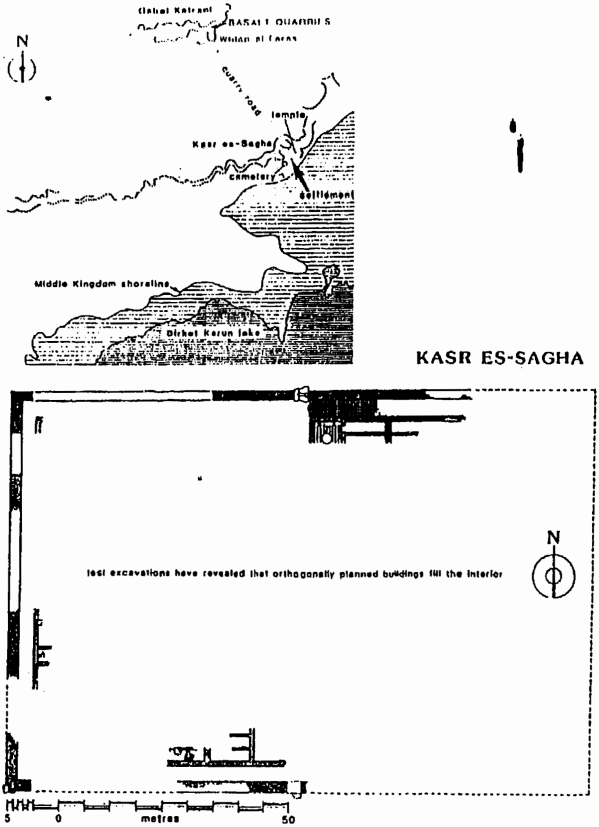

الشكل 59 تخطيط مطبق على مدينة العمل: مستوطنة الدولة الوسطى في قصر الصاغة، وكانت تخدم
محجر البازلت في جبل قطراني. ولم تجر الحفائر بها حتى الآن إلا بصورة جزئية قارنها بقرية الدولة القديمة
في أم الصـــــوان، الشكل 83. من J. Sliwa, "Die Sidellung des Mittlern Reiches bei Qasr
el-Sagha. Grabungsberich 1983 und 1985", *Mitteilung des Deutschen Archaologischen*
Instituts, Abteilung Kairo 42 (1968), 170, Abb. 2 وكذلك D. and Do. Arnold, *Der Tempel*
Qasr el-Sagha, Mainz , 1979, p. 26, Abb. 14; B. Ginter, W. Helfik, H.K Kozlowski, and
L. Sliwa , "Excavations in the Region of Qasr el-Sagha, 1979, Contributions to the
Holocene geology, the Predynastic settlements in the northern Fayum desert",
Mitteilung des Deutschen Archaologischen Instituts, Abteilung Kairo 36 (1980), 119,
Fig. 7. الخريطة المصاحبة التي تبين كذلك الزيادة الكبيرة التي طرأت على حجم بحيرة قارون في الدولة
الوسطى من Arnold and Arnold, op. cit., p. 24, Abb. 13.

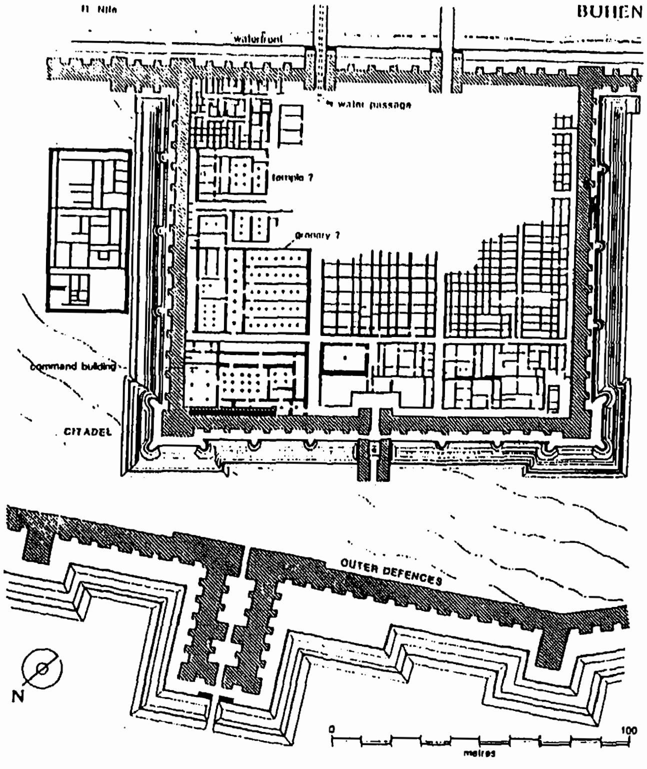

الشكل 60 التخطيط العمراني في خدمة الجيش: حصن الدولة الوسطى في بوهن بالنوبة. الشكل الخلوي يمثل الأساسات؛ ولا بد أنه على مستوى الأرض كان هناك المزيد من المداخل. من W.B. Emery, H.S. Smith, and A. Millard, *The Fortress of Buhen; the Archaeological Report,* London, 1979, Plate 3.

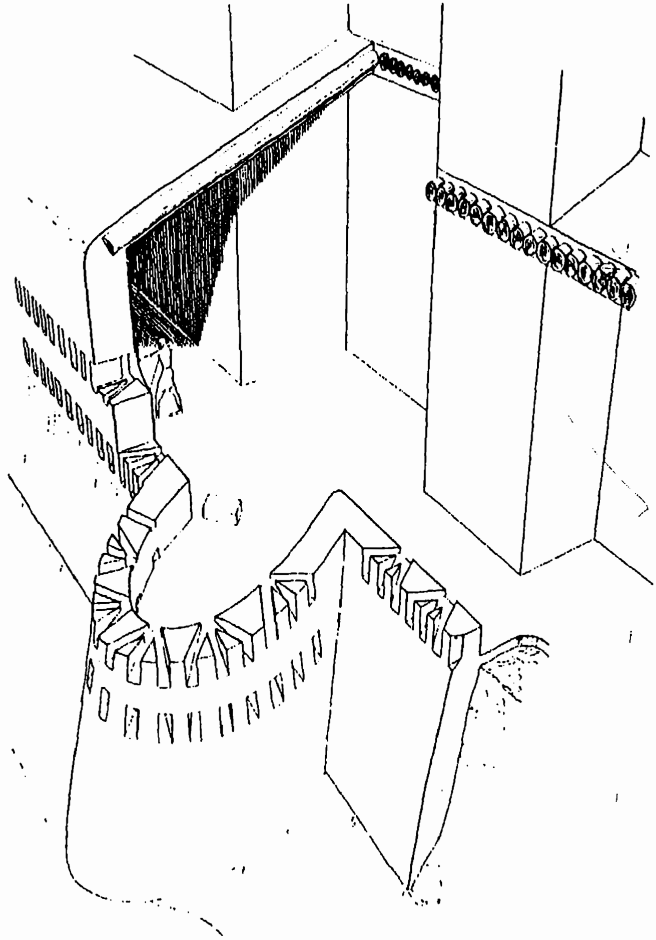

الشكل 61 عقلية المهندس المعماري العسكري البارعة (وهو بلا شك «كاتب»). إعادة بناء لتحصينات القلعة في بوهن، انظر الشكل 60.

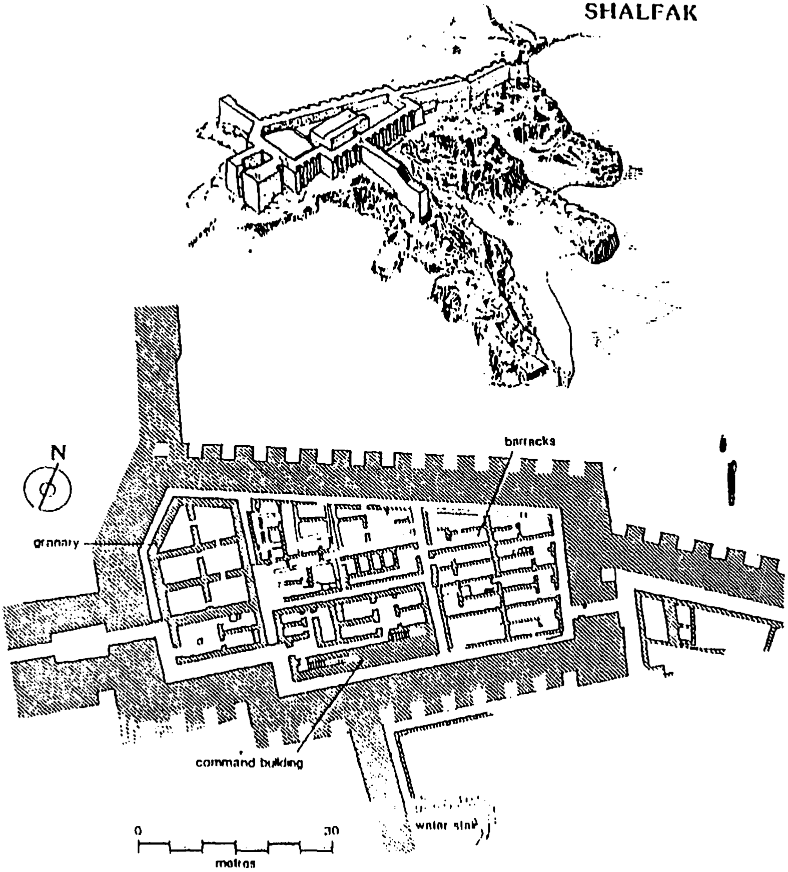

الشكل 62 تعديل خيالي للعمارة تبعاً للطبوغرافيا: قلعة شفلك في منطقة الشلال الثاني بالنوبة، وبناها سنوسرت الثالث من الأسرة الثانية عشرة على نتوء صخري يطل على النيل. المخطط من G.A. Reisner, N.F. Wheeler, and D. Dunham, *Second Cataract Forts II. Uronarti Shaflak Mirgissa*, Boston, 1967, Map X.

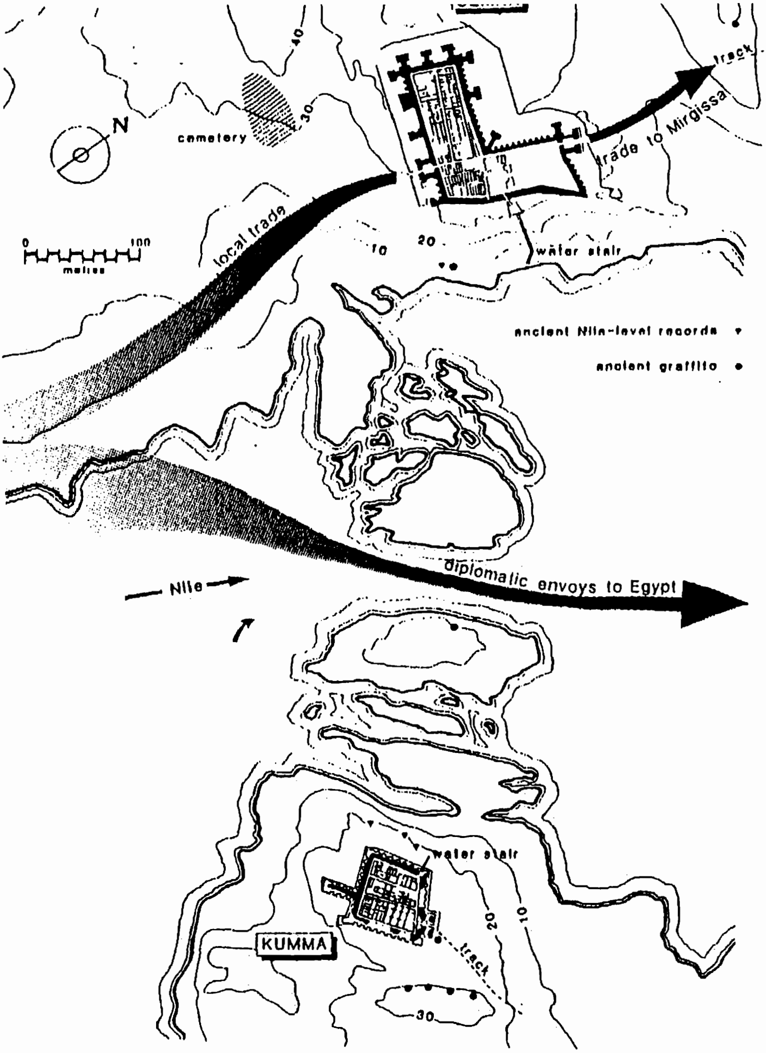

الشكل 63 الحدود الجنوبية للأراضى المصرية فى أواخر الدولة الوسطى. نظام الحصن فى سمنه لم يكن يوفر الحماية العسكرية وحسب، بل كان كذلك ينظم التجارة والمرور الدبلوماسى فى اتجاه الجنوب.

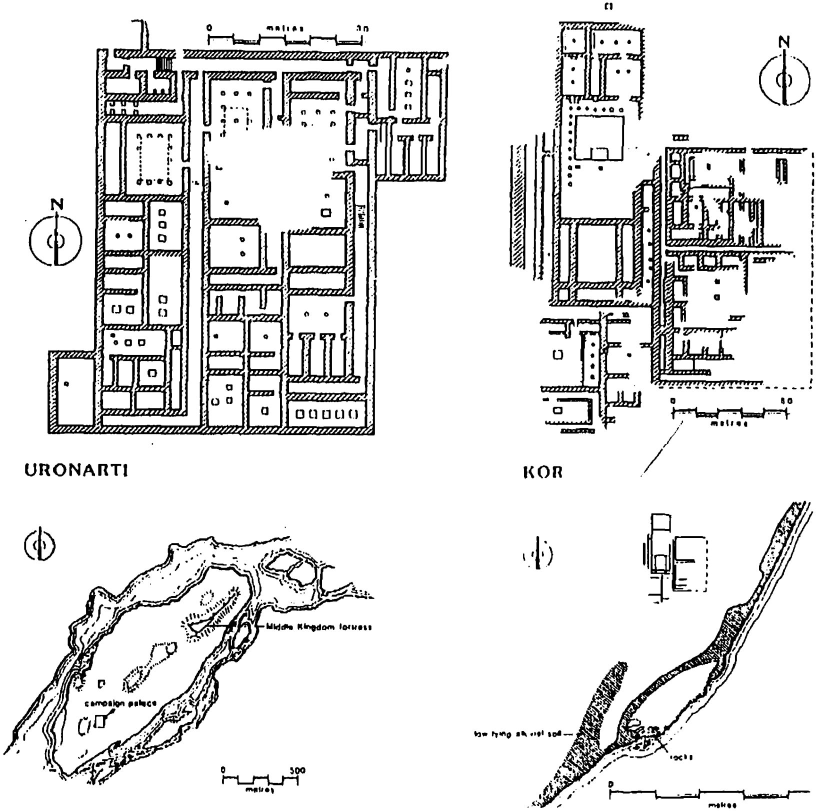

الشكل 64 مبنيان لم يعمرا لفترة فى النوبة، وهما يتجهان اتجاهاً دقيقاً نحو الشمال الحقيقى (راجع الشكل 59) مما يخالف الاتجاه الطبيعى للأرض، فى أورونارتى وكور. هل كانا مقرين مؤقتين للملك أثناء غزواته الكبرى؟ من G.A. Reisner, N.F. Wheeler, and D. Dunham, *Second Cataract Forts II. Uronarti Shaflak Mirgissa,* Boston, 1967, Maps II, VI, and J. Vercoutter, "Kor est-il Iken? Rapport preliminaire sur les fouilles francais de Kor (Bouhen sud), Sudan, en 1954", *Kush 3 (1955), plan D, Plate VI.*

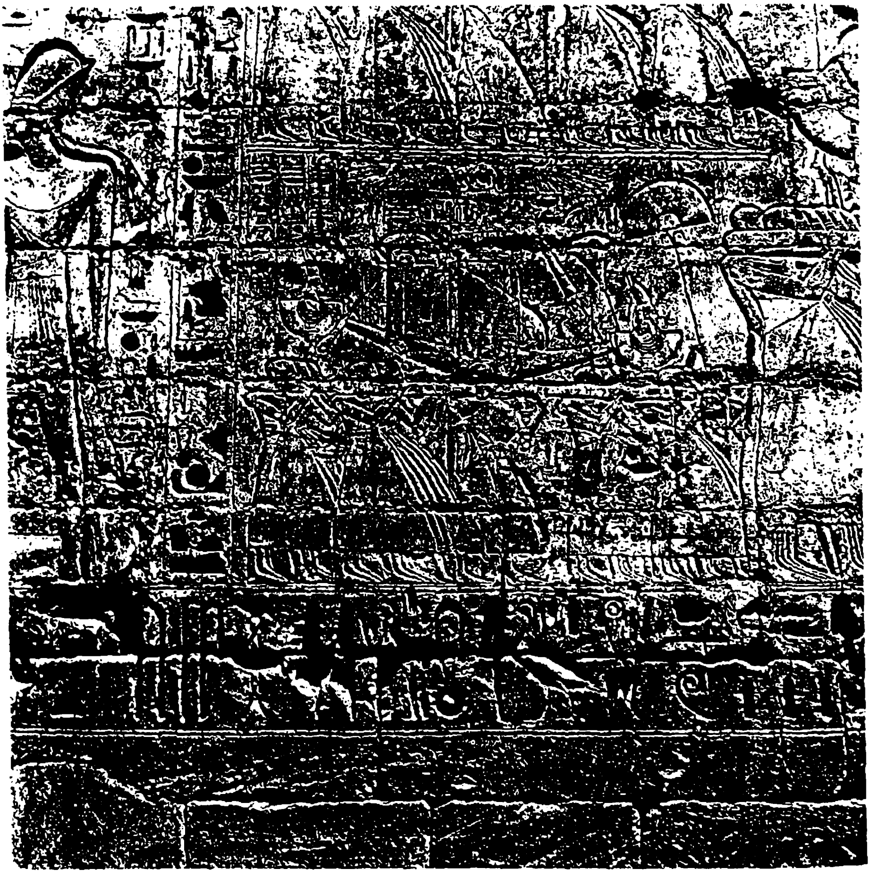

اللوحة 5 كانت المعابد الكبيرة موضع نشاط دائم. وهنا الكهنة يحملون المقاصير القوارب، كجزء من موكب احتفال آمون. من معبد مدينة هابو، في عهد رمسيس الثالث، السور الشمالي الشرقي للفناء الثاني.

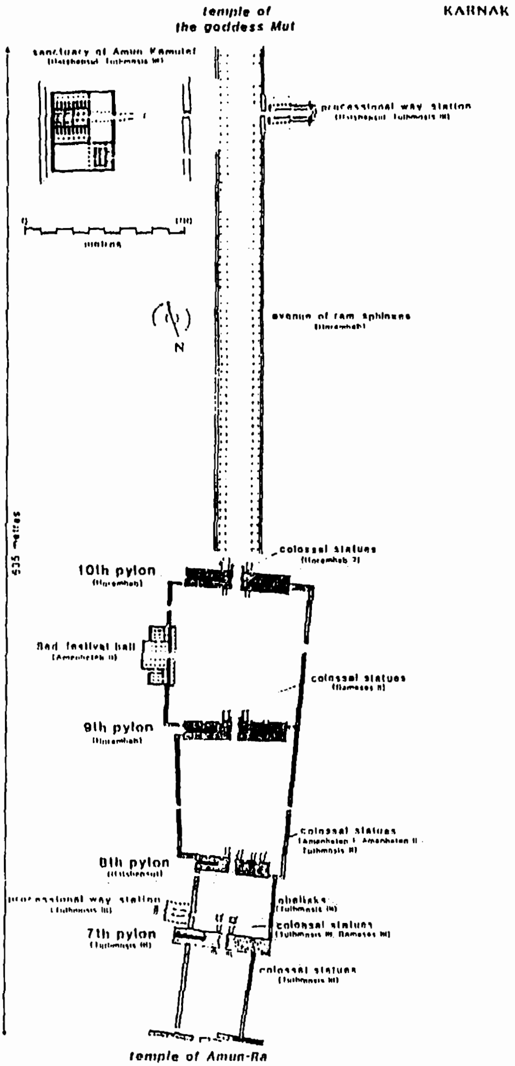

الشكل 65 السياق الكبير للمواكب الدينية كانت توفره العمارة الضخمة والتماثيل كبيرة الحجم. ويربط مسار الموكب بين معبد آمون رع والإلهة موت فى الكرنك بطيبة، راجع الشكلين 37 و 71.

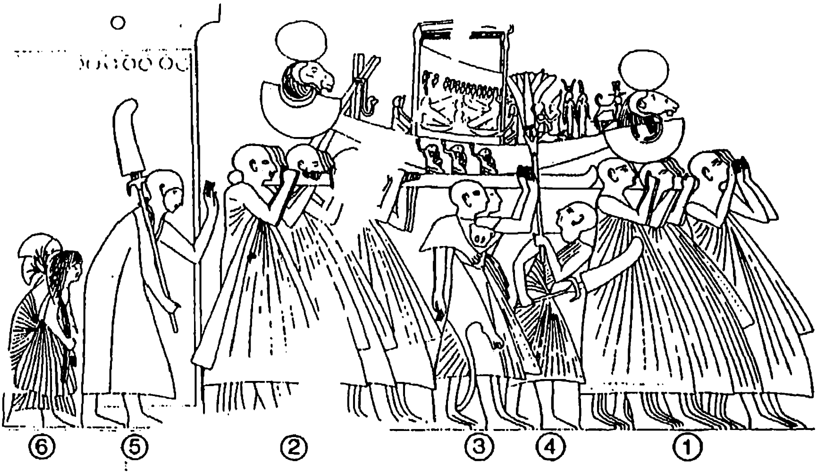

الشكل 66 تركزت المواكب الدينية فى الدولة الحديثة على القوارب المقدسة المحمولة (وكذلك اللوحة 5). فى هذا المنظر القارب هو القارب الرئيسى الخاص بتمثال آمون، واسمه «أوسرحات». ويظهر هذا المنظر على معبد سيتى الأول الجنائزى فى غربى طيبة وهو أثناء "احتفال الوادى الجميل". وصرح معبد سيتى الأول (وتعرفه بصعوبة الخراطيش المرسومة، وهى غير موضحة فى هذا الرسم) على الجانب الأيسر. ويحمل الكهنة القارب ويصحبهم المسئولون. (1) و(2) الكهنة؛ (3) كبير الكهنة؛ (4)ايبوى، نحات من دير المدينة؛ (5) الوزير باسر؛ (6) كاتب دير المدينة أمنحتب. حجر محفور من دير المدينة من عهد رمسيس الثانى فى Cairo Museum, من 43591. G. Foucart, "Etude Thebaines. La Belle Fete de la Vallee", *Bulletin de l'Institut Francais d'Archeologie Orientale* 24 (1924), Plate XI (omitting texts); K. A. Kitchen, *Ramesside Inscriptions: Historical and Biographical* I, fasc. 7 &8 , Oxford, 1975, p. 403.

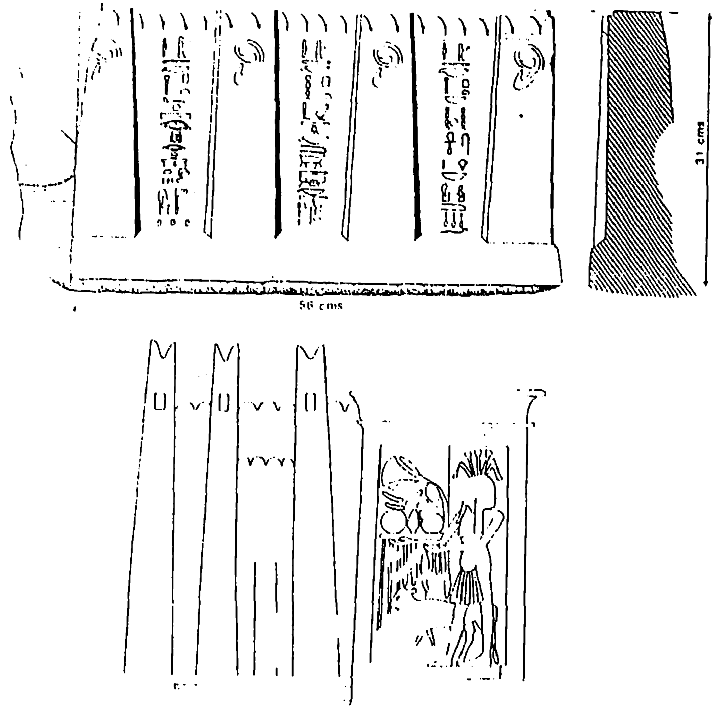

الشكل 67 المظهر الطارد لمعبد الدولة الحديثة، حيث تحاط بأسوار شيدت بطريقة تجعلها أشبه بالحصون.
أعلى: نموذج قديم من الأسوار المحيطة بمعبد بتاح بمنف، وقد حفر في الأصل على هيئة حوض قرابين يمثلها تمثـــال راكع، من J. Jaquet, "Un bassin de libation du Nouvel Empire dedie a Ptah. Premiere partie. L'architecture", *Mitteilung des Deutschen Archaologischen Instituts, Abteilung Kairo,* 16 (1958), 164, Fig. 1. أسفل: رسم لسور معبد ومدخل في الكرنك، من المعبد الداخلي لخنسو في الكرنك، عهد حريحور، الانتقال إلى الأسرة الحادية والعشرين، من The Epigraphic Survey, *The Temple of Khonsu I. Scenes of King Herihor in the Court,* Chicago, 1979 Plate 53.

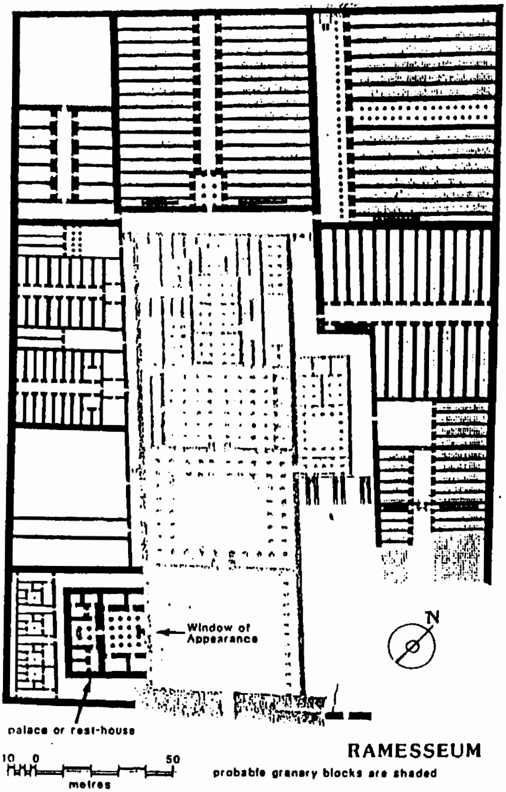

الشكل 68 الرمسيوم، المعبد الجنائزى لرمسيس الثانى فى طيبة الغربية. المعبد المشيد من الحجر باللون الرمادى؛ أما ما يحيط به من مبان بالطوب (انظر اللوحة 6) باللون الأسود. ويشمل هذا الجزء الأخير قصراً صغيراً أو استراحة بها نافذة ظهور (راجع الشكل 73)، ومجموعة ضخمة من مخازن الغلال (المظللة). وقد افترض أن كل هذه البلوكات ذات الدرج كانت مخازن غلال، حيث يمكنهم الدرج من ملئها بالغلال من فتحات فى أعلاها. والمساحة الإجمالية للأرضية حوالى 8261 متراً مربعاً. وكانت المخازن عبارة عن غرف مرتفعة ذات أسقف مقباة (اللوحة 6) ومن المنطقى أن نفترض أن الغلال كانت تخزن (ربما فى خانات) بعمق يصل إلى مترين. وهذا يعطى طاقة إجمالية مقدارها 16522 متراً مكعباً، أو 16522 ألف لتر، وهو ما يوازى حوالى 226328 خار. وإذا كان المتوسط السنوى لراتب الأسرة العاملة هو 66 خار من الحنطة والشعير معاً، فإن مخازن الغلال فى الرمسيوم كانت تعيل 3400 أسرة، وهو ما يمكن بسهولة أن يكون تعداد مدينة متوسطة الحجم. من U. Holscher, The *Mortuary Temple of Ramses III*, Part I, Plate 10, opp. P.74.

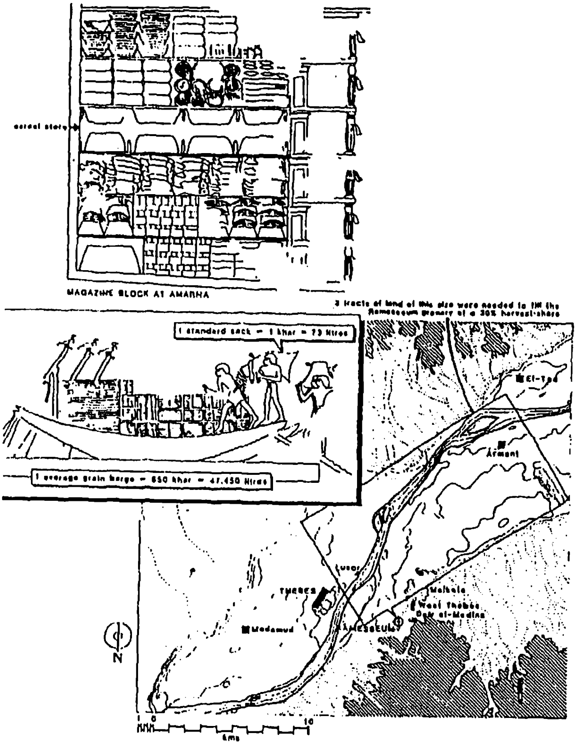

الشكل 69 مفتاح الاستقرار الاقتصادى: مخزون الغلال الاحتياطى. كانت المخازن الضيقة الطويلة فى المعابد الكبيرة مثل الرمسيوم فى طيبة الغربية (الشكل 68) تستخدم لتخزين نوعيات كثيرة من السلع، كما هو مبين فى منظر مقبرة العمارنة (أعلى، مقبرة مرى رع)، الذى يصور جزءاً من أحد بلوكات المخازن فى العمارنة. إلا أن هناك احتمال كبير أنه فى أى بلوك مخازن كبير كان معظم السعة يستخدم لتخزين الغلال، كما هو الحال فى الرمسيوم (الشكل 68 واللوحة 6). ونعلم (من بردية أميان) أن متوسط سعة سفينة نقل الحبوب 650 كيساً قياسياً، أو خار. وكانت محاصيل الغلال تتفاوت تبعاً لجودة الأرض بين 5 و10 خار للأرورا (2735 متر مربع). وبمحصول الخمسة خار المنخفض ولكنه شائع من الأرض التى تدفع للمعبد 30 بالمائة من المحصول كإيجار، فقد كان الرمسيوم يأتيه دخل من أراض مساحتها حوالى 412 كيلومتراً مربعاً. ولكى نعطى القارئ فكرة عما ينطوى عليه ذلك، حددت قطعة من الأرض فى ثلث هذه المساحة على خريطة لمنطقة طيبة. وفى الواقع كانت حيازات الأراضى مقسمة إلى أعداد كبيرة من الحقول الواسعة. وإذا ما فكرنا فى أن استنتاج من الرسم ليضم المعابد الإقليمية الأصغر حجماً، فمن السهل أن نتصور مقدار الأراضى الزراعية التى كانت مقيدة بطريقة أو بأخرى بملكية المعابد أو إدارتها. مخازن العمارنة من N. de G. Davies, *The Rock Tombs of El Amarna*, I, London, 1903, Plate XXXI. منظر تحميل السفينة من B. Landstorm, *Ships of the Pharaohs*, London, 1970, p. 134, Fig. 393.

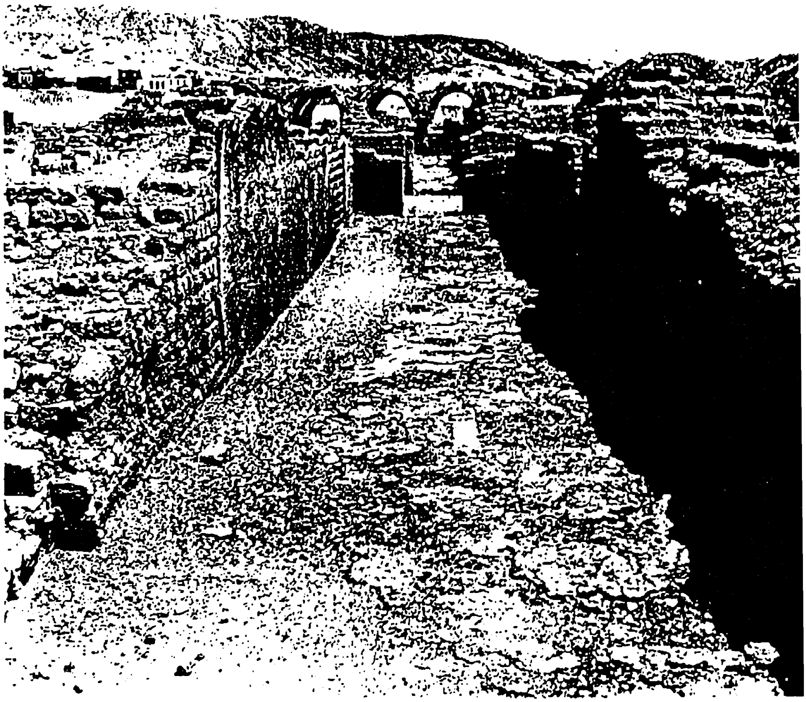

اللوحة 6 الثروة المؤسساتية: بعض مخازن الحبوب المشيدة بالطوب اللبن فى بلوكات المخازن الملحقة الرمسيوم، المعبد الجنائزى لرمسيس الثانى فى غربى طيبة، وهى تتجه ناحية الشمال الشرقى. الأسقف لمعقودة تتبع المبنى الأصلى.

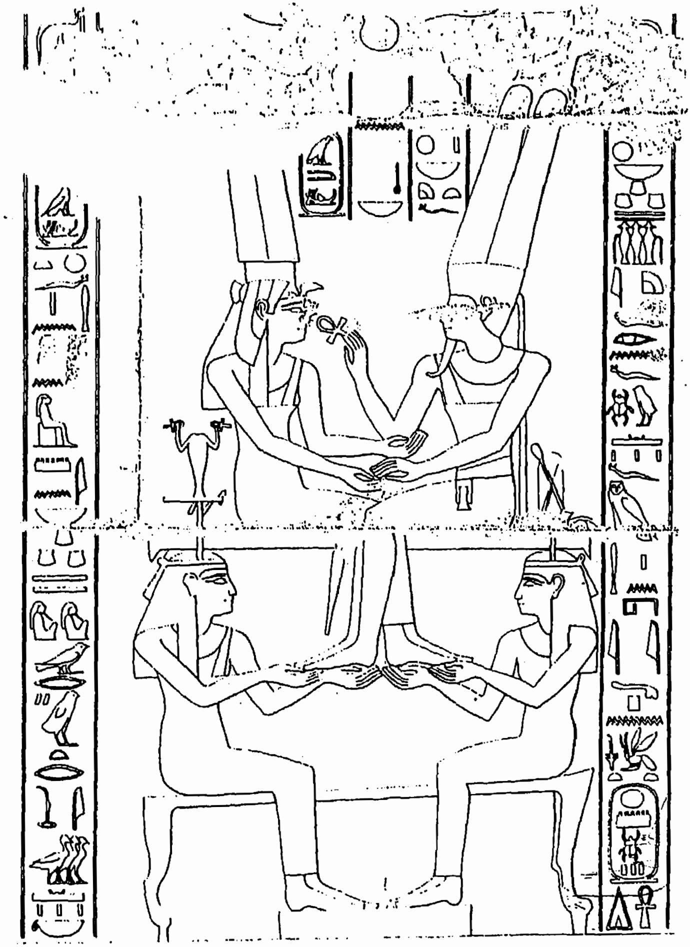

الشكل 70 مفهوم طاهر: الإله آمون (أعلى على اليمن) يخصب الملكة موت ام أويا (أعلى على اليسار) زوجة تحتمس الرابع وأم الملك الإله المقبل أمنحتب الثالث. وأسفل منهما تجلس الإلهة سلقت (على اليسار) ونيت (على اليمين) ينتظر دورة الميلاد الإلهى فى معبدة الأقصر) راجع الشكل 72). من H. Brunner, *Die Geburt des Gottkonigs*, Wiesbaden, 1964, Taf. 4; E. Otto, *Egyptian Art and the Cults of Osiris and Amon, London*, 1968, Plate 30 (redrawn by Garfi).

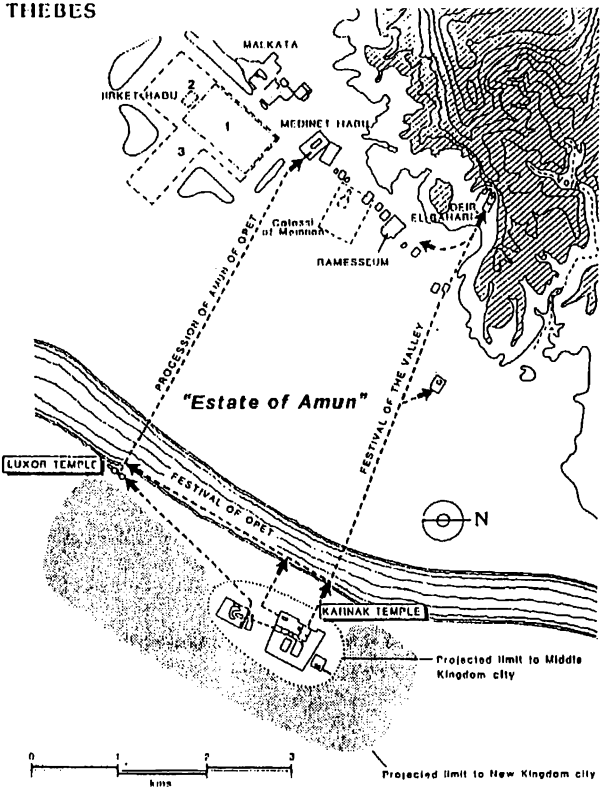

الشكل 71 خريطة طيبة، «ضيعة آمون» فى الدولة الحديثة، وهى تبين المعابد الرئيسية ومسارات المواكب. المستطيلات المرسومة على امتداد حافة الصحراء الشرقية هى المعابد الجنائزية الملكية. بالنسبة لملكاتا وبركة هابو، انظر الشكل ٧٤ واللوحة 8. الأجزاء المرقمة فى ملكاتا وبركة هابو هى: 1) الحوض الأول الافتراضى 2) قصر أول احتفال للحب سد 3) ربما كان الحوض الثانى وتحدده أكوام الأتربة.

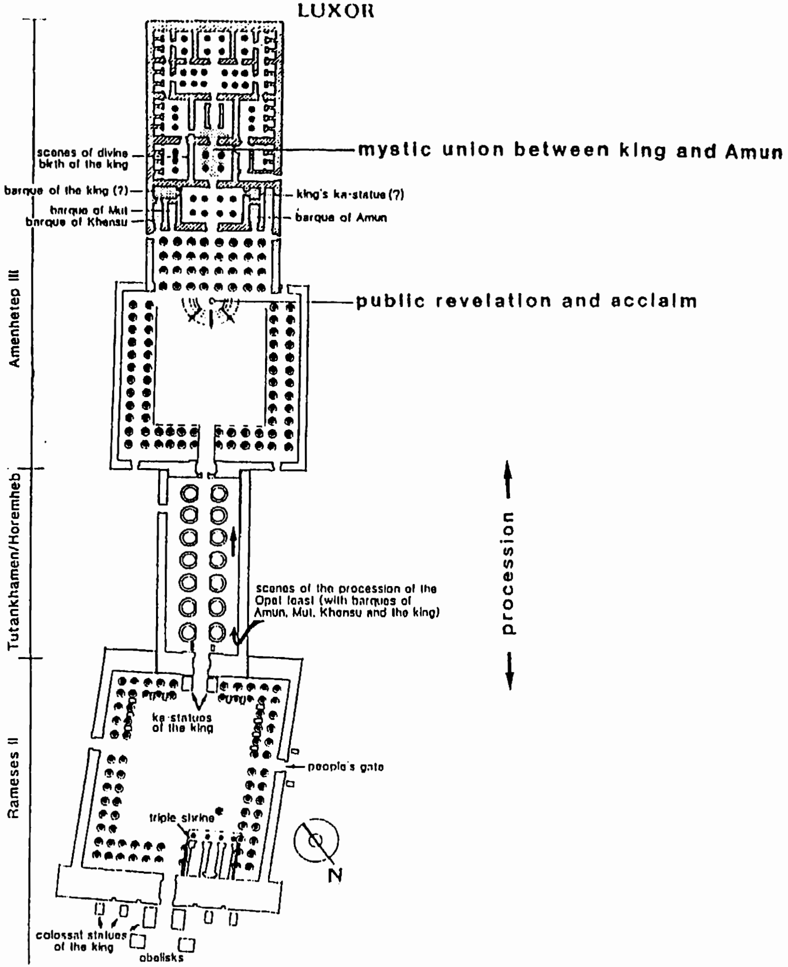

الشكل 72 معبد الأقصر: مركز العلاقة الغامضة بين الملك والإله آمون، وبؤرة احتفال الأوبت. الجزء المظلل فى الخلف هو أقدم حرم وظل الحرم المقدس الذى يتم فيه الاتحاد الغامض بين الملك والإله فى كل عام. النجمة تحدد المقصورة المثلثة فى الفناء الخارجين وهى فى الأصل من عصر الملكة حتشبسوت، وتضم المزيد من تماثيل الكا الخاصة بالملك، ومكاناً للصلاة والتوسل من جانب عامة الناس الذين يأملون فى الحصول على رد نبوئى. وكان المعبد هو المكان الذى تم فيه تتويج ملك واحد، هو حورمحب.

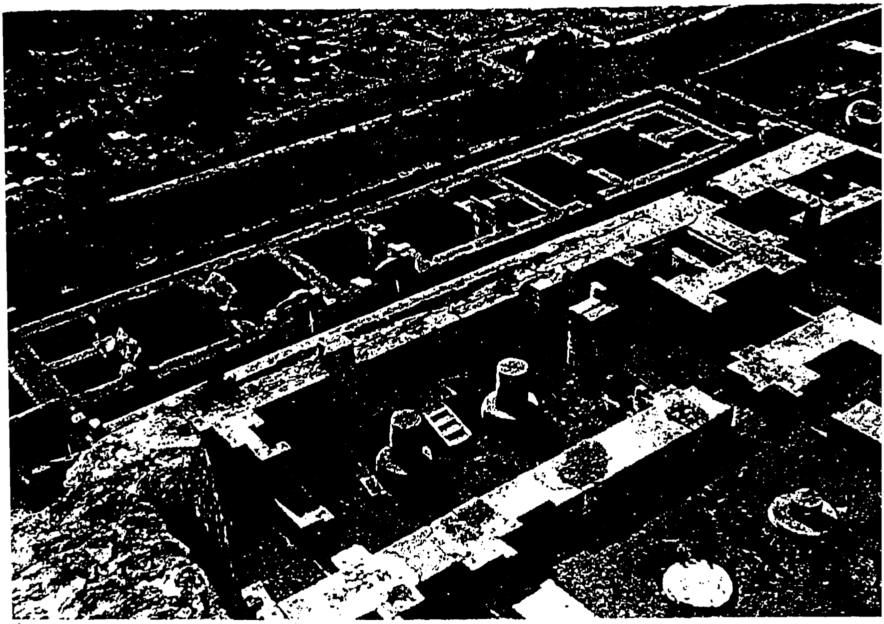

اللوحة 7 جزء من القصر الصغير الملحق بالجانب الجنوبي من معبد رمسيس الثالث الجنائزي في مدينة هابو. الجدران رممت ترميماً جزئياً.

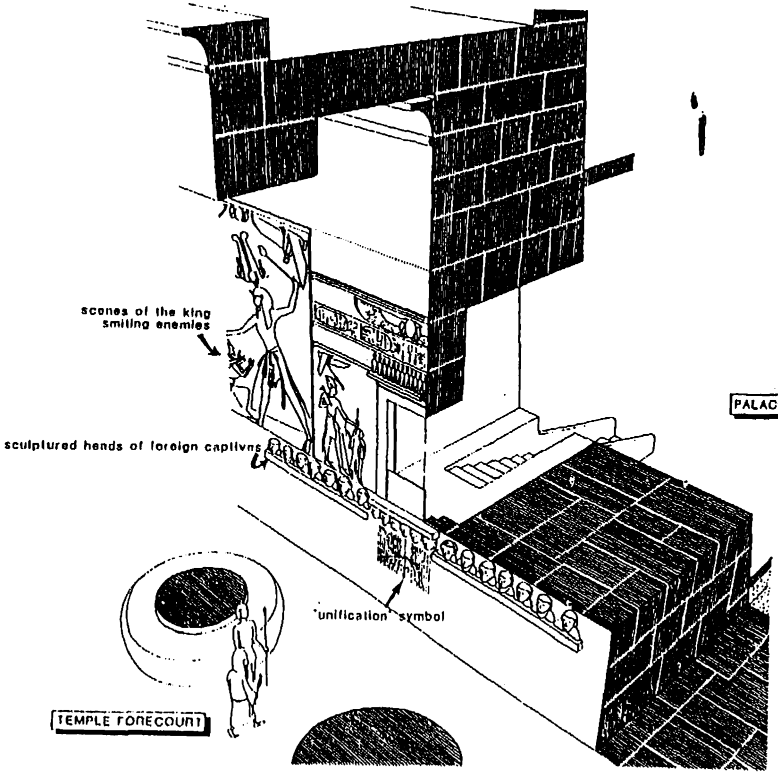

الشكل 73 سياق مسرحى لـ"ظهور الملك": شرفة القصر المزينة الزاخرة بالرموز، «شرفة الظهور» الخاصة بفرعون. هذه النسخة المرممة جزئياً من أول قصر فى معبد رمسيس الثالث الجنائزى بمدينة هابو بغربى طيبة، من U. Holscher, *The Mortuary Temple of Ramses III*, Part I, Chicago, 1941, Chapter II.
انظر اللوحة ٧ للاطلاع على صورة فوتوغرافية لبقايا القصر.

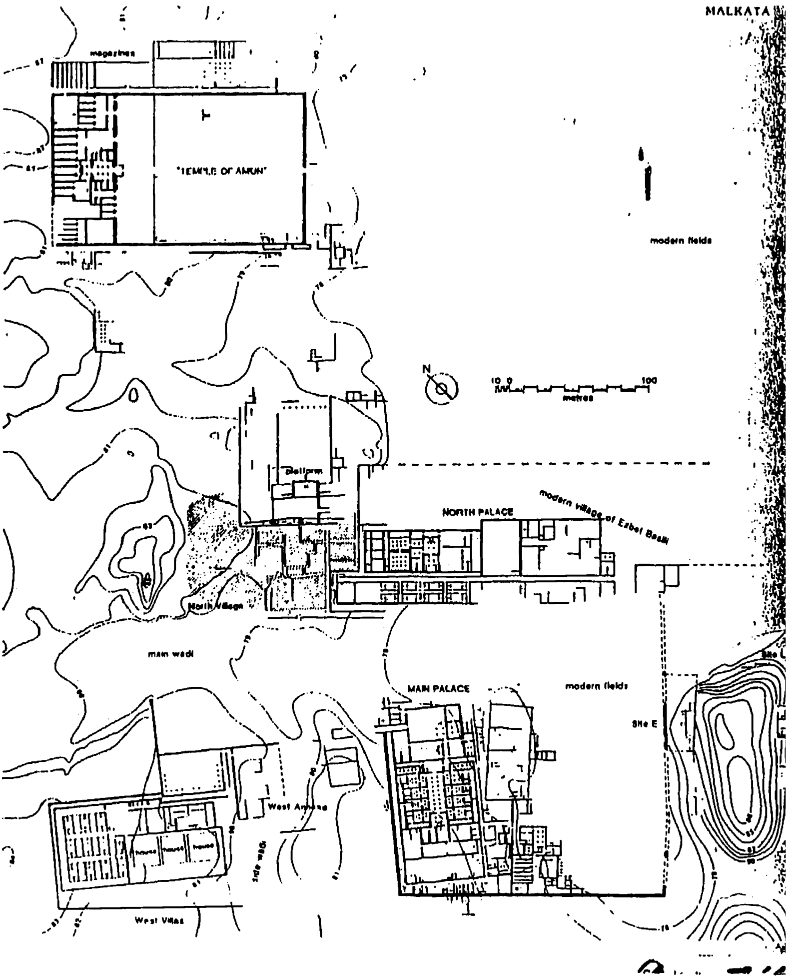

الشكل 74 سياق للمواكب: منشآت أمنحتب الثالث فى ملكاتا بغربى طيبة، وهى موقع محتمل لاحتفالات
ك بأول وثانى احتفال حب سد. وقد تم تكوين الخريطة من مصادر عدة، بينها الصورة الملتقطة من الجو،
جانب ملاحظات ومقاسات تمت أثناء مسح للموقع تم لصلحة متحف جامعة بنسلفانيا. وهو يشمل حفائر
ت سنة 1973.

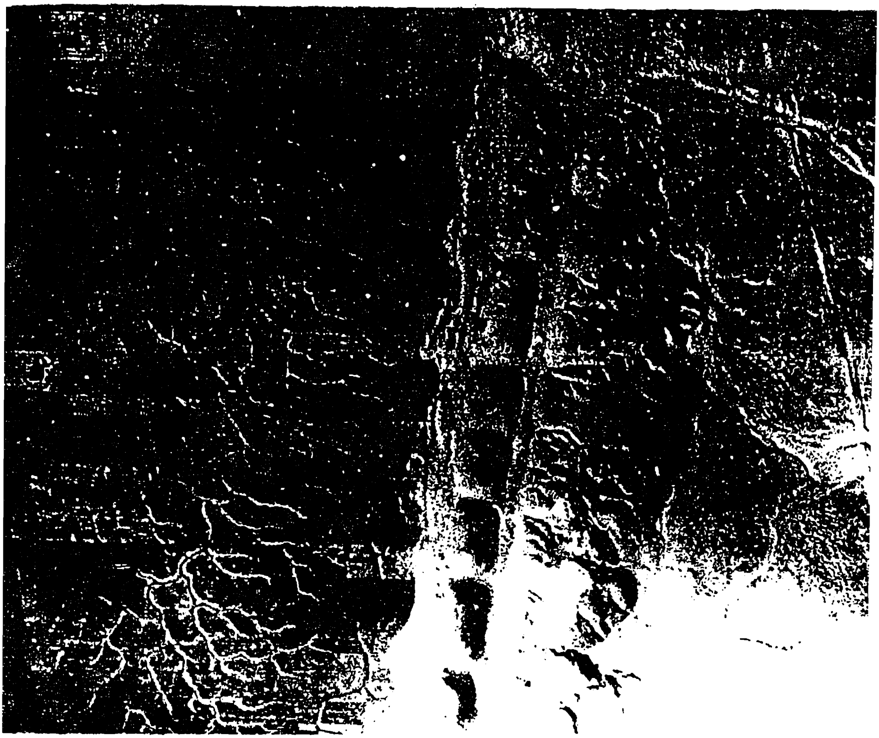

اللوحة 8 صورة من الجو جزء من أكبر عمل ترابى فى مصر القديمة: الأكوام المنسقة من ناتج حفر بحيرة أمنحتب الاحتفالية فى موقع بركة هابو بملكاتا.

THE GIZA SPHINX IN THE NEW KINGDOM

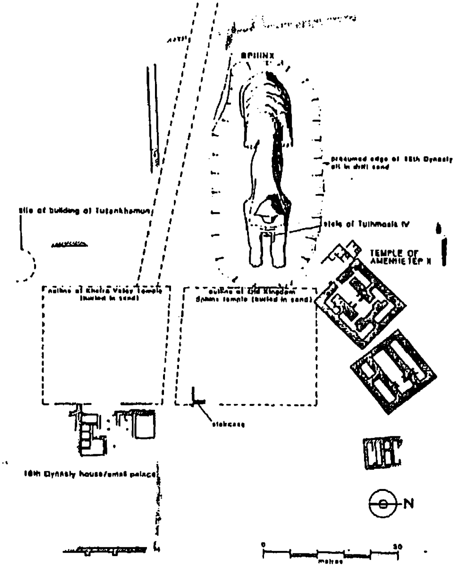

الشكل 75 استراحة ملكية فى موقع مقدس. بحلول الأسرة الثامنة عشرة كان جسم أبى الهول كبير فى الجيزة (وكان وقتها عمره ألف سنة ومن الواضح أنه أهمل) قد دفنته الرمال، التى تكومت كذلك فوق معبدين معاصرين من الحجر قبالته. وفى ذلك الوقت كان يشار إلى أبى الهول على أنه صورة إله الشمس حور ام أخت (حورس فى الأفق). وشيد أمنحتب الثانى مقصورة صغيرة من الطوب أمام وجه أبى الهول، واتباعاً لحلم رآه تحتمس الرابع وهو يستريح فى ظله أزال الرمال من حول قاعدة التمثال وخلد هذه الذكرى بلوح من الجرانيت وضع بين قائميه الأماميين. إلا أن مصلحة الملك لم تكن روحانية بالكامل. وتوضح النصوص أن المنطقة الصحراوية الواقعة خلفه حول الأهرام كان يستخدمها الملوك لممارسة ركوب العربات الحربية ورمى السهام (بنفس الطريقة التى تستخدم بها المنطقة فى الوقت الراهن لركوب الخيل). وأقيمت فى هذا المكان كذلك استراحة، حول كوم الرمال المستوى الذى دفن تحته معبد الوادى الخاص بخفرع (الذى أنشأ أقام الهول فى الأصل). ويبقى الموقع بكامله ، وكان نفسه قد دفن ومعه مبان لاحقة تحت الرمال ، حتى العصر الحديث، حيث دمر أغلبه مع قدر قليل من التسجيل من جانب الأثريين الذين كانت تسيطر عليهم فكرة العثور على تماثيل الدولة القديمة وأعمالها الحجرية. من U. Holscher, *Das Grabdenkmal des Konigs Chephren,* Leibzig, 1912, Blatt XV; Selim Hassan, *The Great Sphinx and its Secrets,* Cairo, 1953; H. Ricke, *Der haramachistempel des Chefren in Giseh* Beitrage zur Agyptischen Bauforschung und Altertumskunde 10) Wiesbaden, 1970; and J. van Dijk and M. Eaton-Krauss, "Tutankhamun at *Memphis", Mitteilung des Deutschen Archaologischen Instituts, Abteilung Kairo* 42 (1986), 39-41. انظر كذلك conversations with M. Lehner.

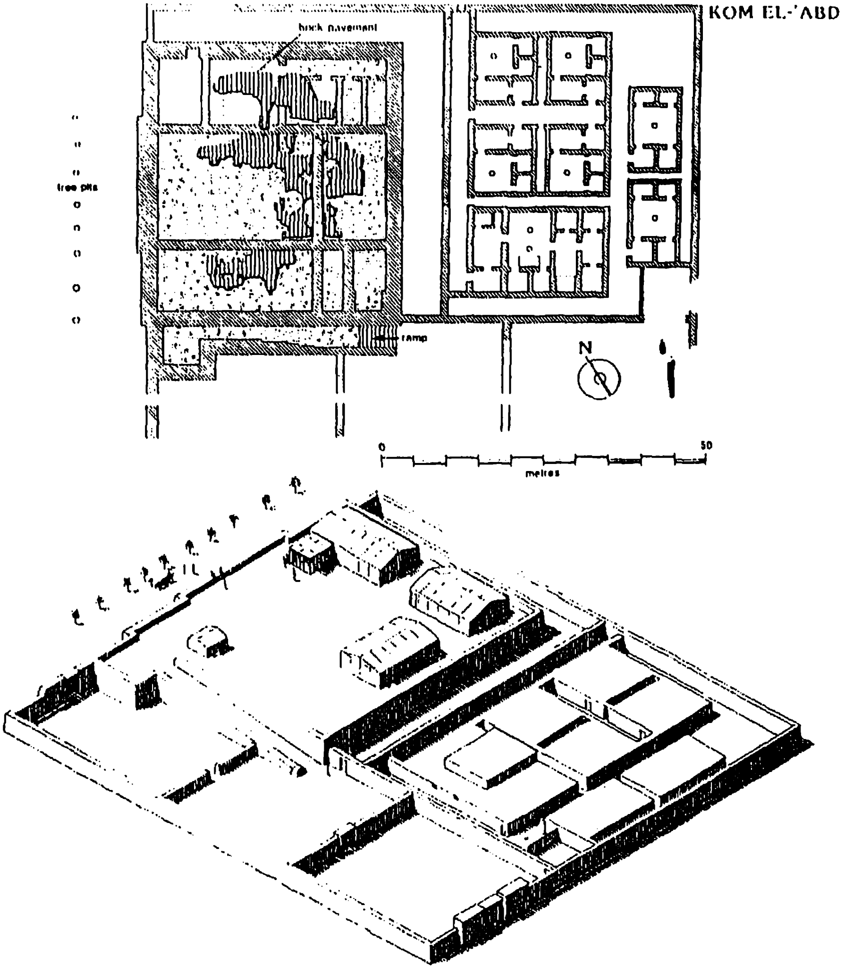

الشكل 76 استراحة ملكية فى كوم العبد بالقرب من ملكاتا، وهى من إنشاء أمنحتب الثالث. استخدام المنصة المصنوعة من الطوب لدعم الخيام افتراضى، من B.J. Kemp, "A building of Amenophis III at Kom El-'Abd" *Journal of Egyptian Arcaeology* 63 91977), 74, Fig. 2, 79, Fig. 3.

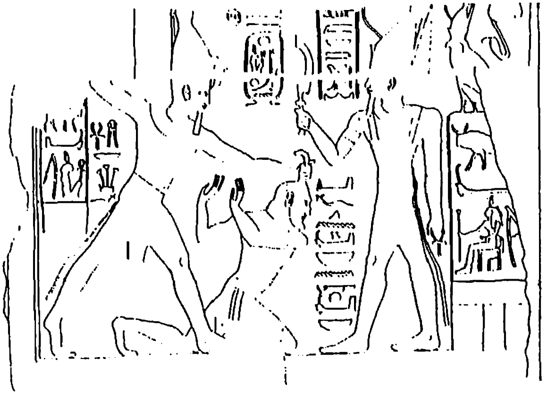

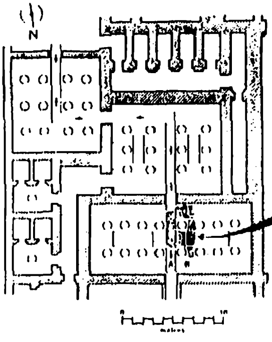

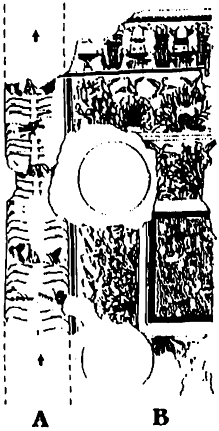

الشكل 77 صور إمبريالية. أعلى: مباركة الإله لغزوات فرعون. رمسيس الثاني يضرب ضحية سامية، بينما الإله فى صورة آتون رب تجو (= تجيكو، وهو مكان محلى) يقدم له سيفاً اعترافاً من بصحة ما يقوم به. من معبد فى تل الرتابة شرقي الدلتا، من W.M.F. Petrie, *Hyksos and Israelite Cities*, London, 1906, Plates XXIXX, XXX. أسفل: الفرعون إخناتون يدوس بقدميه على أعدائه فى إطار أمن قصره. على اليمين: قطاع من الرصف المنقوش من القصر الكبير فى العمارنة وهو يصور فكرتين– بركة مستطيلة تحيط بها الخضرة (B)، وممر أوسط من الأسرى الأجانب بالتبادل مع مجموعات كل منها ثلاث أقواس، وهى ترمز لأعداء الملك بصورة عامة (A)، من W.M.F. Petrie. *Tell el Amarna, London* 111894, Plate II. على اليسار: مخطط عام لجزء من القصر الكبير يبين سياق الرصف المنقوش، وكيفية اتجاه المر المنقوش. وبينما كان الملك يسير من قاعة لقاعة كان يسحق أعداءه تحت قدميه. من J.D.S. Pendlebury, *The City of Akhenaten III, London,* 1951, Plate XIIIA.

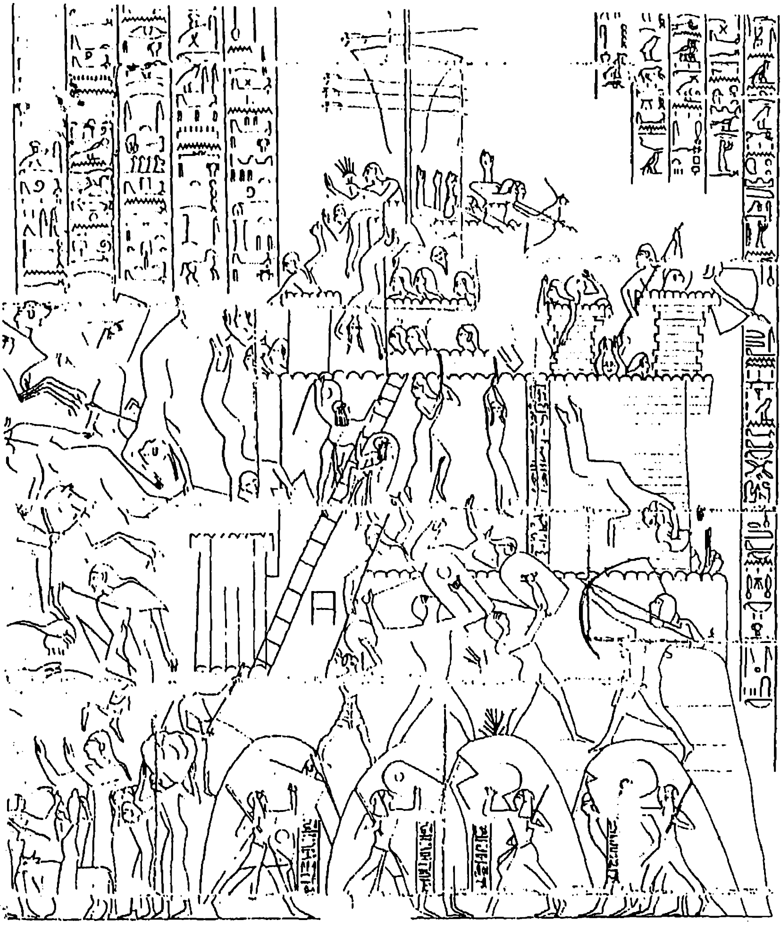

الشكل 78 الخوف من العالم الخارجي. العالم الخارجي كما يرى من مصر كان مكاناً من العداء والفوضى التى تنذر بالخطر. وكان الشرق الأوسط على وجه الخصوص تكثر فيه المدن والبلدات المحصنة التى يحكمها (من وجهة نظر المصريين) أمراء مراوغون وغير جديرين بالثقة. وهنا واحدة منها، وهى مدينة دابور فى شمال سوريا وحليف الحيثيين، يهاجمها جيش رمسيس الثانى. ويشن الجنود المصريون (الذين بينهم أربعة يسمون أمراء)، وهم يحملون دروعاً مستديرة فى أعلاها، هجوماً من وراء الدروع المؤقتة (أسفل) ويبدءون فى تسلق الأسوار باستعمال سلم خشبى. ويرد بعض المدافعين بالأقواس والسهام أو بإلقاء الحجارة، بينما المدنيون الذين يمسك بهم فى الخارج إما يطلبون السلام (أسفل على اليسار)، أو يطلبون الأمان لمدينتهم برفع أياديهم خارج الأسوار. من منظر فى الرمسيوم، معبد رمسيس الثانى الجنائزى، من ,W. Wreszinski
Atlas zur Altaegyptischen Kulturgeschichte II, Leibzig 1935, 10709 (redrawn by S. Garfi).

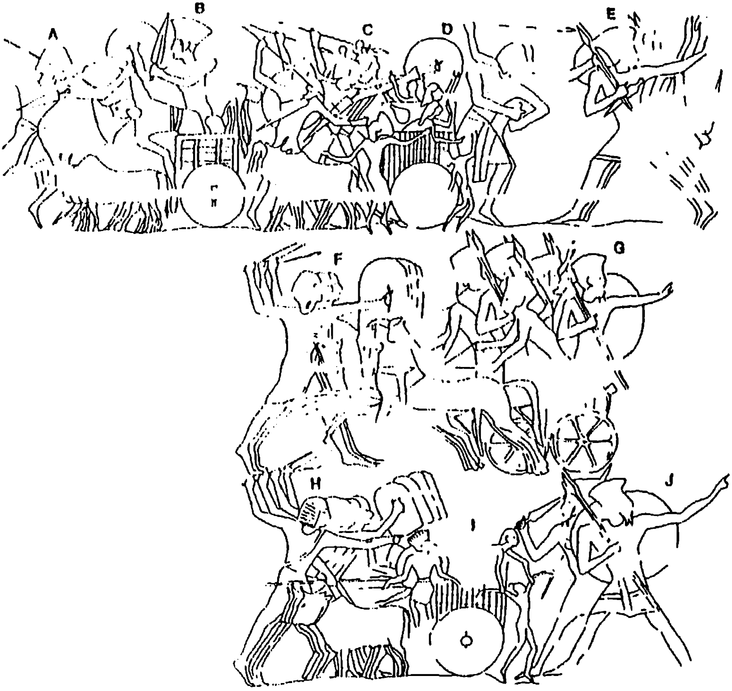

الشكل 79 خطر آخر كان يمثله السكان غير المستقرين، كان بعضهم من البدو الرحل، وكان الآخرون مسلوبى الأملاك ومطرودين، وكانوا يغيرون على مجتمعات الشرق الأوسط المتحضرة لسرقة أهلها. وبحلول الأسرة العشرين، تضخم الأمر بسبب حدوث نزوح كبير من الأناضول انضمت إليه عائلات من سوريا، مما أدى إلى تهديد وجود الفلسطينيين وفى آخر الأمر المجتمع المصرى. وفى هذا المنظر، الذى يصور معركة لجيش رمسيس الثالث حوالى سنة 1186 ق.م.، تم التصدى لجزء من هذه الهجرة. الجنود المصريون (H, F, A) يمسكون بالرماح وبدروع الجزء الأعلى منها مستدير وتساعدهم مرتزقة البحر المتوسط، الشريدان (C) التى يرتدى أفرادها خوذات مميزة مزينة بقرص وقرنين. ولدى المحاربين الأناضوليين (J, G, H, B) رماح وسيوف مثلثة طويلة ودروع مستديرة ويلبسون ما يشبه رداء رأس من الريش. ويجرى القتال على الأقدام وفى العربات الحربية (J) ويحمون عرباتهم التى تجرها الثيران (B). وتبدو فى المنظر ثلاث عربات تجرها الثيران (I, D, B) وهى ذات جسم مجدول من فروع الأشجار وعجلاتها مصمتة وتجرها ثيران الدربانى ذات السنام. وتحمل العربات نساء وأطفال. من معبد مدينة هابو، من H.H. Nelson an U. Holscher, *Medinet Habu Reports* (Oriental Institute, Epigraphic and Architectural Survey, *Medinet Habu* I Chicago, 1930, Plate 32. انظر كذلك N.K. Sanders, *The Sea peoples,* London, 1978, pp. 120-24.

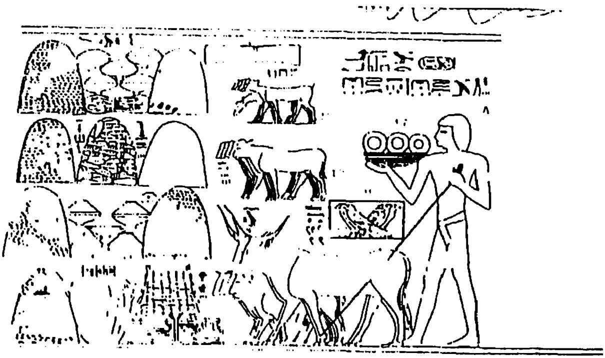

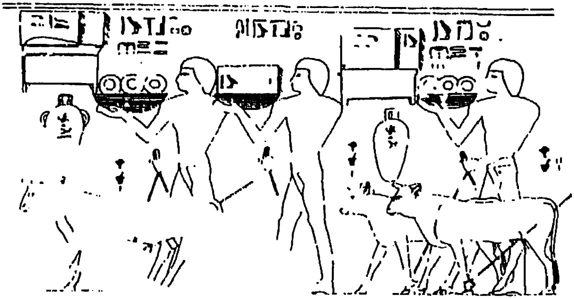

الشكل 80 التسديد العينى: الضرائب المحلية فى اقتصاد بلا نقود، يوضحه جزء من منظر العوائد من مقبرة الوزير رخميرع بطيبة من منتصف الأسرة الثـامنة عشـرة. ولا يمكن التعـرف على كل السلع. أعـلى (A) الضرائب التي يسلمـهـا «عـمـدة «بلدة» هوويت ويرت أمنمـحـات» (جنوب أبيـدوس). ١: أربعـة أكوام من الشعير 2: كعك ٣: حبل 4 : دوم 5: كعك 6: توابل (؟) 7: خروب ٨: عسل نحلٌ(؟) 9: جوالات ١٠: حصير من البوص 11: حصير من نبات الحلفا 12: 6 عنزات 13: 5 عجول 14: 4 رؤوس من الماشية 15: رأسان من الماشية ذات القرون الطويلة 16: 500 حمامة 17: سبيكة مستديرة من الذهب واثنتان من الفضة. أسفل: (B) "مسجل بلدة واح ست" (جنوبى أبيدوس) و (C) «كاتب مـسجل واح ست». 1 : ثوبان من قمـاش الكتان فى صندوق 2: عسل نحل 3: رأس ماشية 4: 3 سبائك من الذهب 5: ثوب من الكتان 6: راس ماشية (D) "مسجل أبيدوس" 7: ثوب قماش وثوب فى صندوق 8: عسل نحل 9: راس ماشية 10: سبيكتان من الذهب وواحـدة من الفضـة. من N. de G. *Davies, The Tomb of Rekh-mi-re at* Thebes, New York, 1943, Plate XXXIV; P.E. Newberry, *The Life of Rekhmara,* London, 1900, Plate VI.

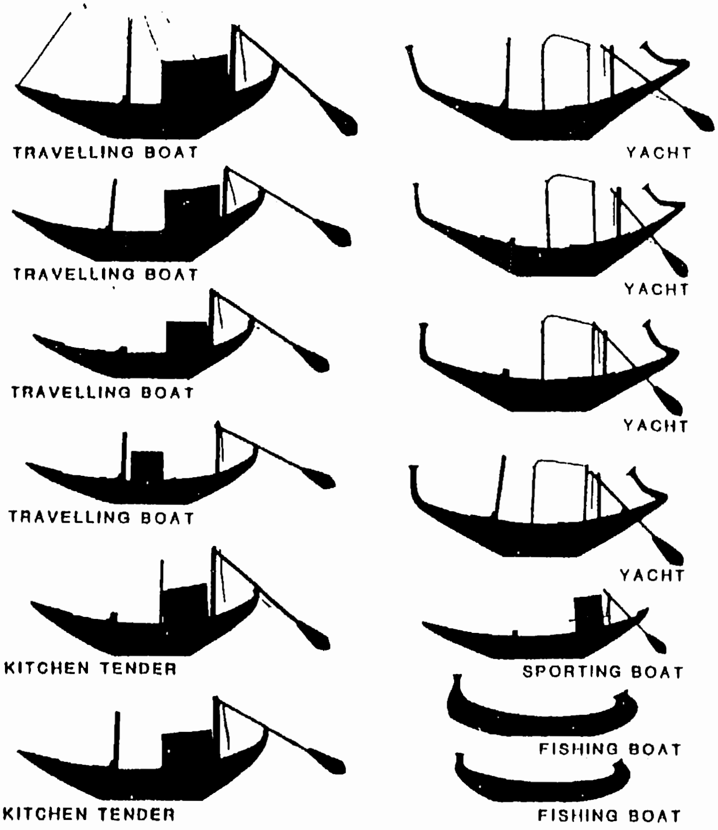

الشكل 81 الوفرة: أسطول المستشار مكيت رع النهرى، صور حلية لنماذج سفن خشبية من مقبرته بطيبة، الأسرة الحادية عشرة، من H.E. Winlock, *Models of Daily Life in Ancient Egypt*, New York, 1955, Figs 70-82.

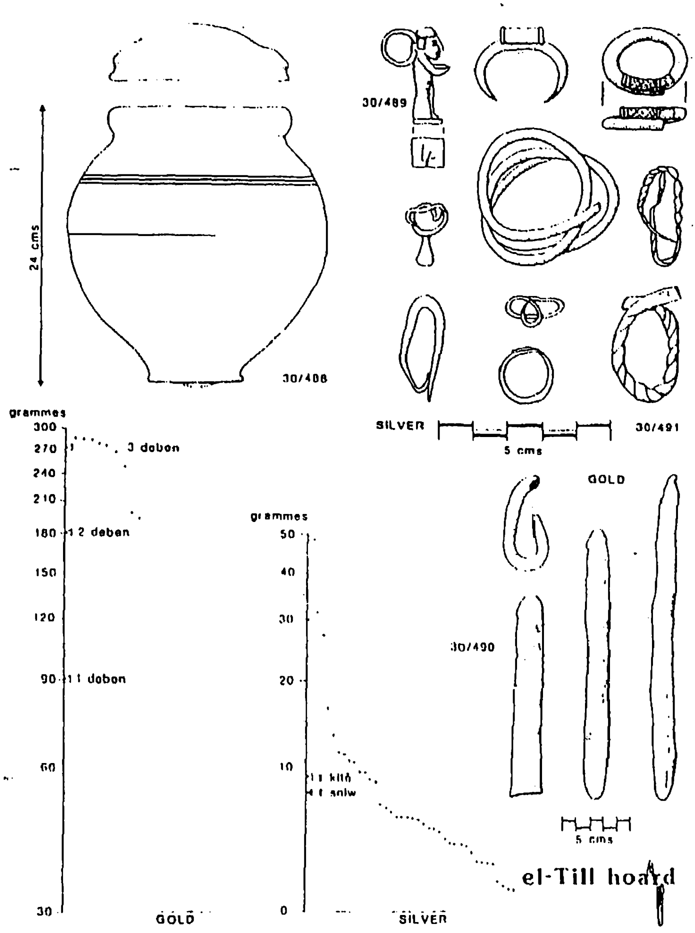

الشكل 82 جزء من كنز من الذهب والفضة مدفون فى جرة من الفخار فى أحد ضواحى العمارنة. وجزء من الفضة عبارة عن مشغولات (بينها تمثال صغير حيثى، رقم 30L489) والجزء الآخر عبارة عن لفائف سلك وأشكال غير منتظمة، بعضها مقطوع من أوانى؛ أما الذهب فهو عبارة عن قضبان بدائية الشكل. وكما تبين جداول الرسم ، هناك القليل مما يوحى بأن القطع كان يقصد بها أن تكون من وزن معيارى (شكل أولى من النقود المعدنية). وبالنسبة لفائف السلك والقضبان كانت القطع مقطعة بطريقة تلبى مطلباً معيناً، وكانت أوزانها (وبالتالى قيمتها) كانت محددة بالميزان (كما فى الشكل 85 والشكل 86). من H. Frankfort and J.D.S Pendlebury, *The City of Akhnaten* II, London, 1933, pp. 59-61, Plate XLIII, and original record cards.

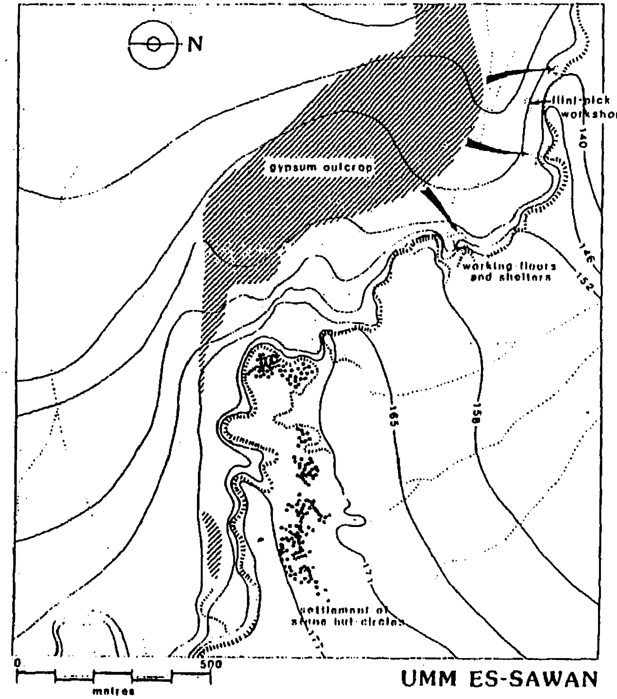

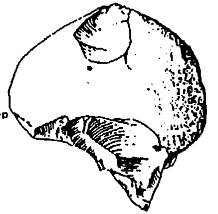

الشكل 83 مستوى منخفض من استغلال الثروة المعدنية: محاجر الجبس فى أم الصوان (شمالى الفيوم) من بداية الدولة القديمة. معسكر موسمى يتكون من حوالى 200 مأوى حجرى مستدير يشغل قمة حيد يمتد على حافة جرف يشرف على نتوء عريض من الجبس فى السهل الصحراوى أسفله. وكان الجبس يستخرج كى يستخدم كملاط. وكانت ورش الأوانى فى أماكن أكثر أمناً على واجهة الجرف. وكانت معاول الظران تصنع فى نفس الموقع، من قطع الظران التى كان يؤتى بها من الخارج. وكانت أدوات أخرى من الظران تستخدم فى صنع المزهريات. ولا بد أن الطابع غير الرسمى للمستعمرة يتناقض مع قرية العمال المخططة من الدولة الوسطى فى قصر الصاغة (انظر الشكل 59). من G. Caton-Thompson and E.W. Gardner, *The Desert Fayum*, London, 1934, Plate LVIII.

الشكل 84 منتجات الصحراء الشرقية يتسلمها النبيل المعين للإشراف عليها، وهو حاكم إقليم أوريكس و"المشرف على الصحراء الشرقية" فى الأسرة الثانية عشرة، خنوم حتب. والمنتجات بصورة رئيسية عبارة عن طرائد الصيد، غير أنها تشمل كذلك (الصف الأسفل) مجموعة من التجار الفلسطينيين الذين جاءوا بصبغة العيون ، حيث يقدمهم مسئول مصرى هو «كبير الصيادين خيتى»، وهو لقب يلقى الضوء على مكانة المجموعة الفلسطينية فى عيون المصريين. من المقبرة رقم ٣ ببنى حسن، من P.E. Newberry, *Beni Hassan I, London,* 1893, Plates XXX, XXXI.

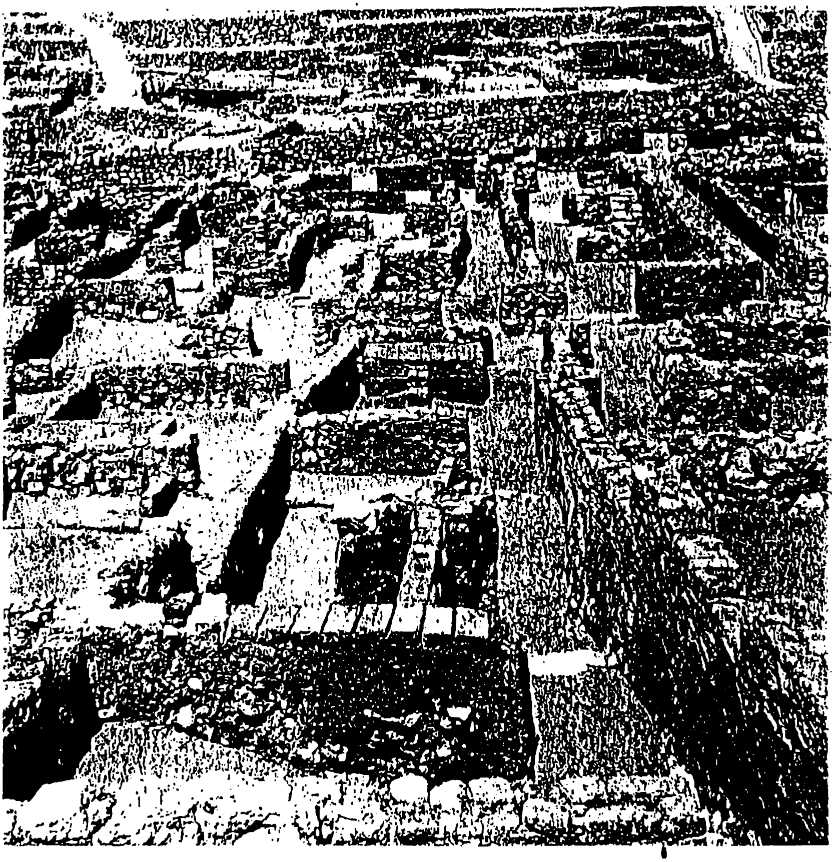

اللوحة 9 سياق حياة القرية: جزء من قرية عمال وفنانى مدينة الموتى فى دير المدينة غربى طيبة، أواخر الدولة الحديثة. الصورة الفوتوغرافية مأخوذة فى الاتجاه الشمالى الغربى على امتداد الخط المركزى لأحد المنازل، رقم .III.N.E . مزيد من المنازل تقع وراء طريق مستعرض، وفى الخلفية مدرجات كان فى الأصل تقوم على مزارات المقابر. وقد رممت الجدران ترميماً جزئياً.

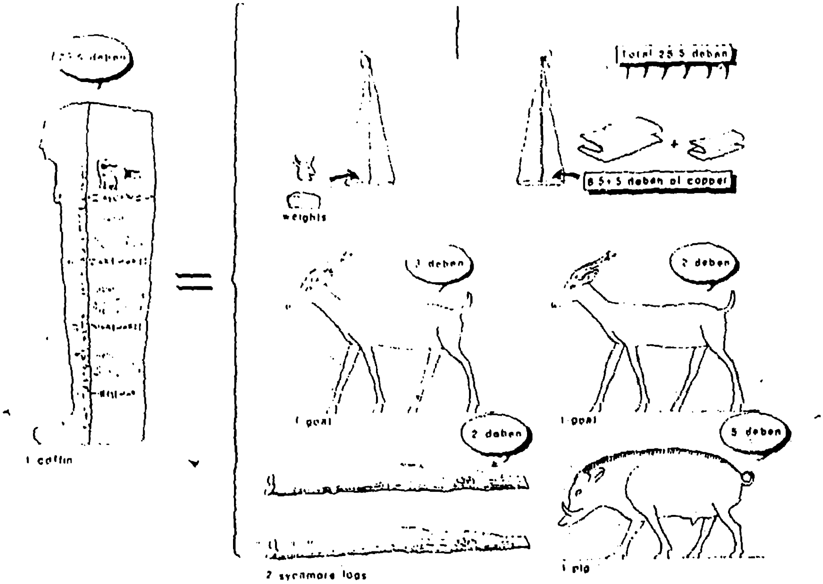

الشكل 85 البيع والشراء بالمقايضة يوضحه نموذج من دير المدينة فى الأسرة العشرين. على أحد جانبى المقايضة تابوت يساوى من الناحية النظرية $\frac{1}{2}$ 25 دبن من النحاس. وعلى المشترى أن يكون مجموعة من السلع لها قيمة مساوية، وهو يفعل ذلك من ناحية بمواد ذات قيم نظرية بدبن النحاس (عنزتان وخنزير وردان من الخشب، وهو ما قد يكون مادة خام لصنع التوابيت)، وفى جزء آخر بمواد من النحس الفعلى أو الخردة حيث كان الحصول على قيمة الدبن بالوزن المباشر على الميزان، باستعمال مثاقيل حجرية أو برونزية محفورة فى بعض الأحيان على هيئة أشكال حيوانية (كما فى الشكل 86). هذا النموذج من أوستراكا دير المدينة 73 الظهر، من .J.J. Janssen, *Commodity Prices from the Ramessid Period*, Leiden, 1975, p. 10

الشكل 86 مناظر المقايضة فى مقابر الدولة الحديثة. أعلى: الجلابون فى أكشاك يعقدون صفقات مع السوريين الذين يفرغون بضائعهم على شاطئ النهر، من مقبرة قن أمون بطيبة، من N. De Davies and R.O. Faulkner, "A Syrian Trading venture to Egypt", *Journal of Egyptian Archaeology* 33 (1974), Plate VIII.

أسفل: عمال يفرغون سفينة نقل غلال يستخدمون أكياس الغلال لشراء السمك والخضروات من القرويات، من مقبرة ايبى، من N. de G. Davies, Two *Ramesside Tombs at Thebes*, New York, 1972, Plate XXX.

اللوحة 10 صناعة الإنسان الفقير: حظيرة خنازير فى قرية العمال بالعمارنة. وهى حظيرة من المبنى 300 ه ناحية الشمال. طولها متر واحد. الصورة من جمعية استكشاف مصر.

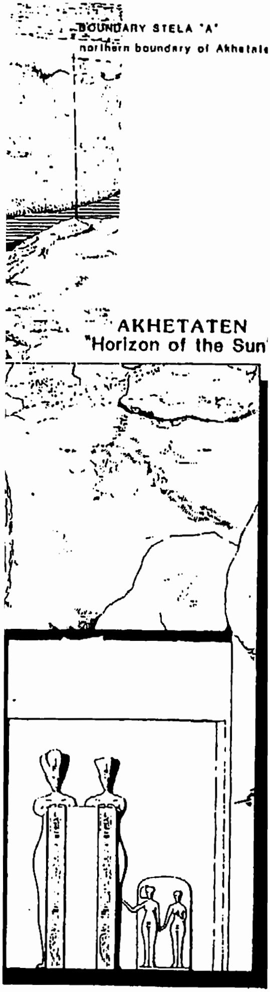

الشكل 87 مدينة إخناتون الجد
لثامنة عشرة يبين حجم الأراضي
إعادة بناء للمظهر الأصلي لأحد أ
وتصور كل مجموعة إخناتون ونفرتي
وتصحبهما أكبر اثنتين من بناته
موجودة.

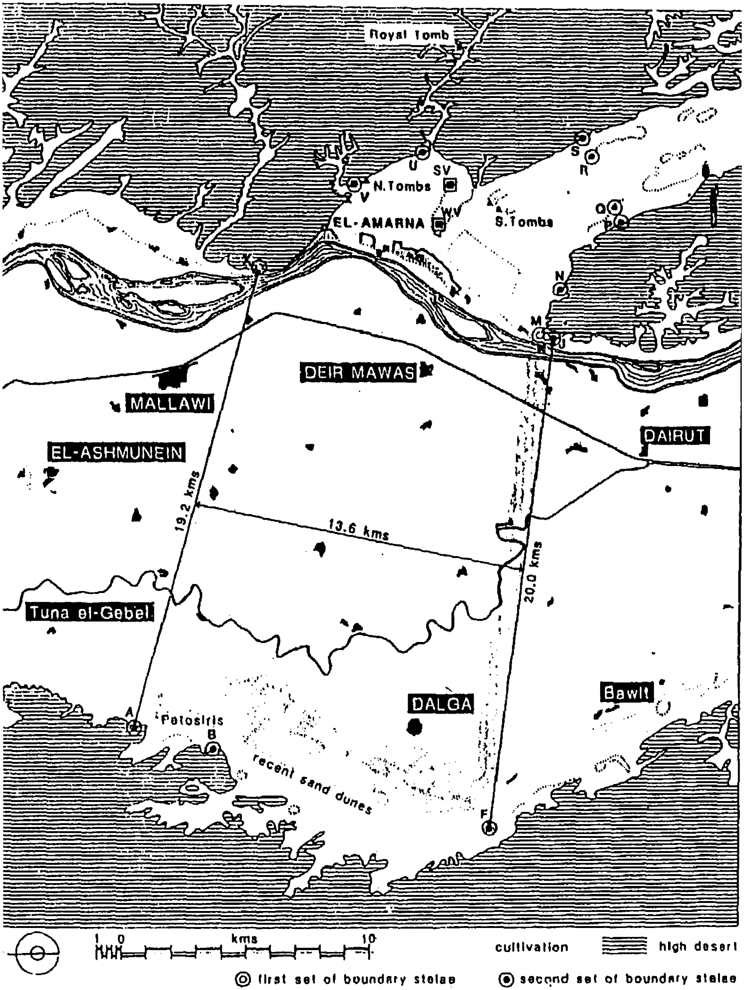

لشكل 88 خريطة لوادى النيل عند العمارنة تبين حجم أخت آتون، كما تحدده ألواح الحدود.
ينة توجد مجموعتان من المقابر الصخرية (المقابر الشمالية والمقابر الجنوبية)، والمقبرة الملكية وم
، هما قرية العمال (W V) وقرية الحجارة (SV).

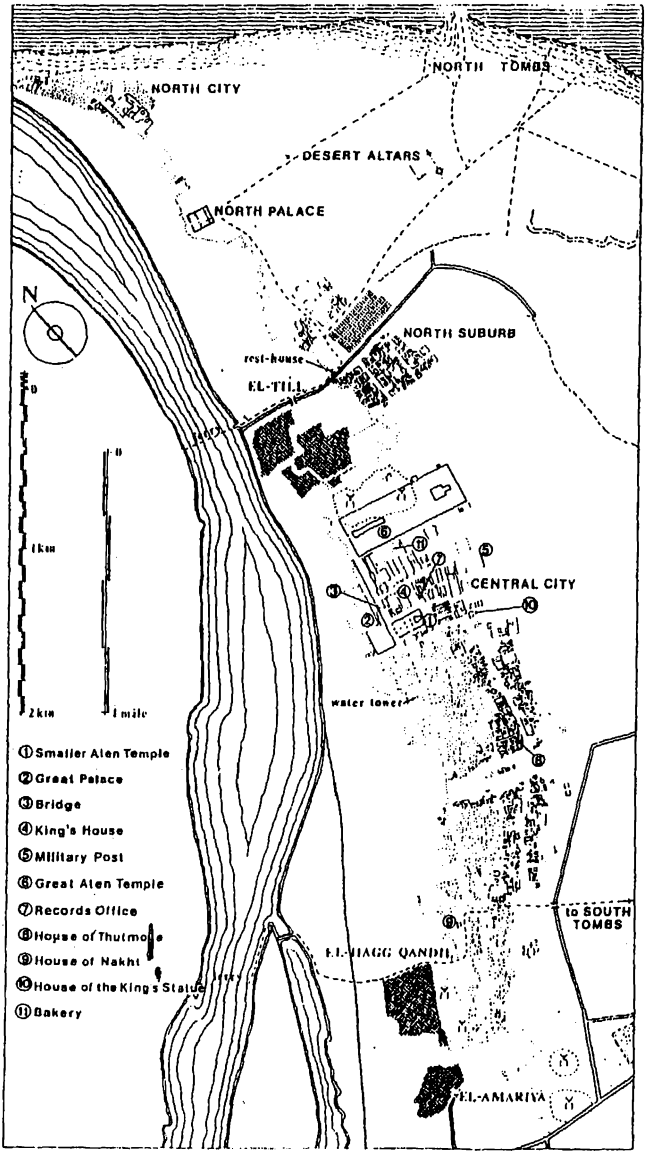

الشكل 89 خريطة مدينة العمارنة القديمة تبين المباني الرئيسية التى أجريت بها حفائر والمعالم الحديثة.

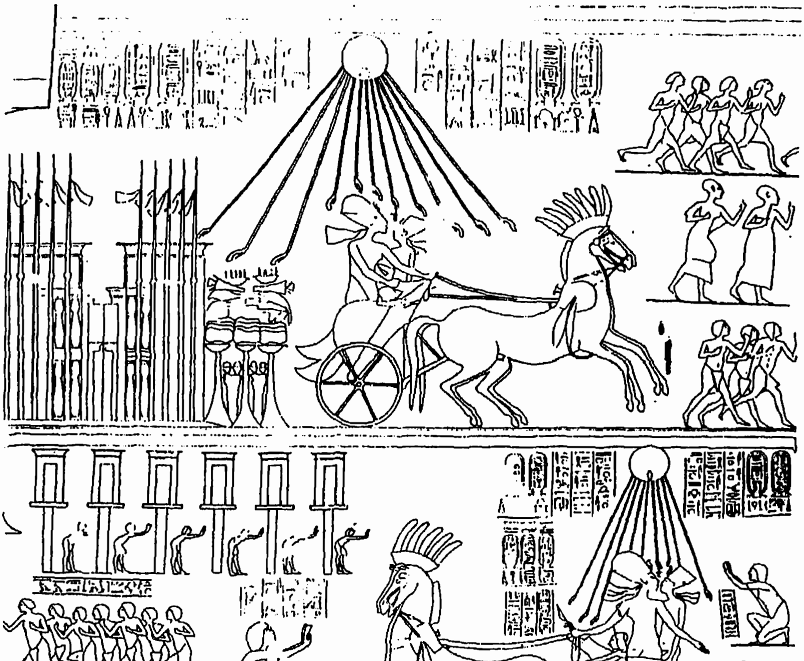

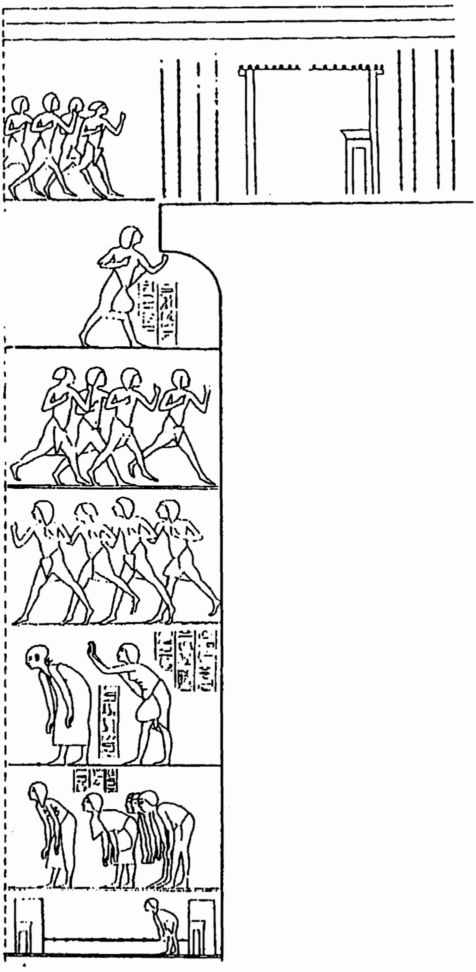

الشكل 90 جولة العربة الحربية. الصف الأعلى: إخناتون ونفرتيتي فى عربة حربية يغادران أحد معبد
آتون (يمثله مدخل صرح عليه ساريات الأعلام). إنهما يتجهان ناحية مبنى محصن يقع بين ما يشبه السياج
الخشبي. ربما كان القصر النهرى الشمالى (الشكل 91)، ويحيط بهما الحرس الراكض وعلى رأسه "رئيس
شرطة أخت آتون ماحو". الصف الأسفل: الزوجان الملكيان يسيران بالعربة فى طريق يحدده ما يشبه السياج
نفسه، وأيضاً يصحبهما ماحو وحرسه. من مقبرة ماحو، من N. G. Davies, *The Rock Tombs of El Amarna* IV, London, 1906, Plates XX-XXII

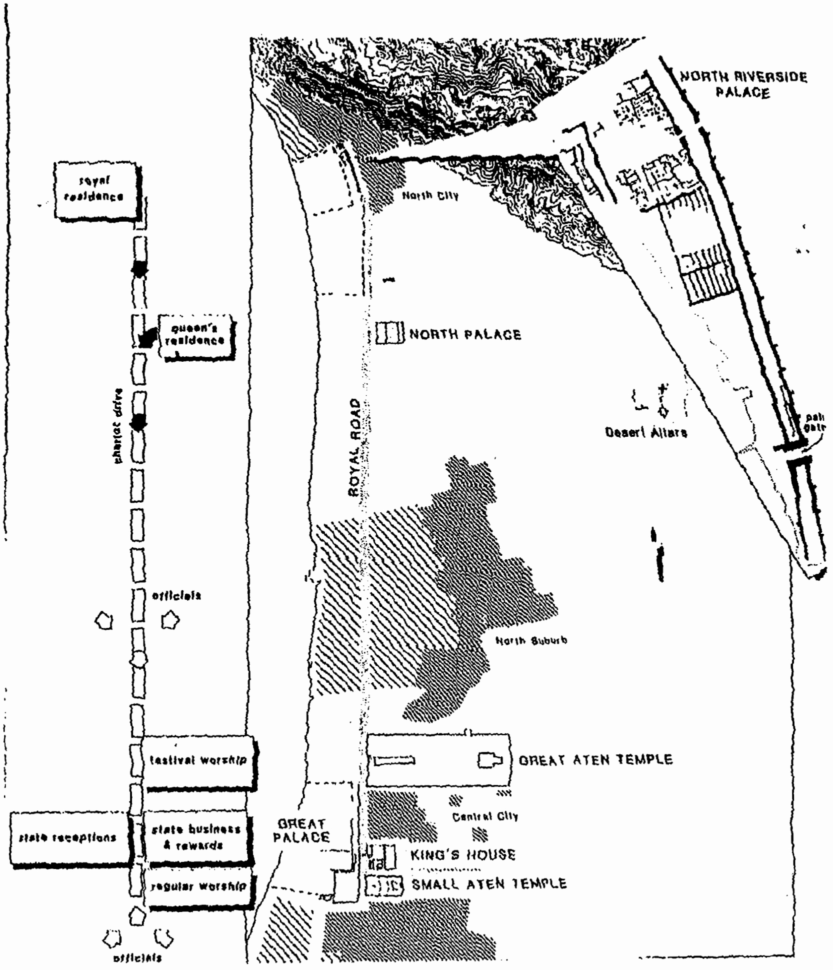

الشكل 91 رسم توضيحي للعنصر الإنشائي الرئيسي في العمارنة، وهو طريق الموكب الملكي.

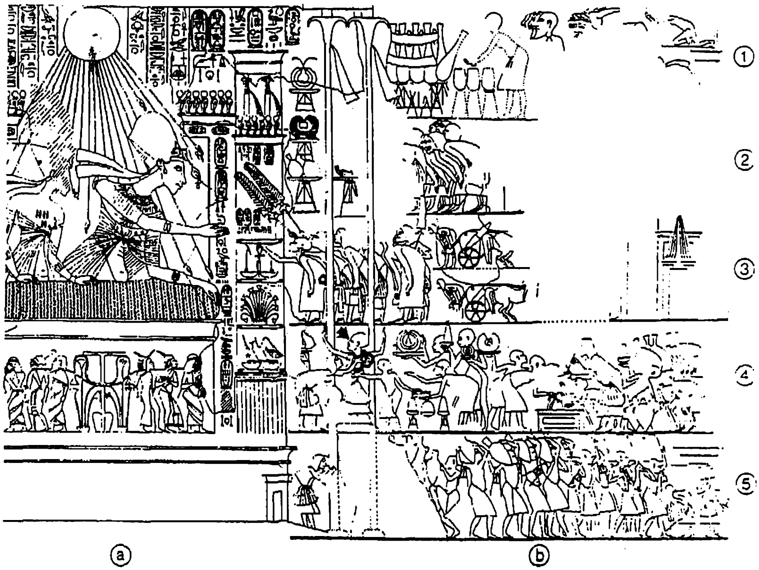

الشكل 92 إخناتون فى شرفة الظهور يكافئ واحداً من مسئوليه المخلصين. لاحظ رمز «التوحيد» مع الأسرى المقيدين الذى يظهر أسفل الشرفة فى القطاع (A)، راجع الشكل 73. فى الصف الرابع من القطاع (B) على الطرف الأيسر المسئول با رن نفر يتلقى قلادات ذهبية ممنوحة من الملك، بينما نجد على اليمين الخدم والكتبة يسجلون عطايا أخرى ويضعونها فى صندوق. والصف الخامس من هذا المنظر له أهمية خاصة، حيث يبين جرار وسلال السلع التى تحمل للخارج، مما يؤكد أن مراسم النافذة كانت تشمل توزيع السلع من ذلك النوع الأساسى التى تشبه الرواتب إلى جانب إعطاء مكافآت خاصة. الصفوف العليا (1-3) تصور مسئولين ورجال بلاط آخرين (ينتظرون دورهم؟) وبعض عرباتهم المنتظرة. للاطلاع على شرفة الظهور فى طيبة، انظر الشكل 68 والشكل 73. من مقبرة با رن نفر ، من N. de G. Davies, *The Rock Tombs of El Amarna* VI, London, 1908, Plate IV.

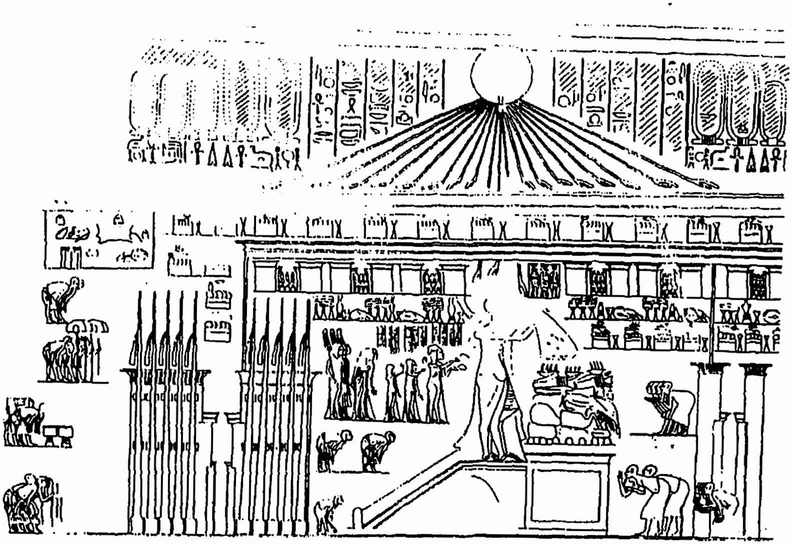

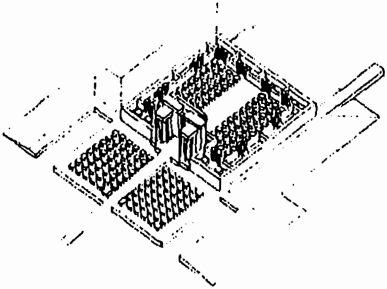

أ

الشكل 93 عبادة آتون شبه العامة فى معابد المدينة الوسطى. أعلى: الملك يقف على منصة د حل ا لمعبد يقرب القرابين. وداخل المعبد العديد من موائد القرابين. بعض بناته يراقبنه، وكذلك مجموعات من المشاهدين الخانعين. لاحظ مذبح الحيوانات فى الركن الأيسر الأعلى، مع الأحجار التى تحدده. من مقبرة بانحسى من N. de G. Davies, *The Rock Tombs of El Amarna* II, London, 1905, Plate XVIII أسفل: إعادة بناء لقدس أقداس معبد آتون الكبير، من B.J Kemp, *Amarna Reports* Iv, London, 1987, p. 112, Fig. 8.7 ومن الممكن أن تكون هناك أشكال أخرى لإعادة البناء.

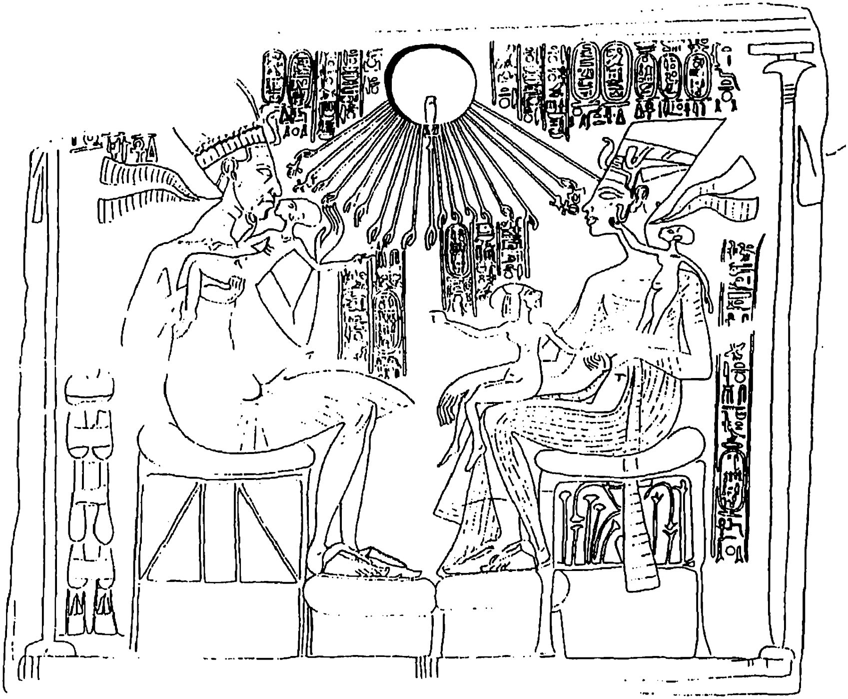

الشكل 94 لوحة رسمية للعائلة المالكية فى حالة استرخاء بالبيت. إلا أن الصورة نفسها موضع تبجيل خاص لأنها ربما جاءت من ارض مزار خاص. من الحجر الجيرى وارتفاعها 32 سنتيمتراً. إخناتون يجلس على اليسار ممسكاً بابنته الكبرى ووريثته مريت آتون؛ وتجلس نفرتيتى قبالته وابنتهما الثـانية مكيت آتون (التى مات بعد فترة قصيرة) على حجرها، بينما تحمل الثالثة عنخ سن با (التى أصبحت فيما بعد زوجة لتوت عنخ آمون) على ذراعها. متحف برلين 14145.

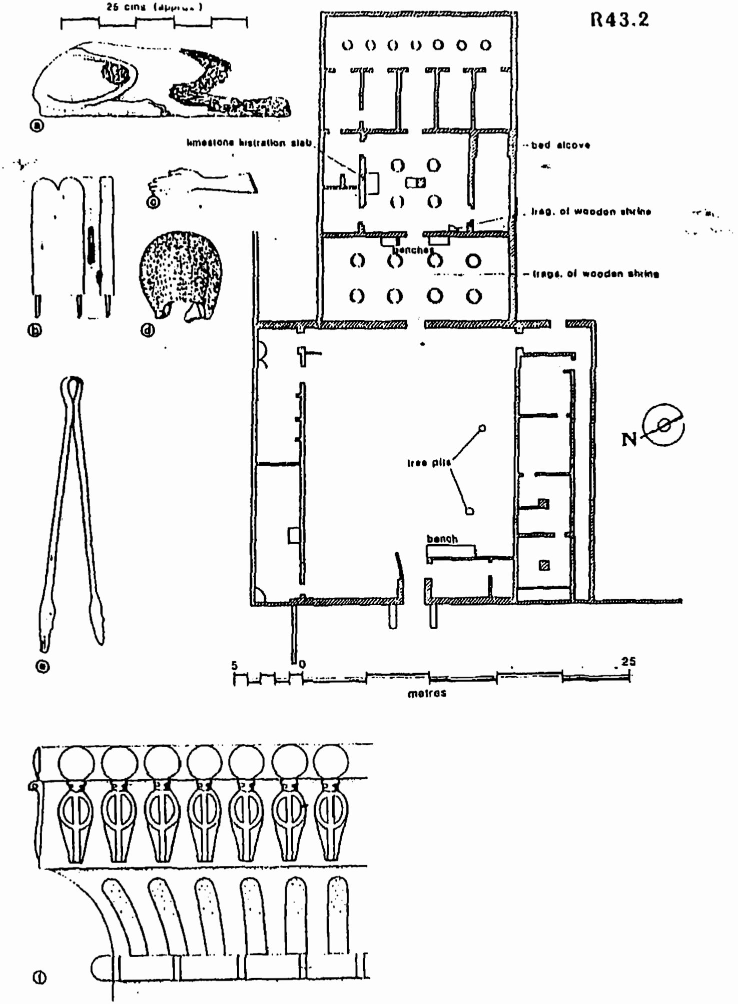

الشكل 95 مقصورة تمثال الملك فى العمارنة ويظهر فيها المخطط والمكتشفات الرئيسية. من J.D.S Pendlebury, *The City of Akhenaten* III, London, 1951, p. 141, Fig. 20, Plates XXII, LXXIX, and original cards. (A) تمثال خشبى لأبى الهول (B) ريش خشبى من تمثال (C) يد خشبية من تمثال (D) خوذة من القيشانى الأزرق من تمثال لإخناتون (E) ملقاط من البرونز (F) إعادة بناء لكورنيش من مقصورة خشبية.

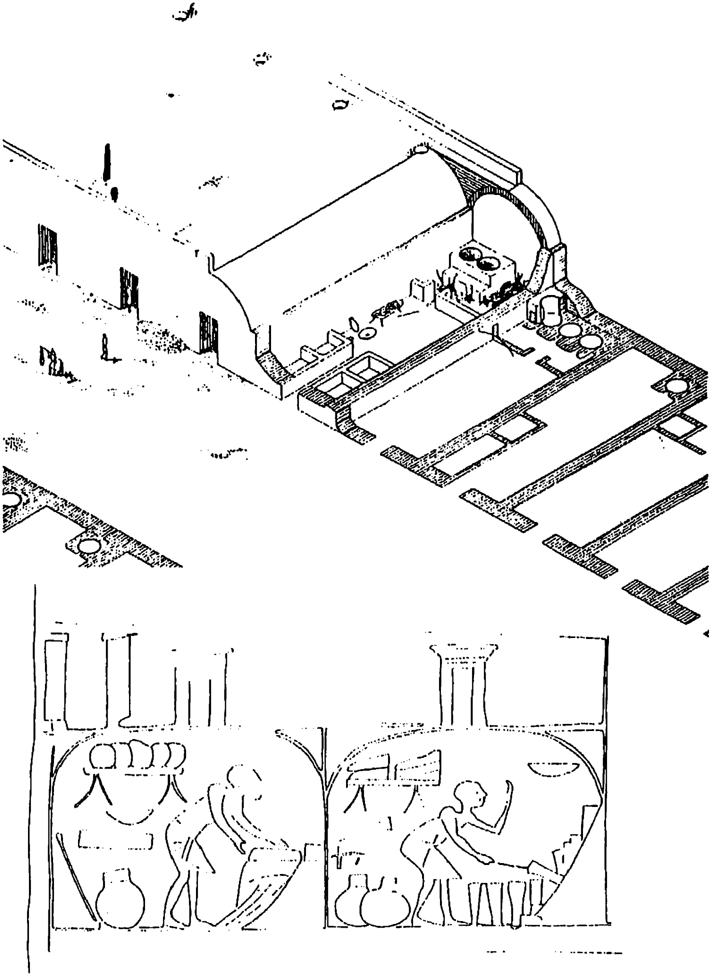

الشكل 96 مخابز المعبد فى المدينة الوسطى، نموذج نادر من الإنتاج الصناعى كبير الحجم، وإن تميز بأنه مرتب على هيئة وحدات خلوية متكررة. المنظر الأسفل على حجر من العمارنة وجد مستخدماً مرة أخرى فى هرموبوليس، من J.D. Cooney, *Amarna Reliefs from Hermopolis in American Collections*, Brooklyn and Mainz, 1965, p. 73.

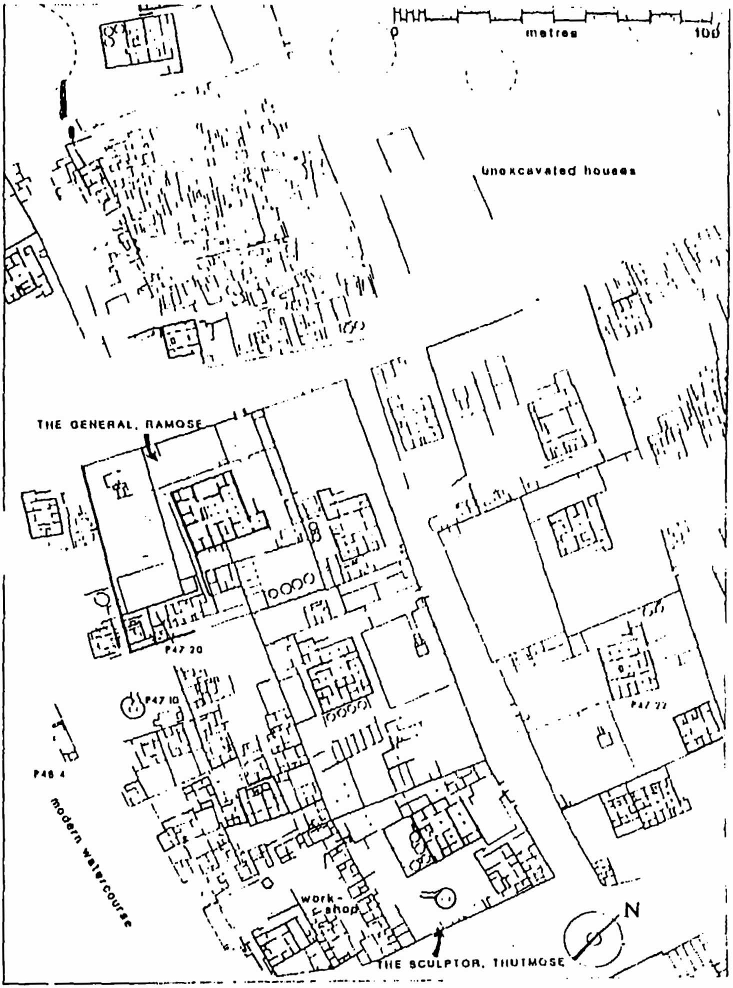

الشكل 97 مخطط جزء مميز من منطقة سكنية بالعمارنة فى المدينة الرئيسية. التمثال النصفى الشهير للملكة نفرتيتى وجد فى منزل أحد النحاتين الذى ربما كان اسمه تحتمس. الحروف التى على المخطط هى: W: (بئر) S (مقصورة؛ الاثنتان اللتان فى دائرة كانتا مقصورتين عامتين) G (مخزن غلال). وتشير النجمة إلى وجود محتمل لقمينة فخار. الشكل 98 يقوم على جزء من هذه الخريطة.

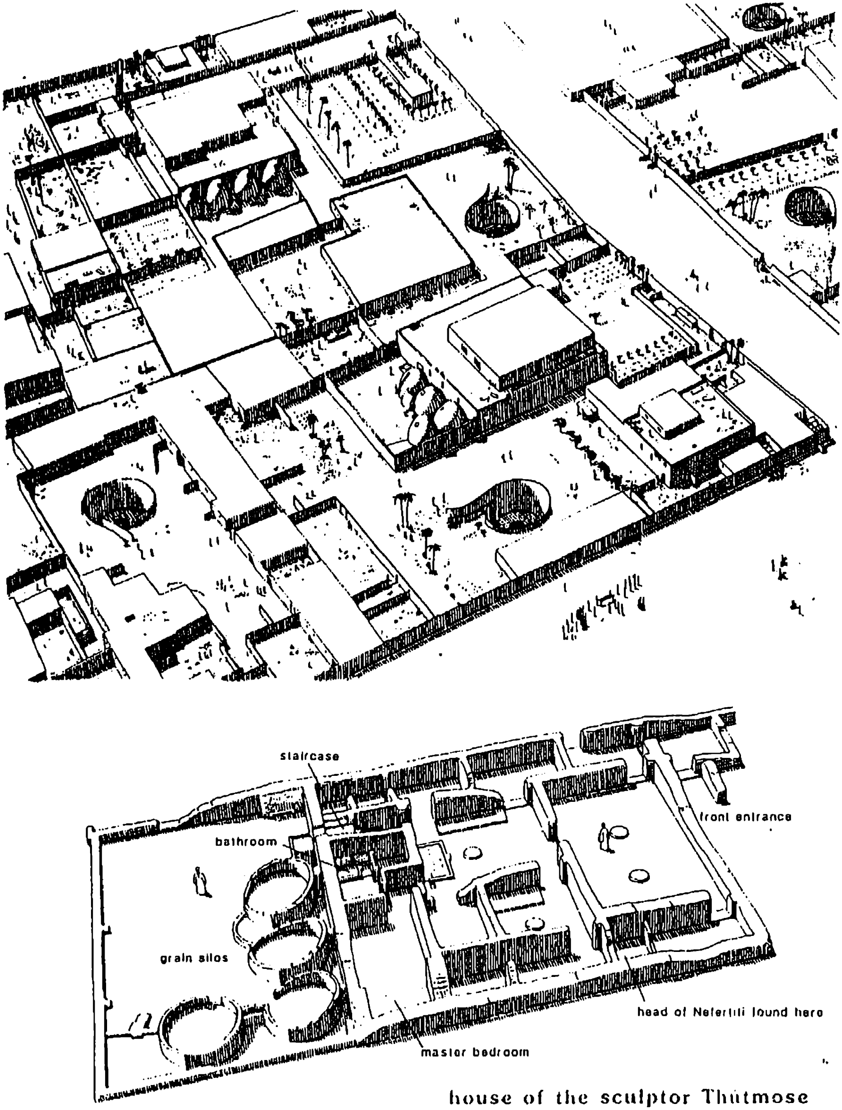

الشكل 98 إعادة بناء لمنظور لجزء من المنطقة الموجودة فى الشكل 97. منزل تحتمس مبين بالحالة التى وجد عليها عندما أجريت فيه الحفائر سنة 1914.

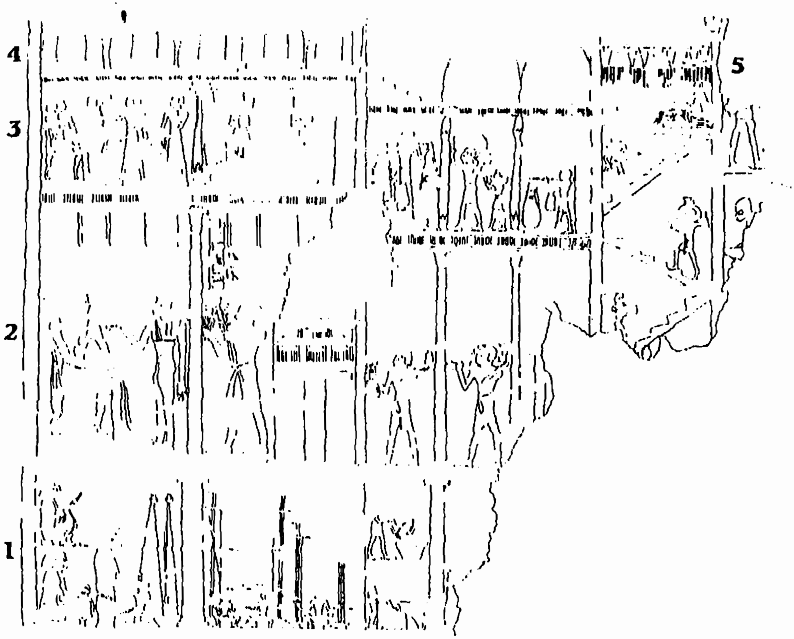

الشكل 99 أنشطة أحد المنازل الكبيرة كما رآها الفنان المصرى فى طيبة. من الوهلة الأولى ترسم الصورة الحياة فى منزل متعدد الطوابق، ولكن من الممكن كذلك أن الأجزاء الرئيسية التى على اليسار تقوم بجانب بعضها على نفس المستوى. وتبين المناظر الرئيسية: (1) غزل خيوط الكتان ونسج القماش على نول رأسى، بينما يميل شخص على الجانب الأيمن على مطحنة يطحن الدقيق (2) غرفة الاستقبال الرئيسية، حيث يجلس صاحب الدار على كرسى على مصطبة منخفضة وتقدم له الخدمة؛ المستطيلات التى فى أعلى الجدار قد تكون نوافذ (3) غرفة داخلية حيث من الواضح أن صاحب الدار يقوم ببعض الأعمال مع اثنين من الكتبة يجلسان على الأرض (4) صف من صوامع الغلال (5) جزار يقطع اللحم على طاولة ويعلق شرائح اللحم على حبل لتقدد. من N. de G. Davies, "The Town house in ancient Egypt", *Metropolitan Museum Studies I*, 1929, pp. 234-5, Figs. 1A, 1B.

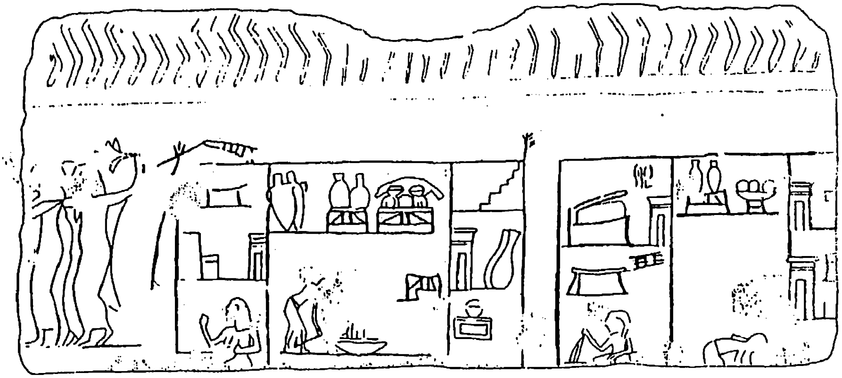

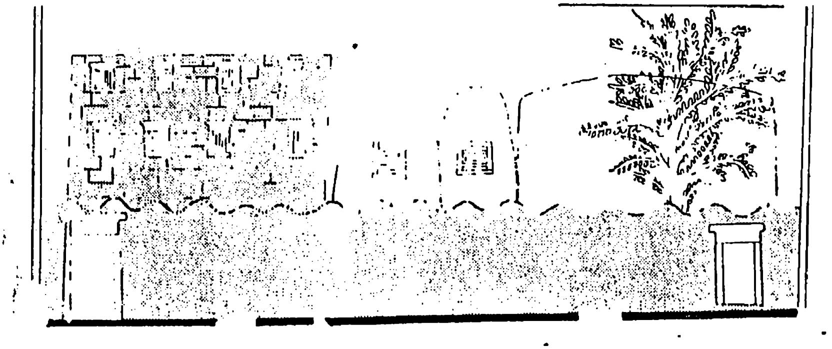

الشكل 100 منظران قديمان للمنازل. أعلى: منزل داخل الأرض الخاصة به، ومحاط بسور الجزء الأعلى منه مموج. صومعتا غلال وسقف مبنى آخر ترى فوقه، من مقبرة أنيني بطيبة، من N. de G. Davies, *Scenes from Some Theban Tombs (Private Tombs at Thebes, IV)*, Oxford, 1963, Plate XXIII. أعلى: الخطوط العامة لأحد منازل العمارنة من حجر أعيد استخدامه في هرموبوليس، من J.D. Cooney, *Amarna Reliefs from Hermopolis in American Collection*, Brooklyn and Mainz, 1965, p. 74.

اللوحة 11 الثروة الخاصة: قواعد مخازن الحبوب الدائرية المبنية بالطوب فى ضيعة خاصة بالعمارنة، منزل U24.1 واتجاهه شمال شرقى. قطر كل صومعة حوالى 3.5 متراً. من جمعية استكشاف مصر.

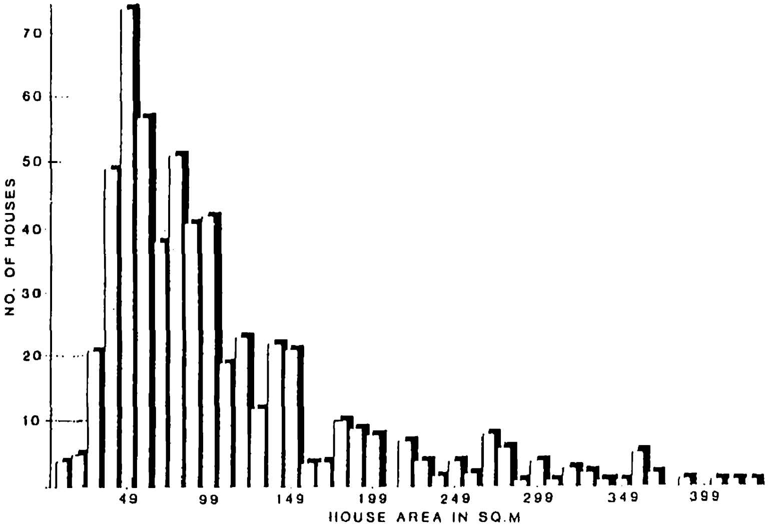

الشكل 101 رسم بيانى يوضح أعداد المنازل مختلفة الأحجام داخل المدينة الرئيسية بالعمارنة. أحجام
المنازل بدرجات كل منها 10 أمتار مربعة. انتظام منحنى التوزيع مثير للاهتمام من Piers Crocker,
Status symbols in the" وراجع unpublished dissertation, University of Cambridge
architecture of El-'Amarna", *Journal of Egyptian Archaeology* 71 (1985), 52-65.

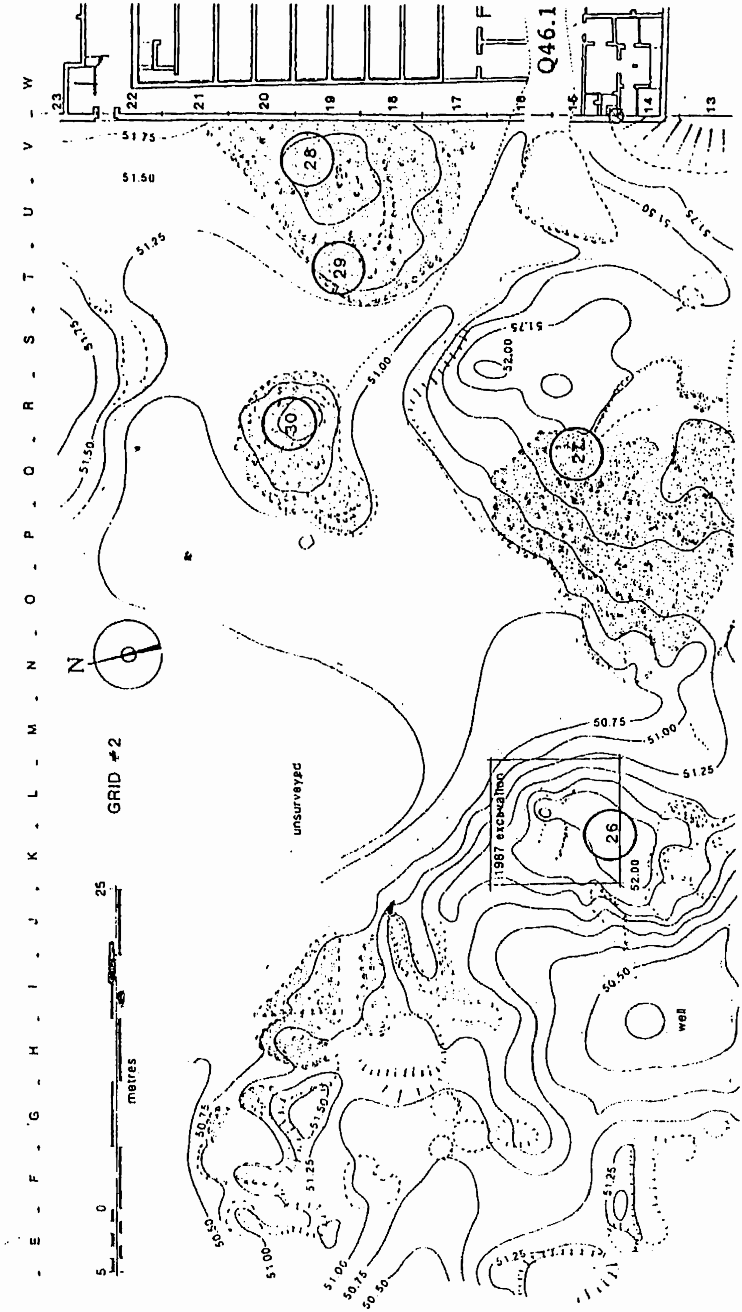
GRID #2
N
metres
0
5
25
unsurveyed
1987 excavation
well
Q46.1
26
27
28
29
30
51.75
51.50
51.25
51.00
50.75
50.50
52.00
E F G H I J K L M N O P Q R S T U V W
13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23

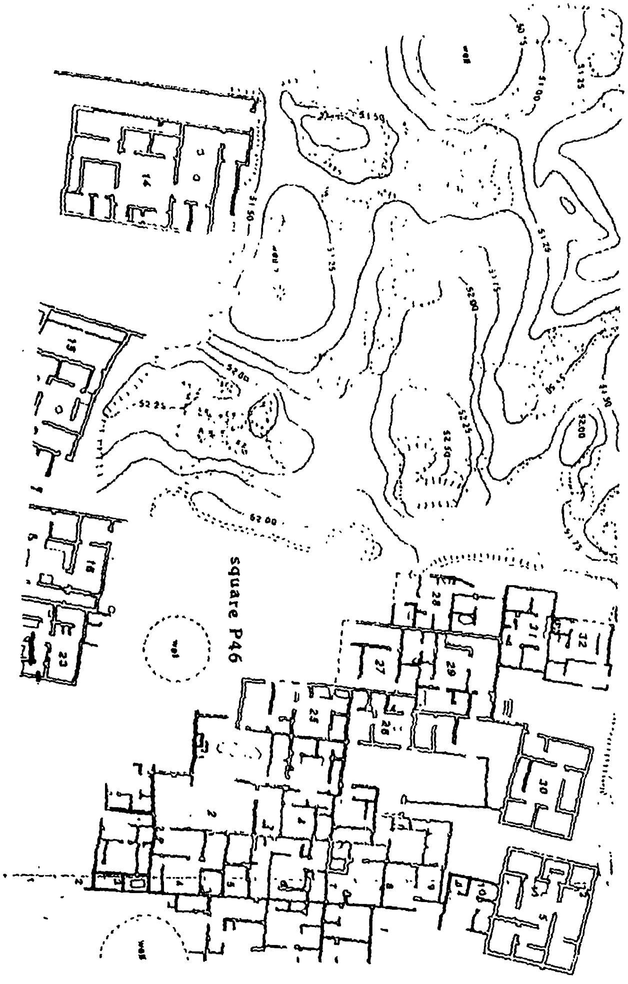

الشكل 102 الجزء السكني من العمارنة كموقع أثرى. مخططات المنازل التى أجريت بها الحفائر فى العقدين الثانى والثالث من القرن الحالى مبينة كخطوط عامة. ما تبقى من المنطقة لابد أنه استمر على نفس المنوال، مع وجود بعض الأكوام التى تحدد مواقع المنازل التى لم تجر بها حفائر. إلا أن مناطق أخرى التعرف عليها باعتبارها أكوام نفايات من العصور القديمة، وهذه الأكوام مظللة. الدوائر التى السوداء التى تحمل أرقاماً عينات من الشقف. مخطط غير منشور.

الهوامش

1 - الأسس الفكرية للدولة المبكرة

1 In general, see D.B. Redford, *Pharaonic King-lists, Annals and Day-books: a Contribution to the Study of the Egyptian Sense of History*, Mississauga, 1986.

2 Now in the Louvre, E13481 bis. See PM 2(2), pp. 111–12; also D. Wildung, 'Aufbau und Zweckbestimmung der Königsliste von Karnak', GM 9 (1974), 41–8; D. Wildung, 'Zur Frühgeschichte des Amun-Tempels von Karnak', MDAIK 25 (1969a), 212–19.

3 Now in the Cairo Museum, CG34516. See PM 3(2), 2.2, p. 666; D. Wildung, *Die Rolle ägyptischer Könige im Bewusstsein ihrer Nachwelt* I, Berlin 1969b, Taf. I; Sir A.H. Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, Oxford, 1961, p. 49, Fig. 8; J. Málek, 'The special features of the 'Saqqara King-List', JSSEA 12 (1982), 21–8.

4 G. Posener, *Littérature et politique dans l'Egypte de la XII^e dynastie*, Paris, 1956, pp. 1–3; D. Arnold, *Der Tempel des Königs Mentuhotep von Deir el-Bahari* I, Mainz, 1974, pp. 92–5; Gardiner, op. cit., p. 127.

5 Sir A.H. Gardiner, *The Royal Canon of Turin*, Oxford, 1959. J. Málek, 'The original version of the Royal Canon of Turin', JEA 68 (1982), pp. 93–106, provides a provocative analysis of the text and the way in which texts of this kind could have given rise to Manetho's dynasties.

6 B. Gunn, 'Notes on two Egyptian kings', JEA 12 (1926), 250–1; Posener, op. cit , pp. 31–3; Wildung, op. cit., 1969b, pp. 104–52.

7 BAR IV, p. 228, §471; KRI VI, p. 19 ll.12–13.

8 E.g. AEL I, pp. 215–22.

9 Herodotus II, 124–7; W.G. Waddell, *Manetho*, Cambridge, Mass., 1948, pp. 47, 49.

10 G. Posener, 'Le conte de Néferkarè et du général Siséné (Recherches littéraires, VI)' RdE 11 (1957), 119–37; *Lexikon* V, p. 957.

11 AEL I, pp. 149–63.

12 ANET, p. 12.

13 Waddell, op. cit., pp. 61, 63.

14 AEL I, pp. 139–45.

15 D.B. Redford, 'The Hyksos invasion in history and tradition', *Orientalia* 39 (1970), 1–51.

16 BAR I, pp. 332–7; R. Anthes, *Festschrift zum 150 jährigen Bestehen des Berliner Ägyptischen Museums*, Berlin, 1974, pp. 15–49

17 H.G. Evers, *Staat aus dem Stein*, Munich, 1929; C. Aldred, 'Some royal portraits of the Middle Kingdom in ancient Egypt', *Metropolitan Museum Journal* 3 (1970), 27–50.

18 AEL I, pp. 51–7, III, pp. 4–5; F. Junge, 'Zur Fehldatierung des sog. Denkmals memphitischer Theologie, oder Der Beitrag der ägyptischen Theologie zur Geistesgeschichte der Spätzeit', MDAIK 29 (1973), 195–204.

19 J.-E. Gautier and G. Jéquier, *Mémoire sur les fouilles de Licht*, Cairo 1902, pp. 3[illegible]

photographs of two of the throne sides are in K. Lange and M. Hirmer, *Egypt: Architecture, Sculpture, Painting in Three Thousand Years*, 3rd edn, London, 1961, pp. 86, 87; also E. Otto, *Egyptian Art and the Cults of Osiris and Amon*, London, 1968, Plate 5.

20 On Seth, see H. te Velde, *Seth, God of Confusion*, Leiden, 1967.

21 Sir A.H. Gardiner, *Ancient Egyptian Onomastica*, London, 1947.

22 Chapter 15, Papyrus of Ani, as quoted by A. Piankoff, *The Litany of Re*, New York, 1964, p. 46. R.O. Faulkner, *The Ancient Egyptian Book of the Dead*, London, 1985, p. 40, translates differently. Another good example built around the name of Osiris is 'Osiris-Apis-Atum-Horus in one, the Great God', cited in H. Frankfort, *Kingship and the Gods*, Chicago, 1948, pp. 146, 196; also in S. Morenz, *Egyptian Religion*, London, 1973, p. 143. Pages 139–46 of the latter deal with the general phenomenon of individuality/plurality in Egyptian divine names, as does E. Hornung, *Conceptions of God in Ancient Egypt: the One and the Many*, London, 1983, Chapter 3.

23 Morenz, op. cit., p. 145.

24 T.G. Allen, *The Book of the Dead or Going Forth by Day*, Chicago, 1974, pp. 118–20. A similar invoking of the manifold forms of Ra (seventy-five in all) is contained within the Litany of Ra, see Piankoff, op. cit., pp. 3–9, which discusses the phenomenon of name plurality in other religions, including Islam.'

25 AEL I, pp. 52–3; Frankfort, op. cit., Chapter 2.

26 Useful discussions here are J. Gwyn Griffiths, *The Conflict of Horus and Seth*, Liverpool, 1960, pp. 130–46; B.G. Trigger, *Beyond History: the Methods of Prehistory*, New York, 1968, Chapter 6, 'Predynastic Egypt'; also the references cited in Note 44.

27 For the somewhat enigmatic Mesopotamian connection, see H. Frankfort, *The Birth of Civilization in the Near East*, London, 1951, pp. 100–12; Frankfort, 'The origin of monumental architecture in Egypt', AJSL 58 (1941), 329–58; P. Amiet, 'Glyptique susienne archaïque', *Revue d'Assyriologie* 51 (1957), 121–9; H.J. Kantor, 'The early relations of Egypt with Asia', JNES 1 (1942), 174–213; Kantor, 'Further evidence for early Mesopotamian relations with Egypt', JNES 11 (1952), 239–50; Kantor, 'The relative chronology of Egypt and its foreign correlations before the Late Bronze Age', in R.W. Ehrich (ed.) *Chronologies in Old World Archaeology*, Chicago, 1965, pp. 1–46; W.A. Ward, 'Relations between Egypt and Mesopotamia from prehistoric times to the end of the Middle Kingdom', JESHO 7 (1964), 1–45, 121–35; A.L. Kelley, 'Cylinder seals in predynastic Egypt', NSSEA 4, no. 2 (1973), 5–8; Kelley, 'The evidence for Mesopotamian influence in predynastic Egypt', NSSEA 4, no. 3 (1974), 2–11; R.M. Boehmer, 'Orientalische Einflüsse auf verzierten Messergriffen aus dem prädynastischen Ägypten', *Archäologische Mitteilungen aus Iran* 7 (1974), 15–40; Boehmer, 'Das Rollsiegel in prädynastischen Ägypten', *Archäologischer Anzeiger* 4 (1974), 495–514; W. Needler, *Predynastic and Archaic Egypt in the Brooklyn Museum*. The Brooklyn Museum, Brooklyn, 1984, pp. 14, 26, 30–1.

28 The subject of motives and means in the ancient Egyptian economy of Pharaonic times will be treated in Chapter 6.

29 W.M.F. Petrie and J.E. Quibell, *Naqada and Ballas*, London, 1896; W. Kaiser, 'Bericht über eine archäologisch – geologische Felduntersuchung in Ober- und Mittelägypten', MDAIK 17 (1961), 14–18; B.J. Kemp, 'Photographs of the Decorated Tomb at Hierakonpolis'. JEA 59 (1973), 36–43; W. Davis, 'Cemetery T at Nagada', MDAIK 39 (1983), 17–28; *Lexikon* IV, pp. 343–7.

30 A.H. Gardiner, 'Horus the Behdetite', JEA 30 (1944), 23–60, discusses in some detail the problems of Behdet and related matters.

31 But note a 1st Dynasty representation of Horus in a boat astride a pair of wings in the sky, the whole above the Horus figure surmounting a king's name. R. Engelbach 'An alleged

winged sun-disk of the First Dynasty', ZÄS 65 (1930), 115–16; Gardiner, op. cit., 1944, p. 47, Plate VI.4.

32 J.E. Quibell, *Hierakonpolis* I, London, 1900; J.E. Quibell and F.W. Green, *Hierakonpolis* II, London, 1902; B. Adams, *Ancient Hierakonpolis* (with Supplement), Warminster, 1974; W. Kaiser, 'Zur vorgeschichtlichen Bedeutung von Hierakonpolis', MDAIK 16 (1958), 183–92; W. Kaiser, op. cit., 1961, 5–12; W.A. Fairservis, K.R. Weeks, and M. Hoffman, 'Preliminary report on the first two seasons at Hierakonpolis', JARCE 9 (1971–2), 7–68; M. Hoffman, 'A rectangular Amratian house from Hierakonpolis and its significance for predynastic research', JNES 39 (1980), 119–37; M.A. Hoffman, *The Predynastic of Hierakonpolis*, Giza and Macomb, Ill., 1982; B.J. Kemp 'Excavations at Hierakonpolis Fort 1905: a preliminary note', JEA 49 (1963), 24–8. These contributions are primarily to the local archaeology of Hierakonpolis. The broader cultural context of Hierakonpolis is discussed by J. A. Wilson in 'Buto and Hierakonpolis in the geography of Egypt', JNES 14 (1955), 209–36.

33 Quibell and Green, op. cit., pp. 20–2, Plates LXXV–LXXIX; [F.W. Green], *The Prehistoric Wall-painting in Egypt* [London British School of Egyptian Archaeology, 1953]; H. Case and J.C. Payne, 'Tomb 100: the Decorated Tomb at Hierakonpolis', JEA 48 (1962), 5–18; J.C. Payne, 'Tomb 100: the Decorated Tomb at Hierakonpolis confirmed', JEA 59 (1973), 31–5; B.J. Kemp, op. cit., 1973, 36–43.

34 B.J. Kemp, 'The early development of towns in Egypt', *Antiquity* 51 (1977), 185–200; M. Bietak, 'Urban archaeology and the "town problem" in ancient Egypt', in K. Weeks (ed.) *Egyptology and the Social Sciences*, Cairo, American University, 1979, pp. 110–14.

35 Gardiner, op. cit., 1944, 32; C. M. Firth and J.E. Quibell, *The Step Pyramid* II, Cairo, 1935, Plate 41.

36 See Note 40 for the results of recent fieldwork which have located Predynastic and Early Dynastic strata.

37 S. Hendrickx, 'The Late Predynastic cemetery at Elkab (Upper Egypt)', in L. Krzyżaniak and M. Kobusiewicz (eds) *Origin and Early Development of Food-producing Cultures in North-eastern Africa*, Poznań, 1984, pp. 225–30.

38 The best summary of the older fieldwork at Merimda, Fayum, and the Maadi area is W.C. Hayes, *Most Ancient Egypt*, Chicago, 1965, Chapter 3, pp. 91–146. The more recent German excavations are the subject of a series of volumes, not yet completed, beginning with J. Eiwanger, *Merimde-Benisalâme* I, Mainz, 1984; also a series of preliminary reports by J. Eiwanger: 'Erster Vorbericht über die Wiederaufnahme der Grabungen in der neolithischen Siedlung Merimde-Benisalâme', MDAIK 34 (1978), 33–42; 'Zweiter Vorbericht über die Wiederaufnahme der Grabungen in der neolithischen Siedlung Merimde-Benisalâme', MDAIK 35 (1979), 23–57; 'Dritter Vorbericht über die Wiederaufnahme der Grabungen in der neolithischen Siedlung Merimde-Benisalâme', MDAIK 36 (1980), 61–76; 'Die neolithische Siedlung von Merimde-Benisalâme: Vierter Bericht', MDAIK 38 (1982), 67–82; also F.A. Badawi, 'Die Grabung der ägyptischen Altertümerverwaltung in Merimde-Benisalâme im Oktober/November 1976', MDAIK 34 (1978), 43–51.

39 I. Rizkana and J. Seeher, 'New light on the relation of Maadi to the Upper Egyptian cultural sequence', MDAIK 40 (1984), 237–52; Rizkana and Seeher, 'The chipped stones at Maadi: preliminary reassessment of a predynastic industry and its long-distance relations', MDAIK 41 (1985), 235–55; W. Kaiser, 'Zur Südausdehnung der vorgeschichtlichen Deltakulturen und zur frühen Entwicklung Oberägyptens', MDAIK 41 (1985), 61–87; also L. Habachi and W. Kaiser, 'Ein Freidhof der Maadikultur bei es-Saff', MDAIK 41 (1985), 43–6; B. Mortensen, 'Four jars from the Maadi Culture found in Giza', MDAIK 41 (1985), 145–7.

40 For the recent Buto exploration, see T. von der Way, 'Untersuchungen des Deutschen Archäologischen Instituts Kairo in nördlichen Delta zwischen Disûq und Tida', MDAIK 40 (1984), 297–328; T. von der Way and K. Schmidt, 'Bericht über den Fortgang der Untersuchungen im Raum Tell el Fara'in/Buto', MDAIK 41 (1985), 269–91.

41 D. Wildung, 'Terminal prehistory of the Nile Delta: theses', in Krzyżaniak and Kobusiewicz, op. cit., pp. 265–9.

42 Wildung, op. cit., 1969b, pp. 4–21; *Lexikon* IV, pp. 46–8

43 Waddell, op. cit., pp. 26–33.

44 Important discussions of this difficult period are J.H. Breasted, 'The predynastic union of Egypt', BIFAO 30 (1931), 709–24, where the upper register of the Cairo fragment of the Palermo Stone is properly published; W. Kaiser, 'Einige Bemerkungen zur ägyptischen Frühzeit.II.Zur Frage einer über Menes hinausreichenden ägyptischen Geschichtsüberlieferung', ZÄS 86 (1961), 39–61; Kaiser, 'Einige Bemerkungen zur ägyptischen Frühzeit.III.Die Reichseinigung', ZÄS 91 (1964), 86–125. P.F. O'Mara, *The Palermo Stone and the Archaic Kings of Egypt*, La Canada, Calif., 1979, has argued that the Cairo fragment is actually a modern forgery, although there is little sign that this view is being taken seriously. A particularly good summary of the current picture of Predynastic Egypt and the evolution to the Pharaonic state is Needler, op. cit., Chapter I; and the important synthesis by Kaiser, op. cit., 1985, 61–87

45 J. Vandier, *Manuel d'archéologie égyptienne I.1. La préhistoire*, Paris, 1952, Chapters X, XI; J. Capart, *Primitive Art in Egypt*, London, 1905; H. Asselberghs, *Chaos en beheersing*, Leiden, 1961; H.J. Kantor, 'Ägypten', in M.J. Mellink and J. Filip (eds) *Frühe Stufen der Kunst* (Propyläen Kunstgeschichte, 13), Berlin, 1974; W.M.F. Petrie, *Ceremonial Slate Palettes and Corpus of Proto-dynastic Pottery*, London, 1953; H.G. Fischer, 'A fragment of late Predynastic Egyptian relief from the Eastern Delta', *Artibus Asiae* 21 (1958), 64–88, A.L. Kelley, 'A review of the evidence concerning early Egyptian ivory knife handles', *The Ancient World* (Chicago) 6 (1983), 95–102.

46 *Lexikon* II, pp. 146–8 ('Feindsymbolik'); *Lexikon* VI, pp. 1009–12 ('Vernichtungsritualen'), pp. 1051–4 ('Vogelfang'); M. Alliot, 'Les rites de la chasse au filet, aux temples de Karnak, d'Edfou et d'Esneh', RdE 5 (1946), 57–118; H.W. Fairman, 'The kingship rituals of Egypt', in S.H. Hooke (ed.) *Myth, Ritual, and Kingship*, Oxford, 1958, pp. 74–104, esp. 89–91; a scene of this kind also occurs in Hatshepsut's temple at Deir el-Bahari in a context which strongly implies a symbolic reference to triumph over hostile forces, E. Naville, *The Temple of Deir el Bahari* VI, London, 1908, p. 8, Plate CLXIII.

47 Kaiser, op. cit., 1964, 113–14, Abb. 7; Kaiser and G. Dreyer, 'Umm el-Qaab Nachuntersuchungen im frühzeitlichen Königsfriedhof.2.Vorbericht', MDAIK 38 (1982), 262–9, Abb. 14.

48 The earliest evidence for the pairing of Horus and Seth is almost as ancient from the reign of King Djer of the 1st Dynasty. In a queen's title 'She who sees Horus and Seth' the king is presented as an embodiment of the two gods (Gardiner, op. cit., 1944, p. 59, note).

49 Kaiser and G. Dreyer, op. cit., 1982, 242–5, discuss the importance of unusually large and well-appointed graves as evidence for the existence of political elites, and draw attention to Petrie's Abadiya cemetery. B. Williams, 'The lost Pharaohs of Nubia', *Archaeology* 33 (1980), 14–21; Williams, 'Forebears of Menes in Nubia: myth or reality?' JNES 46 (1987), 15–26; Williams, *Excavations between Abu Simbel and the Sudan Frontier. Part 1: the A-group Royal Cemetery at Qustul: Cemetery L*, Chicago, 1986, publishes an elite cemetery from Lower Nubia (Qustul), although with an overstated case for its importance, cf W.Y. Adams, 'Doubts about the "Lost Pharaohs"' JNES 44 (1985), 185–92.

50 The basic excavation reports are W.M.F. Petrie, *The Royal Tombs of the First Dynasty* I, London, 1900 and W.M.F. Petrie, *The Royal Tombs of the Earliest Dynasties* II, London, 1901.

A fundamental re-examination of early royal tombs partly based on a re-excavation at Abydos is W. Kaiser and G. Dreyer, op. cit., 1982, 211–69; cf. also Kaiser, 'Zu den Königsgräbern der 1. Dynastie in Umm el-Qaab', MDAIK 37 (1981), 247–54; Kaiser, 'Zu den königlichen Talbezirken der 1. und 2. Dynastie in Abydos und zur Baugeschichte des Djoser-Grabmals', MDAIK 25 (1969), 1–21; B.J. Kemp, 'The Egyptian 1st Dynasty royal cemetery', *Antiquity* 41 (1967), 22–32.

51 The basic publication is in E.R. Ayrton, C.T. Currelly, and A.E.P. Weigall, *Abydos* III, London, 1904, Chapter I. The articles in Note 50 include discussions of its significance.

52 Documentation is conveniently summarized in W.B. Emery, *Archaic Egypt*, Harmondsworth, 1961, and discussed by B.J. Kemp, 'Architektur der Frühzeit', in C. Vandersleyen (ed.) *Das alte Ägypten* (Propyläen Kunstgeschichte, 15), Berlin, 1975, pp. 99–112. Good examples of later funerary architecture which preserve the style of decoration are J.E. Quibell, *The Tomb of Hesy*, Cairo, 1913, Plates VIII, IX; L. Borchardt, *Das Grabdenkmal des Königs Ne-user-re*, Leipzig, 1907, Bl 24; S. Hassan, *Excavations at Gîza, 1929–1930*, Oxford, 1932, Plates LXI–LXV.

53 The basic publications are C.M. Firth and J.E. Quibell, op. cit.; J.-Ph. Lauer, *La Pyramide à degrés*, Cairo, 1936. A valuable and detailed summary is J.-Ph. Lauer, *Histoire monumentale des pyramides d'Egypte* I, Cairo, 1962; some remarkable architectural drawings of the timber and matting architecture prototypes are in H. Ricke, *Bemerkungen zur ägyptischen Baukunst des Alten Reiches* I, Zurich, 1944.

54 Firth and Quibell, op. cit., Plates 15–17, p. 104. J.-Ph. Lauer, *Monuments et Mémoires* (Fondation Eugène Piot) 49 (1957), 1–15, discusses and illustrates points of detail.

55 A.J. Spencer, 'Two enigmatic hieroglyphs and their relation to the Sed-Festival', JEA 64 (1978), 52–5.

56 H. Frankfort, op. cit., 1948, Chapter 6; *Lexikon* V, pp. 782–90; Fairman, op. cit., pp. 83–5; C.J. Bleeker, *Egyptian Festivals: Enactments of Religious Renewal* (Studies in the History of Religions 13), Leiden, 1967, Chapter V; E. Hornung and E. Staehelin, *Studien zum Sedfest* (Agyptiaca Helvetica 1), Geneva, 1974. A.M. Blackman, *Studia Aegyptiaca* I (Analecta Orientalia 17, 1938), 4–9, has interesting comments on one 1st Dynasty depiction.

57 In Chapter 5 we shall examine one particular set, those of Amenhetep III of the 18th Dynasty.

58 The most explicit early reference occurs on the Palermo Stone in a 1st Dynasty entry (possibly for King Adjib). It shows the double-throne dais and accompanies it with the legend: 'Appearance of the King of Upper Egypt, Appearance of the King of Lower Egypt: *Sed*-festival'. See H. Schäfer, *Ein Bruchstück altägyptischer Annalen*, Berlin, 1902, p. 19. All early references to the *Sed*-festival are conveniently gathered in Hornung and Staehelin, op. cit., pp. 16–20.

2 - ديناميكيات الثقافة

1 C. Robichon and A. Varille, 'Médamoud. Fouilles du Musée du Louvre, 1938', CdE 14, no. 27 (1939), 82–7; D. Arnold, 'Architektur des Mittleren Reiches', in C. Vandersleyen (ed.) *Das alte Ägypten* (Propyläen Kunstgeschichte, 15), Berlin, 1975, pp. 161–3, Abb. 36; D. Arnold, *Der Tempel des Königs Mentuhotep von Deir el-Bahari I; Architektur und Deutung*, Mainz, 1974, pp. 76–8.

2 C. Robichon and A. Varille, *Description sommaire du temple primitif de Médamoud*. Cairo, 1940; see also the comments by Arnold, op. cit., 1974, 76–8.

3 So far published in preliminary reports by W. Kaiser, G. Dreyer, G. Grimm, G. Haeny,

H. Jaritz, and C. Müller, 'Stadt und Tempel von Elephantine, Fünfter Grabungsbericht', MDAIK 31 (1975), 51–8; W. Kaiser, G. Dreyer, R. Gempeler, P. Grossmann, G. Haeny, H. Jaritz, and F. Junge, 'Stadt und Tempel von Elephantine, Sechster Grabungsbericht', MDAIK 32 (1976), 75–87; W. Kaiser, G. Dreyer, R. Gempeler, P. Grossmann, and H. Jaritz, 'Stadt und Tempel von Elephantine, Siebter Grabungsbericht', MDAIK 33 (1977), 68–83; and in one final report, G. Dreyer, *Elephantine VIII. Der Tempel der Satet; die Funde der Frühzeit und des Alten Reiches*, Mainz, 1986.

4 W. Kaiser, et al., op. cit., 1976, 78–80.

5 Dreyer, op. cit., 1986.

6 On this triad, see L. Habachi, 'Was Anukis considered as the wife of Khnum or as his daughter?' ASAE 50 (1950), 501–7. The blocks are in W. Kaiser *et al.*, op. cit., 1975, 45–50, 109–25; op. cit., 1976, 69–75.

7 Both figure in the scenes beneath the Step Pyramid at Sakkara, for example (cf. Figure 19, p. 58). See caption to Figure 20 for the references, particularly to the baboon cult and suggested explanations. Baboon and scorpion images were still included amongst the temple furniture of the pyramid of King Neferirkara of the 5th Dynasty at Abusir, see P. Posener-Kriéger, *Les Archives du temple funéraire de Néferirkarê-Kakaï (Les Papyrus d'Abousir): Traduction et commentaire*, Cairo, 1976, pp. 87–98.

8 J.E. Quibell and W.M.F. Petrie, *Hierakonpolis* I, London, 1900; J.E. Quibell and F.W. Green, *Hierakonpolis* II, London, 1902; B. Adams, *Ancient Hierakonpolis*, (with Supplement), Warminster, 1974; J. Weinstein, 'A foundation deposit tablet from Hierakonpolis', JARCE 9 (1971–2), 133–5; W.A. Fairservis, K.R. Weeks, and M. Hoffman, 'Preliminary report on the first two seasons at Hierakonpolis'. JARCE 9 (1971–2), 7–68; Dreyer, op. cit., 1986, pp. 37–46.

9 Principally the temple at Kasr es-Sagha, see Arnold, op. cit., 1975, p. 160; D. Arnold, *Der Tempel Qasr el-Sagha*, Mainz, 1979, pp. 22–3, where a Middle Kingdom date for the Hierakonpolis building is preferred.

10 The date of this image is not easily discernible from its style. One scholar has argued for a New Kingdom date, U. Rössler-Köhler, 'Zur Datierung des Falkenbildes von Hierakonpolis (*CGC* 14717)', MDAIK 34 (1978), 117–25. The archaeological context, however, demands a Middle Kingdom date or earlier.

11 Quibell and Petrie, op. cit., p. 6, Plate II; Quibell and Green, op. cit., Plate LXXII; R. Engelbach, 'A foundation scene of the Second Dynasty', JEA 20 (1934), 183–4; Adams, op. cit., Supplement, p. 17.

12 Quibell and Green, op. cit., p. 53, Plate LXXII; Adams, op. cit., Supplement, Frontis.

13 Quibell and Green, op. cit., pp. 10, 51, Plates LXVII, LXXII; Adams, op. cit., pp. 28–9.

14 W.M.F. Petrie, *Abydos* I, II London, 1902, 1903; B.J. Kemp, 'The Osiris temple at Abydos', MDAIK 23 (1968), 138–55; Kemp, 'The Osiris temple at Abydos. A postscript to *MDAIK* 23 (1968), 138–55', GM 8 (1973), 23–5; Kemp, 'The early development of towns in Egypt', *Antiquity* 51 (1977), 186–9; Dreyer, op. cit., 1986, pp. 47–58.

15 Sir R. Mond and O.H. Myers, *Temples of Armant*, London, 1940, p. 29, and section on Plate II.

16 Petrie, op. cit., II, pp. 7–8, Plate L.

17 A.J. Spencer, *Catalogue of Egyptian antiquities in the British Museum, V, Early Dynastic objects*, London, 1980, p. 67, Plate 55, no. 483.

18 Dreyer, op. cit., 1986, pp. 54–8. The single most important group is published by H.W. Müller, *Ägyptische Kunstwerke, Kleinfunde und Glas in der Sammlung E. und M. Kofler-Truniger, Luzern* (Münchner Ägyptologische Studien, 5), Berlin, 1964. A further note on date and provenance is provided by W. Needler, *Predynastic and Archaic Egypt in The Brooklyn Museum*, Brooklyn, 1984, p. 261.

19 W.M.F. Petrie, *Koptos*, London, 1896. For a general map of the location of the temple, see R. Weill, 'Koptos. Relation sommaire des travaux exécutés par MM. Ad. Reinach et R. Weill pour la Société française des fouilles archéologiques (campagne de 1910)', ASAE 11 (1911), 106, and folding plans, Plates I, II; B. Adams, 'Petrie's manuscript notes on the Koptos foundation deposits of Tuthmosis III', JEA 61 (1975), 102–13.

20 Petrie, ibid., p. 5.

21 On the lions, see B. Adams and R. Jaeschke, *The Koptos Lions* (The Milwaukee Public Museum, Contributions in Anthropology and History, 3), Milwaukee, January 1984.

22 Petrie or his sponsors seem to have been too embarrassed to publish illustrations of the torsos in the excavation report, and to this day no really detailed study has been published which does justice to these remarkable objects. Two are in the Ashmolean Museum at Oxford, and photographs appear in J. Capart, *Primitive Art in Egypt*, London, 1905, p. 223, Fig. 166; Sir E. Denison Ross (ed.) *The Art of Egypt through the Ages*, London, 1931, p. 86; E.J. Baumgartel, 'The three colossi from Koptos and their Mesopotamian counterparts', ASAE 48 (1948), 533–53, Plates I, II; H.J. Kantor, 'Ägypten', in M.J. Mellink and J. Filip (eds), *Frühe Stufen der Kunst* (Propyläen Kunstgeschichte, 13), Berlin, 1974, p. 255, Abb. 221. The Cairo statue, Journal d'Entrée 30770, appears never to have been illustrated. The head of one, its face missing, is also in the Ashmolean Museum, see Petrie, op. cit., 1896, Plate V.4; Baumgartel, op. cit., Plate III.

23 Adams and Jaeschke, op. cit., p. 21.

24 From the Turah quarries outside Cairo, according to Arkell, quoted by Baumgartel, op. cit., although one would like to have verification of this.

25 London, 1905, an English translation of a French-language edition published in Brussels in 1904.

26 K. Sethe, 'Hitherto unnoticed evidence regarding copper works of art of the oldest period of Egyptian history', JEA 1 (1914), 233–6; D. Wildung, *Die Rolle ägyptischer Könige im Bewusstsein ihrer Nachwelt* I, Berlin, 1969, p. 52, Note 3. Many references are on the Palermo Stone, H. Schäfer, *Ein Bruchstück altägyptischer Annalen*, Berlin, 1902, p. 15, Nr. 1; p. 16, Nr. 8; p. 17, Nrs 9, 10; p. 21, Nr. 14; p. 27, Nr. 4; p. 28, Nr. 10.

27 On the history of writing and literacy in ancient Egypt, see J. Baines, 'Literacy and ancient Egyptian society', *Man* 18 (1983), 572–99; J.D. Ray, 'The emergence of writing Egypt', *World Archaeology* 17 (1986), 307–16.

28 The most detailed and scholarly of introductions is H. Schäfer (translated and edited by J. Baines), *Principles of Egyptian Art*, Oxford, 1974. Others are M. Baud, *Les Dessins ébauchés de la nécropole thébaine (au temps du Nouvel Empire)*, Cairo, 1935; E. Iversen, *Canon and Proportions in Egyptian art*, 2nd edn, Warminster, 1975; G. Robins, *Egyptian Painting and Relief*, Shire Publications, Princes Risborough, 1986.

29 Kemp, 'The early development of towns in Egypt', 189–91.

30 *Lexikon* IV, 136–40.

31 For this last aspect see R. Germer, 'Die Bedeutung des Lattichs als Pflanze des Min', SAK 8 (1980), 85–7; M. Defossez, 'Les laitues de Min', SAK 12 (1985), 1–4.

32 G. Jéquier, *Le Monument funéraire de Pepi II* II, Cairo, 1938, Plates 12, 14; H. Goedicke, *Königliche Dokumente aus dem Alten Reich*, Wiesbaden, 1967, p. 43, Abb. 4.

33 Petrie, op. cit., 1902, p. 4, Plate III.48. Cf. also the probably 3rd Dynasty entry on the Palermo Stone, Schäfer, op. cit., p. 28, Nr. 10.

34 J. Baines, '*Bnbn:* mythological and linguistic notes', *Orientalia* 39 (1970), 389–404; *Lexikon* I, pp. 694–5.

35 J.D.S. Pendlebury, *The City of Akhenaten* III, London, 1951, Plate IX; N. de G. Davies, *The Rock Tombs of El Amarna* I, London, 1903, Plates XI, XXXIII; II, London, 1905, Plate XIX; III, London, 1905, Plate XXX.

36 *Lexikon* I, p. 680; LD II, Bl. 119.
37 Pyramid Texts, Utterance no. 600. R.O. Faulkner, *The Ancient Egyptian Pyramid Texts*, Oxford, 1969, p. 246; ANET, 3.
38 *Lexikon* I, p. 31.
39 The best general treatment of ancient Egyptian pottery is J. Bourriau, *Umm el-Ga'ab. Pottery from the Nile Valley before the Arab Conquest*, Cambridge, Cambridge University Press and Fitzwilliam Museum, 1981. It is profusely illustrated.
40 A.L. Kelley, 'Cylinder seals in predynastic Egypt', NSSEA 4, no. 2 (1973), 5–8; R.M. Boehmer, 'Das Rollsiegel im prädynastischen Ägypten', *Archäologischer Anzeiger* 4, (1974), 495–514. Also B. Williams, 'Aspects of sealing and glyptic in Egypt before the New Kingdom', in M. Gibson and R.D. Biggs (eds) *Seals and Sealing in the Ancient Near East*, Malibu, 1977, pp. 135–40.
41 H.G. Fischer, 'Old Kingdom cylinder seals for the lower classes', *Metropolitan Museum Journal* 6 (1972), 5–16. Large numbers are published by P. Kaplony, *Die Inschriften der ägyptischen Frühzeit* (3 vols), Wiesbaden, 1963, and for more, running through the Old Kingdom, P. Kaplony, *Die Rollsiegel des Alten Reichs* II, Brussels, 1981. A convenient selection is in W.M.F. Petrie, *Scarabs and Cylinders with Names*, London, 1917, Plates I–VII. Dreyer, op. cit., 1986, pp. 94–5, 151, Taf. 57, nos 449–51 are three faience tablets with similar designs from the Elephantine shrine deposits.
42 W.A. Ward, 'The origin of Egyptian design-amulets ('button seals')', JEA 56 (1970), 65–80.
43 N. Jenkins, *The Boat beneath the Pyramid; King Cheops' Royal Ship*, London, 1980; P. Lipke, *The Royal Ship of Cheops* (BAR International Series 225), Oxford, 1984; B. Landström, *Ships of the Pharaohs; 4000 Years of Egyptian Shipbuilding*, London, 1970, pp. 26–34.
44 G.A. Reisner, *A History of the Giza Necropolis II. The Tomb of Hetep-heres the Mother of Cheops*, Cambridge, Mass., 1955, pp. 23–7, Plate 5.
45 E.g. N. de G. Davies, *The Rock Tombs of Sheikh Saïd*, London, 1901, Plate XV.
46 Conveniently collected in A. Badawy, *Le Dessin architectural chez les anciens égyptiens*, Cairo, 1948, Chapters I and II; E. Baldwin Smith, *Egyptian Architecture as Cultural Expression*, New York and London, 1938, pp. 11–30.
47 Petrie, op. cit., 1903, II, Plate VII, nos 131, 132, Plate XI, no. 243; Müller, op. cit., A29a–c, A31; Dreyer, op. cit., 1986, pp. 64–5; W. Kaiser, 'Zu den [hieroglyphs] des älteren Bilddarstellungen und der Bedeutung von *rpw.t*', MDAIK 39 (1983), 275–8.
48 Some much later representations add this panelling to the sides of the carrying frame (cf. Kaiser, op. cit., 264–5, Abb. 1,2), but this could well be the kind of decoration from association of ideas which the Egyptians were so fond of.
49 A detailed discussion is provided by W. Kaiser, op. cit., 1983, 261–96; also Dreyer, op. cit.. 1986, pp. 64–5. The human face with cow's ears which later became a symbol of the goddess Hathor was, in early times, a female divinity called Bat, see H.G. Fischer, 'The cult and nome of the goddess Bat', JARCE 1 (1962), 7–24; H.G. Fischer, 'Varia Aegyptiaca', JARCE, 2 (1963), 50–1; *Lexikon* I, pp. 630–2.
50 G. Legrain, 'Le logement et transport des barques sacrées et des statues des dieux dans quelques temples égyptiens', BIFAO 13 (1917), 1–76.
51 P. Spencer, *The Egyptian Temple: a Lexicographical Study*, London, 1984, pp. 125–30.
52 The remains of the early shrines at Abydos and Hierakonpolis are too incomplete for comparison. At Medamud the provision of two domains is evident in the earliest shrine, but the brick benches in the outer area do not look entirely suitable to be pedestals for the support of canopies for the revealed image.
53 See especially Fischer, op. cit., 1962, 12, and Note 39.
54 P. Spencer, op. cit., pp. 114–19.
55 A good and representative set of photographs of Edfu temple is in J.-L. de Cenival, *Living*

Architecture: Egyptian, London, 1964, pp. 147–59. An informative summary of the history and religious activity of the temple is H.W. Fairman, 'Worship and festivals in an Egyptian temple', *Bulletin of the John Rylands Library*, Manchester, 37 (1954), 165–203.

56 E.A.E. Reymond, *The Mythical Origin of the Egyptian Temple*, Manchester, 1969.

57 E. Naville, *The XIth Dynasty Temple of Deir el-Bahari* II, London, 1910, pp. 14–19, Plates XXIII, XXIV.

58 Arnold, op. cit., 1974, pp. 28–32, 76–8.

59 R. Stadelmann, *Die ägyptischen Pyramiden; Vom Ziegelbau zum Weltwunder*, Mainz, 1985, p. 229, Abb. 74.

60 Another good example is the reconstruction of a pair of obelisks and falcon statue perched on top of a shrine of tent shrine form at Gebel Silsila, see G. Legrain, 'Notes d'inspection', ASAE 4 (1903), 205–9, Figs 3, 4. As often happens, when such a reconstruction is reproduced in another book, the fact that it is only a reconstruction is overlooked, see G. Jéquier, *Manuel d'archéologie égyptienne I: les éléments de l'architecture*, Paris, 1924, p. 321, Fig. 218. Here the reconstruction becomes reality.

61 AEL I, pp. 115–18.

62 E.S. Bogoslovsky, 'Hundred Egyptian draughtsmen', ZÄS 107 (1980), 89–116; C.A. Keller, 'How many draughtsmen named Amenhotep? A study of some Deir el-Medina painters', JARCE 21 (1984), 119–29.

63 *Lexikon* III, pp. 145–8; D. Wildung, *Imhotep und Amenhotep – Gottwerdung im alten Ägypten*, Berlin, 1977; Wildung, *Egyptian Saints: Deification in Pharaonic Egypt*, New York, 1977.

64 AEL I, 6–7, 58–61; D. Wildung, op. cit., 1969, pp. 102–3; *Lexikon* III, pp. 290, 980–2.

3 - العقل البيروقراطي

1 Both passages are in Papyrus Chester Beatty IV, see A.H. Gardiner, *Hieratic Papyri in the British Museum. 3rd Series: Chester Beatty Gift*, London, 1935, p. 41. The first passage also occurs in Papyrus Anastasi II and Papyrus Sallier I, see R.A. Caminos, *Late Egyptian Miscellanies*, London, 1954, pp. 51, 317.

2 P. Posener-Kriéger and J.L. de Cenival, *Hieratic Papyri in the British Museum. 5th Series: the Abu Sir Papyri*, London, 1968; P. Posener-Kriéger, *Les Archives du temple funéraire de Néferirkarê-Kakaï (Les papyrus d'Abousir)*, 2 vols, Cairo, 1976.

3 A. Fakhry, *The Monuments of Sneferu at Dahshur II. The Valley Temple, Part I: the Temple Reliefs*, Cairo, 1961. A detailed study of all Old Kingdom sources of this kind is H. Jacquet-Gordon, *Les Noms des domaines funéraires sous l'Ancien Empire Egyptien*, Cairo, 1962.

4 Posener-Kriéger, op. cit., pp. 565–74; *Lexikon* IV, p. 1044; A.M. Roth, 'A preliminary report on a study of the system of phyles in the Old Kingdom', NARCE 124 (Winter 1983), 30–5.

5 Posener-Kriéger and de Cenival, op. cit., Plate XXXI; Posener-Kriéger, op. cit., pp. 429–39.

6 On Egyptian mathematics see T.E. Peet, *The Rhind Mathematical Papyrus*, London, 1923; R.J. Gillings, *Mathematics in the Time of the Pharaohs*, Cambridge, Mass., 1927; O. Gillain, *La Science égyptienne: l'arithmétique au Moyen Empire*, Brussels, 1927; G. Robins and C. Shute, *The Rhind Mathematical Papyrus*, London, The British Museum, 1987.

7 Rhind Mathematical Papyrus, Problem 42.

8 H.E. Winlock, *Models of Daily Life in Ancient Egypt*, New York, 1955, pp. 27–9, 88, Plates 22, 23, 64, 65.

9 B.J. Kemp, *Amarna Reports* III, London, 1986, pp. 2–5. A fine model quern emplacement was found in the tomb of King Tutankhamun, W.J. Darby, P. Ghalioungui and L. Grivetti, *Food: the Gift of Osiris*, London, 1977, p. 505, Fig. 12.2. This two-volume work contains much information on Egyptian baking and brewing.

10 F. Filce Leek, 'Teeth and bread in ancient Egypt', JEA 58 (1972), 126–32; Leek, 'Further studies concerning ancient Egyptian bread', 59 (1973), 199–204. Experimental milling was carried out at el-Amarna in 1987, see B.J. Kemp, *Amarna Reports* V, London, 1989, ch. 12.

11 H. Jacquet-Gordon, 'A tentative typology of Egyptian bread moulds', in D. Arnold (ed.) *Studien zur altägyptischen Keramik*, Mainz, 1981, pp. 11–24.

12 B.J. Kemp, *Amarna Reports* IV, London, 1987, Chapter 6. The connection between square ovens and bread moulds is also firmly established at the Middle Kingdom sites of Abu Ghalib and Mirgissa (H. Larsen, 'Vorbericht über die schwedischen Grabungen in Abu Ghâlib 1932–1934', MDIAAK 6 (1935), 51, Abb. 4, 58–60; R. Holthoer, *The Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia 5: New Kingdom Pharaonic Sites, The pottery*, Stockholm, 1977, Plate 72.2), and at the New Kingdom ovens beside the Treasury of Tuthmosis I at Karnak North (J. Jacquet, 'Fouilles de Karnak Nord. Quatrième campagne, 1971', BIFAO 71 (1972), 154, Plan 1, Plate XXXIV; J. Jacquet, *Karnak-Nord V: Le trésor de Thoutmosis Ier: étude architecturale*, Cairo, 1983, pp. 82–3).

13 N. de G. Davies, *The Tomb of Antefoker, Vizier of Sesostris I, and of his Wife, Senet*, London, 1920 pp. 15–16, Plates XI–XII.

14 Peet, op. cit., pp. 112–13; Gillings, op. cit., pp. 128–36. *Pefsu* is, in the latter book, called *pesu*, a possible alternative reading.

15 Rhind Mathematical Papyrus, Problem 75.

16 But not always, e.g. F.Ll. Griffith, *Hieratic Papyri from Kahun and Gurob*, London, 1898, p. 65, Plate XXVIa.

17 Experimentally verified at el-Amarna in 1987, see Kemp, op. cit., 1989, ch. 11.

18 D. Dunham, *Uronarti Shalfak Mirgissa (Second Cataract Forts, II)*, Boston, 1967, pp. 34–5, Plates XXVII, XXVIII; W.K. Simpson, 'Two lexical notes to the Reisner Papyri: *whrt* and *trsst*', JEA 59 (1973), 220–2.

19 An excellent treatment is D. Mueller, 'Some remarks on wage rates in the Middle Kingdom', JNES 34 (1975), 249–63.

20 Rhind Mathematical Papyrus, Problem 65.

21 G.A. Reisner, 'The tomb of Hepzefa, nomarch of Siût', JEA 5 (1918), 79–98; A.J. Spalinger, 'A redistributive pattern at Assiut', JAOS 105 (1985), 7–20.

22 Griffith, op. cit., pp. 45–6, Plates XVI, XVII.

23 Simpson, op. cit.; cf. B.J. Kemp, 'Large Middle Kingdom granary buildings (and the archaeology of administration)', ZÄS 113 (1986), 120–36.

24 On this subject and many related issues of land yields, see K. Baer, 'The low price of land in ancient Egypt', JARCE 1 (1962), 25–45.

25 Cited in Kemp, op. cit., 1986, p. 132.

26 W.K. Simpson, *Papyrus Reisner* I, Boston, 1963, pp. 83–5; W.K. Simpson, *Papyrus Reisner* III, Boston, 1969, pp. 13–15.

27 W.C. Hayes, *A Papyrus of the Late Middle Kingdom in the Brooklyn Museum*, Brooklyn, 1955. The quotation given is from p. 64.

28 G. Goyon, *Nouvelles inscriptions rupestres du Wadi Hammamat*, Paris, 1957, pp. 17–20, 81–5, no. 61; Mueller, op. cit., 256.

29 W.K. Simpson, *Papyrus Reisner* II, Boston, 1965.

30 What follows is essentially a summary of the work of the American archaeologist Mark Lehner. He provides a summary in 'A contextual approach to the Giza pyramids', *Archiv für Orientforschung* 32 (1985), 136–58, and partially in 'The development of the Giza necropolis: the Khufu project', MDAIK 41 (1985), 109–43, and I myself have learnt much from long discussions with him on the pyramid plateau itself.

31 N. Strudwick, *The Administration of Egypt in the Old Kingdom: the Highest Titles and their Holders*, London, 1985, pp. 237–50, covers the duties of the 'overseer of works', and his prime role in managing work-forces employed in a variety of tasks.

32 Herodotus II.124.
33 W.M.F. Petrie, *The Pyramids and Temples of Gizeh*, London, 1885, p. 34.
34 Abdel-Aziz Saleh, 'Excavations around Mycerinus pyramid complex', MDAIK 30 (1974), 131–54.
35 W.M.F. Petrie, *Gizeh and Rifeh*, London, 1907, p. 9.
36 K. Kromer, *Siedlungsfunde aus dem frühen Alten Reich in Giseh*, Vienna, 1978. A useful and clarifying review is by K.W. Butzer, JNES 41 (1982), 140–1.

4 - مجتمعات نموذجية

1 The best general account of Egyptian building methods is still Somers Clarke and R. Engelbach, *Ancient Egyptian Masonry*, London, 1930.
2 This is the approach of A. Badawy, *Ancient Egyptian Architectural Design: a Study of the Harmonic System*, Berkeley and Los Angeles, Calif., 1965.
3 To be appreciated by comparing the plan in J.E. Quibell and F.W. Green, *Hierakonpolis* II, London, 1902, Plate LXXIII, with the results of the 1967 and later American excavations, particularly W.A. Fairservis, K.R. Weeks, and M. Hoffman, 'Preliminary report on the first two seasons at Hierakonpolis', JARCE 8 (1971–2), 14–21, and accompanying plans and sections.
4 Still scarcely published. Some information is in B.J. Kemp, 'The early development of towns in Egypt', *Antiquity* 5 (1977), 185–200.
5 W. Helck, 'Bemerkungen zu den Pyramidenstädten im Alten Reich', MDAIK 15 (1957), 91–111; K. Baer, *Rank and Title in the Old Kingdom*, Chicago, 1960, pp. 247–73.
6 L. Borchardt, *Das Grabdenkmal des Königs Nefer-ir-ke-Re*, Leipzig, 1909.
7 K.A. Kitchen, *Pharaoh Triumphant: the Life and Times of Ramesses II, King of Egypt*, Warminster, 1982, pp. 103–9; Farouk Gomaà, *Chaemwese Sohn Ramses' II. und Hoherpriester von Memphis* Wiesbaden, 1973.
8 Papyrus Chester Beatty IV = P. British Museum 10684, AEL II, pp. 175–8.
9 Selim Hassan, *Excavations at Giza IV (1932–1933)*, Cairo, 1943, pp. 1–62.
10 Primarily G.A. Reisner, *Mycerinus*, Cambridge, Mass., 1931, Chapter III; Hassan, op. cit., adds a further part of the plan. See also B. Trigger, B.J. Kemp, D.B. O'Connor, and A.B. Lloyd, *Ancient Egypt: a Social History*, Cambridge, 1983, pp. 92–4.
11 Ahmed Fakhry, *The Monuments of Sneferu at Dahshur I. The Bent Pyramid*, Cairo, 1959, pp. 114–17; II, Part II, *The Finds*, Cairo, 1961, contains a record of the pottery, largely Old Kingdom in date. See also Trigger *et al.*, op. cit., pp. 95–6.
12 W.M.F. Petrie, *Kahun, Gurob, and Hawara*, London, 1890, Chapter III; W.M.F. Petrie, *Illahun, Kahun and Gurob*, London, 1891, Chapters II and III; W.M.F. Petrie, G. Brunton, and M.A. Murray, *Lahun* II, London, 1923, Chapter XIII; A.R. David, *The Pyramid Builders of Ancient Egypt*, London, 1986.
13 The group discovered by Petrie is fully published in F.Ll. Griffith, *Hieratic Papyri from Kahun and Gurob*, London, 1898; the second group, from illicit excavations and now largely in Berlin, are variously dealt with in L. Borchardt, 'Der zweite Papyrusfund von Kahun und die zeitliche Festlegung des mittleren Reiches der ägyptischen Geschichte', ZÄS 37 (1899), 89–103; U. Kaplony-Heckel, *Ägyptische Handschriften*, Part I, ed. E. Lüddeckens, being part of the series W. Voigt (ed.) *Verzeichnis der orientalischen Handschriften in Deutschland* XIX, Wiesbaden, 1971; U. Luft, 'Illahunstudien I: zu der Chronologie und den Beamten in den Briefen aus Illahun', *Oikumene* (Budapest) 3 (1982), 101–56; 'Illahunstudien II; ein

Verteidigungsbrief aus Illahun. Anmerkungen zu P. Berol 10025', 4 (1983), 121–79; 'Illahunstudien III: zur sozialen Stellung des Totenpriesters in Mittleren Reich', 5 (1986), 117–53.

14 H.E. Winlock, *Models of Daily Life in Ancient Egypt*, Cambridge, Mass., 1955.

15 W.C. Hayes, *A Papyrus of the Late Middle Kingdom in the Brooklyn Museum*, Brooklyn, 1955, section IV.

16 Griffith, op. cit., pp. 19–24; also the discussion by D. Valbelle, 'Eléments sur la démographie et le paysage urbains, d'après les papyrus documentaires d'époque pharaonique', in *Sociétés urbaines en Egypte et au Soudan* (Cahier de Recherches de l'Institut de Papyrologie et d'Egyptologie de Lille 7) 1985, pp. 75–87.

17 D. Arnold and R. Stadelmann, 'Dahschur. Zweiter Grabungsbericht', MDAIK 33 (1977), 15–18, Abb. 2; Arnold, 'Dahschur. Dritter, Grabungsbericht', MDAIK 36 (1980), 15–17, Abb. 1; Dorothea Arnold, 'Keramikbearbeitung in Dahschur 1976–1981', MDAIK 38 (1982), 25–65.

18 J. Lauffray, Ramadan Sa'ad, and S. Sauneron, 'Rapport sur les travaux de Karnak. Activités du Centre franco-égyptien en 1970–1972', *Karnak V (1970–2)*, Cairo, 1975, pp. 26–30, with plan on Fig. 13; J. Lauffray, 'Les travaux du Centre franco-égyptien d'étude des temples de Karnak, de 1972 à 1977', *Karnak VI (1973–7)*, Cairo, 1980, pp. 44–52; F. Debono, 'Rapport préliminaire sur les résultats de l'étude des objets de la fouille des installations du Moyen Empire et "Hyksôs" à l'Est du Lac Sacré de Karnak', *Karnak VII (1978–81)*, Paris, 1982, pp. 377–83; J. Lauffray, *Karnak d'Egypte*, Paris, 1979, pp. 197–209.

19 *Karnak VI (1973–77)*, pp. 153–65.

20 D.B. Redford, *Akhenaten, the Heretic King*, Princeton, 1984, pp. 95–8.

21 J. Jacquet, *Le Trésor de Thoutmosis Ier: étude architecturale*, Cairo, IFAO, 1983.

22 R. Fazzini and W. Peck, 'The 1982 season at Mut', NARCE 120 (Winter 1982), 44.

23 H. Larsen, 'Vorbericht über die schwedischen Grabungen in Abu Ghâlib 1932–1934', MDIAAK 6 (1935), 41–87.

24 M. Bietak, 'Tell el-Dab'a', *Archiv für Orientforschung* 32 (1985), 130–5. For a general introduction to the site, see M. Bietak, 'Avaris and Piramesse: Archaeological Exploration in the Eastern Nile Delta' (Mortimer Wheeler Archaeological Lecture 1979), *Proceedings of the British Academy* 65 (1979), 225–90).

25 Good general histories of ancient Nubia and of Egyptian involvement are W.Y. Adams, *Nubia: Corridor to Africa*, London, 1977; B.G. Trigger, *Nubia under the Pharaohs*, London, 1976; also Trigger *et al.*, op. cit., pp. 116–37; Trigger 'The reasons for the construction of the Second Cataract forts', JSSEA 12 (1982), 1–6.

26 W.B. Emery, 'Egypt Exploration Society, preliminary report on the excavations at Buhen, 1962', *Kush* 11 (1963), 116–20, deals with the Old Kingdom town at Buhen. The sherds from Kubban are in W.B. Emery and L.P. Kirwan, *The Excavations and Survey between Wadi es-Sebua and Adindan, 1929–1931*, Cairo, 1935, p. 58, Plate 14.

27 A.W. Lawrence, 'Ancient Egyptian fortifications', JEA 51 (1965), 69–94; W.B. Emery, *Egypt in Nubia*, London, 1965, pp. 141–53; B.J. Kemp, 'Fortified towns in Nubia', in P.J. Ucko, R. Tringham, and G.W. Dimbleby (eds), *Man, Settlement and Urbanism*, London, 1972, pp. 651–6.

28 W.B. Emery, H.S. Smith, and A. Millard, *The Fortress of Buhen: the Archaeological Report*, London, 1979.

29 D. Arnold and J. Settgast, 'Erster Vorbericht über die vom Deutschen Archäologischen Institut Kairo im Asasif unternommenen Arbeiten (1. und 2. Kampagne)', MDAIK 20 (1965), Abb. 2, opposite p. 50; cf. A.R. Schulman, 'The battle scenes of the Middle Kingdom', JSSEA 12 (1982), 165–83.

30 J. Knudstad, 'Serra East and Dorginarti. A preliminary report on the 1963–64 excavations of

the University of Chicago Oriental Institute Sudan Expedition', *Kush* 14 (1966), 165–78
31 G.A. Reisner and D. Dunham, 'The Egyptian forts from Halfa to Semna', *Kush* 8 (1960), 16, Plan 2; G.A. Reisner, N.F. Wheeler, and D. Dunham, *Uronarti Shalfak Mirgissa, (Second Cataract Forts II)*, Boston, 1967, Section II.
32 AEL I, pp. 118–20.
33 G.A. Reisner, D. Dunham, and J.M.A. Janssen, *Semna Kumma (Second Cataract Forts I)*, Boston, 1960, Section I.
34 ibid., Plates 17, 22.
35 ibid., Section II.
36 J. Vercoutter, 'Semna South fort and the records of the Nile levels at Kumma', *Kush* 14 (1966), 125–32.
37 A.J. Mills, 'The archaeological survey from Gemai to Dal – report on the 1965–1966 season', *Kush* 15 (1967), 206, Plate XXXVIIIb.
38 Marked on the map in J. de Morgan, U. Bouriant, G. Legrain, G. Jéquier, and A. Barsanti, *Catalogue des monuments et inscriptions de l'Egypte antique* Series I, Vol. 1, Vienna, 1894, p. 65; also more completely in J. Hawkes (ed.) *Atlas of Ancient Archaeology*, London, 1974, p. 163.
39 W.Y. Adams and H.Å. Nordström, 'The archaeological survey on the west bank of the Nile: third season, 1961–62', *Kush* 11 (1963), 23; Adams, op. cit., p. 183.
40 P.C. Smither, 'The Semnah Despatches', JEA 31 (1945), 3–10.
41 Adams, op. cit., p. 185.
42 J. Vercoutter, 'Le stèle de Mirgissa IM.209 et la localisation d'Iken (Kor ou Mirgissa?)', RdE 16 (1964), 179–91; Vercoutter, *Mirgissa* I, Paris, 1970, pp. 187–9.
43 B.J. Kemp, 'Large Middle Kingdom granary buildings (and the archaeology of administration)', ZÄS 113 (1986), pp. 120–36.
44 A. Badawy, 'Preliminary report on the excavations by the University of California at Askut (first season, October 1962–January 1963)', *Kush* 12 (1964), 47–53; Badawy, 'Askut: a Middle Kingdom fortress in Nubia', *Archaeology* 18 (1965), 124–31; Badawy, 'Archaeological problems relating to the Egyptian fortress at Askut', JARCE 5 (1966), 23–7.
45 J. Vercoutter, 'Kor est-il Iken? Rapport préliminaire sur les fouilles françaises de Kor (Bouhen sud), Sudan, en 1954', *Kush* 3 (1955), 4–19; H.S. Smith, 'Kor. Report on the excavations of the Egypt Exploration Society at Kor, 1965', *Kush* 14 (1966), 187–243; also Kemp, op. cit., 1986.
46 Reisner, Wheeler, and Dunham, op. cit., pp. 22–31, Plates XV–XIX, Map VI.

5 – الدولة الحديثة : الدولة الناضجة

1 General discussions of the role of the temple in the society of the New Kingdom and later are J.J. Janssen, 'The role of the temple in the Egyptian economy during the New Kingdom', in E. Lipiński (ed.) *State and Temple Economy in the Ancient Near East* II, Leuven, 1979, pp. 505–15; B.J. Kemp, 'Temple and town in ancient Egypt', in P.J. Ucko, R. Tringham, and G.W. Dimbleby (eds) *Man, Settlement and Urbanism*, London, 1972, pp. 657–80; J.H. Johnson, 'The role of the Egyptian priesthood in Ptolemaic Egypt', in L.H. Lesko (ed.) *Egyptological Studies in Honor of Richard A. Parker*, Hanover and London, 1986, pp. 70–84.
2 K.A. Kitchen, 'Barke', *Lexikon* I, pp. 619–25.
3 K.A. Kitchen, 'Nakht-Thuty – Servitor of sacred barques and golden portals', JEA 60 (1974), 168–174; Kitchen, *Pharaoh Triumphant: the Life and Times of Ramesses II, King of Egypt*, Warminster, 1982, p. 172.
4 G. Legrain, 'Le logement et transport des barques sacrées et des statues des dieux dans quelques temples égyptiens', BIFAO 13 (1917), 1–76, is still a valuable documentary source

on the transport of sacred boat-shrines in the New Kingdom and later.

5 B.J. Kemp, 'Fortified towns in Nubia', in Ucko, Tringham, and Dimbleby, op. cit., pp. 651–6.

6 J. Jacquet and H. Wall-Gordon, 'Un bassin de libation du Nouvel Empire dedié à Ptah. Première partie. L'architecture/A New Kingdom libation basin dedicated to Ptah. Second part. The inscriptions.' MDAIK 16 (1958), 161–75; R. Anthes, *Mit Rahineh 1956*, Philadelphia, 1965, pp. 72–5, Plates 24–5.

7 See Note 31. Another example, at the gate of the temple of Soleb in Nubia, is documented in M S Giorgini, 'Soleb, campagna 1959–60', *Kush* 9 (1961), 186, Figure 3.

8 The classic source for Nubian territories supplying an Egyptian temple is the Nauri Decree of Seti I, in favour of his temple at Abydos, see F.Ll. Griffith, 'The Abydos Decree of Seti I at Nauri', JEA 13 (1927), 193–208; W.F. Edgerton, 'The Nauri Decree of Seti I. A translation and analysis of the legal portion', JNES 6 (1947), 219–30; Sir A.H. Gardiner, 'Some reflections on the Nauri Decree', JEA 38 (1952), 24–33.

9 K. Baer, 'The low price of land in ancient Egypt', JARCE 1 (1962), 25–45, provides a good introductory discussion of sources and interpretations relevant to landholding in ancient Egypt. His comments on the Wilbour Papyrus have, however, been overtaken by subsequent articles, most recently J.J. Janssen, 'Agrarian administration in Egypt during the Twentieth Dynasty', BibOr 43 (1986), 351–66.

10 Sir A.H Gardiner and R.O. Faulkner, *The Wilbour Papyrus* I–IV, Brooklyn, 1941–52; S.L.D. Katary, 'Cultivator, scribe, stablemaster, soldier: the Late-Egyptian Miscellanies in light of P. Wilbour', *The Ancient World* 6 (1983), 71–93; Janssen, op. cit., 1986.

11 Sir A.H. Gardiner, 'Ramesside texts relating to the taxation and transport of corn', JEA 27 (1941), 37–56.

12 Discussed in J.-M. Kruchten, *Le Décret d'Horemheb*, Brussels, 1981, pp. 92–3.

13 S. Schott, *Kanais. Der Tempel Sethos I. im Wadi Mia*, Göttingen, 1961, pp. 143–59; AEL II, pp. 52–7.

14 W. Helck, 'Eine Briefsammlung aus der Verwaltung des Amuntempels', JARCE 6 (1967), 135–51. The galena mines have been located, and a small and very crudely built shrine excavated: G. Castel, J.-F. Gout, and G. Soukiassian, 'Fouilles de Gebel Zeit (Mer Rouge). Première et deuxième campagnes (1982–83)', ASAE 70 (1984–5), 99–105; G. Castel and G. Soukiassian, 'Dépôt de stèles dans le sanctuaire du Nouvel Empire au Gebel Zeit', BIFAO 85 (1985), 285–93.

15 J.J. Janssen, *Commodity Prices from the Ramessid Period*, Leiden, 1975, pp. 455–9.

16 Gardiner, op. cit., 1941, 22–37.

17 W.F. Edgerton, 'The strikes in Ramses III's twenty-ninth year', JNES 10 (1951), 144; W. Helck, *Materialien zur Wirtschaftsgeschichte des Neuen Reiches*, Mainz, 1960–4. III, pp. 267–8; IV, p. 410; Sir A.H. Gardiner, *Ramesside Administrative Documents*, London, 1948, p. 64, lines 12 to p. 65, line 4.

18 T.E. Peet, *The Great Tomb-robberies of the Twentieth Egyptian Dynasty*, Oxford, 1930, p. 12, Note 1.

19 H.H. Nelson and U. Hölscher, *Work in Western Thebes 1931–33* (Oriental Institute Communications, 18), Chicago, 1934, pp. 46–51.

20 Pictures of temple magazines and granaries are N. de G. Davies, 'The graphic work of the expedition', *Bulletin of the Metropolitan Museum of Art*, November 1929, Section II supplement, 41–9.

21 U. Hölscher, *The Mortuary Temple of Ramses III* I, Chicago, 1941, pp. 71–82.

22 BAR III, p. 113, § 274.

23 J.J. Janssen, *Two Ancient Egyptian Ship's Logs*, Leiden, 1961, esp. pp. 101–2; see also Chapter 6.

24 AEL I, pp. 215–22.

25 E. Otto, 'Amun', *Lexikon* I, pp. 237–48; D. Arnold, *Der Tempel des Königs Mentuhotep von Deir el-Bahari I. Architektur und Deutung*, Mainz, 1974, pp. 78–80; F. Daumas, 'L'origine d'Amon de Karnak', BIFAO 65 (1967), 201–14.

26 H. Brunner, *Die Geburt des Gottkönigs*, Wiesbaden, 1964. The most easily accessible set of scenes is that of Hatshepsut at Deir el-Bahari, E. Naville, *The Temple of Deir el Bahari* II, London, 1896, Plates 47–55.

27 Naville, op. cit. III, 1898, Plate LXI.

28 On Coronation Days in the New Kingdom, see Sir A.H. Gardiner, 'Regnal years and civil calendar in Pharaonic Egypt', JEA 31 (1945), 25–8; *Lexikon* VI, pp. 532–3.

29 Papyrus Leiden I.350. A.H. Gardiner, 'Hymns to Amon from a Leiden papyrus', ZÄS 42 (1905), 12–42, esp. 20–2; C.F. Nims, *Thebes of the Pharaohs: Pattern for Every City*, London, 1965, p. 69.

30 For Thebes in general see Nims, op. cit. Descriptions of Karnak appear in guide books and books on Egyptian architecture, but more detailed treatments are: P. Barguet, *Le Temple d'Amon-Rê à Karnak: essai d'exégèse*, Cairo, IFAO, 1962; J. Lauffray, *Karnak d'Egypte: Domaine du Divin*, Paris, 1979.

31 Barguet, op. cit., pp. 219–42; C.F. Nims, 'The Eastern Temple at Karnak', in *Beiträge zur ägyptischen Bauforschung und Altertumskunde* 12 (Festschrift Ricke), Wiesbaden, 1971, pp. 107–11; L. Habachi, *Features of the Deification of Ramesses II*, Glückstadt, 1969, p. 20.

32 J. Yoyotte, 'A propos de l'obélisque unique', *Kêmi* 14 (1957), 81–91.

33 Barguet, op. cit., Chapter IV and pp. 283–99; J. Lauffray, 'Le secteur nord-est du temple jubilaire de Thoutmosis III à Karnak. État des lieux et commentaire architectural', *Kêmi* 19 (1969), 179–218; F. Daumas, 'L'interprétation des temples égyptiens anciens à la lumière des temples gréco-romains', *Karnak VI (1973–1977)*, (Cairo, 1980), 261–84; G. Haeny, *Basilikale Anlagen in der aegyptischen Baukunst des Neuen Reiches*, Wiesbaden, 1970, pp. 7–17, 81–93; Lauffray, op. cit., 1979, pp. 125–31; G. Björkman, *Kings at Karnak*, Uppsala, 1971, pp. 84–90; G.A. Gaballa and K.A. Kitchen, 'The festival of Sokar', *Orientalia* 38 (1969), 1–76, esp. 27–28.

34 Barguet, op. cit., pp. 179–82.

35 M. Gitton, 'Le palais de Karnak', BIFAO 74 (1974), 63–73; D.B. Redford, 'Studies on Akhenaten at Thebes. I. A report on the work of the Akhenaten Temple Project of the University Museum, University of Pennsylvania', JARCE 10 (1973), 87–90; R.W. Smith and D.B. Redford, *The Akhenaten Temple Project* I, Warminster, 1976, Chapter 9.

36 On oracles in ancient Egypt, see J. Černý, 'Egyptian oracles', in R.A. Parker, *A Saite Oracle Papyrus from Thebes in The Brooklyn Museum*, Providence, 1962, pp. 35–48; *Lexikon* IV, pp. 600–6. The Hatshepsut text: P. Lacau and H. Chevrier, *Une chapelle d'Hatshepsout à Karnak* I, Cairo, 1977, pp. 92–153; J. Yoyotte, 'La date supposée du couronnement d'Hatshepsout', *Kêmi* 18 (1968), 85–91; Gitton, op. cit.

37 Urk IV, pp. 157–62.

38 Urk IV, p. 837.3; see Björkman, op. cit., pp. 86–7.

39 D.B. Redford, *Akhenaten, the Heretic King*, Princeton, NJ, 1984, Chapter 7.

40 F. Laroche-Traunecker, 'Données nouvelles sur les abords du temple de Khonsou', *Karnak VII (1978–1981)*, (Cairo, 1982), 313–38, esp. 315.

41 Sir A.H. Gardiner, 'Tuthmosis III returns thanks to Amūn', JEA 38 (1952), 20–3; B. Cumming, *Egyptian Historical Records of the Later Eighteenth Dynasty* I, Warminster, 1982, p. 12

42 Nelson and Hölscher, op. cit., pp. 24–5.

43 W. Wolf, *Das schöne Fest von Opet*, Lepzig, 1931; *Lexikon* IV, pp. 574–9.

44 L. Bell, 'Luxor temple and the cult of the royal *ka*', JNES 44 (1985), 251–94.

45 Sir A.H. Gardiner, 'The coronation of King Ḥaremḥab', JEA 39 (1953), 13–31; R. Hari,

Horemheb et la reine Moutnedjemet, Geneva, 1964, pp. 208–16.

46 H.H. Nelson, 'The identity of Amon-Re of United-with-Eternity', JNES 1 (1942) 127–55.

47 R. Stadelmann, '*Šwt-R'w* als Kultstätte des Sonnengottes im Neuen Reich', MDAIK 25 (1969), 159–78; B. Lesko, 'Royal mortuary suites of the Egyptian New Kingdom', AJA 73 (1969), 453–8.

48 G. Foucart, 'Études thébaines. La Belle Fête de la Vallée', BIFAO 24 (1924), 1–209; S. Schott, *Das schöne Fest vom Wüstentale*, Wiesbaden, 1952; Kitchen, op. cit., 1982, p. 169.

49 W.J. Murnane, *United with Eternity: a Concise Guide to the Monuments of Medinet Habu*, Chicago and Cairo, 1980, pp. 76–7; *Lexikon* III, pp. 1256–8.

50 R. Stadelmann, 'Tempel und Tempelnamen in Theben-Ost und -West', MDAIK 34 (1978), 171–80.

51 R. Stadelmann, 'Tempelpalast und Erscheinungsfenster in der Thebanischen Totentempeln', MDAIK 29 (1973), 221–42.

52 Murnane, op. cit., p. 70.

53 Stadelmann, op. cit., 1973; B.J. Kemp, 'The Window of Appearance at El-Amarna, and the basic structure of this city', JEA 62 (1976), 81–99.

54 J.-M. Kruchten, op. cit., pp. 162–77, 199–200; J.-M. Kruchten 'Rétribution de l'armée d'après le décret d'Horemheb', in *L'égyptologie en 1979: axes prioritaires de recherches*, II (Colloques Internationaux du Centre National de la Recherche Scientifique, no. 595), Paris, 1982, pp. 144–8.

55 Stadelmann, op. cit., 1973.

56 The source material is conveniently listed in E. Hornung and E. Staehelin, *Studien zum Sedfest* (Aegyptiaca Helvetica 1), Basel and Geneva, 1974, pp. 33–6. See also W.J. Murnane, 'The Sed Festival: a problem in historical method', MDAIK 37 (1981), 369–76.

57 W. Stevenson Smith, *The Art and Architecture of Ancient Egypt*, 2nd edn, Harmondsworth, 1981, pp. 282–95; W.C. Hayes, 'Inscriptions from the Palace of Amenhotep III', JNES 10 (1951), 35–56, 82–111, 156–83, 231–42; B.J. Kemp and D.B. O'Connor, 'An ancient Nile harbour. University Museum excavations at the "Birket Habu"', *International Journal of Nautical Archaeology and Underwater Exploration* 3 (1974), 101–36.

58 The Epigraphic Survey, *The Tomb of Kheruef* (Oriental Institute Publications 102), Chicago, 1980, Plate 28, p. 43.

59 It is interesting to note that the earliest depiction of a *Sed*-festival element – the king seated on a high throne beneath a tent – occurs on one of the boats in the Hierakonpolis Decorated Tomb, see Figure 11, p. 40. However, we cannot be sure that a *Sed*-festival is meant. In depictions of the Early Dynastic Period and at the Step Pyramid boat imagery is absent.

60 The Epigraphic Survey, op. cit., Plates 56, 57, pp. 59–61.

61 The most important comparative source would have been the king's mortuary temple, of which little now survives. The *Sed*-festival fragments are published in G. Haeny, *Untersuchungen im Totentempel Amenophis' III*, Wiesbaden, 1981, Taf. 40–2. The Soleb temple scenes, LD III, Bl. 83, 84, also contain no reflection of the Kheruef scenes, although the ritual door-knocking is also a new element in the repertoire.

62 The Epigraphic Survey op. cit., Plates 42, 44, pp. 49–51.

63 A good general review of New Kingdom palaces is in Stevenson Smith, op. cit., Chapters 15 and 17.

64 As mentioned on the king's boundary stelae. For a discussion of royal tenting, see B.J. Kemp, 'A building of Amenophis III at Kôm El-'Abd', JEA 63 (1977), 77–8.

65 A.H. Gardiner (ed.) *The Wilbour Papyrus* II, Brooklyn and Oxford, 1948, p. 18; Kruchten, op. cit., 1981, 111–12.

66 R.A. Caminos, *Late Egyptian Miscellanies*, London, 1954, pp. 198–201.

67 Gardiner, op. cit., 1948, p. 18; Helck, op. cit., 1960–4, p. 235=1017.

68 U. Hölscher, *Das Grabdenkmal des Königs Chephren*, Leipzig, 1912, pp. 81–3, 86–7, Blatt XV, Abb. 75; Ahmed Bey Kamal, 'Rapport sur les fouilles du comte de Galarza', ASAE 10 (1910), 116–17. See also the aerial photograph in H. Ricke, *Der Harmachistempel des Chefren in Giseh* (Beiträge zur ägyptischen Bauforschung und Altertumskunde 10), Wiesbaden, 1970, Frontispiz. A staircase probably belonging to this palace is illustrated in Taf. 3, cf. p. xii.

69 Kemp, op. cit., 1977, 71–82.

70 A convenient plan is A. Badawy, *A History of Egyptian Architecture: The Empire (the New Kingdom)*, Berkeley and Los Angeles, Calif., 1968, p. 53, Fig. 29; see also D.G. Jeffreys, *The Survey of Memphis* I, London, 1985, pp. 15, 19–20, Fig. 63.

71 B.J. Kemp, 'The Harîm-Palace at Medinet el-Ghurab', ZÄS 105 (1978), 122–33.

72 A. de Buck, 'The Judicial Papyrus of Turin', JEA 23 (1937), 152–64.

73 Stevenson Smith, op. cit., pp. 278–81; P. Lacovara, 'Archaeological survey of Deir el-Ballas', NARCE 113 (Winter 1980), 3–11; Lacovara, 'Archaeological survey and excavation at Deir el-Ballas 1985', NARCE 129 (Spring 1985), 17–29; Lacovara, 'The Hearst Excavations at Deir el-Ballas: the Eighteenth Dynasty town', in W.K. Simpson and W.M. Davis (eds) *Studies in Ancient Egypt, the Aegean and the Sudan: Essays in Honor of Dows Dunham*, Boston, 1981, pp. 120–4.

74 W. Spiegelberg, *Rechnungen aus der Zeit Setis I*, Strassburg, 1896; Helck, op. cit., 1960–4, IV, pp. 633–41; A.J. Spalinger, 'Baking during the reign of Seti I', BIFAO 86 (1986), 307–52.

75 E.F. Campbell, *The Chronology of the Amarna Letters*, Baltimore, 1964. For samples of the style of the letters, see A.L. Oppenheim, *Letters from Mesopotamia*, Chicago, 1967, pp. 119–34. Each letter has its own modern identifying number and the prefix EA.

76 A.R. Schulman, 'Diplomatic marriage in the Egyptian New Kingdom', JNES 38 (1979), 177–93.

77 K.A. Kitchen, *Suppiluliuma and the Amarna Pharaohs*, Liverpool, 1962, p. 14.

78 The classic case is that of the Inscription of Mes, summarized in Kitchen, op. cit., 1982, pp. 128–9.

79 A.R. Schulman, *Military Rank, Title and Organization in the Egyptian New Kingdom*, Berlin, 1964; Y. Yadin, *The Art of Warfare in Biblical Lands*, London, 1963, provides a good illustrated summary of Egyptian military technology of the period.

80 Kruchten, op. cit., 1981, pp. 82–95, 162–77, also note 54 above.

81 'Militärkolonie', *Lexikon* IV, p. 135; D.B. O'Connor, 'The geography of settlement in ancient Egypt', in Ucko, Tringham, and Dimbleby, op. cit., p. 695. The land at the heart of the dispute in the Inscription of Mes provides another example.

82 The military background to the Amarna Period is discussed by A.R. Schulman, 'Some observations on the military background of the Amarna Period', JARCE 3 (1964), 51–69. On Horemheb's origins, see A.R. Schulman, 'The Berlin "Trauerrelief" (No. 12411) and some officials of Tut'ankhamūn and Ay', JARCE 4 (1965), 58–61. Subsequently Horemheb came to be regarded as the inaugurator of a new era: see A.K. Phillips, 'Horemheb, founder of the XIXth Dynasty? O. Cairo 25646 reconsidered', *Orientalia* 46 (1977), 116–21. For the origins of the 19th Dynasty, see Kitchen, op. cit., 1982, pp. 15–18; E. Cruz-Uribe, 'The father of Ramses I: OI 11456', JNES 37 (1978), 237–44. A. Kadry, 'The social status and education of military scribes in Egypt during the 18th Dynasty', *Oikumene* (Budapest) 5 (1986), 155–62, is also valuable.

83 In Papyrus Anastasi II and Papyrus Sallier I, see Caminos, 1954, pp. 51, 317.

84 *Lexikon* II, pp. 1241–9.

85 C. Aldred, 'More light on the Ramesside Tomb Robberies', in J. Ruffle, G.A. Gaballa, and K.A. Kitchen, *Glimpses of Ancient Egypt; Studies in Honour of H.W. Fairman*, Warminster, 1979, pp. 92–9.

1 For economic anthropologists and historians Polanyi's work remains a landmark in the formulation of concepts, even though specific case studies show that Polanyi has not supplied a set of ground rules for the full understanding of past economies. A detailed discussion of Polanyi's work, with biographical and bibliographical notes, is 'Symposium: economic anthropology and history: the work of Karl Polanyi', *Research in Economic Anthropology* 4 (1981), 1–93 (translated from *Annales: économies, sociétés, civilisations*, December 1974). A more recent discussion of Polanyi's general significance is R.H. Halperin, 'Polanyi, Marx, and the institutional paradigm in economic anthropology', *Research in Economic Anthropology* 6 (1984), 245–72. A case study critical of the Polanyi approach in an area crucial to Polanyi's arguments is B.M. Perinbam, 'Homo Africanus: antiquus or oeconomicus? Some interpretations of African economic history', *Comparative Studies in Society and History* 19 (1977), 156–78.

2 Three contributions which particularly prompted this chapter are R. Müller-Wollermann, 'Warenaustausch im Ägypten des Alten Reiches', JESHO 28 (1985), 121–68; J. Renger, 'Patterns of non-institutional trade and non-commercial exchange in ancient Mesopotamia at the beginning of the second millennium B.C.: Part I. Some remarks on Karl Polanyi's conception of marketless trading and the study of ancient economies', in A. Archi (ed.) *Circulation of Goods in Non-palatial Context in the Ancient Near East* (Incunabula Graeca, LXXXII), Rome, 1984, pp. 31–73. Egypt is dealt with on pp. 52–8; E. Bleiberg, 'The king's privy purse during the New Kingdom: an examination of *inw*', JARCE 21 (1984), 155–67, esp. 155–6. Behind these publications, however, stands the cogent and thoughtful work of J.J. Janssen, including: 'Prolegomena to the study of Egypt's economic history during the New Kingdom', SAK 3 (1975a), 127–85; 'Die Struktur der pharaonischen Wirtschaft', GM 48 (1981), 59–77; *Commodity Prices from the Ramessid Period*, Leiden, 1975b, Part III.

3 E.g. the Abusir Papyri for the Old Kingdom: P. Posener-Kriéger, *Les Archives du temple funéraire de Néferirkarê-Kakaï* (Bibliothèque d'Etude LXV), Cairo, 1976; P. Posener-Kriéger, 'Les papyrus d'Abousir et l'économie des temples funéraires de l'Ancien Empire', in E. Lipiński (ed.) *State and Temple Economy in the Ancient Near East* I, Leuven, 1979, pp. 133–51; and a newly discovered group, P. Posener-Kriéger, *Mélanges Gamal Eddin Mokhtar* (=Bibliothèque d'Etude 97/2), Cairo, 1985, pp. 195–210; Posener-Kriéger, 'Les nouveaux Papyrus d'Abousir', JSSEA 13 (1983), 51–7; for the Middle Kingdom and Lahun/Kahun Papyri: L. Borchardt, 'Der zweite Papyrusfund von Kahun und die zeitliche Festlegung des mittleren Reiches der ägyptischen Geschichte', ZÄS 37 (1899), 89–103; F.Ll. Griffith, *Hieratic Papyri from Kahun and Gurob*, London, 1898; and Papyrus Bulaq 18: A. Scharff, 'Ein Rechnungsbuch des königlichen Hofes aus der 13. Dynastie. (Papyrus Boulaq Nr. 18)', ZÄS 57 (1922), 51–68; A.J. Spalinger, 'Notes on the day summary accounts of P. Bulaq 18 and the intradepartmental transfers', SAK 12 (1985), 179–241; for the New Kingdom the Memphite palace accounts from the reign of Seti I: W. Spiegelberg, *Rechnungen aus der Zeit Setis I*, Strassburg, 1896; Spalinger, 'Baking during the reign of Seti I', BIFAO 86 (1986), 307–352. Also the texts published by A.H. Gardiner, 'Ramesside texts relating to the taxation and transport of corn', JEA 27 (1941), 19–73; M. Megally, *Le Papyrus hiératique comptable E.3226 du Louvre*, Cairo, 1971; *Recherches sur l'économie, l'administration et la comptabilité égyptiennes à la XVIIIᵉ dynastie d'après le papyrus E.3226 du Louvre*, Cairo, 1977; Janssen, op. cit., 1975a, 166–70.

4 A. Badawy, *A History of Egyptian Architecture: the Empire (the New Kingdom)*, Berkeley and Los Angeles, Calif., 1968, pp. 119–23, 128–47; B.J. Kemp, 'Large Middle Kingdom granary buildings (and the archaeology of administration)', ZÄS 113 (1986), 120–36.

5 Cf. B.G. Trigger, B.J. Kemp, D.B. O'Connor, and A.B. Lloyd, *Ancient Egypt: a Social History*, Cambridge, 1983, pp. 85ff.; B.J. Kemp, 'Temple and town in ancient Egypt', in P.J. Ucko,

R. Tringham, and G.W. Dimbleby (eds) *Man, Settlement and Urbanism*, London, 1972, pp. 657–80; Janssen, op. cit., 1975a, 180–2; J.J. Janssen, 'The role of the temple in the Egyptian economy during the New Kingdom', in Lipiński, op. cit., pp. 505–15; H. Goedicke, 'Cult-temple and "state" during the Old Kingdom in Egypt', in ibid. I, pp. 113–31; J.H. Johnson, 'The role of the Egyptian priesthood in Ptolemaic Egypt', in L.H. Lesko (ed.) *Egyptological Studies in Honor of R.H. Parker*, Hanover and London, 1986, pp. 70–84.

6 'Phyle', *Lexikon* IV, p. 1044; P. Posener-Kriéger, op. cit., 1979, II, pp. 565–74.

7 J.-M. Kruchten, *Le Décret d'Horemheb*, Brussels, 1981. It has also been pointed out that 'The duties of the vizier' text known from several New Kingdom tombs, whilst it has an internal logic of association which enables it to achieve its purpose of profiling the importance of the vizier, lacks the systematic presentation of the vizier's duties that we ourselves tend to expect of such a text. See G.P.F. Van den Boorn, 'On the date of "The Duties of the Vizier"', *Orientalia* N.S. 51 (1982), 369–81.

8 E.g. the autobiography of Weni, AEL I, p. 21; A.A.M.A. Amer, 'Tutankhamun's decree for the Chief Treasurer Maya', RdE 36 (1985), 18–20.

9 N. de G. Davies, *The Tomb of Rekh-mi-rē' at Thebes*, New York, 1943, pp. 32–6, 103–6, Plates XXIX–XXXV.

10 F. Ll. Griffith, 'The Abydos Decree of Seti I at Nauri', JEA 13 (1927), 193–206; Sir A.H. Gardiner, 'Some reflections on the Nauri Decree', JEA 38 (1952), 24–33; W.F. Edgerton, 'The Nauri Decree of Seti I. A translation and analysis of the legal portion', JNES 6 (1947), 219–30.

11 Elephantine: JEA 13 (1927), 207–8; Armant: R. Mond and O.H. Myers, *Temples of Armant*, London, 1940, p. 161; Hermopolis: H. Brunner, 'Das Fragment eines Schutzdekretes aus dem Neuen Reich', MDIAAK 8 (1939), 161–4.

12 H. Goedicke, *Königliche Dokumente aus dem Alten Reich*, Wiesbaden, 1967.

13 E.g. R.A. Caminos, *Late-Egyptian Miscellanies*, London, 1954, pp. 17–20, 273–5, 280–93, 325–8, 454–64.

14 Beni Hasan: J. Garstang, *The Burial Customs of Ancient Egypt*, London, 1907, esp. Plates III, IV; also B.J. Kemp, 'Egypt' in J. Hawkes (ed.) *Atlas of Ancient Archaeology*, London, 1974, p. 151; Naga ed-Deir: G.A. Reisner, *A Provincial Cemetery of the Pyramid Age: Naga-ed-Dêr, Part III*, Oxford, 1932; D.B. O'Connor, 'Political systems and archaeological data in Egypt: 2600–1780 BC' *World Archaeology* 6 (1974), 22–3.

15 Serious political intrigue amongst these locally powerful men is hinted at in the 6th Dynasty letter from Elephantine published by P.C. Smither 'An Old Kingdom letter concerning the crimes of Count Sabni', in JEA 28 (1942), 16–19. For the politics of the First Intermediate Period, see F. Gomaà, *Ägypten während der Ersten Zwischenzeit* (Beihefte TAVO B27), Wiesbaden, 1980.

16 For Ankhtify, see J. Vandier, *Mo'alla: la tombe d'Ankhtifi et la tombe de Sébekhotep*, Cairo, 1950; W. Schenkel, *Memphis, Herakleopolis, Theben*, Wiesbaden, 1965, pp. 45–57; Gomaà, op. cit., pp. 38–9; similar claims by other men of the time are conveniently translated in AEL I, pp. 87–90.

17 G. Brunton, *Qau and Badari* I, II, London, 1927, 1928; G. Brunton, *Mostagedda*, London, 1937; G. Brunton, *Matmar*, London, 1948; D.B. O'Connor, *World Archaeology* 6 (1974), 24–7.

18 D.B. O'Connor, 'A regional population in Egypt to circa 600 BC', in B. Spooner (ed.) *Population Growth: Anthropological Implications*, Cambridge, Mass., and London, 1972, pp. 78–100.

19 Brunton, op. cit., 1927, p. 76.

20 T.G.H. James, *The Hekanakhte Papers and Other Early Middle Kingdom Documents*, New York, 1962; K. Baer, 'An Eleventh Dynasty farmer's letters to his family', JAOS 83 (1963), 1–19; T.G.H. James, *Pharaoh's People: Scenes from Life in Imperial Egypt*, London, 1984, pp 113–14,

242–7; U. Luft, 'Illahunstudien, III: zur sozialen Stellung des Totenpriesters im Mittleren Reich', *Oikumene* (Budapest) 5 (1986), 150–3.

21 Baer, op. cit., 12; cf. Luft, op. cit., 150.

22 Baer, op. cit., 19.

23 ibid., 16–17.

24 W. Helck, 'Wirtschaftliche Bemerkungen zum privaten Grabbesitz im Alten Reich', MDAIK 14 (1956), 63–75; 24. W. Helck, *Wirtschaftsgeschichte des Alten Ägypten im 3. und 2. Jahrtausend vor Chr.*, Leiden, 1975, Chapter 8. These sources also boast of private provision of elements for one's tomb.

25 J.J. Janssen and P.W. Pestman, 'Burial and inheritance in the community of the necropolis workmen at Thebes (Pap. Bulaq X and O. Petrie 16)', JESHO 11 (1968), 137–70.

26 Caminos, op. cit., *passim*.

27 S.R.K. Glanville, 'The letters of Aaḥmōse of Peniati', JEA 14 (1928), 294–312; James, op. cit., 1984, pp. 172–5. Papyrus BM10102

28 H.E. Winlock, *Models of Daily Life in Ancient Egypt*, New York, 1955, Section IV.

29 B.J. Kemp, 'The city of el-Amarna as a source for the study of urban society in ancient Egypt', *World Archaeology* 9 (1977), 123–39; P. Crocker, 'Status symbols in the architecture of El-Amarna', JEA 71 (1985), 52–65; C. Tietze, 'Amarna. Analyse der Wohnhäuser und soziale Struktur der Stadtbewohner', ZÄS 112 (1985), 48–84.

31 T.E. Peet, *The Great Tomb-robberies of the Twentieth Egyptian Dynasty*, Oxford, 1930.

32 H. Frankfort, and J.D.S. Pendlebury, *The City of Akhenaten* II, London, 1933, pp. 59–61. Plate XLIII. For the Hittite figurine, and a discussion of the circumstances of the find and its significance, see M. Bell, 'A Hittite pendant from Amarna', AJA 90 (1986), 145–51.

33 James, op. cit., 1984, p. 186, and Plate 11 (top).

34 Müller-Wollermann, op. cit., 163–4.

35 A. Lucas and J.R. Harris, *Ancient Egyptian Materials and Industries*, 4th edn, London, 1962, pp. 59–61; I.M.E. Shaw, 'A survey at Hatnub', in B.J. Kemp, *Amarna Reports* III, London, 1986, Chapter 10.

36 As is regularly done today by Egyptian Antiquities Organization guards responsible for Hatnub. The journey time is about three hours in each direction.

37 Dorothea Arnold, 'Ägyptische Mergeltone ("Wüstentone") und die Herkunft einer Mergeltonware des Mittleren Reiches aus der Gegend von Memphis', in D. Arnold (ed.) *Studien zur altägyptischen Keramik*, Mainz, 1981, pp. 167–91; P. Nicholson and H. Patterson, 'Pottery making in Upper Egypt: an ethnoarchaeological study', *World Archaeology* 17 (1985), 222–39.

38 G. Caton-Thompson and E.W. Gardner, *The Desert Fayum*, London, 1934, Chapters XXIII–XXVI.

39 *Lexikon* IV, pp. 197–8, 358; cf. Janssen, op. cit., 1975a, 163.

40 On foreign trade discussed from an archaeological background see R.S. Merrillees, *The Cypriote Bronze Age Pottery Found in Egypt*, Lund, 1968, pp. 173f., also 194; B.J. Kemp and R.S. Merrillees, *Minoan Pottery in Second Millennium Egypt*, Mainz, 1980, pp. 276 ff.

41 P.E. Newberry, *Beni Hasan* I, London, 1893, p. 69, Plates XXX, XXXI, XXVIII, XXXVIII; J.R. Harris, *Lexicographical Studies in Ancient Egyptian Minerals*, Berlin, 1961, pp. 174–6; W. Helck, *Die Beziehungen Ägyptens zu Vorderasien im 3. und 2. Jahrtausend v.Chr.*, 2nd edn, Wiesbaden, 1971, pp. 41–2. H. Goedicke, 'Abi-Sha(i)'s representation at Beni Hasan', JARCE 21 (1984), 203–10 argues against the view that the Asiatics were a trading mission at all, on two basic grounds: that galena was available to the Egyptians a lot closer (Red Sea hills deposits), and that it is an improbable route for Asiatics from Moab to have taken first to the eastern delta and then on to Beni Hasan. The first point, however, has little validity. If Asiatics were bringing galena this would have represented an easier source for the

Egyptians than gaining it by direct exploitation from the Red Sea margins, a dangerous area for Nile Valley dwellers. Furthermore the New Kingdom provides explicit references to galena from western Asia. Second, people living in south-east Palestine could have taken a route across central Sinai, perhaps via the Wadi el-Arish, to the head of the Gulf of Suez, so avoiding the likely Egyptian controls over access into the eastern delta. From here to Middle Egypt involves following the Red Sea coast southwards to the Wadi Araba, which provides a relatively easy journey to the Nile in the vicinity of Beni Suef. Beni Suef itself was outside Khnumhetep's own nome, but one can argue that the exercise recorded in his tomb portrayed his jurisdiction over the desert routes feeding into this key zone of Middle Egypt. Khnumhetep's role may have been to offer to these routes the same kind of control over immigration that others exercised over the eastern delta and the Second Cataract in Nubia.

42 Janssen, op. cit., 1975b; James, op. cit., 1984, Chapter 9. For the stone weights, see D. Valbelle, *Catalogue des poids à inscriptions hiératiques de Deir el-Médineh. Nos. 5001–5423*, Cairo, 1977; M. Cour-Marty, 'La collection de poids du Musée du Caire revisitée', RdE 36 (1985), 189–200.

43 ibid., 1975b, 9.

44 ibid., pp. 180–4.

45 Janssen, op. cit., 1975b, 292–8.

46 ibid., Chapter 2. For unrest blamed on hunger in the later Ramesside Period, see C.J. Eyre, 'A "strike" text from the Theban necropolis', in J. Ruffle, G.A. Gaballa, and K.A. Kitchen (eds) *Orbis Aegyptiorum Speculum: Glimpses of Ancient Egypt: Studies in Honour of H.W. Fairman*, Warminster, 1979, pp. 80–91. For Libyan raiders as another cause of Theban disruption, see K.A. Kitchen, 'Les suites des guerres libyennes de Ramsès III', RdE 36 (1985), 177–9.

47 Whether the well-known 'bank' (*mryt*) of western Thebes where trading and other activities took place was really by the river, or a different kind of place using the word 'bank' metaphorically, remains to be determined. See J. Černý, *A Community of Workmen at Thebes in the Ramesside Period*, Cairo, 1973, pp. 94–7, for the basic references.

48 N. de G. Davies, *Two Ramesside Tombs at Thebes*, New York, 1927, Plate XXX; James, op. cit., 1984, pp. 250–2, Fig. 25.

49 The jar on the left is fitted with a right-angled drinking tube, particularly used with beer, cf. James, op. cit., 1984, p. 252.

50 N. de G. Davies and R.O. Faulkner, 'A Syrian trading venture to Egypt', JEA 33 (1947), 40–6; James, op. cit., 1984, pp. 253–6. Fig. 26.

51 Frankfort and Pendlebury, op. cit., p. 19, Plate XXXIII.3 (House U.36.41).

52 A. Moussa and H. Altenmüller, *Das Grab des Nianchchnum und Chnumhotep*, Mainz, 1977, pp. 84–5, Taf. 24, Abb. 10; Müller-Wollermann, op. cit., 138ff.; James, op. cit., 1984, pp. 254–8, Fig. 27; cf. also S.I. Hodjash and O.D. Berlev, 'A market-scene in the mastaba of *Ḏ3ḏ3-m-ʿnḫ (Tp-m-ʿnḫ)*', *Altorientalische Forschungen* 7 (1980), 31–49.

53 For Old Kingdom cattle prices expressed in terms of vases of oil, see B. Vachala, 'A note on prices of oxen in Dynasty V', ZÄS 114 (1987), 91–5.

54 J.J. Janssen, 'Kha'emtore, a well-to-do workman', *OMRO* 58 (1977), 221–32; Janssen, op. cit., 1975b, pp. 533–8; E.S. Bogoslovsky, 'Hundred Egyptian draughtsmen', ZÄS 107 (1980), 89–116.

55 J.J. Janssen, 'The water supply of a desert village', *B Medelhavsmuseet* 14 (1979), 9–15; Janssen, op. cit., 1975b, pp. 448–9.

56 B.J. Kemp, *Amarna Reports* I–IV, London, 1984–7.

57 J.J. Janssen, *Two Ancient Egyptian Ship's Logs*, Leiden, 1961, pp. 101–4; James, op. cit., 1984, 247–8.

58 Papyrus Lansing 6.9–7.1 = Caminos, op. cit., p. 390; cf. Janssen, op. cit., 1961, p. 103.

59 Caminos, op. cit., p. 138; also the trader returning from Syria in ibid., p. 16 = Papyrus Bologna 1094, 5.5–5.6.

60 T.E. Peet, 'The unit of value *š'ty* in Papyrus Bulaq 11', *Mélanges Maspero* I, Cairo, 1934, pp. 185–99; Janssen, op. cit., 1975a, 162; James, op. cit., 1984, 260–1.
61 B.J. Kemp, 'The Window of Appearance at El-Amarna, and the basic structure of this city', JEA 62 (1976), 81–99; D.B. Redford, *A Study of the Biblical Story of Joseph (Genesis 37–50)*, Leiden, 1970, pp. 208–226; R.W. Smith and D.B. Redford, *The Akhenaten Temple Project* I, Warminster, 1976, pp. 123–34.
62 Davies, op. cit., 1943, pp. 32–6, 103–6, Plates XXIX–XXXV.

7 – مصر فى عالم مصغر: مدينة العمارنة

1 The most complete edition of one of the most elaborately decorated tombs is A Piankoff and N. Rambova, *The Tomb of Ramesses VI*, New York, 1954. See also the article by A. Piankoff discussing these compositions in connection with the Amarna Period, 'Les grandes compositions religieuses du Nouvel Empire et la réforme d'Amarna', in BIFAO 62 (1964), 121–8.
2 Like Nakht-djehuty, builder extraordinary of sacred boats, see p. 185 and Note 3. He is one of a list of famous men in a tomb at Sakkara, K.A. Kitchen, 'Nakht-Thuty – servitor of sacred barques and golden portals', JEA 60 (1974), 172, Note 11.
3 For this and other didactic teachings see AEL I.
4 The literature on the Amarna Period is extensive. General surveys are C. Aldred, *Akhenaten, King of Egypt*, London, 1988; C. Aldred, *Akhenaten and Nefertiti*, New York, 1973; D.B. Redford, *Akhenaten, the Heretic King*, Princeton, NJ, 1984; D.B. Redford, *History and Chronology of the Eighteenth Dynasty of Egypt*, Toronto, 1967, Chapters 5 and 6; F.J. Giles, *Ikhnaton: Legend and History*, London, 1970; H.A. Schlögl, *Echnaton-Tutanchamun: Fakten und Texte*, Wiesbaden, 1983; R. Hari, *New Kingdom Amarna Period: the Great Hymn to Aten* (Iconography of Religions, Section XVI: Egypt, fasc. 6), Leiden, 1985; A.M. Blackman, 'A study of the liturgy celebrated in the Temple of the Aton at El-Amarna', in *Recueil d'études égyptologiques dédiées à la mémoire de Jean-François Champollion* (Bibliothèque de l'Ecole des Hautes Etudes, 234), Paris, 1922, pp. 505–27.
5 A. Piankoff, *The Litany of Re*, New York, 1964.
6 AEL II, pp. 89–100.
7 Conveniently translated in ANET, pp. 365–7.
8 J. Wilson, 'Akh-en-aton and Nefert-iti', JNES 32 (1973), 235–41.
9 On Tutankhamun's parentage, see J.D. Ray, 'The parentage of Tutankhamūn', *Antiquity* 49 (1975), 45–7; E.S. Meltzer, 'The parentage of Tut'ankhamun and Smenkhkarē'', JEA 64 (1978), 134–5; J. Vandier, 'Toutânkhamon, sa famille, son règne', *Journal des savants* (1967), 67–91.
10 R. Anthes, *Die Maat des Echnaton von Amarna* (Supplement to JAOS 14, April–June 1952).
11 See Aldred, op. cit., 1973; also C. Desroches-Noblecourt, *Monuments et mémoires* (Foundation Eugène Piot) 59 (1974), 1–44. See also the references cited in W. Stevenson Smith, *The Art and Architecture of Ancient Egypt*, 2nd edn, Harmondsworth, 1981, p. 461, Note 302.
12 N. de G. Davies, *The Rock Tombs of El-Amarna* V, London, 1908; AEL II, pp. 48–51. An important field collation of these texts has been carried out by W.J. Murnane, who has established the date of the earlier proclamation as being Akhenaten's fifth regnal year, not his fourth. See 'The El-Amarna Boundary Stelae Project: a preliminary report', NARCE 128 (Winter 1984), 40–52.
13 *Lexikon* VI, pp. 812–16.
14 J. Bennett, 'The Restoration Inscription of Tut'ankhamūn', JEA 25 (1939), 8–15; ANET, pp. 251–2.

15 In the Inscription of Mes, see G.A. Gaballa, *The Memphite Tomb-Chapel of Mose*, Warminster, 1977, p. 25; and in a 19th Dynasty letter, A.H. Gardiner, 'A later allusion to Akhenaten', JEA 24 (1938), 124.

16 *Lexikon* VI, pp. 309–19; C. Aldred, 'El-Amarna', in T.G.H. James (ed.) *Excavating in Egypt The Egypt Exploration Society 1882–1982*, London, 1982, pp. 89–106. The principal excavation reports are W.M.F. Petrie, *Tell el Amarna*, London, 1894; L. Borchardt and H. Ricke, *Die Wohnhäuser in Tell el-Amarna*, Berlin, 1980; T.E. Peet and C.L. Woolley, *The City of Akhenaten* I, London, 1923; H. Frankfort and J.D.S. Pendlebury, *The City of Akhenaten* II, London, 1933;

J.D.S. Pendlebury, *The City of Akhenaten* III, London, 1951. Current work is summarized in the series B.J. Kemp *et al.*, *Amarna Reports* (London 1984–). See also H.W. Fairman, 'Town planning in Pharaonic Egypt', *Town Planning Review* 20 (1949), 32–51; A. Badawy, *A History of Egyptian Architecture: The Empire (the New Kingdom)*, Berkeley and Los Angeles, Calif., 1968, pp. 76–126; B.J. Kemp, 'The city of el-Amarna as a source for the study of urban society in ancient Egypt', *World Archaeology* 9 (1977), 123–39; Kemp, 'The character of the South Suburb at Tell el-'Amarna', MDOG 113 (1981a), 81–97.

17 *Lexikon* I, p. 601; K.W. Butzer, 'Archäologische Fundstellen Ober- und Mittelägyptens in ihrer geologischen Landschaft', MDAIK 17 (1961), 62–5, Abb. I. See also D. Kessler, *Historische Topographie der Region zwischen Mallawi und Samalut* (Beihefte TAVO B30), Tübingen, 1981.

18 The most informed estimates are bound to be very approximate. See the discussions in K. Baer, 'The low price of land in ancient Egypt', JARCE I (1962), 39–45; Fekri A. Hassan, 'Environment and subsistence in predynastic Egypt', in J.D. Clark and S.A. Brandt (eds) (*c.* 1984) *From Hunters to Farmers: the Causes and Consequences of Food Production in Africa*, Berkeley and Los Angeles, Calif., *c.* 1984, pp. 57–64, esp. p. 63.

19 Summarized in Redford, op. cit.; 1984, 134–6. See also Ramadan Saad and L. Manniche, 'A unique offering list of Amenophis IV recently found at Karnak', JEA 57 (1971), 70–2; W. Helck, 'Zur Opferliste Amenophis' IV', JEA 59 (1973), 95–9.

20 A reasonably complete edition is N. de G. Davies, *The Rock Tombs of El-Amarna* I–VI, London, 1903–8.

21 G. Roeder, *Amarna-Reliefs aus Hermopolis*, Hildesheim, 1969; R. Hanke, ibid. (Hildesheim 1978); J.D. Cooney, *Amarna Reliefs from Hermopolis in American Collections*, Mainz, 1965.

22 For the royal cemetery see G.T. Martin, *The Royal Tomb at El-'Amarna* I, London, 1974; Aly el-Khouly and G.T. Martin, *Excavations in the Royal Necropolis at El-'Amarna 1984*, Cairo, 1987. The suggestion that the unfinished annexe was for Nefertiti is also Martin's, see *The Illustrated London News* 269, no. 6998 (September 1981), 66–7.

23 Petrie, op. cit., pp. 4–5, Plate XXXV; Davies, op. cit., II, pp. 5–6, Plate I; IV, p. 11, Plate XIII; P. Timme, *Tell el-Amarna vor der deutschen Ausgrabung im Jahre 1911*, Leipzig, 1917, pp. 24ff., and maps.

24 Kemp *et al.*, I–IV; B.J. Kemp, 'The Amarna Workmen's Village in retrospect', JEA 73 (1987), 21–50.

25 A final publication of the Egypt Exploration Society's North City excavations is in progress. For preliminary reports, see J.D.S. Pendlebury, 'Preliminary report of excavations at Tell el-'Amarnah, 1931–2', JEA 17 (1931), 240–3; Pendlebury, 'Preliminary report of the excavations at Tell el-'Amarnah, 1931–2', JEA 18 (1932), 143–5; T. Whittemore, 'The excavations at El-'Amarnah, season 1924–5', JEA 12 (1926), 3–12; M. Jones, 'Preliminary report on the El-'Amarna expedition, 1981–2. Appendix I: the North City', JEA 69 (1983), 15–21.

26 F.G. Newton, 'Excavations at El-'Amarnah, 1923–24', JEA 10 (1924), 294–8; Whittemore, op. cit., 4–9; H. Frankfort (ed.) *The Mural Painting of El-'Amarneh*, London, 1929, Chapter III.

27 The Central City is fully published in Pendlebury, op. cit., 1951.

28 See the additional discussions, E.P. Uphill, 'The Per Aten at Amarna', JNES 29 (1970), 151–66; J. Assmann, 'Palast oder Tempel? Überlegungen zur Architektur und Topographie von Amarna', JNES 31 (1972), 143–55.

29 See the additional discussions, A. Badawy, 'The symbolism of the temples at 'Amarna', ZÄS 87 (1962), 79–95; P. Barguet, 'Note sur le grand temple d'Aton à el-Amarna', RdE 28 (1976), 148–51.

30 For an alternative reconstruction, see Kemp *et al.*, IV, Chapter 8.

31 This sequence was determined during the 1987 season of fieldwork, and is to be published in Kemp *et al.*, V.

32 B.J. Kemp, 'The Window of Appearance at El-Amarna, and the basic structure of this city', JEA 62 (1976), 91–2; R. Stadelmann, 'Tempelpalast und Erscheinungsfenster in den Thebanischen Totentempeln', MDAIK 29 (1973), 221–42.

33 Pendlebury, op. cit., 1951, pp. 140–2.

34 P. Ermitage 1116 A, verso, line 118: W. Golénischeff, *Les Papyrus hiératiques NoNo 1115, 1116A et 1116B de l'Ermitage Impérial à St-Pétersbourg*, Moscow, 1913, Plate XIX, line 118.

35 F.Ll. Griffith, 'Stela in honour of Amenophis III and Taya, from Tell el-'Amarnah', JEA 12 (1926), 1–2.

36 Peet and Woolley, op. cit., pp. 109–24; A. Badawy, 'Maru-Aten: pleasure resort or temple?', JEA 42 (1956), 58–64.

37 See Note 19. The Amarna fragment is briefly described by F.Ll. Griffith, 'Notes on Egyptian weights and measures', PSBA 15 (1893), 306. I owe this reference to Dr A. Spalinger.

38 Badawy, op. cit., 1962, has argued for a calendric symbolism behind the designs of the Aten temples at Amarna. Even if one accepts his arguments – and they lie on the difficult borderline between interpretation and invention – they do not provide for the major celebrations of the solar year.

39 E. Uphill, 'The Sed-Festivals of Akhenaten', JNES 22 (1963), 123–7;

40 Davies, op. cit., II, pp. 38–43, Plates XXXVIII–XL, III, 9–12, Plates XIII–XV; cf. also Pendlebury, op. cit., 1951, pp. 22–5, 208–10.

41 Frankfort and Pendlebury, op. cit., Chapter V.

42 EA16: 43ff. The passage is translated in I.J. Gelb, B. Landsberger, and A.L. Oppenheim (eds) *The Assyrian Dictionary* 16 (Ṣ), Chicago and Glückstadt, 1962, p. 152b(f); also Redford, op. cit., 1984, p. 235.

43 On the Window of Appearances, see U. Hölscher, *Excavations at Ancient Thebes 1930–31* (Oriental Institute Communications, 15), Chicago, 1932, pp. 23–8; Kemp, op. cit., 1976, 81–99; R.W. Smith and D.B. Redford, *The Akhenaten Temple Project* I, Warminster, 1976, pp. 123–32.

44 For the bakery identification, see B.J. Kemp, 'Preliminary report on the El-'Amarna survey, 1978', JEA 65 (1979), 7–12; also Kemp *et al.*, I, p. 31; IV, Chapter 9.

45 See Chapter 5, Note 74.

46 Davies, op. cit., IV, pp. 23–4.

47 R. Ventura, 'On the location of the administrative outpost of the community of workmen in Western Thebes', JEA 73 (1987), 149–60.

48 Kemp *et al.*, V, Chapter 1.

49 ibid., III, Chapter 6; IV, Chapter 9.

50 Davies, op. cit., IV, Chapter 3.

51 Building P49.16, Borchardt and Ricke, op. cit., pp. 279–80, Plan 92.

52 Kemp *et al.*, II, Chapter 5.

53 The main excavation reports on Amarna, and most books on Egyptian architecture, illustrate 'typical' houses. A vivid account based on a modern architect's model is S. Lloyd, 'Model of a Tell el-'Amarnah house', JEA 19 (1933), 1–7; also C. Tietze, 'Amarna. Analyse

der Wohnhäuser und soziale Struktur der Stadtbewohner', ZÄS 112 (1985), 48–84; Tietze, 'Amarna (Teil III). Analyse der ökonomischen Beziehungen der Stadtbewohner', ZÄS 113 (1986), 55–78.

54 Kemp *et al.*, III, Chapter 1. A valuable discussion of the artistic evidence for reconstructing Egyptian town houses is H.A. Assaad, 'The house of Thutnefer and Egyptian architectural drawings', *The Ancient World* 6 (1983), 3–20.

55 P.T. Crocker, 'Status symbols in the architecture of El-ʿAmarna', JEA 71 (1985), 52–65; Tietze, op. cit. 1985 and 1986.

56 Labib Habachi, *Features of the Deification of Ramesses II*, Glückstadt, 1969.

57 T.E. Peet, 'Two letters from Akhetaten', *Annals of Archaeology and Anthropology* (Liverpool) 17 (1930a), 82–97. For the Aten as an element in private names see V. Condon, RdE 35 (1984), 57–82.

58 Pendlebury, op. cit., 1951, pp. 10, 12, 188–9, Plate LX.5–8; H. Frankfort, 'Preliminary report on the excavations at Tell el-ʿAmarnah, 1926–7', JEA 13 (1927), 210, Plate XLVI.

59 See Note 24.

60 Davies, op. cit., V, pp. 9–11. A man of the same name and title was commemorated in hieratic in two pieces of stone found in the Central City (Pendlebury, op. cit., 1951, p. 189).

61 A good selection is illustrated in Frankfort and Pendlebury, op. cit., Plate XXXV.

62 Borchardt and Ricke, op. cit., pp. 111–12, Plan 28.

63 ibid., p. 222, Plan 64; S. Seidlmayer, 'Zu einigen Architekturinschriften aus Tell el-Amarna', MDAIK 39 (1983), 204–6.

64 Peet and Woolley, op. cit., p. 25. The original field notebook lists parts of two figurines rather than just one.

65 G. Pinch, 'Childbirth and female figurines at Deir el-Medina and el-ʿAmarna', *Orientalia* 52 (1983), 405–14.

66 Kemp, 'Wall paintings from the Workmen's Village at El-ʿAmarna', JEA 65 (1979), 47–53; Kemp *et al.*, III, p. 25.

67 Kemp, 'Preliminary report on the El-ʿAmarna expedition, 1980', JEA 67 (1981b), 14–16; Kemp *et al.*, IV, pp. 136, 139.

68 D. Valbelle, 'Eléments sur la démographie et le paysage urbains, d'après les papyrus documentaires d'époque pharaonique', in *Sociétés urbaines en Egypte et au Soudan* (Cahier de Recherches de l'Institut de Papyrologie et d'Egyptologie de Lille, 7), Lille, 1985, pp. 75–87, summarizes the basic documentation available, including the ancient census lists from Deir el-Medina, although it has to be remembered that the specialized character of this community could well have led to an atypically small presence of adult males.

69 The first is in Kemp, op. cit., 1981a; the second in J.J. Janssen, 'El-Amarna as a residential city', BibOr 40 (1983), 273–88.

70 Borchardt and Ricke, op. cit., pp. 87–100, Plan 27; R. Hanke, 'Bildhauerwerkstätten in Tell el-Amarna', *MDOG* 110 (1978), 43–8; R. Krauss, 'Der Bildhauer Thutmose in Amarna', *Jahrbuch Preussischer Kulturbesitz* 20 (1983), 119–32.

71 T.E. Peet, *The Great Tomb-robberies of the Twentieth Egyptian Dynasty*, Oxford, 1930b, pp. 93–102.
Cf. C. Aldred, 'More light on the Ramesside tomb robberies', in J. Ruffle, G.A. Gaballa, and K.A. Kitchen (eds) *Glimpses of Ancient Egypt: Studies in Honour of H.W. Fairman*, Warminster, 1979, pp. 92–9.

72 Omitting the one householder without a title.

73 For a recent discussion of the various levels of meaning attached to this word, see J.J Janssen, *BibOr* 43 (1986), 351–66.

74 Perhaps the now partly filled and swampy remains of Amenhetep III's great basin, the Birket Habu, see Chapter 5.

75 For Hekanakht see the references in Note 20, Chapter 6. On his household see D. Franke, *Altägyptische Verwandtschaftsbezeichnungen im Mittleren Reich*, Hamburg, 1983, pp. 231, 275.
76 It must be remembered that it was no mere bureaucratic exercise but part of a major criminal investigation which involved intensive questioning and searching.
77 Kemp *et al.*, V, Chapter 2.
78 Detailed calculations of silo size are given in Tietze, op. cit., 1986, 67–74. The conclusions on the numbers of people supported are, however, vitiated by failure to include the incalculable additional quantities of grain stored in the rectangular granaries which some large houses preferred.
79 K A. Kitchen, *Pharaoh Triumphant: the Life and Times of Ramesses II, King of Egypt*, Warminster, 1982, pp. 128–9.
80 Sir A.H. Gardiner, 'A protest against unjustified tax-demands', RdE 6 (1951), 115–24.
81 P. Anastasi IV, cited in R.A. Caminos, *Late-Egyptian Miscellanies*, London, 1954, pp. 137–8.
82 T.G.H. James, *Pharaoh's People: Scenes from Life in Imperial Egypt*, London, 1984, Chapter 4, covers well the rural ideal that lay so deeply within Egyptian consciousness.
83 See Note 85 below, Note 81, Chapter 5, and especially also D.B. O'Connor, 'The geography of settlement in ancient Egypt', in P.J. Ucko, R. Tringham, and G.W. Dimbleby (eds) *Man, Settlement and Urbanism*, London, 1972, pp. 681–98, esp. pp. 691–5.
84 Sir A.H. Gardiner and R.O. Faulkner, *The Wilbour Papyrus* I–IV, The Brooklyn Museum, Brooklyn, 1941–52; also Baer, op. cit.; O'Connor, op. cit.; S.I..D. Katary, 'Cultivator, scribe, stablemaster, soldier: the Late Egyptian Miscellanies in light of P. Wilbour', *The Ancient World* 6 (1983), 71–93; Janssen, op. cit., 1986.
85 Sir W.M.F. Petrie and G. Brunton, *Sedment* II, London, 1924, Chapters VII, VIII.
86 K.P. Kuhlmann, 'Der Felstempel des Eje bei Akhmim', MDAIK 35 (1979), 165–88.
87 Peet, op. cit., 1930a.
88 Known from the famous texts of Hapdjefa, see Chapter 3, Note 21.
89 See the diagram in Kemp, op. cit., 1977, 132, Fig. 4.
90 P. Anastasi IV, cited in Caminos, op. cit., pp. 164–5.
91 Crocker, op. cit.
92 Conveniently translated by J. Bennett, 'The Restoration Inscription of Tut'ankhamūn', JEA 25 (1939), 8–15; also Schlögl, op. cit., 85–8.

8 - خاتمة : بدءاً من العصر البرونزي

1 K.A. Kitchen, *Pharaoh Triumphant: the Life and Times of Ramesses II, King of Egypt*, Warminster, 1982. The other two books are Claire Lalouette, *L'Empire des Ramsès*, Paris, 1985; Franco Cimmino, *Ramesses II il grande*, Milan, 1984.
2 Adams, W.Y., *Nubia: Corridor to Africa*, London, 1977.

المؤلف

بارى ج. كيمب محاضر علم المصريات فى جامعة كمبردج ببريطانيا . وهو المدير الميدانى لحفائر جمعية استكشاف مصر بالعمارنة .

المترجم

يعمل حالياً رئيساً لقسم الترجمة بمجلة «كل الناس» . وهو حاصل على ليسانس الآداب من قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب - جامعة القاهرة سنة 1973 ودبلوم الدراسات العليا فى الترجمة سنة 1987 من نفس الكلية . ترجم كتب «الناس فى صعيد مصر» (دار عين) و«طريق الحرير» و«عالم ماك : المواجهة بين التأقلم والعولمة» و«التراث المغدور : اغتيال ماضى البوسنة» و«العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية» ، مشاركة مع نورا أمين (والكتب الأربعة ضمن المشروع القومى للترجمة) . وله ترجمات فى الدوريات الثقافية ومنها «وجهات نظر» و«الثقافة العالمية» و«الديمقراطية» ، وله تحت الطبع كتاب «آخر خبر : فى كواليس الصحف» (دار الشروق) . والمترجم عضو اتحاد الكتاب المصرى ونقابة الصحفيين ، وحاصل على جائزة محمد بدران (1998) لأفضل كتاب مترجم عن «طريق الحرير» .

محتويات الكتاب

مقدمة المؤلف 3

الجزء الأول : تأسيس الهوية

الفصل الأول - الأسس الفكرية للدولة المبكرة 23

الفصل الثانى - ديناميكيات الثقافة 69

الجزء الثانى : الدولة الممولة

الفصل الثالث - العمل البيروقراطى 117

الفصل الرابع - مجتمعات نموذجية 147

الجزء الثالث : إرهاصات مستقبلنا

الفصل الخامس - مصر الدولة الحديثة : الدولة الناضجة 193

الفصل السادس - مولد الإنسان الاقتصادى 245

الفصل السابع - مصر فى عالم مصغر : مدينة العمارنة 283

خاتمة - بدءاً من العصر البرونزى 349

اللوحات والأشكال 355

الهوامش 477

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت . حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت · عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت · أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت · مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت . محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوييا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
لذة النَّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت · رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
وسم السيف	ميجيل دى ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
هوية فرنسا	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار ڤاليط	ت : رشيد بنحدو
السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : د. أشرف على دعدور

صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبـة	ت : محمد عبد الله الجعيدى
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت . منى قطان
المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت . إكرام يوسف
راية التمرد	سادى پلانت	ت . أحمد حسان
مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيئل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
منكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

(تحت الطبع)

الشعر الأمريكى المعاصر
الجانب الدينى للفلسفة
الولاية
المدارس الجمالية الكبرى
مختارات من الشعر اليونانى الحديث
بارسيفال
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل
عدالة الهنود
جان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
غرام الفراعنة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)
التجربة الإغريقية : حركة الاستعمار والصراع الاجتماعى
العنف والنبوءة
خسرو وشيرين
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)
وضع حد
التليفزيون فى الحياة اليومية
أنطوان تشيخوف
من المسرح الإسبانى المعاصر

خطبة الإدانة الطويلة
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
حكايات ثعلب
شامبوليون (حياة من نور)
الحورية الهاربة
الإسلام فى السودان
العربى فى الأدب الإسرائيلى
آلة الطبيعة
ضحايا التنمية
المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر
أيديولوجى
تاريخ الكنيسة
فن الرواية
ما بعد المعلومات
الورقة الحمراء
موت أرتميد كروث
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
المهلة الأخيرة
الهيولية تصنع علمًا جديدًا
قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى
مدرسة فرانكفورت نشأتها ومغزاها

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٠٥٥ / ١٩٩٩

Ancient Egypt
Anatomy of Civilization

BARRY J. KEMP

"تشريح حضارة" كتاب أفكاره غير عادية. وما فيه من آراء تتسم بالجدة يقدمها باحث اقترب بشدة من العديد من المواقع الأثرية في مصر. ولا تنبع قيمة هذا الكتاب من مقاربة باري كيمب الجديدة لهذه الفسيفساء الثرية التي تشكل الحياة في مصر القديمة وحسب، بل كذلك من هذا القدر الكبير من الأدلة التي يسوقها هنا وهناك، تدعيماً لما يقدمه من محاجات.

وهذه الدراسة لمصر القديمة تعد تركيبة صحية تجمع بين المحاجة العلمية والخيال. وهي أول دراسة في علم المصريات تعثر على طريقة مُرضية للإبحار في تيار تاريخ الفن المصري الذي احتفظت أعماله الفنية وعمارته بروح عصر ما قبل الأسرات، رغم انتمائها الواضح إلى تواريخ عديدة في عصر الأسرات.

ويتسم هذا الكتاب بغزارة معلوماته، وإثارته للقضايا، وحث من يقرؤه على التفكير. وهو مع ذلك مفهوم للقارئ العام الذي يبحث عن أفضل عرض أكاديمي للحضارة المصرية.

ويقدم "تشريح حضارة" إعادة تقييم شامل للمجتمع المصري كتبه باري كيمب من منظور أركيولوجي يقوم على أدلة الحفائر الحديثة وإعادة تأويل ما سبق الوصول إليها من آثار. كما يستكشف باري كيمب القوى الكبرى التي شكلت الحضارة المصرية، كالأسطورة السياسية والأيديولوجيا، ووسائل الحكم الكاريزمي، إلى جانب آثار التجربة السياسية والاقتصادية على الناس.